قُدوة الحُكّام والمُصلِحين

عُمر بن عبد العزيز

مجدِّداً ومُصلِحاً

أو

التصحيحات الماليّة لعُمر بن عبد العزيز وأثرها في بيت المال وفي الأمّة من ٩٩ الى ١٠١ هـ

تأليف

الدكتور محمّد صِدّيق بن أحمد البُورنو الغزّي

الأستاذ المُشارك

بجامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة

مكتبة المعارف

الرياض

قُدوة الحكّام والمُصلِحين

عُمر بن عبد العزيز

مجدِّدًا ومُصلِحًا

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى
١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

مكتبة المعارف - ص.ب: ٣٢٨١ - هاتف ٤١١٤٥٣٥/ ٤١١٣٣٥٠
الرياض

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا
الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ
وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ

الْحَجّ ٤١

الإهداء

إلى كل من أراد الوصول إلى الحق والسير
بالأمة إلى طريق الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا.

والصلاة والسلام على من أرسله الله هاديا للبشرية ومخرجا إياها من ظلمات الضلال وتيه العمى إلى نور اليقين ومأمن الهداية ومن عبادة العباد إلى عبادة الله.

أما بعد،

الأمة الإسلامية مرتبطة بالعقيدة

فإنَّ أمتنا العربية الإسلامية عاشت تاريخها مرتبطة بعقيدتها مسوقة بإيمانها، تراها تارة يغمرها الضياء الإيماني فتعيش في سناه ضاربة أروع الأمثلة في السمو الأخلاقي والارتقاء الوجداني والسموق الحضاري والعمراني، وتراها تارة أخرى تنحرف عن الجادة وتميل عن صراط الله المستقيم تعيش في غبش من الضلال غير منقطعة الصلة بإيمانها كجواد أرخى طِوَلُه(١) فعاث كما يشاء وهو يظن أنَّه أفلت من يد قائده، فتهبط الأمُّة إذ ذاك في وهدة من الانحلال الأخلاقي والهبوط الوجداني والانهيار الحضاري والعمراني، ويجعل الله بأسها بينها شديدا، و يسلط عليها شرارا من خلقه فينتقصوها من أطرافها و يؤذوها في دنياها.

القائد المجدد

ولكن الله عز وجل الذي اختار هذه الأمة لقيادة البشرية سرعان ما يرسل لها من يشد طِوَلَها و يقصر من حبلها و يردها الى الجادة ويحملها على

---

١ ــ الطول: حبل تشد به قائمة الدابة وتمسك طرفه وترسلها ترعى. القاموس ١/٤.

الطريق. و يرسل لها على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها و يقودها الى الصراط و يبعدها عن بنيات الطريق تصديقا لقول رسوله صلى الله عليه وسلم: **«إنَّ الله تعالى يبعث لهذه الأُمّة على رأس كل مائة سنة من يجدد لهادينها»**(١).

موضوع الكتاب

وفي موضوع كتابي هٰذا مثل رائد من أروع الأمثلة دلالة على صفاء عنصر هذه الأُمّة وخلوص معدنها وسرعة رجوعها الى الجادة إذا وجدت رائدا يقودها على السواء غير منحرف بها ولا ضال معها فهي تسير معه تتبع ظله وترتفع به من حضيض وهدتها آخذة طريقها الى السمو الإيماني الذي أراد الله لها.

صاحب هذه التجربة

وصاحب تجربتنا هذه رجل له في قلوب المسلمين ونفوسهم مكانة قل أن وصل أو يصل إليها خليفة أو ملك حاشا الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم ــ وهو خامسهم ــ ولا زال المسلمون ولن يزالوا وسيبقون مدى الأعصار المتطاولة يذكرونه كلما ذكر بالإكبار والإجلال والدعاء له بالرحمة والمغفرة، ذلكم هو **عمر بن عبد العزيز** صاحب هذه التجربة الرائدة في هذا المجال ومجدد المائة الأُولى من تاريخ الاسلام. إذ استطاع بقوة إيمانه وعمق يقينه وصفاء نفسه ونقاء سريرته ومثالية ورعه وزهده وشدة خوفه من الله عز وجل، استطاع أن يضع يده على موطن الداء من هذه الأُمّة بعد أن استشرى وظن نُطُس(٢) الأطباء أنَّ المريض لن يشفى، فوضع يده على موطن الداء منها واستل جرثومته بيد بيضاء نقية، فعوفى المريض و بدا كأصح ما يكون في فترة من عمر الزمن قصيرة.

---

١ ــ الحديث رواه ابو داود والحاكم والبيهقي في المعرفة عن ابي هريرة وهوحديث صحيح. الجامع الصغير ١/٧٩.

٢ ــ نُطُس ج. نَطِس: العالِم. القاموس ٢/٢٦٤.

فكان عمله بحق رائدا لكل من أراد الله أن يفتح بصيرته من الحكام والولاة فيرتفعوا بهذه الأُمة و ينهضوا بها من عثرتها و يردوها الى الصراط المستقيم الذي انحرفت عنه منذ مئات السنين، حتى ظن الجاهلون أنّه طريقها القويم وصراطها المستقيم، وحتى اعتقد كثير من المخلصين أن هذه الأُمّة لن تعود الى سالف مجدها، ولا يمكن أن تنزع عن غوايتها إذ استمرأت[1] المرعى الوبيل[2] واستطابت الدنس الخبيث، وحتى رأى كثيرون ممن تولوا أمْر هذه الأُمة في كثير من فترات حياتها أنه يستحيل عليهم أن يعودوا بهذه الأُمّة إلى رشدها بل رأوا أنه يستحيل على هذه الأُمّة أن تعود إلى طريقها القويم بعد انحراف طال أمده.

رائد الحكام

ففي هذه التجربة ــ موضوع الكتاب ــ رد على كل ذلك و بيان أن هذه الأُمّة تحمل في ثنايا ضعفها بذرة قوتها ونواة فتوتها.

ميزة هذه الأمة

وشخصية عمر بن عبد العزيز بمكانتها العظيمة هذه لها جوانب مشرقة مضيئة قلما استطاع انسان أنْ يلم بها بله أنْ يحيط بها، وفي كتابي هذا أحاول أنْ ألم إلماماً مبسطا بقدر الإمكان بجانب واحد من جوانب هذه الشخصية الفذة في تاريخنا العظيم، وهو جانب السياسة المالية لعمر بن عبد العزيز ونظرة عمر إلى المال وإصلاحاته وتصحيحاته في ذلك المجال، وأثر ذلك في بيت المال إيراداً وإصداراً وأثر ذلك في الأُمّة.

الجانب المقصود بالكتاب

والدافع الجوهري في اختياري هذا الموضوع لكتابي هذا أنني رأيت أن أشد ما ابتليت به أمّتنا في عصورها المتأخرة انحرافها اقتصاديا وماليا وارتباطها ماديا بأنظمة كافرة شرقية أو غربية تبيح ما حرم الله وتحرم ما أحل الله، وحتى أصبحت أمتنا أسيرة اقتصاديا ــ مع غناها ووفرة

دافع الاختيار

---

١ ــ استمرأت وجدته مريئاً اى هنيئا طيبا.

٢ ــ الوبيل: الوخيم القاموس ٤/٦٤.

ثرواتها ــ في أيدي كنزة المال من اليهود وأشياعهم، وما يتبع ذلك الأسر الاقتصادي من انحلال أخلاقي وتفسخ اجتماعي وانهيار حكمى يستضىء بظلام الغرب في سيطرته على مقدرات هذه الأُمَّة.

فإلى كل حاكم مؤمن يعترف بالله ربا ومحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا و بالإسلام دينا و بالقرآن كتابا حاكما و بالسنة المطهرة بيانا شافيا، إلى كل هؤلاء أقدم هذه التجربة الرائدة لعلها تكون تذكرة وموعظة ونورا على درب التصحيح مستهديا بقوله عز وجل: «**وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ**»(١).

هذا جهدى فما كان من صواب فمن الله و بدليلاه، وما كان من خطأ فمنى وأستغفر الله.

والله أسأل التوفيق والهداية والنفع، وأن يجعل عملى هذا خالصا لوجهه الكريم. وأن ينفع به كل من «**كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ**»(٢).

---

١ ــ سورة الطور الآية ٥٥.

٢ ــ سورة ق الآية ٣٧.

الباب الأوَّل ــ تمهيد وتحديد

الفصل الاوَّل ــ أضواء على عمر بن عبد العزيز

المبحث الاوَّل: عمر بن عبد العزيز ترجمة ونسب

«إنَّ من ولدى رجلا بوجهه أثر يملأ الأرض عدلا»(١)

عمر بن الخطاب

هو أبو حفص عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبى العاص ابن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف(٢) وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضى الله عنه(٣).

فراسة في محلها

يقول رواة السير: إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه نهى في خلافته عن مذق اللبن ــ (أى خلطه) بالماء، فخرج ذات ليلة في حواشى المدينة ــ (أى أطرافها) ــ فإذا بامرأة تقول لابنتها: ألا تمذقين لبنك فقد أصبحت؟ فقالت الجارية: كيف أمذق وقد نهى أمير المؤمنين عن المذق؟ فقالت الأم: قد مذق الناس فامذقى فما يدرى أمير المؤمنين. فقالت الجارية: إن كان عمر لا يعلم فإله عمر يعلم، ما كنت لأفعله وقد نهى عنه. فوقعت مقالتها من عمر، فلما أصبح دعا عاصما ابنه. فقال: يابنى اذهب إلى موضع كذا وكذا فاسأل عن الجارية ووصفها له، فذهب عاصم فإذا هي جارية من بنى هلال. فقال عمر له: اذهب يابنى فتزوجها فما أحراها أن تأتي بفارس يسود العرب. فتزوجها عاصم بن عمر. فولدت له أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب فتزوجها عبد العزيز بن مروان بن الحكم فأتت بعمر بن عبد العزيز(٣). واستيقظ عمر

---

١ ــ ابن عبد الحكم ٢٠، فوات الوفيات ١/٢٥٧، والنجوم الزاهرة ٢/٢٤٦.

٢ ــ العقد الفريد ٤/٤٣٢، الكامل ٤/٥٩، الطبقات ٥/٢٤٢، وابن الجوزى ص٥.

٣ ــ ابن عبد الحكم ١٩ــ٢٠، ابن الجوزي ٦ــ٧.

ابن الخطاب من نومه ذات مرة فمسح النوم عن وجهه وعرك عينيه وهو يقول: من هذا الذي من ولد عمر يسمى عمر يسير بسيرة عمر؟ يرددها مرات(١).

وعمر بن عبد العزيز هو أشج بنى مروان وعادلهم وخامس الخلفاء الراشدين. عاش أكثر أيامه في المدينة(٢).

مولده

وقد اختلف في مكان مولده وزمانه على أقوال عدة، ولكن أرجحها أنَّه ولد بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام سنة ستين للهجرة عام توفى معاوية أو بعدها بسنة(٣).

و يقال إنه ولد بحلوان ــ قرية بمصر ــ سنة إحدى ــ وقيل ثلاث ــ وستين(٤). والأوَّل أصح تاريخيا لأن أباه عبد العزيز بن مروان إنما تولى مصر سنة خمس وستين للهجرة بعد استيلاء مروان بن الحكم عليها من يد عامل عبد الله بن الزبير رضى الله عنه، فولى عليها ابنه عبد العزيز، ولم يعرف لعبد العزيز بن مروان إقامة بمصر قبل ذلك، وإنما كانت إقامته و بنى مروان في المدينة حتى أخرجوا منها قبيل موقعة الحرة ثم عادوا إليها بعد انتصار مسلم بن عقبة واستباحة المدينة، ثم أخرجوا منها مرة أخرى بعد أن استتب الأمر لابن الزبير فخرجوا إلى الشام حيث بايع الناس مروان ابن الحكم جد عمر(٢).

وعاش عمر أكثر أيامه في المدينة وتتلمذ على فقهائها وعلمائها(٦).

---

١ ــ ابن عبد الحكم ٢٠.

٢ ــ حلية الاولياء ٥/٥٢٦.

٣ ــ ابن عبد الحكم ٢٠، فوات الوفيات ٢/٢٥٧، والنجوم الزاهرة ١/٢٤٦.

٤ ــ تاريخ الخلفاء ٢٢٨ وابن الجوزى ص٥.

٥ ــ الطبرى ٨/٣٥ حوادث سنة ٦٥.

٦ ــ الكامل لابن الاثير ٥/٥٢٦.

ولما انتقل أبوه الى مصر بقى هو في المدينة عند أخواله فتأدب بها فكان يختلف إلى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود يسمع منه(١).

تدريب على المسئولية

و بعد أن مات أبوه عبد العزيز (سنة ٨٤ أو ٨٥هـ) أخذه عبد الملك ابن مروان عمه إلى دمشق وزوجه ابنته فاطمة(٢) وولاه خناصرة(٣).

ولما تولى الوليد بن عبد الملك الخلافة بعد أبيه أرسله إلى المدينة واليا على الحجاز(٤)، وكان مقصده من ذلك محو الذكرى السيئة التي خلفها الوالي الذي كان قبل عمر، واسترضاء لأهل المدينة، ووثّق عمر بن عبد العزيز صلته بالعلماء الذين اشتغلوا بكتابة العلم و بعلم الحديث ــ وكان علم الحديث قد ازدهر هناك ــ ولم يكن يضايقه أنْ ينتقد علماء المدينة أساليب حكومة الأمويين خصوصا أساليب الحجاج وكان من أثر ذلك أن صار أهل الفتنة والشقاق من أهل العراق يلجأون الى الحجاز ــ (هم الهاربون من ظلم الحجاج) ــ فلم يرض الحجاج عن ذلك بطبيعة الحال، فسعى حتى عزل عمر بن عبد العزيز عن المدينة(٥).

ولاية المدينة وشروط عمر

ولما كتب إليه الوليد بولاية المدينة أبطأ عن الخروج إليها ــ لأنه كان يعلم ما أصاب أهلها من هشام بن إسماعيل المخزومي ــ فأرسل إليه الوليد يسأله ما باله لا يخرج إلى عمله؟ فرجع إليه الرسول يقول: زعم عمر أن له إليك ثلاث حوائج. فقال الوليد: عجله عليَّ: فلما جاء قال: أن أباك ولّى من كان قبلي فأنا لا أحب أن تأخذني بعمل أهل العدوان والظلم. فلم ير الوليد إلا أن يقبل لأنه يريد رضا أهل المدينة، فقال لعمر:

بشائر العدالة

---

١ ــ فوات الوفيات ٢/٢٠٧ وابن الجوزي ٨، ٩.

٢ ــ تاريخ الدولة العربية ٢٥٩.

٣ ــ الخليفة الزاهد ٣٤ عن زين العابدين ص٧٦.

٤ ــ ابن الجوزي ٣٢.

٥ ــ الدولة العربية ٢٥٨.

اعمل بالحق وإن لم ترفع إلينا إلا درهما واحدا(١). قال ابن الجوزى: فقال (أى الراوى): والحج، وأشك في العطاء [أى إمارة الحج وزيادة العطاء لأهل المدينة].

مجلس الشورى

ولما وصل المدينة كوّن مجلسا من الفقهاء يستشيرهم وهم: سليمان بن يسار وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث ابن هشام المخزومي، وخارجة بن زيد بن ثابت الانصاري والقاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق، وسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب وعروة ابن الزبير، وأبو بكر سليمان بن خيثمة، وعبد الله بن عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عامر بن ربيعة(٢).

ترف مع عفة وعدالة

وسار في الناس بأحسن سيرة وكان مع ذلك يعصف ريحه و يرخى شعره و يسبل إزاره و يتبختر في مشيته، وهومع ذلك لا يغمص ــ (لا يطعن) ــ عليه في بطن ولا فرج ولا حكم(٣). وكان عمر بن عبد العزيز من أعظم أموى ترفها وتملكا غذى بالملك ونشأ فيه لا يعرف إلاّ وهو تعصف ريحه فتوجد رائحته في المكان الذي يمر فيه، ويمشى مشية تسمى العمرية فكان الجواري يتعلمنها من حسنها و يتبخترن فيها.

بعض مظاهر ترفه وسرفه

وكان يسبل إزاره حتى ربما دخلت نعله فيه فيتحامل عليه فيشقه ولا يخلعها و يسقط أحد شقى ردائه عن منكبه فلا يرفعه، وتنقطع نعله فلا يعرج عليها وربما لحقه بها المملوك فيعنفه ــ وفي رواية فيعتقه ــ و يطبع بخاتمه فتتسخ الطينة من العنبر، فلم يزل على ذلك حتى وُلِّيَ الخلافة فزهد في الدنيا ورفضها(٤).

---

١ ــ الاسلام والحضارة ١٧٤ وابن الجوزي ٣٢ــ٣٣.

٢ ــ الطبقات ٢٤٥ــ٢٤٦/٥ الاخبار الطوال ٣٢٦ ابن الجوزي ٣٢.

٣ ــ ابن عبد الحكم ٢١.

٤ ــ ابن عبد الحكم ٢٢.

وكان عطاؤه في زمن عبد الملك ألف دينار،وجاء المدينة وكان ثقله على ثلاثين بعيرا(١). وحينما تزوج فاطمة بنت عبد الملك أو لم فأسرج في مسارجة تلك الليلة الغالية ــ أى المسك ــ(٢). وعزل عن المدينة سنة ثلاث وتسعين بتأثير من الحجاج فلحق بدمشق ناصحا للخليفة وصادعا بالحق وكانت له مكانته في بلاط الوليد لمكانة زوجته أخت الوليد ولكنه كان كثيرا ما ينتقد أعمال الوليد حتى غضب عليه يوما فطين عليه وأنقذ بعد ثلاث وقد مالت عنقه وأوشك على الهلاك(٣).

في سبيل الحق

ولما تولى سليمان عبد الملك جعله من بطانته ومستشارا له فخفف وجوده معه كثيرا من المظالم. وحينما أدركت سليمان الوفاة عهد اليه بالخلافة(٤)، بتأثير من رجاء بن حيوة(٥) على غير رغبة من المروانيين.

يوم فاصل

فكان يوم توليه الخلافة حدا فاصلا بين حياتين: حياة دنيا وترف ونعيم وحياة آخرة وزهد وتقشف وشظف عيش وخوف من الله عز وجل، أصعد المنبر يوم تولى وكأنه رجل يساق إلى الإعدام وقام بالخلافة كأن القيامة قد قامت ونصب الميزان، كانت النار كأنها لم تخلق إلا له، وخوفه من الله يحيط به من جميع نواحيه. وكانت صورة جده العظيم ــ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ــ في قلبه وسيرته تملأ عليه جوانح صدره منه يستلهم أسلوبه في سياسته للناس ومن سيرته يأخذ طريقه في سياسة المال والاقتصاد.

وكان رائده في كل خطوة يخطوها إقامة دعائم العدل وترسيخ قواعدها وحمل نفسه وأهله والناس عليها.

---

١ ــ الكامل ٢/٥٢٦ اليعقوبي ١/٢٨٤.

٢ ــ عيون الاخبار ١/٣٠٤.

٣ ــ ابن الجوزى ٢٤٨ والمحاسن والمساوىء ٢/٣٠٨.

٤ ــ ابن الجوزى ٤٧ فما بعدها.

٥ ــ رجاء بن حيوة بن جندل الكندى من صلحاء الشام وعلمائهم كان ينزل الاردن وكان ثقة عالماً فاضلا. الطبقات جـ٨ ص١٦١.

مدة خلافته

وتولى الخلافة في ٢٠ صفر سنة ٩٩هـ وتوفي يوم الجمعة ٢٠ رجب سنة ١٠١ وله تسع وثلاثون سنة. وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر وخمسة أيام(١).

وقيل سنتين وأربعة أشهر و بعض شهر لم يستكمل كانت كلها خيرا على الأمة والإسلام(٢). وقد اشترى موضع قبره بعشرين دينارا، وقيل بعشرة دنانير(٣)، وقيل بدينارين(٤). ودفن بدير سمعان من أعمال حمص(٥).

ومات رضى الله عنه وعمره تسع وثلاثون سنة وستة أشهر وقيل إنَّه بلغ الأربعين(٦). مكث في الخلافة سنتين و بضعة أشهر ــ كما رأينا ــ عاشتها الأمَّة الإسلامية من حدود الصين الى جبال البيرانيه الفاصلة بين أسبانيا وفرنسا ــ في أعياد روحية يظلها جميعا العدل والحق في رعاية خليفة ــ أعاد للخلافة الراشدة جدَّتها ــ هَمُّ أبعد إنسان في هذه الدولة المترامية الأطراف كَهَمِّ أقربهم إليه نفساً ومكاناً. في رعاية خليفة يرى أنَّ لأدنى هذه الأمة في مالها من الحق أكثر مما يراه لنفسه فيه. أجاع نفسه وأهله ليشبع الناس، وأعرى نفسه وأهله ليكتسى الناس، وأتعب نفسه وأهله ليرتاح الناس، وأخاف نفسه ليأمن الناس، فكان الناس همه وراحة الرعية أمله وشغله ليله ونهاره حتى لقى الله ومات يوم مات وليس عنده سوى أربعة عشر دينارا(٧) رحمه الله.

---

١ ــ التنبيه والاشراف ٢٧٥ــ٢٧٦ وابن الجوزى ٢٨٦ وقال واربعة ايام.
٢ ــ ابن عبد الحكم ص ١٠٠، الاخبار الطوال ٣٣١.
٣ ــ ابن عبد الحكم ٩٥ والحلية ٥/٣٢٠ وابن الجوزى ٢٨٣.
٤ ــ الطبقات ٥/٢٩٩ وصفة الصفوة ٢/١٢٧ وابن الجوزى ٢٨٢.
٥ ــ التنبيه والاشراف ٢٧٦ الكامل ٥/٥٨ وابن الجوزى ٢٨٦.
٦ ــ العقد الفريد ٤/٤٤٠ والنجوم الزاهرة ١/٢٤٦ ابن الجوزى ٢٨٦.
٧ ــ حلية الاولياء ٥/٣٣٤ ابن الجوزي ٢٩٥.

المبحث الثاني
عمر بن عبد العزيز تربية وأخلاق

في النصف الثاني من القرن الأوّل الهجرى كانت المدينة تموج بعلمائها من الصحابة ومن أبناء الصحابة والتابعين من العرب ومن الموالى، وكان العلماء والفقهاء والمحدثون والزهاد والعباد قد اتخذوا المدينة ملجأ وملاذا بجوار قبر المصطفى صلى الله عليه وسلم وفي منازل الوحى ومدرج الرسالة، منهم على سبيل المثال لا الحصر: سعيد بن السيب، وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن جعفر بن أبى طالب وعمر بن أبى سلمة، والسائب بن يزيد ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهرى وغيرهم كثير(١).

المدينة ومركزها العلمى

ولد عمر بن عبد العزيز ونشأ في هذه البيئة العلمية الزاخرة فنهل من معينها الثجاج، وغرف من بحرها المواج، فانقادت له أزمَّة العربية والشعر والحديث والفقه، وكان ذا نفس تواقة متطلعة الى كل سام وشريف من الأمر. ويحدثنا ابن عبد الحكم فيقول: إنَّ عمر بن عبد العزيز لما شب وعقل وهو بعد غلام صغير كان يأتي عبد الله بن عمر كثيرا لمكان أمِّه منه ثم يرجع إلى أمِّه فيقول: ياأمَّه أنا أحب أن أكون مثل خالى ــ يريد عبد الله بن عمر ــ فتؤفف(٢) به ثم تقول: اغرب أنت تكون مثل خالك؟ تكرر عليه ذلك غير مرة. فلما كبر سار أبوه عبد العزيز بن مروان الى مصر أميراً عليها ثم كتب إلى زوجته أم عاصم أن تقدم عليه وتقدم بولدها، فأتت عمها عبد الله بن عمر فأعلمته بكتاب زوجها عبد العزيز إليها فقال لها: يابنة أخى هو زوجك فالحقي به. فلما أرادت ــ الخروج قال لها: خلفى هذا الغلام عندنا ــ يريد عمر ــ فإنه أشبهكم بنا أهل البيت. فخلفته عنده ولم تخالفه.

قدوته في الصغر

---

١ ــ حلية الاولياء ٥/٣٥٩ ابن الجوزى ٣٢.

٢ ــ اى تقول له: أف أف.

فلما قدمت على عبد العزيز اعترض ولده فإذا هو لا يرى عمر فقال: وأين عمر؟ فأخبرته خبر عبد الله وما سألها من تخليفه عنده لشبهه بهم. فسر بذلك عبد العزيز وكتب إلى أخيه عبد الملك بن مروان يخبره بذلك، فكتب عبد الملك أن يجرى عليه ألف دينار في كل شهر.

ثم قدم عمر على أبيه بعد ذلك مسلما عليه فأقام عنده ما شاء الله ثم إنه ركب ذات يوم حمارا فسقط فشج ــ وفي رواية رمحته دابة ــ أى رفسته ــ. وقال أبوه عبد العزيز: ما ينبغي لمن كان يرجى لما يرجى له أن يكون تأديبه إلاّ بالمدينة، فبعثه إلى المدينة(١)، ليتأدب بها وكتب الى صالح بن كيسان أن يتعاهده فأبطأ عمر يوما عن الصلاة. فقال: ما حبسك؟ فقال: كانت مرجلتى تصلح شعرى. فكتب الى أبيه بذلك فأرسل أبوه رسولا فلم يزل حتى حلق شعره(٢).

تأديبه

فهو قد عاش أكثر أيامه في المدينة وتتلمذ على علمائها وفقهائها(٣) فكان يختلف الى عبيد الله بن عبد الله يسمع منه(٤). وأسند عن أنس بن مالك وسمع منه، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن جعفر بن أبى طالب، وعمر بن أبى سلمة المخزومى، والسائب بن يزيد و يوسف ابن عبد الله بن سلام وخولة بنت حكيم الانصارية.

إسناده وأساتذته

وروى عن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وسالم بن عبد الله بن عمر، وعروة بن الزبير، وأبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، وأبى بردة بن أبى موسى، وعامر بن سعد بن أبى وقاص، وخارجة بن زيد ابن ثابت، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وإبراهيم بن عبد الله بن قارط،

---

١ ــ ابن عبد الحكم ٢٠ــ٢١.

٢ ــ الكامل في التاريخ ٥/٦٢ ابن الجوزى ٩.

٣ ــ الكامل في التاريخ ٥/٥٢٦.

٤ ــ فوات الوفيات ٢/٢٠٧ ابن الجوزى ٨.

والربيع بن سبرة الجهني ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهرى وغيرهم(١) فبعلمه بز العلماء حتى قالوا فيه: كان العلماء مع عمر بن عبد العزيز تلامذة(٢). وقال مجاهد(٣): أتينا عمر بن عبد العزيز نعلمه فلم نبرح حتى تعلمنا منه(٤) وحتى يقول ميمون بن مهران: كان عمر بن عبد العزيز معلم العلماء(٥).

شهادات العلماء

ولا عجب في ذلك ولا غرابة فعمر ذو نفس تواقة إلى المعالى كما يحدث عن نفسه فكلما تاقت نفسه إلى درجة وأدركتها تاقت إلى ما فوقها حتى أدركت التى لا فوقها فتاقت إلى الجنة فطلب شرف الآخرة بشرف الدنيا. اسمع إلى ما يقوله لمزاحم مولاه وقد قال له: إنى رأيت في أهلك خللا، فقال لى يامزاحم أما يكفيهم وأعطيتهم مع ما يصيبون من المغانم مع المسلمين من فيئهم مع مال عمر؟ فقلت له: وأين يقع ذلك منهم مع ما يمونون ومع ضيافتهم وكسوتهم نساءهم قد والله خشيت أن تصيبهم مخمصة. فقال لى عمر: إن لى نفسا تواقة، ولقد رأيتنى وأنا بالمدينة غلام مع الغلمان، ثم تاقت نفسى إلى العلم إلى العربية والشعر فأصبت منه حاجتى وما كنت أريد، ثم تاقت إلى السلطان فاستعملت على المدينة ثم تاقت نفسى وأنا في السلطان إلى اللبس والعيش الطيب فما علمت أن أحدا من أهل بيتى ولا غيرهم كانوا في مثل ما كنت فيه، ثم تاقت نفسى إلى الآخرة والعمل بالعدل فأنا أرجو أن أنال ما تاقت إليه نفسى من أمر آخرتى، فلست بالذي أهلك آخرتي بدنياهم(٦).

نفس تواقه

---

١ ــ حلية الاولياء ٥/٣٥٩ وابن الجوزى ١٢ فما بعدها.

٢ ــ فوات الوفيات ٢/٢٠٧ والطبقات ٥/٢٧٦ ابن الجوزى ٢٧.

٣ ــ مجاهد بن جبر مولى قيس بن السائب المخزومى كان فقيها عالماً ثقة كثير الحديث ــ الطبقات ٣٤٣ــ٣٤٤جـ.

٤ ــ الكامل ٥/٦٢، حلية الاولياء ٥/٣٤.

٥ ــ الطبقات ٥/٢٧١ وابن الجوزى ٢٧.

٦ ــ الحلية ٥/٣٣٢ وابن الجوزى ٦٦.

حرصه على مجالس العلماء

وكان حريصا على مجالسة العلماء وحضور مجالسهم وسماع علومهم، فقد قال مرة: وددت لو أن لى مجلسا من عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود لم يفتنى(١) و يقول: والله إنّى لأشترى ليلة من ليالي عبيد الله بألف دينار من بيت المال. فقالوا: ياأمير المؤمنين تقول هذا مع تحريك وشدة تحفظك؟ فقال: أين يذهب بكم والله إنى لأعود برأيه و بنصيحته و بهدايته على بيت مال المسلمين بألوف وألوف(٢).

أدبه وشعره

فكان لثقافته و بيئته أثر بالغ في رهافة حسه ورقة شعوره حتى فاض ذلك على لسانه لحنا وشعرا وغناء أولاً ثم ورعا وزهدا وخوفا من الله أخيرا، فمن شعره قبيل خلافته وقد بدأت نفسه تميل إلى الإنابة:

إنّه الفؤاد عن الصبا ... وعن انقياد للهوى
فلعمر ربك إن في ... شيب المفارق والجلى وفي رواية «واللحى»
لك واعظا لو كنت تتعظ ... اتعاظ ذوى النهى.
حتى متى لا ترعوى؟ ... وإلى متى؟ والى متى؟
ما بعد أن سميت كهلا م ... واستلبت اسم الفتى
بَلِي الشباب وأنت إنْ عمرت ... رهن للبلى
وكفى بذلك زاجرا ... للمرء عن غى كفى(٣)

ومن أدبه قوله: عجبت لمن لاحن الناس كيف لا يعرف جوامع الكلم. قال أبو على: أى فاطنهم(٤). ومن أقواله وقد كتب الى رجل وهى من جوامع الكلم: اتق الدنيا فإنّ مَسَّها لَيِّن، وارفض نعيمها لقلة ما يتبعك منه، واترك ما يعجبك منها لسرعة مفارقتها(٥).

---

١ ــ العقد الفريد ٢/٢٣١.
٢ ــ عيون الاخبار ٣/٧ وابن الجوزى ٨ باختلاف الفاظ.
٣ ــ الامالى لأ بي على القالى ٢/٤٤ وابن الجوزى ٢٣١.
٤ ــ الامالى ١/٥ للقالى.
٥ ــ الامالى للقالى ٢/٤٣.

ومن وصاياه التي تدل على سمو أدبه وصيته ونصيحته لمسلمة بن عبد الملك(١) وقد دخل عليه وعليه ريطة(٢) من رياط مصر فقال له: بكم أخذت هذه ياأبا سعيد؟ فقال بكذا وكذا، قال: فلو نقصت من ثمنها شيئا أكان ناقصا من شرفك؟ قال: لا. قال: فلو زدت في ثمنها شيئا أكان زائدا في شرفك؟ قال: لا. قال: فاعلم يامسلمة أن أفضل الاقتصاد ما كان بعد الجدة ــ (أى الغنى) ــ وأفضل العفو ما كان بعد القدرة، وافضل اللين ما كان بعد الولاية(٣).

بعض صفاته وخلاله

وكان رحمه الله قبل توليه الخلافة يمتاز بصفات أهّلته للخلافة من بعد، من صدق وإباء وعزوف عن الدنايا وصراحة في الحق وصرامة فيه، وكبرياء طبيعية نمتها فيه أرومته ومكانته لكنها سرعان ما تحولت بعد الخلافة إلى نوع من التواضع سامق المستوى رائع المكانة، فمن أمثلة تمسكه بالفضائل من صدق وإباء ما وقع بين مواليه وموال لسليمان بن عبد الملك ــ وهو خليفة ــ من منازعة فذكر سليمان ذلك لعمر و بينما هو يكلمه قال سليمان لعمر كذبت. فقال عمر: ما كذبت مُذ شددت عليّ إزارى وعلمت أنَّ الكذب يضر أهله، وإنَّ في الأ رض عن مجلسك هذا لسعة.

صدقه وأباؤه

فتجهز يريد مصر فبلغ ذلك سليمان فشق عليه فدخلت فيما بينهما عمة لهما، فقال لها سليمان قولى له يدخل على ولا يعاتبنى. فدخل عليه عمر فاعتذر إليه سليمان وقال له: ياأبا حفص ما اغتممت بأمر ولا أكر بنى أمر إلا خطرت فيه على بالى، فأقام(٤).

---

١ ــ هو مسلمة بن عبد الملك بن مروان ناب بنى مروان وقائد جيوشهم وحملا تهم ومحاصر القسطنطينية في عهد اخيه سليمان بن عبد الملك.

٢ ــ الرَّيطة ثوب ليِّن رقيق ــ قاموس ٢/٣٦٢.

٣ ــ الامالى للقالى ٢/٢٨٣.

٤ ــ ابن عبد الحكم ٢٤ العقد الفريد ٤/٤٣٠، والحلية ٥/٣٤٣، وابن الجوزى ٣٦،٣٧.

صراحته في الحق

وكان لا يسكت عن باطل يراه فيجهر بما يراه حقا ولا يخاف سطوة جبار. فكان كثيرا ما يقف في طريق جبروت الوليد وسليمان ناصحا لهما تارة منددا أخرى، فمن صراحته ما حدث له مع الوليد وسليمان في شأن من يسب الخلفاء من بنى أمية ــ إذ كان رأيهم أن يقتل ــ فكان يعارضهم في ذلك معارضة شديدة وعرفوا عنه هذا، إذ أرسل الوليد بن عبد الملك يستدعيه في الظهيرة، يقول عمر: في ساعة لم يكن يرسل اليَّ في مثلها. فوجدته في قيطون(١) ــ صغير له بابان باب يدخل منه و باب خلف ظهره ينحرف منه إلى أهله، قال: فدخلت عليه فإذا هو قاطب بين عينيه فقال لى: اجلس هاهنا، فأجلسنى بين يديه مجلس الخصم، وليس عنده إلاّ خالد بن الريان قائما بسيفه، فقال: كيف ترى فيمن سب الخلفاء؟ أترى أن يقتل؟ (وكان هذا بتأثير من الحجاج إذ أرسل إليه بخارجى مستميت شتمه وكل خلفاء بنى أمية، ردا على نصيحة من عمر ابن عبد العزيز للوليد بعدم التسرع في اراقة الدماء) قال عمر: فسكتُّ، فانتهرنى وقال: مالك تكلم؟ فسكتُّ فعاد لمثلها فقلت: أفَتَك ياأمير المؤمنين؟ قال: لا ولكنه سب الخلفاء. قلت: فإنى أرى أن ينكل به بما انتهك من حرمة الخلفاء. قال: فرفع الوليد رأسه الى ابن الريان وقال: ما أظن إلا أن يقول له: اضرب عنقه. فقال: إنه فيهم لتائه. ثم حول وركيه فدخل على أهله. فقال لى ابن الريان بيده: انصرف قال: فانصرفت وما تهب ريح من ورائى إلا وأنا أظن أنه رسول يردنى إليه(٢).

وقد وقع له مثل تلك القصة مع سليمان فأجاب نفس الإجابة(٣). ولم يكن عمر منافقا مع نفسه ولا مع الناس فلم يكن ليأتى وهو خليفة ما

---

١ ــ القيطون ــ المخدع.

٢ ــ ابن عبد الحكم ٢٥، وابن الجوزى ٤٠ــ٤١.

٣ ــ الحلية ٥/٢٨٠ وابن الجوزي ٣٩.

كان ينهى عنه وهو خارج الحكم، فقد كتب إليه عبد الحميد بن عبد الرحمن واليه على الكوفة: إنه رفع إليَّ رجل يسبك فهممت أن اضرب عنقه فحبسته وكتبت إليك لاستطلع في ذلك رأيك. وكأن الوالى هنا كان يعتقد أو كان السائد حينذاك الاعتقاد بجواز قتل من سب الخلفاء من بنى أمية ــ فكتب إليه عمر: أما أنك لو قتلته لأقدتك به. إنه لا يقتل أحد بسب أحد إلا من سب النبى صلى الله عليه وسلم، فأسببه إن شئت أو خَلِّ سبيله(١). رحمك الله ياعمر في أى قمة من قمم الرفعة نزلت أى أدب تأدبت وأدبت. لشتان ما بين موقفك وموقف الخليفتين من قبلك الوليد وسليمان كم أراقا من دماء وأزهقا من أرواح جبرية وطغيانا.

نظرته الى ثمين الهدايا

ومن مواقفه مع سليمان بن عبد الملك ــ وهو يعطينا صورة عن نظرته إلى المال وقد بدأ يغير طريقة حياته ــ إنه لما قدم بالنيروز(٢) والمهرجان على سليمان بن عبد الملك وهو خليفة نصبت له تلك الهدايا في آنية الذهب وصنوف الهدايا قال: فكلما مر بعمر صنف منها قال له سليمان: كيف ترى هذا يابن عبد العزيز؟ قال: ياأمير المؤمنين إنما هو متاع الحياة الدنيا. قال له سليمان فآلله لو وليته ما أنت صانع فيه؟ قال: اللهم أقسمه حتى لا يبقى منه شيء. قال: اللهم اشهد، قال: فجعل يمر به على شيء شيء و يقول له هذه المقالة و يقول له عمر. اللهم أقسمه حتى لا يبقى منه شيء، قال سليمان: اللهم اشهد. حتى فرغ(٣).

---

١ ــ الطبقات ٥/٢٧٢.

٢ ــ النيروز أو النوروز أعظم أعياد الفرس وهو أول يوم من شهر فرودين ماه وهو أول شهور السنة الفارسية والمهرجان هو يوم السادس عشر من شهر مهرماه سابع أشهر السنة الفارسية. التنبيه والإشراف ١٨٤.

٣ ــ ابن عبد الحكم ١٠٠.

ذكاؤه وحسن تخلصه

ومن صفاته العالية ذكاؤه وسرعة بديهته وحسن تخلصه، إذ لما أتى نعى الحجاج بن يوسف للوليد بن عبد الملك ودخل الناس يعزونه ولم يعزه عمر، فوجد الوليد من ذلك وقال: ما منعك ياعمر أن تعزيني بالحجاج كما عزاني الناس؟ (وكان الوليد يعلم كراهة عمر للحجاج و بغضه له). فقال عمر: ياأمير المؤمنين إنما الحجاج منا أهل البيت فنحن نعزى به ولا نعزي. قال: صدقت(١).

تواضعه

وكان قمة صفاته بعد توليه الخلافة التواضع وكأنه ينظر في ذاك الى أيامه في المدينة حينما كان يجر رداءه خيلاء وكبرا وغطرسة وهو يخطر بيديه فكأنه يكفر عما سلف بالتواضع الذي صعد به قمما عليا لا تطاول، ومن الأمثلة على ذلك ما يرو يه شاهد عيان: يقول رجاء بن حيوة، سمرت ليلة عند عمر بن عبد العزيز فاعتل السراج ــ أى خفت ضوءه لقلة زيته ونفاده ــ فذهبت أقوم أصلحه فأمرني عمر بالجلوس، ثم قام فأصلحه ثم عاد فجلس فقال: قمت وأنا عمر بن عبد العزيز وجلست وأنا عمر بن عبد العزيز ولؤم بالرجل إن استخدم ضيفه(٢).

و يقول الأ وزاعى(٣) ــ عالم الشام ــ كان عمر بن عبد العزيز يجعل كل يوم درهما من خاصة ماله في طعام المسلمين ثم يأكل معهم(٤)، وكان يجلس إلى قاص(٥) العامة بعد الصلاة و يرفع يديه إذا رفع(٦). أى بالتأمين.

---

١ ــ ابن عبد الحكم ٢٤.

٢ ــ الحلية ٥/٣٣٢، العقد الفريد ٢/٤٢٥، الطبقات ٥/٢٩٥ وابن الجوزى ١٧٣.

٣ ــ عبد الرحمن بن عمرو الهمداني كان ثقة مأمونا صدوقا فاضلا خيرا كثير الحديث والعلم والفقه حجة كان يسكن بيروت ومات بها سنة ١٥٧هـ. الطبقات ٧/١٨٥.

٤ ــ الحلية ٢٧٠، ٥/٣١٥ وابن الجوزى ١٦٢.

٥ ــ أى الواعظ العام.

٦ ــ الحلية ٥/٣٧١ وابن الجوزى ١٧٢.

تواضعه مع الصلحاء والعلماء

وكان أدبه الجم وتواضعه العميق يتجليان حينما يقابل الصلحاء أو أبناء الصحابة، إذ تدخل عليه ابنة أسامة بن زيد (حب رسول الله صلى الله عليه وسلم) ومعها مولاة لها تمسك بيدها فقام لها عمر ومشى اليها حتى جعل يديها في يده و يده في ثيابه ومشى بها حتى أجلسها في مجلسه وجلس بين يديها وما ترك لها حاجة الا قضاها(١).

وتدخل عليه ابنة عبد الله بن زيد فتقول: ياأمير المؤمنين أنا بنت عبد الله بن زيد أبى شهد بدرا وقتل يوم أحد. فيقول عمر:

تلك المكارم لا قعبان من لبن شيبا بماء فعادا بعد أبوالا
سليني ما شئت فسألت فاعطاها ما سألت(٢).

سؤاله المعونة والنصيحة من الصلحاء

ومن تواضعه ايضا سؤاله المعونة والموعظة من الصالحين والعلماء والزهاد ورفع مكانتهم وسؤاله منهم الدعوات له، وتحمله جفاف أسلوب بعضهم. فقد كتب إلى رجل من أهل الشام قد انقطع إلى الشام يذكر له ما وقع مما ابتلى به من أمر المسلمين وقلة الاعوان على الخير، و يسأله المعاونة له على ما هو فيه، قال: فكتب إليه الرجل: بلغنى كتاب أمير المؤمنين يذكر ما ابتلى به من أمور المسلمين وقلة الاعوان على الخير و يطلب منى المعاونة، وأعلم أنك إنما أصبحت في خَلَق بال ورسم دارس خاف العالم فلم ينطق وجهل الجاهل فلم يسأل وتسألني المعاونة فيما أنعم الله على فلن أكون ظهيرا للمجرمين(٣).

---

١ ــ الحلية ٥/٣٧١ وابن الجوزى ١٧٢.

٢ ــ ٥/٣٢٢ الحلية وما في الطبقات يخالف ما هنا في وفاة عبد الله بن زيد ــ حيث انه شهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت معه راية بنى الحارث بن الخزرج في غزوة الفتح ــ وهو الذى أرى الأذان ــ وتوفى بالمدينة سنة ٣٢هـ وصلى عليه عثمان بن عفان رضى الله عنه. الطبقات ٣/٨٧ القسم الثانى، والقصة في ابن الجوزى ٢٢٩.

٣ ــ الخراج لابى يوسف ١١٤ ابن الجوزى ١٤١.

مع زياد ابن أبى زياد

و يقدم عليه زياد(١) مولى ابن عياش وأصحاب له فأتى الباب و به جماعة من الناس فأذن له دونهم (وزياد هذا كان لا يزال عبدا رقيقا) فدخل عليه زياد فنسى أن يسلم عليه بالخلافة ثم ذكر فقال: السلام عليك ياأمير المؤمنين. فقال له عمر: والأ ولى لم تضرنى. ثم نزل عمر عن موضع كان عليه إلى الأ رض وقال: إنى أعظم أن أكون في موضع أعلو فيه على زياد. (ياالله يابن عبد العزيز خليفة على رأس أكبر وأقوى دولة في عصرها ينزل إلى الأ رض ليجلس بجانب عبد رقيق. أي تواضع هذا وأي احترام يكنه للعلماء والصلحاء. انظروا ياجبابرة الأ رض).

ولما قضى زياد ما يريد خرج فأمر عمر خازن بين المال أن يفتحه لزياد ومن معه يأخذون منه حاجتهم. فنظر إليه خازن بيت المال فاقتحمته عينه عن أن يكون يفتح لمثله بيت المال و يسلط عليه وهو به غير عارف ــ ففعل الخازن ما أمر به فدخل زياد فأخذ لنفسه ولأصحابه بضعا وثمانين درهما أو بضعا وتسعين درهما. فلما رأى ذلك الخازن قال: أمير المؤمنين أعلم بمن يسلط على بيت المال(٢). و يناديه رجل فيقول ياخليفة الله في الأ رض. فقال له عمر: مَهْ إنى لما ولدت اختار لى أهلى اسما فسمونى عمر فلو ناديتنى ياعمر أجبتك (اين هذا من جبروت عبد الملك والوليد وسليمان الذين كانوا ينهون أن يناديهم الناس بأسمائهم). فلما كبرت اخترت لنفسي الكنى فكنيت بأبى حفص فلو ناديتنى ياأبا حفص أجبتك، فلما وليتمونى أموركم سميتمونى أمير المؤمنين فلو ناديتني ياأمير المؤمنين أجبتك، وأما خليفة الله في الأ رض فلست كذلك، ولكن خلفاء الله في الأ رض داود النبى وشبهه قال الله تبارك وتعالى: «**يادَاوُدُ إنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً في الأ رْضِ**»(٣). ومن تواضعه استجابته للتذكير ممن

١ ــ زياد بن أبى زياد مولى عبد الله بن عياش بن أبى ربيعة المخزومى وكان رجلا عابدا معتزلا لا يزال يكون وحده يذكر الله وكان يلبس الصوف ولا يأكل اللحم. الطبقات ٥/٢٢٥.

٢ ــ ابن عبد الحكم ٤٦ وصفة الصفوة ٢/١٢٢.

٣ ــ ابن عبد الحكم ٤٦ والآية ٢٦ سورة ص.

مع القاسم ابن مخيمرة

يذكر مادام التذكير فيه الخير له وللناس. فعن القاسم بن مخيمرة(١) قال: دخلت على عمر بن عبد العزيز وفي صدري حديث يتجلجل فيه أريد أن أقذفه إليه فقلت له: بلغنا «أنه من ولى على الناس سلطانا فاحتجب عن فاقتهم وحاجتهم احتجب الله عن فاقته وحاجته يوم يلقاه» قال: فقال: ما تقول؟ ثم أطرق طويلا قال: فعرفتها فيه فإنه برز للناس(٢). فقد عرف صدق الناصح وواقعية النصيحة فاستجاب وبرز للناس.

زهده وورعه وخوفه من الله

أما عن زهده وورعه وخوفه من الله تعالى فحدث عن البحر ولا حرج وسيمر علينا في غضون هذه الرسالة الكثير والكثير من الأمثلة والأعمال التى لن نجد لها مثيلا بين الحكام والملوك والرؤساء، والتى إن دلت فإنّما تدل على شخصية فذة وجدت في عصر لتكون حجة الله على الحكام والرؤساء والملوك الذين يدّعون عدم إمكانية الإصلاح لهذه الأمة وهم في أنفسهم غير صالحين.. فقبيل توليه الخلافة ظهرت عليه بشائر الإنابة ودلائل الخير وهو يحدث عن نفسه فيقول حينما سئل عما كان بدء إنابته: أردت ضرب غلام لي فقال: اذكر ليلة صبيحتها يوم القيامة(٣). ويقول رجل: كنت مع خالد بن يزيد بن معاوية في صحن بيت المقدس فلقينا عمر بن عبد العزيز ولا أعرفه فأخذ بيد خالد وقال: ياخالد أعلينا عين؟ قلت: عليكما من الله عين بصيرة وأذن سميعة. قال: فاستل يده من يد خالد وأرعد ودمعت عينه ومضى، فقلت لخالد من هذا؟ قال: هذا عمر ابن عبد العزيز أن عاش فيوشك أن يكون إماماً عدلا(٤). وأما عن علمه وفقهه فقد مر معنا أقوال العلماء فيه بأنه كان معلم العلماء، ومن هنا

---

١ ــ القاسم بن مخيمرة الهمداني كان ثقة وله أحاديث الطبقات ٦/٢١١.

٢ ــ الحلية ٥/٣١٦ ابن الجوزى ١٣٦.

٣ ــ الكامل ٥/٦٢ ابن الجوزى ١٤٩.

٤ ــ العقد الفريد ٤/٤٣٤ ابن الجوزى ٦١.

صلح الأمر واستقامت الطريق ووضح النهج فباجتماع العلم والحكم يتحقق العدل والأمن وما فسدت أحوال الأمة وفشى فيها الظلم إلاّ حينما انفصل ما بين العلم والحكم أو الدين والسياسة فأصبح الحكام جهلاء. والعلماء مبعدين. فمن فقه عمر لكتاب الله عز وجل ما رواه ميمون بن مهران(١) قال: كنت جالسا عند عمر بن عبد العزيز فقرأ «**أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ، حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ**»(٢). فقال لى: يا ميمون ما أرى القبر إلا زيارة ولابد للزائر أن يرجع إلى منزله ــ يعنى إلى الجنة أو النار(٣).

---

١ ــ أبو أيوب الأزدى مولاهم كان ثقة كثير الحديث وكان على الخراج لعمر بن عبد العزيز في الجزيرة ــ الطبقات ٧/١٧٧.

٢ ــ سورة التكاثر الآية ١ــ٢

٣ ــ الحلية ٥/٣١٧.

المبحث الثالث
عمر بن عبد العزيز جاه وسلطان

«لست بخيركم وإنما أنا رجل منكم ألا وإنى أثقلكم حملا»(١)

عمر بن عبد العزيز

كتبه واتساع دولته

من دمشق الفيحاء درة الدولة وواسطة عقدها كانت تخرج كتبه فتصل شرقا الى بلاد ما وراء النهر وتتعدى ذلك الى الصين، وتمر غربا قاطعة شمال أفريقيا ثم تتجه شمالا لتحط في أربونة خلف جبال البيرانيه شمال اسبانيا، وشمالا إلى وسط بلاد الروم وحدود البلغار، وجنوبا تعبر الجزيرة لتحط على أمواج بحر العرب، دولة هذا سلطانها فمن خليفتها أو ملكها؟ وكيف يكون جاهه وسلطانه وقوته وأمواله وخزائنه؟

تبعته

لقد كان على رأس هذه الدولة المترامية الأطراف في نهاية القرن الأول الهجرى خليفة هو عمر بن عبد العزيز، ليس ملكا يسوق الناس بجبروته و يسيطر عليهم بطغيانه، وأما ماعدا ذلك فهو رجل في حياته ومعيشته كأدنى فرد من رعيته غير أنه اثقل الناس حملا وأرهقهم عملا ــ كما قال هو عن نفسه ــ موصول ليله بنهاره وصبحه بمسائه لا يكل ولا يمل، إحساسه بالمسئولية جسيم وشعوره بالتَّبِعَةِ الملقاة على عاتقه يسيطر عليه من كل نواحيه، فيقظته للرعية وراحته للرعية وحياته كلها وهبها لهذا العمل الذى اضطلع به أو اضطر أن يضطلع به دون مشورة منه أو موافقة له عليه. فقد خطب الناس حين استخلف فقال: أيها الناس والله ما سألت الله هذا الأمر قط في سر ولا علانية، فمن كان كارها لشيء مما وليته فالآن، فقال سعيد بن عبد الملك: ذلك أسرع فيما تكره أتريد أن نختلف و يضرب بعضنا بعضا؟ وصاح المسلمون صيحة واحدة: قد اخترناك ياأمير المؤمنين ورضينا بك فَلِ أمرنا باليمن والبركة(٢).

رد الأمر للأمة

---

١ ــ ابن عبد الحكم ٣٦ ــ ابن الجوزى ٢٥٦.

٢ ــ العقد الفريد ٤/٤٣٣ صفة الصفوة ٢/١١٤، البداية والنهاية ٩/٢٣٧ وابن الجوزى ٥٥.

وحينما سلم عليه بإمرة المؤمنين وعلم استقرار أمره أدخل رأسه بين ركبتيه ثم بكى بكاء شديدا، فقال الناس: يبكى فرحا بالخلافة. (وهو لم يبك إلا إحساسا بعظم التبعة التى تحملها) ثم رفع رأسه ومسح عينيه ثم قال: اللهم ارزقنى عقلا ينفعنى واجعل ما أصير إليه أهم مما يزول عنى. ثم دخل منزله فألقى تلك الثياب وغسل ذلك الطيب ودعا الحجام فأخذ من شعره(١).

بدء التغير

ثم شمر للعمل الجاد وترك ما تعود عليه من لباس وطعام وشراب حتى مشيته غيرها و بدل فيها، وقعد للناس على الأ رض فقيل له: لو أمرت ببساط لك فتجلس ويجلس الناس عليه كان ذلك أهيب في قلوب الناس (قاسوا الامور بمقاييسهم الدنيو ية المادية) فتمثل قائلا:

قضى ما قضى فيما مضى ثم لا ترى ... له صبوة إحدى الليالى الغوابر
ولولا التقى من خشية الموت والردى ... لعاصيت في حب الصبا كل زاجر

«أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُم سِنِينَ، ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ، مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ»(٢). ثم بهذه الابيات: لمسعر بن كدام(٣).

---

١ ــ ابن عبد الحكم ١٢٣.

٢ ــ سورة الشعراء ٢٠٥ــ٢٠٧.

٣ ــ حياة الحيوان ١/١٩٥ الأصح أنها لعبد الله بن عبد الاعلى لأن مسعر بن كدام يعتبر من الطبقة الخامسة ولم يعاصر عمر إلا وهو صغير لأنه مات سنة ١٥٢ أو ١٥٥هـ في خلافة أبى جعفر المنصور فكيف يتمثل عمر بشعره؟؟، الطبقات ٦/٢٥٣.

نسر بما يبلى ونشغل بالمنى ... كما سُرَّ بالأحلام في النوم حالم
نهارك يامغرور سهو وغفلة ... وليلك نوم والردى لك لازم
وسعيك فيما سوف تكره غبه ... كذلك في الدنيا تعيش البهائم

بدء العمل وشروط صحبته

ثم نصب نفسه لرد المظالم و بدأ ببنى أمية وأخذ ما كان في أيديهم من الغصوب فردها على أهلها(١).

وعندما خطب الناس بيَّن لهم شروط صحبته و بطانته فقطع آمال المتصيدين المنتهزين للفرص فقال: أيها الناس من صحبنا فليصحبنا بخمس، وإلا فلا يقربنا: يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها، و يعيننا على الخير جهده و يدلنا على الخير على ما لا نهتدى إليه، ولا يغتابن عندنا الرعية ولا يعترضن فيما لا يعنيه(٢).

فانقشع عنه الشعراء والخطباء وثبت معه الفقهاء والزهاد.

رفضه المظاهر

ورفض كل مظاهر العظمة الكاذبة والاستعلاء الممقوت والغطرسة البغيضة مما جرت به عادة ملوك بنى امية قبله من مواكب ومراكب وأحراس ابتغاء الجاه واظهارا للسلطان وإرهاباً للرعية، ورد كل ذلك الى بيت مال المسلمين، مما سيأتي مفصلا في مبحث مع النفس.

ولكن كيف كان يعيش عمر بن عبد العزيز بعد ذلك وما هى مظاهر جاهه وسلطانه في دولته تلك الواسعة؟ أو كيف كان يعيش قبل الخلافة؟ وهل استمر على ما كان عليه؟ أم اتخذ الخلافة سلما للمطامع والشهوات واستغل السلطة لإشباع الرغبات والانتقام من عباد الله والتشفى ممن وقعوا تحت يده؟.

---

١ ــ الاخبار الطوال ٣٣١ وصفة الصفوة ١٢٤ــ٢/١٢٥.
٢ ــ الاسلام والحضارة ١٧٤ والبداية والنهاية ٩/٢٢٢: ابن الجوزى ١٩٦.

حياته قبل الخلافة

لا تبرز الصورة واضحة جلية إلا إذا رجعنا قليلا لنرى كيف كان يعيش عمر بن عبد العزيز وهو أمير مترف من أمراء بنى أمية بل من أعظم أمراء بنى أمية ترفا وإسرافاً، فأبوه عبد العزيز بن مروان حاكم مصر المطلق وشمال افريقيا كلها وعمه عبد الملك بن مروان حاكم الدولة الأعلى، وقد فرض له منذ صغره الف دينار شهريا عدا ما كان يعطيه اياه أبوه، ثم ولى المدينة والحجاز في عهد الوليد بن عبد الملك وتزوج فاطمة بنت عبد الملك بنت الخليفة وأخت الخلفاء التى حينما أولم بها أسرج في مسارجه تلك الليلة الغالية(١) أى المسك. فمهما تحدثنا عن ترف عمر بن عبد العزيز فلن نفيه حقه و يكفينا أن نذكر بعض حديث شهود العيان ليمكننا بعد ذلك المقارنة.

يقول شيخ بالمدينة «رأيت عمر بن عبد العزيز وهو من أحسن الناس لباسا وأطيبهم ريحا ومن أخيلهم مشية»(٢). و يقول أبو يونس بن أبى شبيب: شهدت عمر بن عبد العزيز وهو يطوف بالبيت وإن حجزة إزاره لغائبة في عكنه(٣).

ثم هو يقول عن نفسه: وقد رأيتى وأنا بالمدينة وأنى لأخاف أن يعجز ما رزقنى الله عن كسوتى فقط(٤).

ولكن هل معنى ذلك أنَّ ما رزقه الله كان قليلا؟ استمعوا لابنه عبد العزيز قال: قال لى أبو جعفر: يعنى أمير المؤمنين ــ كم كانت غلة أبيك حينما ولى الخلافة؟ قلت: أربعين ألف دينار(٥). فما رزقه الله لم

---

١ ــ عيون الاخبار ١/٣٠١.

٢ ــ الخراج لأبى يوسف ١٧ والطبقات ٥/٢٤٤: ابن الجوزي ٣٢.

٣ ــ الحلية ٥/٢٥٧ والطبقات ٥/٢٨٦ صفة الصفوة ٢/١١٩.

٤ ــ الحلية ٥/٣٢٢.

٥ ــ الحلية ٥/٢٥٧.

يكن قليلا ــ كما رأينا ــ ولكن السرف والترف كانا يسيطران عليه في شبابه وحين إمارته المدينة التى دخلها حين دخلها وكان ثقله على ثلاثين بعيرا(١).

الناس أمام المناصب صنفان

ولكن ماذا بعد أن ولى الخلافة وسيقت له الدنيا وأصبح الحاكم المطلق لأكبر وأوسع وأقوى دولة في وقتها؟

كثيرون هم الذين يرون أنفسهم أحقر وأدنى من مناصبهم التى يتولونها فإذا تولى أحدهم منصبا ضئيلا أو متوسطا رأى كرسيه ضخما فخما ورأى نفسه ضئيلاً حقيراً بجانب ذلك الكرسى الضخم الفخم فيحاول أن يكمل نقص نفسه الذى يحس به بالكبرياء المصطنعة والغرور الكاذب والحجاب الصفيق والسطوة والبطش ليشعر نفسه أولاً أنه أصبح أهلاً للمنصب الذى يتولاه وليشعر الناس ثانيا بمكانته ومكانه. وقليلون هم اولئك الناس الذين إذا تولوا أرقى المناصب استصغروها في أعينهم ووجدوا أنفسهم أضخم وأفخم من تلك المناصب مهما ارتقت وارتفعت واتسعت كراسيها لأنهم ينظرون إلى ما وراء الغيب و يتطلعون إلى أشرف المناصب فيضمون إليهم أطرافهم و يغضون أصواتهم ويجمعون إليهم قواهم ليشعروا أنفسهم أولاً بضآلة ما هم فيه بجانب ما يطمحون إليه و يشعروا الآخرين ثانيا بتفاهة الدنيا بجانب عظمة الآخرة و بحقارة الحياة بجانب عظمة وشرف ما عند الله. وفي مثل هؤلاء وأولئك يقول يحيى بن خالد(٢): لست ترى أحداً تكبر في إمارته إلا وهو يعلم أن الذى نال فوق قدره، ولست ترى أحداً يضع نفسه في إمارة ــ أى يتواضع ــ إلا وهو في نفسه أكثر مما نال في سلطانه(٣).

---

١ ــ الكامل لابن الاثير ٥/٥٢٦.

٢ ــ ابن برمك مربى هارون الرشيد وكبير وزرائه وسائس دولته.

٣ ــ عيون الاخبار ١/٢٦٨.

فعمر بن عبد العزيز من خلاصة الصنف الثاني تاقت نفسه فطلبت خير الآخرة بخير ما في الدنيا، فما وصل الى الخلافة على كره منه حتى جعلها سلما يصل عن طريقها إلى أفضل ما عند الله عز وجل، ونظر في أموره فغير كل ما استطاع تغييره من سلوكه ولباسه وطعامه وشرابه ومعاملته حتى مشيته غيرها وقال: ما كنت أراها إلا جنونا ــ وفتح في حياته صفحة بيضاء ناصعة بعيدة كل البعد عما عرف عنه من حياته السابقة. ولندع روايات شهود العيان تتمم لنا الصورة وتوضح لنا التغيير، فعن حجاج الصواف قال: أمرنى عمر بن عبد العزيز وهو وال على المدينة أن اشترى له ثيابا فاشتريت له ثيابا فكان فيها ثوب بأربعمائة فقطعه قميصا ثم لمسه بيده فقال: ما أخشنه وأغلظه! ثم أمر بشراء ثوب له وهو خليفة فاشتروه بأربعة عشر درهما فلمسه بيده فقال: سبحان الله ما ألينه وأدقه(١).

فرق بين حالين/حجاج الصواف

و يقول رباح بن(٢) عبيدة: كنت أتجر فقال لى عمر بن عبد العزيز يارباح اتخذ لى كسائين خزا أتخذ أحدهما محبسا(٣) والأخر شعارا، قال ففعلت فصنعتها بالبصرة فلم آل حتى قدمت بهما فأمر بقبضهما فلما أصبح غدوت عليه فقال لى: يارباح ما أجود ثوبيك لولا خشونة فيهما ــ (كان ذلك وهو وال على المدينة) ــ فلما وُلّى قال لى: يارباح أتخذ لى من هذه الجباب الهروية(٤) عامل قطن فيهن صغر، قال فاشتريت له ثلاث شقق فقطعت من الثلاث جبتين خشنتين ثم أتيت بهما اليه فقبضهما،

رباح بن عبيدة

---

١ ــ الطبقات ٥/٢٤٦.

٢ ــ رباح بن عبيدة أو رياح بن عبيدة البصرى كان من خلصاء عمر بن عبد العزيز ومستشاريه بعد الخلافة.

٣ ــ المحبس والشعار. المحبس: ستار للفراش والشعار: ما يلى الجسد من الثياب ــ الملابس الداخلية ــ القاموس ٢/٥٩.

٤ ــ الجباب الهروية: ثياب منسوبة الى هراة بلدة بخراسان.

فقال لى: يارباح ما أجود ثوبيك لولا لين فيهما[1]. وكان ثمن الثياب الأولى ثمانمائة درهم وثمن الأخرى ثمانية دراهم[2].

و يقول رجاء بن حيوة: كان عمر بن عبد العزيز من أعطر الناس وأخيلهم في مشيته، فلما استخلف قوموا ثيابه اثنى عشر درهما: كُمَّته[3] وعمامته وقميصه وقباءه وقرطقه ورداءه وخفيه[4].

و يقول على بن بذيمة[5] رأيت عمر بن عبد العزيز في المدينة وهو أحسن الناس لباسا وأطيب الناس ريحا وهو أخيل الناس في مشيته، ثم رأيته بعد أن ولى الخلافة يمشى مشية الرهبان، فمن حدثك أن المشية سجية فلا تصدقه بعد عمر بن عبد العزيز[6].

و يقول رجل من حرسه، رأيت عمر بن عبد العزيز حين ولى و به من حسن اللون وجودة الثياب والبزة، ثم دخلت عليه بعد وقد وُلِّى فإذا هو قد احترق واسود ولصق جلده بعظمه حتى ليس بين الجلد والعظم لحم، وإذا عليه قلنسوة بيضاء قد اجتمع قطنها يعلم أنها قد غسلت وعليه سحق انبجانية قد خرج سداها وهو على شاذ كونة قد لصقت بالأرض تحت الشاذكونة عباءة قطرانية من مشاقة الصوف[7].

أبويونس بن أبى شبيب

وقد وصل الأمر به أن أذاب شحمه ولحمه وفي ذلك يقول أبو يونس بن أبى شبيب: شهدت عمر بن عبد العزيز وهو يطوف بالبيت وأن حجزة إزاره ــ لغائبة في عكنه. ثم رأيته بعد ما استخلف ولو شئت أن أعد

---

١ ــ الحلية ٥/٣٢٣: ابن الجوزى ١٤٨، ١٥٠.

٢ ــ ابن عبد الحكم ٤٢ــ٤٣ والعقد الفريد ٤/٤٣٤.

٣ ــ الكمة: القلنسوة المدورة ــ القاموس ٤/١٧٣ والقرطق. نوع من الملابس ولعله الصديري.

٤ ــ الحلية ٥/٣٢٧، والطبقات ٥/٢٩٧، صفة الصفوة ٢/١١٩ وابن الجوزى ١٤٦، ١٥١.

٥ ــ على بن بذيمة كان ثقة مات بحران سنة ١٣٦ الطبقات ٧/١٨٠ القسم الثاني.

٦ ــ الحلية ٥/٣٢٥ الخراج لأبى يوسف ١٧، الطبقات ٥/٢٤٤، وابن الجوزى ٣٢.

٧ ــ الحلية ٥/٣٧٢ وابن الجوزى ٥٨.

أضلاعه من غير أن أمسها لفعلت(١). حتى غلته أى دخله السنوى أنقصه بعد أن رد قطائعه إلى بيت المال فبعد أن كان أربعين ألفا أصبح أربعمائة دينار ولو بقى لنقصت(٢).

ابن كثير

و يقول ابن كثير: وكان قبل الخلافة يؤتى بالقميص الرفيع اللين جدا فيقول ما أحسنه لولا خشونة فيه، فلما ولى الخلافة كان بعد ذلك يلبس القميص الغليظ المرقوع ولا يغسله حتى يتسخ جدا و يقول: ما احسنه لولا لينه، وكان يلبس الفروة الغليظة. ولم يبن شيئا في خلافته (أى خاصا به)، وكان يخدم نفسه بنفسه وكان يأكل الغليظ ولا يبالى بشيء من النعيم ولا يتبعه نفسه ولا يوده(٣).

مع أبى حازم لخناصرى

فما الذى غيره و بدله هذا التغيير الشاسع البين؟ ما الذى جعل عمر ابن عبد العزيز المترف المنعم يترك نعيم الدنيا وقد أصبحت كلها بين يديه؟.

يقول أبو حازم الخناصرى: قدمت على عمر بن عبد العزيز بخناصرة وهو يومئذ أمير المؤمنين فلما نظر الى عرفنى ولم أعرفه، فلما أن تكلم عرفته فقلت: أنت عمر بن عبد العزيز؟ قال: نعم. قلت تالله لقد كنت عندنا بالامس بالخناصرة أميرا لعبد الملك بن مروان فكان وجهك وضيا وثوبك نقيا ومركبك وطيا وطعامك شهيا وحرسك شديدا، فما الذى غيربك وأنت أمير المؤمنين؟ قال لى: ياأبا حازم أناشدك الله إلا حدثتنى الحديث الذى حدثتنى بخناصرة؟ قلت له: نعم سمعت أبا هريرة يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**إنَّ بين أيديكم عقبة كؤودا لا يجوزها إلا كل ضامر مهزول**» قال أبو حازم فبكى أمير المؤمنين بكاء

العقبة الكؤود

---

١ ــ الحلية ٥/٢٥٧، الطبقات ٥/٢٨٦، صفة الصفوة ٢/١١٩ وابن الجوزى ١٥٢.

٢ ــ الحلية ٥/٢٥٧.

٣ ــ البداية والنهاية ٩/٢٣٣.

عاليا حتى علا نحيبه(١).

إذن فهذا هو السبب الذى غيره العقبة الكؤود التى لا يجوزها إلا كلُّ ضامر مهزول فأضمر جسمه وأهزله وأذاب شحمه ولحمه لعله يجوز و يعبر تلك العقبة الصعبة المرتقى الوعرة المسلك، و يؤكد هذا الأمر حديثه مع محمد بن كعب القرظى ــ وقد كان له به احتكاك وصلة وهو بالمدينة: إذ مر عمر بن عبد العزيز بالمدينة في ولايته وهو يسحب ثوبه فناداه محمد بن كعب: ياعمر إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«ما جاوز الكعبين فهو في النار»**(٢) فالتفت إليه مغضبا وقال: اتق الله يابن كعب لا تكن ذبالة تضيء للناس وتحرق نفسها، (أخذته العزة بالمنصب والجاه والسلطان أمام نصيحة العالم الورع الذى أوقفه أمام نفسه فناداه بياعمر دون لقب الأمير مذكرا إياه بما غفل أو تغافل عنه من كراهة جر ذيل الثوب كبرياء وغطرسة وعنجهية ولكنه أخذته العزة بالاثم فأغلظ في الجواب وهدد بالعقاب، ولكنه ما إن يتولى الخلافة حتى يتذكر ذلك الموقف من ذلك الفقيه الشجاع الناصح وأحس بعظم خطئه وقبح مردوده) ــ فسأل عن محمد بن كعب القرظى فأخبر أنه غاز في سبيل الله فكتب إلى عامله على الدروب ــ (وهى الطرق المؤدية الى بلاد الروم) ــ يأمره ان يجهزه و يسرحه أن خرج إليه من غزوه إلا أن يكره ذلك فيعفيه. فلما خرج محمد إلى العامل سأله أن يسير إلى عمر وأقراه كتابه، قال: أما الجهاز فلا حاجة لى به أنا أقوى وقد كنت أردت السير إليه لو لم يأت كتابه في أمرى. (فالفقيه إذا لم يقطع الأمل من عمر بل أراد أن يسير إليه ولو لم يطلبه ليؤدى له النصيحة الواجبة مع علمه بما رد عليه قبلا وهكذا شيمة العلماء المخلصين الشجعان وهنا التقت الإرادتان) فتوجه الى عمر فلما

مع محمد بن كعب القرظى

---

١ ــ الحلية ٢٩٩ــ٣٠٠/٥.

٢ ــ حديث صحيح أخرجه الستة بألفاظ مختلفة عن أبى هريرة وغيره.

دخل رآه على هيئة غير الهيئة التى كان عهده عليها، فقال: يامحمد استغفر لى من سوء مردودى عليك حين وعظتنى بالمدينة، و بكى حتى اخضلت لحيته، فقال محمد: غفر الله لك ياأمير المؤمنين وأقالك عثرتك(١). وجعل يكثر اللحظ الى عمر يقلب فيه بصره (لقد رأى محمد بن كعب شيئا جديدا غريبا في عمر فشد اليه بصره متعجبا) فقال عمر: يامحمد فيم تنظر إليَّ؟ فقال: ياأمير المؤمنين أنظر وأتعجب فأقول: أين ذلك اللون النضير والشعرة الحسنة والبدن الريان؟ فقال عمر: فكيف لورأيتنى بعد ثلاث من دفنى وقد سقطت حدقتاى على خدى وسال منخراى وفمى صديدا ودودا كنت أشد نكرة لى منك اليوم(٢).

اعتراف بالخطأ وطلب للمغفرة

إذن هذا الذى غير عمر و بدله خوفه من الله وذكره للآخرة نغصا عليه نعيم الدنيا، وقبحا في عينيه زينتها لأنه علم علم اليقين أن نعيمها مهما طال زائل وأن زينتها مهما أبهجت فهي ستقبح وإنه سيقدم على الله الذى سيحاسبه على ما قدم وعلى ما عمل وعلى ما اكتسب، ورأى أن النعيم والشرف إنما هو نعيم وشرف الآخرة، فخرج من ماله كله أوجُلّه مما أُعطيَ من الخلفاء و ورث من الآباء لاعتقاده أنه أخذه من غير حله، و باع كل ماله من متاع لشكه فيه، ورد كل ذلك إلى بيت المال ولم يبق إلا ما تيقن تماما بحله، فكان دخله منه ضئيلا ضئيلا إذا قيس بما كان يدخل عليه قبلا ولم يرتزق من بيت المال درهما إلا عطاءه مع المسلمين(٣). بل كان لازال في شك من حل شحمه ولحمه فأذابه كله في طاعة الله واكتفى بالغليظ من الثياب واليسير منها والجشب ــ أى الغليظ من الطعام فداوم عليه. يسير مع رفقة له ليلة فيتناول قلنسوة عن رأسه بيضاء مضربة فقال:

---

١ ــ اقالك عثرتك ــ أى رفعك من سقطتك.

٢ ــ ابن عبد الحكم ١٢١، الحلية ٥/٣٣٣ الخراج لابي يوسف ١٦ الطبقات ٥/٢٧٢.

٣ ــ البداية والنهاية ٩/٢٣٣ والعقد الفريد ٤/٢٧١ وابن عبد الحكم ٣٩ وابن الجوزى ١٥٧.

كم ترونها تسوى؟ فقالوا درهم ياأمير المؤمنين قال: والله ما اظنها من حلال(١).

لهذه الدرجة وصل إحساسه وتأنيب نفسه على كل درهم ناله قبلا، و يقول يوسف بن يعقوب الكاهلى: كان عمر بن عبد العزيز يلبس الفرو الغليظ وكان سراجه على ثلاث قصبات فوقهن طين(٢). و يتأخر عن وقت الجمعة يوما فيقال له: أخرت الجمعة عن وقتك. قال: إن الغلام ذهب بالثياب يغسلها فحبس بها ــ أى تأخر ــ فعرفنا أنه ليس له غيرها (ياالله عجبا لا ينقضى خليفة يملك الدنيا ولكنه لا يملك سوى ثوب واحد يغسله كلما اتسخ!؟ فليعتبر اولئك الذين يملأون خزائنهم من الثياب والملابس وقد لا يلبسونها سوى مرة واحدة أو قد لا يلبسونها على الاطلاق، ولكن هل كان عمر فقيرا لا يملك أن يشترى ثوبا؟ دعوه يتمم قوله) ــ ثم قال: أما إنى قد رأيتنى وأنا بالمدينة وأنى لأخاف أن يعجز ما رزقنى الله عن كسوتى فقط، ثم قال متمثلا:

قضى ما قضى فيما مضى ثم لم تكن له عودة أخرى الليالى الغوابر(٣)

و يبقى على ذلك حتى يدركه الموت وليس له سوى قميص واحد، يدخل عليه مسلمة بن عبد الملك في مرضه الذى مات فيه وعليه قميص وسخ، فيقول لفاطمة زوجة عمر ــ وهي أخت مسلمة ــ ألا تغسلوا قميصه؟ قالت: والله ما له غيره وأن غسلناه بقى لا قميص له(٤).

---

١ ــ الحلية ٥/٢٧١.

٢ ــ الحلية ٥/٣٢٣، البداية والنهاية ٩/٢٢٦ ابن الجوزى ١٤٨.

٣ ــ الحلية ٥/٣٢٢ البداية والنهاية ٩/٢٢٦ ابن الجوزى ١٥٤.

٤ ــ ابن عبد الحكم ٤٣، صفة الصفوة ٢/١٢٠، الطبقات ٥/٢٩٧، البداية والنهاية ٩/٢٣٩ ابن الجوزى ١٥٣.

وأما طعامه ــ فليعتبر أولئك المبطونون الذين يسعون للوصول إلى السلطان ليشبعوا نهمتهم إلى أطايب الأطعمة وألوانها المختلفة، فلينظر أولئك إلى ما كان يأكله عمر بن عبد العزيز: يقول نعيم بن سلامة: دخلت على عمر بن عبد العزيز فوجدته يأكل ثوما مسلوقا بملح وزيت(١)، وكانت نفقته كل يوم درهمين(٢) (من خاصة ماله).

و يدخل يوما على امرأته ــ فاطمة بنت عبد الملك ــ فيقول لها: يافاطمة عندك درهم أشترى به عنبا؟ قال: لا. قال: فعندك نمية ــ يعنى الفلوس. اشترى بها عنبا؟ قالت: لا (فهل ترى عمر بن عبد العزيز لا يملك درهما ولا فلسا يشترى به عنبا؟ أم كان بخيلا شحيحا يصعب عليه أن يخرج الدراهم بعد ادخالها كيسه؟ الدارس لتاريخ عمر بن عبد العزيز وسيرته يراه من الكرم بمكان فهو ابن عبد العزيز المعروف بكرمه وجوده وغناه، وهو نفسه ما عرف عنه قط شح ولا بخل لا على نفسه وقد رأينا سرفه وترفه ــ ولا على من يلوذ به، اذا فما السبب في ذلك؟) توجه اليه زوجه السؤال فتقول: أنت أمير المؤمنين لا تقدر على درهم ولا نمية تشترى بها عنبا؟ قال هذا أهون علينا من معالجة الاغلال غدا في نار جهنم(٣).

زهد لا شح

إذا هو لا يخطو خطوة إلا و يزنها بميزان الآخرة، فليس بخيلا ولا شحيحا وليس فقيرا ولا صعلوكا، ولكنه حارب نفسه وقمع شهوتها الى الطيبات في هذه الحياة الدنيا طمعا لما عند الله في الآخرة، ولكن هل كان هو يحس أنه يضيق على نفسه ويمنعها من نعيم هذه الحياة؟ أن الأنسان إذا اعتاد أمراً ثم تركه تراه يحن في بعض الاحيان للعادة التى ترك، فكيف بمن بدل حياته كلها بجميع وجوهها ظهرا لبطن؟ في بعض الاحيان كان

حنين للماضى

---

١ ــ الحلية ٥/٣١٥، ابن الجوزى ١٥٢.

٢ ــ الكامل لابن الا ثير ٥/٦٢.

٣ ــ الحلية ٥/٢٥٦ البداية والنهاية ٩/٢٢٦ ابن الجوزى ١٥٤ ولكن فيه ثمنه بدل نمية.

يحس بشيء من ذلك فيتذكر لياليه الماضيات، يمر ذات يوم على زوجه فاطمة بنت عبد الملك ــ وقد أخذها بما أخذ به نفسه ــ فيضرب على كتفها ــ مُنَبِّهاً ــ و يقول: يافاطمة لنحن ليالى دابق(١) أنعم منا اليوم، فقالت: والله ما كنت على ذلك أقدر منك اليوم (حقا لهو اليوم أقدر على النعيم والمتاع من ليالى دابق ــ لأنه ليالى دابق كان أميرا تابعا لسليمان ابن عبد الملك أما اليوم فهو أمير المؤمنين وليس من يد فوقه تمنعه من التصرف في بيت المال كما يشاء الا يد الله) فأدبر عنها وله حنين وهو يقول: يافاطمة **«إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم»**(٢)(٣). وفي أحيان كثيرة يحس أنه لازال لم يخلص نفسه ولا جسمه من أدران الماضى فيسأله رجل: كيف أصبحت ياأمير المؤمنين؟ فيقول: أصبحت بطينا بطيئا متلوثاً في الخطايا أتمنى على الله الأمانى(٤).

محاسبة النفس

و يبيت يحاسب نفسه على ما قصرت في جنب الله إذ كان له سفط ــ (أى صندوق) فيه دراعة من شعر وغل (أى قيد) ــ وكان له بيت في جوف بيت يصلى فيه لا يدخل عليه فيه أحد فإذا كان في آخر الليل فتح ذلك السفط ولبس تلك الدراعة و وضع الغل في عنقه فلا يزال يناجى ربه و يبكى حتى يطلع الفجر ثم يعيده في السفط(٥).

وحياته في خلافته كلها إحساس بعظم التبعة حتى قيل: لم يُرَ عمر مفترّاً ضاحكا منذ ولى الخلافة حتى لقى ربه(٦). وكأنه كان يعلم أنَّ مكثه في هذه الحياة لن يطول بعد أن تولى الخلافة فلم يحدث منذ ولى دابة

---

١ ــ دابق: قرية في شمال سورية قرب حلب عندها مرج معشب. فتوح البلدان ٧٢١.

٢ ــ الآية ١٥ من سورة الانعام و١٥ من يونس و١٣ من الزمر.

٣ ــ ابن عبد الحكم ٤٢.

٤ ــ ابن عبد الحكم ٤٤ والحلية ٥/٢٨٧.

٥ ــ الحلية ٥/٢٩١.

٦ ــ ابن عبد الحكم ٤٤.

ولا امرأة ولا جارية حتى لحق بالله[1]. وما اغتسل من جنابة منذ ولى حتى لقى الله غير ثلاث مرات، و يقال: ما اغتسل من جنابة حتى مات[1]. وكان له غلام و برذون يغلّ عليه فسأل الغلام عن حاله فقال: الناس كلهم بخير. إلاّ أنا وأنت وهذا البرذون، قال اذهب فأنت حر[2].

أحس أنَّ غلامه لا يطيق هذه الحياة المتقشفة بل الشديدة التقشف فلما أحس بتذمره منها أعتقه ليكون مع المسلمين في بحبوحة من عيش و يدع عمر وشأنه وزهده وتقشفه وشدته على نفسه أولاً وعلى من يلوذ به ثانيا.

مع ابن ابى زكريا

وقد حاول بعض خلصائه وجلسائه أنْ يثنوه عن بعض شدته على نفسه وأهله و ينصحوه بالتخفيف من شدته وأن يتناول من بيت المال ما يوسع به على نفسه وأهله فماذا كان جوابه لهؤلاء وما هى حجته فيما فرض على نفسه؟ يدخل عليه ابن أبى زكريا[3] فيقول: ياأمير المؤمنين إنى أريد أن أكلمك بشيء قال: قل. قال: قد بلغنى أنَّك ترزق العامل من عمالك ثلاث مائة دينار، قال: نعم قال: ولم ذلك؟ قال أردت أن أغنيهم عن الخيانة. قال: فأنت ياأمير المؤمنين أولى بذلك. قال: فأخرج ذراعه وقال: ياابن أبى زكريا أنَّ هذا نبت من الفيء ولست معيدا اليه منه شيئا أبداً[4]. فهو يريد أن يكفر بتقشفه نعيمه السالف وترفه السابق فقد أخذ من مال الفيء الكفاية وفوقها فهو لا يريد الآن أن ينال من مال الفيء شيئا لأنّه يرى أنّه لا يستحق.

---

١ ــ ابن عبد الحكم ٤٤، والبداية والنهاية ٩/٢٢٦.

٢ ــ ابن عبد الحكم ٤٢، العقد الفريد ٤/٤٣٥، ابن الجوزى ١٥٧ باختلاف.

٣ ــ عبد الله بن أبى زكريا الخزاعى ثقة قليل الحديث صاحب غزو من أهل دمشق. الطبقات ٧/١٦٣.

٤ ــ ابن عبد الحكم ٣٩ وابن الجوزى ١٦٣.

وكان له صحابة يحضرونه يعينونه برأيهم و يسمع منهم فحضروه يوما فأطال الصبح فقال بعضهم لبعض: تخافون أنْ يكون تغير. قال: فسمع ذلك مزاحم ــ مولاه ــ فدخل فأمر من أيقظه فأخبره ما سمع من أصحابه وأمره فأذن لهم فلما دخلوا عليه قال: إنى أكلت هذه الليلة حمصا وعدسا فنفخنى، فقال بعض القوم: ياأمير المؤمنين إنَّ الله يقول في كتابه «**كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُم**»(١). فقال عمر: هيهات ذهبت به الى غير مذهبه إنما يريد به طيب الكسب ولا يريد به طيب الطعام(٢).

طيب الكسب لا طيب الطعام

فكأنه يرى أنَّ تناوله من بيت مال المسلمين لا يعتبر كسبا طيبا بالنسبة له لذلك فهو لا يحل له أن يأخذ منه شيئا ــ رحمك الله ياعمر.

فقد رأى عمر بن عبد العزيز أنَّ جاهه وسلطانه إنما ينبعان من طاعته لله وشدة خوفه منه وعفته عن مال الأمة ثم في إقامته العدل ومحقه الظلم في أرجاء دولته الواسعة، فهو يقول لميمون بن مهران: إذا جاءك كتاب منى على غير الحق فاضرب به الأرض(٣). ثم هو يقول لعمرو بن مهاجر ــ قائد حرسه: إذا رأيتنى قد ملت عن الحق فضع يدك في تلابيبى ــ أى مجمع الثياب ــ ثم هزنى ثم قل ياعمر ماذا تصنع؟(٤). ولم يكن في سلطانه مستضعفا ولا وانيا فقد كانت كتبه تصل إلى أربونة وكانت هيبته تملأ قلوب عماله ومعاونيه ولم تكن تغيب عن عينه زاوية من زوايا دولته الواسعة ولا يند عنه عمل عامل من عماله ولا يسكت عن خطأ يقع فيه واحد منهم فسرعان مايُقومه ومن يلمس منه ظلما أو انحرافا سرعان ما يبدله، و يسعى جهده ليعيش الناس في عهده يظلهم العدل وتشيع بينهم الرحمة حتى لا يبقى فيهم شقى ولا محروم وقد فعل.

هيبته

---

١ ــ الآية ٨١ سورة طه، الآية ١٧٢ سورة البقرة.

٢ ــ الطبقات ٥/٢٧٠.

٣ ــ البداية والنهاية ٩/٢٢٥.

٤ ــ الحلية ٥/٢٩٢ ابن الجوزى ١٧٢.

وتحين وفاته و يعلم أقاربه وأولاد عمه بدنو الاجل فتأخذهم الشفقة على أولاد عمر فأحب بعضهم أن يكون وصيا على أولئك الفقراء القاصرين فيأتى مسلمة بن عبد الملك ــ وهو ناب بنى عبد الملك في وقته وأخو فاطمة زوجة عمر ــ فيدخل على عمر فيقول: ألا توصى ياأمير المؤمنين؟ قال: فيم أوصى؟ فوالله إنْ لى من مال (أى مالى من مال) فقال مسلمة: هذه مائة ألف فمر فيها بما أحببت. فقال: أو تقبل؟ قال: نعم. قال: تُرَدُّ على من أخذت منه ظلما. (رحمك الله ياعمر حتى وأنت على فراش الموت لم تنس رد المظالم ولا الأمر بالمعروف ولا النهى عن المنكر ولم تتردد لحظة عما نصبت نفسك له) فيبكى مسلمة ثم يقول: يرحمك الله لقد ألنت لنا قلوبا قاسية وأبقيت لنا في الصالحين ذكرا(١). ثم يقول لعمر: ياأمير المؤمنين إنك أقفرت أفواه ولدك من هذا المال فتركتهم عالة لا شيء لهم فلو أوصيت بهم إليَّ أو إلى نظرائى من أهل بيتك؟ فيقول عمر: أسندونى ثم قال: أما قولك إنى أقفرت أفواه ولدى من هذا المال فإنى والله ما منعتهم حقا هو لهم ولم أعطهم ما ليس لهم ــ وأما قولك لو أوصيت بهم اليَّ أو إلى نظرائى من أهل بيتك فوصيي ووليى فيهم الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين. بنى أحد رجلين إما رجل يتقى فسيجعل الله له فرجا وإما رجل مكب على المعاصى فإنى لم أكن لأقويه على معصية الله. ثم بعث إليهم وهم بضعة عشر ذكرا قال: فنظر إليهم فذرفت عيناه فبكى ثم قال: بنفسى الفتية الذين تركتهم عيلى لا شيء لهم. بلى بحمد الله قد تركتهم بخير، أى بنى إنكم لن تلقوا أحداً من العرب ولا من المعاهدين إلاّ كان لكم عليهم حق، أى بنى إن أمامكم ميلاً بين أمرين: بين أن تستغنوا و يدخل أبوكم النار وأنْ تفتقروا و يدخل أبوكم الجنة فكان أن تفتقروا و يدخل أبوكم الجنة. أحب إليه

عند الساعة الاخيرة

لمن اوصى بأولاده

---

١ ــ الكامل للمبرد ٢٠٣/١ ابن الجوزى ٢٧٩.

من أن تستغنوا و يدخل أبوكم النار. قوموا عصمكم الله(١).

ولكن ألم يترك عمر بن عبد العزيز لورثته مالا أو غلة مما لم يشك في كم ترك مصدره؟ يقول عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز وقد سئل كم ترك لكم عمر من المال؟ فيبتسم الابن و يقول: حدثني مولى لنا كان يلي نفقته: قال لي عمر حين احتضر: كم عندك من المال؟ قلت أربعة عشر دينارا. فقال: تحتملوني بها من منزل الى منزل. فيسأل الابن وكم ترك لكم من الغلة؟ ــ أي الدخل السنوي ــ قال: ترك لنا غلة ستمائة دينار كل سنة: ثلاثمائة دينار ورثناها عنه وثلاثمائة دينار ورثناها عن أخينا عبد الملك ــ وكان قد مات قبل أبيه ــ وتركنا اثني عشر ذكرا وست نسوة اقتسمنا ماله على خمسة عشر(٢). ولكن هل افتقر أبناؤه من بعده؟ في القصة التالية عبرة لأولي الالباب: قال الخليفة المنصور لعبد الرحمن بن القاسم ابن محمد بن أبي بكر: عظني قال بما رأيت أو بما سمعت؟ قال المنصور: بما رأيت. قال: مات عمر بن عبد العزيز رحمه الله وخلف أحد عشر ابنا ــ (الرواية السابقة اثني عشر) و بلغت تركته سبعة عشر دينارا ــ (الرواية السابقة أربعة عشر) ــ كفن بخمسة واشترى له موضع قبره بدينارين، وقسم الباقي على ولده فأصاب كل ذكر منهم تسعة عشر درهما. ومات هشام بن عبد الملك فقسمت تركته على أولاده فأصاب كل واحد منهم ألف ألف ورأيت رجلا من ولد عمر قد حمل في يوم واحد على مائة فرس في سبيل الله عز وجل ورأيت رجلا من ولد هشام يتصدق عليه الناس(٣).

اولاده من بعده

---

١ ــ ابن عبد الحكم ٩٧ــ٩٨، الحلية ٥/٣٣٤ صفة الصفوة ١٢٥ــ٢/١٢٦ والبداية والنهاية ٩/٢٣٥، ابن الجوزي ٢٨٠.

٢ ــ حلية الاولياء ٥/٣٣٤.

٣ ــ ابن الجوزي ٢٩٦.

فـلـيعتبر أولئك الذين ما إن يصلوا إلى سدة الحكم أو الوزارة أو الادارة حـتـى لا يـكـون هـم أحدهم إلا جمع المال وإخراجه من البلاد وإيداعه في خـزائـن المـصـارف الـيـهـوديـة والـكـافـرة حرصا على مستقبلهم ومستقبل أولادهـم بـعـد أن تـسـتـيـقـظ الشعوب يوما فتهوى بهم من فوق كراسيهم وتـركـلـهـم بـأقـدامـهـا خارج الحدود إن لم تقط رقابهم وتخمد انفاسهم، فـتـراهـم يستعدون لذلك اليوم بالمال يسلب و يهرب و بوسائل للهرب تعد وتـدرب وهـم دائما في قلق وخوف وتر بص وانتظار لعدم ثقتهم بشعوبهم وعـدم ثـقة شعوبهم بهم لأنّهم لم يصلوا إلى كراسى السلطة إلا نزوا و وثبا واغـتـصـابا ولم ينظروا في مصلحة هذه الشعوب يوما واحدا ولم يحاولوا أن يـصـلـحـوا مـا بـيـنـهـم و بين شعوبهم عن طريق إزالة المظالم ورفع الجور والـعـدوان والحكم بالحق والعدل والإحسان بل يثبون إلى السلطة بدعوى فـسـاد الـسلطة القائمة فيزداد بهم الفساد وتتعدد ألوانه ولا يخسر من جرّاء ذلك سوى الشعوب المغلوبة على أمرها.

المبحث الرابع

عمر بن عبد العزيز والتركة المثقلة

«يابنى إنّ آباءك وأجدادك قد دَعُوا الناس عن الحق
فانتهت الأمور إليّ وقد أقبل شرها وأدبر خيرهـا»(١)
عمر بن عبد العزيز

انحراف القافلة

سنون مضت تقارب الستين والقافلة تسير منحرفة بقادتها بعيدا عن نهجها الواضح ودر بها السوى، حتى نشأت أجيال لا تعرف سوى هذا الطريق طريقا ولا ترى إلاّ هذا المنهاج منهاجا، أمور.. فنى عليها الكبير وكبر عليها الصغير وفصح عليها الأعجمى، وهاجر عليها الأعرابى حتى حسبوها دينا لا يرون الحق غيرها(٢). ولا يعرف إلاّ الأقلّون أنَّ القافلة قد ضلت طريقها وتاهت في بيداء بعيدا بعيدا عن الاستقامة، ومن عرفوا ذلك لا يسمع لهم صوت وإنْ سمع كبت واخرس، حتى جاء عمر بن عبد العزيز فأوقف القافلة ومنعها السير في طريقها المعوج وأخذ بزمامها ليعيدها إلى طريقها المستقيم، إذ نظر فوجد أنَّ خلفاء بنى أميَّة منذ معاوية ــ رضى الله عنه ــ حتى سليمان بن عبد الملك قد انحرفوا ببيت مال المسلمين عن طريق الله وطريق رسول الله وخلفائه من بعده، فقد أخذوا بيت المال ميراثا لهم ينفقون منه كما يشاءون و يعطونه من يشاءون ويحرمونه من يشاءون فأصبح بيت مال الدولة المسلمة لا يفترق عن أى بيت مال لدولة غيرمسلمة، فقد انحرف به الأمو يون موارد مصادر مداخل ومخارج فلم يعد بيت مال المسلمين بل خزانة خاصة للخلفاء وولاة الأقاليم والقواد يتصرفون به دخلا وخرجا كما يشاءون وكما تشاء أهواؤهم.

التركة المثقلة

---

١ ــ الكامل في التاريخ ٦٥ــ٦٦/٥ وابن الجوزى ٢٦٣ باختلاف.
٢ ــ ابن عبد الحكم عن عمر بن عبد العزيز ٣٧.

ولذلك حينما جاء عمر بن عبد العزيز وجد أمامه تركة مثقلة بالأوزار وقافلة ضلت طريقها في بيداء مهلكة، فآلى على نفسه أن يخلص هذه التركة من أثقالها وأوزارها وأن يرد القافلة إلى طريقها التى أرادها الله لها، ولكن أنّى له ذلك؟ وهل يستطيع أن ينفذ ما يريد وأن يصل إلى ما يصبو إليه في دولة مترامية الأطراف تضم الشرق والغرب وتمتد من جبال الصين شرقا حتى جبال البرانية غربا فيها أجناس لا يحصيها العد ولغات شتى وألوان من البشر قلما تجتمع في دولة واحدة؟ كيف يستطيع أن يرد القافلة إلى الطريق المستقيم بعد انحراف طال أمده وحال كما وصفناه؟.

نجاح المحاولة ودلالتها

نعم لقد حاول ونجح في ذلك نجاحا منقطع النظير وفي فترة من عمر الزمن قصيرة لم تصل إلى ثلاثين شهرا، فوحد الدولة كلها هدفا وغاية وصفا، ورد الأمور إلى نصابها بطريقة أذهلت ولا تزال تذهل الباحثين وتقلب رأسا على عقب تقديرات الوضعيين والماديين. وتدل بوضوح كامل لا يشوبه غبش أنَّ الشريعة والحكومة إذا اجتمعتا كان في اجتماعهما كل الخير للبشرية في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة. و يدل عمل عمر بن عبد العزيز هذا على إمكان الإصلاح في كل عصر وفي كل مصر إذا وُجِد قائد أخلص نفسه لله وحمل الأمة على طريق الله دون تردد أو خوف ما دام قد وصل بالله نفسه و وضع نصب عينيه رضاء الله رب العالمين.

وفى هٰذا الكتاب دراسة لعمل عمر بن عبد العزيز في بيت المال واقتصاد الأمة وكيف استطاع أن يصحح الأوضاع المالية لتلك الدولة التى وصفنا لعل الله أن يفتح بهذا قلوبا غلفا وأعينا عميا وآذانا صما فتسير في طريق الهداية وتخلص الأمَّة الإسلامية من انحراف طال أمده

وظلام اشتد سواده مستهدية بخطى الماضين سائرة على درب السالفين الصالحين منحرفة عن طريق الضالين المشككين.

«وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُم أَجْمَعِين»[1](١)

---

١ ــ النحل آية: ٩

الفصل الثاني

الدولة قبل وفي عهد عمر بن عبد العزيز

المبحث الاول: الدولة العربية الإسلامية في أقصى اتساعها

مقاييس لابد منها

لكى تتضح الرؤية تماما أمام أبصارنا وتبرز المعالم و يعلم مقدار ما قدم عمر بن عبد العزيز من جهد وما عمل من تصحيح لإعادة النهر إلى مجراه الأ ول، ولكى نستطيع أن نزن العمل الذى قام به هذا الخليفة الراشد ميزانا عدلا، يجب أن يراعى معرفة المكان والزمان والسكان الذى جرت به وفيه ومعهم هذه التجر بة الفريدة، ولابد أن نلقى ضوءا كاشفا على الدولة العر بية الإسلامية قبيل وفي عهد عمر بن عبد العزيز ونرى مقدار اتساعها وضخامتها وترامى أطرافها وتعدد شعوبها وتنوع لغاتها لنرى مقدار ذلك الجهد الجبار والعمل الرائد الذى كان يبذله ذلك الخليفة الراشد ونقدره حق قدره ونضع تلك التجر بة الرائدة في مكانها اللائق بها في التاريخ لنحاول أن ننسج على منوالها في إحقاق الحق ورفع راية العدل، ونردد مع الشاعر العر بى قوله:

نبنى كما كانت أوائلنا تبنى ونفعل مثلما فعلوا

ونردد مع الفرزدق بغير[1] نيته

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم إذا جمعتنا ياجرير المجامع

الدولة الإسلامية في نهاية القرن الاول الهجرى

فالدولة العر بية الإسلامية في نهاية القرن الأ ول الهجري قد بلغت أقصى اتساع لها تحت راية خليفة واحد وإدارة واحدة، فهى تمتد على رقعة هائلة من الأ رض المعمورة في ذلك الوقت فهى من الشرق تحاذى الصين

---

١ ــ حيث كانت نيته هجاء جرير.

والهند وتلتهم أجزاء من أراضيهما وفي الشمال الشرقي تصطدم مع الترك والبلغار وتستحم في بحيرة خوارزم و بحر الخزر. وفي الشمال تكافح الدولة الرومانية الشرقية وتقتطع أجزاء من اراضي آسيا الصغرى وتصافح البحر الأسود وفي الغرب تعانق المحيط الاطلسى وتنحرف شمالا غربياً لتضم الهضبة الاسبانية وتقف فوق جبال البيرانيه لتطل على بلاد الفرنجة مع السيطرة على عظم البحر الابيض، وفي الجنوب تطوف سفنها بحر الهند مع السيطرة الكاملة على البحر الاحمر. ولو جئنا الآن لنلقى نظرة على تلك الأرض الشاسعة لوجدنا أنها تشتمل على قريب من أربعين دولة أعضاء في هيئة الامم المتحدة ــ أى أنها تضم ربع العالم المتحضر في القرن العشرين للميلاد، وهذه الدول منها ما هو خاضع للصين مثل التركستان الصينية أو للروس مثل التركستان السوفيتية وجمهورية طاشقند، وأزبكستان وجمهورية أرمينية السوفيتية، ومنها ما هو مستقل مثل: الباكستان، وأفغانستان، إيران، والعراق، وتركيا، وسوريا، وعمان، واليمن الجنوبي، والبحرين، وقطر، والسعودية، والامارات العربية، ولبنان، والاردن، وفلسطين، والكويت، واليمن الشمالى، والصومال، وجيبوتي، وأرتريا، ومصر، وليبيا، وتونس، والجزائر، والمغرب، واسبانيا، والبرتغال عدا عن جزر في البحر الأبيض المتوسط كقبرص ورودس وغيرها.

هذه الدولة المتسعة الأطراف المترامية الأكناف كان يحكمها شخص واحد من دمشق أرض العروبة والإسلام وإليه يجبى خراجها وإليه تصير جزيتها وأخماسها و يسيطر عليها، و يُنْشَر عليها في عهد عمر بن عبد العزيز ألوية خفاقة للعدل والحرية والمساواة والأمن والرخاء في فترة من عمر الزمن لم تصل إلى ثلاثين شهرا على الرغم من اتساع أطرافها وسوء

المواصلات فيها لو قسناها بما جد في عصرنا من وسائل ما كان يحلم بها أولئك، فلم تكن مواصلاتهم سوى ظهور دوابهم من خيل و بغال وإبل فلا طائرات ولا قطارات ولا سيارات ولا راديو ولا تليفون ولا برق، وعلى الرغم من ذلك فقد كانت عين هذا الخليفة اليقظ ترى وأذُنُه تسمع و يعلم كل ما يجرى في أنحاء دولته كأنه موجود في كل شبر فيها و يسيطر على مقدراتها و يوجه عماله و ولاته وقضائه ويحملهم على سياسته الراشدة ويجعل الناس في كل مكان منها على صلة به دائما فينشر بينهم ما يرى من العدل والحق ولو لم يطلبوه مهما تناءت دارهم و بعدت بلادهم و يرد لهم حقوقهم فلا يفلت من يده ظالم كما لم يضع عنده حق.

ولعل الله عز وجل أراد بولاية عمر بن عبد العزيز على غير انتظار من أحد وقصر مدة خلافته وعظيم ما جرى على يده فيها من العدل والحق والاحسان ــ أقول لعل الله عز وجل أراد بذلك كله أن يقيم الحجة الدامغة على كل حاكم مسئول تولى شيئا من مقاليد هذه الأمة وادَّعى العجز عن تطبيق شريعة الحق والعدل شريعة الله.

وعلى كثرة ما كان يجبى إليه من خيرات البلاد وأموالها وعلى كثرة ما كان تحت يده من جيوشها ومعداتها لم يطغ يوما ولم يتكبر لحظة واحدة ولم يسرف فيضع درهما في غير موضعه ولم يأخذ درهما من غير حق، بل منع نفسه وأهله كل حق لهم في مال المسلمين فلم يرزأ بيت المال درهما، ولما قيل له أن يأخذ لنفسه ما كان يأخذ عمر بن الخطاب قال: كان عمر لا مال له وأنا مالى يغنينى(١)، وما ماله؟ غلة أرض أحياها في السويداء مقدارها مائتا دينار سنويا، ومات يوم مات وليس في خزانته سوى أربعة عشر دينارا منها جهزت جنازته. رحمه الله.. فاعتبروا ياأولى الأبصار.

---

١ ــ العقد الفريد ٤/٢٧١.

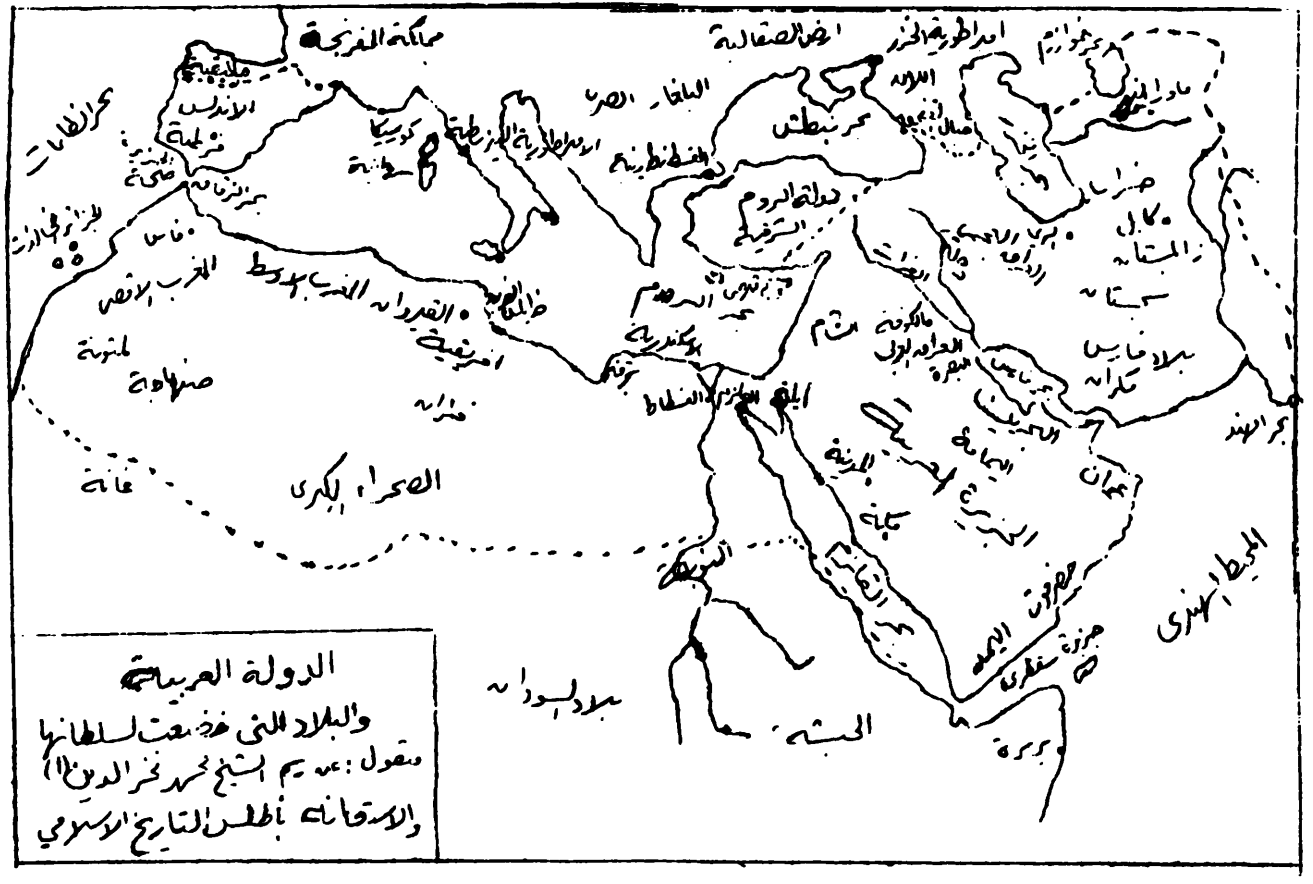
الدولة العربية
والبلاد التي خضعت لسلطانها
تقول: عمل الشيخ محمد فخر الدين
والاستعانة بأطلس التاريخ الاسلامي
الصحراء الكبرى
البحر الابيض المتوسط
البحر الاحمر
المحيط الهندي
بلاد السودان
الحبشة
اليمن
عمان
مصر
الشام
العراق
فارس
الهند
المغرب الاقصى
المغرب الاوسط
المغرب الادنى
الاندلس
مملكة الفرنجة
الدولة الرومية الشرقية
الدولة العباسية
الدولة الفاطمية
الدولة الامية
الدولة الطولونية
الدولة الاخشيدية
الدولة الاغلبية
الدولة الادريسية
الدولة الرستمية
الدولة الزيرية
الدولة الحمادية
الدولة الموحدية
الدولة المرينية
الدولة الزيانية
الدولة الحفصية
الدولة المرابطية
الدولة الغزنوية
الدولة السلجوقية
الدولة الخوارزمية
الدولة الايوبية
الدولة الرسولية
الدولة الطاهرية
الدولة الصفوية
الدولة العثمانية
الدولة المغولية
الدولة التيمورية
الدولة الصفارية
الدولة السامانية
الدولة البويهية
الدولة الزنكية
الدولة الاتابكية
الدولة الغورية
الدولة الخلجية
الدولة التغلقية
الدولة اللودية
الدولة السورية
الدولة المغولية
الدولة الشيبانية
الدولة الصفوية
الدولة العثمانية
الدولة المغولية
الدولة التيمورية
الدولة الصفارية
الدولة السامانية
الدولة البويهية
الدولة الزنكية
الدولة الاتابكية
الدولة الغورية
الدولة الخلجية
الدولة التغلقية
الدولة اللودية
الدولة السورية
الدولة المغولية
الدولة الشيبانية

المبحث الثانى

الدولة الإسلامية قبيل عهد عمر سياسة واقتصادا

الوليد بالشام، والحجاج بالعراق وعثمان بن حيان بالحجاز
وقرة بن شريك بمصر، امتلأت الأ رض والله جـــورا(١)
عمر بن عبد العزيز

والله لا يأمرنى أحد بتقوى الله بعد مقامى هذا إلا ضر بت عنقه(٢)
عبد الملك بن مروان

أوشك القرن الأ ول الهجري على الانقضاء والدولة الامو ية قد استفحلت قوتها واتسعت أركانها فكل يوم تضم الى رقعتها الواسعة أراضى جديدة في الشرق والغرب والشمال وجنودها في كل ناحية يصارعون أعداءهم فيتغلبون عليهم في أكثر الاحيان ويجمعون بعد كل معركة عديدا من الغنائم والأسلاب من كل صنف ولون، وكل هذا يصب كالسيل الهادر في دمشق عاصمة الدولة.

مظهر الدولة

والناظر لهذه الدولة من خارجها يرى بنيانا سامقا وقوة رادعة وعظمة راسخة وجيوشا جرارة يصاحبها الفوز في أغلب معاركها، و يرى خلفاء بل ملوكا يفيضون على حواشيهم والمقر بين إليهم الأموال الضخمة بلا حساب وولاة وقواد ينفقون ببذخ وإسراف، وأمة تعيش منتصرة تساق إليها السبايا والرقيق من كل جنس ولون.فترف في كل ناحية وسرف و بذخ ونعيم وحياة لاهية عابثة يحياها الأمراء والأشراف والعظماء.

---

١ ــ الحلية ٥/٣٠٩ والنجوم الزاهرة ٢١٨ــ١/٢٣٣ وابن الجوزى بزيادة ــ ومحمد بن يوسف باليمن ــ٣٧.

٢ ــ تاريخ الخلفاء ٢١٩، فوات الوفيات ٢/٣٣.

ما وراء المظهر

ولكن المتمعن فيما وراء هذه المظاهر يرى هيكلا ضخما باطنه خواء و بناء شاهقا ينخره السوس والبلاء، فعلى الرغم من تلك المظاهر التى توحى بالقوة والقدرة والشموخ كانت هناك حقائق لا يدركها إلا المتفحصون توحى بقرب انهيار ذلك البناء وسقوط تلك الدولة إن لم يُقدر لها من يزيل من بنيانها ذلك الفساد الخفى الجلى، فعلى الرغم من مظاهر القوة البادية فقد كانت هناك أمراض منتشرة تنخر قوائم ذلك البناء وتوهى دعائمه.

ومن أهم أمراض تلك الدولة مرضان أخذا ينهكان بناءها حتى قضيا عليها وهذان الداءان هما الفساد الاقتصادى والفساد السياسى، وهما داءان يصاحبان الغنى والطغيان. فخلفاء بنى أمية كانوا ملوكا فاقوا في جبروتهم وطغيانهم و بذخهم وإسرافهم قياصرة الروم وأكاسرة الفرس، وخاصة بنى مروان منهم فقد اتخذوا عباد الله خولا، ومال الله دولا، فكأن الدولة مزرعة للخليفة ينفق أموالها كما يشاء على نفسه وأسرته و بطانته ومن يلوذ به من متملقين ومتزلفين. فبيت مال المسلمين عاد خزانة خاصة للخليفة ينفق منه كما يشاء ولا حساب. وقواده و ولاته في أمصارهم بالخليفة مقتدون وللمال حائزون، ينفقونه كما تشاء لهم الأهواء والنزعات فإذا حدث نقص في الميزانية أزيل بظلم العباد وزيادة الضرائب.فبعد أن كانت الأموال تؤخذ من الأغنياء لترد على الفقراء ــ كما هى شريعة الله في الزكاة ــ أصبحت الأموال تؤخذ من الفقراء فترد على الأغنياء من أمراء وشعراء وخطباء وأبناء، وعدلت الضرائب المفروضة وأموال الخراج وأموال الصلح وزيدت كلها وفرضت ضرائب جديدة لم تكن قبلا، واستعملت كافة الطرق الظالمة لتحصيلها حتى يستطيع الخلفاء والولاة أن ينفقوا عن سعة و يسرفوا كما يشاءون، و يستطيعوا أيضاً أن يقاوموا

الفساد الاقتصادى

بداية الفساد المالى و بعض أمثلته

الثورات المتعددة التى قامت ضد ظلمهم وطغيانهم وجبروت ولاتهم وعمالهم.

استصفاء معاوية «رضى» الصوافى

وأوّلُ من خالف سنة الخلفاء الراشدين في المال معاوية رحمة الله حيث استصفى صوافى(١) والبلدان لنفسه إذ لما ولى عبد الله بن دراج مولاه خراج العراق وكتب إليه: احمل إليَّ من مالها ما أستعين به، فكتب إليه ابن دراج يعلمه أنَّ الدهاقين أعلموه أنَّه كان لكسرى وآل كسرى صوافٍ يجتبون مالها لانفسهم ولا تجرى مجرى الخراج. فكتب اليه: أن أحص تلك الصوافى واستصفها واضرب عليها المسنيات. فجمع الدهاقين فسألهم. فقالوا: الديوان بحلوان. فبعث فأتى به فاستخرج منه كل ما كان لكسرى وآل كسرى وضرب عليه المسنيات ــ أى السواقى ــ واستصفاه لمعاوية فبلغت جبايته خمسين ألف ألف درهم من أرض الكوفة وسوادها. وكتب الى عبد الرحمن بن أبى بكرة بمثل ذلك في أرض البصرة وأمرهم أن يحملوا إليه هدايا النيروز والمهرجان، فكان يحمل إليه في النيروز وغيره وفي المهرجان عشرة آلاف ألف(١).

ولكن البلاذرى يخالف في ذلك اليعقوبى إذ يقول: إن هذه الأراضى استخرجها عبد الله بن دراج لمعاوية من موات مرفوض ونقوع مياه

الصوافى أو القطائع

١ ــ الصوافى: هى أرضٍ أصفاها عمر بن الخطاب رضى الله عنه وجعلها ملكا للدولة وتكون لها غلتها أى ما يخرج منها. قالوا: أصفى عمر بن الخطاب من السواد عشرة أصناف: أرض من قتل في الحرب وأرض من هرب من المسلمين وكل أرض لكسرى. وكل أرض لأهل بيته وكل مغيض ماء وكل دير بريد قال: فكان غلة ما أصفى سبعة آلاف ألف. الأموال ٣٩٩: والخراج لأبى يوسف ٥٧ ونسى الراوى أربع خصال أخرى. ثم يقول أبو يوسف ص٥٨، فكان عمر رضى الله عنه يقطع من هذا لمن أقطع. ثم يقول: وذلك بمنزلة المال الذى لم يكن لأحد ولا في يد وارث فللإمام العادل أن يجيز منه و يعطى من له غناء في الإسلام و يضع ذلك موضعه ولا يحابى به، ثم يقول: وإنما صارت القطائع يؤخذ منها العشر لأنها بمنزلة الصدقة وإنما ذلك للإمام إن رأى أن يصير عليها عشرا فعل وإن رأى أن يصير عليها عُشرَين فعل وإن رأى أن يصيرها خراجا إذا كانت تشرب من أنهار الخراج فعل ذلك موسعا عليه.

٢ ــ اليعقوبي ٢/٢١٨.

ومغايض وآجام ضرب عليها المسنيات ثم قلع قصبها ــ ثم لما جاء عبد الملك بن مروان حازها له الحجاج وعمرها(١). و يقول في مكان اخر(٢). «لما ولى معاو ية بن أبى سفيان ولى عبد الله بن دراج مولاه خراج العراق واستخرج له من الأ رضين بالبطائح ما بلغت غلته خمسة آلاف ألف وذلك أنه قطع القصب وغلب الماء بالمسنيات (والذى أرى أن رواية اليعقو بي مبالغ فيها وأنّ الاقرب إلى الصواب رواية البلاذرى لأنّه يسندها رواية أبى عبيدة ورواية أبى يوسف في مقدار غلة الصوافى في عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه لأنّه ليس من المعقول أن تكون غلة هذه الصوافى في زمن عمر رضى الله عنه سبعة آلاف ألف في أعلى الروايتين ثم تصبح في زمن معاو ية خمسين ألف ألف من أرض الكوفة وسوادها فقط).

من أوليات معاو ية (رضى)

وكانت مصر والمغرب لعمرو بن العاص طعمه شرطها له معاو ية يوم بايع فكان عمرو لا يحمل اليه من مالها شيئا يفرق الأعطية في الناس فما فضل من شيء أخذه لنفسه(٣).

ولما مات عمرو بن العاص استصفى معاو ية ماله وكان أول من استصفى مال عامل، ولم يكن يموت لمعاو ية عامل إلاّ شاطر ورثته ماله، فكان يكلم في ذلك فيقول: هذه سنة سنها عمر بن الخطاب(٤) وسنرى أنَّ معاو ية نفسه أوصى بشطر ماله أن يرد إلى بيت المال. و يقول اليعقوبي:(٥) إنَّ معاو ية أول من استصفى أموال الناس فأخذها إلى نفسه. و يقول: وفعل معاو ية بالشام والجزيرة واليمن مثل ما فعل بالعراق من استصفاء ما كان للملوك من الضياع وتصييرها لنفسه خاصة، وأقطعها أهل بيته وخاصته وكان أول من كانت له الصوافى في جميع الدنيا

١ــ ٣٥٥ــ٣٥٦ من البلاذرى فتوح البلدان.
٢ ــ المرجع السابق ص ٣٥٩.
٣ ــ اليعقوبى ٢/٢٢١، ٢/١٨٦.
٤ ــ اليعقوبى ٢/٢٢٢
٥ ــ اليعقوبى ٢/٢٣٢.

حتى بمكة والمدينة فإنّه كان منهما يحمل كل سنة من أوساق التمر والحنطة(١). ثم يقول في موضع آخر وولى يزيد بن معاوية عثمان بن محمد بن أبى سفيان فأتاه ابن مينا ــ عامل صوافى معاوية ــ فأعلمه أنّه أراد حمل ما كان يحمله في كل سنة من تلك الصوافى من الحنطة والتمر، وان أهل المدينة منعوه من ذلك(٢). و يزيد ابن عساكر الأمر وضوحا في كيفية استيلاء بنى أمية على أرض الصوافى في العراق والشام وغيرها وإقطاعها وهبتها لمن يشاؤون حيث يقول بعد حديثه عن أرض العنوة ــ أى الأرض التى استولى عليها بحد السيف ــ وحكمها يقول: لما هزمت الروم هربت البطارقة عما كان في أيديها من المزارع فلحقت بارض الروم ومن قتل منها في تلك المعارك التى كانت بين المسلمين والروم فصارت تلك المزارع والقرى صافية للمسلمين موقوفة يقبلها(٣) والى المسلمين كما يقبل الرجل مزرعته. فلم تزل تلك المزارع موقوفة مقبلة تدخل قبالتها بيت المال فيخرج نفقة مع ما يخرج من الخراج(٤) حتى كتب معاوية في امرته على الشام الى عثمان «رضى الله عنه» أن الذي أجراه عليه من الرزق في عمله ليس يقوم بمؤن من يتدم عليه من وفود الأجناد ورسل أمرائها ومن يقدم عليه من رسل الروم ووفودها ووصف في كتابه هذه المزارع الصافية وسماها له وسأله أن يقطعه إيّاها ليقوى بها على ما وصف له وقال: إنّها ليست من قرى أهل الذمة ولا من الخراج فكتب إليه عثمان بذلك كتابا فلم تزل بيد معاوية حتى قتل عثمان وأفضى الأمر إلى معاوية فأقرها على حالها (وقد رأينا في رواية اليعقوبى كيف أن معاوية استولى أيضاً على

---

١ ــ اليعقوبى ٢/٢٣٢.

٢ ــ اليعقوبى ٢/٢٣٤.

٣ ــ التقبيل هو المزارعة.

٤ ــ وهذا يدل على أنّ غلة الصوافى تعتبر من الفيء ومصارفها مصارف الفيء وأما إذا صارت عشرية فقد اختلفت وأصبحت في قسم الصدقات.

كل صوافي العراق والجزيرة العربية). ثم جعلها من بعده حبسا على فقراء أهل بيته والمسلمين. ثم إنّ ناسا من قريش وأشراف العرب سألوا معاوية أن يقطعهم من بقايا تلك المزارع التى لم يكن عثمان أقطعه إيّاها ففعل، فمضت لهم أموالاً يبيعون ويمهرون و يورثون. فلما أفضى الأمر إلى عبد الملك بن مروان ــ وقد بقيت من تلك المزارع بقايا لم يكن معاوية أقطع منها أحداً شيئا سأله أشراف الناس القطائع منها ففعل. ثم إنَّ عبد الملك سُئل القطائع وقد مضت تلك المزارع لأهلها فلم يبق منها شيء، فنظر عبد الملك إلى أرض خراج قد باد أهلها ولم يتركوا عقبا فأقطعهم منها ورفع ما كان عليها من خراجها عن أهل الخراج ولم يحمله أحداً من أهل القرى وجعلها عشرا ورآه جائزا له مثل إخراجه من بيت المال الجوائز الخاصة، فلم يفعل ذلك حتى لم يجد من تلك الأرض شيئا، فسأل الناس عبد الملك والوليد وسليمان قطائع من أرض القرى التي بأيدي أهل الذمة فأبوا ذلك عليهم ــ (وقد ثبت أنّ بنى مروان أقطعوا بعض أبنائهم وخاصتهم بعضا من أموال أهل الذمة) ــ ثم سألهم أن يأذنوا لهم في شرى الأرض من أهل الذمة فأذنوا لهم على إدخال أثمانها بيت المال ــ إلى أن يقول: ووضعوا خراج تلك الأرض عمن باعها منهم وعن أهل قراهم وصيروها لمن اشتراها تؤدى العشر(١). من هذا النص نتبين أنَّ بنى أمية استولوا على الأملاك العامة للدولة لأنفسهم وأقطعوها لمن يريدون من خاصتهم وحولوها من مال عام فائدته للمسلمين جميعا ــ إذ هو مال فيء يصرف في أعطيات المسلمين ومنافعهم العامة ــ حولوها إلى مال خاص و وضعوا عليه العشر فغيروا صفته وحرموا بيت المال دخلا عظيما كل عام.

ثم هم لم يكتفوا بذلك بل زاد الأمر شدة في عهد بنى مروان الذين قامت دولتهم بالسيف فاستولوا على أجزاء من أرض الخراج بحجة أنَّ

---

١ ــ تاريخ ابن عساكر ١٨٢ــ١٨٣/١.

أهلها قد بادوا فأقطعوها كذلك وحولوها إلى أرض غير خراجية، ثم أجازوا بيع الأرض الخراجية ورفعوا الخراج عنها مع أن كلا الأمرين لم يجزه أحد من الأئمة السابقين بل وردت الأدلة على عكسه و يأتى ذلك موضحا في محله من مبحث الخراج إن شاء الله. وقد سبب فعلهم هذا نقصا كبيرا في مداخيل بيت المال وكسر الخراج ــ كما كانوا يسمون النقص الحاصل ــ فأدى ذلك بالطبع إلى فرض ضرائب جديدة بطرق أخرى لا يخلو أكثرها من ظلم فادح لحق بدافعى الضرائب وخاصة المزارعين والتجار، منها ضرائب كانت أيام الاكاسرة والقياصرة فألغاها الإسلام ثم أعادوها وأضافوا إليها، وقد رأينا كيف فرض معاو ية على الناس هدايا النيروز والمهرجان وكان يحمل إليه منها عشرة آلاف ألف درهم كل سنة عدا عما يستولى عليه الولاة والعمال، ثم ازداد الأمر شدة في عهد الحجاج خليفة عبد الملك على العراق فكان من جملة مساوئه إبقاء الجزية على من يسلم من أهل الذمة وهو أول من سن هذه السنة السيئة في العراق وخراسان ثم عممت في الدولة، وهذا كتاب من عمر بن عبد العزيز يبين فيه للناس ما وضع الله عنهم من الضرائب الظالمة: «أمَّا بعد فاقرأ كتابى هذا على أهل الأرض بما وضع الله عنهم على لسان أمير المؤمنين من المظالم والتوابع التى كانت تؤخذ منهم في: النيروز والمهرجان، وثمن الصحف وأجر الفيوج ــ (أى الرسل) ــ وجوائز الرسل، وأجور الجهابذة وهم القساطرة(١) وأرزاق العمال وإنزالهم، وصرف الدنانير التى كانت تؤخذ منهم من فضل ما بين السعرين، في الطعام الذى كان يؤخذ منهم فضل ما بين الكيلين وليحمدوا الله عز وجل»(٢) فهذه ثمانى ضرائب كانت مفروضة على أهل الأرض وهم المزارعون بجانب ما يؤدونه من

بعض أنواع الضرائب التى كان يفرضها بنو أمية

١ ــ الجهابذة والقساطرة ــ الصيارفة.

٢ ــ ابن عبد الحكم ١٣٧.

الخراج والجزية، وفي كتاب أخر يرسله لعبد الحميد بن عبد الرحمن يذكر عمر رحمه الله أنواعاً أخرى من الضرائب يمنع عماله من أخذها منها عدا ما سبق: (ولا أجور الضرابين ولا إذابة الفضة، ولا أجور البيوت ولا دراهم النكاح)(١)، وغير ذلك من المظالم العديدة مما سيأتى مفصلا في المباحث التالية إن شاء الله، وهذا عبد الملك بن مروان يبعث الضحاك بن عبد الرحمن الاشعرى على أهل الجزيرة (أى الفراتية) فيستقل ما كان يؤخذ منهم، فيحصى الجماجم ويجعل الناس كلهم عمالا بأيديهم ويحسب ما يكسب العامل سنته كلها ثم يطرح من ذلك نفقته في طعامه وأدمه وكسوته وحذائه و يطرح أيام الاعياد في السنة كلها فوجد الذى يحصل بعد ذلك لكل واحد أربعة دنانير، فألزمهم ذلك جميعا وجعلها طبقة واحدة، ثم حمل الأموال على قدر قربها و بعدها فجعل على كل مائة جريب(٢) زرع مما قرب دينارا وعلى كل ألف أصل كرم مما قرب دينارا وعلى كل ألفى أصل مما بعد دينارا، وعلى الزيتون على كل مائة شجرة مما قرب دينارا وعلى كل مائتى شجرة مما بعد دينارا، وحملت الشام على مثل ذلك وحملت الموصل على مثل ذلك، مع أنَّ عياض بن غنم حينما فتح الجزيرة على عهد عمر بن الخطاب ــ كان قد وضع على كل جمجمة دينارا ومدين قمحا وقسطين زيتا وقسطين خلا وجعلهم جميعا طبقة واحدة(٣).

تغيير بني مروان شروط الصلح وصفات الأرض

وقد كانت اليمن قد دخلت في الإسلام على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يفرض رسول الله صلى الله عليه وسلم على أهلها سوى الزكاة. وكانت الجزية على من بقى على دينه من أهل الكتاب دينارا على كل محتلم(٤). فلما ولى محمد بن يوسف اليمن ــ وهو أخو الحجاج ــ

مع أهل اليمن

١ــ الخراج لأبى يوسف ٨٦.

٢ــ الجريب ــ مساحة محدودة.

٣ ــ الخراج لأبى يوسف ٤١.

٤ ــ فتوح البلدان ٨٦.

أساء السيرة وظلم الرعية وأخذ أراضى الناس بغير حقها، فكان مما اغتصبه الحرجة، وضرب على أهل اليمن خراجا جعله وظيفة عليهم(١). وكانت الجباية في منتهى القسوة والبغى. وقد اعتاد جباة الخراج في بلاد فارس تقويم المحاصيل قبل زمن الحصاد وإرغام المزارعين عن النزول لهم عنها بثمن أقل من الثمن الذى يتبايع به الناس(٢). وكان النهب والسلب للأموال العامة أمرا معروفا للخاص والعام فما من وال يولى إلاَّ و يسرق و يغتصب، وحينما يعزل يحاسب و يعذب ليرد شيئا مما سرقه. ففى عهد عبد الملك والحجاج كان يعمل تحقيق دقيق مع الجباة وموظفى الخراج والولاة عند اعتزالهم أعمالهم وكانوا يعذبون حتى يردوا إلى بيت المال ما سلبوه من الأموال، فعندما عزل المهلب بن أبى صفرة عن فارس بعد انتهاء أمر الخوارج و ولى خراسان طالبه الحجاج بمليون(٣) درهم لم يكن معه منها شيء، لأنه كان إذا عزل استقرض ــ (لإسرافه و بذخه). فكلم أبا ماوية مولى عبد الله بن عامر فأسلف المهلب ثلاثمائة ألف، و باعت زوجته خيرة القشيرية حليا لها ومتاعا بمائتى ألف وحمل له ابنه المغيرة ــ وكان على اصطخر ــ خمسمائة ألف فحملها إلى الحجاج(٤). وكذلك لما عزل يزيد بن المهلب عن خراسان طالبه الحجاج بستة ملايين درهم وسجنه وعذبه ولم ينقذه إلا سليمان بن عبد الملك حينما هرب من سجنه واستجار به ودفع عنه(٥).

وهكذا أصبح بيت المال الذى كان ملكا للأمة كلها ملكا لفرد واحد خاضعا لشهواته وتصرفاته لدرجة أنْ جعل الوليد بن عبد الملك سهما في

---

١ ــ فتوح البلدان ٨٨.

٢ ــ السيادة العربية ٢٨.

٣ ــ البداية والنهاية ٩/٢٤.

٤ ــ الطبرى ٧/٢٨١ والسيادة العربية ٢٤.

٥ ــ الطبرى ٨/٨٣.

خمس العرب لجارية تسمى عالية البربرية وأعطى ابنه الخمس كله(١)، وأعطيت أموال الصدقات لغير مستحقيها ممن أحاط بالخليفة من المنتفعين والمتزلفين من الشعراء والجلساء والندماء تنفق عليهم بسخاء وعظم الأمة يعيش تحت سيف القهر والإرهاب والبغى. فهذا عبد الملك بن مروان يخطب الناس في المدينة و يهددهم بعد أن رفضوا أن يأخذوا مالا من أموال الصدقة مع أعطياتهم يقول: أما بعد فإنه من كان قبلى من الخلفاء يأكلون هذا المال و يُؤكِلون وإنى والله لا أداوى أدواء هذه الأمة إلاّ بالسيف، ولست بالخليفة المستضعف ــ يعنى عثمان ــ ولا بالخليفة المداهن ــ يعنى معاوية ــ ولا بالخليفة المأفون ــ يعنى يزيد ــ أيها الناس إنّا نحتمل لكم كل اللغوبة ــ أو أشغوية ــ ما لم يكن عقد راية أو وثوبا على منبر، هذا عمرو بن سعيد حقه حقه وقرابته قرابته قال برأسه هكذا. فقلنا بسيفنا هكذا وإنَّ الجامعة التى خلعها من عنقه عندى وقد أعطيت الله عهدا أن لا أضعها في رأس أحد إلا أخرجها الصعداء فليبلغ الشاهد الغائب(٢).

تهديد عبد الملك لاهل المدينة

وحينما انتهت ثورة ابن الأشعث التى قامت ضد ظلم الحجاج ومولاه عبد الملك و يهزم الثائرون يكتب عبد الملك إلى الحجاج «أن ادع الناس إلى البيعة فمن أقر بالكفر فخل سبيله إلاّ رجلا نصب راية أو شتم أمير المؤمنين»(٣) ــ فعجبا كل العجب من يقر على نفسه بالكفر يخلى سبيله وأما من شتم أمير المؤمنين فيقتل فكأن شتم أمير المؤمنين جرم أعظم من الردة والكفر، إذا لا يسلم من السيف إلاّ من اعترف بكفره وارتداده وهكذا أصبح الخروج على الظلم كفرا وارتدادا وشتم الخليفة أو الملك

---

١ ــ من رسالة عمر بن عبد العزيز لعمر بن الوليد الحلية ٥/٢٧٠ وابن الجوزى ١١٣ــ١١٤.

٢ ــ تاريخ خليفة بن خياط ١/٣٤٩ والبداية والنهاية ٩/٧٠.

٣ ــ تاريخ خليفة بن خياط ١/٣٦٥.

سببا يبيح الدم ويحل القتل ــ ولا جديد تحت الشمس ففى عصرنا سمعنا ورأينا وقرأنا في كثير من القوانين الوضعية أن شخص الملك أو الرئيس مصون لا يمس ولا يعاب فمن مسه بعيب أبيح دمه فما أشبه الليلة بالبارحة.. ولا عجب فلعبد الملك وأشباهه من الطغاة سلف في ذلك الطغيان فهذا يزيد بن معاو ية أمر قائده بعد موقعة الحرة أن يبايع الناس من سكان المدينة بعد المذبحة أنهم خوَل ــ أى عبيد ــ ليزيد بن معاو ية يحكم في أهليهم ودمائهم وأموالهم كما يشاء(١).

وهذا سليمان بن عبد الملك يحج في إحدى السنوات و ينفق مالا عظيما أعطاه الناس و يسأل عمر: كيف رأيت ما فعلنا ياأبا حفص؟ فيجيبه عمر: رأيتك زدت أهل الغنى غنى وتركت أهل الفقر بفقرهم(٢). و يقف بعرفات معه و يقول لعبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد: العجب لأمير المؤمنين استعمل رجلا على أفضل ثغر للمسلمين، فقد بلغنى عمن يقدم من التجار من ذلك الوجه أنه يعطى الجارية من جواريه مثل سهم ألف رجل، أما والله ما أراد الله بولايته. فيقول غالب القطان(٣) راوى الخبر: فعرفت أنه يعنى يزيد ــ ابن المهلب ــ والجهنية ــ جاريته(٤). و يزيد نفسه هو الذى اتخذ ألف خوان يطعم الناس عليها فأخذها صالح بن عبد الرحمن ــ وكان عامل الخراج ــ فقال له يزيد: أكتب ثمنها عليَّ. واشترى متاعا كثيرا وصك صكاكا إلى صالح لباعتها فلم ينفذ، فرجعوا إلى يزيد فغضب وقال: هذا عملى بنفسي ــ (لأنه هو الذي أشار على سليمان بتولية صالح بن عبد الرحمن الخراج) ــ فلم يلبث

انحراف وسرف ابن المهلب

---

١ ــ تاريخ خليفة بن خياط ١/٢٩١.

٢ ــ ابن عبد الحكم ١١٢.

٣ ــ غالب القطان ــ غالب بن خطاف الراسبي كان ثقة: الطبقات ٧/٣٢.

٤ ــ الطبرى ٨/١١٦.

أن جاء صالح فأوسع له يزيد فجلس وقال ليزيد: ما هذه الصكاك؟ الخراج لا يقوم لها، وقد انفذت لك منذ أيام صكا بمائة ألف وعجلت لك أرزاقك وسألت مالا للجند فأعطيتك فهذا لا يقوم له شيء ولا يرضى أمير المؤمنين وتؤخذ به. ولكنه مازال به حتى أجازها(١). وقد كان قبله على خراسان أمية بن عبد الله عاملا لعبد الملك كان يقول: ما أكتفى بخراج خراسان وسجستان لمطبخى(٢).

والحجاج نفسه قبيل إحدى معاركه مع ابن الاشعث ــ ومعه يومئذ مائة وخمسون ألف ألف ففرقها في قواده وضمنهم إياها وأقبل منهزما إلى البصرة(٣).

وكل هذا وغيره الكثير دليل على أن هؤلاء الولاة والعمال والخلفاء كانوا ينفقون أموال بيت مال المسلمين على أتباعهم وحواشيهم والمتزلفين إليهم فإذا عزلوا وحوسبوا فإمّا أن يدفعوا ما نقص أو يسجنوا أو يسوغهم الخلفاء ما نهبوه وسواء كان هذا أو ذاك فالخاسر في ذلك كله هو بيت مال المسلمين، والعبء بعد ذلك كله يقع على كاهل دافعى الخراج والضرائب المتعددة الذين كانوا يرزحون تحت عبء ثقيل ثقيل ينتظرون بفارغ الصبر يوما يزاح عنهم هذا العبء ويحسون بالراحة والامن والاطمئنان، ومن الأمثلة على تسويغ الخلفاء بعض ولاتهم ما أخذوه ما فعله معاوية رضى الله عنه حينما عزل عبد الله بن عامر عن البصرة إذ قال له: اختر بين أن أتبع أثرك وأحاسبك بما صار إليك وأردك إلى عملك، و بين أن أسوغك ما أصبت وتعتزل فاختار أن يسوغه ذلك و يعتزل(٤).

---

١ ــ الطبرى ٨/١١٤.

٢ ــ الطبرى ٨/٢٧٨.

٣ ــ الطبرى ٨/٧٣ والبداية والنهاية ٩/٤١.

٤ ــ الطبرى ٦/١٢٢.

وكذلك فعل يزيد ابنه مع عبد الرحمن بن زياد ــ وكان على خراسان ــ إذ سأله: كم قدمت به معك من المال من خراسان؟ قال: عشرين ألف ألف درهم . فقال: إن شئت حاسبتك وقبضناها منك ورددناك على عملك وإن شئت سوغناك وعزلناك وتعطى عبد الله بن جعفر خمسمائة ألف درهم. قال بل تسوغنى ما قلت و يستعمل عليها غيرى(١).

و يزيد هذا هو الذى أعطى عبد الله بن جعفر في مجلس واحد أربعة آلاف ألف درهم(٢). وقد كانوا يعلمون أن كثيرا مما يأخذونه لا يحل لهم فمعاو ية بن ابى سفيان لما حضرته الوفاة أوصى بنصف ماله أن يرد الى بيت المال ــ كأن أراد أن يطيب له الباقي لأنَّ عمر قاسم عماله(٣). وقد وفد الأحنف بن قيس وجارية بن قدامة والجون بن قتادة والحتات بن يزيد الى معاو ية بن أبى سفيان فأعطى كل رجل منهم مائة ألف وأعطى للحتات سبعين ألفا(٤). هبات الاموال

وكذلك فعل ابنه يزيد حينما وفد إليه وفد أهل المدينة وفيهم عبد الله ابن حنظلة معه ثمانية بنين فأعطاه مائة ألف وأعطى بنيه كل رجل منهم عشرة آلاف سوى كسوتهم وحملانهم(٥).

و بعد أن سمع عبيد الله بن زياد بوفاة يزيد بن معاو ية ومبايعة أهل البصرة له دخل عليه ليلا شفيق بن ثور ومالك بن مسمع وحصين بن المنذر دخلوا عليه ليلا وهو في دار الإمارة ثم خرجوا آخر الليل ومعهم بغل موقر

---

١ ــ الطبرى ٦/١٧٦.
٢ ــ البداية والنهاية ٩/٣٧.
٣ ــ الطبرى ٢/١٨٢.
٤ ــ الطبرى ٦/١٣٥.
٥ ــ تاريخ خليفة بن خياط ١/١٨٩.

مالا فأخذوه وانصرفوا(١). وقد كان في بيت مال عبيد الله بن زياد ــ بعد موت يزيد ــ ثمانية آلاف ألف وفي رواية تسعة عشر ألف ألف نقلها حين هرب فهي تردد إلى اليوم في آل زياد(٢).

وهذا المهلب وقد قدم عليه أبو وجزة السلمى فقال: أصلح الله الأمير إنّى قطعت إليك الدهناء وضربت إليك أكباد الإبل من يثرب فقال: هل أتيتنا بوسيلة أو قرابة أو عشيرة؟ قال: لا ولكنى رأيتك لحاجتى أهلا، فان قمت بها فأهل ذلك أنت، وإن يحل دونها حائل لم أذمم يومك ولم أيأس من غدك. فقال المهلب: يعطى ما في بيت المال. فوجد فيه مائة ألف درهم، فدفعت إليه فأنشأ يقول: من الإسراف

يامن على الجود صاغ الله راحته ... فليس يحسن غير البذل والجود
عمت عطاياك من بالشرق قاطبة ... فانت والجود منحوتان من عود

(وهكذا مائة الف درهم من مال المسلمين تعطى لغير مستحق ولغير وجه إنّما لكى يوصف بالكرم والجود ولو على حساب المسلمين وأموالهم).

وقد كان الخلفاء يقطعون الأقاليم لمن يساعدهم في الوصول لأغراضهم فمعاوية يعطى مصر طُعمة لعمرو بن العاص طيلة حياته فلا يستفيد بيت المال المركزى منها شيئا(٣). ومروان بن الحكم يشترط عليه الحصين بن نمير أن ينزل ــ البلقاء من كان بالشام من كندة وأن يجعلها مأكلة لهم فأعطاه ذلك(٤). اقطاع الاقاليم

---

١ ــ الطبرى ٧/١٨.
٢ ــ الطبرى ٧/٢٠ــ٢١.
٣ ــ اليعقوبى ٢/٢٢١.
٤ ــ الطبرى ٧/٤٣.

(وكان الحصين بن نمير قد بايع مروان بن الحكم وساعده في الوصول الى الحكم).

كما أنَّ مصر كانت طعمة لعبد العزيز بن مروان طيلة حياته كذلك. و يذكر الطبرى أنَّ أصبهان كانت سنة ٦٨ طعمة لإسماعيل بن طلحة بن مصعب بن الزبير فبعث عليها عتاب بن ورقاء(١).

الحالة السياسية

وهذا كله وغيره مما يلقى ظلا ثقيلا من الظلم والجور على دافعى الضرائب وموردى الأموال، فكان لابد من الشدة في الجباية والتنوع في الضرائب المفروضة ــ كما رأينا ــ ليسد كل عجز يطرأ على أى بيت مال في الدولة سواء في العاصمة أو الأقاليم ــ ومما كان يزيد الحالة الاقتصادية سوءا تلك الاحوال السياسية المضطربة في الدولة منذ قيامها وتلك الحروب الدائرة دوما على حدودها، وقد يقال إنَّ الحروب الخارجية كانت تدر على الدولة أموالا ضخمة من الخمس والغنائم وأموال الصلح والأسلاب. ولكن مع صحة هذا الرأى فقد كان الى جانب ذلك حملات خارجية لا تؤدى الغرض منها ولا تكون ناجحة، فتكون خسارتها هائلة في الاموال والرجال والعتاد. وأقرب مثل على ذلك هو حملة عبد الرحمن بن الأشعث التى جهزت للقضاء على عدو خارجى وهو رتبيل(٢) ولكنها عادت لتحارب الدولة فخسرت الدولة ما أنفقته عليها وكلفتها الى جانب ذلك أموالاً طائلة أخرى وجيوشا جرارة وجهودا جبارة للقضاء عليها الى جانب ما أصاب البلاد من الخراب والدمار من جراء هذه الثورة، ثم حملة القسطنطينية في عهد سليمان بن عبد الملك حيث فشلت فشلا ذريعا وخسرت الدولة خسارة هائلة في تجهيز هذه الحملة البرية البحرية.

---

١ ــ الطبرى ٧/١٦٦.

٢ ــ رتبيل ــ لقب ملوك الترك في ذلك الوقت.

وأما الثورات الداخلية فحدث ولا حرج فمنذ تولى بنو أمية الحكم والثورات لم تهدأ ضد حكمهم وكان أهم مشعليها الخوارج من ناحية ثم الشيعة ثم الثائرون ضد الظلم أو طمعا في الحكم، فما أن يتولى معاوية الحكم حتى تثور عليه الخوارج فما أن يقضى على ثورة حتى تثور أخرى ــ وإن كانت في عهده لم تأخذ تلك الثورات طابعها العنيف كما حدث في عهد بنى مروان ــ فمن ثورات الخوارج زمن معاوية ثورة فروة بن نوفل الأشجعى سنة ٤٠ وهى أول ثورات الخوارج ضد بنى أمية ثم توالت بعد ذلك ثوراتهم فمنهم المستورد بن علفة التميمى ومعاذ بن جوين الطائى وقريب وزحاف ثم ثورة الموالى وهى أول ثورة لهم(١).

فلما تولى يزيد زاد الأمر حدة والثورات شدة فمن ثورة الحسين ومقتله التى كانت السبب المباشر لانقسام الأمة وظهور أمر الشيعة وثوراتهم ضد بنى أمية، ثم ثورة المدينة وموقعة الحرة وثورة ابن الزبير وحصار مكة.

ولما مات يزيد بن معاوية اختلط الامر وكاد الزمام يفلت من بنى أمية إلى الابد فقام مروان بن الحكم وفي معركة مرج راهط(٢) كان الفيصل وفتحت تلك المعركة بابا من الحروب القبلية بين قيس واليمن لم يغلق إلاّ بالقضاء على ملك بنى أمية بعد ذلك، ثم حروب مروان بن الحكم ضد ابن الزبير ثم ثورة المختار بن أبى عبيد والتوابين وأخيراً القضاء على ابن الزبير وانفراد عبد الملك بن مروان بالحكم بعد قريب من ثمانى سنوات من وصوله إلى الحكم كانت كلها حروبا متصلة في الداخل والخارج، فما أن يستتب له الأمر و يقضى على ابن الزبير حتى

---

١ ــ اليعقوبى ٢/٢١٧ فما بعدها.

٢ ــ مرج راهط ــ بغوطة دمشق وفيه حدثت الوقعة الشهيرة بين اليمنيين أتباع مروان بن الحكم والقيسيين ومن شايعهم أتباع عبد الله بن الزبير سنة ٦٤، وكان النصر لمروان بن الحكم واليمنيين وقتل من القيسيين مقتلة عظيمة، يراجع في هذه الوقعة الطبرى وغيره من كتب تاريخ حوادث سنة ٦٤.

يلتفت إلى الخوارج أتباع نافع ابن الأزرق ثم قطرى بن الفجاءة ثم شبيب بن يزيد. وغيرهم ثم ثورة مطرف بن المغيرة وعبد الرحمن بن الاشعث(١). وكل هذه الثورات كاد تدمر سواد العراق وخراسان وفارس وتنضب بيت مال الشام، ولم تهدأ الأمور نوعا ما إلا في نهاية أيام عبد الملك وجاء الوليد بن عبد الملك وقد استتب الأمر في الداخل فلم تقم للخوارج في زمنه قائمة وكانت الحروب في الخارج وعلى الحدود في صالح الدولة العربية فقد كان قتيبة بن مسلم في الشرق يجبى مغانم لا تحصى و يفتح بلادا ومدنا، وكان موسى بن نصير في الغرب يفتح البلاد ويجمع الغنائم والأسلاب والدولة في أقصى قوتها الحربية، ومع ذلك لم يرفع عن المظلومين مظلمة رغم غنى الدولة الفاحش. وقد أنفق الوليد ما لا يحصى في بناء المساجد والحصون والقصور فقد بنى مسجد دمشق ومسجد بيت المقدس والمسجد النبوى بالمدينة وكان جملة ما أنفقه على بناء مسجد دمشق أربعمائة صندوق من الذهب في كل صندوق أربعة عشر ألف دينار في رواية، وفي أخرى ثمانية وعشرين ألف دينار فيكون مجموع ما أنفق على الرواية الأولى خمسة ملايين وستمائة ألف دينار وعلى الرواية الثانية أحد عشر مليونا ومائتى ألف دينار(٢). وقد احتج الناس على هذا الإسراف وقالوا أينفق فيئنا و يتلف ما في بيوت أموالنا في نقش الخشب وتزو يق الحيطان ثم كأنه قد حرمنا أعطياتنا واعتل علينا بذهاب المال وقلته. فلما بلغته مقالتهم جمعهم وخطبهم و بين لهم أن في بيوت المال عطاء ست عشرة سنة مستقبلة، وفي رواية أنه أحضر المال إلى الجامع ووزنها أمام الناس وأحصى من في الديوان ممن يأخذون العطاء فكانوا ثلا ثمائة ألف

---

١ ــ يراجع حوادث سنة ٨١ فما بعدها الطبرى وغيره.

٢ ــ البداية والنهاية ٩/١٦٦ وابن عساكر ١/٢٠٦.

ألف[1] فوجدوا عنده رزق ثلاث سنين[2]. فهذا يدل على غنى الدولة في ذلك الوقت ومع ذلك فقد كان الفلاحون وخاصة في العراق. يتركون أراضيهم و يلجأون إلى المدن و يعلنون إسلامهم مما سبب نقصا فاحشا في خراج سواد العراق، وكان السبب في ذلك ظلم الحجاج وعماله وجباته وكثرة ما يفرض على الفلاحين من الضرائب، فاشتط الحجاج وزادت شدته ورد الفلاحين الهاربين وختم على أيديهم أسماء قراهم وفرض عليهم الجزية والخراج. فقد ذكر الطبرى أنّ عمال الخراج كتبوا إليه: أنّ الخراج قد انكسر وأن أهل الذمة قد أسلموا ولحقوا بالأمصار. فكتب إلى البصرة وغيرها أن من كان له أصل في قرية فليخرج إليها، فخرج الناس فعسكروا فجعلوا يبكون و ينادون يامحمداه يامحمداه، وجعلوا لا يدرون أين يذهبون فجعل قراء البصرة يخرجون اليهم متقنعين فيبكون لما يسمعون منهم و يرون[3].

ولعل هذا من الأسباب التى جعلت القراء والموالى ينضمون إلى ابن الأشعث حينما قام بثورته. ومع شدة الحجاج وجبروته لم يكن يستخرج من خراج العراق كبير أمر، يقول ابن خرداذبه: جبى عمر بن الخطاب السواد مائة ألف ألف وثمانية وعشرين ألف ألف درهم، وجباه عمر بن عبد العزيز مائة ألف ألف وأربعة وعشرين ألف ألف درهم، وجباه الحجاج بن يوسف ثمانية عشر ألف ألف درهم ليس فيها مائة ألف ألف

---

١ ــ هذا عدد مبالغ فيه جدا لأنه ليس من المعقول أن يكون من يأخذ المرتبات مبلغ عددهم ثلا ثمائة مليون فكم كان عدد سكان الدولة إذاً؟.

٢ ــ ابن عساكر ٢٠٥ــ١/٢٠٦ وفى إحدى الروايات أنه قال: «والله ما أنفقت في عمارة هذا المسجد درهما من بيوت المال وإنما هذا كله من مالى» (وهذا أعجب وأغرب فمن أين جاءته هذه الأموال الضخمة؟ أترى ورثها عن أبيه عبد الملك وجده مروان أم عن جد أبيه الحكم طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟.

٣ ــ الطبرى ٨/٣٥.

وذلك لعسفه وخرقه وظلمه وأسلفهم ألفى ألف درهم فحصل له ستة عشر ألف ألف ومنع أهل السواد من ذبح البقر لتكثر الحراثة والزراعة فقال الشاعر:

شكونا اليه خراب السواد فحرم جهلا لحوم البقر(١)

وتقول الدكتورة سيدة الكاشف: ولجأت الحكومة منذ عصر عبد الملك ولأسباب اقتصادية إلى فرض الخراج على أرض الذميين الذين يعتنقون الإسلام، وإلى إرجاع الموالى من المدن إلى أراضيهم الزراعية حتى لا يزداد الهبوط في دخل الأرض بسبب الانصراف عن الزراعة(٢).

فهى تقول أن الأسباب الاقتصادية هى التى دفعت حكومة عبد الملك الى فرض الخراج وإرجاع الموالى لأنها تقول في مكان آخر «ومن الوجهة النظرية كان القبطى الذى يعتنق الإسلام تصبح أرضه عشرية»(٣).

وأقول: إذا كانت الحكومة ــ أى حكومة ــ تفرض ضرائب لأسباب اقتصادية فيجب تحقيقا للعدالة أن ترفع هذه الضرائب عن أكتاف الناس بعد ارتفاع الاسباب الموجبة لفرضها، ولكن الضرائب التى فرضها بنو مروان لم تنقص بل زادت مع ازدياد دخل الدولة واستقرار الأوضاع فيها، وأما فرض الخراج على أرض الذميين للأسباب الاقتصادية لأن أرضهم تصبح أرض عشر بإسلامهم فهذا غير صحيح لأن الأرض الخراجية لا يجوز أن تصبح أرض عشر بإسلام مالكها أو بيعها لمسلم وقد جرى على ذلك عمل عمر بن الخطاب رضى الله عنه والخلفاء الراشدون من بعده، ولم تحول الأرض الخراجية إلى أرض عشر بإسلام مالكها إلاّ في

---

١ ــ المسالك والممالك ١٤ــ١٥.

٢ ــ الوليد بن عبد الملك ٢١٤.

٣ ــ المرجع السابق ٩٤.

عهد عبد الملك حينما أذِن للعرب بشراء أرض الخراج وفرض عليها العشر وأسقطها من الخراج، وهذا مخالف لفعل الخلفاء الراشدين المهديين،وهو من الأسباب التى أدت بعمر بن عبد العزيز بعد ذلك إلى منعه بيع أرض الخراج(١)، وإنما الذى فرضه الحجاج في عهد عبد الملك هو إبقاء الجزية أى خراج الرؤوس على من يعتنقون الإسلام وهذا سبب استنكار القراء والعلماء،حتى قال يزيد بن أبي حبيب(٢): أعظم ما أتت هذه الأمة بعد نبيها صلى الله عليه وسلم ثلاث خصال: قتلهم عثمان، وإحراقهم الكعبة، وأخذهم الجزية من المسلمين(٣).

---

١ ــ يراجع في ذلك مبحث الخراج من هذا الكتاب.

٢ ــ يزيد بن أبى حبيب أبو رجاء مولى بنى عامر ثقة كثير الحديث. مات سنة ١٢٨ في مصر الطبقات ٢٠٢/٧.

٣ ــ الأموال ٦٨.

الفصل الثاني
المبحث الثالث
أثر سياسة الدولة في المجتمع وعودة الجاهلية

صورة للواقع

اللهم قد صار فيئنا دولة بعد القسمة، وإمارتنا غلبة بعد المشورة، وعهدنا ميراثا بعد الاختيار للأمة، واشتريت الملاهى والمعازف بسهم اليتيم والأرملة، وحكم في أبشار المسلمين أهل الذمة، وتولى القيام بأمورهم فاسق كل محله، اللهم وقد استحصد زرع الباطل و بلغ نهايته واجتمع طريده، اللهم فأتح له يدا من الحق حاصدة تبدد شمله، وتفرق أمره ليظهر الحق في أحسن صوره وأتم نوره. سديف بن ميمون مولى اللهبيين(١)

انتقال جديد

كانت نهاية الخلافة الراشدة واستحكام الدولة الاموية ــ التى كانت عربية أكثر منها إسلامية ــ وكانت ملكا أقرب منها خلافة ــ كانت انتقالا جديدا في تاريخ الإسلام وفرصة انتهزتها الجاهلية التى كانت ولا تزال بالمرصاد، فعاشت النزعات الجاهلية التى قضى عليها الاسلام وعادت العصبيات القبلية والنخوة الجاهلية التى نعاها النبى صلى الله عليه وسلم بقوله: إنّ الله قد أذهب عنكم النخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ــ كلكم من آدم وآدم من تراب لا فخر لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى الا بالتقوى(٢).

والتى نفاها الإسلام من حواضره ومراكزه فلجأت إلى بادية العرب، عادت هذه العصبيات إلى نشاطها ونفوذها وأصبحت هذه العصبية الذميمة والنخوة الأثيمة والأثرة القبلية والطائفية والنسبية ــ التى هى أشد خطرا على المصلحة الاجتماعية وأشد معارضة للروح الإسلامية من

---

١ ــ عيون الاخبار ١/٧٦.

٢ ــ الحديث روى في الطبقات ٢/١٠٣ بلفظ «أذهبوا عنكم عُبِّيَّة الجاهلية وفخرها بآبائها، الناس كلهم بنو آدم وآدم من تراب».

الأثرة الفردية ــ عادت ــ فضيلة هذه الحياة ومفخرة من مفاخر الانسان بعد ما كانت رذيلة من رذائل الجاهلية وسبة على الرجل المؤمن.

انقلاب في دوافع العمل

وحدث انقلاب خطير في دوافع العمل التى هى من أقوى العوامل في الحياة الفردية والجماعية، فأصبح الرجل في هذا العهد مدفوعا إلى العمل مدفوعا إلى المكرمات والبطولات وإلى الجود والمواساة بدافع من السمعة والرياء والظهور في القبائل والمجامع والتفوق على الأقران بعدما كان مدفوعا إلى ذلك بدافع من الأجر وثواب الآخرة ورضا من الله.

وكان خلفاء بنى أمية وراء هذا كله إذ أرادوا اشغال القبائل بعضها ببعض وتقريب بعضها وإقصاء بعض آخر لإثارة الحزازات والعصبيات حتى لا تتجمع الأمة وتستخلص الحق الذى اغتصبه بنو أمية.

نعم لقد ساست الدولة الاموية الناس سياسة أقل ما يقال فيها إنها بعيدة عن روح الإسلام قريبة من العصبية الجاهلية التى جاء الإسلام ليقضي عليها، فقرب خلفاء الامويين إليهم من يرون فيهم أيدياً باطشة بأعدائهم أو ألسنة ناطقة بمحامدهم أو متزلفين يرون فيهم مكانا لإحسانهم، من شعراء متملقين أو خطباء منافقين أو رؤساء قبائل منتفعين. ــ فقد أصبح بيت المال الذى كان ملكا للأمة ملكا لفرد واحد خاضعا لشهواته وتصرفاته، وكان المبدأ الإسلامى المسيطر على هذه الأموال هو ما ذكره الرسول صلى الله عليه وسلم كلمته الجامعة «تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم»(١)، فأصبح المبدأ المسيطر في هذا العهد «تؤخذ من فقرائهم وترد على أغنيائهم وأمرائهم وشعرائهم». وأحاطت بالخليفة هالة من الشعراء المنحرفين والنسماء المتزلفين المتملقين تنفق عليهم أموال الصدقات ــ بسخاء. فبينما كان القاسق يقصى ويجفى

انقلاب المفاهيم

---

١ ــ حديث شريف في كتب السنة. الاموال ٧٨٢ فما بعدها.

أصبح يكرم و يدنى لشعره أو غنائه في السياسة أو مصالح الدولة، فقد حدث المؤرخون أن الأخطل كان يدخل على عبد الملك بغير إذن وعليه جبة خز وفى عنقه صليب ذهب ولحيته تنفض خمرا.

شيوع الغناء

وقد شاع الغناء في العهد الأموى شيوعا عظيما وعظم الشغف به في حواضر الدولة الإسلامية حتى يزور مغن مثل حنين المدينة ويجتمع الناس في منزل من منازل البلد و يزدحمون على السطح و يكثرون ليسمعوه فيسقط الرواق على من تحته ويموت المغنى تحت الهدم. إلى غير ذلك من الظواهر التى تدل على تطور المجتمع الإسلامي ونزعاته الجديدة.

وقد أثرت سياسة الدولة وحياة رجال الحكم المترفة تأثيرها الطبعى في ميول الناس ومقاييسهم للسعادة والشرف ونشأت في المسلمين طبقة مترفة تشبه المترفين في الأمم القديمة في أخلاقها وسلوكها ورغباتها ولا تمتاز عنهم إلا ببعض العقائد والعبادات و بالبقية الباقية من الإسلام، وقد دل كل شيء في هذا المجتمع على أنه تدلى تدليا عظيما وعلى أن الجاهلية الثائرة الموتورة قد نهضت تنتصف من منافسها ــ الإسلام ــ وهى حريصة كل الحرص على أن لا تفوتها الفرصة وتريد أن تستوفى أربعين سنة مضت في ازدهار الإسلام روحيا وخلقيا في بضع سنين(١).

بعض مظاهر عودة الجاهلية

وقد ظهر تأثير الجاهلية في سلوك الناس وتغير نظرتهم إلى الأشياء فمن مظاهر عودة الجاهلية في ذلك العهد سرعة الناس إلى سفك الدماء يستوى في ذلك الخلفاء والامراء والولاة والقواد، إذ كانت الدماء تراق لأتفه الأسباب وكان دم المسلم أهون على أحدهم من دم بقة على ثوبه، ومن أقرب الأمثلة على ذلك موقف الحجاج من مناوئى الدولة والخارجين على ظلمها وعدوانها وجورها: فقد كان الحجاج لا يكتفى بقتل من يقتل في

---

١ ــ رجال الفكر والدعوة بتصرف ٢٤ــ٢٥.

المعارك بل كان قلما ينجو منه أسير وقع في يديه، فبعد يوم الزاوية ــ وكان للحجاج على ابن الأشعث قتل الحجاج أحد عشر ألفا ما استحيا منهم إلا واحدا(١).

قتل الأسرى المسلمين

و بعد القضاء على ثورة ابن الأشعث كتب عبد الملك إلى الحجاج: أن ادع الناس إلى البيعة فمن أقر بالكفر فخل سبيله إلا رجلا نصب راية أو شتم أمير المؤمنين(٢).

وليس هذا خاصا بالحجاج بل سبقه الى ذلك مسرف بن عقبة المرى فبعد وقعة الحرة واستباحته مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ بايع الناس على أنهم عبيد ليزيد بن معاوية ومن أبى ذلك قتل(٣).

بل إن الأمر وصل إلى أشنع من ذلك فبعد أن قتل معاوية حجر بن عدى ومن معه ــ بتهمة التشيع ــ بعث بعبد الرحمن بن حسان العنزى إلى زياد بن أبيه فدفنه حيا بقس الناطف(٤).

وهذا بسر بن أبي أرطاة يسير الى المدينة فيجد قوما من بني كعب وغلمانهم على بئر فألقاهم في البئر(٥) بحجة أنّهم أعانوا على عثمان رضى الله عنه، و يسير الى اليمن فيجد غلامين صغيرين لعبيد الله بن عباس فيذبحهما(٦).

قتل الغلمان والصبيان

---

١ ــ الطبرى ٨/٣٥.

٢ ــ تاريخ خليفة بن خياط ١/٣٦٥.

٣ ــ مروج الذهب ٣/٧٩ والإمامة والسياسة ١/٢١٤.

٤ ــ الطبرى ٦/١٥٥ وقس الناطف موضع قرب الكوفة وهو مكان معركة الجسر.

٥ ــ الطبرى ٦/١٠١.

٦ ــ مروج الذهب ٣١/ ٣.

فإذا كان الخلفاء والولاة والقواد يقتلون الخارجين على الدولة أو المتهمين بالخروج بغير البينة القاطعة و بعد الوقوع في الأسر والأمان بل يقتلون الأطفال والشيوخ فإنّ الحال مع الخارجين أشد شناعة وأفحش جرما وخاصة إذا كان الأمر أمر عصبية قبلية جاهلية ففى القتال بين ربيعة ومضر ــ وكان على مضر عبد الله بن خازم(١). وعلى ربيعة أوس ابن ثعلبة وحاصرت مضر ربيعة وقد خندقوا على أنفسهم ــ سنة، فقال عبد الله بن خازم يوما لأصحابه: قد طال مقامنا على هؤلاء فنادوهم يامعشر ربيعة إنّكم قد اعتصمتم في خندقكم أفرضيتم من خراسان بهذا الخندق؟ فأحفظهم ذلك فتنادى الناس للقتال، فقال لهم أوس بن ثعلبة: الزموا خندقكم وقاتلوهم كما كنتم تقاتلونهم ولا تخرجوا إليهم بجماعتكم. فعصوه وخرجوا إليهم فالتقى الناس فقال ابن حازم لأصحابه: اجعلوه يومكم فيكون الملك لمن غلب. وكان النصر لعبد الله بن خازم، وحلف ابن خازم لا يؤتى بأسير إلا قتله حتى تغيب الشمس، فكان آخر من أتى به رجل من بنى حنيفة يقال له محمية، فقالوا لابن حازم قد غابت الشمس قال: وفوا به القتلى فقتل، و يقال: قتل يومئذ من بكر بن وائل ثمانية آلاف(٢) (وكانت المعركة بسبب صراع على خراسان بين العرب).

ايام كأيام الجاهلية

الملك لمن غلب

دماء تراق تروى الأرض شرقا وغربا شمالا وجنوبا، الدماء التى حرمها الله فأحلتها الجاهلية العائدة في سبيل ملك زائل وسلطان حائل.

والأمر مع الخوارج أشد فهم يقتلون كل من خالفهم في الرأى بحجة الكفر وإذا حصل أحد القتلة على أمان من أمير أو قائد أهدر دم المقتول،

---

١ ــ عبد الله بن خازم السلمى من الأبطال الشجعان والفرسان المشهورين وكان عامل ابن الزبير على خراسان ــ وهو أحد غربان العرب في الإسلام وكان من أشجع الناس ــ الكامل في الأدب ٤٢٢ــ٤٢٣.

٢ ــ الطبرى ٤٦ــ٤٧/٧ حوادث سنة ٦٥.

إلا إذا ثارت قبيلته أو عصبته لتطالب بدمه فتقتل من قبيلة القاتل من يسوقه سوء حظه إليها، ففي ولاية ابن عامر(١) على البصرة لمعاوية خرج يزيد بن مالك الباهلي وسهم بن غالب الهجيمي فأصبحوا عند الجسر فوجدوا عبادة بن قرص الليثي أحد بني بحير ــ وكانت له صحبة ــ يصلي عند الجسر فأنكروه وقتلوه (فالقتل اذا لمجرد أنهم أنكروه) ثم سألا الأمان فآمنهم عبد الله بن عامر وكتب إلى معاوية بذلك فلم يزالوا آمنين حتى عزل ابن عامر(٢).

ضرب الخوارج بالشيعة

بل وصل الأمر إلى أن يضرب الخلفاء والولاة الخوارج بالشيعة فمهما تكن النتيجة فالدولة هي الرابحة فعندما خرج المستورد بن علفة(٣) في إمارة المغيرة بن شعبة على الكوفة قال المغيرة لقبيصة بن الدمون: الصق لى بشيعة على فأخرجهم مع معقل بن قيس فإنه كان من رؤوس أصحابه، فإذا بعثت بشيعته الذين كانوا يعرفون فاجتمعوا جميعا استأنس بعضهم ببعض وتناصحوا وهم أشد استحلالا لدماء هذه المارقة وأجرأ عليهم من غيرهم(٤). وهكذا فعل عبد الله بن عامر أمير البصرة حيث أرسل إلى شريك بن الأعور الحارثي فانتخب ثلاثة آلاف من الشيعة(٥).

قتل النساء واسترقاقهن

وقد وصل الأمير أخيرا إلى سبى النساء المسلمات و بيعهن أو استرقاقهن وحتى قتلهن ــ مع أن عليا كرم الله وجهه في حرو به ما كان يقتل أسيرا أو يسترق امرأة مسلمة ابدا ــ فبعد مقتل مصعب بن الزبير أرسل خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد أخاه عبد العزيز ليحارب الأزارقة فقاتلوه فهزموه وأسروا امرأته ابنة المنذر بن الجارود فأقيمت فيمن

١ــ الطبرى ٦/٩٨ حوادث سنة ٤٢.

٢ ــ ابن عامر هو عبد الله بن عامر الأموى كان على البصرة أول خلافة معاوية.

٣ ــ المستورد بن غلّفة زعيم من الخوارج خرج أيام معاوية سنة ٤٣هـ.

٤ ــ الطبرى ٦/١٠٨.

٥ ــ الطبرى ٦/١١١ حوادث سنة ٤٣.

يزيد (أى للبيع في المزاد) فبلغت مائة ألف وكانت جميلة فغار رجل من قومها كان من رؤوس الخوارج يقال له ابو الحديد الشنى فقال: تنحوا هكذا ما أرى هذه المشركة إلا قد فتنتكم، وضرب عنقها(١).

بل أن مصعب بن الزبير بعد قضائه على ثورة المختار بن أبى عبيد يأسر زوجته وهى ابنة النعمان بن بشير الصحابى الجليل فيقتلها لانها أبت أن تقول في زوجها انه كافر(٢).

تقديس الخلفاء

ومن مظاهر عودة الجاهلية تقديس الخلفاء وجعلهم فوق مقام النبوة واستباحة دم كل من شتم خليفة أو ذكره بسوء والأمثلة على ذلك أكثر من تحصى.

فهذا خالد بن عبد الله القسرى قد ولاه الوليد بن عبد الملك مكة بعد عزل عمر بن عبد العزيز عن ولاية الحجاز فيخطب على منبر مكة فيقول «أيها الناس أيهما أعظم أخليفة الرجل على أهله أم رسوله اليهم؟ والله لو لم تعلموا فضل الخليفة إلا أن ابراهيم خليل الرحمن استسقى فسقاه ملحا أجاجا (يعنى زمزم) واستسقاه الخليفة فسقاه عذبا فراتا ــ لبئر حفرها الوليد بن عبد الملك بالثنيتين ثنية طوى وثنية الحجون فكان ينقل ماؤها فيوضع في حوض من أدم (أى جلد) إلى جنب زمزم ليعرف فضله على زمزم، ثم غارت البئر فذهبت فلا يدرى اين هى اليوم(٣). ومما خطبه ذلك الوالى أيضاً. «فإنى والله ما أوتى بأحد يطعن على إمامه إلا صلبته في الحرم، أن الله جعل الخلافة منه بالموضع الذى جعلها فسلموا وأطيعوا ولا تقولوا كيت وكيت إنه لا رأى فيما كتب به الخليفة أو رآه إلا

---

١ ــ الطبرى ٧/١٩٢، الكامل للمبرد ١١٠٨ (وفيه ابو الحديد العبدى).
٢ ــ مروج الذهب ٣/١٠٧ واليعقوبى ٢/٢٦٤.
٣ ــ الطبرى ٨/٦٧ حوادث سنة ٨٩ البداية والنهاية ٩/٨٤.

امضاؤه(١). وليس هذا رأيا لوالٍ غالى في طاعة إمامه بل هو رأى الخلفاء في أنفسهم ومما أوحته إليهم بطانة السوء أنهم فوق الناس وأنهم غير محاسبين وأن طاعتهم فريضة في الحق والباطل. فقد رأينا كتاب عبد الملك إلى الحجاج حينما يقول له: أن ادع الناس إلى البيعة فمن أقرَّ بالكفر فخل سبيله إلاّ رجلا نصب راية أو شتم أمير المؤمنين(٢).

الطاعة العمياء

وقد كان لعمر بن عبد العزيز في مثل هذا مواقف تذكر فتشكر مع الوليد ومع سليمان ابنى عبد الملك كاد في أحدهما يفقد حياته ثمنا لحرية رأيه وتمسكه بالحق وصدعه به، فهو يحدث عن نفسه فيقول: أرسل إليَّ الوليد بن عبد الملك في الظهيرة في ساعة لم يكن يرسل إليَّ في مثلها فوجدته في قيطون(٣) صغير له بابان باب يدخل منه و باب خلف ظهره ينحرف منه إلى أهله، قال: فدخلت عليه فإذا هو قاطب بين عينيه فقال لي: اجلس ها هنا، فأجلسنى بين يديه مجلس الخصم، وليس عنده إلا خالد بن الريان قائما بسيفه فقال: كيف ترى فيمن سب الخلفاء؟ أترى أن يقتل؟ قال: فسكت. فانتهرنى وقال: مالك لا تتكلم؟ فسكت. فعاد لمثلها فقلت: أفتك ياأمير المؤمنين؟ قال: لا ولكنه سب الخلفاء قلت: فإنى أرى أن ينكل به بما انتهك من حرمة الخلفاء فرفع الوليد رأسه الى ابن الريان. ــ قال: ما أظنه إلا أن يقول له: اضرب عنقه ــ فقال: إنه فيهم لتائه. ثم حول وركيه فدخل على أهله(٤). وقد كاد الوليد أن يقضى عليه إذ أمر فطين عليه (أى وضع في بيت وسد بابه بالطين) فمكث ثلاثا حتى شفع فيه بعض أهله فادركوه وقد مالت عنقه(٥).

مع الوليد ابن عبد الملك

---

١ ــ الطبرى ٨٠ــ٨/٨١ حوادث سنة ٩١.

٢ ــ تاريخ خليفة بن خياط ١/٣٦٥ وصفحة من هذا الكتاب.

٣ ــ القيطون المخدع القاموس ٤/٢٦٠.

٤ ــ ابن عبد الحكم ٢٥ وابن الجوزى ٤٠.

٥ ــ المحاسن والمساوىء ٢/٣٠٨، ابن الجوزى ٢٤٨.

إذا فقد تغيرت نظرة الناس من خلفاء وأمراء وولاة، وحتى الناس العاديون اختلفت أذواقهم ومشاربهم تبعا لإختلاف ذلك في أئمتهم، وكما يقال: الناس على أديان ملوكهم ــ فقد كان سلف هذه الأمة يتسابقون إلى المكرمات ابتغاء وجه الله وطلبا لرضوان الله وجنته فينفقون أموالهم لا يرجون من وراء ذلك ذكرا إلاّ عند الله ولا ثوابا إلاّ رضا الله، فخلف من بعدهم خلف لا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة إلاّ ابتغاء الشهرة وحسن الأحدوثة ورئاء الناس بطرا وأشرا وسمعه.

الناس على اديان ملزكهم

وهذه قصة طريفة تعطينا صورة عن الكرم في ذلك العصر ونظرة الناس إلى الجود والبذل والعطاء. ففي الأغاني يحدث عن ابن عياش: أنَّ حوشب بن يزيد بن الحارث بن رؤيم الشيباني وعكرمة بن ربعى يتنازعان الشرف و يتباريان في اطعام الطعام ونحر الجزر في عسكر مصعب. وكان حوشب يغلب عكرمة لسعة يده (أى غناه)، وقدم عبد العزيز بن يسار مولى بحتر الفقيه بسفائن دقيق فأتاه عكرمة فقال له: الله الله فيَّ قد كاد حوشب أن يستعلينى، و يغلبنى فبعنى هذا الدقيق بتأخير ولك فيه مثل ثمنه ربحا. فقال خذه وأعطاه إياه. فدفعه إلى قومه وفرقه بينهم وأمرهم بعجنه كله. فعجنوه كله. ثم جاءوا بالعجين كله فجعله بهوة عظيمة (أى حفرة كبيرة) وأمر به فغطى بالحشيش وجاء برمكة (أى فرس أُنثى) فقربوها إلى فرس حوشب حتى طلبها وأفلت ثم ركضوها بين يديه وهو يتبعها حتى ألقوها في ذلك العجين وتبعها الفرس حتى تورطا في العجين و بقيا فيه جميعا، وخرج قوم عكرمة يصيحون في المعسكر يامعشر المسلمين أدركو فرس حوشب فقد غرق في خمير عكرمة فخرج الناس تعجبا من ذلك أن تكون خميرة يغرق فيها فرس فلم يبق في العسكر أحد إلاّ ركب ينظر وجاءوا إلى الفرس وهو غريق في العجين ما يبين منه إلا رأسه

نظرة الناس الى الفضائل واختلاف الدوافع

غرق الفرس في العجين

وعنقه فما أخرج إلاّ بالعمد والحبال، وغلب عليه عكرمة وافتضح حوشب(١).

وهذه وإن كانت قصة فردية ولم يكن كل رئيس للقبيلة وكل شريف في المجتمع الأموى يحمل روح عكرمة و يضع هذه التمثيلية الغريبة لاشتهار جوده وتفوقه في إطعام الناس فقد كان في هذا المجتمع أجواد مخلصون يحرصون على إخفاء مكرماتهم لكنها لا شك تصور الغاية التى وصل اليها تأثير الجاهلية ونفوذها والتفكير الجاهلى في المجتمع الأموى الإسلامى.

والذى يقارن بين هذه القصة الطريفة و بين ضيافة أبى طلحة(٢) الأنصارى رضى الله عنه وإطفائه المصباح حتى لا يفطن الضيف لقلة الطعام وامتناع المضيف عن الأكل يستطيع أن يقيس المسافة النفسية والهوة الواسعة التى وقعت بين العهدين و يعرف التطور الذى حدث في المشاعر والتفكير(١).

عودة العصبية القبلية

ومن أبرز مظاهر الجاهلية العائدة تلك العصبية القبلية العائدة التى طأطأ الإسلام هامتها وكاد أن يئدها وتلك الأحلاف والدعوات الجاهلية التى أوشك الإسلام أن يميتها، إذ عادت في أبرز صورها وأقبح وجوهها بتشجيع خلفاء بنى أمية أنفسهم وخاصة بعد معركة مرج راهط(٣). وهى في الحقيقة كانت معركة بين اليمنيين والمضريين وإن كان طرفاها كلباً وقيساً، فقد أحيت تلك المعركة كل العصبيات التى أماتها الإسلام وكل الأحلاف الجاهلية التى قضى عليها القرآن، فكأن النفوس عادت لا ترى

---

١ ــ رجال الفكر والدعوة (عن الاغانى) ص ٢٣، ٢٤.

٢ ــ ابو طلحة زيد بن سهل من بنى النجار ــ شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المشاهد كلها ــ الطبقات ٣/٦٤.

٣ ــ معركة مرج راهط هى المعركة التى قررت مصير بنى أمية وأوصلت مروان بن الحكم وأسرته الى الحكم سنة ٦٤هـ.

غير الثأر وسفك الدماء شافياً لغليلها ومبرئاً لحوباها (الحوباء: النفس) ولا نستطيع أن نذكر كل الأمثلة، ولكن يكفى أن نشير إلى بعضها ليستدل بها على كلها: فبعد موت يزيد بن معاوية أحيت تميم والأزد أحلافهم الجاهلية وقتلت تميم مسعود بن عمرو المعنى زعيم الازد(١).

وقد كان أمراء البيت المالك يسعرون نيران العصبية القبلية لأنهم من أمهات شتى فمن أمه قيسية تعصب للقيسيين ومن أمه كلبية تعصب للكلبيين، ففي عهد عبد الملك بن مروان و بعد القضاء على ابن الزبير حدثت معارك بين القيسيين والكلبيين أشعل نارها بعد خمود خالد بن يزيد بن معاوية وعبد العزيز بن مروان وهما من أمين كلبيتين و بشر بن مروان وهو من قيسية، فكل أمير من هؤلاء ربط مصالحه بمصالح أخواله وقبيلتهم ففى كتب الأدب الأغانى والحماسة لأبى تمام والكامل للمبرد قصة تبرز بوضوح تلك العصبية القبلية الجاهلية التى رفعت رأسها ونشرت الدمار في الدولة الإسلامية شرقا وغربا ــ (وكانت من أهم أسباب القضاء على الدولة الأموية في الشرق والقضاء على الدولة العربية في الأندلس نهائيا) ــ فقد أثار حنق خالد بن يزيد بن معاوية فخر بشر بن مروان بالقيسيين وتفوقهم على الكلبيين في الشجاعة. فقال ذات يوم للكلبيين: هل رجل فيه خير يغير على بادية قيس وأكفيه تباعة السلطان؟ فإن أبناء القيسيات أهلكونا بالفخر علينا بما تفتك قيس في الجاهلية والاسلام. فأجابه حميد بن بحدل وكان خال يزيد بن معاوية: أنا لها إن كفيتني تباعة السلطان. فقال: أنا أكفيكها إن فعلت. قال: وكيف تكفينيها؟ قال: أرسلك مصدقا على باديتهم (أى جامعا لصدقاتهم وزكاة أموالهم) وأكتب لك عهدا على لسان عبد الملك بن مروان تأخذ الصدقة منهم حتى تنال حاجتك على غرة منهم ثم تنصرف.

مؤامرة جاهلية

١ــ يراجع في ذلك الطبرى ٢٤، ٧/٢٩ حوادث سنة ٦٥.

فينهض ابن بحدل بالأمر و يأخذ معه نفرا من قومه ثم يصطحب جندا من بطنين من كلاب ينزلان الصحراء هما بنى عبد ود و بنى عليم، فكلما قابلوا قيسيا قتلوه، وقد لاقى كثيرون من القيسيين مصرعهم على طريق الخيانة والغدر فكان من الضحايا بردة بن حلحلة من زعماء قيس البارزين، وفى هذا يفتخر أحد شعراء جهينة (وهي قبيلة يمنية وكلب يمنية كذلك) فيقول بتعصب ظاهر:

الأهل أتى الأنصار أن ابن بحدل حميدا شفى كلبا فقرت عيونها
وأنزل قيسا بالهوان ولم تكن لتقلع إلاّ عند أمر يهينها
فقد تركت قتلى حميد بن بحدل كثيرا ضواحيها قليلا دفينها
فإنا وكلبا كاليدين متى تقع شمالك في الهيجا تعنها يمينها

وقد أشتد فرح أولئك الأمراء الأمويين الذين هم من أمهات كلبية، ولم تكد تترامى أنباء ما جرى إلى سمع عبد العزيز حتى قال لأخيه بشر ــ وهما بحضرة الخليفة ــ أتدرى ما فعل أخوالى بأخوالك؟ قال: وماذا ياأبا الأصبغ؟ قال: خرجت سرية من حي كلب حتى أتوا على حى قيس فأهمدوه. فقال: أخوالك أضعف من ذلك.

فلما كان الغد وصل حلحلة وسعيد وزعيم فزارى ثالث الى دمشق ممزقى الملابس و بغير عباءات وركعوا أمام بشر وتوسلوا إليه أن يحميهم ووكلوا أمرهم إليه فوعدهم خيرا، ثم كلّم أخاه عبد الملك فوعد أن يعوض بنى فزارة عما فقدوه وأن يستقطع ذلك من أعطيات كلب ــ (ولم يحكم عبد الملك شرع الله في القضية و يوقع العقاب الملائم بالقتلة) ــ فرفضوا أولا ولكنهم اتفقوا بينهم على أن يأخذوا المال ليكونوا قادرين على استخدامه في شراء الخيول والسلاح فقبلوا وأخذوا المال ومضوا فاشتروا ما شاءوا من سلاح وخيل ويمموا شطر الصحراء ثم أنفذوا حملة ضد الكلبيين

السعى للثأر

سارت شطر بنات القين حيث يوجد بعض الكلبيين وما أوشك الليل أن ينصرم حتى باغت الفزاريون أعداءهم وهم يصيحون يالثارات بردة يالثارات جعد يالثارات إخواننا، فكان الثأر عنيفا عنف الاعتداءات التى بعثت عليه ولم ينج غير كلبى واحد، وأما الباقون فقد قتلوا عن بكرة أبيهم.

ولما وصل الخبر إلى بشر قال لأخيه عبد العزيز: ياأبا الأصبغ هل علمت ما فعل أخوالى بأخوالك؟ فقال عبد العزيز: أبعد الصلح و بعد ضمان أمير المؤمنين؟

وعلم الخليفة وغضب ولم يحاول التوفيق بين الحيين بل أرسل إلى الحجاج يأمره أن يعمل السيف في رقاب الفزاريين جميعا وأوشك الحجاج أن يفعل لولا أن انضمت كل القبائل المعدية مع فزارة وجاء حلحلة وسعيد فسلما أنفسهما للحجاج فأرسل بهما الى عبد الملك فقتلا(١).

ومازالت تلك العداوة تزداد اشتعالا حتى قضت على الخلافة الأموية في المشرق فانتقلت إلى الاندلس لتشعل النار هناك من جديد فتكون من أهم العوامل التى قضت على الإسلام في الاندلس.

ومن مظاهر الجاهلية في ذلك العصر شيوع الترف والغناء كما مر والبعد عن أخلاق الإسلام واستباحة المحرمات وفشو المنكرات حتى بين الخلفاء ومن دونهم وما أمر يزيد بن معاوية بخفى ثم يزيد بن عبد الملك وابنه الوليد والأمراء من البيت المالك ثم اقتداء الناس بهم من بعد.

فهذا بشر بن مروان حاكم العراق بعد القضاء على الزبيرين يقول

---

١ ــ تاريخ مسلمى اسبانيا ١١٢ــ١١٩ بتصرف واختصار وقصة مقتل حلحلة وسعيد في الكامل في الادب ص ١٢٤٥.

عنه المسعودى كان بشر بن مروان أديبا ظريفا يحب الشعر والسمر والسماع والمعاقرة(١) و يقول الجهشيارى: ولما وصل بشر الى العراق أغرى بالشراب(٢). وله قصة مع روح بن زنباع رو ياها.

كما أنَّ أشد ما ابتليت به الأمة هو التفرقة بين العرب والموالى في الفيء وفرض الجزية على من أسلم من أهل الذمة بحجة الخوف من انكسار الخراج. فيذكر الطبرى أنه قبيل معركة عين الوردة وقد التقى جيش المختار بقيادة يزيد بن أنس بجيش لعبيد الله بن زياد، فهزم جيش عبيد الله بن زياد في معركة بنات تلى، ومات يزيد بن أنس مريضا فلما وصل خبر موته الى الكوفة التقى الاشراف بالكوفة فأرجفوا بالمختار وقالوا: قتل يزيد بن أنس ولم يصدقوا أنه مات، وأخذوا يقولون: والله لقد تأمر علينا هذا الرجل (يعنون المختار) بغير رضا منا ولقد أدنى موالينا فحملهم على الدواب وأعطاهم وأطعمهم فيئنا ولقد عصتنا عبيدنا فحرب بذلك أيتامنا وأراملنا، ولم يكن فيما أحدث المختار عليهم شيء هو أشد من أن جعل للموالى في الفيء نصيبا(٣).

وأما فرض الجزية على المسلمين فكان أول من فعله الحجاج إذ كتب عماله: إن الخراج قد انكسر وأنّ أهل الذمة قد أسلموا ولحقوا بالأمصار فكتب إلى البصرة وغيرها: أنَّ من كان له أصل في قرية فليخرج إليها، فخرج الناس فعسكروا فجعلوا يبكون و ينادون يامحمداه، يامحمداه وجعلوا لا يدرون أين يذهبون، فجعل قرّاء البصرة يخرجون إليهم متقنعين فيبكون لما يسمعون منهم و يرون(٤).

---

١ ــ مروج الذهب ٣/١١٧.

٢ ــ الوزراء والكتاب ١/٣٦.

٣ ــ الطبرى ٧/١١٦.

٤ ــ البداية والنهاية ٩/١٨٦.

وكان هذا من أسباب انضمام الموالى إلى ابن الأشعث ضد الحجاج.

تأخير الصلاة

ومن أشنع المظاهر التى شاعت في عهد بنى مروان تأخير الصلاة عن وقتها فقد روى عبد الرزاق عن ابن جريج عن عطاء قال: أخر الوليد الجمعة حتى أمسى فجئت فصليت الظهر قبل أن أجلس ثم صليت العصر وأنا جالس ــ أى وهو يخطب ــ وإنما فعل عطاء ذلك خوفا على نفسه من القتل. (وقد قتل الوليد أشخاصاً اعترضوا عليه لتأخيره الصلاة)(١). وقد كان عمر بن عبد العزيز وهو أمير المدينة على طريقة أهل بيته من بنى أمية في تضييع الصلاة عن وقتها حتى أخبره عروة عن بشير بن أبى مسعود وعن أبيه بالنص على الأوقات، فكان يحافظ بعد ذلك على عدم إخراج الصلاة عن وقتها، ومع ذلك كان يراعى الأمر معهم فيؤخر الظهر إلى آخر وقتها(٢). ولما ولى الخلافة أمر بالصلاة في أوقاتها(٣).

١ــ الطبرى ٨/٣٥.

٢ ــ شرح ثلاثيات مسند الامام احمد ١/٤٦٤

٣ ــ المرجع السابق ١/٤٦٦ والبداية والنهاية ٩/٩٩.

المبحث الرابع
كيف وصل المجدد

«إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»[1] حديث شريف

والآن و بعد أن رأينا صورة للدولة الأموية وما شاع فيها من فساد اقتصادي وانحلال سياسي، فكيف وصل عمر بن عبد العزيز الى سدة الخلافة وسلطان الملك؟.

تساؤل

فهل كان عمر بن عبد العزيز يطمع يوما أن يصل إلى الإمامة العظمى؟ وهل كان عمر بن عبد العزيز من ولاة العهد فلما وصل دوره تسلم العرش؟ أو هل اختارته الأمة مخالفة بذلك نظام الخلافة الوراثى طمعا في أن يصلح ما أفسد أسلافه؟ أو هل وثب على العرش ثائرا يدفعه إحساسه بالظلم الشامل والجور المطبق ليزيل ذلك الظلم ويمحق ذلك الباطل؟.

الطامعون في الخلافة

كلا لا هذا ولا ذاك لم يكن عمر بن عبد العزيز طامعا في الخلافة، وكيف يطمع فيها وقد احتكرها عبد الملك بن مروان لأ ولاده من بعده وحرم منها أبناء أخيه عبد العزيز بعد وفاته، وكيف يطمع فيها مثل عمر وأبناء عبد الملك متربصون كل ينتظر دوره لينال من الخلافة مآربه، فالوليد قد خلف أباه عبد الملك جبارا عنيداً فحاول أن ينزع أخاه سليمان عن ولاية العهد ليوليها ابنه العباس فأبى سليمان ومات الوليد قبل أن ينفذ ما عزم عليه من نزع سليمان، وتولاها سليمان وكان ملكا شابا في مقتبل عمره تملؤه حيوية الشباب وغضارته و يتربص به يزيد بن عبد

---

١ ــ حديث صحيح رواه أبو داود والحاكم والبيهقي في المعرفة عن أبى هريرة الجامع الصغير ١/٧٤، البداية والنهاية ٦/٢٣٢ وزاد. قال جماعة من أهل العلم منهم أحمد بن حنبل: أن عمر بن عبد العزيز كان على رأس المائة الأولى وان كان هو أولى من دخل في ذلك وأحق لأمامته وعموم ولايته وقيامه واجتهاده في تنفيذ الحق.

الملك وهشام أخوه وأبناء الوليد وكل طامع فيها، وسليمان يريد أن يداولها بين أولاده ويحرم منها إخوته فأنّى يجد عمر بن عبد العزيز لها منفذا ينفذ منه إليها؟.

ذلك تقدير العزيز العليم

ولكن الله عز وجل إذا أراد أمراً هيأ أسبابه إذ وصل عمر بن عبد العزيز إلى الخلافة في وقت لم يتوقع له ذلك أحد، وما كان أقرب المقر بين الى سليمان بن عبد الملك يتوقع ذلك أو ينتظره حتى سليمان نفسه ما كان يفكر فيه قبل أن ينفذه ويمضيه ولكن كيف تم ذلك؟

لنستمع إلى ابن عبد الحكم يحدثنا عن ذلك: كان لسليمان بن عبد الملك ابن يقال له أيوب بن سليمان فعقد له ولاية العهد من بعده، ثم إن أيوب هذا توفى قبل سليمان ولم يبق لسليمان ولد إلاّ صغير، فلما حضرته الوفاة(١) أراد أن يستخلف فحضره عمر بن عبد العزيز ورجاء بن حيوة(٢)، فقال لرجاء: اعرض على ولدى في القمص والأردية فعرضهم عليه فإذا هم صغار لا يحتملون ما لبسوا من القمص والأردية يسحبونها سحبا فنظر إليهم وقال: يارجاء.

إنَّ بنى صبية صغار أفلح من كان له كبار

تدبير القدر

فقال له عمر بن عبد العزيز: ياأمير المؤمنين يقول الله تبارك وتعالى «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّىٰ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ»(٣)، ثم قال: يارجاء اعرض على بنى في السيوف فقلدهم السيوف ثم عرضهم عليه فإذا: هم

---

١ ــ مات سليمان بن عبد الملك في شبابه بعد خلافة استمرت عامين وأشهرا وقد مرض مرضا لم يمهله.

٢ ــ رجاء بن حيوة الكندى كان ينزل الأردن كان ثقة خلفاء بنى أمية وكان ثقة فاضلا كثير العلم. الطبقات ٨/١٦١.

٣ ــ سورة الأعلى ١٤، ١٥.

صغار لا يحملونها يجرونها جرا فنظر إليهم وقال:

إنَّ بنى صبية صيفيون أفلح من كان له ربعيون

فقال له عمر بن عبد العزيز: يقول الله تبارك وتعالى «**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّىٰ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ**» فلما لم ير في ولده ما يريد حدث نفسه بولاية عمر بن عبد العزيز لما كان يعرف من حاله، فشاور رجاء فيمن يعقد له فأشار عليه رجاء بعمر وسدد له رأيه فوافق ذلك رأى سليمان وقال: لأعقدن عقدا لا يكون للشيطان فيه نصيب. فلما اشتد وجعه عهد عهدا لم يطلع عليه أحداً إلا رجاء بن حيوة الكندى استخلف فيه عمر بن عبد العزيز و يزيد بن عبد الملك من بعده.

كياسة رجاء وفطنته

فلما حضر سليمان واشتد ما به أمر بالبيعة لمن كان في كتابه ممن عهد إليه فبايع الناس ولا يعلمون من في كتابه. ثم قضى الله على سليمان بالموت، فلما مات كتمه رجاء بن حيوة ثم خرج إلى الناس فقال: إنَّ أمير المؤمنين يأمركم بتجديد البيعة لمن كان عهد إليه وقد أصبح بحمد الله صالحا. فقالوا: أوصلنا إلى أمير المؤمنين لننظر إليه وننفذ أمره، فدخل فأمر بالوسائد فأسند بها وأقام عنده خادما وأمر بالناس فادخلوا عليه فيقفون عند الباب فيسلمون من بعيد وهم يرون شخصه فيرد الخادم عنه رد المريض وهم ينظرون إليه، ثم قال: يأمركم أمير المؤمنين أن تبايعوا لمن عهد إليه وتسمعوا له وتطيعوا، فخرجوا إلى المسجد والناس مجتمعون. وجوه بنى مروان و بنى أمية وأشراف الناس فبايعوا، حتى إذا رضى رجاء من ذلك نظر فإذا هو لا يرى عمر فخرج يلتمسه في المسجد حتى رآه قاصيا، فوقف عليه وقال: السلام عليك ياأمير المؤمنين ورحمة الله و بركاته قم الى المنبر(١).

---

١ ــ سيرة ابن عبد الحكم ٢٨ــ٣٠، والإمامة والسياسة باختلاف ١١١ــ١١٥، وابن الجوزى ٤٧.

مع الخلافة

وهكذا بايع الناس لعمر بن عبد العزيز وهو وهم لا يعلمون. فهل سر عمر بذلك؟ وهل رأى أن وصوله للخلافة أمنية كان يتطلبها فيأخذه الفرح والأشر والبطر والاستعلاء؟

لم يكن عمر بن عبد العزيز يطمع يوماً أن يكون خليفة، ولم يكن مقدراً أن سليمان سينمنحه إياها من بعده و يتعدى إخوته أبناء عبد الملك، ولذلك لما سمع بما في كتاب الولاية عقر به (أى دهش وتحير) فلم يستطع القيام حتى أخذ بضبعيه (أى بعضديه أو إبطيه)(١) وأقيم على المنبر(٢) وهو يسترجع لما وقع فيه (أى يقول إنّا لله وإنّا إليه راجعون إذ رأى أنّ ما صار فيه بلاء ومصيبة فلذلك استرجع).

ردّ الأمر للأمة

وحينما صعد المنبر لم ير أنه بعهد سليمان أصبح صاحب الأمر، إذ كان مقتنعا في قرارة نفسه أنّ الأمر ليس لسليمان ولا لأى خليفة أو ملك إنما الأمر هو للأمة والأمر شورى بين المسلمين. فلما اجتمع الناس حمد الله وأثنى عليه وذكر النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال: أيها الناس إنى ابتليت بهذا الأمر من غير رأى منى فيه ولا طلبة ولا مشورة من المسلمين وإنّى قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتى فاختاروا لأنفسكم غيرى. فصاح المسلمون صيحة واحدة: قد اخترناك ياأمير المؤمنين ورضيناك أميرا فل أمرنا باليمن والبركة(٣).

هكذا كان موقف عمر من ولايته رد الأمر إلى المسلمين ليختاروا لأنفسهم ولا يعتقدوا أنَّ عهد سليمان ملزم لهم. ولم ير هو أن وصوله للخلافة بالطريق الأ ول ملزم للمسلمين فرد الأمر إليهم حتى لا يكونوا مكرهين على بيعة لم يريدوها فكان إجماعاً من المسلمين بالموافقة على بيعته ورضا منهم جميعا بخلافته.

---

١ ــ القاموس ٣/٥٣.

٢ ــ الطبقات ٥/٢٤٨، ابن الجوزى ٥١.

٣ ــ حياة الحيوان ١/٨٤ وصفة الصفوة ٢/١١٤، ابن الجوزى ٥٣، ٥٤.

فكيف ساس الناس وما هي طريقته في الحكم؟ أو كيف بين للناس أسلوبه في سلطانه؟ بعد هذه البيعة الشاملة، ولما سكن الناس

خطبة العرش

حمد الله تعالى وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال: **«أوصيكم بتقوى الله فإنَّ تقوى الله تعالى خلف من كل شيء وليس من تقوى الله خلف، واعملوا لآخرتكم فإنّه من عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه وآخرته، وأصلحوا سرائركم يصلح الله علانيتكم، وأكثروا ذكر الموت وأحسنوا له الاستعداد قبل أن ينزل بكم فإنّه هادم اللذات»**، وإنّي والله لا أعطي أحداً باطلا ولا أمنع أحداً حقا، يا أيها الناس من أطاع الله وجبت طاعته ومن عصى الله فلا طاعة له، أطيعوني ما أطعت الله فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم(١). ثم نزل وقد أحس بعظم المسئولية الملقاة على عاتقه، فأخذ في رد الأمور إلى نصابها دينا ودنيا فما هدأ لحظة من ليل أو نهار بكرة وعشيا وهو يرد المظالم و يوصل الحقوق لأ ربابها، وصدق من قال: «لم تكن همة عمر بن عبد العزيز إلا رد المظالم والقسم في الناس»(١).

فيم كانت همته؟

ومن قال: ما كان يقدم على أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم(٢) كتاب من عمر إلاّ فيه رد مظلمة أو إحياء سنة أو إطفاء بدعة أو قسم أو تقدير عطاء أو خير حتى خرج من الدنيا(٢).

وكما قال: سليمان بن موسى(٣): مازال عمر يرد الظالم منذ يوم استخلف الى يوم مات(٤). فاعتبروا يا أيها الحكام.

---

١ ــ الخراج لأبي يوسف ١٦.

٢ ــ الطبقات ٥/٢٥٢، وابن الجوزي ٧٥ باختلاف وقال حدثني رباح بن حيان ــ وكان على المدينة ــ وانما كان على المدينة أبو بكر بن محمد بن حزم، ص٨١ عن عبد الرحمن بن يزيد.

٣ ــ الطبقات ٥/٢٥١.

٤ ــ سليمان بن موسى الأشدق كان ثقة مات سنة ١١٩ الطبقات ٧/١٦٣.

الفصل الثالث
ولايــة وأمانــة
المبحث الاول: من أين يبدأ عمر؟

«إنّه لينبغى أن لا أبدأ بأول من نفسى»(١)

عمر بن عبد العزيز

في مثل هذه الدولة المتسعة الاطراف المترامية الأكناف، وفي مثل هذه الأحوال التى وصلت إليها الدولة الإسلامية من تدن أخلاقى وانحراف اقتصادى وولاة ظلمة غشمة ودماء مسفوكة لأدنى الأسباب وأموال منهوبة مسلوبة وصل عمر بن عبد العزيز الى سدة الخلافة وقد امتلأت الارض جورا وكان يرى أنه يجب عليه أن يملأها عدلا، أليس هو القائل:

«الحجاج بالعراق والوليد بالشام وقرة بن شريك بمصر وعثمان بالمدينة وخالد بمكة اللهم قد امتلأت الدنيا ظلما وجورا فأرح الناس»(٢)؟

من أين يبدأ؟

والآن وقد ابتلاه الله بالخلافة فمن أين يبدأ عمر بن عبد العزيز لكى يصل الى ما يريد ويحقق ما يصبوا إليه وما يحس في وجدانه أنه ما أوصله الله عز وجل الى الخلافة على غير رغبة منه فيها وخلافا للسنة الجارية في تولية خلفاء بنى أمية إلا لتحقيق ذلك الهدف، فمن أين يبدأ إذاً؟

هل يبدأ من القاعدة العريضة قاعدة الشعب المغلوب على أمره فيساوى فيه بين الناس في الفقر كما يفعل كثير من الحكام؟ أو يسعى ليزيد الاغنياء غنى والفقراء فقرا كما كان يفعل أسلافه؟ أم يلتفت إلى بيت المال فينفق منه سرا وجهرا على شهواته وملاذه ومتاع دنياه غير آبه للأمة ومتاعبها وآلامها؟

---

١ ــ الطبقات ٥/٢٥٢ البداية والنهاية ٩/٢٠٨ وابن الجوزى ١١١.

٢ ــ النجوم الزاهرة ١/٢١٨.

لو أراد عمر بن عبد العزيز ذلك لكان بأسبابه عليما و بطرقه خبيرا، ولكن كلا وايم الله وألف كلا فليس عمر بن عبد العزيز من يفعل هذا ولاذاك، إنما وجد نفسه وقد تولى أمر الأمة أحمرها وأسودها قاصيها ودانيها فأحس بثقل التبعة وعظم المسئولية، ووجد أن من سبقه من الخلفاء قد هضموا الأمة حقوقها وسلبوها أموالها وتسلطوا عليها بالجور والطغيان، فآلى على نفسه أن يقف ما بقى من حياته ليرفع عن الأمة كل ظلم يستطيع رفعه وكل جور تمكنه إزالته، ووجد أنه لكى يستطيع أن يقضى على كل مظاهر الفساد. والظلم في هذه الدولة الواسعة يجب عليه أن يبدأ من النفس أوَّلاً، من القمة ثم ينحدر إلى السفح فالقاعدة، فليبدأ من نفسه وقال تلك القولة المشهورة «إنه لينبغي أن لا أبدأ بأول من نفسى» ومتى يبدأ؟ من أول لحظة تسلم فيها ذروة الخلافة وقبض بيده على زمام السلطة، رأى أن الخلفاء قبله قد أسرفوا على أنفسهم فأنفقوا مال الأمة في سبيل شهواتهم وملاذهم وأسرفوا فيه فأنفقوه على شكل مظاهر جوفاء وهدايا وإقطاعيات وعطاءات للمقربين من الأمراء والأشراف والرؤساء فأراد أن يشعر الناس جميعا بما عزم أن يفعله، فما أن تم دفن سليمان وقربت الى عمر بن عبد العزيز المراكب، فقال: ما هذه؟ فقالوا: مراكب لم تركب قط يركبها الخليفة أول ما يلى فتركها وخرج يلتمس بغلته وقال: يامزاحم ضم هذه الى بيت مال المسلمين.

البدء من القمة

مع مراكب الخلافة

ونصبت له سرادقات وحجر لم يجلس فيها أحد قط كانت تضرب للخلفاء أول ما يلون، فقال: ما هذه؟ فقالوا سرادقات وحجر لم يجلس فيها أحد قط يجلس فيها الخليفة أول ما يلى. قال: يامزاحم ضم هذه الى أموال المسلمين. ثم ركب بغلته وانصرف الى الفرش والوطاء الذى لم يجلس عليه أحد قط يفرش للخلفاء أول ما يلون فجعل يدفع ذلك برجله

مع السرادقات

مع الفرش

حتى يفضى إلى الحصير ثم قال: يامزاحم ضم هذا لأموال المسلمين(١).

وهكذا ركب بغلته ورفض مراكب الخلافة، وجلس في منزله ولم ينزل في منزل الخلافة ولم يطأ فرش الخلافة. فكان عملا ملفتا للنظر نظر أولئك الذين كانوا يطمعون و يشرئبون بأعناقهم إلى عطايا وهبات الخليفة الجديد والى منحه العظيمة، ولفت نظر أولئك الذين كانوا يرجون من وراء خلافته إصلاحاً وصلاحا للأمة.

مع الملابس والطيب

وكان هناك عطور وملابس لم يستعملها سليمان ــ وكانت العادة الجارية أن ما لم يفتح من الطيب أو لم يمسه الخليفة وما لم يتكسر من الثياب أو يلبس فهو للخليفة الجديد وما عدا ذلك فلورثة الخليفة السابق، فبعد مبايعة عمر بن عبد العزيز بات عيال سليمان يفرغون الأدهان والطيب من هذه القارورة الى هذه القارورة و يلبسون ما لم يلبس من الثياب حتى تتكسر ــ وكان الخليفة إذا مات فما لبس من الثياب وما مس من الطيب كان لولده وما لم يلبس من الثياب وما لم يمس من الطيب فهو للخليفة بعده ــ. فلما أصبح عمر قال له أهل سليمان: هٰذا لك وهٰذا لنا. قال وما هٰذا؟ وما هٰذا؟ قالوا: فما لبس الخليفة من الثياب ومس من الطيب فهو لولده، وما لم يمس ولم يلبس فهو للخليفة بعده وهو لك. قال عمر: ما هذا لى ولا لسليمان ولا لكم ولكن يامزاحم(٢) ضم هذا كله الى بيت مال المسلمين(٢).

وقد سر ما فعله صلحاء هذه الأمة وغمَّ منحرفيها، فتآمر الوزراء فيما بينهم (لعل المقصود بالوزراء هنا كبار حاشية سليمان وكبار أهل بيته وإلا لم يكن في ذلك العهد وزراء بهذا الاسم) فقالوا: أما المراكب

---

١ ــ ابن عبد الحكم ٣٣، الطبقات ٥/٢٤٩، صفة الصفوة ٢/١١٤ وابن الجوزى ٥٤ فما بعدها باختلاف.

٢ ــ مزاحم بن أبى مزاحم مولى عمر بن عبد العزيز وهو أحد كبار المساعدين لعمر.

والسرادقات والحجر والشوار(١) والوطاء فليس فيه رجاء بعد أن كان منه فيه ما علمتم، و بقيت خصلة وهي الجوارى نعرضهن عليه فعسى أن يكون ما تريدون فيهن فإن كان وإلا فلا طمع لكم عنده. ــ(ولعل هؤلاء لم يكونوا يعرفون خلق عمر أو هم كانوا غير واثقين من جديته وصدق تقواه ومن عزمه على رد الأمور إلى نصابها.أو لعل بعضا منهم كان يعتقد أن عمر يرائى الناس بورعة ليصل إلى ما يريد) ــ فأتى بالجوارى فعُرضن عليه كأمثال الدمى، فلما نظر إليهن جعل يسألهن واحدة واحدة من أنت؟ ولمن كنت؟ ومن بعث بك؟ فتخبره الجارية بأصلها ولمن كانت وكيف أخذت، فيأمر بردهن إلى أهليهن ويحملهن إلى بلادهن حتى فرغ منهن(٢). ــ(وهذا دلالته واضحة على أن كثيرا من الجوارى لسن من الرقيق الشرعى في شيء وإنما هن حرائر أخذن من بيوتهن بسبب أو بآخر وأرسلن إلى مقر الخلافة تزلفا وتقربا)ــ فلما رأوا ذلك أيسوا منه وعلموا أنه سيحمل الناس على الحق.

مع الجوارى

وما دام عمر قد استطاع أن يتغلب على نفسه من أوَّل الشوط فهو على غيرها أكثر قدرة وأجدر بأن يحقق للأمة ما تريد.

---

٢ ــ الشوار ــ الزينة القاموس ٢/٦٥ أو متاع البيت.

٣ ــ ابن عبد الحكم ٣٣ــ٣٤.

المبحث الثاني
القدوة العملية وآثارها

«كان الوليد بن عبد الملك صاحب بناء واتخاذ المصانع والضياع وكان الناس يلتقون في زمانه فإنما يسأل بعضهم بعضا عن البناء والمصانع».

الناس على اديان ملوكهم

فولى سليمان فكان صاحب نكاح وطعام فكان الناس يسأل بعضهم بعضا عن التزويج والجوارى.

فلما ولى عمر بن عبد العزيز كانوا يلتقون فيقول الرجل للرجل ما وردك الليلة؟ وكم تحفظ من القرآن؟ ومتى ختمت؟ وما تصوم من الشهر؟(١).

شروط الصلح

لا شك أن القدوة العملية لها أطيب الاثر في نفوس المقتدين، وأن من أقام نفسه ونصبها لإصلاح مجتمعه لابد وأن يكون في نفسه صالحا،وأن يكون صلاحه فطريا نابعا من نفسه وقلبه حتى يكون تأثيره في الأنفس كاملا وعلى القلوب شاملا. فمهما كان الخطيب بليغا والواعظ فصيحا والحاكم سائسا، ولم يكن الخطيب أمينا في نفسه، والواعظ مخلصا صادقا في وعظه، والحاكم رفيقا برعيته، وفوق ذلك أن يكون باطن كل كظاهره، وأن يكون مطبقا على نفسه كل ما يدعو إليه أو يعظ و يرشد له أو يحكم به، إذا لم يكن ذلك كذلك لم يجد الخطيب القلوب الواعية لخطبته، ولا الواعظ الارواح المستجيبة لوعظه، ولا الحاكم الرعية الراضية بحكمه، ومن هنا يكون الافتراق بين القول والعمل والدعوى والفكر والظاهر والباطن والأمر والتنفيذ، ومن هنا يصعب على البانى البناء بل يستحيل، و يشق على المصلح الإصلاح بل يتعذر، وأنّى يكون ذلك والبانى خرب الداخل والمصلح فاسد الباطن؟.

---

١ ــ الطبرى ٨/٩٨ والبداية والنهاية ٩/١٨٤.

وعمر بن عبد العزيز بروحه الشفافة الملهمة وقلبه المخلص النقى ونفسه المؤمنة التواقة عرف ذلك وأيقن أنه إن لم يكن قدوة الأمة في حياته كلها ــ في مأكله وملبسه وسلوكه وإيثاره وتفانيه ــ فلا يمكنه أبداً أن ينفذ إصلاحاته التى ينوى ولا تصحيحاته التى يعتزم. ولن يجد من الناس عونا ولا آذانا صاغية أو قلوبا واعية. فبدأ بنفسه فخلصها من شوائب النفاق والشهوات والأثرة والطمع، وجعل أمام عينيه هدفا واحدا وغاية واحدة هى رضا الله والوصول الى جنته عن طريق رفع الظلم وسحق الجور وإيصال الحقوق لأربابها مهما كلفه ذلك من مشقة أو تعب وإرهاق.

الهدف والغاية

وقالوا: لما استخلف عمر بن عبد العزيز مكث شهرين مقبلا على بثه وحزنه لما ابتلى به من أمور الناس، ثم أخذ في النظر في أمورهم ورد المظالم إلى أهلها حتى كان همه بالناس أشد من همه بأمر نفسه فعمل بذلك حتى انقضى أجله(١) رحمه الله.

هم الناس قبل همه

وهو قد بين هدفه من وراء رضائه بولاية الأمة في كتاب بعث به إلى يزيد بن المهلب ــ (وكان واليا على خراسان من قبل سليمان ثم عزله عمر) ــ: أما بعد فإن سليمان كان عبدا من عبيد الله أنعم الله عليه ثم قبضه واستخلفنى و يزيد بن عبد الملك من بعدى إن كان، وإن الذى ولانى الله من ذلك وقدر لى ليس على بهين. ولو كانت رغبتى في اتخاذ أزواج واعتقاد أموال كان في الذى أعطانى من ذلك ما قد بلغ بى أفضل ما بلغ بأحد من خلقه، وأنا أخاف فيما ابتليت به حسابا شديدا ومسألة غليظة إلاّ ما عافى الله ورحم(٢).

ثقل التبعة

---

١ ــ الخراج لابى يوسف ١٦.

٢ ــ الطبرى ٨/١٣٨ وابن عبد الحكم ٧٧ باختلاف وابن الجوزى ص٢٧٨ ولكن ذكر أن الكتاب موجه الى يزيد بن عبد الملك وهو غير الصواب.

نعم لقد كان عمر يحس أن ما ولاه الله ليس عليه بهيِّن وكيف يحس بهوانه وهو يعلم أنه مسئول عن الأمة كلها أحمرها وأسودها قاصيها ودانيها. ولذلك عد الخلافة ابتلاء من الله. ولذلك فهو تولاها لا رغبة في الترف والسرف والغنى والسلطان وإشباع شهوات، ولكنه تولى ذلك وقلبه ملىء بخوف الله عز وجل والخشية من نقمته، فآلى على نفسه أن يعمل ما وسعه الجهد لكى يحظى برضاء الله و يظفر بجنته.

قدوة مثالية

فكان يعلم و يعمل وقد نصح عماله بذلك ففى كتاب كتبه الى عبد الرحمن بن نعيم إنّ العلم والعمل قريبان فكن عالما بالله عاملا له، فإنَّ قوما علموا ولم يعملوا فكان علمهم عليهم و بالا(١).

نعم العلم بلا عمل و بال على صاحبه، وقد حذر عمر ذلك فطبق العلم على العمل فكان القدوة الصالحة للأمة في حاضرها ومستقبلها بل كان ولا يزال قدوة كل عالم أو حاكم وضع امام عينيه الخشية من الله والخوف من عقاب الله.

العلم والعمل

وقد كان عمر بن عبد العزيز في قدوته مثاليا، قمة في القدوة العملية قل أن يصل إليها أحد من الحكام إلاّ من عصم الله وأراد به خيرا فقد رأينا أنّه قال: أنّه لينبغى أن لا أبدأ بأوّل من نفسى «فيقول: ما من شىء إلاّ وقد رددته في مال المسلمين إلاّ العين التى بالسو يداء فإنى عمدت إلى أرض براح ليس فيها لأحد من المسلمين ضر بة سوط فعملتها من صلب عطائى الذى جمع لى مع جماعة المسلمين».

فجاءته غلتها مائتا دينار وجراب فيه تمر صيحانى وتمر عجوة فقال: هات اصبب للقوم من هذه العجوة فهى أبرد وأصح، ثم قال:..أخرجوا

---

١ ــ الطبرى ٨/١٣٨.

أمثلة للعمل بعد العلم للاقتداء العناية بالعمى

زكاة هذه المائتى دينار. فقال الرسول: ياأمير المؤمنين لقد أخذ خرص هذا الحائط(١)، قال: يابنى ليس هذا من عملك. قال فأخرجوا خمسة دنانير ثم قال: «دلونى على رجل أعمى ليس له قائد. فبينما القوم يتذاكرون إذ قال عمر: لقد وقعت عليه وقد ذكرته وهو الشيخ الجزرى الاعمى يأتى فى الليلة المظلمة الماطرة يتكمه(٢) ليس له قائد، أخرجوا له ثمن قائد لا كبير يقهره ولا صغير يضعف عنه قال: فأخرجوا له منها خمسة وثلاثين دينارا.

ثم دعا عمر بالذى يقوم على نفقة أهله فقال له: خذ هذه الذهب فأنفقها على عيالنا إلى أن يخرج لى عطائى مع المسلمين أو يقضى الله قبل ذلك(٣).

لله أنت ياعمر ما أشد خوفك من الله! تركت كل ما منحك الخلفاء وتخليت عن كل عطية أعطوكها لما أحسست في نفسك بأنهم أعطوك ما لا حق لهم في إعطائك إياه فرددت كل ذلك الى بيت مال المسلمين ورضيت بشظف العيش والكفاف من الرزق رحمك الله ورحم كل من سار على دربك.

---

١ ــ الحائط: البستان والخرص تقدير الثمار على الشجر ومراد الغلام أنه قد أخذت زكاته ــ أى زكاة الثمار.

٢ ــ يتكمه: لا يدرى أين يتوجه القاموس ٤/٢٩١.

٣ ــ ابن عبد الحكم ٤١ ــ وابن الجوزى باختصار ص١١١.

المبحث الثالث
المسئولية في نظر عمر وواجب المسئولين

«لولا أن أنعش سنة أو أسير بحق ما أحببت أن أعيش فواقا»(١)
عمر بن عبد العزيز(٢)

مذ رجع عمر بن عبد العزيز من جنازة سليمان أحس بعظم المسئولية الملقاة على عاتقه فاغتم وظهر غمه على وجهه فيسأله مولى(٣) له: مالى أراك مغتما؟ قال: لمثل ما أنا فيه يغتم، إنه ليس من أمة محمد صلى الله عليه وسلم أحد في شرق الأرض وغربها إلاّ وأنا أريد أن أؤدي إليه حقه غير كاتب إليَّ فيه ولا طالبه منى(٤). عظم المسئولية

نعم ياحفيد ابن الخطاب أحسست بعظم التبعة وثقلها فاغتممت ولكنك لم تجلس مكتفيا بالهم والغم ولكنت شمرت واتزرت وقمت ناهضا بمسئوليتك العظمى وحملت أمر أمة محمد قولا وفعلا، فكنت لهم نعم الأمير ونعم المسئول بل كنت للصغير أبا وللاوسط أخاً وللكبير إبناً، فرحمت إبنك واحترمت أخاك ووقرت أباك و بينت للناس فقلت: ألا وإنّى أعالج أمرا لا يعين عليه إلا الله قد فنى عليه الكبير وكبر عليه الصغير وفصح عليه الأعجمى وهاجر عليه الأعرابى حتى حسبوه دينا لا يرون الحق غيره وإنّه لحبيب إليَّ أن أوفر أموالكم وأعراضكم إلاّ بحقها ولا قوة إلاّ بالله(٥).

إذا فهو يعرف أنّه يعالج أمراً مضى عليه زمن طو يل حتى حسب الناس الباطل حقا والحق باطلا، وهذا أصعب في الإصلاح وأشق في المعاناة، ولكن كل ذلك لم يثن عمر عن هدفه ومانذر نفسه له، إذ بمجرد

---

١ ــ الفواق: ما بين الحلبتين من الوقت أو ما بين فتح يدك وقبضها على الضرع. قاموس ٣/٢٧٨.
٢ ــ الطبقات ٥/٢٨٣ وابن الجوزى ٥٥.
٣ ــ المولى هنا التابع وقد يكون معتقا.
٤ ــ صفة الصفوة ٢/١١٨، البداية والنهاية ٩/٢٢١.
٥ ــ ابن عبد الحكم ٣٧.

أول المسئولية

أن دفن سليمان بن عبد الملك دعا بداوة وقرطاس فكتب ثلاثة كتب لم يسعه فيما بينه و بين الله عز وجل أن يؤخرها فأمضاها من فوره، فأخذ الناس في كتابه إياها هنالك في همزه يقولون: ما هذه العجلة؟ أما كان يصبر إلى أن يرجع إلى منزله؟ هذا حب السلطان، هذا الذى يكره ما دخل فيه. ولم يكن بعمر عجلة ولا محبة لما صار اليه. ولكنه حاسب نفسه ورأى أنّ تأخير ذلك لا يسعه، كتب: بقفل مسلمة بن عبد الملك وجيشه من القسطنطينية، وكتب بعزل أسامة بن زيد التنوخى ــ وكان على خراج مصر ــ وأمر به أن يحبس في كل جند سنة و يقيد ويحل قيده عند كل صلاة، ثم يرد في القيد. وكان غاشما ظلوماً معتديا في العقوبات بغير ما أنزل الله عز وجل يقطع الأيدى في خلاف ما يؤمر به و يشق أجواف الدواب فيدخل فيها القطاع و يطرحهم للتماسيح.

الكتب الثلاثة

وكتب بعزل يزيد بن أبى مسلم عن إفريقية[1] وكان عامل سوء يظهر التأله والنفاذ لكل ما أمر به السلطان مما جل أو صغر من السيرة بالجور والمخالفة للحق فكتب بعزله، فهذا سبب الثلاثة التى عجل بها[2].

ولإحساسه بمسئوليته اشترط لحاشيته شروطا، فمن فقد منها شرطا حرم صحبته ومجالسته فقد قال لجلسائه: من صحبنى منكم فليصحبنى بخمس خصال: يدلنى من العدل الى مالا أهتدى إليه، و يكون لى عونا على الخير، و يبلغنى حاجة من لا يستطيع إبلاغها، ولا يغتاب عندى أحداً، و يؤدى الأمانة التى حملها منى ومن الناس وفى رواية ــ ولا

---

١ ــ لم يل يزيد بن ابى مسلم إفريقية إلّا في عهد يزيد بن عبد الملك بعد عمر ولعل المقصود يزيد ابن المهلب وكان عامل سليمان على خراسان.

٢ ــ ابن عبد الحكم ٣١ــ٣٣.

يعترض فيما لا يعنيه ــ فاذا كان كذلك فحيهلاً به وإلاّ فهو في حرج من صحبتى والدخول على(١).

بطانة الملوك وحاشية الخلفاء

دستور للمجالسة والصحبة فمن اتبع مواده جاز له الدخول عليه ومن خالف واحدة منهن منع من الدخول وخيرا فعل ــ ولم يفعل إلاّ خيرا ــ، فإنّ بطانة الملوك وحاشية الخلفاء هم المرآة التى تبرز للخليفة صورته وتبرز للناس صورة الخليفة أو الرئيس أو السلطان. فإذا كانوا صالحين ظن الناس بل اعتقدوا في الحاكم صلاحا وإن كان فاسدا، وإن كانوا فاسدين اعتقد الناس في الحاكم الفساد وإن كان صالحا. ولكن قلما يكون مسئول صالح بحاشية سوء أو مسئول فاسد و بطانته ذات صلاح ــ وكما قيل السلطان سوق وإنما يجلب إليه ما ينفق فيه، وكان عمر لإحساسه بثقل التبعة يقول: ياليتنى قد علمت فيكم بكتاب الله وعملتم به فكلما عملت فيكم بسنة وقع منى عضو حتى يكون آخر شيء منها خروج نفسى(٢). عجيب كل ما يصدر عن عمر بن عبد العزيز الناشيء في الترف المتربى في النعيم أن يترك كل ما كان عليه بمجرد توليه الأمر وإحساسه بالمسئولية حتى يتمنى أن يحقق العدل ولو بتقطيع أطرافه وأعضائه!.

أمنية

ويخاطب الناس وقد اجتمعوا في دمشق من كل حدب وصوب يرجون العدل و يطلبون النصفة فيقول لهم: ياأيها الناس الحقوا ببلادكم فإنى أنساكم عندى وأذكركم في بلادكم ألا وإنى قد استعملت عليكم رجالا لا أقول هم خياركم ولكنهم خير ممن هو شر منهم، ألا فمن ظلمه إمامُه مظلمة فلا إذن له على ومن لا فلا أرينه، إلا وإنّى منعت نفسى وأهل بيتى هذا المال، فإن ضننت به عنكم إنى إذا لضنين والله لولا أن أنعش سنة أو

تهديد العمال اذا لم ينصفوا

---

١ ــ حلية الاولياء ٥/٣٣٦ الكامل لابن الاثير ٥/٦٣ والاسلام والحضارة ١٧٤ وابن الجوزى ٦٤.

٢ ــ ابن عبد الحكم ١٢٥.

أسير بحق ما أحببت أن أعيش فواقا(١).

وهو لا يترك مناسبة تمر دون أن يعلن حرصه على رعيته ورغبته الجامحة في إحقاق الحق وإقامة العدل وراحة الأمة فيقول: وما أحد منكم تبلغنى حاجته إلا حرصت أن أسد من حاجته ما قدرت عليه، وما أحد لا يسعه ما عندى إلا وددت أنّه بدىء بى و بلحمتى الذين يلوننى حتى يستوى عيشنا وعيشكم، وايم الله لو أردت غير هذا من رخاء أو غضارة عيش لكان اللسان به منى ذلولا، ولكنه مضى من الله كتاب ناطق أمرنى فيه بطاعته ونهانى فيه عن معصيته(٢).

أى قمة عليا وصل إليها عمر بن عبد العزيز قمة تتقطع دونها أعناق الرجال. فليس عدله عن ضعف أو قصور بل هو قادر على أن ينال من أموال الأمة ما يشاء كما كان يفعل أسلافه، و يعلم أنه لن يستطيع أحد أن يمنعه من الإنفاق والإسراف والاحتجان(٣) للأموال، ولكن هناك أمر فوق قدرة البشر هو الذى يمنعه من ذلك، هو أمر الله بالطاعة ونهيه عن المعصية، ذلك خوف الله الذى كان يمنع عمر من الظلم ويحثه على الحق والعدل.

طاعة الله والخوف منه

و يؤكد هذه المعانى في خطبة أخرى حيث يقول: ألاَ لا سَلاَمَةَ لامرىء في خلاف السنة ولا طاعة لمخلوق في معصية الله ألا وإنّكم تعدون الهارب من ظلم إمامه عاصيا ألا وإنَّ أولاهما بالمعصية الإمام الظالم(٤).

لعل عمر بن عبد العزيز حينما خطب خطبته هذه كان يعود بذهنه إلى وقت ولايته على مكة والمدينة وقد غصتا بالهاربين من ظلم الحجاج

---

١ ــ ابن عبد الحكم ٣٦ــ٣٧، الطبقات ٥/٢٥٣ وابن الجوزى ٥٥، ٧٢، ٢١٠.

٢ ــ ابن عبد الحكم ٣٨ وصفة الصفوة ٢/١٢٤ وابن الجوزى ٢٢٣.

٣ ــ الاحتجان للمال: ضمه واحتواؤه ــ القاموس ٤/٢١٢.

٤ ــ ابن عبد الحكم ٣٧، ابن الجوزى ٢٠٤ والبداية والنهاية ٩/٢٢٢.

والوليد، حيث أميتت السنن وأحييت البدع فهرب الناس فدُعوا عصاة، واعتبر الإمام الظالم عادلا والهارب منه عاصيا، فيقف عمر اليوم ليرد الأمر إلى نصابة والسيف إلى جرابه فيعلنها صريحة مدو ية ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الله، وإنّ العاصى هو الظالم لا الهارب من الظلم. رحمك الله ياعمر.

بل إنّ رغبة عمر في محاربة الظلم وإقامة العدل تدفعه الى تمنى المستحيل فهو يقول: فلو كان كل بدعة يميتها الله على يدى وكل سنة ينعشها الله على يدى ببضعة من لحمى حتى يأتى آخر ذلك على نفسى كان في الله يسيرا(١).

فاعتبروا أيها الحاكمون يامن يسهل عليكم العدل فتأبون إلاّ الظلم.

وليس عمر بن عبد العزيز من يلقى الكلام إلقاءً و ينمقه تنميقا رغبة في استهواء القلوب والأنفس بل هو يطبق ما يتصور تطبيقه في الوصول للعدل فيخرج يوما في ولايته الخلافة بالشام فيركب هو ومزاحم ــ وكان كثيرا ما يركب فيلقى الركبان يتجسس الأخبار عن القرى ــ فلقيهما راكب من أهل المدينة وسألاه عن الناس وما وراءه ــ وهو الأمر الذى خرجا من أجله ــ فقال لهما: إن شئتما جمعت لكما خبرى وإن شئتما بعضته تبعيضا. فقالا: بل اجمعه فقال: إنّى تركت المدينة والظالم بها مقهور والمظلوم بها منصور، والغنى موفور والعائل مجبور. فسر عمر بذلك وقال: والله لأن تكون البلدان كلها على هذه الصفة أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس(٢).

تَجَسُّسُه الأخبار حرصا على الرعية

وفي رواية ــ فقال: الحمد لله لو لم تتم واحدة من هذه الخصال إلاّ بعضو من أعضائي لكان يسيرا(٣).

١ــ الطبقات ٥/٢٥٣.

٢ ــ ابن عبد الحكم ١١١.

٣ ــ الأمانى للقالى ٢/٣٥.

وكان يسوءه جدا أن لا يستطيع عامل من عماله إحياء حق أميت أورد حق ضائع، حتى لا يكلف الناس المشقة في الوصول إليه، ولكن حدث ذلك، إذ خرج ذات يوم من منزله على بغلة له شهباء وعليه قميص له وملاءة ممشقة. إذ جاءه رجل على راحلة له فأناخها، فسأل عن عمر فقيل له: قد خرج علينا وهوراجع الآن. قال: فأقبل عمر ومعه رجل يسايره، فقيل للرجل هذا عمر أمير المؤمنين. فقام إليه فشكى إليه عدى بن أرطاة (واليه على البصرة) في أرض له. فقال عمر: أما والله ما غرنا منه إلاّ بعمامته السوداء أما أنّى قد كتبت إليه فَضَلَّ عن وصيتى أنّه من أتاك ببينة على حق هو له فسلمه إليه ثم قد عَنّاك (أى أتعبك) إليَّ. فأمر عمر برد أرضه إليه ثم قال له: كم نفقت في مجيئك إليّ؟ فقال: ياأمير المؤمنين تسألنى عن نفقتى وأنت قد رددت عليَّ أرضى وهى خير من مائة ألف؟ فقال عمر: إنَّما رددت عليك حقك فأخبرنى كم أنفقت؟ قال: ما أدرى. قال: احزره. قال: ستين درهما، فأمر بها من بيت المال، فلما ولى صاح به عمر فرجع فقال له: خذ هذه خمسة دراهم من مالى فكل بها لحما حتى ترجع إلى أهلك إن شاء الله(١).

رد المظالم ودفع تكاليف السفر

الخليفة الانسان

وهو إذا كانت عدالته قد شملت الناس جميعا فهى الى النساء الضعيفات أسرع، إذ تجيئة امرأة من أهل الكوفة فقالت: ياأمير المؤمنين ما أصبت أنا ولا بناتى مما قسمه أمير المؤمنين قليلا ولا كثيراً قال: ومن بك؟ قالت العرفاء والمناكب ــ أى الرؤساء ــ قال: ارجعى إليَّ حتى العشية فأكتب لك. ثم قال: مه فلعلى لا أبلغ العشاء، ادخلى على فاطمة بنت عبد الملك ــ يعنى زوجته ــ فبينما هى عند فاطمة إذ قام عمر فسكب وضوءا لنفسه. فقالت المرأة لفاطمة بنت عبد الملك: ألا تأخذين عليك

الرحمة بالضعفاء

---

١ ــ ابن عبد الحكم ١٢٥.

ثيابك من هذا الرجل يرى رأسك مكشوفا؟ قالت لها: أما تعرفين هذا؟ هذا أمير المؤمنين يسكب لنفسه وضوءا. قالت المرأة ثم دعانى وكتب لى كتابا(١). بل الأمر تعدى كل تصور يمكن أن يتصوره إنسان عن حاكم أكبر وأوسع وأغنى دولة في الأرض في زمانه. انظروا ياعباد المادة و ياعبيد السلطان يامن تتخذون السلطان سلما للمطامع. قدمت امرأة من العراق على عمر بن عبد العزيز فلما صارت إلى بابه قالت: هل على أمير المؤمنين حاجب؟ فقالوا: «لا فَلِجِى إن أحببت (اى ادخلى). فدخلت المرأة على فاطمة وهى جالسة في بيتها وفي يدها قطن تعالجه (تعرفون من فاطمة؟ هي بنت خليفة وزوجة خليفة وجدها خليفة وكان اثنان من إخوتها قبل عمر خلفاء) ــ فسلمت المرأة فردت عليها السلام وقالت ادخلى. فلما جلست المرأة رفعت بصرها فلم تر في البيت شيئا له بال فقالت: إنّما جئت لأعمر بيتى من هذا البيت الخرب؟ فقالت لها فاطمة: إنّما خرب هذا البيت عمارة بيوت أمثالك ــ (نعم بالله لقد قالت فاطمة قولة حق إنّما خرب بيت عمر عمارة بيوت الناس) ــ فأقبل عمر حتى دخل الدار فمال إلى بئر في ناحية الدار فانتزع منها دلاء صبّها على طين كان بحضرة البيت وهو يكثر النظر الى فاطمة(رحمك الله ياعمر ما أعدلك وما أشفقك على رعيتك تطين بيتك بيدك ولو أردت لبناه لك الناس قصرا منيعا) فقالت: لها المرأة استترى من هذا الطيان فإنى أراه يديم النظر إليك. فقالت: ليس هو بطيان هو أمير المؤمنين، ثم أقبل عمر فسلم ودخل بيته فمال إلى مصلى كان له في البيت يصلى فيه، فسأل فاطمة عن المرأة فقالت هى هذه فأخذ مكتلا له فيه شيء من عنب فجعل يتخير لها خيره و يناولها إياه، ثم أقبل عليها فقال: ما حاجتك؟ فقالت: امرأة من

افقر نفسه ليغتنى الناس وحَمَّل نفسه ليخفف عن الناس

---

١ ــ ابن عبد الحكم ٣٨ــ٣٩.

أهل العراق لى خمس بنات كُسُل كُسُد فجئتك أبتغى حسن نظرك لهن. فجعل يقول: كسل كسد و يبكى فأخذ الدواة والقرطاس وكتب إلى والى العراق فقال سمى كبراهن فسمتها ففرض لها فقالت المرأة: الحمد لله. ثم سأل عن الثانية والثالثة والرابعة والمرأة تحمد الله ففرض لها فلما فرض للأربع استفزها الفرح فدعت له فجزته خيرا فرفع يده وقال: قد كنا نفرض لهن حين كنت تولين الحمد أهله فمرى هؤلاء الاربع يُفِضْنَ على هذه الخامسة. فخرجت بالكتاب حتى أتت به العراق فدفعته إلى والى العراق، فلما دفعت إليه الكتاب بكى واشتد بكاؤه وقال: رحم الله صاحب هذا الكتاب. فقالت: أمات قال: نعم فصاحت وولولت فقال: لا بأس عليك ما كنت لأرد كتابه في شيء فقضى حاجتها وفرض لبناتها(١).

لا يريد حمدا ولا شكورا

وقد كان يقدر مسئوليته ليس فقط في رفع الظلم ورد الحقوق الضائعة بل كان فوق ذلك كله يقدر مسئوليته في أشياء قد لا تخطر على بال إنسان إلا إذا أوتى نفسا حساسة مثل نفس عمر بن عبد العزيز، إذ كانت تسرج له الشمعة ما كان في حوائج المسلمين فإذا فرغ من حوائجهم أطفاها ثم أسرج عليه سراجه(٢).

كل شيء واقع تحت المسئولية

و يدخل عنده رجل وعند كاتب يكتب وشمعة تزهر (أى تضيء بنور ساطع) وهو ينظر في أمور المسلمين، فخرج الرجل وأطفئت الشمعة وجيء بسراج إلى عمر، فيدنو منه الرجل فيرى عليه قميصا فيه رقعة قد طبق ما بين كتفيه(٣).

---

١ ــ ابن عبد الحكم ١٤٥ــ١٤٦.

٢ ــ حلية الاولياء ٥/٣٢٤.

٣ ــ المرجع السابق ٥/٣٢٣ وابن الجوزى ٨٠.

الرحمة حتى بالحيوان

بل زاد الأمر حتى أنَّ عمر بن عبد العزيز ليحس أنّه وقد تولى الخلافة مسئول مسئولية كاملة حتى عن الحيوان، فهو يرحم الدواب أن يتعبها أربابها، فقد كان له غلام يعمل على بغل له يأتيه بدرهم كل يوم فجاءه يوما بدرهم ونصف. فقال: ما بدا لك؟ قال: نفقت السوق. قال: لا ولكنك أتعبت البغل أرحه ثلاثة ايام(١).

وتتجلى رأفته بالحيوانات في نهية أن يجعل البريد في طرف السوط حديدة ينخس بها الدابة ونهى عن اللجم الثقال(٢).

الرفق بالحيوان

و ينقل إليه أن بمصر إبلاً نقالات تحمل ألف رطل. فكتب بمنع ذلك وأمر بألا تحمل أكثر من ستمائة رطل(٣).

ولا يمكن لإنسان أن يصف عمر بن عبد العزيز وإحساسه بجسامة المسئولية كما يمكن أن تصفه زوجته فاطمة بنت عبد الملك.

الاحساس العظيم بالمسئولية الضخمة

أرسل عطاء(٤) إلى فاطمة بنت عبد الله: أخبريني عن أحوال عمر قالت: أفعل: إن عمر رحمة الله عليه كان قد فرغ للمسلمين نفسه ولأمورهم ذهنه، فكان إذا أمسى مساء لم يفرغ فيه من حوائج يومه وصل يومه بليلته الى أن أمسى مساء وقد فرغ من حوائج يومه، فدعا بسراجه الذى كان من ماله فصلى ركعتين ثم أقعى —(أى جلس القرفصاء)— واضعا رأسه على يديه تسيل دموعه على خديه يشهق الشهقة يكاد ينصدع لها وتخرج لها نفسه حتى برق الصبح فأصبح صائما فدنوت منه وقلت: ياأمير المؤمنين أليس كان منك ما كان؟ قال: أجل فعليك بشأنك

---

١ — المرجع السابق ٥/٢٦٠ وابن الجوزى ٧٩.

٢ — الخراج لأبى يوسف ١٨٦ وابن عبد الحكم ١٣٦.

٣ — ابن عبد الحكم ١٣٦.

٤ — عطاء بن أبى رباح مولى آل أبى ميسرة بن ابى خثيم الفهرى كان ثقة فقيها عالما كثير الحديث فقيه مكة الطبقات ٥/٣٤٤.

وخلينى وشأنى قلت: إنى أرجو أن أتعظ قال: إذن أخبرك، إنى نظرت فوجدتنى وليت أمر هذه الامة أسودها وأحمرها ثم ذكرت الفقير الجائع والغريب الضائع والأسير المقهور وذا المال القليل والعيال الكثير وأشباه ذلك في أقاصى البلاد وأطراف الأرض، فعلمت أنّ الله سائلى عنهم وأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حجيجى فيهم، فخفت ألاّ يقبل الله منى معذرة فيهم ولا تقوم لى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة. فرحمت والله يافاطمة نفسى رحمة دمعت لها عينى ووجع لها قلبى، فأنا كلما ازددت لها ذكرا ازددت منها خوفا. فاتعظى إن شئت أو ذرى(١).

سر هلاك الامم

وكيف لا يحس بعظم المسئولية وهويدرك سر هلاك الأمم؟ إذ يقول: «إنما أهلك من كان قبلكم بحبسهم الحق حتى يشترى منهم و بسطهم الظلم حتى يفتدى منهم»(٢).

فرحمك الله ياعمر بن عبد العزيز.

---

١ ــ ابن عبد الحكم ١٤٦، الخراج لأ بى يوسف ١٦ الكامل لابن الأثير ٥/٦٥ وابن الجوزى ١٨٨ــ١٨٩.

٢ ــ الحلية ٥/٣١١ وابن الجوزى ص٢٠٧، وقال انما هلك من كان قبلنا.

المبحث الرابع
وضوح الرؤية، الاتباع لا الابتداع

«ألا وإنى لست بقاض وإنما أنا منفذ لله
ولست بمبتدع ولكنى متبع»(١)
عمر بن عبد العزيز

معرفة الطريق

قد عرف عمر بن عبد العزيز الطريق الذى يحقق عودة الأمور إلى نصابها ويحقق للأمة الحق والعدل و ينشر السعادة والرفاهية على المجتمع المسلم الذى عاش دهرا يرزح تحت الظلم والاستغلال والتحكم، وهذا الطريق واضح لأن معالمه محددة بالقرآن الكريم والسنة المطهرة وسوابق الخلفاء الراشدين، وليس على عمر إذن إلاّ أن يكشف من جديد عن روح هذا النظام و يعيده الى توجيه الحياة من جديد.

وما دام عمر يملك الإيمان العميق والتقوى الأصيلة والبصيرة النافذة والخشية من الله وحده التى فاقت الحدود وتعدت السدود ــ وهذه هى مقومات كل حاكم مسئول يريد أن يصل بالأمة إلى طريق الله ــ فقد تهيأ لعمر إذن أن يعيد ذلك التطبيق وأن يحدث انسجاما بين النظام والواقع الذى أثقلته انحرافات المسئولين السابقين وملأته بالعقاب والسدود حين انحرفت به عن طريق الله.

دستور الحكم

و يعلم عمر بن عبد العزيز أنه لكى يطيع المحكومون أوامره و ينفذوا تعليماته عليه أن يبين أوّلاً الطريق الذى سيسلكه في سياسة الأمة، و يشعرها ثانيا بالتغيير الشامل الذى يريد أن تعيش الأمة به معه، ثم عليه أخيرا أن يبدأ التغيير من القمة حتى يصل به إلى القاعدة من نفسه وأهله

---

١ ــ ابن عبد الحكم ٣٥ــ٣٦، الحلية ٥/٢٩٥ــ٢٩٦، الطبقات ٥/٢٧١ وابن الجوزى ٥٦ ولكن قال «لست بقاص».

وبيته وبلاطه، ولذلك رأيناه رفع شعاره الخالد «إنه لينبغى أن لا أبدأ بأول من نفسى» ثم هو يخطب الناس مبينا الطريق الذى سيسلكه فيقول: «أيها الناس إنه ليس بعد نبيكم نبى وليس بعد الكتاب الذى أنزل الله عليكم كتاب، فما أحل الله على لسان نبيه فهو حلال إلى يوم القيامة، وما حرم على لسان نبيه فهو حرام الى يوم القيامة، ألا وإنى لست بقاض وإنما أنا منفذ لله ولست بمبتدع ولكنى متبع. ألا إنه ليس لأحد أن يطاع في معصية الله عز وجل ولست بخيركم وإنما أنا رجل منكم، ألا وإنى أثقلكم حملا(١).

الا تباع لا الابتداع

فهو قد أوقف الأمة أمام القانون الذى يحكمها به حتى لو زاغ أو أراد أن ينحرف يجد من الأمة من يرده إلى الجادة حيث لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، بل هو يكرر هذا المعنى في أكثر من خطبة حيث يريد أن يشعر الأمة بالنقلة الجديدة التى نقلها إليها وحتى تنزع الأمة عن نفسها الخشية من الظالمين، فيقول: سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الأمر من بعده سننا، الأخذ بها اعتصام بكتاب الله وقوة على دين الله ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها ولا النظر في أمر خالفها، من اهتدى بها فهو مهتد ومن استنصر بها فهو منصور، ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى وأصلاه جنهم وساءت مصيرا(٢).

لا يجوز الخروج على ما سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الامر من بعده

عمر هنا يوقف الناس أمام الحق الذى يراه ــ وهو أنه ليس لكل أحد أن يقول في كتاب الله بما يريد ادعاء بالحكم بكتاب الله ــ وهى صفعة للخوارج والمنحرفين الذين يدعون الأخذ بكتاب الله ويخالفون ما سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الأمر من بعده ــ بل يعتبر عمر هنا

الاخذ بالسنة اعتصام بكتاب الله

---

١ ــ أين عبد الحكم ٣٥ــ٣٦، الحلية ٢٩٥ــ٢٩٦/٥، الطبقات ٢٧١/٥، ابن الجوزى ٥٦ ولكن قال «لست بقاص».

٢ ــ ابن عبد الحكم ٣٥

أن الأخذ بتلك السنن هو الاعتصام بكتاب الله وهو القوة على دين الله، وانه لا يسوغ لأحد تبديلها أو تغييرها أو النظر في أمر خالفها.

بل إنّ عمر بن عبد العزيز يحدد في خطبة له أخرى ولاة الأمر الذين يجب الاقتداء بسننهم حتى لا يترك الأمر ملتبسا فيقول: ألا أن ما سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحباه فهو دين نأخذ به وننتهى إليه وما سن سواهم فإنا نرجئه(١).

فهو بذلك يقطع الطريق على كل متأول أو متقول يريد بهذه الأمة انحرافا، إذ هو يعلنها صريحة مدوية انه سيأخذ بالسنن التى سارت عليها الأمة وأمرها جميع وشأنها واحد قبل اختلافها وتفرقها، ثم هويزيد الأمر إيضاحاً والأمة لا يألوها نصحا وإرشادا فيقول: أيها الناس لا يبعدن عليكم ولا يطولن يوم القيامة، فإنه من وافته منيته فقد قامت قيامته، لا يستطيع أن يزيد في حسن ولا يعتب من سيء، ألا لا سلامة لامرىء في خلاف السنة، ولا طاعة لمخلوق في معصية الله ــ ألا وإنكم تسمون الهارب من ظلم إمامه العاصى، ألا وان أولاهما بالمعصية الإمام الظالم(٢).

لا سلامة لامرىء في خلاف السنة

وهو لا يكتفى بالخطب يلقيها والكلمات ينشرها لأنه يعلم أن القول إذا لم يعقبه التطبيق كان صاحبه حريا بعدم الاستجابة له، وإنَّ الخليفة أو الرئيس المسئول إذا لم يسر ولا ته بسيرته كان حريا بالنقد والمخالفة، فكتب إلى الأطراف باحياء السنة وإماتة البدع، وأشعر الناس أنه غير طامع في أموالهم فقال: وانه ينبغى لكم أن يكون ظنكم بى أن لا حاجة

---

١ ــ الحلية ٥/٢٩٨ وابن الجوزى ٢١٢.

٢ ــ الحلية ٥/٣٢٥ وابن الجوزى ٢٠٤ والبداية والنهاية ٩/٢٢٢.

خليفة لا يطمع في أموال الرعية

في أموالكم لا ما فى يدى (يعنى به بيت المال) ولا ما فى أيديكم، إنه حرى على من انتهك معاصى الله في عقوبته إياه(١).

فهو لا يطمع في أموال الناس لا خوفا من الناس ــ فالخوف من الناس لم يداخل قلبه أبداً ــ إنما هوعف عن أموال الرعية ودمائها خوفا من عقاب الله لو انتهك معاصى الله.

ولذلك يقولون «حينما ولى عمر بن عبد العزيز احتجب عن الناس ثلاثا لا يدخل عليه أحد (كان في هذه الايام يراجع سجلات إقطاعاته وإقطاعات بنى أمية ليرد الباطل منها إلى بيت المال) ووجوه بنى مروان و بنى أمية وأشراف الجنود والعرب والقواد ببابه ينظرون ما يخرج عليهم منه ــ فجلس للناس بعد ثلاث وحملهم على شريعة من الحق فعرفوها فرد المظالم وأحيا الكتاب والسنة وسار بالعدل ورفض الدنيا وزهد فيها وتجرد لإحياء أمر الله عز وجل»(٢).

حمل الناس على شريعة الحق

فعمر بن عبد العزيز قد سلك الطريق الذى سلكه رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه من بعده وترسم خطاهم وسار على نهجهم، فحقق بذلك آماله في تثبيت دعائم الحق والعدل فهو حينما نظر حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحياة خلفائه رضى الله عنهم وإلى أعمالهم اتخذها معالم للطريق التى يريد نهجها والسير على دربها وعلم أجهزة الدولة وعمالها وولاتها الطريق الذى يجب عليهم أن يسلكوه لتحقيق العدل وإلغاء الاضطهاد والاستغلال تماما، ومن لم يستجب منهم فإنّ عمر سيعرف كيف يفطمه عن الملذات.

---

١ ــ الطبقات ٥/٢٧٨.

٢ ــ ابن عبد الحكم ٣٤.

المبحث الخامس
لماذا اختار عمر هذا الطريق؟

«وايم الله لو أنّى أعلم أنّه يسوغ لى فيما بينى و بين الله أن أخليكم وأمركم هذا وألحق بأهلى لفعلت، ولكنى أخاف أن لا يسوغ ذلك فيما بينى و بين الله»

عمر بن عبد العزيز(١)

الفترة الحرجة من تاريخ الدولة العربية

وجد عمر بن عبد العزيز في فترة من عمر الدولة العربية الاسلامية كانت من أشد الفترات حرجا في تاريخها وهى الفترة الممتدة ما بين عامى ٦٠ و٩٩ للهجرة، فقد تمزقت الدولة الإسلامية في أوّلها بالحروب التى اشتعلت بين يزيد بن معاوية ومناوئيه، والنكبات التى توالت على الأمة في عهده من قتل آل البيت وموقعة الحرة واستباحة المدينة وحصار مكة ثم الحروب بين بنى أمية وعبد الله بن الزبير التى امتدت قرابة العشر السنوات فعمر وإن لم يكن واعيا لموقعة الحرة وقتل الحسين وحصار مكة الأوّل ــ على يد الحصين بن نمير ــ فقد وعى حصار مكة الثانى وقتل ابن الزبير وظلم الحجاج في العراق وحروب الخوارج والثائرين على حكم بنى مروان بل اضطهاد الأمويين بعضهم بعضا. وهو إن ينس فلم ينس محاولة عبد الملك إزالة أبيه عبد العزيز عن ولاية العهد ثم نقلها بعد موت أبيه إلى أبناء عبد الملك الوليد وسليمان، وهو وإن كان عبد الملك بن مروان قد أكرم عمر وقربه وزوجه ابنته فاطمة فما كان ذلك ليمحو من ذاكرته وقلبه ظلم عبد الملك والوليد ابنه من بعده، ولا ينسى عزله عن المدينة استجابة لدسائس الحجاج، ثم عهد سليمان وما شاع فيه مع محاولة عمر التخفيف ما استطاع من الظلم السائد بقربه من سليمان. وكم كان عمر

محاولاته في تخفيف الظلم ايام الوليد وسليمان

---

١ ــ حلية الاولياء ٥/٣١٤ وابن الجوزى ١٩١.

يتمنى أن يريح الله الناس من ظلم ولاتهم وعمالهم واستبداد خلفائهم، وكم كان يحاول أن يرد عن الناس شيئا من الظلم حينما كان مقربا من سليمان أو متهما من الوليد قبله، فحينما كان عاملا للوليد على المدينة كتب إليه يخبره بعسف الحجاج أهل عمله بالعراق واعتدائه وظلمه لهم بغير حق ولا جناية ــ وأن ذلك بلغ الحجاج فاضطغنه على عمر وكتب الى الوليد: إنّ من قبلى من مراق العراق (ج مارق وهو الخارج) وأهل الشقاق قد جلوا عن العراق ولجأوا إلى المدينة ومكة وإنَّ ذلك وهن (أى ضعف) فعزل الوليد عمر بن عبد العزيز عن المدينة وولاها عثمان بن حيان(١).

مع أسامة ابن زيد

وهذا أسامة بن زيد التنوخى قد بعثه سليمان بن عبد الملك على ديوان جند مصر وحثه على توفير الخراج فيقول له عمر: ويحك ياأسامة إنك تأتى قوما قد ألح عليهم البلاء منذ دهر طويل فإن قدرت أن تنعشهم فأنعشهم(٢).

وقد كان قبله على مصر قرة بن شريك من قبل الوليد. ولكن أنّى يستجاب لعمر في ذلك وقد قال سليمان لأسامة هذا «هبلتك(٣) أمّك، احلب الدر(٤) فإذا انقطع فاحلب الدم والنجا(٥)(٦).

وقد كان عمر يحس وهو في حاشية الوليد ومعية سليمان أنّ هذه الأمة ينقصها العدل وتتطلع الى الحق والسير على طريق الله، تلك الطريق التى انحرف بها عنه خلفاء بنى أمية وولاتهم، فكم كان ينصح الوليد ويعظ

---

١ ــ الطبرى ٨/٩٠.
٢ ــ الاسلام الحضارة ١٧٤.
٣ ــ أى ثكلتك.
٤ ــ الدر ــ اللبن.
٥ ــ النجا: ما يخرج من البطن.
٦ ــ الوزراء والكتاب ١/٥٢ والنجوم الزاهرة ١/٢٣١.

سليمان و يوقفه عند الحقائق، ولكن سليمان لم يكن ذلك الرجل الذى تنتظره الأمة ليجدد لها دينها ويحملها على الطريق ولكن كفى سليمان فخرا أنه وضع ــ بإذن الله ــ عمر بن عبد العزيز على سدة الخلافة ليحقق من خلاله ما عجز هو عن تحقيقه.

لهذا وغيره فتح الله بصيرة عمر ورفع الغشاوة عن بصره وقلبه ومنحه الإحساس المرهف والإيمان العميق والبصيرة النافذة ــ حتى يقول عن نفسه «ما وجدت من أمر هو ألذ عندى من حق وافق هوى»(١) ــ فاختار لنفسه وللأمة ــ أو الأصدق أن نقول: إنّ الله عز وجل اختار لعمر هذا الطريق ووجهه إليه ليحمل الأمة على الحق و يردها إلى الصراط المستقيم، ولتقام الحجة على كل من يدعى أنّه لا يمكن الحكم بشرع الله بعد طول انحراف، أو يدعى العجز عن الوصول بالأمة الى سبيل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تاهت في بيداء الحياة، فكان عمل عمر بن عبد العزيز الحجة القاطعة والدلالة الدامغة على زيف تلك الدعاوى ووهن أولئك الأدعياء.

اختيار الله

---

١ ــ الطبقات ٥/٢٤٥.

المبحث السادس
الفرق بين نظام الإسلام والنظم الوضعية

«وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل
فتفرق بكم عن سبيله»(١)

كثرة المبادىء والنظم

كثيرة هى تلك النظم والمبادىء التى تحكم الناس في الأرض، فلكل أمة نظام تطبقه على حياتها، أو يدعى حكامها تطبيقه، وكثيرة هى المبادىء التى قامت على أكتافها دعوات لإصلاح الحياة وقيادة الناس إلى أفضل الطرق للحكم.

زيف المبادىء والنظم الوضعية

ففى القديم والحديث لم يَكُفَّ الإنسان عن تلمس الوسائل للوصول الى الحياة الأفضل وكل متمسك بمبدأ أو نظام يدعى أن مبدأه أو نظامه هو الخلاصة التى توصل اليها العقل البشرى لحكم ذاته، ويحاول مدَّعوه تطبيقه في الحياة، وسرعان ما يكتشف زيفه وعجزه عن الوفاء بما طلب منه، بل على العكس فكثيرا ما يكون تطبيق مبدأ جديد مصاحبا بظلم فاحش يفوق كثيرا ظلم النظام السابق له، فأين نظام الإسلام من تلك النظم الوضعية، وما هى أسباب فشل المبادىء في تحقيق اهدافها؟

النظام الإسلامى نظام غير بشرى

النظام الإسلامى أوَّلاً وقبل كل شيء غير بشرى بمعنى أنّه لا يصنعه عقل قاصر محدود الرؤية، وثانيا: هو نظام واقعى بمعنى أنّه ينبع من فطرة الإنسان و يشبع حاجاته وغرائزه ولا يعارضها، وثالثا: هو نظام ينبع من الداخل أوَّلاً ثم ينطلق الى الخارج لا العكس.

فأمّا أنّه نظام غير بشرى فهو نظام يعتمد في تطبيقه على فهم كتاب الله عز وجل. وتعتبر سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنة خلفائه من بعده هى التطبيق الأوَّل والأعدل والأعلى والأشمل لما في كتاب الله تعالى.

---

١ ــ سورة الانعام ١٥٣.

نظام ممدود غير محدود

وكتاب الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لأنه تنزيل من حكيم حميد. فهو نظام من خالق الانسان وفاطره وعالم سره وظاهره، و يعلم ما يصلحه وما يفسده، فهو نظام عام ممدود غير محدود يشمل الإنسانية في جميع عصورها وفي كافة بيئاتها وطرق حياتها، وهو إذا كان واقعيا فهو لا يعارض فطرة الانسان ولا يحرمه من حاجاته التى بها قوام حياته ولا يصدم غرائزه، بل هو يشبعها و يهذبها و يعلو بإنسانية الإنسان متساميا بها عن الحيوانية الغارقة في رذائلها.

وكونه ينبع من الداخل فهذه من أبرز ميزات هذا النظام الربانى، إذ يندفع الإنسان محققا للعدالة منفذا للأوامر متبعا للنظام بدافع ذاتى داخلى، بعكس كل النظم والمبادىء التى يقوم على حراستها وتنفيذها رجال أشداء دائمو اليقظة والاحتراس ولولا ذلك لما عاش نظام وضعى ساعة من نهار.

الإسلام نظام يعتمد على حيوية القلب و يقظة الضمير

فالإسلام نظام يعتمد في تطبيقه على قلب الإنسان وإيمانه وحينما يمتلىء القلب إيماناً وخشية من الله عز وجل، وحينما يكون الضمير يقظا حيا حينذاك يكون هذا النظام سائدا المجتمع شاملا الأمة في ظل عدالته وخيره.

أصحاب النظم الوضعية أول من يخالفها

وقد كان سلف هذه الأمة من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد الناس تمسكا بهذا النظام يطبقونه على أنفسهم أوّلاً ثم يدعون الناس الى التطبيق من بعد، لا كأصحاب النظم الوضعية والمبادىء البشرية الذين يدعون الناس الى التقشف وهم يسرفون و يبذرون، و يدعون الناس الى طاعة النظام وهم يخالفون، و يدعون الى إحقاق الحق وإقامة العدل وهم منها يتهربون.

مثال من حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله عنهم

أين أولئك من رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كان مجتازا في بعض طرق المدينة فيتقدم منه بعض الصحابة وقد اشتد بهم الجوع و يكشف كل منهم عن بطنه وقد شد عليها قطعة من الحجر يسكت بها جوعه، فيبتسم إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم و يكشف عن بطنه فإذا هو قد شد عليها قطعتين من الحجر(١). وقد سلك هذا الطريق خلفه صلى الله عليه وسلم خلفاؤه من بعده، كانوا يبيتون الليالى الطوال جائعين يشدون الأحجار على بطونهم الخاو ية من أجل أن تشبع أمّة المسلمين، كانوا في أيام الضنك والمجاعة لا يأكلون إلاّ ما يأكله سائر الناس كى يشعروا بشعورهم و يتحسسوا تجربتهم و يسرعوا في إيجاد الحلول لبؤسهم وضنكهم. و يطلب الصحابة من عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن يتخلى عن أكل الزيت وحده فقد أضعفه و بسر وجهه وهو الخليفة الذى يجب أن يطعم ما يمكنه من تحمل أعباء مهامّه التى لا تنتهى، فيجيبهم: «وكيف يعنينى أمر المسلمين إذا لم يمسنى ما يمسهم»(٢)؟

اسباب فشل المبادىء الوضعية

وأما المبادىء والنظم التى مشت الى أهدافها من الخارج فقد فشلت فشلا ذريعا وتناقضت تناقضا واضحا بسبب ازدواجيتها بين الوقائع والأهداف، تلك المبادىء التى كانت تدعو الى أشد أنواع العدل والمساواة، ولكن أصحابها كانوا لخوائهم وتأكيدهم على القيم الخارجية قد أحاطوا أنفسهم بالقصور والمركبات الفخمة والأرصدة الجارية في المؤسسات الكبرى.

وذلك هو مفرق الطريق بين النظام الذى ينبثق عن الإسلام و يستند الى قيم متغلغلة في أعماق الوجدان الإنسانى و بين النظام الغربى ترسله عقول وضعية ونزوات عابرة ورغبات تافهة في الظهور والاستعلاء.

---

١ ــ حياة الصحابة ١/٣٠٦ عن الترغيب ٥/١٥٦ وفي الترمذي عن أبى طلحة.

٢ ــ ملامح الانقلاب الإسلامي بتصرف ١١٣.

إنّ النظام الإسلامي سيجد طريقه دائما الى الواقع محتفظا بوحدته وتفرده دون أن يصاب بالازدواج ولكن المبادىء الوضعية ما أن تضع خطواتها الأولى على الطريق حتى تصاب بالانقسام الأفلاطوني بين الواقع والمثال. فالمثال يقدم للكادحين صورا رائعة لجنات عدن التى سيدخلها الجميع، والواقع يشهد مزيدا من المكاسب والأموال تتدفق في جيوب المسئولين ومزيدا من الفقر والضنك وفقدان الضمانات تحاصر الكادحين الذين اتخذوا سلالم للصعود(١).

١ ــ المرجع السابق ١١٤ــ١١٥ بتصرف.

الباب الثاني
بدء التنفيذ ومراحله
الفصل الأول: مع النفس والأهل والولد
المبحث الأول: مع النفس

«إنّ هؤلاء أعطَونا عطايا ما كان ينبغي لنا أن نأخذها وما كان ينبغي لهم أن يعطوناها وإنّى قد رأيت ذلك ليس على فيه دون الله محاسب وإنّى قد بدأت بنفسى وأهل بيتى»

عمر بن عبد العزيز(١)

من عجز عن نفسه فهو عن غيرها أعجز، ومن قدر على نفسه فهو على غيرها أقدر.

رأينا فيما سبق(٢) كيف أنّ عمر بن عبد العزيز وجد أنه لكى ينفذ منهاجه عليه أن يبدأ بنفسه ليكون قدوة للآخرين، وليعلم من لا يعلم أنّ من أعطى الحق من نفسه قادر على أن يأخذه من غيره، وأن عمر بن عبد العزيز سيسلك بالأمة طريقا جديدا عليها ــ وإن كان قديما ــ طريقا سلكه رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون من بعده، ذلك الطريق الذى سده ملوك بنى مروان وسلكوا بالأمة طريقا غيره وعرا شاقا ملتويا.

الخطوة الأولى

فما أن يتولى عمر بن عبد العزيز و يبايع له بالخلافة و يطمئن الى بيعة الناس له حتى نظر الى نفسه والى ما بين يديه من أموال فوجد أنَّ عنده أموالا وأراضى وإقطاعات في مصر والشام والحجاز واليمن تأتيه غلاتها كل عام ولم يدفع في ثمنها دينارا ولا درهما، ونظرا الى ما في بيته من متاع وفراش وآنية وعطور فوجد أنّ كل ذلك دخل عليه من طريق غير سليم

---

١ ــ الحلية ٥/٣٥٥ وابن الجوزى ١٠٦.

٢ ــ انظر مبحث من أين يبدأ عمر؟ ص ٩٦

فماذا عليه أن يفعل الآن في كل ذلك؟ أيبقى تلك الأموال والأراضى كما هى و يتمتع بغلاتها وخيراتها و يورثها أبناءه من بعده؟ لكنه إن فعل ذلك فهل يستطيع أن يرد مظالم الأخرين و يؤدي الحقوق لأربابها؟ وقف عمر الآن على مفرق الطريق ولكنه لم يتردد فعليه أن يتخلص الآن من كل ما يداخله في حله شك ونظر الى مزاحم مولاه قائلاً: إن أهلى أقطعونى ما لم يكن لى أن آخذه ولا لهم أن يعطونيه وإنّى قد هممت برده على أربابه. فيقول له مزاحم ــ (محاولا إثناءهَ عن عزمه ولما يعلم بعدما في نفس عمر) ــ فكيف تصنع بولدك؟ ــ (خوفه مصير أولاده بعد موته إذا رد تلك الضياع الواسعة وتخلى عن تلك الغلات الهائلة) فجرت دموع عمر ابن عبد العزيز ــ حزنا على ولده ــ ولكنه تمالك وقال: أكلهم الى الله.

الحافز الحثيث

ثم خرج مزاحم حتى دخل على عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز ــ (وكان شابا يفوق أباه ورعا وتقوى) فقال له مزاحم: إن أمير المؤمنين قد عزم على كذا وكذا وهذا أمر يضركم وقد نهيته عنه. فقال عبد الملك: بئس وزير الخليفة أنت. ثم قام فدخل على أبيه. وقال له: إن مزاحما أخبرنى بكذا وكذا فما رأيك؟ قال: إنى أريد أن أقوم به العشية. قال: عجله فما يؤمنك أن يحدث لك حدث أو يحدث بقلبك حدث؟ ــ(رحمك الله ياعبد الملك كم كنت ناصحا ومعينا لأبيك)ــ فرفع عمر يديه وقال: الحمد لله الذى جعل من ذريتى من يعينني على دينى. ثم قام من ساعته في الناس وردها(١).

بداية التنفيذ

ولم يرد عمر بن عبد العزيز تلك القطائع سرا بل قام من فوره ونادى مناديه الصلاة جامعة، ثم صعد المنبر فحمد الله واثنى عليه ثم قال: أما بعد فإن هؤلاء (يعنى خلفاء بنى أمية السابقين) أعطونا عطايا ما كان ينبغى لنا أن نأخذها وما كان ينبغى أن يعطوناها. وإنى قد رأيت ذلك

رد القطائع

١ ــ الكامل لابن الاثير ٥/٦٤ وابن الجوزى ١٠٧.

ليس على فيه دون الله محاسب، وإنّى قد بدأت بنفسى وأهل بيتى، اقرأ يامزاحم. فجعل مزاحم يقرأ كتابا كتابا ثم يأخذ عمر و بيده الجلم (أى المقص) فيقطعه حتى نودى بالظهر(١).

إذا فقد كان عمر بن عبد العزيز يعمل في وضح النهار فيقطع صكوك الأقطاع و يبددها و يعلنها للناس صريحة مدو ية أن هذه العطايا أعطاها من لا يملك إعطاءها لمن لا يستحقها، وكان عمله هذا إنذاراً صريحا لكل المقطعين بأن يستعدوا لاستخلاص ما في أيديهم من الأ راضى التى منحها ملوك بنى أمية للأقارب والأ تباع والمتزلفين.

مع جبال الورس

و يلتفت اليه عنبسة بن سعيد (من عظماء بنى أمية) ــ قائلا: ياأمير المؤمنين فما بال جبال الورس(٢)ــ (وكان جبل الورس قطيعة لعمر بن عبد العزيز) ــ ولعل كتاب إقطاعه لم يكن في الكتب التى قطعها قبلا ــ فيقول له عمر، ذكرتنى الطعن وكنت ناسيا(٣)، ياغلام هلم ذلك القفص. فأتى بقفص من جريد فيه قطائع بنى عبد العزيز. فقال ياغلام اقرأ عليَّ، فكلما قرأ قطيعة قال: شقها. حتى لم يبق في القفص شيء إلاّ شقه(٤).

مع خيبر

ولم يكتف عمر بإقطاعاته فيردها على بيت المال و يشق كتبها و يعدمها بل نظر الى ما ورثه عن أبيه عبد العزيز بن مروان وما ورثه أبوه عبد العزيز عن أبيه مروان بن الحكم فيسأل عن أصلها وكيف وصلت إلى

---

١ ــ الحلية ٥/٣٥٥ وابن الجوزى ١٠٦.

٢ ــ الورس نبات كالسمسم يصبغ به ليس إلا باليمن. القاموس ٢/٢٥٧.

٣ ــ مثل يضرب لمن كان قادرا على الفعل ولكنه نسى فيفعل عند وجود المذكر والأصل فيه أنّ رجلا في سفر خرج عليه جماعة وأرادوا سلبه ما معه فرضى على أن يتركوه، فقالوا له إن رضيت فألق عنك الرمح فقال: وهل معى رمح ذكرتنى الطعن وكنت ناسيا وطاعنهم وتغلب عليهم.

٤ ــ ابن عبد الحكم ٥٠.

أبيه وكيف صارت الى جده مروان بن الحكم؟ فإذا رأى فيها شبهة ردها الى ما كانت عليه. فنظر الى مزارعه فخرق سجلاتها حتى بقيت مزرعتا خيبر والسويداء، فيسأل عن خيبر من أين كانت لأبيه؟ قيل له: كانت في نحل رسول الله صلى الله عليه وسلم (أى عطاياه جمع نحلة). فتركها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيئا للمسلمين، ثم صارت الى مروان بن الحكم فأعطاها مروان اباك ثم أعطاكهما أبوك. فخرق عمر سجلها وقال: أتركها حيث تركها رسول الله صلى الله عليه وسلم(١).

مع مزرعة السويداء وما أبقى لنفسه وأهله

وأمّا السويداء فقد كانت أرضا براحا فاستنبط فيها عينا وأحياها من صلب ماله فكانت تأتيه غلتها كل عام مائتا دينار وجراب فيه تمر صيحانى (نوع من التمر) وتمر عجوة فاكتفى بها(٢).

ثم يلتفت الى الناس معلما ومبينا ومصححا: وأما فدك(٣) فكانت مما افاء الله على رسوله ولم يوجف (أى يسرع) المسلمون عليه بخيل ولا ركاب. فسألته إياها فاطمة رحمها الله تعالى فقال: ما كان لك أن تسأليني وما كان لى أن أعطيك. فكان يضع ما يأتيه منها في أبناء السبيل، ثم ولى أبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم فوضعوا ذلك بحيث وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم ولى معاوية فأقطعها

مع فدك

---

١ ــ ابن عبد الحكم ٥٢، وابن الجوزى ١٠٩ ــ يقول معقبا ــ و بلغنى أنها كانت فدك.

٢ ــ ابن عبد الحكم ٤٠ وابن الجوزى ١١١.

٣ ــ فدك قرية بالحجاز بينها و بين المدينة يومان وقيل ثلاثة وفيها عين فوارة ونخل كثير أفاءها الله على رسوله في سنة سبع (للهجرة) صلحا، وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم لما نزل خيبر وفتح حصونها ولم يبق الا الثلث أو كان حاز كل شيء الا حصنين الوطيح والسلالم ــ أيقنوا بالهلكة واشتد الحصار راسلوا النبى صلى الله عليه وسلم يسألون أن ينزلهم على الجلاء وحقن الدماء ففعل. و بلغ ذلك أهل فدك فأرسلوا الى النبى صلى الله عليه وسلم أن يصالحهم على النصف من ثمارهم وأموالهم فأجابهم الى ذلك و بعث اليهم محيصة بن مسعود فنزلوا على ما نزل عليه أهل خيبر على ان يصونهم ويحقن دماءهم فأقرهم رسول الله على مثل معاملة أهل خيبر فكانت فدك لرسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك أنه لم يوجف المسلمون عليها بخيل ولا ركاب.

قصة فدك

مروان بن الحكم فوهبها مروان لأ بى ولعبد الملك فصارت لى وللوليد وسليمان، فلما ولى الوليد سألته حصته منها فوهبها لى وسألت سليمان حصته منها فوهبها لى فاستجمعتها وما كان لى من مال أحب إليَّ منها فاشهدوا أنى قد رددتها الى ما كانت عليه(١).

وهكذا إذا رأى الناس الحاكم يعطى الحق من نفسه فالظالم يقهر والمظلوم ينتصر وانقطعت ظهور الناس و يئسوا من الظلم(٢).

---

١ ــ الخراج لأ بى يوسف ٥١ ــ وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ارض بنى النضير وارض بنى قريظة ولم يقسم فدك. ابن الا ثير ٥/٢٥، الخراج للقرشى ٤٣، الخراج لابى يوسف ٥١. و يقول ابو عبيد القاسم بن سلام في كتابه الاموال ص١٦: كان اهل فدك قد ارسلوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فبايعوا على ان لهم رقابهم ونصف أراضيهم ونخلهم ولرسول الله صلى الله عليه وسلم شطر أراضيهم ونخلهم ــ فلما اجلاهم عمر ــ رحمه الله بعث لهم من اقام لهم حظهم من الارض والنخل فأداه اليهم. ثم قيل إن فاطمة الزهراء رضى الله عنها سألتها أباها فأبى ــ وقيل بل رضى فأعطاها ــ فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلف على فدك رأى فاطمة ورأى ابى بكر: اذ رأت فاطمة ان لها حقا فيها مستندة الى قوله تعالى «**يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين**»النساء. ورأى ابو بكر انه لا حق لها فيها مستدلا بقوله صلى الله عليه وسلم «**نحن معاشر الانبياء لا نورث ما تركناه صدقة**» أصول الفقه لابى النور زهير ص٢/٢٠٥.

وقد ادى اجتهاد عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما ولى الخلافة وفتحت البلاد واتسعت على المسلمين ان يردها على ورثة رسول الله فكان على والعباس بن عبد المطلب رضى الله عنهما يتنازعان فيها أو كانا يتخاصمان الى عمر فيأبى ان يحكم بينهما و يقول انتما اعرف بشأنكما. الاموال ١٧، ١٨.

وفي معجم البلدان ١/٣٤٣: ثم صارت فدك الى مروان بن الحكم قد وهبها له معاو ية ثم وهبها مروان لولديه عبد الملك وعبد العزيز ثم صارت أثلا ثا بين عمر بن عبد العزيز والوليد وسليمان فلما ولى الوليد اعطى نصيبه منها لعمر فلما ولى عمر الخلافة كتب الى عامله بالمدينة يأمره برد فدك الى ولد فاطمة رضى الله عنها فكانت في أيديهم مدة عمر بن عبد العزيز ثم صارت تنتقل منهم واليهم كما يشاء الولاة. و يقول ابن الجوزى ص١١٠: وقيل لم يردها الى ولد فاطمة وانما ردها الى بيت المال قال عمر: وما كان لى مال احب الى منها وانا أشهدكم انى قد رددتها الى ما كانت عليه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وابى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم. وفى الجمهرة ٢/٣٣١: ثم كتب الى والى المدينة ابى بكر بن محمد بن حزم: فاقبضها و ولها رجلا يقوم فيها بالحق والسلام عليكم.

٢ ــ الكامل لابن الا ثير ٥/٦٣، العقد الفريد ٤/٤٣٥، الطبقات ٥/٢٨٧.

بيعة فضول أمواله وردها الى بيت المال

و بعد أن انتهى عمر بن عبد العزيز من إقطاعاته وأملاكه يلتفت الى بيته فلم يترك ظلامه مزرعة ولا طلبة لأحد قبله إلاّ ردها اليه، و باع ما كان له من المزارع ومن عبد أو أمة أو بهيمة أو آلة، و باع ما كان من متاع أو مركب أو لباس أو عطر فبلغ ثلاثة وعشرين ألف دينار ثم جعلها في سبيل الله وقيل بلغ ثلاثة وأربعين الف دينار، وابتاع جارية تخبز له وتطحن وتغسل ثيابه بمائة ووصيف في حاجته ورسالته وكان يزن له في كل يوم درهمين للحمه وخبزه و بقله إن غلا السعر أو رخص(١).

و يقول صاحب كتاب الخليفة الزاهد: ودار عمر حول نفسه كما تدور العاصفة فاقتلع جذور الباطل وطمس معالم الغرور ونوى أن يفنى المال المجموع و يضيع العقار الموروث و يبدد القطائع الموهوبة، لا ليزهد زهادة تفقره وتفقر أهله ولا تغنى الناس، ولكن ليرد الحق الى نصابه و يعيد العدالة الى مجراها و يبنى من هيبة الحق ما هدمه السلف في القلوب، و يوضح من معالم الإسلام ما طمسته الخطوب في الأذهان، وإنّه لماض مثقل بأوزار غلاظ تصعب على كل تطهير، ولكن عمر صمم أن يطهر الأرض مهما زلزلت في يده، ولو قدر أن يطهر بدنه من سموم الطعام الذى أكله من قبل وأن يمحو من الهواء نسمات الطيب الذى نفحت فيه منه، لو قدر أن يفعل ذلك و يصهر شحمه و يذيب عظمه لفعل، أما ثيابه فقد نزعها وغسل عنه ذلك الطيب ولبس كساء بثمانية دراهم(٢). وحتى نظر الى فص خاتم فقال: هذا مما كان الوليد بن عبد الملك أعطانيه مما جاءه من أرض المغرب فخرج منه(٣).

---

١ ــ ابن العبد الحكم ١٢٤ الطبقات ٥/٢٥٤.

٢ ــ الخليفة الزاهد ٩٥.

٣ ــ الطبقات ٥/٣٤٢ والبداية والنهاية ٩/٢٠٨.

ونظر الناس الى ما فعله عمر ووعوا ما أراده فسعى كل من له مظلمة عنده أو عند أحد من بنى أمية أو غيرهم سعى الى عمر ليرد له ظلامته، مهما تقادم عليها الزمن. يأتيه مصرى من حلوان يقول: إنّ أباه عبد العزيز اغتصب ضيعته في إبان ولايته على مصر، وعنف المصرى على عمر بل اتهم أباه بالظلم، فيلين له عمر و يقول في رفق: نازعنى منازعة كريمة ولا تشتم عرضى فإن لى فيه شركاء إخوان وأخوات وهؤلاء لا يرضون أن أرد لك الضيعة بغير قضاء، والرأى أن تذهب إلى القاضى، واستمع القاضى للمتخاصمين فقضى للمصرى فقال عمر: قد أنفقنا عليها ألف ألف درهم. فنظر القاضى فإذا عمر وأهله قد أخذوا من غلّتها بقدر ما أنفقوا فقال: قد أخذتم منها بقدر ما أنفقتم عليها فردوها لصاحبها. فيقول عمر: بارك الله عليك أيها القاضى، وقام فرد الأرض للمصرى(١).

عدالة ما بعدها عدالة ونظرة إلى الأمور ما أعتقد أن أحدا نظرها حاشا رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفاءه الراشدين من بعده.

مع بنى بلال ابن الحارث

وليس هذا فحسب بل أن عمر يعلو و يعلو حتى يصعد قمة تندق دونها أعناق، (أقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالا (هو بلال بن الحارث المزنى) أرض كذا من مكان كذا الى كذا وما كان فيها من جبل أو معدن. (وفى رواية أبى داود معادن القبلية ــ وفي رواية أخرى له وفي المستدرك للحاكم «معادن القبلية جلسيها وغوريها وحيث يصلح الزرع من قدس(٢)، وفي رواية (أنه أقطعه العقيق أجمع(٢) قال: فباع بنو بلال من عمر بن عبد العزيز أرضاً فخرج فيها معدنان: فقالوا: إنما بعناك أرض حرث ولم نبعك المعدن. وجاؤا بكتاب القطيعة التى قطعها رسول الله

---

١ ــ المحاسن والمساوىء ٢٧٣ــ٢/٢٧٤، الخليفة الزاهد ١٤٥.

٢ ــ الأموال ٣٨٧ هامش.

صلى الله عليه وسلم في جريدة، قال: فجعل عمر يمسحها على عينيه، وقال لِقَيِّمه: انظر ما استخرجت وما أنفقت عليها فقاضهم بالنفقة ورد عليهم الفضل(١).

هذا الخليفة الذى جرد نفسه من كل ممتلكاته ومواريثه و باع أمتعته وأشياءه فلم يبق له إلاّ الضرورى، ماذا فرض لنفسه من بيت مال الأمة لقاء عمله لها؟ إنّ كل مسئول من الملك فمن دونه لابد أن ينال أجراً لقاء عمله للأمة، و يتفاوت هذا الأجر تبعا لنوع الحكم وحالة البلد الاقتصادية ونظرة الحاكم الى المال وحاجة ذلك الحاكم المسئول أو العامل المعين، فكم فرض عمر لنفسه من بيت المال أو كم فرضت له الأمة لينفق على نفسه وعلى أسرته وقد كان ذا أسرة كبيرة تزيد على العشرين نفسا؟ فلننظر في سيرة هذا الرجل العظيم ونظرته الى المال مال الأمة بوجه أخص. إنّ عمر بن عبد العزيز نظر الى مال الأمة على انه مال أيتام هو وليهم فإن كان فقيرا أكل بالمعروف وإن كان غنيا استعفف، فوفر للأمة مالها فلم يرزأ بيت المال درهما ولا غيره(٢)، واكتفى بدرهمين من ماله ينفقهما على نفسه وأهله كل يوم، وحينما يكلمه ابن أبى زكريا ليأخذ ما يكفيه من بيت المال و يوسع على نفسه وعياله، يخرج ذراعه و يقول: يا ابن أبى زكريا إن هذا نبت من الفيء ولست معيدا اليه منه شيئا(٣).

رحمك الله ياعمر بن عبد العزيز لقد وفرت للأمة مالها و بينت للحكام طريق الحق والعدالة واضحا وأقمت الحجة على إمكانية العودة بالأمة واقتصادها الى السبيل القويم إذا بدأ الحاكم بنفسه فقد عها عن الطمع في مال الامة واعتبر نفسه كولى اليتيم.

---

١ ــ المرجع السابق ٤٧.

٢ ــ ابن عبد الحكم ـ فتوح مصر ـ ٢٣٩ عيون الاخبار ١/٢٣١ وابن الجوزى ١٥٧.

٣ ــ ابن عبد الحكم ٣٩.

لم يتملأ من طعام

وعن خادم له: أنّ عمر بن عبد العزيز لم يتملأ من طعامٍ من يوم ولى حتى مات(١).

ولم يقتصر عمر على منع نفسه حظها من المال والمتاع ولم يكتف بما ردّ الى بيت المال من إقطاعاته وأمواله وحرمان نفسه مما قد أباح الله له من الأجر على عمله للمؤمنين، بل زاد فحرم تلك النفس التى كانت شغوفة بمتع الحياة من ملبس وطيب ولذة مباحة، فبعد أن حرمها شهوتها من الملبس والمأكل والطيب التفت الى لذات نفسه وشهوتها الفطرية الطبيعية فكبحها بل منعها من الحلال الطيب وشغل بأمر المسلمين وما يهمهم عن أهله وزوجه، وحتى قال الناس: إنّه ما اغتسل من جنابة منذ ولى حتى لقى الله غير ثلاث مرات. و يقال: ما اغتسل من جنابة حتى مات(٢).

مع زوجته

وعمر إنسان قبل ان يكون خليفة له قلب يحب ونفس تتذوق الجمال وحس مرهف وعاطفة دافقة، تحرك قلبه بالحب لجارية لامرأته فاطمة، كانت تأباها قبل الخلافة عليه وهى تعلم حبه لها، فلما ولى الخلافة بعثت بها اليه وقالت إنّى أعلم أنها تعجبك وقد وهبتها لك، فتناول منها حاجتك. فقال لها عمر: اجلسى ياجارية، فوالله ما شيء من الدنيا كان أعجب إليَّ أن أناله منك فأخبرينى بقصتك وما كان من سبيك؟، قالت: كنت جارية من البربر جنى أبى جناية فهرب من موسى بن نصير عامل عبد الملك على إفريقية فأخذنى موسى بن نصير فبعثنى الى عبد الملك لفاطمة فأرسلت بى إليك(٣) فقال عمر: كدنا والله ان نفتضح، فجهزها وأرسل بها الى أهلها(٤).

مع جارية زوجته

١ ــ ابن عبد الحكم ٤٤.

٢ ــ الطبقات ٥/٢٥٤ ابن الجوزى ٥٨.

٣ ــ هذا يعطينا صورة عن نوع من أنواع الظلم الذى كان سائدا في عهد بنى أمية إذ تسبى الحرائر لجناية يجنيها آباؤهن ضد الدولة ثم يصبحن إماء يبعن و يشترين و يوهبن.

٤ ــ الطبقات ٢٦٠ــ٥/٢٦١ ابن عبد الحكم ٥١ وابن الجوزى ١٥٥ــ١٥٦،١٥٧.

إذن استطاع عمر أن يعلو فوق شهوات نفسه ودفق عاطفته وإعجاب قلبه و يكبح من نفسه كل ميل الى متاع دنيوى يخرجه أو يحس أنه يخرجه عن الطريق التى رسمها لنفسه للوصول الى ما يتوق إليه وهو الجنة عن طريق اهتمامه الكلى بأمر الأمة وإقامة الحق والعدل فيها.

مع عمرو بن مهاجر

وعمر كإنسان فيه نقاط ضعف ويخطىء و يصيب، أراد أن يحتاط لنفسه حتى لا يصدر منه شيء يخالف الحق والعدل، فأقام على نفسه رقباء من حاشيته وأمرهم إذ رأوا منه فعلا أو قولا مخالفا للحق والعدل أن ينبهوه الى ذلك و يردوه الى الصواب فيقول مخاطبا عمرو بن مهاجر رئيس حرسه: اذا رأيتنى قد ملت عن الحق فضع يدك في تلبابى ثم هزنى ثم قل ياعمر ماذا تصنع(١)؟ بالله أنت ياعمر! إذن لرئيس حرسه أن ينبهه للحق إذا مال، هل طلب منه أن يقول له: من فضلك ياأمير المؤمنين أو لوسمحت أو لو تكرمت؟ لا بل بكل قوة وصراحة ضع يدك في تلبابى (التلباب مجمع الثياب عند النحر) ثم هزنى ثم قل: ماذا ياصاحب الجلالة ياصاحب الفخامة ياصاحب السيادة؟ أو يأمير المؤمنين، لا بل قل ياعمر ماذا تصنع؟.

عين عليه

ثم يقول لمولاه مزاحم بن أبى مزاحم: أن الولاة جعلوا العين على العوام وأنا أجعلك عينى على نفسى، فإن سمعت منى كلمة تر بأ بى عنها أو فعالا لا تحبه فعظنى عنده وانهنى عنه(٢).

وهكذا أقام عمر على نفسه رقيبين يلازمانه و يعينانه على الحق و يكونان مقومين له إذا حدث منه انحراف غير مقصود. أين هذا من بطانات الملوك والرؤساء والقادة؟ الذين يزينون لهم كل باطل وانحراف

---

١ ــ حلية الاولياء ٥/٣١٥ صفة الصفوة ٢/١٢٢ وابن الجوزى ١٧٢.

٢ ــ عيون الاخبار ٢/١٨.

مهما كان بطلانه وانحرافه، ولا يجرؤ أحدٌ أن يقول لهم هذا باطل فلا تفعلوه، ولا يجدون عليهم حسيبا، فتكثر الأخطاء وتضلّ الأمة بضلال رؤسائها و بطانتهم، و يشيع الظلم و يعم الفساد و يهلك العباد.

فرحمك الله ياعمر بن عبد العزيز لقد كنت ولازلت مشعلا تنير درب السالكين للحق والعدل والرحمة.

المبحث الثاني
مع الأهـــل

مع زوجته فاطمة بنت عبد الملك

و بعـد أن أيقن عمر بن عبد العزيز من أمر نفسه وخلصها من شوائب المـاضي وأدران الـنـعـيـم حـسا ومعنى، التفت الى زوجه فاطمة بنت عبد المـلـك ــ بـنت الخليفة وأخت الخلائف وزوج الخليفة وأحب الناس إليه ــ يـلـتفت إليها و يقول: وقد رأى عندها جواهر وحلياً أهداها إليها أبوها عـبـد الملك بن مروان وأخواها الوليد وسليمان ابنا عبد الملك: اختارى إمّا أن تـردى حليك الى بيت المال وإما أن تأذنى لى في فراقك، فإنى أكره أن أكـون أنـا وأنـت وهـو في بيت واحد. قالت (وقد أدركت قبلا دوافع عمر إلى مـا هـو بـسـبـيـلـه وأثـر فـيها تأثيرا بالغ الروعة دائم الإحساس) لا بل أخـتـارك ياأمير المؤمنين عليه وعلى أضعافه لو كان لى، فأمر به فحمل حتى وضع في بيت مال المسلمين(١).

و يـقـول ابـن قتيبة: ثم دخل على زوجه فاطمة بنت عبد الملك وكان لها محباً و بها كلفا، فقال لها: اختارينى أو اختارى الثوب الذى عمل لك أبـوك، ــ وكان قد عمل لها ابوها عبد الملك ثو با منسوجا بالذهب منظوما بـالـدر والياقوت أنفق عليه مائة ألف دينار ــ فقال لها: إن اخترتنى فإنى آخـذ الـثـوب فـأجـعـلـه في بـيـت المـال ــ وإن اخترت الثوب فلست لك بصاحب، وأجعل الثوب في آخر بيت المال وأنفق ما دونه فإن وصلت إليه أنـفـقـتـه في مصالح المسلمين ــ وإنّما هو من أموال المسلمين أنفقت فيه ــ وإن بـقـى الـثـوب ولـم أحـتج إليه فلعل أن يأتى بعدى من يرده إليك(٢) فـقـالـت: لا حـاجـة لى بـالـثـوب(٢). فيأمر بالثوب فيوضع في بيت المال، و يـسـتـخلف يزيد بن عبد الملك بعد وفاة عمر فيقول لها: إن شئت يردونه عـلـيك. قالت: فإنى لا أشاؤه طبت عنه نفسا في حياة عمر وأرجع فيه بعد مـوتـه؟ لا والله ابـدا، فلما رأى ذلك قسمه بين أهله و ولده(١). فرحم الله

---

١ ــ الحلية ٥/٢٨٣ الكامل لابن الا ثير ٥/٤١ ابن عبد الحكم ٥٢ــ٥٣ الطبقات ٢٩٠ــ٥/٢٩١ وابن الجوزى ١٠٦.

٢ ــ الامامة والسياسة ٢/١١٦.

تلك الزوجة المطيعة القانعة المؤمنة طابت نفسها بالخروج عن كل ما تملك إرضاء لزوجها الورع، وكانت استجابتها عن اقتناع تام ودائم بأنَّ ما فعله عمر كان صوابا فلم تلتفت نفسها أبدا بعد ذلك الى ما تنازلت عنه حتى بعد موت عمر.

والمرأة كإنسان ضعيف كانت تحس في بعض الأحيان بإحساس الإنسان الذى كان منعما فترك ذلك النعيم مرة واحدة. إذ كانت تحن في بعض الأحيان إلى حياتها الماضية فتحس بالضيق من حياتها الراهنة، فتسأله مرة أن يجرى عليها خاصة. (أى راتبا خاصا من بيت المال) فقال بحزم: لا، لك في مالى سعة، فتقول: فلم كنت تأخذ منهم؟ (أى من خلفاء بنى أمية قبله) فيقول: كانت المهنأة لى والإثم عليهم فأما إذ وليت لا أفعل ذلك فيكون إثمه على(١). إذا فعمر حينما كان يعطيه الخلفاء الماضون شيئا كان يأخذه وهو يشعر أنه لا إثم عليه في أخذه وإنما إثمه على المعطى ــ ولكنا رأينا في المبحث السالف أنه كان يقول: «إنَّ هؤلاء أعطونا عطايا ما كان ينبغى لنا أن نأخذها» ــ ولعله هنا كان يتأول قول رسول الله صلى الله عليه وسلم **«ما آتاك الله من هذا المال من غير مسألة ولا إشراف فخذه فتموله أو تصدق به ومالا فلا تتبعه نفسك»**(٢).

رأيه فيما كان يعطاه من أموال

وأما إذ أصبح هو مسئولا فما يسوغ له أن ينال منه درهما إلا بحقه، ولا يسوغ له أن يعطيه إلاّ لمستحقه.

وقد منع عمر نفسه لذتها المباحة كما رأينا قبلا، وقد أعلن ذلك لزوجه وجواريه وخيرهن بين البقاء معه على ذلك أو الانطلاق إلى منازل آبائهن، إذ يقول سهل بن صدقه مولى عمر بن عبد العزيز: إنَّه لما افضت

تخيير أزواجه وجواريه

---

١ ــ الحلية ٥/٣٤٢.

٢ ــ الحديث صحيح رواه النسائي عن عمر ورواه احمد عن ابى الدرداء الجامع الصغير ٢/١٤١.

الخلافة إلى عمر سمعوا في منزله بكاء عاليا، فسئل عن ذلك البكاء فقيل: إنَّ عمر خير جواريه فقال: إنه نزل بى أمر شغلنى عنكن فمن اختارت منكن العتق أعتقتها ومن أمسكتها لم يكن لها منى شيء. فبكين بكاء شديدا يأسا منه(١). وفي رواية أنه خير امرأته بين أن تقيم في منزلها وأعلمها أنه قد شغل عن النساء بما في عنقه و بين أن تلحق بمنزل أبيها. فبكت فبكى جواريها لبكائها(٢).

حجة عمر في ترك المتع

وقد ينتقد ذلك منتقد و يعترض على ذلك معترض فيقول: ولم كل هذا التشدد ولا رهبانية في الإسلام وأين هذا من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره وقوله لمن أراد أن يترهب «إن لإهلك عليك حقا(٣) وفي رواية مسلم «ولأهلك حظا(٤)»؟ ولعل عمر رحمه الله قد اعترض عليه معترض في ذلك فبماذا أجابه وما هى حجته في ترك ما أحل الله له؟ ان فاطمة بنت عبد الملك بعثت الى رجل من الفقهاء فقالت: إنى أخاف أن لا يسع امير المؤمنين ما يصنع قال: وما ذاك؟ قالت: ما كان من أهله بسبيل منذ ولى. (أى لم يقرب ازواجه منذ اصبح خليفة) فيذهب الرجل إلى عمر فيقول: ياأمير المؤمنين بلغنى شيء أخاف أن لا يسعك. قال: وما ذاك؟ قال: أهلك لهم عليك حق. فقال عمر: وكيف يستطيع رجل أن يأتى ذاك وأمر أمة محمد في عنقه. الله سائله عنها يوم القيامة؟(٥).

إذا فلم يكن المانع لعمر عن طيب اللذة وحلالها إلا انشغاله بأمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم إذ أن هذا الأمر ملك عليه حواسه كلها وسيطر

---

١ ــ ابن عبد الحكم ١٢١ الطبقات ٥/٢٩٣، الحلية ٥/٢٥٩، صفة الصفوة ٢/١١٨ ابن الجوزى٥٧.

٢ ــ الحلية ٥/٢٦٠ ابن الجوزى ٥٨.

٣ ــ الحديث صحيح أخرجه البخارى في التهجد صفة الصفوة ١/٥٣٦.

٤ ــ مختصر صحيح مسلم حديث رقم ٦٢٨ عن عبد الله بن عمرو.

٥ ــ الطبقات ٥/٢٩٣.

على عواطفه جميعها فلم يجد من وقته المشغول لحظة يتفرغ فيها لشهوة نفسه المباحة، وكأنه كان يحس أنّ بقاءه على هذه الأرض لا يعدو أياما معدودات فاستغل كل لحظة من لحظات حياته في إحقاق حق ورفع ظلم وازالة جور ونشر عدل ورحمة في الأمة. فهل يلام بعد ذلك أو يعترض عليه معترض لتركه ملذات الحياة؟.

فقر بيته وأهله

وقد أصبح أهله أفقر بيت في المسلمين لا عن عجز لكن عن ورع، إذ أنَّ عمر بن عبد العزيز كان يحس و يشعر بأنَّ كل درهم إنما هو دم لا يجوز أن يجرى في عروق غير المسلمين فأفقر بيته ليعمر بيوت المسلمين وأجاع أهله ليشبع المسلمون وأعرى أهله ليكسو أبناء المسلمين.

طعامه وأهله العدس

فعن غلام لعمر بن عبد العزيز قال: دخلت يوما الى مولاتى فغدتنى عدسا فقلت كل يوم عدس؟ فقالت: يابنى هذا طعام مولاك أمير المؤمنين(١).

والبصل والثوم

وهكذا كان اهل بيته يعيشون في شدة وشظف عيش جل أكلهم العدس والبصل كما كان هو يأكل الثوم مسلوقا بزيت وملح(٢).

عرى ابنته

تمر به يوما ابنة له يقال لها أمينة فيدعوها عمر: ياأمين، ياأمين فلم تجبه، فأمر إنساناً فجاء بها فقال: ما منعك أن تجيبينى قالت: إنّى عارية. فقال: يامزاحم انظر تلك الفرش التى فتقناها فاقطع لها منها قميصا ــ فقطع لها قميصا. انظروا أيها الناس و ياأيها الحكام ابنة أعظم سلطان على وجه الأرض في زمنه والحاكم المطلق للدولة المترامية الأطراف ابنته عارية و يقطع لها قميصا من فرش مفتوقة قديمة مستعملة. انظروا واعتبروا يامن لا تملكون معشار ما كان يملك وقد امتلأت خزائنكم وقصوركم

---

١ ــ الحلية ٥/٢٥٩ ابن الجوزى ١٥٢.

٢ ــ الحلية ٥/٣١٥ وابن الجوزى ١٥٢.

بالملابس والأمتعة من كل لون وصنف (وموديل) وشعوبكم جائعة عارية.

يأخذ هذا المنظر بنفوس بعض الحاضرين فيسرع إنسان إلى أم البنين بنت عبد العزيز ــ أخت عمر ــ فيقول: بنت أخيك عارية وأنت عندك ما عندك؟ فأرسلت إليها بتخت من ثياب وقالت: لا تطلبى من عمر شيئا(١).

و يتخذ عمر بن عبد العزيز دارا لإطعام الفقراء والمساكين وأبناء السبيل، وقد حذر أهله وتقدم إليهم: إياكم أن تصيبوا من هذه الدار شيئا من طعامها فإنما هو للفقراء والمساكين وابن السبيل. فجاء يوما فإذا مولاة له معها صحفة (أى طبق) فيها غرفة من لبن، فقال لها: ما هذا؟ قالت: زوجتك فلانة حامل كما قد علمت واشتهت غرفة من لبن والمرأة إذا كانت حاملا فاشتهت شيئا فلم تؤت به تخوفت على ما في بطنها أن يسقط، فأخذت هذه الغرفة من هذه الدار.

مع غرفة لبن

فيأخذ عمر بيدها و يتوجه بها الى زوجته وهو عالى الصوت وهو يقول:

إن لم يمسك ما فى بطنها إلاّ طعام المساكين والفقراء فلا أمسكه الله.

قالت زوجته: رديه ويحك والله لا أذوقه(٢).

هكذا كان يعيش آل عمر بن عبد العزيز يشتهون ما يباح للفقراء والمساكين وليس عندهم ولا يستطيعونه، لقد فطم عمر بن عبد العزيز نفسه وأهله عن مال المسلمين، ولعله أراد بذلك أن يكفر عما نال من قبل توليه الخلافة.

رحمه الله.

---

١ ــ الحلية ٥/٢٦١ وابن الجوزى ٢٧٥.

٢ ــ الطبقات ٥/٢٧٩.

المبحث الثالث

مع الولـد

كـان لعمر بن عبد العزيز أولاد و بنات عاشوا مع أبيهم عيشته المترفة المنعمة في المدينة وفي الشام، وكانوا يجارون في دمشق أولاد عبد الملك والوليد وسليمان وأمراء بنى أمية الاخرين، ولعلهم قدروا في أنفسهم حينما بويع لأبيهم بالخلافة أنهم سيصيبون من الأموال و ينالون من النعيم والجاه أضعاف ما كانوا ينالونه وأبوهم مجرد أمير من أمراء بنى مروان، وكيف لا يقدرون ذلك وهم قد رأوا بأعينهم ما كان يفيضه الوليد بن عبد الملك وسليمان أخوه على أبنائهم من أموال وما يقطعونهم إياه من إقطاعات وما يولونهم إياه من ولايات وأجناد.

مع ابنه وقد تمزق قميصه

ولكن عمر بن عبد العزيز وقد بويع بالخلافة وازدحم الناس لمبايعته وكان في هذا الحشد الهائل ابن لعمر قد زحمه الناس فخرقوا جيب قميصه، و يرى عمر ذلك فينادى ابنه من بين تلك الجموع الهادرة و يقول له: يابنى أصلح جيب قميصك فإنك لم تكن قط أحوج إلى ذلك منك اليوم(١).

مع ابنه وقد اشترى فص خاتم بألف درهم

نعم فابنه لم يكن قبل مبايعة أبيه بالخلافة يبالى أن يخرق جيب قميصه أو يمزق لأنه كان قادرا على تعويضه، أما الآن وقد تولى أبوه المسئولية العظمى فهو في أشد الحاجة لهذا القميص الممزق الآن لأن أباه لا يستطيع أن يعطيه بدلا منه لأنه نفسه سيرقع قميصه لو تمزق.

و يبلغ عمر أن ابنا له اشترى فصا بألف درهم فتختم به ــ (وما في ذلك بأس ما دام قد اشتراه من مال حلال) ــ ولكن عمر وهو الحريص

١ ــ ابن عبد الحكم ١٢٤، الامامة والسياسة ١١٦.

على أن يحمل أهله و ولده على سيرته وحتى لا يظن ظان أن أبناء عمر قد يستفيدون من خلافة أبيهم غير ما يستفيده أبناء المسلمين، فيكتب عمر إليه: عزيمة منى لما بعت الفص الذى اشتريت بألف درهم وتصدقت بثمنه، واشتريت فصا بدرهم واحد ونقشت عليه: رحم الله امرأ عرف قدره، والسلام(١).

مع ابنة له طالبت لؤلؤة

وتبعث إليه ابنته بلؤلؤة وقالت له: أن رأيت إن تبعث الى بأخت لها حتى أجعلها في أذُنى ــ (ولعلها ما كانت تدرك سياسة عمر ونظرته الجديدة فكانت حسنة الظن أنها قد يستجاب لرجائها، أليست ابنة أمير المؤمنين؟ أليس كل أمراء المؤمنين السابقين من بنى أمية لا يردون لبناتهم طلبا مثل ما تطلب بل أكثر فلم لا يستجيب لها أبوها وهو منهم؟ ولكنها كانت واهمة فبدلا من أن يرسل إليها باللؤلؤتين) ــ فأرسل لها بجمرتين ثم قال لها: إن استطعت أن تجعلى هاتين الجمرتين في أذنيك بعثت إليك بأخت لها(٢).

مع بناته

وكان من عادة عمر أن يصلى العتمة ــ (اى العشاء) ــ ثم يدخل على بناته فيسلم عليهن، فدخل عليهن ذات ليلة فلما أحسسنه وضعن أيديهن على أفواههن ثم تبادرن الباب. فقال للحاضنة ما شأنهن (لقد استغرب عمر فرار بناته من وجهه وليس ذلك بعادة لهن فيدهشه ذلك و يسأل حاضنتهن عن شأنهن فتجيبه) ــ إنَّه لم يكن عندهن شيء يتعشينه إلا عدس و بصل فكرهن أن تشتم ذلك من أفواههن. فبكى عمر ثم قال لهن: يابناتى ما ينفعكن أن تعشين الالوان ويمر بأبيكن إلى النار. فبكين حتى علت أصواتهن(٣).

---

١ ــ الحلية ٥/٣٠٦ وابن الجوزى ٢٧٥ باختلاف الفاظ.

٢ ــ ابن عبد الحكم ١٣٤.

٣ ــ المرجع السابق ٤٨ــ٤٩.

وهنا نرى السبب الكامن وراء تقشف عمر وزهده وهو الخوف من النار كأنها لم تخلق إلا له.

مع ابنه وقد طلب منه الزواج

بل أنَّ عمر يبلغ درجة أعلى من ذلك فهو يحرم على نفسه وأهل بيته ما يراه لكافة المسلمين، إذ يرسل إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن واليه على الكوفة حينما أخبره أن هناك فائضا في بيت مال المسلمين، فكتب إليه يقول: أن انظر كل بكر ليس له مال فشاء أن تزوجه فزوجه واصدق عنه(١). و يأتى ابن لعمر يطلب إليه أن يزوجه وأن يصدق عنه من بيت المال ــ (وكان هذا متزوجا من امرأة أخرى) فيغضب عمر لذلك الطلب و يكتب لابنه مؤنبا: لعمر الله لقد أتانى كتابك تسألنى أن أجمع لك بين الضرائر من بيت مال المسلمين، وأبناء المهاجرين لا يجد أحدهم امرأة يستعف بها، فلا أعرفن ما كتبت بمثل هذا ــ (وهو يحس أو يعلم أن ابنه في حاجة للزواج لسبب أو لآخر فيكتب إليه) وانظر الى ما قبلك من نحاسنا ومتاعنا فبعه واستعن بثمنه على ما بدا لك(٢).

ابن الخليفة يبيع نحاس بيت أبيه وأمتعته ليتزوج ويحرم عليه ما يباح لعامة المسلمين ولا يمنع منه ذو حاجة منهم!

مع ابنائه وقد عرض عليهم اختيارا ان يولى كلا منهم بلدا

و يريد عمر يوما أن يوقف أبناءه أمام الأمر الواقع وهو أنه ليس لهم من الأمر شيء فهم في هذا الأمر أقل من أي فرد في هذه الأمة إذ يقول لهم: كيف أنتم إذا أنا وليت كل رجل منكم جندا؟.

(ولم يكن أبناؤه أغبياء بل كانوا يعرفونه تماما بعد كل ما مر و يعلمون يقينا أنه لن يولى أحداً منهم)، فيقول له ابن الحارثية: لم تعرض

---

١ ــ الاموال ٣٥٨، الطبقات ٥/٣٧٢، ابن عبد الحكم ٦٧.

٢ ــ ابن عبد الحكم ١٠٦.

علينا أمراً لا تريد أن تفعله؟ قال: أترون بساطي هذا إنه لصائر إلى بلى وإني لأكره أن تدنسوه بخفافكم، فكيف أرضى لنفسي أن تدنسوا عليَّ ديني(٣)؟.

هكذا سد عمر في وجه أهله وأولاده كل باب يمكن أن يطمعوا في ولوجه، أو يحس أنهم قد يستغلونه للإستفاده من مال المسلمين. فلينظر أولئك الذين إذا تولوا أمراً ملأوا الوظائف والمراكز بأقاربهم وأصدقائهم وأشياعهم وحملوا أبناءهم وأقاربهم على رقاب المسلمين مع وجود من هو أكفأ منهم وأشد تحملا للتبعات وأكثر أمانة وإخلاصاً. ولا يرقبون في المسلمين إلاً ولا ذمة ولا يراعون حق الله فيما يأخذون وفيما يذرون فلينظر أولئك وليعتبروا وليأخذوا من عمر بن عبد العزيز قدوة وعبرة.

---

٣ ــ الحلية ٥/٣١٤ وابن الجوزى ٢٧٣ــ٢٧٤.

المبحث الرابع

الزهد الحقيقي عفة مع قدرة

«الناس يقولون: مالك بن دينار زاهد، إنّما الزاهد
عمر بن عبد العزيز الذى أتته الدنيا فتركها»
مالك بن دينار(١)

ما الزهد؟

الزهد هو كبح النفس عن شهواتها وفطمها عن ملذاتها، أو هو انصراف النفس عن التمتع بالمباح والاكتفاء بالقليل مما يحفظ على الجسم قوته وعلى النفس قدرتها على العمل والطاعة.

وشرط الزهد المحبوب أن يكون الإنسان قادرا على نيل ما يترك حتى يعلم صدق زهده وتقشفه.

و بهذا المعيار أو التعريف للزهد نستطيع أن نقول كما قال ابن دينار: إنّما الزاهد عمر بن عبد العزيز. فعمر بن عبد العزيز قد عف عن مال الأمة مع قدرته على استغلاله وإنفاقه كما يشاء كما فعل أسلافه، ولم يكن هناك من يستطيع أن يقول له لم فعلت ذلك؟ وهو قد قدع نفسه ــ أى منعها ــ عن التمتع بلذائذ الحياة من عيشة هنية رضية ومتاع دنيوى وشهوات مباحة أو غير مباحة لو أرادها لسعت إليه دون أن يسعى لها، ولأكل أطيب الطعام ولشرب أفضل الشراب. وللبس ألين وأثمن الثياب، ولركب أفره الدواب. ولتزوج وتسرى أجمل وأحلى وأشرف النساء والجوارى، وكل ذلك كان تحت يديه ورهن إشارته لو أراد.

نفس عمر التواقة

ولكن عمر بن عبد العزيز كان فوق ذلك كله، كانت نفسه تواقه إلى شيء أبعد مما يتصور الدنيو يون. يأتيه مولاه مزاحم فيقول له: إنى رأيت في

---

١ ــ حلية الاولياء ٥/٢٥٧ وابن الجحوزى ١٥٥.

أهلك خللا. فقال لى: يامزاحم أما يكفيهم وأعطيتهم ما يصيبون من المغانم مع المسلمين من فيئهم مع مال عمر؟ فقلت له: وأين يقع ذلك منهم مع ما يمونون ومع ضيافتهم وكسوتهم نسائهم، قد والله خشيت أن تصيبهم مخمصة. فقال لى عمر: إنّ لى نفسا تواقة، لقد رأيتني وأنا بالمدينة غلام مع الغلمان ثم تاقت نفسى الى العلم الى العربية والشعر فأصبت منه حاجتى وما كنت أريد، ثم تاقت الى السلطان فاستعملت على المدينة، ثم تاقت نفسى وأنا في السلطان الى اللبس والعيش الطيب فما علمت أن أحداً من أهل بيتى ولا غيرهم كانوا في مثل ما كنت فيه. ثم تاقت نفسى الى الآخرة والعمل بالعدل، فأنا أرجو أن أنال ما تاقت نفسى إليه من أمر آخرتي، فلست بالذى أهلك آخرتى بدنياهم(١).

إذاً فعمر بن عبد العزيز يسير بناء على هدف حدد له مسارَه توقُ نفسه وتطلعها، تلك النفس الطُلَعة التواقة التى ما تطلعت الى درجة إلاّ نالتها ثم تطلعت وطلبت ما فوقها. حتى وصلت الى التى لا فوقها فهى ترجو من وراء ذلك الجنة، فكيف يبيع عمر آخرته بدنيا الناس جميعا؟.

دعوة للمساواة

وهو يعلم تماما أنه لو اراد سلوك غير هذا الطريق لاستطاع، و يبين ذلك للناس حتى لا يظن به العجز وحتى يقطع طمع الطامعين، إذ يخطب الناس يوما بخناصرة(٢) فيقول: أيها الناس ما منكم من أحد يبلغنا عن حاجة إلاّ أحببت أن أسدَّ من حاجته بما قدرت عليه، وما منكم من أحد لا يسعه ما عندنا إلاّ وددت أنّه بدىء بى و بلحمتى الذين يلوننى حتى يستوى عيشنا وعيشه.

قدرة وحاجز

وايم الله إنى لو أردت غير ذلك من الغضارة والعيش لكان اللسان به منى ذلولا عالما بأسبابه. ولكنه قضاء من الله وكتاب ناطق وسنة عادلة

---

١ ــ الحلية ٣٣١، ٥/٣٣٢ عيون الاخبار ١/٢٣١.

٢ ــ بليدة من اعمال حلب تحاذى قنسرين نحو البادية.

يدل فيها على طاعته و ينهى فيها عن معصيته. ثم رفع طرف ردائه و بكى حتى شهق وأبكى الناس حوله(١).

فعمر إذاً إنّما يرجو من وراء ذلك الآخرة، فزهد في الدنيا وطلقها ثلاثا بائنة لا رجعة فيها، واكتفى منها باليسير مما يقيم الأود و يدفع المسغبة مع طول تفكر بالمآل والمصير وخوف من الله عز وجل فاق الحدود وتعدى السدود، ومهما حاولنا فلن نستطيع أن نذكر كل ما يدل على زهده في متاع هذه الحياة الدنيا وإنما هي أمثلة تضيء لنا الطريق وتعطينا العبرة وترشدنا الى ما ينبغى أن يسلكه الحاكم المؤمن إذا أراد أن يسير بالأمة في طريق الله ويحملها على الصراط المستقيم.

التقشف

قالوا: لما ولى عمر بن عبد العزيز: زهد في الدنيا ورفض ما كان فيه وترك أن يخدم وترك ألوان الطعام، فكان إذا صنع له طعامه هيء على شيء وغطى حتى إذا دخل اجتذبه فأكل(٢).

فهو يخدم نفسه بنفسه ولم يكن يتخير ألوان الأطعمة أو حتى يعرف ما يأكله قبل أكله ــ لا يهمه من الأكل إلاّ أنّه يسد جوعه و يقيم صلبه.

نفقته

ولكن كم كانت نفقته وعياله في اليوم؟ قال سلم بن زياد: كان عمر ينفق على أهله في غدائه وعشائه كل يوم درهمين(٣).

درهمان فقط سواء غلا السعر أو رخص ينفقهما عمر بن عبد العزيز كل يوم على طعامه وهذان من خالص ماله فليعتبر المسرفون.

صورة من حياته

ويحدث عنه خصى له أسود فيقول: دخلت على عمر بن عبد العزيز في يوم شات في داره بدير سمعان. قال: فألفيته قاعدا في زاوية الدار في

---

١ ــ الحلية ٢٩٤ــ٥/٢٩٥ وابن الجوزى ٢٢٣، ٢٢٤.

٢ ــ ابن عبد الحكم ٣٨.

٣ ــ ابن عبد الحكم ١٣٤ وانظر مبحث مع النفس من هذه الرسالة.

الشمس وقد التفع (التف والتحف) بإزاره، فلما دنوت سلمت فرد عليَّ السلام ثم قال لى: انزل. فقعدت ثم قال لى انزل. فألهمت إنما أراد النعلين فخلعتهما، فأقبل على بالكلام ــ فلما أنست كرهت أن أقول باسيدى لئلا يجد عليَّ فقلت ياأمير المؤمنين ما الذى يقعدك هكذا؟.

ثيابه

قال: غسلت ثيابى. قال: وما ثيابك ياأمير المؤمنين؟ قال: قميص ورداء وإزار، قال: فما كان بأوشك أن جاء عمرو بن مهاجر (رئيس الحرس) فقال له: أين كنت؟ قال: كنت خارجا أدفع مظلمة عن رجل من أهل الكتاب ــ وكان عمرو بن مهاجر صاحب حرس عمر بن عبد العزيز ــ فقال: على بفلان، فما كان بأوشك أن جاء غلام حدث، فقال: يافلان ائته بغدائه الساعة، فما كان بأوشك أن أتاه الغلام بصفحة غليظة عميقة فيها خبز قد كسر وصب عليه ماء وملح وزيت، فقال: تغده، قال: فلما أخذت بالبطش بالغداء نهض فنظرت بريق ساقيه من تحت الإزار وهو مدبر فكان مقامى يومي ذاك عنده. فلما جن الليل أذَّن مؤذن المغرب فخرج فصلى فكنا أربعة رهط أنا وعمرو بن المهاجر ورجلان من الأنصار من أهل المدينة. فلما صلى وانصرف صعدت أنا وعمرو بن المهاجر والأنصاريان حتى كنا في غرفة. فما كان بأوشك أن عادت علينا تلك القصعة التى تغدى منها فإذا فيها ثريد عدس و بصل عليها مشقق أخرجت إلى من يخدمه أو لمن ببابه. فقال الخادم: لو كان لعمر عشاء غيره لعشاكم منه وما فطره إلاّ على مثل هذا(١).

طعامه

هكذا كان طعام عمر بن عبد العزيز أيام أن كان يحكم الدنيا. فماذا كان يلبس أثناء خلافته؟.

إنّ عمر بن عبد العزيز كما شدد على نفسه فحرمها ألوان الطعام وأطيب الأكل واستغنى بالجشب الغليظ من الطعام، شدد عليها أيضا في

---

١ ــ ابن عبد الحكم ١٣٥.

اللباس فما كان يلبس إلا الخشن من الثياب وإنّ صورة واحدة من صوره لتبين لنا تلك النقلة العظيمة التى نقل عمر بن عبد العزيز إليها نفسه فرضّاها بالقليل بعد أن كانت لا ترضى بالكثير، وأرضاها بالكتان والصوف بعد أن كان لا يرضيها الحرير. يحكى لنا رباح بن عبيدة ــ وكان تاجرا ــ قال: كنت أتجر فقال لى عمر بن عبد العزيز: يا رباح اتخذ لى كساءين خزا أتخذ أحدهما محبسا ــ (لباس للنوم) ــ والاخر شعارا ــ (ما يباشر الجسم من الثياب). قال: ففعلت فصنعتهما بالبصرة فلم آل ــ (أى أقصر) ــ ثم قدمت بهما فأمر بقبضهما فلما أصبح غدوت عليه فقال لى: يا رباح ما أجود ثوبيك لولا خشونة فيهما ــ (وكان هذا قبل أن يلى الخلافة) ــ فلما وُلّى قال لى: يا رباح أتخذ لى من هذه الجباب الهروية عامل قطن فيهن صغر. قال: فاشتريت له ثلاث شقق فقطعت من الثلاث جبتين خشنتين ثم أتيت بهما إليه، فقبضهما فقال لى: يا رباح ما أجود ثوبيك لولا لين فيهما يقول رباح: فذكرت قوله الأول وقوله الآخر(١).

فرق بين حالين

هكذا تغيرت النظرة وتبدل الشعور والذوق والإحساس إلى الأرقى في ميزان الحق والعدل والزهد.

ويحدث مرة أنه أخرّ الجمعة يوما عن وقته الذى كان يصلى فيه فيقال له: أخرت الجمعة اليوم عن وقتك؟ فيقول: إنّ الغلام ذهب بالثياب يغسلها فحبس بها (أى تأخر)، فعرفنا أنه ليس له غيرها. ثم يقول للسائلين أما إنى قد رأيتنى وأنا بالمدينة وإنّى لأخاف أن يعجز ما رزقنى الله عن كسوتى فقط ثم يتمثل:

تأخر عن الجمعة لغسل ثيابه

---

١ ــ الحلية ٥/٣٢٥ العقد الفريد ٤/٤٣٤ وابن الجوزى ١٤٨.

قضى ما قضى فيما مضى ثم لم يكن له عودة أخرى الليالى الغوابر(١)

فقد كان عمر يحس بالفارق الشاسع بين ما كان عليه وهو في المدينة أميرا عليها وما هو فيه وهو خليفة، فتارة يحن الى لياليه وأيامه الماضية، وتارة يذم تلك العادات التى كان عليها، وهو في كلا حاليه يصعد الى الأوج معتليا فوق نزعات النفس ووساوس الهوى منطلقا الى الهدف الأسمى الذى تاقت نفسه إليه وهو الجنة.

مقارنة

و يذكر بعض حراسه حالتيه والفرق بينهما فيقول: رأيت عمر بن عبد العزيز حين وُلِّي و به من حسن اللون وجودة الثياب والبزة، ثم دخلت عليه بعد وقد ولِّى فإذا هو قد احترق واسود ولصق جلده بعظمه حتى ليس بين الجلد والعظم لحم، وإذا عليه قلنسوة بيضاء قد اجتمع قطنها يعلم أنها قد غسلت، وعليه سحق انبجانية(٢) قد خرج سداها، وهو على شاذكونة(٣) قد لصقت بالارض تحت الشاذكونة عباءة قطرانية(٤) من مشاقة(٥) الصوف(٦).

القميص المرقوع

يقول أحدهم: إن عمر بن عبد العزيز صلى بهم الجمعة وعليه قميص مرقوع من بين يديه ومن خلفه، فلما فرغ جلس وجلسنا معه، فقال له رجل من القوم: ياأمير المؤمنين أن الله قد أعطاك فلو لبست وصنعت؟ (وأولئك جلساء الملوك والرؤساء يزينون لهم فعل ما يعجبهم وليس قصد أكثرهم

---

١ ــ الحلية ٥/٣٢٢ وابن الجوزى ١٥٤.

٢ ــ السحق الثوب البالى وانبجانية نسبة على غير قياس الى منبج (بلدة في سوريا) القاموس ١/٢٠٨.

٣ ــ الشاذكونة ثياب غلاظ مضربة القاموس ٣/٢٣٩.

٤ ــ قطرانية نسبة على غير قياس الى قطر.

٥ ــ مشاقة الصوف: سقاطته القاموس ٣/٢٨٣.

٦ ــ الحلية ٥/٣٣٢، ابن الجوزى ١٤٧.

النصيحة ولا النظر إلى الأمة ولا إلى الهدف الأسمى) ــ فنكس عمر مليا حتى عرفنا أن ذلك قد ساءه ثم رفع رأسه فقال: أن أفضل القصد عند الجدة وأفضل العفو عند المقدرة(١).

رحمك الله يابن عبد العزيز لقد كنت للأمة نعم الأسوة والقدوة ونعم المعلم والمهذب.

واستمر على ذلك حتى كان في مرض موته لا يملك سوى قميصه الذى مات فيه. يقول مسلمة بن عبد الملك: دخلت على عمر بن عبد العزيز أعوده في مرضه فإذا عليه قميص وسخ فقلت لفاطمة بنت عبد الملك ــ (زوجة عمر وأخت مسلمة) يافاطمة اغسلى قميص أمير المؤمنين، قالت: نفعل إن شاء الله، ثم عدت فإذا القميص على حاله فقلت: يافاطمة ألم آمركم أن تغسلوا قميص أمير المؤمنين فإن الناس يعودونه؟ قالت: والله ما له قميص غيره(٢).

تساؤل هل كان عمر بخيلا؟

ولكن قد يسأل بعض من لا يعرفون سيرة هذا الخليفة الراشد العظيم هل كان عمر بن عبد العزيز بخيلا على نفسه وأهله؟ لأنه قد يكون ذلك التجرد للبخل أو لعدم الوجود، فالجواب لا هذا ولا ذاك. فلم يكن ابن عبد العزيز بخيلا أبدا في يوم من الايام ولم يكن ــ قبل أن يلى الخلافة فقيرا أيضاً ــ قد كان غنيا، وقد مر معنا كثير من الأمثلة الدالة على غناه، وكيف يكون ابن عبد العزيز فقيرا وقد كان أبوه حاكم مصر وإفريقية المطلق، وكان هو في صغره يتقاضى من عبد الملك ألف دينار شهريا، ثم تولى أمرة خناصرة لعبد الملك والمدينة والحجاز كله بعد ذلك في عهد الوليد، وقد وصل إليه من المنح والاقطاعات ما لا يعرفه وما لا يستطيع أن

لم يكن فقيرا ولم يكن بخيلا ولا شحيحا

---

١ ــ الطبقات ٥/٢٩٧ ابن الجوزى ١٤٦.
٢ ــ الحلية ٥/٢٥٨ ابن الجوزى ١٥٣.

يحصيه، وكانت تأتيه غلات أراضيه والعطايا كل عام ما بين الأربعين والخمسين ألف دينار، وكذلك لم يكن شحيحا ولا بخيلا ولم يعرف عنه شح ولا بخل لا قبل الخلافة ولا بعدها، وكيف يوصف بالبخل من كان يخشى أن لا يكفى دخله كسوته ومن كان يعطى الشعراء كرائم الإبل، حتى أنه أعطى دكين الراجز خمس عشرة ناقة كرائم صعابا حينما جاء المدينة فمدحه وهو أمير عليها(١)؟.

إذاً هناك سبب آخر وراء هذه الأسباب التى قد يظنها بعض الجاهلين بسيرة عمر بن عبد العزيز، وقد بينا شيئا من ذلك فيما مضى حينما ذكرنا توق نفسه وتطلعها الى المعالى حتى نال أقصى ما يتمناه إنسان في الدنيا. فلما نال شرف الدنيا أراد أن ينال بها شرف الآخرة، إذا هناك حافز حثيث يدفع عمر بن عبد العزيز الى فعل ما فعل، تقول زوجه فاطمة بنت عبد الملك: قد يكون من الرجال من هو أكثر صلاة وصياما من عمر، ولكنى لم أر من الناس أحدا قط كان أشد خوفا من ربه من عمر، كان إذا دخل البيت ألقى نفسه في مسجده فلا يزال يبكى و يدعو حتى تغلبه عيناه، ثم يستيقظ فيفعل مثل ذلك ليله أجمع(٢).

شدة خوفه من الله

و يبكى فتبكى فاطمة فيبكى أهل الدار لا يدرى هؤلاء ما أبكى هؤلاء، فلما تجلى عنهم العبر قالت له فاطمة: بأبى أنت ياأمير المؤمنين مم بكيت؟ فيقول: ذكرت يافاطمة منصرف القوم من بين يدى الله عز وجل فريق في الجنة وفريق في السعير، ثم صرخ وغشى عليه(٣).

إذاً فزهد عمر بن العزيز لم يكن زهدا أعجميا، ولم يكن رهبانية مذمومة، لقد زهد في الدنيا وهو يملكها وهذا أعلى درجات الزاهدين. لا

---

١ ــ العقد الفريد ٨٤ــ٢/٨٦.

٢ ــ الحلية ٥/٢٦٠ ابن الجوزى ١٨٨.

٣ ــ صفة الصفوة ٢/١٢١ والحلية ٥/٢٦٠.

أولئك الذين يدعون الزهد وهم لا يملكون فإذا اختبروا وفتح عليهم من الدنيا باب وثبوا إليها فاحتوشوها.

فرحمك الله يا ابن عبد العزيز إذ ملكت فأسجحت، وقدرت فعففت، وأقبلت اليك الدنيا بأبهى زينتها وأجمل حللها فأدبرت عنها وعففت عن طيباتها وتركتها لأ بنائها يتكالبون عليها، وعلمت العلماء والحكام والناس جميعا كيف يكون الانصراف عن الدنيا وزينتها في سبيل الهدف الأسمى والغاية المثلى ونشر العدل وإقامة الحق والتجرد من المطامع والشهوات.

المبحث الخامس

ورع مثـــالى

«إن ابتلاك الله بالغنى فاقتصد في غناك وضع لله نفسك»(١)

عمر بن عبد العزيز

الغنى المقتصد

لـقد أتبع القول الفعل، فقد كان غنيا فاقتصد، وكان عظيما فاتضع، وكـيف لا يكون غنيا بل أغنى الأغنياء من يحكم الدنيا من حدود الصين الى حـدود فـرنـسـا وتجـبـى إلـيـه ثـمـراتها و يصب في خزائنه نهر خراجها المـتدفق؟ وكيف لا يكون عظيما من كان خليفة الدنيا وجنوده في المشرق والمـغـرب تـبعث الرعب في قلوب الأعداء وتبث الذعر في نفوس من تسول لهم أنفسهم الانتقاص من سيادة الدولة في الداخل والخارج؟.

والعظيم المتواضع

كـانـت عـظـمته دونها كل عظمة، ورفعته دونها كل رفعة، ومع كل هـذا وذاك فـقـد كـان مـقـتـصـدا فـوق كـل مـقتصد، ومتواضعا فوق كل مـتـواضـع، كـان مقتصدا لا في ماله بل في مال المسلمين، لا على المسلمين بـل على نـفـسـه، وكـان في مـالـه كريما لا على نفسه بل على الناس، فأفقر نـفسه ليغتني الناس، كان متواضعا لا للناس بل لله وحده وللحق وحده، فكان نعم المقتصد ونعم المتضع.

ومـهما تحدثنا عن اقتصاده وتواضعه فهو فوق كل ما نقول و يكفيه أنه أفقر نفسه ليغنى الناس وأخرب بيته ليعمر بيوت الناس.

ولـقـد بـلـغ اقـتصاده وتواضعه وحرصه على مال الأمة درجة من الورع المـثـالى قـلـما يصل أو وصل إليها أحد قبله ولا بعده حاشا رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفاءه الراشدين المهديين من بعده.

١ ــ خامس الراشدين ١/٨٩ عن ابن الجوزى ٩٢.

فقد رأينا عمر بن عبد العزيز قبيل الخلافة عطرا لباسا مسرفا على نفسه في نفقته، متكبرا لا تكاد الدنيا تسع عظمته وكبرياءه وخيلاءه. وقد رأينا كذلك تبدل حاله بمجرد تسلمه كرسى الخلافة، فقلب للدنيا ظهر المجن، فجرد نفسه من كل متاعها: غير ملابسه وأزال آثار الطيب عن جسمه وقص شعره ولبس الخشن، وترك التنعم، وتنازل عن كل ما يملك عدا ضيعة السويداء، وجرد أهله كذلك، واكتفى بالقميص الواحد واللون الواحد من الطعام له ولأهله، فكان بيته كأدنى بيت من المسلمين، لا رياش ولا أثاث ولا طنافس ولا خزائن، يأكل العدس والبصل والثوم. ولم يزرأ مال المسلمين شيئا واكتفى بعطائه مع المسلمين ــ وكان عطاؤه مائتى دينار في السنة ــ ينفق منها ــ مع غلة ضيعته بالسويداء على نفسه وأضيافه وأهله ومن يرد إليه من السائلين والشعراء والقاصدين. وقد ترقى في ورعه عن مال الأمة فوق وصف الواصفين: يؤتى ذات يوم بعنبرة من الفىء وعنده ليث بن أبى رقية كاتبه فأخذها بيده فمسحها ثم أمر بها فرفعت حتى تباع، ثم انه أمرَّ يده على أنفه فوجد ريحها فدعا الوضوء فتوضأ (أى غسل يديه من أثر الرائحة) فقلت له: ــ(أى ليث الكاتب) ــ ما هذا الذى أصبت منها حتى تتوضأ؟ قال: عجبا لك ياليث وهل ينتفع منها إلاّ بالذى وجدت أتؤكل أو تشرب؟

مع عطر الفىء

و يؤتى يوما بمسك من الفىء فيوضع بين يديه فيجد ريحه فيضع يده على أنفه و يقول: أخروه حتى لم يجد له ريحا(١).

و يقول شاهد عيان آخر هو حيان بن نافع البصرى: بعثنى عروة بن محمد السعدى ــ (كان واليا على اليمن زمن سليمان وعمر) ــ الى سليمان بن عبد الملك ــ وهو بدابق بهدايا ــ فوافيناه قد مات واستخلف

---

١ ــ ابن عبد الحكم ٤٠ ابن الجوزى ١٦٢، ١٦٣.

عمر بن عبد العزيز، فدخلنا عليه وقد هيأنا تلك الهدايا كما كانت تهيأ لسليمان، ومعنا عنبرة فيها نحو من خمسمائة رطل أو ستمائة رطل ومسك كثير، فأخذوا يعرضون على عمر تلك الهدية، وفاح ريح المسك، فجعل عمر كمه على أنفه ثم قال: ياغلام ارفع هذا فإنه إنّما يستمتع من هذا بريحه(١).

الرائحة التى تشيع فتملأ الأجواء بعبيرها و يشمها كل من كان عنده حاسة شم يأبى عمر بن عبد العزيز أن تدخل أنفه و يستمتع بها حِسَّه لأنها رائحة عطر من مال المسلمين، و يرى أنه لا يجوز له أن يستمتع بشم عطرهم دونهم أو حتى معهم..

سد باب الرشا باسم الهدية

و يشتهى ذات يوم تفاحا فيقول لو أنَّ عندنا شيئا من تفاح فإنه طيب؟ (وكلنا يعلم أنَّ الشام معدن التفاح) فيقوم رجل من أهله فيهدى إليه تفاحا، فلما أن جاء به الرسول قال: ما أطيبه وأطيب ريحه وأحسنه؟ ارفع ياغلام واقرأ على فلان السلام وقل له: إن هديتك قد وقعت عندنا بحيث تحب. ويحذر الناس قائلا: لا أعلمنَّ أنكم قد بعثتم الى أحد من أهل عملى بشيء. فيقول له احدهم: ياأمير المؤمنين ابن عمك ورجل من أهل بيتك وقد بلغك أنَّ النبى صلى الله عليه وسلم كان يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة؟ فيقول: إن الهدية كانت للنبى صلى الله عليه وسلم هدية وهى لنا ولمن بعدنا رشوة(٢).

هكذا سد على الناس هذا الباب ومنع أهله وعماله من قبول الهدايا، لأنّه رأى أن هذه الهدايا إنما هي رشا يشترى بها دين الرجل وأمانته.

---

١ ــ الحلية ٥/٣٢٦، ابن الجوزى ١٦٣.

٢ ــ الحلية ٥/٢٩٤، الطبقات ٥/٢٧٨، ابن عبد الحكم ١٣٣، البداية والنهاية ٢٢٦ــ٩/٢٢٧ وابن الجوزى ١٦٠.

ولم يكتف عمر بأنه حرم نفسه وأهله من مال المسلمين بل ترقى فلم يكن يستفيد من مال المسلمين شيئا مهما ظهر ضئيلا أو حقيرا، فقد بلغ عمر بن عبد العزيز من الإحساس بثقل التبعة الملقاة على عاتقه درجة عليا لا تطاول، و بلغ من حرصه على مال الأمة ما لم يمكن أن يبلغه إنسان.

مع تفاح الفيء

يقسم مرة تفاحا من تفاح الفيء فيتناول ابن له صغير تفاحة فانتزعها من فيه فأوجعه، فسعى الى أمه مستعبرا ــ (أى باكيا) ــ فأرسلت إلى السوق فاشترت له تفاحا، فلما رجع عمر وجد ريح التفاح فقال يافاطمة هل أتيت شيئا من هذا الفيء؟ قالت: لا، وقصت عليه القصة فقال: والله انتزعتها من ابنى لكأنما نزعتها عن قلبى، ولكن كرهت أن أضيع نصيبى من الله عز وجل بتفاحة من فيء المسلمين(١).

مع مواصلات الدولة

ويحرص كذلك أن لا يستغل بريد المسلمين لغير مصالحهم، ولو كان له، اذ يكتب لعامل له أن يشترى له عسلا ولا يسخر فيه شيئا، وأنَّ عامله حمله على مركبة البريد، فلما أتى قال: علام حملته؟ قالوا: على البريد. فأمر بذلك العسل فبيع وجعل ثمنه في بيت مال المسلمين، وقال: أفسدت علينا عسلك(٢).

ويحمل مولى له رجلا على البريد بغير إذنه فدعاه فقال: لا تبرح حتى تقومه ثم تجعله في بيت المال(٣).

وتأتيه سلتا رطب من الأردن فيقول: ما هذا؟ فيقال: رطب بعث به أمير الأردن، فيقول متسائلا: علام جيء به؟ فقالوا: على دواب البريد. فيقول: فما جعلنى الله أحق بداوب البريد من المسلمين، أخرجوهما

---

١ ــ صفة الصفوة ٢/١٢٠ وابن الجوزى ١٦٠ــ١٦١.
٢ ــ الحلية ٢٩٣ ٢ــ٥/٢٩٤ وابن الجوزى ١٥٩.
٣ ــ الخراج لابى يوسف ١٨٦.

فبيعوهما واجعلوا ثمنهما في علف دواب البريد(١).

وهكذا يحس عمر و يعتقد أنه ليس أحق بدواب البريد من المسلمين، وأن ما كان مالا عاما مهما بلغ شأنه فهو ــ أى عمر ــ لاحق له فيه ولو كأحد المسلمين. فلينظر أولئك الذين يستغلون مواصلات الدولة و ينهبونها نهبا في قضاء تافه أغراضهم ومنحرف مصالحهم فلينظروا وليعتبروا لعلهم يرعوون.

مع نور المسلمين

ولم يكتف عمر بن عبد العزيز بأن يعمل للمسلمين دون أجر بل رأى فوق ذلك أنه لا ينبغى له أن يستفيد لنفسه شيئا مهما كان من أموال هذه الأمة، فإذا كان في حوائج المسلمين ومصالحهم تسرج له شمعة فإذا فرغ من حاجتهم أطفأها ثم أسرج عليه سراجه(٢).

و يقول شاهد عيان: دخلت على عمر بن عبد العزيز وعنده كاتب يكتب وشمعته تزهر وهو ينظر في أمور المسلمين. فخرج الرجل وأطفئت الشمعة وجيء بسراج الى عمر فدنوت منه فرأيت عليه قميصا فيه رقعة قد طبق ما بين كتفيه فنظر في أمرى(٣).

و يقول مهاجر بن يزيد: ولقد كنت أراه يكتب الى أهله في الحاجة تكون له في خاصة نفسه فيأمر بالشمعة فتنحى و يأمر بشمعة أخرى(٤).

وكان إذا سمر (أى سهر ليلا) يتحدث في أمر العامة أسرج من بيت مال المسلمين وإذا سمر في أمر نفسه أسرج من مال نفسه(٥).

---

١ ــ ابن عبد الحكم ٤٦، ابن الجوزى ١٥٨ باختلاف.
٢ ــ الحلية ٥/٣٢٤ والبداية والنهاية ٩/٢٢٦.
٣ ــ الحلية ٥/٣٢٣ صفة الصفوة ٢/١١٨ وابن الجوزى ٨٠.
٤ ــ الطبقات ٥/٢٥٦.
٥ ــ الطبقات ٥/٢٩٥.

و يزيد الأمر وضوحا والعبرة بيانا الحادثة التالية:

مع البريد الليلي وإيثار المصلحة العامة

يفد على عمر بريد من بعض الآفاق فانتهى الى باب عمر ليلا فيقرع الباب فيخرج اليه البواب فيقول: أعلم أمير المؤمنين ان بالباب رسولا من فلان عامله. فدخل فأعلم عمر ــ وقد كان أراد أن ينام ــ فقعد وقال: ائذن له (فلينظر المسئولون كيف أنّه آثر مصلحة المسلمين على مصلحة نفسه) ــ فيدخل الرسول فيدعو عمر بشمعة غليظة فأججت نارا وأجلس الرسول وجلس عمر: فسأله عن حال البلد ومن بها من المسلمين وأهل العهد وكيف سيرة العامل وكيف الأسعار وكيف أبناء المهاجرين والأنصار وأبناء السبيل والفقراء، وهل أعطى كل ذى حق حقه، وهل له من شاك وهل ظلم أحداً؟ فأنبأه بجميع ما علم الرسول من أمر تلك المملكة ــ فلم يدع شيئا إلا انبأه به، كل ذلك يسأله فيحفى السؤال حتى إذا فرغ عمر من مسألته قال له: ياأمير المؤمنين كيف حالك في نفسك و بدنك؟ وكيف عيالك وجميع أهل خزانتك ومن تعنى بشأنه؟ فنفخ عمر الشمعة فأطفأها بنفخته. وقال ياغلام علي السراج فدعا بفتيلة لا تكاد تضيء. فقال سل عما أحببت. فسأله عن حاله. فأخبره عن حاله وحال ولده وعياله وأهل بيته. فعجب البريد للشمعة وإطفائه إياها وقال: ياأمير المؤمنين رأيتك فعلت أمراً ما رأيتك فعلت مثله؟ قال: وما هو؟ قال: إطفاؤك الشمعة عند مسألتى إياك عن حالك وشأنك؟ فقال: ياعبد الله

جواب المسئول

إنّ الشمعة التى رأيتنى أطفأتها من مال الله ومال المسلمين، وكنت أسألك عن حوائجهم وأمرهم فكانت تلك الشمعة تقد بين يدى فيما يصلحهم وهى لهم، فلما صرت لشأنى وأمر عيالى ونفسى أطفأت نار المسلمين(١).

---

١ ــ ابن عبد الحكم ١٣٣.

و يشتهى العنب فلا يجد معه درهما يشترى به عنبا فيطلب من امرأته فاطمة بنت عبد الملك درهما أو فلسا ليشترى عنبا فلا يجد معها فتقول له: أنت أمير المؤمنين لا تقدر على درهم أو نمية (أى فلس) تشترى بها عنبا؟ قال: هذا أهون علينا من معالجة الأغلال غدا في نار جهنم(١).

مع مطبخ المسلمين

نعم صبر فى الدنيا قليل وخير في الآخرة كثير.

وقد كان للمسلمين مطبخ يغديهم و يعيشهم فكان عمر يشترك في ذلك الطعام بدرهم يجعله فيه ثم يأكل مع العامة(٢).

ولعل هذا المطبخ كان قريبا من بيت عمر الذى ينزل به، إذ يرسل غلاما يشوى بكبكبة من اللحم فيعجل الغلام بها فيقول له عمر: أسرعت بها؟ قال شويتها في نار المطبخ. فيقول لغلامه كلها يابنى فإنك رزقتها ولم أرزقها(٣).

فحرم عمر نفسه من قطعة اللحم لمجرد أنها شويت في نار مطبخ العامة ولم ينقص ذلك من النار شيئا، ولكن عمر أحس بشعوره الرقيق وورعه الفائق أنَّ هذه القطعة لا يجوز له أكلها بعد ذلك فليأكلها الغلام. فكيف به لو بعث الآن ونظر الى الحكام وأشباه الحكام كيف يسطون على كل ما تطاله أيديهم من الأموال العامة دون ضمير يمنع أو وازع يردع؟ رحمك الله ياعمر.

وكان له غلام يأتيه بقمقم من ماء مسخن يتوضأ منه. (ولعل الوقت كان شتاء قارصا كما هو المعهود من شتاء الشام). فيقول للغلام يوما: أتذهب بهذا القمقم الى مطبخ المسلمين فتجعله عنده حتى يسخن ثم تأتى

---

١ ــ الحلية ٥/٢٥٩ والبداية والنهاية ٩/٢٢٦.
٢ ــ الحلية ٥/٢٧٠. ٣١٥ ابن الجوزى ١٦٢.
٣ ــ الحلية ٥/٢٩١ والبداية والنهاية ٩/٢٢٦ وابن الجوزى ١٦٢.

به؟ قال: نعم أصلحك الله. قال: أفسدته علينا، ثم أمر مزاحما مولاه أن يغلى ذلك القمقم ــ (لا يسخنه فحسب) ــ ثم ينظر ما يدخل فيه من الحطب ثم يحسب تلك الأيام التى كان يغليه فيها فيجعله حطبا في المطبخ(٣).

وتصيبه في ليلة باردة جنابة فيسخن له ماء فيؤتى به فيسأل: أين سخنته؟ قال: على مطبخ العامة. قال: فَنَحِّه، فيناديه رجل وقد خاف عليه إن اغتسل بالماء البارد في تلك الليلة: أنشدك الله ياأمير المؤمنين في نفسك، فإن كان ولابد فعوضه قيمة، ثم أدخله بيت مال المسلمين. فيفعل عمر ذلك (٢).

و يقولون: ما أحدث عمر بن عبد العزيز بناء. ولقد خربت له عتبة فكلم في إصلاحها فقال: يامزاحم هل لك أن نتركها فنخرج من الدنيا ولم نحدث شيئا(٣).

طعامه

وقد كانت لعمر بن عبد العزيز صحابة يحضرونه و يعينونه برأيهم و يسمع منهم فحضروه يوما. فأطال الصبح ــ (أى نومه الصبح) ــ فقال بعضهم لبعض: تخافون أن يكون تغير؟ فسمع ذلك مزاحم فدخل فأمر من أيقظه فأخبره ما سمع من أصحابه، وأمره فأذن لهم، فلما دخلوا عليه قال: إنى أكلت هذه الليلة حمصا وعدسا فنفخنى، فقال بعض القوم: ياأمير المؤمنين إنّ الله يقول في كتابه: «**كلوا من طيبات ما رزقناكم**»(٤). فقال عمر: هيهات ذهبت به إلى غير مذهبه، إنما يريد به طيب الكسب ولا يريد به طيب الطعام(٥).

---

١ ــ ابن عبد الحكم ٤٠، ابن الجوزى ١٦١ باختلاف.

٢ ــ ابن عبد الحكم ٤٠.

٣ ــ الطبقات ٥/٢٥٦.

٤ ــ الآية من سورة البقرة ١٧٢، والأعراف ١٦٠ وطه ٨١.

٥ ــ الطبقات ٥/٢٧٠.

و يقول محمد بن أبى سدرة: دخلت على عمر بن عبد العزيز ليلة وهو يتلوى من بطنه فقلت: مالك ياأمير المؤمنين؟ فقال عدس أكلته فأوذيت منه، ثم قال: بطنى بطنى ملوث في الذنوب(١).

شكواه من بطنه

و يدخل عليه أخوه زيان بن عبد العزيز فيقول عمر: لقد طالت هذه الليلة على وقل نومى فيها فاتهمت عشاء تعشيت به. فقال أخوه ما هو؟ قال عدس و بصل، فيقول له زيان: لقد وسع الله عليك ولكنك تضيق على نفسك. وأكثر زيان لائمته، فقال: يازيان أخبرتك خبرى وأطلعتك على سرى فوجدتك غاشا غير ناصح أما والله لا أعود إلى مثلها أبداً ما بقيت(٢).

لقد كان عمر ينظر بمنظار وأخوه بمنظار آخر وشتان ما بين المنظارين، وهكذا بلغ ورع عمر بن عبد العزيز درجة سامقة تنقطع دونها أعناق الزهاد الورعين والحكام المترئسين عدا عن عامة الناس من أهل الدنيا أو الدين.

فاعتبروا ياأصحاب السلطان يامن تعتبرون مال المسلمين لكم مالا وأنتم أحق به من أصحابه، يامن تستغلون مال الأمة أبشع استغلال وترونه أحل لكم من أموالكم. فاعتبروا واتعظوا ياأولى الابصار.

---

١ ــ نفس المرجع ٥/٢٧١.
٢ ــ ابن عبد الحكم ١١٦.

الفصل الثاني

مـــع بنى أميـــة

المبحث الاول: مكانة بنى أمية واستغلالهم بيت مال المسلمين

«إذا بلغ بنو أبى العاص أربعين رجلا اتخذوا دين الله دخلا وعباد الله خولا ومال الله دولا»(١)

بنو أمية

أما بنو أمية بن عبد شمس بن عبد مناف فهم عصبة الخليفة وحزب الخلافة فكانت الدولة لهم والريح معهم، فقد استطاع معاو ية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية أن يصل إلى الخلافة و يقصى عنها بنى هاشم وغيرهم من المتطلعين، وأن يورثها ابنه من بعده، ثم يأتي مروان بن الحكم ابن أبي العاص بن أمية، فيستولى على السلطان بالغلبة و يتوارثها بنوه من بعده، وهكذا وقع ما حدث به رسول الله عليه الصلاة والسلام فاتخذ بنو مروان دين الله دغلا ــ (أى غشا) وعباد الله خولا ــ (أى عبيدا) ومال الله دولا، مستأثرين به عن الأمة فأصبحت الدولة الإسلامية لهم مزرعة هم حراسها ونهرا هم أصحابه، فأخذوا يفيضون من مال الأمة على أنفسهم وأولادهم وأقاربهم ومن يلوذ بهم من الشعراء والمنافقين المتزلفين. فكان بيت المال بيتهم لا بيت مال المسلمين، يمنعونه عمّن يشاءون و يفيضونه على من يريدون. إن عادوا قوماً حرموهم، وإن أحبوا قوما أوهابوهم أكرموهم وأعطوهم، فهذا معاو ية بن أبى سفيان رضي الله عنه يهب فدك و يقطعها(٢) لمروان بن الحكم، ويحرم منها قرابة رسول الله

---

١ ــ النزاع والتخاصم ٥٢ الحديث عن ابى هريرة وابى سعيد الخدرى ــ رضى الله عنهما ــ وذكره ابن كثير فقال: عن ابى سعيد وقال فيه «اذا بلغ بنو الحكم ثلاثين رجلا..» وقال: رواه ابو يعلى وعند احمد ايضا عن ابى سعيد ورواه البيهقي عن معاو ية وعبد الله بن عباس وفيه زيادات. يعقب ابن كثير.. وهذه الطرق كلها ضعيفة وذكره ابن الجوزى ٣٣ البداية والنهاية ٨/٢٧٩.

٢ ــ النزاع والتخاصم ص٢٧ هامش، فتوح البلدان ٣٧.

صلى الله عليه وسلم بغضا وشنئا لهم، يقول البلاذرى: إنَّ بنى أمية اصطفوا فدك وغيروا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها، فلما ولى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ردها الى ما كانت عليه(١).

وأعطى مصر طعمة لعمرو بن العاص لقاء معاونته له في حرب عليٍّ رضى الله عنه(٢). واستغل بنو أمية مال الأمة في إحياء العصبيات الجاهلية والنعرات القبلية والاستغراق في الترف والنعيم، وإشاعة ذلك بين طبقات من الأمة يخشون تطلعها الى السلطان، فأشغلوهم بالأموال يفيضونها عليهم ويحرمون منها مستحقيها من طبقات الأمة، وتعدى الأمر بيت المال إلى أموال الناس الخاصة فانتهبوها. وأصبح الخلفاء يقطعون أنفسهم وأبناءهم وأحفادهم ما يملكه الآخرون من مسلمين وذميين عدا عن أموال الأخماس والفيء التى وهبوها للعمال والولاة والقواد بل الجوارى أيضا، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى. وقد مر معنا في مبحث حالة الدولة الإسلامية، ومبحث عودة الجاهلية أمثلة كثيرة على ذلك، فمعاوية رحمه الله يكتب الى سليمان المشجعى عامله على فلسطين: اتخذ لى ضياعا، ولا تكن بالداروم المجداب(٣) ولا بقيسارية(٤) المغراق واتخذها بمجارى السحاب فاتخذ له البطنان من كورة عسقلان(٥).

ضياع معاوية بفلسطين

البلقاء طعمة لكندة

و يشترط الحصين بن نمير على مروان بن الحكم أن ينزل البلقاء(٦) من كان بالشام من كندة وأن يجعلها لهم مأكله. فأعطاه ذلك(٧). وكان

---

١ ــ فتوح البلدان ٣٥.

٢ ــ مروج الذهب ٣/٢٩ اليعقوبى ٢/١٨٦.

٣ ــ الداروم و يقال لها الدارون ايضا، قلعة بعد غزة للقاصد مصر وقد خربها صلاح الدين سنة ٥٨٤هـ.

٤ ــ قيسارية بلدان احدهما بفلسطين والاخر بالروم والمراد هنا الاول.

٥ ــ عسقلان بلد بفلسطين يقع شمال غزة، عن الجهشيارى ١/٢٦.

٦ ــ جزء من المملكة الاردنية الهاشمية الآن.

٧ ــ الطبرى ٢/٤٣.

الحصين بن نمير ممن قد بايع مروان بن الحكم وساعده في الوصول للحكم واشترك معه في مذبحة القيسيين في مرج راهط(١).

هدم الدور والمنازل لتمر للجنازة

وهذا الوليد بن عبد الملك جبارا من الجبابرة كان أول عمل قام به وعرف به جبروته «أن أمر بهدم كل دار ومنزل من دار عبد الملك الى قبره، فهدمت من ساعتها وسويت بالارض لئلا يعرج بسرير عبد الملك يمينا وشمالا وليكون النهوض به الى حفرته تلقاء منزله(٢). و يغتصب أرضا أحياها قوم من الأعراب فيقطعها بعض أهله مخالفاً بذلك أمر الرسول صلى الله عليه وسلم. بأن من أحيا أرضا ميتا فهى له(٣)» حتى يردها عمر بن عبد العزيز كما سيأتى، وكذلك يقطع هذا الملك الجبار ابنه روحا حوانيت لأهل حمص فلا يستطيعون الشكوى حتى يولى عمر بن عبد العزيز فيشتكون فترد إليهم حوانيتهم(٤).

وسنرى فيما يأتى من مباحث أمثلة للكثير من الاستغلال الذى كان سائدا في عهد من سبق عمر بن عبد العزيز وسنرى أيضاً كيف أن نصف أموال الأمة كان في يدى بنى مروان.

وفي كتب الأدب أمثلة لا تحصى لهبات بنى أمية للشعراء والخطباء والمتزلفين والمنافقين وكيف كانوا يعتبرون هذا المال ما لهم لا مال الله ولا مال الأمة.

و يتولى عمر بن عبد العزيز وهو يعلم هذا تمام العلم وكيف لا؟ وهو

---

١ ــ مرج راهط مكان بغوطة دمشق وقعت فيه المعركة المشهورة بين مروان بن الحكم ومعه الكلبيين واليمنيين والضحاك بن قيس ومعه القيسيين سنة ٦٤هـ وهى المعركة التى أوصلت مروان ابن الحكم للخلافة.

٢ ــ الامامة والسياسة ٢/٥٨.

٣ ــ الحلية ٥/٢٧٤ والحديث صحيح عن سعيد بن زيد رواه أحمد وأبو داود والترمذي / الجامع الصغير ٢/١٦١.

٤ ــ ابن عبد الحكم ص٥١.

من بنى أمية وقد ناله ما نال أمثاله من أمراء بنى أمية، وتلك عطايا خلفائهم له من أراضى وإقطاعات وهبات ومنح وهدايا، وأقرب الأمثلة والشواهد أبوه عبد العزيز بن مروان الذى تولى مصر ومغرب الدولة كله ولم يكن يحمل إلى بيت المال المركزى في دمشق شيئا، فيكتب إليه عبد الملك يأمره بحمل خراج مصر ــ وقد كان عبد العزيز لا يحمل إليه شيئا من الخراج ولا غيره، وإنما كانت بلاد مصر بكمالها و بلاد المغرب وغير ذلك كلها لعبد العزيز مغانمها وخراجها وحملها ــ فيأبى عليه ذلك. ويموت عبد العزيز و يترك من الأموال والأثاث والدواب من الخيل والبغال والإبل وغير ذلك ما يعجز عنه الوصف. ومن جملة ذلك ثلا ثمائة مد من ذهب غير الورق (أى الفضة). مع جوده وكرمه و بذله وعطاياه الجزيلة فإنه كان من أعطى الناس للجزيل(١).

عبد العزيز في مصر

وقد رأينا كيف أن عمر بن عبد العزيز تنازل عن أمواله كلها التى أعطيها وردها إلى بيت المال لأنه علم أنه لا يسوغ له أن يحتفظ بشيء منها لأنها من مال الله لا من أموال من أعطوه اياها، فكيف يفعل الآن مع بنى أمية وهو يعلم أن شطر أموال الأمة بين أيديهم فهل يستطيع عمر أن يقلم أظفارهم؟ وهل يستطيع أن يجردهم من أموالهم وإقطاعاتهم؟ أو هل يستطيع أن يحد من نفوذهم وتسلطهم على بيت المال وعلى الناس؟

هذا ما سنرى عمر بن عبد العزيز سيحاوله، فهل يكتب له النجاح فيما يحاول..

---

١ ــ البداية والنهاية لابن كثير ٩/٦٤.

المبحث الثاني

محاولات مع بنى أميــة

جاء عمر بن عبد العزيز وكان تسلط أولاد الخلفاء والعمال على رقاب الناس وأموالهم عظيما، وكان شطر مال هذه الأمة أو ثلثاه بين أيدى بنى مروان، فماذا يفعل عمر بن عبد العزيز وهو منهم، وقد أصابه الكثير من عطايا الخلفاء وكان يعلم أنهم يعطونه بغير حق و يأخذه هو بغير حق؟.

ماذا يفعل عمر مع بنى أمية؟

رأينا أنه بدأ بنفسه فجردها من كل ما رأى فيه شبهة حرام، فقطع صكوك الإقطاع ورد إلى بيت مال المسلمين كل ما أعطيه من عقار وأموال باقية، وأعف نفسه وجرد أهله زوجه وأولاده.

ثم التفت الى بنى أمية أبناء الخلفاء وإخوتهم ومن يلوذ بهم، وهم جماعة كاثرة وعصبة مرهوبة، فماذا يفعل معهم؟ والناس قريبو عهد بعصبية جاهلية عادت الى الحياة من جديد. وكيف يفعل وقد التف حول كل منهم جماعة من المنتفعين ممن يطمعون أن يكونوا يوما ما بطانة خليفة أو أتباع أمير اقليم؟.

البدء بالعباس ابن الوليد

كان عمر بن عبد العزيز يعلم الطريق الشائك الذى سيسلكه معهم، ولكنه بدأ ومحال أن يتراجع، وما دام قد تغلب على نفسه فهو على التغلب على غيرها أقدر، فليضرب إذاً والحديد ساخن. فما أن تولى وانتهى من أمر سليمان حتى أمر مناديه فنادى: ألا من كانت له مظلمة فليرفعها. فقام إليه رجل ذمى من أهل حمص فقال: ياأمير المؤمنين أسألك كتاب الله. قال: وما ذاك.. قال: العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبنى أرضى — والعباس جالس — فقال له عمر: ياعباس ما تقول؟ قال: نعم أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد وكتب لى بها سجلا(١). فقال عمر: ما تقول ياذمى؟

---

١ — في هذا دليل على ان الوليد كان يقطع أبناءه ما يملكه الناس ظلما وعدوانا.

قال: يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله تعالى. فقال عمر: نعم كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد، قم فاردد عليه ضيعته(١).

أول من ندب نفسه لرد المظالم

فكان عمر بن عبد العزيز بهذا أول من ندب نفسه للنظر في المظالم فردها وراعى السنن العادلة وأعادها ورد مظالم بنى أمية على أهلها(٢).

فتتابع الناس في رفع المظالم إليه فما رفعت إليه مظلمة إلاّ ردها سواء كانت في يده أو فى يد غيره حتى أخذ أموال بنى مروان وغيرهم(٣).

و يأتيه رجل نصرانى يدّعى على هشام بن عبد الملك أن في يده ضيعة له فيقول عمر لهشام قم مع خصمك، قال: بل أوكل وكيلا بخصومته. قال: لا، فجلس بين يديه فجعل هشام ينتهر خصمه، فقال له عمر: يا أحول عندى تنتهره! إن عدت عاقبتك، فادعى النصرانى فقال هشام: ضيعتى وقطيعة أقطعينها عبد الملك(٤) ومعى سجل من الوليد وسليمان. فقال لابنه عبد الملك بن عمر: يابنى أنظر في سجلا ته وأمره، فنظر، فقال: أرى أمر النصرانى قو يا وحجته غالبة وحق الله أولى ما أوثر، فقال عمر: خرق سجلا ته فأخرقها، ورد على الرجل ضيعته(٥).

مع هشام ابن عبد الملك

ومازال يرد المظالم من لدن معاو ية الى أن استخلف. أخرج من أيدى ورثة معاو ية و يزيد بن معاو ية حقوقا(٦).

مظالم من زمن معاو ية

ولكن هل يكتفى عمر بن عبد العزيز بأن يرفع إليه الناس ظلاماتهم على بنى مروان فيردها؟ فما العمل إذا كان أصحابها قد ماتوا أو جبنوا فلم يرفعوها؟ أو كانت المظالم أموال بيت مال المسلمين، وليس ثمة

---

١ — البداية والنهاية ٩/٢١٣ ابن الجوزى ١٠٤—١٠٥.

٢ — الأحكام السلطانية للماوردى ٧٨ ولأبى يعلى ٧٥.

٣ — البداية والنهاية ٩/٢١٣، ابن الجوزى ١٠٤—١٠٥.

٤ — في هذا دليل آخر على أنّ عبد الملك بن مروان كان يقطع أبناءه ما يملكه الاخرون.

٥ — دراسات في تاريخ الأمو يين ص ٢/١٥٩ عن العيون والحدائق ٣/٦٠.

٦ — الطبقات ٥/٢٥٢.

مطالب فهل يتركها عمر تضيع؟.

لا إن عمر وقد ندب نفسه لرد المظالم سواء طلبها أصحابها أم لم يطلبوها ــ ما دام قد وصلت الى سمعه أخبارها أو عرف أنَّ هذه المظالم لبيت المال فهو المطالب بها، وكان يعلم كم عند بنى مروان من أموال بيت المال، ولكن كيف سيصل الى تلك الأموال والإقطاعات و يردها الى بيت مال المسلمين؟ فليحاول.

المحاولة الاولى الاقناع بالحسنى

أراد عمر بن عبد العزيز أوَّلاً محاولة إقناع بنى مروان بالحسنى فلعلهم يردون أموال الناس التى لديهم و يكتفون بما يعطيهم إياه الخليفة مع المسلمين، وما ثبت انه لا حق لأحد فيه.

دعاهم إلى اجتماع عام لا يحضره غيرهم، وقال لحاجبه: لا يدخلن على اليوم إلاّ مروانى، فلما اجتمعوا عنده: حمد الله وأثنى عليه ثم قال: يابنى مروان إنكم قد أعطيتم حظا وشرفا وأموالاً. إنى لأحسب شطر أموال هذه الأمة أو ثلثيه ــ وفي رواية أو ثلثه ــ في أيديكم ــ أدوا ما في أيديكم من حقوق الناس ولا تلجئونى إلى ما أكره فأحملكم على ما تكرهون. فسكتوا فقال: ألا تجيبونى؟ فقال رجل من القوم ــ وفي رواية هشام بن عبد الملك: والله لا يكون ذلك حتى يفرق بين رؤوسنا وأجسادنا. والله لا نكفر آباءنا ولا نفقر أبناءنا. فقال عمر والله لولا أن تستعينوا عليّ بمن أطلب هٰذا الحق له لأضرعت(١) خدودكم عاجلا ولكنى أخاف الفتنة، ولئن أبقانى الله لأردن الى كل ذى حق حقه. قوموا عنى(٢).

---

١ ــ اضرعت : اذللت.

٢ ــ الحلية ٥/٢٧٣ والعقد الفريد ٤/٤٣٧ ابن الجوزى ١١٥.

فهل يسكت عمر عنهم وتأخذه الخشية منهم؟ لقد كان عمر يخشى الفتنة و يبتعد عن إراقة الدماء ما استطاع، ولكنه وقد عرف طريقة فهو سائر عليه لا يلوى على شيء ولكنه وقد رأى أنهم مصرون على أن لا يخرجوا عما في أيديهم من الأموال والإقطاعات فأراد ان يقص من أجنحتهم شيئا فشيئا ــ حتى لا يجتمعوا ضده وتثور الفتن ــ و بدأ معهم فقطع ما كان يخصهم به الخلفاء مما كان يسمى أرزاق الخاصة. وفرض لكل منهم عشرة عشرة ــ وفي رواية ــ أنه أمر لهم بعشرة آلاف دينار ــ ولكن ذلك لم يعجبهم، ولم يقع منهم موقعا حسنا. وكيف يعجبهم ذلك وقد كانوا يعطون الأموال بغير حساب؟ ورأوا في هذا العمل خطوة أولى نحو تجريدهم من كل امتيازاتهم.

المحاولة التالية

كلموا عنبسة بن سعيد ــ (بن العاص بن أمية) ــ (وكان صديقا حميما لعمر). كلموه ليكلمه في صلة أرحامهم والعطف عليهم فيدخل عليه عنبسة فيقول: ياأمير المؤمنين إنَّ لنا قرابة ــ (يريد بذلك أن يثير ــ شفقته عليهم وتعصبه لهم ــ وكان يعتقد ــ كما عود ــ أنَّ القرب من الخليفة يجعل له حقوقا زائدة عن حقوق باقى المسلمين. فيرده جواب عمر الى صوابه) أجل والله لقد قسمتها فيهم ــ (يعنى بها العشرة الالاف الدينار) وقد ندمت عليها أن لا أكون منعتهم إياها وقسمتها فكانت كافية أربعة آلاف بيت من المسلمين. ولن يتسع لكم مالى. أمّا هذا المال فإنما حقكم فيه كحق رجل بأقصى برك الغماد(١) ولا يمنعه من أخذه إلاّ بعد مكانه. والله إنى لأ رى أن الأمور لو استحالت حتى يصبح أهل الأ رض يرون مثل رأيكم لنزلت بهم بائقة من عذاب الله ولفعل بهم(٢).

الادلال بالقرابة

---

١ ــ برك الغماد: موضع باليمن أو أقصى معمور الارض. قاموس ٣/٢٩٤.

٢ ــ الحلية ٢٧٠ــ٢٧١/٥، ابن عبد الحكم ٤٤، ١٤٠ وابن الجوزى ١١٤ــ١١٥.

ولا يسكت بنو مروان عن مطالبتهم على رغم ذلك فيجتمعون على باب عمر ويجيء ابنه عبد الملك بن عمر فيقولون له: إما أن تستأذن لنا وإما أن تبلغ أمير المؤمنين عنا الرسالة؟ قال: قولوا. قالوا: إن من كان قبله من الخلفاء كان يعطينا و يعرف لنا موضعنا وإن أباك قد حرمنا ما في يديه ــ (وكأنهم لم يحسوا أنه قد حرم نفسه قبل حرمانهم)ــ فدخل عبد الملك على أبيه فأخبره عنهم فقال له عمر: قل لهم إن أبى يقول لكم «**إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**»(١).

الرد الحاسم

وهناك يقول قائلهم ــ وقد رأى صرامة عمر في الحق وورعه عن مال الله: لا تلوموا إلا أنفسكم يامعشر بنى أمية عمدتم الى صاحبكم فزوجتموه بنت ابن عمر فجاءتكم بعمر ملفوفا في ثيابه فلا تلوموا إلا أنفسكم(٢).

ذرية بعضها من بعض

و يأتيه قوم من الأعراب يخاصمون قوما من بنى مروان في أرض كانت الأعراب أحيوها فأخذ الوليد بن عبد الملك فأعطاها بعض أهله(٣)، فقال عمر بن عبد العزيز: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**البلاد بلاد الله والعباد عباد الله مَنْ أحيا أرضا ميتا فهي له**» فردها على الأعراب(٤).

اغتصاب الأرض المحياة

وكان سليمان بن عبد الملك قد أوصى عمر بن عبد العزيز بأولاده. وكان عمر رد قطيعة لابن سليمان من جملة ما رد من قطائع بنى أمية، فيدخل ابن سليمان على عمر فيقول ياأمير المؤمنين علام ترد قطيعتى؟ قال معاذ الله أن أرد قطيعة صحت في الإسلام. قال: فهذا كتابى. وأخرج كتابا من كمه فقرأه عمر فقال: لمن كانت هذه الأرض؟ قال: للفاسق

مع ابن سليمان

---

١ ــ الآية ١٣ من سورة الزمر ١٥ من سورة الانعام.

٢ ــ ابن عبد الحكم ٤٤ وابن الجوزى ١١٧ باختلاف.

٣ ــ وهذا دليل آخر على الاغتصاب.

٤ ــ الحلية ٥/٢٧٤.

ابـن الحجاج قال عمر: فهو أولى بماله، قال: فإنها من بيت مال المسلمين. قـال: فـالمسلمون أولى بها. قال: ياأمير المؤمنين رد على كتابى. قال: لو لم تـأتـنـى بـه لـم أسـألـكه فأما إذ جئتنى به فلا ندعك تطلب بباطل. قال: فـبـكـى ابن سليمان. فهل تأخذ عمر الشفقة والرحمة على ابن سليمان وهو الوصى عليه؟ يقول مزاحم راوى الخبر: فقلت: ياأمير المؤمنين ابن سليمان اللاطىء الحب اللازق ــ بالقلب تصنع به هذا؟ ــ (لقد استغرب مزاحم أن يـفـعل عمر مع ابن سليمان ذلك) قال عمر: ويحك يامزاحم إنها نفسى أحاول عنها، وإنى لأجد له من اللوط(١) ما أجد لولدى(٢).

إذا فـعـمر يغالب عاطفة قلبه وميل نفسه ليقى نفسه عذاب الله فهو في جهاد مرير بين واجبه وعاطفته ولكن لا يمكن بحال أن يغلب عمر بن عبد العزيز عاطفته يوما على واجبه وما يراه حقا.

مع عنبسة ابن سعيد

ومـوقف آخر يشبه هذا الموقف من وجه ويخالفه من وجه آخر، فعنبسة ابـن سعيد بن العاصى من وجوه بنى أمية وأشرافهم وكان صديقا لعمر بن عبد العزيز يدخل على عمر يوما وفي يده صك بعشرين ألف دينار أخذه من سـلـيـمان قبل وفاته ــ ومات سليمان والصك في ديوان الختم ــ فيعرض على عـمـر كـتـاب سـلـيـمـان و يـطلب منه صرف قيمته، فيصرخ عمر في وجـهه: عشرون ألف دينار: عشرون ألف دينار. تغنى أربعة آلاف بيت مـن المـسـلـمين وأدفـعـهـا الى رجـل واحـد؟ والله مالى الى ذلك من سبيل و يأبى أن يدفع إليه المال.

الى هـنـا والأمـر واحـد مـثل ابن سليمان إذ رفض في كلا الحالين أن يـنـفذ ما يريدان، ولكن عنبسة بن سعيد أراد أن يرمى بالكتاب الذى فيه

١ــ اللوط: الحب واللصوق بالقلب قاموس ٢/٣٨٤.

٢ ــ الحلية ٥/٢٨٢ ابن الجوزى ١١٨.

الصك فيقول له عمر: لا عليك أن يكون معك فلعله أن يأتيك من هو أجرأ على هذا المال منى فيأمر لك بها(١). هنا مجال تساؤل لماذا رفض عمر أن يرد الصك على ابن سليمان؟ وهنا دعا عنبسة أن يحتفظ بالصك لنفسه. فهل كان عمر يكيل بكيلين و يزن الناس بميزانين؟ وإلاّ فما الفرق بين الحالين؟ كما يتساءل سيادة الدكتور أحمد الشرباصى في كتابه «خامس الراشدين»(٢) والذى أرى ــ وهو الخليق باتجاه عمر بن عبد العزيز وتوخيه العدالة والحق ــ أنَّ قطيعة ابن سليمان قد ثبت بما لا يقبل الشك أنه لا يستحقها فباعترافه أنها كانت لابن الحجاج أو لبيت مال المسلمين وعلى كلا الوجهين لا حق له فيها فهى قطيعة مغتصبة ويجب أن ترد لأربابها ولهذا قطع صكها ولم يسمح لابن سليمان أن يطالب بها بعد ذلك. وهذا واضح من قول عمر آخرا «فلا ندعك تطلب بباطل».

تساؤل

محاولة الاجابة

وأما صك عنبسة فهو مال وليس في الصك دليل على أنه يطالب بشيء ثبت بطلانه، فعنبسة كان رجلا غنيا كثير النقد ــ أي غنيا تاجرا ـ فلعله قدم هدية لسليمان أو باعه شيئا لم يصرح به أو كان بينه و بين سليمان نوع من المعاملات المالية دار الشك حولها في نفس عمر، فلكى يتخلص عمر من تبعتها لم يعطه المبلغ خشية أن يكون مبطلا، ولم يمزق الصك خشية أن يكون فيما ادعاه نوع من الحق أو جزء من الحق. فترك تبعته على من يأتى بعده. وهو في كلا الحالين يحاول عن نفسه و يدفع عنها الظلم فلا فرق في الحقيقة ــ فيما أرى ــ بين ما فعله مع ابن سليمان وما فعله مع عنبسة من هذه الوجهة والله اعلم.

وعنبسة هذا يسأل عمر حاجة ــ و يظهر أنه كان نهما إلى المال رغم غناه الواسع فهو على ما يقول عمر بن عبد العزيز ــ وقد استأذنه عنبسة أن

---

١ ــ ابن عبد الحكم ٤٩ــ٥٠.

٢ ــ خامس الراشدين ٢١٦، ٢/٢١٧.

يضرب في البلدان كبنى مروان حينما رفض عمر أن يُجرى عليهم ما كان يُجرى من قبله ــ قال له عمر: ولكنى أرى لك أن تقيم فإنك رجل كثير النقد وأنا أبيع تركة سليمان فلعلك أن تشترى منها ما يكون لك في ربحه عوض مما فاتك. فيقيم و يشترى من تركة سليمان بمائة ألف فيخرج بها إلى العراق فيبيعها بمائتى ألف(١).

نصيحة لعنبسة

عنبسة هذا يقول له عمر: ياعنبسة إن كان مالك الذى أصبح عندك حلالا فهو كافيك، وإن كان حراما فلا تزيدن إليه حراما، ألا تخبرنى أمحتاج أنت؟ قال: لا. قال: أفعليك دين؟ قال:لا. قال: أفتأمرنى أن أعمد إلى مال الله فأعطيكه من غير حاجة بك إليه وأدع فقراء المسلمين؟ لو كنت غارما أدَّيت غرمك، أو محتاجا أمرت بما يصلحك، فعليك بمالك الذى عندك فكله واتق الله وانظر أوَّلاً من أين جمعته وانظر لنفسك قبل أن ينظر إليك من ليس لك عنده هوادة ولا مراجعة(٢). كلمات لو وعاها عنبسة وغير عنبسة من الطامعين في متاع الحياة الدنيا وفي أموال العامة لعادت عليهم بالخير في الدارين ولسكنت نفوسهم القناعة والرضا بالحلال الطيب، ولكن هيهات فالنفوس مطبوعة على الشره، والمال اليه تميل النفوس.

المال للفقراء لا للاغنياء

وعنبسة هذا هو نفسه الذى يدخل على عمر بن عبد العزيز فيقول له: ياأمير المؤمنين إنَّ من كان قبلك من الخلفاء كانوا يعطون عطايا منعتناها، ولى عيال وضيعة أفتأذن لى أن أخرج الى ضيعتى وما يصلح عيالى؟ فقال عمر: أحبُّكم إلينا من كفانا مؤونته. (وعمر رحمه الله لا يترك فرصة تمر على مثل هذا وأشباهه دون أن يعظهم موعظة في الصميم لعلها تخفف شيئا

---

١ ــ ابن عبد الحكم ٤٩ــ٥٠.

٢ ــ ابن عبد الحكم ١٣٢.

من تكالبهم على الدنيا). فلما صار عنبسة عند الباب قال عمر: أبا خالد. أبا خالد. فرجع فقال له عمر، أكثر من ذكر الموت فإن كنت في ضيق من العيش وسعة عليك وإن كنت في سعة من العيش ضيقه عليك(١).

أكثر من ذكر الموت

وكان للوليد بن عبد الملك ابن يقال له روح وكان نشأ في البادية فكأنه أعرابى، فأتى ناس من المسلمين الى عمر بن عبد العزيز يخاصمون روحا في حوانيت حمص، وكانت لهم أقطعه إياها أبوه الوليد بن عبد الملك(٢)، فقال له عمر: اردد عليهم حوانيتهم، قال له روح: هذا معى بسجل الوليد قال: وما يغنى عنك سجل الوليد والحوانيت حوانيتهم وقد قامت لهم البينة عليها؟ خل لهم حوانيتهم. فقام روح والحمصى منصرفين فتوعد روح الحمصى فرجع الحمصى الى عمر فقال: هووالله متوعدنى ــ أى مهددنى ــ ياأمير المؤمنين ــ (لقد ظن روح ان وعيده سيخيف الحمصى أو يمنع عنه غضب عمر فيضيع الحق) ــ فقال عمر لكعب بن حامد وهو على حرسه، اخرج الى روح ياكعب فإن سلم إليه حوانيته فذلك وإن لم يفعل فأتنى برأسه ــ (لهذا الحد وصل الأمر بعمر بن عبد العزيز في رد الحق لأهله أن يأمر بقتل من يعاند في إيصال الحقوق لأربابها، ولكن الظالمين أمام الحق الذى تسنده القوة ضعفاء أذلاء) ــ إذ يخرج من سمع ذلك ممن يعنيه أمر روح بن الوليد فذكر له الذى أمر به عمر فخلع فؤاده وخرج إليه كعب وقد سل من السيف شبرا فقال له: قم فخل له حوانيته. قال: نعم نعم فخلى له حوانيته(٣).

مع روح ابن الوليد

القوة تسند الحق

هكذا كانت القوة تسند الحق الذى يراه عمر فلا عجب أن كان ينفذ

---

١ ــ الحلية ٥/٢٦٥ ابن الجوزى ١١٨.

٢ ــ وهذا دليل اخر على اقطاع اموال الناس للأبناء.

٣ ــ ابن عبد الحكم ٥١ــ٥٢.

كل ما يأمر به و يرد كل حق إلى أهله مهما كانت مكانة المشكو منه.

يأتيه رجل فيقول: ياأمير المؤمنين مظلمة دخلت على ــ قال عمر: ومن بك؟ قال: فلا والله ما استطاع أن يقول فلان لبعض أهل بيته مرتين أو ثلاثا ــ (أخذ الرجل الخوف ممن ظلمه ولكن عمر يدخل الطمأنينة على قلبه حتى يقول) فلان بن فلان عمد الى مال لى بكذا وكذا فأخذه. فقال عمر: ياغلام ائتنى بدلوة وقرطاس. فكتب الى عامله: إنَّ فلانا ذكر كذا وكذا فإن كان الذى ذكر لى على ما ذكر فلا تراجعنى فيه وارده عليه(١). ثم ضرب بإحدى يديه على الأخرى وقال «**إنَّ هذا لهو البلاء المبين**»(٢).

استثمار الاموال من شأن الرعايا لا الرعاة.

إذاً فعمر أداه اجتهاده إلى أن في صيغة امتلاك آل بيته الضياع والربا نظرا، وأن ما ورثه و ورثوه بالطرق المشروعة يقضى العدل المطلق برده على من أخذ منه، واعتقاد الضياع واستثمار الأموال من شأن الرعايا لا الرعاة فكان نظره أعلى وطريقته أمثل وأعدل(٣).

وهكذا أوقف عمر بن عبد العزيز بنى أمية وقطع عليهم طريق الرجاء في سلب جديد من أموال الأمة والأمل في الاستبداد بما نالوه من مال حرام.

فهل ترى يسكت بنو أمية على ذلك و يسلمون ما بأيديهم بسهولة الى عمر ليرد كل ذلك الى بيت المال، أو يقفون في وجهه ويمنعونه من استرداد ما بأيديهم و يستطيعون الاحتفاظ به رغم محاولات عمر؟.

وهذا ما سنراه في المبحث التالى إن شاء الله.

---

١ ــ ابن عبد الحكم ٥٣.
٢ ــ الصافات ١٠٦.
٣ ــ الاسلام والحضارة ١٧٥.

المبحث الثالث

بنو أمية في وجه عمر

«إنّ الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم رحمة ولم يبعثه عذابا الى الناس كافة، ثم اختار له ما عنده وترك للناس نهرا شر بهم سواء، ثم وُلِّيَ أبو بكر فترك النهر على حاله ثم وُلِّيَ عمر فعمل عملهما. ثم لم يزل النهر يستقى منه يزيد ومروان وعبد الملك ابنه والوليد وسليمان ابنا عبد الملك حتى أفضى الامر إليَّ وقد يبس النهر الاعظم فلم يرد أصحابه حتى يعود الى ما كان عليه»(١).

عمر بن عبد العزيز

أراد عمر بن عبد العزيز رد النهر الى مجراه الأ وّل حتى يستقى منه الناس كافة ولكن بنى أمية و بنى مروان خاصة يأبون عليه ذلك و يريدون أن يبقى النهر لهم خاصة دون الناس جميعا.

احتجاج بنى مروان

وعندما أقبل عمر على رد المظالم وقطع عن بنى أمية جوائزهم وأرزاق أحراسهم ورد ضياعهم إلى الخراج وأبطل قطائعهم ضجوا من ذلك فاجتمعوا اليه فقالوا: إنك قد أجلبت(٢) بيت مال المسلمين وأفقرت بنى أبيك، فيما ترد من هذه المظالم، وهذا أمر قد وليه غيرك قبلك فدعهم وما كان منهم واشتغل أنت وشأنك واعمل بما رأيت ــ (يريدون من عمر أن يسكت عما مضى فمن كان بيده شيء بقى وما كان من ظلم سابق استمر و يستأنف عمر العمل كما يرى ويحب، ولكن هل يرضى عمر بذلك و يستجيب فيسكت عنهم؟). قال لهم: هذا رأيكم؟ قالوا نعم. فيصرخ في وجوههم قائلا: ولكنى لا أرى ذلك، والله لوددت أن لا تبقى مظلمة إلاّ رددتها على شرط ألاّ أرد مظلمة إلاّ سقط لها عضو من اعضائى

المطالبة بابقاء ما كان على ما كان

---

١ ــ الكامل لابن الا ثير ٥/٦٤ ابن الجوزى ١١٦ باختلاف.

٢ ــ اجلب: هنا بمعنى اغنيت اذ جمعت المال اليه.

أجد ألمه ثم يعود كما كان حيا، فإذا لم يبق مظلمة إلاّ رددتها سالت نفسي عندها[1]. (موقف عظيم من خليفة عظيم، وضع نصب عينيه هدفا واضحا فهو سائر إليه مهما كلفه ذلك حتى لو وصل الأمر إلى هلاك نفسه لقدمها في سبيل ذلك الهدف مطمئن النفس راضي الضمير، فلينصرف بنو مروان يجللهم الخزى ويحيط بهم الصغار وليحاولوا مع عمر وسيلة أخرى.

موقف صارم

خرجوا من عنده حانقون فدخلوا على بعض ولد الوليد ــ وكان كبيرهم وشيخهم ــ فسألوه أن يكتب إلى عمر يوبخه لعله أن يرده عن مساءتهم فكتب إليه: «أما بعد فإنك أزريت بمن كان قبلك من الخلفاء وسرت بغير سيرتهم وسميتها المظالم نقصا لهم وعيبا لأعمالهم وشاتما لمن كان بعدهم من أولادهم، ولم يكن ذلك لك، فقطعت ما أمر الله به أن يوصل وعملت بغير الحق في قرابتك، وعمدت إلى أموال قريش ومواريثهم وحقوقهم فأدخلتها بيت مالك ظلما وجورا وعدواناً. فاتق الله ياابن عبد العزيز وراقبه فإنك قد أوشكت لم تطمئن على منبرك أن خصصت ذوى قرابتك بالقطيعة والظلم. فوالذى خص محمدا صلى الله عليه وسلم بما خصه به من الكرامة لقد ازددت عن الله بعدا في ولايتك هذه التى تزعم أنها بلاء عليك وهى كذلك. فاقتصد في بعض ميلك وتحاملك. اللهم اسأل سليمان بن عبد الملك عما صنع بأمة محمد صلى الله عليه وسلم حين استخلفك عليهم[2].

مع عمر ابن الوليد

عجبٌ دونه كل عجب أن يوجه ذلك المغرور مثل هذا الكتاب الى عمر بن عبد العزيز متهما إياه بقطيعة الرحم وشتم الخلفاء وعيبهم والعمل بغير الحق وأخذ أموال قريش بالباطل ثم تهديد عمر بالثورة عليه ثم القسم

---

١ ــ ابن عد الحكم ١٢٥ــ١٢٦.

٢ ــ ابن عبد الحكم ١٢٦ــ١٢٧، ابن الجوزى ١١٢ــ١١٣ باختلاف.

المغلظ بأن عمر قد ازداد من الله بعدا حينما تولى الخلافة، وأخيراً يطلب من عمر الاقتصاد في الميل والتحامل عليهم و يدعو على سليمان أن وَلَّى بعده عمر.

باطل في ثوب حق

ولكن العجب يزول إذا علمنا مقدار ما كان يعيش فيه الناس من ضلال و باطل، وما أشاعه بنو أمية وما نشروه من ظلم ألبسوه صورة العدل، و باطل ألبسوه ثوب الحق وما عداه ضلال و باطل، لدرجة أنهم أشاعوا بين أهل الشام أنهم أى بنى أمية ــ هم ورثة محمد صلى الله عليه وسلم وأنهم أقرب الناس اليه وليس ثمة وارث سواهم(١).

أفيكون عجبا بعد ذلك ان يعتقد عمر بن الوليد أنَّ عمر بن عبد العزيز قد ظلمهم بأخذ أموالهم وردها إلى بيت المال وهم يرون أنَّ هذا المال حق لهم وأنَّ ما أعطاهم إياه آباؤهم والخلفاء إنما هو حق قد قرره الشرع لهم؟ ولكن هل يتركهم عمر وما اعتقدوه؟ وقد رفع الله الغشاوة عن عينيه و بصيرته من دون بنى أمية فعرف الحق ورآه ومن ثم آلى على نفسه أن يقيم العدل و يشيعه بين الناس جميعا، و يرد الحق الى نصابه و يؤدى المال الى أربابه مهما كلفه ذلك من تضحيات وما لاقى في سبيله من مصاعب ومتاعب ومواجهات.

رد مفحم

قرأ عمر كتاب ذلك المغرور فرد عليه بكتاب دحض فيه حججه ووضح فيه خطله وزلله ورده الى مكانه وعرفه حقارة نفسه وسوء طويته، وأراه من هو الظالم المستبد ومن يستحق غضب الله لظلمه واستبداده.

قال له: من عمر أمير المؤمنين الى فلان بن الوليد سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو أما بعد فإنَّ أوَّل

---

١ ــ النزاع والتخاصم ٤٢ ومروج الذهب ٣/٤٣.

أمرك يافلان أنّ أمك بنانة أمة السكونى ــ وفي رواية السكون ــ كانت تدخل دور حمص وتطوف حوانيتها والله أعلم بها فاشتراها دينار بن دينار ــ وفي رواية ذبيان بن ذبيان ــ من فيء المسلمين فأهداها الى أبيك فحملت بك فبئس المحمول وبئس الجنين، ثم نشأت فكنت جبارا شقيا. كتبت الى تظلمنى ــ (أى تنسبنى الى الظلم) ــ. وزعمت أن حرمتك وأهل بيتك من مال المسلمين الذى فيه حق القرابة والضعيف والمسكين وابن السبيل، وإنما أنت كأحدهم لك ما لهم وعليك ما عليهم ــ (أى فليس بنو مروان وأمراؤهم أحق ببيت المال من غيرهم بل هم أسوة الناس جميعا) ــ وأن أظلم منى وأترك لعهد الله الذى استعملك صبيا(١) سفيهاً تحكم في دماء المسلمين وأموالهم برأيك. لم تحضره نية ولم يكن يحمله عليه إلاّ حب الولد، ولم يكن ذلك له ولا حق له فيه. فويلك وويل أبيك ما أكثر طلابكما وخصماء كما يوم القيامة، وكيف النجاة لمن كثر خصماؤه؟

من الظالم؟

إنَّ أظلم منى وأترك لعهد الله من جعل لفلانة البربرية ــ وفي رواية جعل لعالية البربرية سهما في خمس العرب(٢)ــ سهمافي فيء المسلمين وصدقاتهم ــ (ويتساءل عمر مستغربا متعجبا) ــ. أهاجرت ثكلتك أمك؟ أم بايعت بيعة الرضوان فتستوجب سهام المقاتلين؟ وإنَّ أظلم منى أترك لعهد الله من استعمل قرة بن شريك(٣) أعرابياً جلفا جافيا على مصر

---

١ ــ يجب ان تسند الولايات والقيادات لأربابها من اولى الكفاءة من المسلمين اما أن تسند الى الصبيان والسفهاء لانهم من اقارب الخليفة او الملك او من الحزب الحاكم فهذا ظلم ووضع الشيء في غير محله، ولكن بنى امية كثيرا ما كانوا يفعلون ذلك استبدادا بالامة وخروجا عن شرعة الحق والعدل.

٢ ــ وهذا من الظلم والجور والاستبداد ببيت المال واعطائه لغير مستحقيه ولا ما شأن عالية البربرية ومال الخمس؟.

٣ ــ قرة بن شريك بن مرثد بن حازم من بنى عبس ولى مصر بعد عزل ــ عبد الله بن عبد الملك من قبل الوليد بن عبد الملك على صلاة مصر وخراجها وكان كما قيل سيىء التدبير خبيثا ظالما غشوما فاسقا متهتكا. النجوم الزاهرة ١/٢١٧.

وأذن له في المعازف والبرابط(١) والخمر. وفي رواية من استعمل الحجاج ابن يوسف يسفك الدم الحرام و يأخذ المال الحرام ــ رو يدك فإنه لو التقت حلقتا البطان(٢) وطالت بى حياة ورد الله الحق الى أهله تفرغت لك ولأهل بيتك فأقمتكم على المحجة البيضاء فطالما أخذتم بنيات(٣) الطريق وتركتم الحق وراءكم. ومما وراء هذا ما أرجو أن يكون خير رأى أبُتّه بيع رقبتك(٤) فإن لكل مسلم فيك سهما في كتاب الله والسلام على من اتبع الهدى ولا ينال سلام الله الظالمين(٥)

تهديد بالبيع

وفي رواية ــ ولولا ما يمنعنى(٦) منك لبعثت إليك من يحلق لمتك(٧) لمة السوء هوانا بك علي وقمأة(٨) ولما يبلغ الحزام الطبيين(٩) والسلام(١٠).

وفي رواية أخرى ــ وهى تعطينا صورة من صور ظلم بنى أمية وإعطائهم أموال المسلمين لغير مستحقيها ــ «وقسم لك أبوك الخمس كله(١١)»ــ وإنّما لك سهم أبيك كسهم رجل من المسلمين ــ وفيه حق الله والرسول وذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل.

---

١ ــ البرابط ــ ج بربط وهو العود معرب بربط اى صدر الاوز قاموس ٣/٣٥٠.

٢ ــ كناية عن بلوغ الامر اقصاه وغايته.

٣ ــ بنيات الطريق الشوارع والازقة الجانبية للشارع الاعظم والمراد بها هنا الانحراف عن الصراط المستقيم.

٤ ــ حيث ان ابن الأمة يتبع أمه في الرق، وكان عمر كثيرا ما يهدد بنى أمية بذلك ولعل هذا من الأسباب التى عجلت بالقضاء عليه.

٥ ــ ابن عبد الحكم ١٢٧ــ١٢٩ صفة الصفوة ٢/١١٧ الحلية ٥/٣٠٩ ابن الجوزي ١١٣ باختلاف الفاظ.

٦ ــ ما يمنعه هو خوف الفتنة واراقة الدماء.

٧ ــ اللمة شعر الرأس.

٨ ــ القمأه الحقارة والذلة.

٩ ــ لما يبلغ الحزام الطبيين والمراد هنا بلوغ الامر منتهاه والطبيان مثنى طبى خلف الناقة.

١٠ــ ابن عبد الحكم ١٢٩ صفوة الصفوة ١١٦ــ٢/١١٧.

١١ــ أي خمس الغنيمة بعد اعطاء المقاتلين اربعة اخماسها.

فما أكثر خصماء أبيك يوم القيامة فكيف ينجو من كثرة خصماؤه؟ وإظهارك المعازف والمزامير بدعة في الإسلام، لقد هممت أن أبعث إليك من يجز جمتك جمة السوء(١).

مع وافد بنى أمية

ولكن بنى أمية لم ييأسوا أن ينالوا شيئا من عمر أو على الاقل أن يبقوا على ما في أيديهم، فيجتمعون و يرسلون إليه وافدا عنهم بمطالبهم ــ هو هشام بن عبد الملك ــ فيقول لعمر: ياأمير المؤمنين إنّى رسول قومك إليك، وإنَّ في أنفسهم ما أكلمك به، إنهم يقولون: استأنف العمل برأيك فيما تحت يدك وخل بين من سبقك و بين ما ولوا به من كانوا يلون أمره بما عليهم ولهم.

الأخذ بالسجل الاقدم

فيقول له عمر: أرأيت لو أتيت بسجلين أحدهما من معاو ية والأخر من عبد الملك بأمر واحد فبأى السجلين كنت آخذا؟ قال هشام: بالأقدم ولا أعدل به شيئا. فيقول عمر: فإنى وجدت كتاب الله الأقدم فأنا حامل عليه من أتانى ممن تحت يدى في مالى وفيما سبقنى(٢).

وهكذا أوقف عمر بن عبد العزيز هشاما على الحق البين وقطع حجته برأى نفسه، فإن كتاب الله عز وجل هو الأقدم و به يجب أن يأخذ عمر ويحمل الناس عليه مهما لاقى في سبيل ذلك:

مع سعيد ابن خالد

وتكرر معه المحاولة يدخل عليه سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان ابن عفان فيقول: ياأمير المؤمنين امض لرأيك فيما وليت بالحق والعدل وخل عمن سبقك وعما ولى خيره وشره فإنك مكتف بذلك ــ (نفس مطلب هشام وكأنهم يظنون أن رؤية الظلم وعدم تغييره من الحاكم العادل ينجيه من عقاب الله عز وجل، ونسوا أو تناسوا أن العادل لا يكون

---

١ ــ حلية الاولياء ٥/٢٧٠ ابن الجوزى ١١٤.

٢ ــ الحلية ٥/٢٨٢ وابن الجوزى ١١٨ــ١١٩.

عادلا حقا إلا إذا أعطى كل ذى حق حقه مهما تطاول عليه الزمن مادامت الحجة قائمة ــ ولكن عمر بن عبد العزيز لا تأخذه الحدة ولا يستثار وإنّما يجيب سعيد بن خالد بما يجعله يقف مبهوتا أمام صلابة عمر وتمسكه بالحق ووضوح حجته ولا يملك إلا أن يدعو لعمر بالتوفيق لما هو مقدم عليه) ــ يقول له عمر: أنشدك الله الذى إليه تعود أرأيت لو أنَّ رجلا هلك وترك بنين صغارا وكبارا فعز(١) الأكابر الأصاغر بقوتهم فأكلوا أموالهم فأدرك الأصاغر فجاؤك بهم وبما صنعوا في أموالهم ما كنت صانعا؟ قال: كنت أرد عليهم حقوقهم حتى يستوفوها ــ (نعم لا يستطيع سعيد ابن خالد ولا غيره أن يجيب بغير ذلك إذا أراد الوصول للحق ورد الحق إلى أهله وأصحابه ــ نعم كنت أرد عليهم حقوقهم حتى يستوفوها ــ وهنا يمسك عمر بزمام الموقف) فيقول: فإنّى وجدت كثيرا ممن كان قبلى من الولاة عزوا الناس بقوتهم وسلطانهم وعزهم بها أتباعهم فلما وليت أتونى بذلك فلم يسعنى إلاّ الرد على الضعيف من القوى وعلى المستضعف من الشريف. فيقول سعيد بن خالد: وفقك الله ياأمير المؤمنين(٢).

الحكم العدل

وقد رأينا أن عمر بن عبد العزيز قد بعث الى بنى أمية بعشرة دنانير لكل منهم فلم يعجبهم ذلك، فيجتمعون بباب عمر بن عبد العزيز وفيهم يزيد بن عبد الملك ولى العهد بعد عمر، وقد أصابه ما أصاب بنى أمية فيشكون إلى عنبسة بن سعيد ــ (وكان خارجا من عند عمر) ــ فيقولون له: إنّ عمر بعث إلينا بعشرة دنانير عشرة دنانير، ولم يمنعنا من ردها إليه إلاّ خوف غضبه ــ وهنا تأخذ الحدة يزيد بن عبد الملك فيقول لعنبسة: أعلمه أنّى سخطتها وكأنه يظن أنى لا اكون من بعده؟ فأعلمه بذلك. فيدخل عنبسة على عمر فيكلمه فيقول: إنَّ بنى أبيك بالباب يعتبون عليك

مع يزيد ابن عبد الملك

---

١ ــ عز ــ أى غلب وقهر.

٢ ــ الحلية ٥/٢٨٢ وابن الجوزى ١١٩.

في عشرة دنانير التى بعثتها الى كل واحد منهم وكلمونى في كلامك أن أخبرك أنهم سخطوها وقال يزيد: كأنه يظن أنى لا أكون بعده.

(فلا يغضب عمر من شدة إلحاحهم ولا من يزيد ولكنه يقول لعنبسة: فأقرئهم منى السلام وقل لهم إنّ عمر يقرأ عليكم السلام و يقول لكم: أقسم بالله الذى لا إله إلاّ هو مازلت هذه الليلة الماضية ساهرا أناجى الله وأستغفره منها حيث أعطيتكموها دون المسلمين. فلا والله لا أعطيتم درهما إلاّ أن يأخذ جميع المسلمين. وأما أنت يايزيد فأناشدك الله الذى لا إله إلاّ هو لو خلعت نفسى وخلعنى المسلمون و وليت هل كنت فاعلا بى إلا دون ما فعلت بنفسى؟ إذا وليت الأمور فشأنك بها. فيخرج اليهم عنبسة فيقول: أنتم فعلتم بأنفسكم تزوجتم الى عمر بن الخطاب بنت عاصم فجئتم بمثل عمر، وأخبرهم الخبر وقال: من كان له منكم يابنى عمى ضيعة فليقم فيها يصلحها(١).

وساطة النساء

ولكن بنى أمية ولا يزال في جعبتهم بعض السهام فليرموا بها لعلهم يصيبون هدفهم هذه المرة، إذ ينطلقون الى عمة لعمر يقال لها أم عمر كان خلفاء بنى أمية ينزلونها على باب القصر، فالتجأ إليها بنو مروان وطلبوا منها أن تتوسط لهم عند عمر لعله يرجع عن بعض تشدده تجاههم، أو لعلها تستطيع إقناعه بالعدول عن رأيه فيهم.

فذهبت إليه وقد أخذ منها الغضب مأخذه ــ (ولعلها أيضاً حرمت كثيرا مما كان يفيضه عليها من سبق عمر من خلفاء بنى مروان). فلما وصلت قال عمر: لا يلى إنزالها أحد غيرى. فأدخلوها على دابتها إلى باب قبته فأنزلها، ثم طبق لها وسادتين إحداهما على الأخرى ثم انشأ يمازحها

---

١ أ ابن عبد الحكم ١٤٠ــ١٤١.

ولم يكن من شأنه المزاح ــ فقال: أما رأيت الحرس الذى على الباب؟ قالت: بلى رأيتهم عند من هو خير منك. فلما رأى الغضب لا يتحلل عنها أخذ في الجد وترك المزاح فقال: ياعمة إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض فترك الناس على نهر مورود فولى ذلك النهر بعده رجل فلم يستنقص منه شيئا ثم ولى ذلك النهر بعد ذلك الرجل رجل آخر فكرى منه ساقية ــ وفي رواية ثم ولاه الرجل بعد الرجل حتى وُلِّي معاوية فشق منه الأنهار ــ ثم لم يزل الناس يكرون منه السواقى حتى تركوه يابسا ليس فيه قطرة، وايم الله لئن أبقانى الله لاسكرن تلك السواقى حتى أعيده الى مجراه الأول.

النهر المورود

قالت: فلا يسبوا عندك إذا. قال: ومن يسبهم؟ إنما يرفع الرجل إليَّ مظلمته فأردها عليه. وفي رواية ــ فلما قال لها هذا قالت له: إنَّهم يحذرونك يوما من أيامهم. فغضب وقال: كل يوم أخافه غير يوم القيامة فلا أمنت شره، ثم يدعو بدينار وجنب ومجمرة فألقى ذلك الدينار في النار وجعل ينفخ على الدينار حتى إذا احمر تناوله بشيء فألقاه على الجنب فنش(١) وقتر فقال: أى عمة أما تأوين(٢) لابن أخيك من مثل هذا؟ فقامت فخرجت على قرابته فقالت: تزوجون الى عمر فإذا نزعوا الشبه جزعتم: اصبروا(٣).

مشهد مؤثر

وهكذا فشلت وساطة النساء كما فشل غيرها، ولم يعد أمام بنى أمية إلاّ أن يرضوا بالأمر الواقع و يسلموا ما في أيديهم طوعا أو كرها. فأظهروا الرضا والطاعة ولكن قلوبهم كانت تغلى غضباً وحقدا على عمر، ولكنهم

---

١ ــ الجنب قطعة لحم ونش أى تقبض وصوت.

٢ ــ تأوين: ترقين قاموس ٤/٣٠١.

٣ ــ الحلية ٥/٢٧٤ الطبقات ٥/٢٧٥ الكامل ٥/٦٤ صفة الصفوة ٢/١٢٣ ابن الجوزى ١١٧.

كانوا يخفون غضبهم وحقدهم ويجتمعون فيقول بنو مروان: لو دخلنا على أمير المؤمنين فعطفناه علينا وأذكرناه أرحامنا (يريدون أن يلزموا جانب اللين والمسكنة لعلهم ينالون شيئا أو على الأقل يجعلون ظواهرهم تخفى ما يكمن في قلوبهم) فيدخلون عليه فيتكلم رجل منهم فيمزح فينظر عمر اليه فيصل له رجل منهم كلامه بالمزاح فيقول عمر مؤدبا ومؤنبا ألهذا اجتمعتم لأخس الحديث ولما يورث الضغائن؟ إذا اجتمعتم فأفيضوا في كتاب الله تعالى فإن تعديتم ذلك ففى السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن تعديتم ذلك فعليكم بمعانى الحديث(١).

الخليفة المؤدب

وكان عمر يعلم تمام العلم ما تكنه قلوب بنى أمية عليه من حقد وغضب ولكنه كان لا يبالى حقدهم وغضبهم، وكان كثيرا ما يتحدث بما يكنه قلبه تجاه كثير منهم. كان إذا نظر الى بعض بنى أمية يقول: إنّى أرى رقابا سترد الى أربابها(٢).

تهديد عمر لبنى امية بالبيع والرق

وهو لا يبالى أن يسمع ذلك بنو أمية و بنو مروان و يعوه، يأتيه مرة كتاب من بعض بنى مروان فيغضبه فيستشيط غضبا ثم يقول: إنّ لله في بنى مروان ذبحا، وآيم الله لئن كان الذبح على يدى. فلما بلغهم ذلك كفوا وكانوا يعلمون صرامته وإنه إن وقع في أمر مضى فيه(٣).

والذبح

ويجتمعون اليه مرة أخيرة ليعاتبوه فيقولون: إنك قصرت بنا عما كان يصنعه بنا من قبلك. وعاتبوه فيغضب لهذا و يهددهم قائلا: لئن عدتم لمثل هذا المجلس لأشدن ركابى ثم لأقدمن المدينة فلأجعلنّها أو أصيرنّها شورى، أما وأنى أعرف صاحبها ــ الأعيمش ــ يعنى القاسم بن محمد ابن ابى بكر الصديق(٤).

واعادة الامر شورى

---

١ ــ الحلية ٢٧٢ــ٥/٢٧٣ وابن الجوزى ٦٣.

٢ ــ العقد الفريد ٤/٤٣٧.

٣ ــ الحلية ٥/٢٨١ الطبقات ٥/٢٥٣ ابن الجوزي ١١٤.

٤ ــ الطبقات ٥/٢٥٣.

وهكذا فشلت كل محاولات بنى أمية في رد عمر عن غايته التى جعلها نصب عينيه. وانصرف كل منهم يعمل لنفسه لعله يستطيع أن يستخلص من عمر شيئا أو يدفع عن نفسه على الأقل. وهنا يطرأ سؤال و يطرح نفسه استفهام لماذا لم يستخلص عمر بن عبد العزيز من هؤلاء الأمراء أموال بيت المال ولم يستخرج منهم مظالم الناس مرة واحدة؟ وهذا يجرنا الى التساؤل عن الطريقة التى سلكها عمر للوصول الى الحق، وهذا موضوع الفصل التالى.

الفصل الثالث

طريق عمر للوصول للحق

المبحث الأول: سياسة متزنــة

«لو أقمت فيكم خمسين عاما ما استكملت فيكم العدل إنّى لأ ريد الأمر وأخاف أن لا تحمله قلوبكم فأخرج معه طمعا من الدنيا فإنْ أنكرت قلوبكم هذا سكنت الى هذا»(١)

عمر بن عبد العزيز

حقا ما قال عمر بن عبد العزيز لو أقام في الناس خمسين عاماً ما استكمل العدل فيهم. وكيف يستطيع عمر أن يستكمل العدل في هذه المدة وقد هدمت الجاهلية العائدة حصونه مدة ستين عاماً؟ فعمر يريد البناء لما تهدم من صرح العدل ومن يبنى ليس كمن يهدم. فإذا كان الهدم استمر ستين عاما ونشأت أجيال ترى الأكواخ قصورا والظلم السائد عدلا، فهل يمكن لعمر أن يبنى ما تهدم في خمسين عاما؟ وأن يغير نظرة الناس إلى مفاهيم الحق والعدل والظلم والباطل، تلك المفاهيم التى انقلبت عند الناس معاييرها كما رأينا من كتاب عمر بن الوليد. فما هى طريقة عمر للوصول للعدل الذى يبتغى الوصول إليه، وكيف سيصل إليه؟ وما هى العقبات التى تقف في طريقه للوصول الى ما يريد والى تحقيق ما يصبو إليه؟.

كيف يبنى ما تهدم

يقول عمر: «ما طاوعنى الناس على ما أردت من الحق حتى بسطت لهم من الدنيا شيئا»(٢) النفوس مغرمة بحب العاجل ميالة لشهواتها ولذات حياتها، يصعب عليها الاستجابة للحق والعدل ولو كان غبه لصالحها وقد عرف عمر بن عبد العزيز هذه الطبيعة في النفس البشرية

كيف يصل عمر بالناس للحق؟

---

١ ــ تاريخ الخلفاء ٢٣٥، ابن الجوزى ٧١ باختلاف.

٢ ــ الحلية ٥/٢٩٠.

فسار معها وبسط لها شيئاً من الدنيا لتستجيب الى ما يريده من الحق لأنّه يعلم أنه لو جابهها بما يريد لنفرت «**كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ، فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ**»(١).

وقد كان هناك من يدفع عمر دفعا لينفذ ما يريد من الحق والعدل دون نظر الى طبيعة تلك النفوس، وكان من أشد الناس عليه في ذلك ابنه عبد الملك بن عمر الذى كاد أن يفوق أباه ورعا وتقوى وخشية من الله وسيرا على طريق الحق، حتى قيل: إنّ من أهم الدوافع التى دفعته الى السير في الطريق الذى سار فيه هو ما رآه من ابنه عبد الملك، وعبد الملك هذا كان شابا كثيرا ما تأخذه سورة الشباب وحدة المؤمن الموروثة فيدخل على أبيه فيقول: ياأمير المؤمنين إنّ لى إليك حاجة فأخلنى ــ وعند عمر مسلمة بن عبد الملك بن مروان ــ فيقول له عمر: أسِرٌّ دون عمك؟ فقال: نعم: فقام مسلمة وخرج. ــ(فماذا يريد عبد الملك أن يقول لأ بيه وقد أخلى له مجلسه فليس فيه سواه وابنه؟) يجلس عبد الملك بين يدى أبيه فيقول: ياأمير المؤمنين ما أنت قائل لربك غدا إذا سألك فقال: رأيت بدعة فلم تمتها أو سنة فلم تحيها؟ ــ (ألهذا طلب عبد الملك إخلاء المجلس حتى من عمه مسلمة ــ سيف بنى مروان ــ لماذا لم يقل هذا أمام مسلمة أو أمام الناس؟ إن هذا الشبل من ذاك الأسد، لقد كان في إمكان عبد الملك بن عمر أن يسأل أباه هذا أمام الناس جميعا، ولكنه وهو المؤمن الورع التقى أراد أن تكون نصيحة لله خالصة بعيدة كل البعد عن الرياء والنفاق والإحراج، أراد أن تكون الإجابة على التساؤل أيضاً صريحة واضحة بعيدة كذلك عن الرياء والنفاق) فيقول له عمر: يابنى أشيء حملتكه الرعية إليَّ أم رأى رأيته من قبل نفسك؟ قال عبد الملك: لا والله ولكن رأى رأيته من قبل نفسى وعرفت أنّك مسئول فما أنت قائل؟ ــ

مع عبد الملك بن عمر

---

١ ــ الايتان من سورة المدثر ٥٠ــ٥١

(لله درك ياعبد الملك بن عمر كيف تقدر مسئولية الحاكم أمام الله عز وجل فأنت تنبه أباك ــ وهو في الحقيقة في يقظة دائمة) ــ تنبهه الى ما ترى من الحق ولكنك لم تبل بعد طبائع النفوس ولم تدرك رؤية عمر بن عبد العزيز للناس الذين قدر له أن يبتلى بحكمهم ــ وقد أحس عمر بالدافع الذى دفع عبد الملك ابنه لهذا فقدر فيه هذه الروح حق قدرها) فيقول له: رحمك الله وجزاك من ولد خيرا، والله إنى لأ رجو أن تكون من الأعوان على الخير. يابنى إنَّ قومك قد شدوا هذا الأمر عقدة عقدة وعروة عروة ومتى أريد مكابرتهم على انتزاع ما في أيديهم لم آمن أن يفتقوا على فتقا تكثر فيه الدماء، والله لزوال الدنيا أهون على من أن يراق في سببى محجمة من دم، أوَما ترضى أن لا يأتى على أبيك يوم من أيام الدنيا إلا وهو يميت فيه بدعة ويحيى فيه سنة حتى يحكم الله بيننا و بين قومنا بالحق وهو خير الحاكمين؟(١).

الخوف من إراقة الدماء

فعمر بن عبد العزيز كان يرى الأناة والتؤدة في الوصول الى الحق، وفي رد القافلة الضالة الى طريقها المستقيم. و يتضح من كتبه الى عماله وولا ته السنة التى آثر السير على هداها لإصلاح الرعية. يكتب الى واليه على الموصل يحيى الغسانى وقد ولاه عمر الموصل فوجد حبل الأمن فيها مضطربا ويجدها من أكبر البلاد سرقا ونقبا، فيكتب إلى عمر يعلمه بحال البلد و يسأله: هل يأخذ الناس بالظنة و يضربهم على التهمة ــ (كما كانت العادة جارية عند الولاة والعمال في عهد سلف عمر من خلفاء بنى مروان حينما كانت تراق الدماء وتضرب الأ بشار لأ تفه الأسباب)ــ أم يأخذهم بالبينة وما جرت عليه عادة الناس؟ ــ(فبماذا يجيب عمر هل

---

١ ــ الحلية ٥/٢٨٣ صفة الصفوة ٢/١٢٨ ابن الجوزى ٢٦٠.

يأمره باستعمال الشدة والقسوة في ردع الناس عن الظلم وقد فشا فيهم، أم يكتفى بالبينة وما جرت به السنة؟ ومادام عمر قد أخذ نفسه بالسير على سنن الهدى فلا يمكنه أبداً أن يحيد عن ذلك السنن ولا يريده)ـ فيكتب الى واليه يقول: خذ الناس بالبيِّنة وما جرت عليه السنة فان لم يصلحهم الحق فلا أصلحهم الله(١). يقول الوالى: ففعلت ذلك فما خرجت من الموصل حتى كانت من أصلح البلاد وأقله سرقا ونقباً(٢)ـ (إذاً فسياسة عمر المتزنة المعتدلة الشرعية قد آتت أكلها وأينعت ثمارها وكيف لا؟ وهى سياسة نابعة من قلب يعمره الإيمان وحب الحق والعدل.

من لم يصلحه الحق فلا اصلحه الله

و يؤيد هذه السياسة المتزنة و يؤكدها كتابه الى عبد الحميد بن عبد الرحمن عامله على الكوفة وقد كتب اليه يستأذنه في استعمال الشدة مع عمال متهمين بالخيانة فيقول له: جاءنى كتابك تذكر أنَّ قبلك قوما من العمال قد اختانوا مالا فهوعندهم، وتستأذننى في أن أبسط يدك عليهم، فالعجب منك في استئمارك إياى في عذاب البشر كاننى جُنة لك، وكأن رضائى عنك ينجيك من سخط الله ـ(وكان تعذيب العمال واستخلاص ما في أيديهم سنة متبعة في عهد بنى أمية، يقول صاحب كتاب السيادة العربية: في عهد عبد الملك كان يعمل تحقيق دقيق مع الجباة وموظفى الخراج عند اعتزالهم أعمالهم الإدارية وكانوا يعذبون حتى يقروا بأسماء من أودعوا عندهم ودائعهم وأموالهم و يردوا الى بيت المال ما سلبوه من الأموال. وهو ما يسمى بالاستخراج أو التكشيف. وكان للتحقيق مع هؤلاء أماكن خاصة تسمى دار الاستخراج(٣)، فليس غريبا إذاً أن

مع والى الكوفه

---

١ ـ الحلية ٥/٢٨٣ صفة الصفوة ٢/١٢٨ ابن الجوزى ٢٦٠.

٢ ـ الحلية ٥/٢٧١ وابن الجوزى ٩٧.

٣ ـ السيادة العربية ٣٢ عن الطبرى والعقد.

يطلب ذلك الوالى من عمر الموافقة على ذلك كما كانت عادة من سبقه من الخلفاء، ولعل الوالى ما كان يدرك بعد سياسة عمر). ثم يقول عمر: فإذا جاءك كتابى هذا فانظر من أقر منهم بشيء فخذه بالذى أقر به على نفسه ومن أنكر فاستحلفه وخل سبيله. فلعمرى لأن يلقوا الله بخياناتهم أحب إليَّ من أن ألقى الله بدمائهم والسلام(١).

تعذيب العمال في عهد بنى مروان

لقد كان خط سير عمر بن عبد العزيز واضحا وهو السير مع السنة فمن لم تصلحه السنة لم تصلحه البدعة ومن لم يصلحه العدل لن يصلحه الظلم.

السير مع السنة

و يكتب إليه صالح بن عبد الرحمن وصاحب له ــ وكان قد ولاهما شيئا من أمر العراق فكتبا الى عمر يعرضان له: إنّ الناس لا يصلحهم إلاّ السيف. وكان صالح بن عبد الرحمن قبل ذلك مع يزيد بن المهلب حينما كان واليا على العراق زمن سليمان بن عبد الملك وعايش تلك المعاملات القاسية الظالمة التى كان يعامل بها جبابرة الولاة الناس، فلعله ظن أنَّ عمر بن عبد العزيز مثل سلفه من بنى مروان تهون عليه دماء الناس وأموالهم. فكان كتاب عمر له قلباً لتلك المقاييس والمعايير الظالمة الجائرة، وردا له الى صوابه) إذ كتب إليهما عمر: خبيثين من الخبث رديئين من الردىء تعرضان لى بدماء المسلمين، ما أحدٌ من الناس الا ودماؤكما أهون علي من دمه(٢).

مع والى العراق.

إذاً فقد كانت سياسة عمر السير مع السنة العادلة والسيرة الحسنة والاقتداء بسيرة أبى بكر وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما في سياسة الناس وإيصال الحق لهم وأخذ الحق منهم، فلا ضرب ولا صلب ولا قطع

ميزات سياسته

---

١ ــ الحيلة ٥/٢٧٥ وابن الجوزى ٨٤ ومثله لعدى بن أرطاة.

٢ ــ الحلية ٥/٣٠٧ وابن الجوزى ١؟.

ولا حرق ولا سلب ولا نهب، إنّما إقامة للحق ودعوى بدليل و بينة لمن ادعى ويمين على المنكر فمن لم يصلح مع الحق لن يصلح مع الباطل.

وكان من أهم ميزات هذه السياسة وأكثرها وضوحا العفة عن الدماء والأموال والأعراض، فلا يراق دم إلاّ بحق ولا مال إلاّ ببينة ولا عرض إلاّ بجريرة.

و يبقى بعد ذلك التساؤل لم لم ينفذ عمر بن عبد العزيز ما رآه من الحق بقوة وسرعة والناس معه؟ ولم لم يرد المظالم كلها مرة واحدة وخاصة مظالم الأمراء من بنى أمية و بنى مروان؟.

المبحث الثاني
نقــد ورد

«من لم يصلحه إلاّ الغَشْم فلا يصلح، والله لا
أصلح الناس بهلاك دينى»(١)
عمر بن عبد العزيز

رأينا في المبحث السابق كيف أنَّ عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز بفورة الشباب وحماسة الفتيان كان يطلب من أبيه الإسراع في رد المظالم وانتزاع الأموال من بنى أمية، و يسأله عدم التردد في إقامة العدل وإحقاق الحق، ورأينا شيئا من وجهة نظر عمر في سلوكه الطريق الذى ارتآه موصلا الى الغاية التى يريدها مع الأسباب الموجبة لذلك.

نقد لصاحب كتاب «الخليفة الزاهد»

ثم يأتى بعد ذلك بعض أفاضل الكاتبين فيقول: «ووقف عمر من هؤلاء الأمراء وقوف الحصن يدفع عن نفسه، ولو استطاع أن يزحف ليعصف بهم لفعل، ولكنه لم يستطع أو لم يشأ ومن ثم فقد أخطأ وعليه إثم الخطأ، وكان الناس يقبلون منه أن يغير ما شاء من نظام الخلافة ووراثتها، بل طلبوا إليه أن يغير و يبايعوا ــ (يريد الكاتب الفاضل هنا الخوارج على ما أعتقد). ولكنه تردد وامتنع(٢). و يقول في مكان آخر: «ولو أبعدهم ــ أي أمراء بنى أمية ــ عمر كل البعد لما كثرت مطالباتهم بالحقوق التى ادعوها، وكذلك تعذر الدواء ووقع اليأس لأن عمر أبقى لهم عطفا مرجوا وأملا مأمولا(٣). ــ هذا هو النقد الذى وجه الى عمر لاختياره طريق الأناة في الوصول الى الحق الذى يريد. مع أن الكاتب الفاضل يقول في نفس الكتاب وفي نفس الصفحة: وكان عمر يعرف جهل الناس ويخشى أن يعاونوا الأمراء على مظالمهم فقد كان الناس ولدوا في المظالم وظنوا أنَّ الإسلام خلق هكذا كما رأوه، كان عمر يعرف ذلك

---

١ ــ ابن عبد الحكم ١٠٢.
٢ ــ الخليفة الزاهد ١٠٣.
٣ ــ نفس المرجع ١٠٥ــ١٠٦.

فقال: أما والله لولا أن يستعينوا على بِمَن أطلب هذا الحق له لأضرعت خدودكم عاجلا ولكنى أخاف الفتنة، ولئن أبقانى الله لأ ردَّن لكل ذى حق حقه إن شاء الله(١).

فهل صحيح أنَّ عمر بن عبد العزيز كان يستطيع أن يعصف بأمراء بنى أمية و يفعل بهم ما يريد من الحق ولكنه تردد أو لم يشأ فأخطأ؟ أم أنَّ الأمر كان فوق ذلك وإنَّ عمر بن عبد العزيز لم يتردد أبداً في حق رآه واستطاع الوصول إليه ولكن الأ وضاع كانت أقوى منه؟.

الرد من ثنايا النقد

من خلال النص الذى ذكره الاستاذ الفاضل صاحب النقد إجابة صريحة على هذا التساؤل قال: كان عمر يعرف جهل الناس، ويخشى أن يعاونوا الأمراء استنتاجا من النص الذى أتى به، وقد ذكر ذلك صريحا عمر حيث قال: لولا أن يستعينوا على بمن اطلب هذا الحق له: ثم قال: ولكنى أخاف الفتنة. وقد ذكر بعد ذلك إصراره على المبدأ (ولئن أبقانى الله لأ ردَّن لكل ذى حق حقه إن شاء الله) فالأمر إذن واضح ولا يحتاج الى تساؤل أو نقد فالناس فيهم جهل ولو جابههم لثارت الفتنة وهو كما رأينا من أشد الناس ابتعاداً عنها، وفي النصوص التالية تتضح هذه الأعذار أكثر وتكون الإجابة عن ذلك التساؤل أوضح وأصرح.

رأينا أن من أكثر الناس حثا لعمر على الحق ابنه عبد الملك ذلك الفتى الشاب المؤمن الذى فاق أباه زهدا وورعا ورغبة في سرعة تنفيذ ما يراه من الحق. حتى قال بعض مشيخة أهل الشام: كنا نرى عمر بن عبد العزيز إنما أدخله في العبادة ما رآه من ابنه عبد الملك(٢). وكان عبد الملك

---

١ ــ نفس المرجع ١٠٣ عن العقد الفريد ٤/٤٣٧ ابن الجوزى ١١٥.
٢ ــ صفة الصفوة ٢/١٢٧.

هذا كلما رأى أباه مترددا في تنفيذ أمر لم يتضح له وجهه، أو يوازن بين ما فيه من مصلحة أو درء مفسدة، كان نعم الوزير والمشير والناصح والحافز الحثيث، دخل على أبيه يوما فقال له: ياأمير المؤمنين ما أنت قائل لربك غدا إذا سألك فقال: رأيت بدعة فلم تمتها أو سنة فلم تحيها؟ فقال أبوه: رحمك الله وجزاك من ولد خيرا، يابنى إنَّ قومك قد شدوا هذا الأمر عقدة عقدة وعروة عروة ــ (يريد عمر أن الوضع في غاية الشدة والتمكن في قلوب ونفوس الناس) ومتى أردت مكابرتهم على انتزاع ما في أيديهم لم آمن أن يفتقوا على فتقا تكثر فيه الدماء ــ (لم يكن عمر جاهلا مكانة بنى مروان وقوتهم وتأثيرهم في الناس وسيطرتهم عليهم، وجهل الناس وبيعهم الدين والحق بالدرهم والدينار) والله لزوال الدنيا أهون على من أن يهراق في سببى محجمة من دم، أو ما ترضى ألا يأتى على أبيك يوم من أيام الدنيا إلا وهو يميت فيه بدعة ويحيى فيه سنة(١).

شد الامر

مكانة بنى أمية والخوف من الفتنه واراقة الدماء

ولكن حماس الشباب لا يزال يدفع بعبد الملك المرة تلو المرة يحث أباه على سرعة تنفيذ ما يرى من الحق. يقول له يوما ما يمنعك أن تنفذ لرأيك في هذا الأمر فوالله ما كنت أبالى أن تغلى بى و بك القدور في إنفاذ هذا الأمر. وفي رواية: انقد لأمر الله وإن جاشت بى و بك القدور ــ (إنَّ عبد الملك هنا يعرض على أبيه أن يكون له عونا على الحق والانقياد لأمر الله و يقدم حياته مع حياة أبيه ثمنا لذلك ــ ولكن هل الأمر يتعلق بحياته وحياة أبيه فقط؟ لو كان الأمر كذلك لما بالى عمر ولقام من وقته ينفذ ما يرى من الحق، ولكن عمر بلهجة المجرب الواعى للأمور المدرك لعواقبها) يقول: يابنى إنى أروض الناس رياضه الصعب ــ (أى البعير الشديد) فإن أبقانى الله مضيت لرأيى، وإن عجلت على منية فقد علم الله نيتى. إنّى أخاف إن بادهت الناس بالتى تقول أن يلجئونى الى السيف، ولا

رياضة الصعب

١ ــ صفة الصفوة ١٢٨ــ٢/١٢٩ الكامل لابن الا ثير ٦٥ــ٥/٦٦ باختلاف الفاظ.

لا خير في خير لا يجيء الا بالسيف

خير في خير لا يجيء إلاّ بالسيف(١). وفي رواية ــ إنى أريد أن أحيي الأمور من العدل فأؤخر ذلك حتى أخرج معه طمعا من طمع الدنيا فينفروا من هذه و يسكنوا الى هذه(٢).

وعبد الملك هذا لا يريد من أبيه أن يستريح ولو ساعة من نهار بل يريد عملا دائبا وكأنه كان يحس أنه لن تطول بأبيه المدة، وإنَّ خلافته لن تبقى كثيراً، إن هى إلاّ أيام معدودات. فليغتنم أبوه كل لحظة وكل ثانية من يومه في إحقاق الحق وإزهاق الباطل وإزالة الجور، يدخل على أبيه بعد الانتهاء من أمر سليمان ــ وقد سهر أبوه الليل ــ يحثه على رد المظالم ورد ــ قطائع عمر وآل عمر فيقول له عمر: نعم يابنى أصلى الظهر إن شاء الله ثم أصعد المنبر فأردها على رؤوس الناس ــ فيقول له عبد الملك: ياأمير المؤمنين من لك بالظهر؟ ومن لك إن بقيت أن تسلم لك نيتك؟ فقال عمر: فقد تفرق الناس للقائلة. فقال عبد الملك تأمر مناديك فينادى الصلاة جامعة ثم يجتمع الناس، فيطيع الأب ابنه و يقوم من فوره فينادى في الناس و يرد قطائع عمر وآل عمر مما رأى عمر أنه لا حق له فيه(٣).

الحافز الحثيث دائما

و يدخل على أبيه مرة وهو ينام نومة الضحى فيقول: ياأبت أتنام.. وأصحاب الحوائج راكدون ببابك؟ فيقول له عمر: يابنى إنَّ نفسى مطيتى فإن أنضيتها قطعتها ومن قطع المطى لم يبلغ الغاية(٤).

من قطع المطى لم يبلغ الغاية

ويجلس عمر للناس يوما فلما ينتصف النهار يضجر ويمل فيستأذن الناس و يدخل ليستريح ساعة، فيجيء ابنه عبد الملك هذا فيسأل عنه فيقولون إنَّه دخل ليستريح ــ فيستأذن عليه قال له ــ ياأمير المؤمنين ما

---

١ ــ الحلية ٥/٢٨١ العقد الفريد ٤/٤٣٨، ٥/٣٥٤ ابن الجوزى ٢٦٢ــ٢٦٣.

٢ ــ ابن الجوزى ٧١.

٣ ــ صفدة الصفوة ٢/١٢٩ وابن الجوزى ٢٦٢.

٤ ــ العقد الفريد ٦/٣٧٩.

أدخلك؟ قال: أردت أن أستريح ساعة. قال عبد الملك: أقد أمنت الموت أن يأتيك ورعيتك على بابك ينتظرونك وأنت محتجب عنهم؟ فيقوم عمر فيخرج الى الناس(١).

رحمك الله ياعبد الملك لقد كنت تواقا الى رد الأمور الى نصابها فكنت حاثا لأ بيك وحافزا دائما لسرعة التنفيذ، لكن الأمور كانت أقوى من أبيك، ولم يشأ الله أن يمد في عمر بن عبد العزيز ليستكمل الحق الذى يريد، ولذا وُجد من الناس من ينتقد ذلك الخليفة الراشد و يتهمه بالتهاون والخطأ في إقامة العدل، وأمامهم الظروف الواضحة التى كانت تمنع عمر من إنفاذ كل ما يريد دفعه واحدة وقد خرجت عن الطور المعهود والصراط المستقيم فلا يمكن ردها الى طريقها الواضح إلاّ رو يدا رو يدا. فكان عمر بن عبد العزيز نعم السائق للأمة ونعم الحادى للقافلة، لقد كان حريصا على الدماء أن تراق بسببه أو يقتل أحد ولو في سبيل إقامة العدل حتى لا يكون مسئولا مسئولية مباشرة عن إراقة تلك الدماء وله في ذلك سلف صدق ضحوا بأنفسهم في سبيل مبادئهم ولم يحملوا الناس ــ وهم يعلمون انحرافهم ــ بالسيف على تطبيق ما يرونه حقا أو تنفيذ ما يريدون تنفيذه.

رحمك الله ياعمر.

---

١ ــ صفة الصفوة ٢/١٢٩ وابن الجوزى ٢٦٢.

المبحث الثالث

التدرج في التشريع من سنة الله في خلقــه

«إنَّ الله ذم الخمر في القرآن مرتين وحرمها في الثالثة»

عمر بن عبد العزيز

رأينا في المبحث السابق من خلال محاورات عمر بن عبد العزيز مع ابنه عبد الملك بعض الأسباب الموجبة لعمر في سلوك الطريق الذى سلكه في الوصول الى الحق، ورأينا أنَّ عمر لم يسلك طريق مجابهة بنى أمية باستخلاص ما في أيديهم جملة خوفا من الفتنة وإراقة الدماء، لأنه رأى أن الناس قد استمرأوا الباطل واستطابوا الخبيث، ولم يفرقوا بين الحلال والحرام، وطال عليهم الزمن في هذه الحمأة فاعتادوا روائحها الكريهة واستلذوا نتنها، فليس من الخير أن يخرجوا منها دفعة واحدة الى جنة مسك وروضة أزهار وورود، فليس إلاّ أن يخرجوا رو يدا رو يدا وتقطع صلتهم بتلك الحمأة شيئا فشيئا.

من عاش في الحمأة يقتله الطيب

وقد بين عمر بن عبد العزيز ذاك في أكثر من حديث مع ابنه عبد الملك أشد الحاثين له على الإسراع بالتنفيذ. يقول عبد الملك مرة لأ بيه: يا أبت مالك لا تنفذ الأمور فوالله ما أبالى لو أن القدور غلت بى و بك في الحق. فيقول له عمر بلهجة الواثق المطمئن الى خطواته: لا تعجل يابنى فإن الله ذم الخمر في القرآن مرتين وحرمها في الثالثة، وأنا أخاف أن أحمل الحق على الناس جملة فيدفعونه جملة و يكون من ذاك فتنة(١).

اذا حمل الحق على الناس جملة دفعوه جملة

فهو يعرف طبائع الناس تمام المعرفة و يعرف أيضاً من أين يمكنه أن يؤثر فيهم و يعلم في نفس الوقت قدرته وقدرة من معه ممن يساعدونه في أمره و يعلم مقدار طاقتهم على التحمل. ولكن ذلك قد يخفى على أمثال

درس للحاكمين والمصلحين

---

١ ــ العقد الفريد ٤/٤٣٨.

عبد الملك فلا يمل من حث أبيه على سرعة التنفيذ فيوقفه أبوه أخيرا على رأيه في الوصول الى الحق بحجة فيها مقنع له وفيها توجيه لكل من نصب نفسه لإصلاح البشر يقول عمر: يابنى إن نفسى مطيتى إن لم أرفق بها لم تبلِّغنى، إنى لو أتعبت نفسى وأعوانى لم يك ذلك إلاّ قليلا حتى أسقط و يسقطوا. وإنى أحتسب في نومتى من الأجر مثل الذى أحتسب في يقظتى وإنَّ الله جل ثناؤه لو أراد أن ينزل القرآن جملة واحدة لأنزله، ولكنه أنزل الآية والآيتين حتى استمكن الإيمان في قلوبهم. ثم قال يابنى: ما مما أنا فيه أمر هو أهم إلي من أهل بيتك هم أهل العدة والعدد وقبلهم ما قبلهم فلو جمعت ذلك في يوم واحد خشيت انتشاره عليَّ، ولكنى أنصف الرجل والرجلين فيبلغ ذلك من وراءه فيكون أنجح له، فإن يرد الله إتمام هذا الأمر أتمه وإن تكن الأخرى فحسب عبد أن يعلم الله أنه يحب أن ينصف جميع رعيته(١).

لم يخطىء عمر

وهكذا نتبين بوضوح لا يشوبه غبش أو غموض أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله لم يخطىء في الطريقة التى سار عليها لإقامة منار العدل وطمس ظلام الباطل، ولم يكن جبانا حينما تأنى في أخذ الناس و بنى أمية وإقامتهم على المحجة المستقيمة، و بالتالي لم يكن مرتجلا لخطاه، وإنّما كان يعرف أين يضع قدمه على الطريق.

كان قد رأى أن الناس قد ولدوا في الظلم فظنوه عدلا، ونشأوا في الجور فظنوه حقا، وفتحوا أعينهم على الرذيلة فظنوها فضيلة، كمن يعيش في الظلام فلما غمره الضياء تحير بصره فلم ير شيئا. وتغيير عادات الناس المكتسبة أمر صعب جملة ولكنه على التدرج يسير.

---

١ ــ ابن الجوزى ١٠٦.

وقد ذكر عمر ذلك في تلك النصوص التى سقتها، وقد سبق القرآن الكريم الى ذلك كما ذكره عمر بن عبد العزيز وغيره فقد ذم الله الخمر في القرآن مرتين وحرمها في الثالثة، ورب العزة جل ثناؤه خلق الخلق وهو أعلم بهم و بأنفسهم وبمقدار تمسكهم بما نشأوا فيه ودرجوا عليه، ولو كان باطلا. فلابد من أخذهم باللين والحيلة كالجمل الصعب حتى يذل و يلين و ينقاد على الطريق الواضح المستقيم.

الأمراء وعصبتهم

وأمراء بنى أمية بالذات والمروانيون على وجه الخصوص لم يكن عمر مستطيعا أن يأخذ الحق منهم جملة لأسباب عديدة، منها أن كل أمير من هؤلاء حوله عصبة قوية من أتباعه أغدق عليهم الأموال وقادهم بجاهه وسلطانه وماله وبما أعطاهم الخلفاء السابقون من تسلط على الناس، حتى أصبح الناس شيعا وأحزابا. لهؤلاء الأمراء، وحتى تقسمت الأمة بينهم فخشى عمر ــ وكانت خشيته حقا ــ أن يستعين أولئك الأمراء للدفاع عن باطلهم بأتباعهم وغيرهم ممن رتعوا في الباطل واستمرأوا الجور والعدوان ومن تبعهم من المخدوعين ممن يريد عمر أن يأخذ هذا الحق لهم، فتكون فتنة تراق فيها الدماء. ولم يكن عمر يخشى أن يصلوا إليه و يغلبوا عليه، ولكنه كان يخشى الفتنة و يكره سفك دماء المسلمين مهما كان السبب، ولهذا لم يحارب الخوارج إلاّ حينما سفكوا الدم الحرام، وإنّما حاول إقناعهم بالحسنى وقد كان. أما بنو أمية فقد أراد ملاينتهم حتى يستخرج منهم المظالم واحدا واحدا ولا يترك لهم مجالا للتجمع والتكتل والثورة. وقد كان في إمكان بنى أمية عموما و بنى مروان خصوصا أن يقوموا على عمر بثورة عارمة فيزيلوه عن مكانه و يضعوا مكانه من يسير فيهم بسيرة من قبل عمر لأنهم هم عصبة الخلافة ولابد للملك من العصبية كما يقول ابن خلدون(١).

عصبة الخلافة

---

١ ــ المقدمه ١١١.

ولم يكن عمر معدا نفسه ليتولى زمام الأمة و ينفذ ما يريد من إصلاحات، وإلا فكان يمكنه أن يعد للأمر عدته و يتخذ عصبية سواهم، وأما وقد جاءته الخلافة على غير انتظار منه لها وعلى غير أهبة فلا يمكنه بحال أن يستغنى عن عصبية الدولة أو يقضى عليهم بين عشية وضحاها، وهم أقوى منه قوة وأكثر عددا، وقد يقول قائل: وكيف لا يمكنه الاستغناء عنهم وعنده الجنود المجندة والجيوش الجرارة التى تحارب في المشرق والمغرب فقد كان يمكن أن يستعين ببعضها في تنفيذ ما يريد؟.

نقول لهذا من وجهة نظرية يمكن ذلك ولكن من وجهة عملية لمن يعرف حقائق الأمور وتكوين الجيوش في ذلك العهد وتغلب النزعات القبلية عليها نقول لا يمكن ذلك وخاصة أن عمر بن عبد العزيز لا يريد إراقة دم مسلم بحال ولو كلفه ذلك حياته هو وقد كان.

فقد كان عمر تبعا لهذه الظروف والوقائع يلين مع بنى أمية كمجموع و يشتد معهم كأفراد ولو وصلت الشدة الى التهديد بالقتل والذبح والبيع كما فعل مع ابنى الوليد عمر وروح.

تلك كانت طريقة ناجحة لو امتد الزمن بعمر ولكن الله عز وجل أراد غير ذلك فلله الأمر من قبل ومن بعد، و يكفى عمر بن عبد العزيز فخرا أنه رغم كل ما لاقاه وجابهه استطاع في فترة خلافته القصيرة أن يعيد لبيت المال مكانته وأن يجعل الأمة تعيش في بحبوحة من العيش والغنى والرفاهية تحت مظلة العدالة الشاملة والحق المنشور.

رحمه الله.

المبحث الرابع

مـع العمـال

دستور العامل

«فلتجف يداك من دماء المسلمين، و بطنك من أموالهم ولسانك عن أعراضهم فإذا فعلت ذلك فليس عليك سبيل»(١)

عمر بن عبد العزيز

لم يكن عمر بن عبد العزيز يعين العمال على سبيل الإيثار لقبيلة دون قبيلة، بل لأنهم رجال أكفاء أمناء، ولم يكن عمر بن عبد العزيز يكتفى باختيار رجال يظهرون أنهم على شاكلته ثم يتركهم بعد ذلك يفعلون ما يشاءون، ما داموا يحملون إليه ما يلزم أن يحملوه من أموال، بل كان يشعر أنه هو نفسه المسئول عما يجرى في جميع البلاد «ولم يكن همه الزيادة في قوة الدولة بل إقامة الحق والعدل فيها»(٢) وإقامة الحق والعدل هو في الواقع قوة للدولة وتماسك بينها و بين أفراد الأمة.

الحاكم سوق

كان عمر بن عبد العزيز يعلم تماما أنه بدون الأعوان على الخير لا يستطيع أن ينفذ شيئا مما يريد تنفيذه، و بدون عمال و ولاة وقادة نصحة للأمة لا يمكن أن يصل الحق الى أربابه، وقد اشتكى ذلك الى ميمون بن مهران(٣)، قائلا: يا ميمون كيف لى بأعوان على هذا الأمر أثق بهم وآمنهم؟ فقال له ميمون: ياأمير المؤمنين لا تشغل قلبك بهذا فإنك سوق وإنّما يحمل الى كل سوق ما ينفق فيها، فإذا عرف الناس أنه لا ينفق عندك إلاّ الصحيح لم يأتوك الا بالصحيح(٤).

---

١ ــ الحلية ٥/٣٠٧ ابن الجوزى ٩٤.

٢ ــ الدولة العربية ٢٦٢.

٣ ــ ميمون بن مهران مولى بنى نصر من اهل الرقة من العباد الزهاد عن صفوة الصفوة ٤/١٩٣.

٤ ــ الطبقات ٥/٢٩٢ وابن الجوزى ٦٧١

ولكن قد يتزيا المخادع بلباس التقى الورع، وقد يظهر المنافق الإيمان، فأنّى لعمر أن يفرق بين الزائف والصحيح؟ لم يكن عمر غرا ولم يكن خبا ــ أى مخادعا ــ ولا يخدعه الخب، كان على دراية بالرجال و يعرف كيف يختبرهم و يعرف المقاييس التى يقيسهم بها والموازين التى يزنهم بها.

لم يكن عمر غِرّا ولا خَبّا

لما افضت الخلافة الى عمر بن عبد العزيز جاءه خالد بن الريان فقام مقام صاحب الحرس ــ وكان قبل ذلك على حرس الوليد وسليمان ــ ابنى عبد الملك ــ فنظر اليه عمر فقال: ياخالد ضع هذا السيف عنك وقال: اللهم إنى قد وضعت لك خالد بن الريان فلا ترفعه ابدا.

مع خالد بن الريان

ثم نظر في وجوه الحرس فدعا عمرو بن مهاجر الانصاري فقال: ياعمرو والله لتعلمن أن ما بينى و بينك قرابة إلا قرابة الإسلام، ولكن قد سمعتك تكثر تلاوة القرآن ورأيتك تصلى في موضع تظن أن لا يراك فيه أحد، فرأيتك تحسن الصلاة وأنت رجل من الانصار. خذ هذا السيف فقد وليتك حرسى(١).

ميزان الاختيار عند عمر

إذاً فعمر يزن الرجال الذين يريد أن يوليهم عملا له بميزان الإسلام الصحيح السليم، تقوى وورع، تلاوة القرآن، وصلاة في الخفاء مع إحسان، لأن من أصلح ما بينه و بين الله جدير أن يصلح ما بينه و بين عباد الله وجدير أيضاً أن لا يعمل عملا يغضب الله.

الرجحان بالايمان

وعمرو بن مهاجر هذا هو الذى قال له عمر ــ وقد فوض إليه أمر رده ــ أى عمر بن عبد العزيز ــ الى جادة الصواب إذا رآه قد زاغ أو انحرف أو مال عن الطريق المستقيم الذى رسمه لنفسه حيث قال له «اذا رأيتنى قد ملت عن الحق فضع يدك في تلبابى ثم هزنى ثم قل: ياعمر ماذا تصنع»(٢).

رقيب على الخليفة

---

١ ــ الحلية ٥/٢٨٠.

٢ ــ الحلية ٥/٢٩٢.

يـاالله يـاعمر بن عبد العزيز لقد رسمت للحكام طريقا واضحا للثبات على الحق والوصول بالأمة الى غاية العدالة. انظروا ياأرباب السلطان واعتبروا ياأولى الابصار، خليفة يملك الارض يقول لرئيس حرسه: إذا رأيتنى ملت عن الحق ــ (فهل قال له نبهنى أو ألفت نظرى أو اغمزنى؟ لا بل قال له) ضع يدك في تلبابى ــ (وليس هذا فحسب بل) ــ ثم هزنى. (حركنى بعنف لأستيقظ فأعود الى طريق الحق الذى ملت عنه. ثم ماذا؟ هل قال ثم ارجونى أن أعود أو استعطفنى لأ رجع؟ كلا بل قل: قل ماذا؟ هل قال له قل ياسيدي أو يامولاى أو ياصاحب الجلالة أو الفخامة أو السيادة؟ كلا وألف كلا فلا يستعمل هذه الألفاظ إلا من يحسون في حقيقة أمرهم الحاجة الى معانيها بل قل). ياعمر ماذا تصنع؟ ــ (نادنى باسمى مجردا حتى عن لقب أمير المؤمنين. هكذا كان عمر يقيم على نفسه رقيبا من عماله الذين اختارهم ووثق بهم ليساعدوه على الوصول الى الحق الذى يريد(١).

عمر لا تخدعه الظواهر

ويحاول بعض ضعاف النفوس من طلاب الإمرة وعبيد المنفعة أن يخدعوا عمر بمظاهر الصلاح والتقوى، ولكنه لا تنطلى عليه حيلهم ولا يخدع بظواهرهم، فيكشف زيفيهم و يبعدهم عنه و يقصيهم و يعلن نفاقهم للأمة، فهذا بلال بن أبى بردة ابن أبى موسى الاشعرى وأخوه عبد الله يخرجان الى عمر بن عبد العزيز ــ (وكان بلال صاحب نهمة الى السلطة والجاه ليستفيد من وراء ذلك مالا وغنما) ــ فيختصمان لديه في الأذان في مسجدهم ــ (أى يريد كل منهم ان يؤذن لينال ثواب الأذان). فارتاب عمر بهما فدس اليهما رجلا يقول لهما: أرأيتما إن كلمت أمير المؤمنين فولاكما العراق ما تجعلان لى؟ فبدأ الرجل ببلال

---

١ ــ أنظر مبحث مع النفس. من هذه الرسالة ص ١٢٥

فقال له ذلك فقال: أعطيك مائة ألف، ثم أتى أخاه فقال له مثل ذلك. فأخبر الرجل عمر فقال لهما: الحقا بمصركما وكتب الى عبد الحميد بن عبد الرحمن ــ وكان عامله على الكوفة ــ لا تول بلالا بلال الشر ولا أحداً من ولد أبى موسى شيئا(١). فلم يكن عمر جاهلا بمعرفة الرجال إذ كانت له نظرة فاحصة يعرف بها الصالح من الطالح والصادق من الكاذب.

نصيحة للعمال عامة

وقد أراد عمر من عماله أن يسيروا بسيرته و ينفذوا كل أمر يصدر إليهم و يردوا الحقوق إلى اربابها، فكان أول كتاب عممه إلى العمال: أما بعد فما بقاء الإنسان بعد وسوسة الشيطان، وجور السلطان؟ فإذا أتاك كتابى هذا فأعط كل ذى حق حقه، والسلام(٢).

وكتب الى بعض عماله مبينا حدود العدل الذى يريد: إن قدرت أن تكون في العدل والإحسان والإصلاح كقدر من كان قبلك في الجور والعدوان والظلم فافعل ولا حول ولا قوة إلاّ بالله(٣).

وفي هذا يقول صاحب الإسلام والحضارة العربية: ولما بويع عمر شرع لأول أمره يصرف عمال من كان قبله من بنى أمية واستعمل أصلح من قدر عليه فسلك عماله طريقته(٤).

رقابة على العمال

وقد كانت رسائل عمر للعمال لا تنقطع يوصيهم ويحذرهم و يأمرهم وكان يرسل عليهم العيون يأتونه بأخبارهم فما وجد من خير منهم حمد الله وإذا وجد عاملا مال الى الشدة أو القسوة عزله و ولى غيره.

---

١ ــ الطبقات ٥/٢٩٢ ابن الجوزى ٩٣ باختلاف.
٢ ــ الطبقات ٥/٢٧١.
٣ ــ الطبقات ٥/٢٨٣.
٤ ــ الاسلام والحضارة ١٧٤.

يكتب إليه ميمون بن مهران ــ وكان قد ولاه قضاء وخراج الجزيرة يشكو إليه شدة الحكم والجباية فيجيبه عمر: كتبت ياميمون تذكر شدة الحكم والجباية وفي رواية الجبلة ــ وإنى لم أكلفك من ذلك ما يعنتك، آجب الطيب من الحق وآقض بما استنار لك من الحق، فإذا التبس عليك أمر فارفعه إليَّ، فلو أن الناس إذا ثقل عليهم أمر تركوه ما قام دين ولا دنيا(١).

و يكتب إليه بعض عماله: أما بعد فإن مدينتنا قد خربت فإن رأى أمير المؤمنين أن يقطع لها مالا يرمها به فعل. فيكتب إليه عمر: أما بعد فقد فهمت كتابك وما ذكرت أن مدينتكم قد خربت، فإذا قرأت كتابى هذا فحصنها بالعدل ونق طرقها من الظلم فإنه مرمتها(٢).

العدل حصن

نعم فالظلم هو المدمر المخرب والعدل هو البانى المحصن، فكم من مدينة خربها الظلم ودمرها الجور مهما كانت حصونها عالية شامخة، وكم من مدينة عمرها العدل فنقاها وآمنها وإن كانت بدون أسوار.

و يكتب الى عبد الحميد صاحب الكوفة. بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى عبد الحميد بن عبد الرحمن سلام عليك فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو أما بعد: فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة وجور في أحكام وسنن خبيثة سنها عليهم عمال السوء ــ وإن قوام الدين العدل والإحسان فلا يكونن شيء أهم إليك من نفسك أن توطنها لطاعة الله، فإنه لا قليل من الإثم وآمرك أن تطرز أرضهم ولا تحمل خرابا على عامر أوعامراً على خراب وإنى وليتك من ذلك ما ولانى الله(٣).

الى والى الكوفة

---

١ ــ الطبقات ٥/٢٨٠ والخراج لابى يوسف ١١٤ وابن الجوزى ٩٩.
٢ ــ الحلية ٥/٣٠٥ وابن الجوزى ٩٠.
٣ ــ الحلية ٥/٢٨٦ وابن الجوزى ٩٤ جزء منه.

مع حميد ابن سلمة

وكان عمر في رسائله الى عماله مؤدبا ومعلما، مرشدا وموجها، يكتب الى حميد بن سلمة: أما بعد فأصلح الذى بينك و بين الله واعلم أنّى قد أشركتك في أمانة عظيمة. فإن ضيعت حقا من حقوق الله كنت أهون خلقه عليه ثم لا يغنى عنك عمر من الله شيئا(١).

لا يجوز للعامل ان يجلس في بيته و يدع الناس

بل إنّ عمر يبلغ بعنايته ورعايته فوق ذلك و يعلو الى أفق بعيد لم يأت بعد من يدركه، يكتب الى أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ــ واليه على المدينة ــ وإياك والجلوس في بيتك ــ اخرج للناس فآسِ بينهم في المجلس والنظر ولا يكن أحد من الناس آثر عندك من أحد ــ ولا تقولن هؤلاء من أهل بيت أمير المؤمنين، فإن أهل بيت أمير المؤمنين وغيرهم عندى اليوم سواء. بل أنا أحرى أن أظن بأهل بيت أمير المؤمنين أنهم يقهرون من نازعهم، وإذا أشكل عليك شيء فاكتب الي فيه(٢).

الناس امام الحق سواء

وكانت كتب عمر الى العمال تحثهم على العمل الدائب ليلا ونهارا فهذا أبو بكر بن حزم والى المدينة يقول عنه أحد معاصريه: رأيت أبا بكر ابن محمد بن عمرو بن حزم يعمل بالليل كعمله بالنهار لاستحثاث عمر إياه(٣). فكأن عمر كان يعلم أنَّ مدته قصيرة وأنَّ الأجل قريب فلذلك يستحث عماله على العمل ليلا ونهارا خاصة عمال المدن التى أصابها الظلم الفادح والجور الشامل كالمدينة والكوفة.

عمل دائب ليلا ونهارا

لا يولى عامل جائر

و يأبى عمر أن يولى عاملا عرف بالجور أو كان مولًى من قبل للحجاج أو غيره من ولاة الجور والظلمة، وإذا ولى إنسانا ثم علم أنه قد عمل للحجاج عزله مهما كانت كفاءته، وقد استعمل عاملا ثم علم أنه عمل

١ــ الطبقات ٥/٢٩٠.

٢ ــ الطبقات ٥/٢٥٢.

٣ ــ الطبقات ٥/٢٥٦.

لا قليل من الشر

للحجاج فعزله فأتاه يعتذر اليه فقال: لم أعمل إلاَّ قليلا، فقال: حسبك من صحبة شر يوم أو بعض يوم(١).

و يرسل الى عامله على اليمن عروة بن محمد: أن انظر من قبلك من بنى فلان فأقصهم عنك ولا تشركهم في شيء من عملك فإنهم بئس أهل بيت كانوا(٢).(ولعل المقصود ببنى فلان هنا بيت محمد بن يوسف أو آل أبى عقيل عموما قوم الحجاج).

مع عامل مكة

ولم يكن يترك عماله ــ كما رأينا ــ بل هو يواليهم بكتبه ومراقبته وتأديبه حتى يسيروا بسيرته وحتى يكونوا قدوة وأسوة للناس جميعا، فهم أول من يأخذ الحق منهم. يستعمل عروة بن عياض بن عدى(٣) على مكة ــ و يذهب عمر الى مكة حاجا ثم يخرج من مكة ليعود الى الشام فيخرج معه من خرج يشيعه حتى نزل بمر(٤) ومعه عروة فجاء رجل فقال: أصلح الله أمير المؤمنين ظلمت ولا أستطيع أن أتكلم فقال عمر ــ وكان ألمعيا ــ ويحه أخذت عليه يمين. ثم قال: إن كنت صادقا فتكلم. فقال: أصلحك الله هذا ــ وأشار الى عروة ــ سامنى بمال لى وأعطانى به ستة آلاف درهم فأبيت أن أبيعه، فاستعداه عليَّ غريم لى فحبسنى فلم يخرجنى حتى بعته مالى بثلاثة آلاف درهم واستحلفنى بالطلاق إن خاصمته أبداً ــ (إذاً هى بيعة مكره ويمين مكره أيضاً). فنظر عمر الى عروة ثم نكت بالخيزران بين عينيه في سجدته وقال: هذه غرتنى منك، ثم قال للرجل: اذهب فقد رددت عليك مالك ولا حنث عليك(٥).

---

١ ــ الحلية ٥/٢٨٩ وابن الجوزى ٨٩.

٢ ــ الحلية ٥/٣٠٤ وابن عبد الحكم ١٠٥ وابن الجوزى ٩٨ وقد صرح بأنهم آل ابى عقيل ص٩٠.

٣ ــ في تاريخ خليفة بن خياط ١/٤٦٤ ان والى مكة لعمر هو عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد وليس من ولاة عمر من اسمه عروة بن عياض بن عدى ولم يثبت ايضا ان عمر بن عبد العزيز حج اثناء خلافته.

٤ ــ مر ــ مر الظهران على مرحلة من مكة القاموس ٢/١٣٣.

٥ ــ ابن عبد الحكم ١١٤.

عين على ولاة العراق

ولا ينسى عمر أبدا أن يرسل من يأتيه بأخبار عماله و ولا ته فمن علم عنه خيرا أبقاه ومن علم عنه غير ذلك أقصاه، هذا رباح بن عبيدة(١) يقول: كنت مع عمر بن عبد العزيز فقلت له: إنَّ لى بالعراق ضيعة و ولدا فأذن لى يا أمير المؤمنين أتعهدهم، قال: ليس على ولدك بأس، ولا على ضيعتك ضيعة. فلم أزل به حتى أذن لى. فلما كان يوم ودعته قلت: ياأمير المؤمنين حاجتك أوصنى بها. قال حاجتى أن تسأل عن أهل العراق وكيف سيرة الولاة فيهم ورضاهم عنهم. فلما قدمت العراق سألت الرعية عنهم فأخبرت بكل خير عنهم، فلما قدمت عليه سلمت عليه وأخبرته بحسن سيرتهم في العراق وثناء الناس عليهم فقال: الحمد لله على ذلك لو أخبرتنى عنهم بغير هذا عزلتهم ولم أستعن بهم بعدها أبداً ــ إنَّ الراعى مسئول عن رعيته فلابد له من أن يتعهد رعيته بكل ما ينفعهم الله به و يقر به إليه فإن من ابتلى بالرعية فقد ابتلى بأمر عظيم(٢).

الراعى مسئول

النهى عن المثلة والتعذيب

ولا يمل عمر بن عبد العزيز تأديب ولا ته وعماله وإرشادهم لخير السبل، فهو يكتب الى عماله ينهى عن المثلة والتعذيب فيقول إياى والمثلة جر الرأس واللحية(٣) ــ (قد يكون المراد جز بالزاى).

لا قطع ولا صلب

وكان قد نهى عن القتل والقطع إلا بعد إذنه. فكف أيدى الولاة والعمال عن القتل والقطع فكف عن الناس أذاهم ورفع ذلك السيف عن رقاب البشر، فأمن الناس على دمائهم أن تراق إلاّ بحقها وعلى أعضائهم أن تقطع إلاّ بموجب، فكان مما كتب لعبد الحميد والى الكوفة وغيره «ولا تعجل دونى بقطع ولا صلب حتى تراجعنى فيه(٤).

---

١ ــ رباح بن عبيدة أو رياح بن عبيدة البصرى.
٢ ــ الخراج لابى يوسف ١١٩.
٣ ــ الطبقات ٥/٢٨٠.
٤ ــ الاموال لابى عبيد ٦٤ــ٦٥.

لا تعذيب مهما كانت الاسباب

وكان كثير من العمال قد رأوا من قبلهم يستعملون الشدة مع الناس في استيفاء الاموال وإخراج الحقوق وإقامة العدل واستتباب الأمن فكانوا كثيرا ما يستأذنون عمر في استعمال الشدة وخاصة مع العمال السابقين لاستخراج ما عندهم من أموال مستلبة كما جرت العادة بذلك. فيكون الجواب حاسما حازما: لا لأن يلقوا الله بخيانتهم أحب إليَّ من أن ألقاه بدمائهم(١). بل يصل الأمر بعمر الى عزل الوالى المتهم بالظلم والانحراف مهما كانت مكانته إذا تبين صدق الدعوى ــ فهذا الجراح بن عبد الله الحكمي واليه على خراسان يكتب اليه فيقول: إنى قدمت خراسان فوجدت قوما قد أبطرتهم الفتنة فأحب الأمور إليهم أن يعودوا ليمنعوا حق الله عليهم فليس يكفيهم إلا السيف والسوط، فكرهت الإقدام على ذلك إلا بإذنك. فكان كتاب عمر اليه كالسيف صارما: ياابن أم الجراح أنت أحرص على الفتنة منهم ــ لا تضر بن مؤمنا ولا معاهدا سوطا إلا في الحق واحذر القصاص، فإنَّك صائر الى من يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، وتقرأ كتابا «**لاَ يُغَادِرُ صَغِيرةً وَلاَ كَبِيرَةً إلاَّ أحصَاهَا**»(٢) ثم عزله(٣).

أسباب العزل

وكان من سبب عزله ما ظهر من محاولته اتباع طريقة الحجاج في الظلم وأخذ الجزية من المسلمين وتفريقه بين العرب والموالى في العطاء. إذ أرسل الجراح الى عمر وفدا رجلين من العرب ورجلا من الموالى يكنى أبا الصيد ــ وفي رواية ابا الصيداء فتكلم العربيان والمولى ساكت فقال له عمر: ما أنت من الوفد؟ قال: بلى. قال: ما يمنعك عن الكلام، فقال: ياأمير المؤمنين عشرون ألفا من الموالى يغزون بلا عطاء ولا رزق ومثلهم قد أسلموا من الذمة يؤخذون بالخراج ــ (أى جزية الرؤوس) ــ فأميرنا

---

١ ــ الطبقات ٥/٢٧٧.
٢ ــ الكهف ٤٩.
٣ ــ ابن الاثير في الكامل ٥/٥٢.

عصبى جاف يقوم على منبرنا فيقول: أتيتكم حفيا وأنا اليوم عصبى، والله لرجل من قومى أحب إليَّ من مائة من غيرهم. وهو بعد سيف من سيوف الحجاج وقد عمل بالظلم والعدوان. فيقول عمر: إذن بمثلك يوفد، و يكتب عمر الى الجراح: انظر من صلى قبلك الى القبلة فضع عنه الجزية. فسارع الناس الى الإسلام. فقيل للجراح: إنَّ الناس قد سارعوا إلى الإسلام نفوراً من الجزية فامتحنهم بالختان فكتب الجراح بذلك الى عمر، فكتب إليه عمر: إنَّ الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم داعيا ولم يبعثه خاتنا، وقال: ايتونى رجلا صدوقا أسأله عن خراسان، فقيل له عليك بأبى مجلز(١). فكتب الى الجراح أن أقبل واحمل أبا مجلز وخلف على حرب خراسان عبد الرحمن بن نعيم العامرى(٢).

المحافظة على الصلاة

وكان يريد من عماله أن يكونوا على جانب من التقوى والورع والمحافظة على الفرائض، لأنَّ العامل إذا كان مصلحا لما بينه و بين الله كان جديرا بأن يصلح ما بينه و بين الناس. فقد كتب الى عماله جميعا: اجتنبوا الاشتغال عند حضرة الصلاة فمن أضاعها فهو لما سواها من شعائر الإسلام أشد تضييعا(٣).

نعم من أضاع الصلاة فهو لما سواها أشد تضييعا، فكيف لو عاش عمر الى اليوم ورأى أكثر الرؤساء والحكام والعظماء يتركون الصلاة بالكلية بل يعتبرون أداءها مظهرا من مظاهر التأخر والرجعية. قاتلهم الله.

و يكتب الى عماله دستورا في المسئولية إذ يقول مخاطبا عماله «أما بعد فلتجف يداك من دماء المسلمين، و بطنك من أموالهم ولسانك عن

١ــ ابو مجلز ــ لاحق بن حميد السدوسي وكان ثقة وله احاديث توفى في خلافة عمر بن عبد العزيز الطبقات ٧/١٠٢.

٢ ــ الكامل لابن الا ثير ٥/٥١ وعند خليفة بن خياط الغامدي ٤٦٣.

٣ ــ الحلية ٥/٣١٦ ابن عبد الحكم ٦٧ ابن الجوزى ١٠٢.

أعراضهم، فإذا فعلت ذلك فليس عليك سبيل، «**إنّما السبيل على الذين يظلمون الناس**»(١)الآية(٢). نعم ليس للعامل أن يريق دماء الرعية ولا أن يسلب أموالهم و يأكل مالا حراما ولا يطيل عليهم لسانه بالشتم والسب، فإن دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم حرام، وما وجد العامل إلاّ ليقيم العدل لا لينشر الظلم، و ينشر الأمن لا ليظل الناس بالخوف، و يصلح بين الناس لا ليفسد، فمن فعل ذلك فهوظالم وما لم يفعل فليس عليه سبيل.

تحديد العقوبة كيفا وكما

بل هو يرسم الطريق لعماله في العقوبة و يطلب منهم أن يتجنبوا العقوبة في الغضب أو لنظرة الناس، وألاّ يعاقب أحداً عقوبة تزيد عن الذنب يقول: لا تعاقب رجلا لمكان جلسائه ولا لغضب عليه ولا تؤدب أحداً من أهل بيتك إلا على قدر ذنبه وإن لم تبلغ إلاّ سوطا واحدا(٣).

تأديب بالغ الروعة، لم ينظر عمر للعامة فقط بل نظر الى أهل بيت الوالى والعامل والأمير، لأن من عدل في أهل بيته فهو جدير بالعدل في غيرهم، ومن كان رحيما بأهله كان رحيما بالناس، بل هو يرسم للقواد صفة الدابة التى يجب أن يركبوها إذا انطلقوا بجنودهم للقتال يقول: لا تركب دابة إلاّ دابة يضبط سيرها أضعف دابة في الجيش(٣).

نعم ليس للقائد أن يركب أفره دابة في الجيش ليسبق جنده ويختال عليهم و يشق عليهم سيره و يتعبهم في ملاحقته، بل عليه أن يركب الدابة الضعيفة حتى لا يرهق الجند ولا يتعب دوابهم في السير وراءه.

---

١ ــ الاية ٤٢ من سورة الشورى.

٢ ــ الحلية ٥/٣٠٧ ابن الجوزى ٩٤.

٣ ــ الحلية ٥/٣٠٤ الطبقات ٥/٢٧٧ ابن الجوزى ٩٧ باختلاف.

فليتحمل كل عامل مسئوليته

وهو الى جانب ذلك يريد من العمال أن يتعودوا تحمل مسئولياتهم بانفسهم ولا يُعَنُّوا إليه الرسل في كل صغيرة وكبيرة. يقول أبو الزناد(١) كاتبه ــ (الاصح كاتب عبد الحميد بن عبد الرحمن واليه على الكوفة) ــ إن عمر بن عبد العزيز يكتب لعامله على المدينة عبد الحميد ــ (بل الاصح عاملهُ على الكوفة) ــ في المظالم فيراجعه فيها فيكتب إليه: أنه يخيل إليَّ أنى لو كتبت إليك أن تعطى رجلا شاة لكتبت إليَّ أضأناً أم معزا؟ ولو كتبت إليك بأحدهما لكتبت إليَّ أذكرا أم أنثى؟ ولو كتبت إليك بأحدهما لكتبت أصغيراً أم كبيراً؟ فإذا كتبت إليك في مظلمة فنفذ أمرى ولا تراجعنى فيها(٢).

وليسأل من عنده من العلماء

وكان عدى بن أرطأة عامله على البصرة فكان يكثر الإرسال الى عمر يسأله عن السُنَّة فكتب إليه: أما بعد فإنك لن تزال تُعنِّى إلي رجلا من المسلمين في الحر والبرد تسألنى عن السنة، كأنك إنما تعظمنى بذلك. وايم الله لحسبك بالحسن(٣)، فإذا أتاك كتابى هذا فسل الحسن لى ولك وللمسلمين، فرحم الله الحسن فأنه من الإسلام بمنزل ومكان، ولا تقرينه كتابى هذا(٤).

تفويض أمر العمال للأمة

وقد بلغ عمر الغاية في محاسبة عماله وإقامتهم على المحجة حينما وكل أمرهم الى الأمة لتقوّم من عوجهم إذا اعوجوا. فهو يرسل منشورا عاما يقرأ عنه في موسم الحج ليعلم به كل سكان الأرض الإسلامية من أقصى المشرق الى أقصى المغرب يقول: أما بعد فإنّى أشهد الله وأبرأ اليه في الشهر

---

١ ــ ابو الزناد هوعبد الله بن ذكوان كان كاتبا لعامل عمر بن عبد العزيز على الكوفة الجهشيارى ١/٢٠.

٢ ــ العقد الفريد ٣/٩ الطبقات ٥/٢٨١ الى عروة بن محمد عامل اليمن. وابن الجوزى ٩٧.

٣ ــ الحسن البصرى بن يسار كان جامعا عالما عاليا رفيعا فقيها ثقة مأمونا عابدا ناسكا كبير العلم فصيحا جميلا وسيما مات سنة ١١٠هـ.

٤ ــ الحلية ٥/٣٠٧ ابن الجوزى ١٠١.

الحرام والبلد الحرام و يوم الحج الاكبر أنى برىء من ظلم من ظلمكم وعدوان من اعتدى عليكم أن أكون أمرت بذلك أو رضيته أو تعمدته إلاّ أن يكون وهما منى أو أمرا خفى على لم أتعمده، وأرجو أن يكون ذلك موضوعا عنى مغفورا لى إذا علم منى الحرص والاجتهاد. ألا وأنه لا إذن على مظلوم دونى، وأنا معول كل مظلوم، ألا وأي عامل من عمالى رغب عن الحق ولم يعمل بالكتاب والسنة فلا طاعة له عليكم، وقد صيرت أمره إليكم حتى يراجع الحق وهو ذميم(١).

لا طاعة لمن لا يعمل بالكتاب والسنة

هذا بعد خطابه الجامع الذى يقول فيه «ألا وإنّى قد استعملت عليكم رجالا لا أقول هم خياركم ولكنهم خير ممن هو شر منهم، فمن ظلمه عامله بمظلمة فلا إذن له على(٢).

و يزيد عمر الأمر رفعة وسموا حينما يقول: ألا وأيما وارد ورد في أمر يصلح الله به خاصا أو عاما من هذا الدين فله ما بين مائتى دينار الى ثلاثمائة دينار على قدر ما نوى من الحسنة ـــ وفي رواية الحسبة ـــ وتجشم من المشقة، رحم الله امرءا لم يتعاظمه سفر يحيى به الله حقا لمن وراءه، ولولا أن أشغلكم عن مناسككم لرسمت لكم أمورا من الحق أحياها الله لكم وأمورا من الباطل أماتها الله عنكم وكان الله هو المتوحد بذلك، فلا تحمدوا غيره فانه لو وكلنى الى نفسى كنت كغيرى والسلام عليكم(١).

جوائز ثمينة لمن يدل على الحق

وهكذا كف أيدى العمال عن الظلم فعليهم أن يستقيموا و يعملوا بالكتاب والسنة وإلاّ كانت الأمة هي التى تحاسبهم فهم عمال عند الأمة وليسوا سيوفا مسلطة على رقاب العباد.

---

١ ـ الحلية ٥/٢٩٣ ابن الجوزى ٧٢.

٢ ـ الطبقات ٥/٢٥٣ ابن الجوزى ٧٢.

و يعلم عمر بن عبد العزيز أن هناك من الولاة من يستغلون مناصبهم في جلب المنافع لهم عن طريق التجارة والبيع والشراء، فيثرون على حساب الأمة وقد يهملون واجباتهم المفروضة عليهم في سبيل تجارتهم، وقد يظلمون الناس بسبب ذلك، فأصدر منشورا عاما منع فيه العمال من التجارة قال: ونرى أنّه لا يتجر إمام ولا يحل لعامل تجارة في سلطانه الذى هو عليه فإن الأمير متى يتجر يستأثر و يصب أمورا فيها عنت وإن حرص على أن لا يفعل(١).

لا تجارة لعامل

رحمك الله ياعمر، وكأنه كان يستشف الغيب و يعلم ما تجره تجارة العامل والدولة من ضرر على الرعية، و يأتى بعد ذلك بخمسة قرون ابن خلدون ليعلن في مقدمة تاريخه العظيم «إنَّ التجارة من السلطان مضرة بالرعايا(٢). ومن ينظر في أحوال المستعمرين وما عملوا في البلاد التى استعمروها يعلم يقينا صدق هذه النظرة وموافقتها للواقع.

ولكن عمر بن عبد العزيز ببصيرته النافذة يعلم أن هؤلاء العمال إذا غُلَّت أيديهم عن التجارة ومنعوا الهدايا والرشاوى وكان ما يتقاضونه ضئيلا امتدت أيديهم إلى السرقة وظلم الناس، فتلافيا لذلك أفاض عليهم من بيت مال المسلمين وأعطاهم الرواتب الضخمة ليغنيهم عن الخيانة مع أنّه هو نفسه ــ كما يقول الرواة كان قد أطلق نفسه عن الفيء فلم يرزق إلاّ عطاؤه مع المسلمين. فيدخل عليه ابن أبى زكريا يوما فيقول له: ياأمير المؤمنين إنّى أريد أن أكلمك بشيء. قال: قل. قال: قد بلغنى أنك ترزق العامل من عمالك ثلاثمائة دينار. قال: نعم قال: ولم ذلك؟ ــ(لأنّ هذا راتب ضخم إذا قيس برواتب من كان قبله) فيقول عمر: أردت أن

التوسعة على العمال

---

١ ــ ابن عبد الحكم ٨٣.

٢ ــ المقدمة ٢٤٤.

أغنيهم عن الخيانة ــ (نعم أراد عمر أن يشبع هؤلاء العمال من مال حلال لقاء عملهم ومنعهم من قبول الهدايا والرشاوى والظلم والجور والاغتصاب) وهنا يقول ابن أبى زكريا: فأنت ياأمير المؤمنين أولى بذلك، قال فأخرج ذراعه وقال: ياابن أبى زكريا: إنَّ هذا نبت من الفيء ولست معيدا إليه منه شيئا أبداً(١).

وتقتيره على نفسه وأهله

إذاً فعمر يفيض على عماله ليغنيهم عن الخيانة و يقتر على نفسه فلا يصيب من بيت مال المسلمين ولا يرزأه شيئا، لأنه يريد أن يكفر عما مضى من حياته و يكتفى بعطائه الذى يناله كأحد المسلمين، و بدخله من أرضه التى أحياها في السو يداء، و يعيش عيشة التقشف والزهد لعله بذلك يستطيع أن يخرج من عهدة ما كان قد ناله قبل توليه الخلافة.

رحمك الله ياعمر بن عبد العزيز طالما أدبت عمالك وولا تك وحملتهم على الطريق السوى والصراط المستقيم حتى وصل الحق والعدل الى كل ركن من أركان هذه الدولة الواسعة.

---

١ ــ ابن عبد الحكم ٣٩ ابن الجوزى ١٦٤.

الباب الثالث

مع بيت مال المسلمين

الفصل الأول: نبـذة تاريخيـة

المبحث الأول: بيت المال في صدر الإسلام

بيت المال في الإسلام

بيت المال في الإسلام هو الخزانة العامة التى يرد إليها كافة الأموال التى تستحقها الدولة ــ أى تلى جمعها وصرفها ــ والأموال التى تستحقها الدولة في الإسلام تنقسم الى قسمين رئيسيين، القسم الأول منها: الصدقات، القسم الثاني الغنائم ــ ينظر في هذا التقسيم كتاب الخراج لابى يوسف ١٨ فما بعدها، وهذان القسمان مختلفان موارد ومصارف. فأما الصدقة فزكاة أموال المسلمين من الذهب والورق ــ أى الفضة ــ والإبل والبقر والغنم والحب والثمار ــ (واللقطة والتركة التى لا وارث لها من مسلم أو ذمى والهبات التى يهبها المسلمون للصرف على الفقراء والمساكين) ــ فهى للأصناف الثمانية الذين سماهم الله تعالى ــ **(إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)**[1].

الصدقات مواردها ومصارفها

الغنائم ١ ــ الفيء

والقسم الثاني: الغنائم ينقسم الى قسمين الاول ــ مال الفيء وهو ما اجتبى من أموال أهل الذمة فيما صولحوا عليه: من جزية رؤوسهم التى بها حقنت دماؤهم وحرمت أموالهم. ومنه خراج الأرضين التى افتتحت عنوة ــ (أى بالحرب والقوة) ــ ثم أقرَّها الإمام في أيدي أهل الذمة على طسق (أى ضريبة) ــ يؤدونه، ومنه وظيفة أرض الصلح التى منعها أهلها حتى صولحوا منها على خراج مسمى، ومنه ما يأخذه العاشر من أموال أهل

---

١ ــ سورة التوبة الاية ٦٠.

الذمة التى يمرون بها عليه لتجارتهم، ومنه ما يؤخذ من أهل الحرب إذا دخلوا بلاد الإسلام للتجارات، فكل هذا من الفيء وهو الذي يعم المسلمين غنيهم وفقيرهم فيكون في أعطية المقاتلة وأرزاق الذرية وما ينوب الإمام من أمور الناس بحسن النظر للإسلام وأهله.

٢ ــ الخمس

والثاني: الخمس وهو خمس غنائم أهل الحرب ــ (وأربعة الأخماس الأخرى للمقاتلين) والركاز العادى. وما يكون من غوص أو معدن ــ (وهذا فيه خلاف). ومصرف الخمس للأصناف الخمسة المسمين في الكتاب ــ في قوله تعالى «**وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَىٰ والمَسَاكِيْنِ وَٱبْنِ السَّبِيلِ**»[1] ــ وقال بعضهم[2]: سبيل الخمس سبيل الفيء يكون حكمه للإمام إن رأى أن يجعله فيمن سمى الله جعله، وإن رأى أن أفضل للمسلمين وأرد عليهم أن يصرفه الى غيرهم صرفه[3].

أوجه الاختلاف بين الصدقات والغنائم.

ولا يجيز الاسلام الخلط بين مصارف القسم الأول والقسم الثاني كما لا يجيز الخلط في المورد بين هذا أو ذاك وهما مختلفان من أربعة أوجه: أحدها: أنَّ الصدقات مأخوذة من المسلمين تطهيرا لهم، والفيء والغنيمة مأخوذان من الكفار انتقاما منهم.

والثاني: أن مصرف الصدقات منصوص عليه ليس للأئمة اجتهاد فيه. وفي أموال الفيء والغنيمة ما يقف مصرفه على اجتهاد الأئمة.

والثالث: أن أموال الصدقات يجوز أن ينفرد أربابها بقسمتها في أهلها. ولا يجوز لأهل الفيء أن ينفردوا بوضعه في مستحقه حتى يتولاه أهل الاجتهاد من الولاة.

---

١ ــ سورة الانفال الآية ٤١.

٢ ــ وهذا رأى عمر بن عبد العزيز، ينظر ابن عبد الحكم ص ٨٠، ٨١.

٣ ــ الاموال لابى عبيد ٢٥، ٢٦.

الرابع: اختلاف المصرفين(١).

هل وجد بيت المال زمن الرسول صلى الله عليه وسلم؟

ولذلك كان في أول الإسلام ومنذ فرضت الزكاة جهتان منفصلتان إحداهما للصدقات وعليها موظف خاص أو عامل خاص، والثانية للأخماس وعليها وال خاص أو عامل خاص كذلك، ولكن هل كانت هاتان الجهتان مجموعتين في مكان واحد يسمى بيت المال؟ أى هل كان بيت المال باللقب والجهة موجودا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر؟ يقول بعض فضلاء الكاتبين: و يلاحظ أنه لم يكن هناك بيت للمال في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم لكى تودع فيه هذه الأموال، إذ كانت الأموال تجمع وتصرف في الحال على مستحقيها، فلم يكن هناك داع لإنشاء بيت المال(٢).

الدكتور بدوى عبد اللطيف

و يقول آخر، ومن أهم نواحى التنظيم التى تناولتها يد الخليفة ــ (أى عمر بن الخطاب رضي الله عنه). مالية الدولة فدون الديوان وأنشأ بيت المال(٣) و يقول في الهامش نقلا عن الذهبي جـ١ ص٨. لم يكن بيت المال معروفا عند العرب في عصر الجاهلية أو عصر الرسول وأبى بكر، حيث أن الدولة في بدء تكوينها مع قلة الموارد وضعف الإيرادات وأن سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت تقضي بتوزيع المال لفوره، إن جاء غدوة لم ينتصف النهار أو عشية لم يبت حتى يقسمه(٣).

الاستاذ الدكتور محمد كمال الجرف

و يقول الاستاذ محمد كمال الجرف في محاضراته «كانت الأموال غير كبيرة لا تكاد تفيض عن النفقات العامة، وكان الغالب أن يقسم المال ليومه، لذا لم يكن هناك بيت مال كجهة ــ لا كاختصاص ــ في عصر الرسول، وإن كان له عاملون على الصدقات يجمعون له الزكاة وغيرهم

---

١ ــ الاحكام السلطانية الماوردى ١٢٦ ولابى يعلى ١٣٦.

٢ ــ النظام المالى في الاسلام ١٠ــ١١.

٣ ــ النظام المالى المقارن ٧٥.

الدكتور ضياء الدين الريس

يجبون الجزية(١). و يقول الدكتور ضياء الدين الريس: وكان الغالب أن يقسم المال ليومه لذا لم يكن هناك مال مدخر أو لم يكن هناك سجل يجمع أسماء المسلمين، غير أنَّ معيقيب بن أبى فاطمة الدوسى كان يكتب مغانم رسول الله. وجرى الأمر على ذلك في مدة خلافة أبى بكر فكان إذا ورد المدينة مال من بعض البلاد أحضر الى مسجد الرسول وفرق بين مستحقيه، وناب عنه في ذلك في العام الأ ول من خلافته «أبوعبيدة» إذ قال له حين تولى «أنا أكفيك المال»(٤). وقد قال ابن الجوزى في تاريخ عمر بن الخطاب رضى الله عنه ــ قال قتادة: آخر مال قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانمائة ألف درهم من البحرين فما قام من مجلسه حتى أمضاه، ولم يكن للنبى بيت مال ولا لأ بى بكر وأول من اتخذ بيت المال عمر بن الخطاب. تاريخ عمر بن الخطاب ٧٣ــ٧٤.

الدكتور أحمد شلبى

و يقول الدكتور أحمد شلبى: لم تكن الحاجة ماسة لوجود بيت المال في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم لأن الحياة كانت بسيطة لا تعقيد فيها، فكانت الإيرادات من الغنائم والزكاة وغيرها ترد للدولة ولكنها كانت توزع في الحال على المستحقين، وقلما كان يتبقى شيء منها يزيد عن حاجتهم، وحينئذ يحتفظ به الرسول لحين الحاجة اليه، و يروى الماوردى: إنّ بعض الإبل والخيل والماشية بقيت لدى رسول الله مرة فميزها عن غيرها من أموال المسلمين بمراع خاصة بالبقيع ــ (أعتقد أن الصواب النقيع) قرب مكة (بل الصواب قرب المدينة) يعبرون عنها بالحمى كما وسمها الرسول بميسم خاص حتى تميز عن سواها(٣).

فما مقدار قرب تلك الأقوال من الحقيقة والواقع؟.

---

١ ــ محاضرات النظام المالى الاسلامي المقارن ٩٨.

٢ ــ الخراج والنظم المالية ص١٣٧.

٣ ــ السياسة والاقتصاد ٢١٨.

حينما كان الرسول صلى الله عليه وسلم في مكة لم يكن هناك مال ولا بيت مال لا كجهة ولا كاختصاص لأن الإسلام لم يكن قد استقر بعد، ولم تكن قد قامت دولته التى تحتاج للتنظيم، ولكن لما انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمون الى المدينة وفرض القتال وضرب الإسلام بجرانه وامتد رواقه وقامت دولته، كان لابد من مالية لها موارد ومصارف تنظم وتحدد حتى لا يكون الأمر فوضى، لأن دولة بدون مال لا تقوم. فكان أول ما نظم من الموارد الخمس بعد الاختلاف في غنائم بدر فنزل القرآن مبيناً أن أربعة أخماس الغنيمة للمقاتلين والخمس لمن سمى الله عز وجل في كتابه الآية ٦٠ من سورة الانفال، ثم توالت الغزوات والسرايا وجلت بنو النضير و بنو قينقاع. ثم كانت خيبر وفدك وانضوت تحت راية الاسلام بلاد يسكنها غير المسلمين من أهل الكتاب، فكان الفيء وكانت الجزية، وحدد القرآن الكريم والسنة المطهرة ممن تؤخذ الجزية ولمن يكون الفيء، ثم كان أن فرضت الزكاة وحددت مصارفها كذلك، وتدفق المال على المدينة واغتنى المسلمون بعد فقر وعزوا بعد ذلة وقووا بعد ضعف. فهل كان هناك فائض من المال يزيد عن الحاجة؟ وإن كان فأين كان يضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وابو بكر رضى الله عنه من بعده؟.

الرسول في مكة

في المدينة

رأينا من النصوص السابقة للأساتذة الأجلاء أنه لم يكن هناك بيت مال في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم وزمن أبى بكر إنما كان المال ينفق بمجرد وصوله و يفرق بين من حضر من المسلمين لقلة المال نسبيا وقت ذاك.

ولكنني في الحقيقة أتردد في الأخذ بذلك القول على إطلاقه، لأن هناك أموالاً كثيرة كانت ترد المدينة من أطراف الجزيرة لأننا نعلم أنه بعد خيبر وفتح مكة وردت وفود الجزيرة العربية على الرسول صلى الله عليه وسلم تبايعه وتقدم الطاعة والولاء وتعلن إسلامها وإسلام قومها وتحمل الى

المدينة صدقات أموالها مما زاد عن أهلها، والمعاهدون يؤدون الجزية. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يرسل مع كل وفد معلما يعلمهم القرآن ويجمع منهم الزكاة ليوزعها بين فقرائهم، وما زاد يحمل الى المدينة، وكانت غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم وسراياه تجوب الجزيرة شرقا وغربا شمالا وجنوبا. فهل كان كل المال الذى يرد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفق لتوه؟ أو على الأكثر لا يمكث فوق ثلاث كما وردت في ذلك بعض الآثار؟.

خازن رسول الله

بين يدى نصوص تشير الى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكون عنده فائض من المال، فقد ذكر خليفة بن خياط «أنَّ معيقيب بن أبى فاطمة الدوسى كان خازن رسول الله صلى الله عليه وسلم(١)» فماذا كان يخزن له معيقيب إن لم يكن مال؟ وإذا لم يكن مال فلم الخازن.

صفايا رسول الله

و يقول ابن سعد: كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث صفايا، فكانت بنو النضير حبسا لنوائبه، وكانت فدك لابن السبيل، وكانت خيبر فكانت الخمس قد جزأة ثلاثة أجزاء فجزءان للمسلمين وجزء كان ينفق منه على أهله فإن فضل فضل رده على فقراء المهاجرين(٢).

فهناك إذن حبس للنوائب ولأ بناء السبيل ونفقة الأهل، و يؤكد هذا نص آخر يقول: «كانت بنو النضير صفيا لرسول الله صلى الله عليه وسلم خالصة حبسا لنوائبه ولم يخمسها ولم يسهم منها لأحد(٣).

عامل الخمس ووالیه

و يقول أيضاً: استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم على مقسم الخمس وسهمان للمسلمين يوم المريسيع محمية بن جزء الز بيدى، فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الخمس من جميع المغنم فكان يليه محمية بن

---

١ ــ تاريخ خليفة بن خياط ٧٧.

٢ ــ الطبقات ١/١٨٣ القسم الثاني.

٣ ــ الطبقات ٢/٤١ القسم الثاني.

جزء، وفي رواية عروة بن الزبير وعبد الله بن عبد الله بن الحارث قالا: جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم على خمس المسلمين محمية بن جزء الزبيدي وكانت تجمع اليه الاخماس(١).

و يقول في موضع آخر: وفي غزوة بنى المصطلق ــ المريسيع ــ وأمر بالغنائم فجمعت واستعمل عليها شقران مولاه: وجمع الذرية ــ (أى النساء والأ ولاد) ــ ناحية، واستعمل على مقسم الخمس وسهمان المسلمين محمية بن جزء، واقتسم السبى وفرق وصار في أيدى الرجال وقسم النعم والشاء فعدلت الجزور بعشر من الغنم و بيعت الرِّثَّة (أى الأمتعة) ــ فيمن يزيد وأسهم للفرس سهمان ولصاحبه سهم وللراجل سهم وكانت الإبل ألفى بعير والشاء خمسة آلاف شاة(٢).

يقول: و بعد الانتهاء من بنى قريظة أمر صلى الله عليه وسلم بالغنائم فجمعت فأخرج الخمس من المتاع والسبى ثم أمر بالباقي فبيع فيمن يزيد بين المسلمين. فكانت السهمان على ثلا ثة آلاف واثنين وسبعين سهما، للفرس سهمان ولصاحبه سهم، وصار الخمس الى محمية بن جزء الزبيدي، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتق منه و يهب منه، ويخدم منه من أراد، وكذلك صنع بما صار اليه من الرثة(٣).

العتق والهبة والاخدام من الخمس

ورواية أخرى تؤكد أن محمية بن جزء كان واليا على الخمس زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول العزيزى في كتابه النزاع والتخاصم: إنّ عبد الله بن عبد الله بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب حدث أنّ عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث قال: اجتمع ربيعة بن الحارث والعباس بن

---

١ ــ الطبقات ٤/١٤٦.

٢ ــ الطبقات ٤/٤٦ القسم الاول.

٣ ــ الطبقات ٢/٥٤ القسم الاول.

عبد المطلب فقالا: لو بعثنا هذين الغلامين ــ أى عبد المطلب بن ربيعة والفضل بن العباس الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلماه فأمَّرَهما على هذه الصدقات فأديا ما يؤدي الناس وأصابا مما يصيب الناس، قال فبينما هما في ذلك جاء على بن أبى طالب رضى الله عنه عليهما فذكرا له ذلك فقال: لا تفعلا فوالله ما هو بفاعل، فانتحاه ربيعة بن الحارث فقال: والله ما تصنع هذا ــ إلاّ نفاسة منك علينا، فوالله لقد نلت صهر رسول الله فما نفسناه عليك. قال على: أرسلوهما، فانطلقا واضطجع. فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر سبقناه الى الحجرة فقمنا عندها حتى جاء فأخذ بآذاننا ثم قال: أخرجا ما تسرران. ثم دخل ودخلنا عليه ــ وهو يومئذ عند زينب بنت جحش ــ قال: فتواكلنا الكلام ثم تكلم أحدنا فقال: يارسول الله أنت أبر الناس وأوصل الناس، وقد بلغنا النكاح «يعنى الحلم» فجئنا لتؤمرنا على بعض هذه الصدقات فنؤدي إليك كما يؤدي الناس ونصيب كما يصيبون.

فسكت طويلا حتى أردنا أن نكلمه وجعلت زينب تلمع الينا من وراء الحجاب أن لا تكلماه، قال ثم قال: إنّ الصدقة لا تنبغى لآل محمد إنّما هى أوساخ الناس، ادعوإليَّ محمية ــ وكان على الخمس ــ ونوفل ابن الحارث بن عبد المطلب فجاءاه. فقال لمحمية: أنكح هذا الغلام ابنتك ــ فأنكحه. وقال لنوفل بن الحارث: أنكح هذا الغلام ابنتك فانكحنى ــ (المتكلم عبد المطلب بن ربيعة) وقال لمحمية: أصدق عنهما من الخمس كذا وكذا(١). فهذا وغيره كثير يدل و يؤكد أنّه كان هناك بيت مال للخمس وعليه أمين وفيه مال ــ وقد يكون يجمع اليه مال الجزية أيضاً من نجران واليمن وهجر ودومة وتيماء ووادى القرى ومقنا وغيرها مما فرض

من الخمس صدق نساء بعض بنى عبد المطلب

١ ــ النزاع والتخاصم ٦٠ــ٦١ ومختصر صحيح مسلم ١/١٤١.

عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم الجزية ــ وقد أصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم منه صداق ابنتى محمية ونوفل بن الحارث، فهل يقال بعد ذلك إنه لم يكن في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت مال؟ إن أرادوا أنه لم يكن تطلق عليه هذه التسمية فنعم، وأما إن أراداوا أنه لم يكن موجودا ألبتة لعدم وجود مال لأنَّه لم يكن يبيت عنده مال فلا.

قسم خيبر

هاكم نصوصا أخرى تؤكد ما وصلت اليه: قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر على ستة وثلاثين سهما جمع كل سهم مائة سهم، فكان من ذلك للمسلمين ثمانية عشر سهما اقتسموها بينهم ولرسول الله صلى الله عليه وسلم مثل سهم أحدهم، وثمانية عشر سهما لمن نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم من الناس والوفود وما نابه(١).

وفدك

وفدك «فكان نصف فدك خالصا لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب وكان يصرف ما يأتيه منها الى أبناء السبيل»(٢).

إذاً فنصف خيبر ونصف فدك كان يرد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لينفق منه على: ما نزل به من الناس والوفود، وما نابه ــ أى طرأ عليه ــ والى أبناء السبيل. ألم يكن كل ذلك يحتاج الى مكان يوضع فيه والى أمين يكون عليه؟ وحتى الخمس فمصارفه المعروفة في الآية المذكورة **«وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لله خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ»**(٣). فهؤلاء المصارف ألا يحتاجون الى مال يكون موجودا وقت الحاجة؟ صحيح أنَّه لم يكن يسمى بيت المال ولكن عدم تسميته ببيت المال لا يعنى أنه غير موجود بل هو موجود كجهة مختصة بجمع المال المعد للنوائب والنوازل وأبناء السبيل، أمّا

---

١ ــ فتوح البلدان ١/٢٩ الخراج للقرشي ٣٥، ٣٦، ٣٧.
٢ ــ فتوح البلدان ١/٣٣.
٣ ــ الآية الانفال ٤١.

التسمية فلا ولا يعنى عدم وجود التسمية عدم الوجود بالكلية وأعتقد أنه مادام قد وجد بيت مال للخمس والفيء فيجب أن يوجد أيضاً بيت مال للصدقات للصرف منه على مصارفها، وإن كانت الصدقات في الحقيقة أقل من الخمس والفيء لأنها غالبا ما كانت تفرق على أهلها.

وأما ما يقوله الكثيرون أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن يبيت عنده مال فقد ورد آثار كثيرة تدل على أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن ببيت عنده مال، وإذا حدث أن جاءه مال فلم يكن يمكث عنده أكثر من ثلاثة أيام فأعتقد أن المقصود بذلك مال خاص كسهمه في المغنم أو من الخمس أو الصفايا أو غير ذلك من الأموال الخاصة، أما المال العام فلم يكن يبيت عنده صلى الله عليه وسلم لأنَّ له بيتا خاصا عليه وال خاص كما رأينا في الخمس.

في عهد أبى بكر

وأمّا في عهد أبى بكر فأعتقد تماما أنه مادام قد وجد بيت المال في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو بالأ ولى أن يكون موجودا في عهد أبى بكر رضي الله عنه أيضاً، وهناك نص يقوى هذا الذى وصلت إليه ساقه خليفة بن خياط يقول: إنَّ أبا بكر قد ولى أبا عبيدة بن الجراح بيت المال ثم وجهه الى الشام(١).

فإذا كان أبو عبيدة أميناً لبيت المال زمن أبى بكر ثم وجهه الى الشام فبالتأكيد أنّه بعد توجيهه الى الشام عين أبو بكر مكانه على بيت المال أميناً آخر وإن لم نعرف اسمه أو لم يصلنا خبره.

لقد أطلت في هذه النقطة بالذات البحث لكثرة القائلين بأن بيت

١ــ تاريخ خليفة بن خياط ١٠٨.

المال لم يعرف في الإسلام إلاّ في زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وإنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم وأبا بكر لم يكن لهما بيت مال، وإنَّ المال الذى كان يأتيهما كانا ينفقانه بمجرد وصوله حتى إنَّه لا يبيت عندهما شيء منه. وكيف يتصور ذلك إذا كان المسلمون قد فرضوا لأ بى بكر بعد ستة أشهر من خلافته ستة آلاف درهم سنو يا(١). فمن أين كان يأخذها إذا كان بيت مال خاليا أو لم يكن هناك بيت مال أصلاً؟ أم ينتظر حتى يأتي مال فيعزل نصيبه ثم يوزع الباقى؟ وهل يصح أن يفرض المسلمون لخليفتهم مالا لم يحصلوا عليه بعد؟ بل إن الرسول صلى الله عليه وسلم حينما ولى عتاب بن أسيد مكة فرض له كل يوم درهما، فمن أين كان يحصل والى مكة على درهمه كل يوم؟ إن لم يكن له بيت مال يجد فيه راتبه؟ ولنعلم أنَّ ما كان يأخذه أبو بكر وعتاب وقد يكون غيرهما أيضا ــ ليس من مال الصدقات لأنهما ليسا من مصارفها وإنَّما من مال الفيء أى الجزية أو مال الصلح أو خراج الأ رض.

راتب ابى بكر

راتب والى مكة عتاب ابن أسيد

هذا ولم ينظم بيت المال و يدون موارد ومصارف إلا في زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه حينما فتحت العراق وفارس والشام ومصر وتدفق المال على المدينة وكثرت الجنود واحتاج الأمر الى الر بط والضبط، فدوَّن عمر رضى الله عنه الدواو ين ومنها ديوان الخراج ــ أو ديوان الأموال ــ يسجل فيه كل درهم يصل الى الخليفة من الأخماس والجزية ومال الصلح والفيء والخراج، والزكاة والصدقات والعشور مع التفرقة بين الصدقات والأخماس والفيء لأنَّ لكل منها مصرفا لا يجوز أن يتعداه.

---

١ ــ الطبقات ٣/١٣٢ القسم الاول.

ولـم يكن الخليفة فمن دونه يأخذون من هذا المال درهما إلاَّ بحق ولا يـدخـل فـيـه درهـم إلاَّ بـحق. وكان الخليفة يعتبر نفسه خازنا لبيت المال وأمـيـنـا عـلـيـه لا مـالكا له، بل إنَّ الخليفة ليس له من المال إلاَّ ما لأحد المسـلـمين فـهو ينال عطاءه مع عطاياهم، وإذا احتاج استدان حتى يخرج عطاؤه ، واسـتـمـر الحال على ذلك طيلة عهد عمر وعثمان وعلى رضى الله عـنـهـم جـمـيعا. لم يكن أحدهم يرى له في المال حقا أكثر من أى فرد من المسـلمين، ولم يكن أحدهم ليخرج درهما من هذا المال إلاّ بوجه شرعى، إمـا عـطـاء لمـسـتـحق أو صـدقة أو هبة لمصلحة يراها أو نفع عام للجماعة الإسـلامية إمّا أن يعطى أو يهب شيئا لأمر شخصي لقرابة أو مصلحة ذاتية فلا.

المبحث الثاني

بيت المال في عهد بنى أمية قبل عمر

«احلب الدر فإذا انقطع فاحلب الدم والنجا»(١)
سليمان بن عبد الملك

رأينا في المبحث السابق مكانة بيت المال في الإسلام ونظرة الخليفة والمسلمين اليه موردا ومصرفا. ولكن ما إن تولى الأمر بنو أمية وتحول الأمر من الخلافة إلى الملك حتى تبدلت مكانة بيت المال، إذ أصبح الخليفة هو المتصرف الفرد بكل ما فيه، فكأنه خزانته الخاصة فله أن يأخذ منه ما يشاء و يصرفه كيف شاء و يعطيه لمن يشاء دون أن يكون عليه رقيب أو حسيب.

خزانة خاصة

وتصرف الخليفة عدا عن المال بأراضي الدولة ــ الصوافى ــ فوهبها وأقطعها لأقاربه وذوى رحمه وعصبته والمادحين والشعراء والمتزلفين، ولرؤساء القبائل والعشائر يتألفهم و يقوى بهم جانبه ضد خصومه وأعدائه.

اقطاع اراضي الدولة

فهذا معاوية بن أبى سفيان رحمه الله يقطع مروان بن الحكم فدك التى كانت خالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا حافز له لإعطائها إلاّ القرابة، إذ انتزعها من بنى هاشم وأعطاها رجلا من بنى أمية، وفيها يقول البلاذرى نقلا عن الكلبي: إن بنى أمية اصطفوا فدك وغيروا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما ولى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ردها الى ما كانت عليه(٢). وقد زاد الأمر شدة في عهد يزيد بن معاوية بإنفاقه أموال المسلمين في الترف واللهو والخمر وغير ذلك.

---

١ ــ الوزراء والكتاب ٥/٥٢ النجوم الزاهرة ١/٢٣١.
٢ ــ فتوح البلدان ٣٧.

وهكذا بدل الحال في زمن بنى أمية وعلى الأخص في عهد المروانيين عبد الملك وابنيه الوليد وسليمان. فعبد الملك هو الذى قال لأهل المدينة: أما بعد فإن من كان قبلى من الخلفاء كانوا يأكلون من هذا المال و يؤكلون وإنى والله لا أداوى أدواء هذه الأمة إلا بالسيف(١).

الضرائب الظالمة

وتبدلت أحوال بيت المال موارد ومصارف، فموارده أصبح لا يراعى فيها الشرعية بل فرض خلفاء بنى أمية على الناس الضرائب المختلفة المجحفة بالرعية، رغبة في جمع المال عن غير طريق مادام يملأ الخزائن و يشبع النهمة الى المال، عدا عن الشدة في الجباية وفي قول سليمان بن عبد الملك السابق لوالى مصر أوضح دليل على الرغبة الجامحة في استخلاص كل ما يمكن استخلاصه من أموال الرعية ظلما وعدوانا، مع أن سليمان ابن عبد الملك هذا قد أبطل كثيرا من المظالم التى كانت سائدة في عهد سلفه الوليد، فمن الضرائب الجائرة الظالمة إبقاء الجزية على رؤوس المسلمين من أهل الذمة، وفرض المكوس الظالمة في طول البلاد وعرضها، وزادوا أموال الصلح واشتطوا على الناس في استيفاء الأموال. فهذا عبد الملك حينما ولى واستتب له الأمر يرسل الضحاك بن عبد الرحمن الأشعرى الى الجزيرة فيستقل ما يؤخذ منهم، وكان صلحهم الذى صالحهم عليه عياض بن غنم الفهرى دينارا على كل جمجمة ومدين قمحا وقسطين زيتا وقسطين خلا. ــ فيحصى الضحاك الجماجم ويجعل الناس كلهم عمالا بأيديهم ويحسب ما يكسب العامل سنته كلها ثم يطرح من ذلك نفقته في طعامه وأدمه وكسوته وحذائه و يطرح أيام الأعياد كلها فيجد الذى يحصل بعد ذلك أربعة دنانير لكل واحد، فألزمهم ذلك جميعا وجعلهم طبقة واحدة، ثم يفرض على الأراضي بمقدار قربها أو بعدها، فيجعل على كل

زيادة مال الصلح

١ــ تاريخ خليفة بن خياط ٣٤٩.

مائة جريب زرع مما قرب دينارا وعلى كل ألف أصل كرم مما قرب دينارا. وعلى كل ألفى أصل مما بعد دينارا، وعلى الزيتون على كل مائة شجرة مما قرب دينارا وعلى كل مائتى شجرة مما بعد دينارا، ثم يحمل الشام والموصل على مثل ذلك(١).

محاولة اغتصاب أرض

و يأتى عبد الملك هذا رجلان أحدهما تحجر أرضا ثم عطلها وآخر أحياها، فاختصما الى عبد الملك كل يدعيها. فيقول عبد الملك. ما أرى أحداً أحق بهذه الأرض من أمير المؤمنين ــ وكان بجانبه عروة بن الزبير(٢)ــ. فيقول له: ما تقول؟ فيقول عروة: إنَّ أبعد الثلاثة من هذه الأرض أمير المؤمنين. قال: ولم؟ قال: لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: العباد عباد الله والبلاد بلاد الله من أحيا أرضاً ميتة فهى له(٣). فيغضب عبد الملك و يقول: انظروا الى هذا يشهد على رسول الله صلى الله عليه وسلم بما لم يسمعه منه. فيقول عروة: أفأكفَّر أو أكَذَّب مما لم أسمع منه؟ أسمعته يقول: الظهر أربع والعصر كذا والمغرب كذا؟ إنّ الذين جاؤنا بهذا هم جاؤنا بهذا(٤).

فقد كان عبد الملك يريد أن يستولى على الأرض ويحرم منها صاحب الحق فيها وهو المحيي لها لولا وقوف ذلك العالم الورع عروة في وجهه ونطقه بكلمة الحق في مجلسه.

جوائز خاصة

وعبد الملك هذا هو الذى أجاز لنفسه أن يأخذ مال المسلمين ليهبه جوائز لخاصته(٥). و يزداد الأمر شدة في عهد ابنيه الوليد وسليمان، فقد

---

١ ــ الخراج لابى يوسف ٤١.

٢ ــ عروة بن الزبير بن العوام وأمه اسماء بنت ابى بكر من فقهاء المدينة العشرة ومات سنة ٩٤هـ.

٣ ــ الحديث رواه البيهقي عن عائشة الجامع الصغير ٢/٦٩.

٤ ــ الخراج للقرشى ٨٧.

٥ ــ تاريخ ابن عساكر ١/١٨٢.

نهبا أموال بيت المال وأعطياها لأقاربهم من الأبناء والأحفاد، وتعدى الأمر ذلك الى نهب أموال الناس وأملاكهم وإقطاعها لأتباعهم من أبناء وأقارب وحاشية وشعراء ومتزلفين ومتملقين. وأخذوا الزكاة جائرين بها وأنفقوها في غير مصارفها، وجعلوا الفيء والخمس والخراج غنيمة لهم فوهبوه لمن يريدون، وقسموا أموال المسلمين فتوزعوها بينهم، فمثلا كان لعبد العزيز بن مروان خراج مصر والمغرب مدة عشرين عاما تقريبا ولا حساب. وللحجاج ما أخرج العراق وخراسان وفارس ولم يكد يكفيه لكثرة ما كان ينفق في سبيل إخماد الفتن والثورات ضد الظلم الشائع والجور الشامل، بل كثيرا ما كان يمد بالمال والرجال من الشام كلما دعت الحاجة.

الخمس

وكان الخمس ملكا خاصا للخليفة يتصرف فيه كما يشاء، فيعطيه للقواد والولاة والأبناء بل وصل الأمر أن يعطى الخمس كله للجوارى وبعض الأبناء ظلما واعتداء، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى ومر معنا العديد منها في مباحث ماضية ولكن لا بأس أن نذكر بعضها: لما أخذ عمر بن عبد العزيز في رد مظالم بنى أمية كتب له عمر بن الوليد رسالة يتهدده فيها. فيرد عليه عمر بن عبد العزيز برسالة وضحت الكثير من مظالم بنى أمية و بنى مروان على وجه الخصوص، وكان مما قال له فيها: وقسم لك أبوك الخمس كله وإنّما لك سهم أبيك كسهم رجل من المسلمين(١).

بل إنَّ الأمر تعدى الأبناء والأقارب الى الجوارى انظر اليه يخاطبه فيقول: وإنَّ أظلم منى وأترك لعهد الله من جعل لفلانة ــ وفي رواية لعالية ــ البربرية سهما في فيء المسلمين وصدقاتهم، أهاجرت ثكلتك أمك؟ أم بايعت بيعة الرضوان فتستوجب سهام المقاتلين(٢)؟.

---

١ ــ ابن عبد الحكم ١٢٨ وحلية الاولياء ٥/٢٧٠ وصفة الصفوة ١١٧.

٢ ــ ابن عبد الحكم ١٢٨ وحلية الاولياء ٥/٢٧٠ وصفة الصفوة ١١٧.

و يزيد بن المهلب يستولى على الخمس كله في عهد سليمان بن عبد الملك ولا يرسل منه لبيت المال شيئا، فيسجنه عمر بن عبد العزيز ولكنه لم يستخلص منه شيئا «كتب يزيد بن المهلب الى سليمان يخبره بفتح جرجان وعظم عنده الأمر وموقع النعمة في ذلك و يعرفه أنه قد حصل في يده من المال مما أفاء الله على المسلمين بعد أن صار الى كل ذى حق حقه من الفيء ومن الغنيمة ستة آلاف ألف درهم(١).

وقد مر معنا في مبحث الحالة الاقتصادية والسياسية ومبحث مظاهر عودة الجاهلية ومبحث مع بنى أمثلة كثيرة متعددة على استغلال بنى أمية عموما و بنى مروان خصوصا وعمالهم وقوادهم أموال بيت مال المسلمين واحتجانها ــ أى منعها عن الآخرين ــ دون مستحقيها ممن فرضها الله لهم، فاستوجبوا بذلك سخط الله عز وجل ومقت الأمة وثوران الفتن عليهم كل حين حتى أزال الله ملكهم وحطم سلطانهم وقضى على قوتهم ولله الأمر من قبل ومن بعد.

وهكذا وقف عمر بن عبد العزيز أمام بيت المال وقد تناوشته أيد ملوثة وسلبته أنفس خبيثة وحرمت الناس حقوقهم لنصف قرن من الزمان بل يزيد، بسلطة غاشمة ظالمة: فكيف يعمل عمر ليرد العدل الى نصابه و يعيد الحق إلى أصحابه؟.

---

١ ــ الوزراء والكتاب ١/٤٩.

الفصل الثاني

أمام بيت المال

المبحث الأول: عمر بن عبد العزيز أمام بيت المال

«إنى رأيت أن أجعل ذلك في أكباد جائعة فإنَّهم
أولى بذلك من البيت»(١)

عمر بن عبد العزيز

امام بيت المال

وقف عمر بن عبد العزيز أمام صرح بيت المال، ذلك الصرح الشامخ المترع بالأموال من كل صنف ولون، ترد إليه من كل أطراف الأرض، في وقت امتدت الدولة الإسلامية فيه من تخوم الصين وأطلّت على جبال الفرنجة، وهى كلها ترسل خراجها وجزيتها وأخماسها وفيأها الى ذلك البيت الشامخ في دمشق.

ولكن عمر بن عبد العزيز بنظرته الفاحصة المميزة ونور قلبه وعقله اللذين ينظر منهما بنور الله عز وجل، وبمعايشته الطويلة لثلاثة خلفاء سبقوه، رأى أن هذا الصرح العظيم قد تصدعت أركانه وتشققت حيطانه ــ رأى أموالا ضخمة ولكنه رأى من خلالها ظلما فاحشا فاشيا، فساءل نفسه وكثيرا ما كان يسائلها حتى قبل أن يلى الخلافة. هذه الملايين من الدراهم والدنانير من أين جاءت وكيف أتت وإلى أين تنصرف وإلى من تؤول؟ هل وصلت الى هذا البيت بحق كما أمر الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم؟ أليس فيها مال مغصوب؟ أليس فيها درهم أخذ بغير حق؟ أليس فيها مال إنسان مظلوم؟ ثم من يأخذها؟ هل ينالها المستحقون من أرباب الفرائض: هل ينال أهل الزكاة الزكاة؟ أو هل يعطى أهل الأخماس أخماسهم؟ أو هل يصل إلى أهل الفىء فيئهم؟ يقينا

---

١ ــ الحلية ٥/٣٠٦ وقد كتب اليه حجبة الكعبة يطلبون منه كسوة للبيت وابن الجوزى ٧٦.

يعلم عمر بن عبد العزيز أن أصحاب الحقوق لم يكن يصل الى أيديهم عشر معشار ما يستحقون وإن عظم هذه الأموال إنّما ينالها من لاحق له فيها.

وكم رأى من عبد الملك وابنيه الوليد وسليمان أخذاً للأموال بدون وجه حق ومن إنفاق لها لغير مستحق. فآلى على نفسه وهو الإنسان الذى يملأ قلبه الخوف من الله و يعمر صدره الخشية من اليوم الآخر، و بين جنبيه نفس تواقة الى الجنة ولا طريق للجنة إلاّ برفع الظلم عن المظلومين وإيفاء الحقوق وردها لأ ربابها وإقامة العدل في هذه الرقعة الواسعة الهائلة من الأ رض، والسماح للزمان بأن يتنفس بعد طول كبت، وقد آن الأ وان لينطق من كان لا ينطق، ويجرؤ من ملأت قلو بهم الخشية من الحاكمين والرهبة من المتسلطين، فليطالب كل ذى حق بحقه وليجهر كل ذى رأى برأيه، فعمر بن عبد العزيز قد نصب نفسه لرد المظالم وإقامة العدل ونصفة المظلومين، وكبح جماح الظالمين. فليحذر أولئك الذين يطمعون في أموال ذلك البيت، فلم يعد بيت المال ملكا للخليفة ولا لأقار به وذو يه، فما الخليفة الآن إلاّ خازن لهذا المال يضعه حيث أمره الله، ولاهمَّ له إلاّ إعادة هذا النهر الى مجراه الأ ول بعد طول انحراف، وسيغدوا نهرا دفاقاً ثرّاً بعد جفاف. وستسد كل تلك السواقى الجانبية وسيعود ذلك النهر شرعا لكل الناس يستسقون منه كل بحسب ما قدر له، ولن يسمح بعد ذلك لأحد باحتجان مائه أو الإنفراد بالسقى منه دون المسلمين جميعا.

الخليفة خازن

فبيت المال الآن لله ثم للمسلمين كبيرهم وصغيرهم قريبهم و بعيدهم كلهم فيه سواء، وما الخليفة إلاّ واحد من المسلمين ليس له من ذلك المال إلاّ عطاؤه مع المسلمين، وما أقار به إلاّ أفراد من المسلمين وليس لهم من ذلك المال إلاّ عطاؤهم مع المسلمين، وما العمال وما الولاة ولا القادة إلاّ عمال للمسلمين لهم أجرهم وعطاؤهم ولا شيء غير ذلك.

بيت المال لله ثم للمسلمين

فليشمر عمر بن عبد العزيز عن ساعد الجد وليبدأ من اللحظة الأولى في سد تلك الشقوق ورأب تلك الصدوع التى كادت ان تودى ببيت المال حتى يعود كما كان ــ زمن الخلفاء الراشدين وخاصة زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ــ قويا شامخا ضخما لا يطمع فيه طامع ولا ينال منه زائغ، لا يدخل فيه درهم ولا دينار إلاّ على سنة جارية وطريقة مشروعة، ثم لا يخرج منه إلاّ على فريضة مفروضة وشريعة قد أمر بها الله ورسوله.

سنة الراشدين

ونظر عمر الى هذا المال فكان شحيحا على نفسه سخيا على المسلمين، وكان حريصا على أن يوفر على المسلمين أموالهم، و يعتقد أنّ الدرهم دم لا يجوز أن يجرى في غير عروقهم(١). ورأى أنه لا يجوز أن يدخل بيت المال درهم إلا بحق ولا يجوز أن يخرج منه درهم الى يد لا تستحق. واعتبر نفسه لهذا المال خازنا وعليه أميناً، واعتبر المسلمين يتامى هو وصيهم والموكل بهم، ووضع نصب عينيه قوله تعالى: «**وَمَنْ كَانَ غَنِياً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ**»(٢) وأقسم ليردن هذا المال كحاله على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده فماذا فعل؟.

الدرهم دم

المسلمون يتامى

رأى أنّ هناك مظالم دخلت بيت المال بغير حق فلابد من ردها لأربابها بعد أن رد ما استطاع رده مما في يديه من اقطاعاته ومواريثه وما في أيدى بنى أمية من إقطاعاتهم ومواريثهم مما ثبت إنه سلب من بيت المال أو خرج منه بغير حق، ثم رأى أنَّ هناك مداخل لهذا البيت يدخل منها مال حرام يملأ ركنا ضخما منه، فآلى على نفسه سد تلك المداخل وقطع تلك الجسور حتى لا يدخل لهذا البيت درهم إلاّ من حلال من

سد مداخل الحرام

---

١ ــ رجال الفكر والدعوة ٣٢.

٢ ــ سورة النساء الاية ٦.

طريق أمر به الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم. ثم نظر أخرى فرأى أن في هذا البيت ثغرات تكاد تكون أبواباً يتسرب منها مال المسلمين ذاهبا في غير طريقه وموضوعا في غير اليد المستحقة له. فهو كخزان ماء أصابته صدوع فأخذ الماء يتسرب منها في غير قناة وما يدخل القناة الرئيسية منه ليسقى الزرع والأرض والشجر ليس الجزء الأكبر منه، بل إنَّ الجزء الأكبر ينساب من خلال تلك الثغرات والصدوع، فأخذ على نفسه سد تلك الثغرات ورأب تلك الصدوع حتى يعيد للبيت قوته وحفاظه.

سد ثغرات التسرب

هذه النظرات الثلاث شغلت وقت عمر بن عبد العزيز جُلَّه إن لم يكن كله ونحن معه سنسير على دربه إن شاء الله لنرى كيف استطاع عمر بن عبد العزيز أن يعيد النهر الى مجراه الأول.

النظرات الثلاث

فسنرى أولاً كيف رد تلك المظالم التى دخلت بيت المال، سواء في عاصمة الدولة دمشق أم في عواصم الأقاليم في شرق البلاد وغربها شمالها وجنوبها.

ثم نرى ثانيا كيف استطاع عمر بن عبد العزيز أن يسد مداخل الحرام، و يقضي على كل طريق يدخل منه على بيت مال المسلمين درهم اقتطع ظلما من مسلم أو معاهد.

ثم سنرى ثالثا كيف أمكنه أن يسد ثغرات التسرب تلك التى كان يتسرب منها مال الأمة، ويحفظ لها حقوقها، حتى إنّه ما كاد ينتهى العام الثانى من خلافته حتى كان بيت المال في خير حالاته وأصح مظاهره وفرا ووجدا على الرغم مما خرج منه لسد ظلامات المظلومين.

والله الموفق والهادى لأقوم طريق.

المبحث الثاني

رد المظالم وطريقة عمر فيها

«كان عمر بن عبد العزيز رحمه الله أول من ندب
نفسه للنظر في المظالم فردها وراعى السنن العادلة وأعادها»(١)
المـــاوردى

مع عبد الملك ابن عمر

ما أن انتهى عمر بن عبد العزيز من سليمان بن عبد الملك ودفنه والبيعة له حتى ذهب يتبوأ مقيلا ــ (وكان قد سهر ليله في تجهيز سليمان) ــ فأتاه ابنه عبد الملك ــ (وقد فاق أباه ورعا وخشية) ــ فقال: ياأمير المؤمنين ما تريد أن تصنع؟ قال: أى بنى أقيل(٢). قال: تقيل ولا ترد المظالم؟ قال: أى بنى إنى سهرت البارحة في أمر عمك سليمان فإذا صليت الظهر رددت المظالم. (جاء عبد الملك بن عمر مذكرا وحاثا للخليفة من أول يوم ليرد المظالم لكثرتها وكثرة المظلومين، وكان الخليفة متعبا منهكا لسهره وقيامه على دفن سليمان وتلقيه بيعة الناس، ولكن عبد الملك كان شديد الحساسية بالظلم الواقع فكأنه لم يستطع أن يرى أن أباه يستطيع رد مظلمة ثم ينام دون أن يردها، ولذلك جاء ليدفع أباه الى الخروج دفعا. فلما ذكر له أبوه أنه سيردها بعد صلاة الظهر كان جوابه حاسما موقظا في نفس عمر روح المقاومة للتعب والإرهاق كان جوابه).

الحث على رد المظالم

أن قال: ياأمير المؤمنين من لك أن تعيش الى الظهر؟ ــ (نعم من يضمن للخليفة أن يعيش الى الظهر ثم يقوم برد المظالم؟ فلينظر أولئك الذين يهملون القيام بواجباتهم لا نقول برد المظالم أو الحقوق الى أربابها ــ بل القيام بالواجب وأداء العمل المطلوب منهم، إذ تمضى عليهم الأيام

---

١ ــ الاحكام السلطانية للماوردى ٧٨ ولابى يعلى ٧٥.

٢ ــ أى ينام القيلولة وهي نومة الضحى.

والاسابيع والشهور وحاجات الناس ملقاة على مكاتبهم يرونها ولا يحركون ساكنا، كأنهم أمنوا الموت أن يأتيهم بغتة، أو كأنهم أمنوا ما بعد الموت، فاعتبروا ياأولى الابصار. وهنا تأخذ الروعة بقلب عمر ونفسه، ابنه يحثه على رد المظالم و يأبى عليه أن يستريح ثم يردها) ــ فيقول عمر لابنه ادن منى أى بنى. فدنا منه فالتزمه وقبل بين عينيه وقال: الحمد لله الذى أخرج من صلبى من يعينني على ديني. فخرج ولم يقل. وأمر مناديه أن ينادى: ألا من كانت له مظلمة فليرفعها، وجعل لا يدع شيئا مما كان في يده أو في يد أهل بيته من المظالم إلاّ ردها مظلمة مظلمة(١).

ولم يكن عبد الملك ليترك أباه يستريح، فكان دائما نعم المذكر والمنشط لأ بيه، يحدث يوما أن جلس عمر للناس فلما انتصف النهار ضجر وملّ ــ (وعمر إنسان قبل كل شيء ولكل إنسان طاقة وجهد في عمله فاذا بلغها كَلّ ومَلّ) ــ فقال للناس: مكانكم حتى أنصرف اليكم ودخل ليستريح ساعة ــ (ومن حقه أن يفعل ذلك ولكن عبد الملك ابنه ما كان يرى لأ بيه حقا في الراحة، وكأنه كان يحس أنَّ ساعته(٢) وساعة أبيه قريبتان، فليغتنم كل منهما حياته ليعمل صالحا في هذه الحياة الدنيا) ــ فجاء عبد الملك لأ بيه فسأل عنه فقالوا: دخل، فاستأذن عليه فأذن له، فلما دخل قال: ياأمير المؤمنين ما أدخلك؟ قال: أردت أن أستريح ساعة. قال: أو أمنت الموت أن يأتيك ورعيتك على بابك ينتظرونك وأنت محتجب عنهم؟ فقام عمر فخرج للناس(٣).

لا راحة قبل اداء الواجب

لقد جاء الناس الى عمر بن عبد العزيز من كل رقعة في الدولة ليرد لهم مظالمهم، فاحتشدوا على بابه وأسرعوا إليه في كل مكان كان فيه في دمشق أو خناصرة أو حلب، على الرغم من أنّه قد أرسل كتبه الى ولا ته

---

١ ــ صفة الصفوة ١١٥ــ٢/١١٦ وابن الجوزى ٥٤، ١٠٤.

٢ ــ لقد مات عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز قبل أبيه وهو دون العشرين.

٣ ــ صفة الصفوة ٢/١٢٩ وابن الجوزى ٢٦٢.

جميعا يدعوهم الى رد المظالم، وليكن هذا هو المهم الأول لكل منهم، فقد كتب الى ولاته بالعراق في رد المظالم لأهلها فردوها حتى أنفدوا ما في بيت مال العراق، وحتى حمل إليهم عمر الأموال من الشام(١). وكان في العراق مظالم فاقت الحد بسبب ظلم الحجاج وولاته.

رد مظالم العراق

و يكتب الى والى المدينة أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أن استبرىء الدواوين فانظر الى كل جور جاره من قبلى من حق مسلم أو معاهد فرده عليه. (بل إنَّ عمر بن عبد العزيز لينظر الى أبعد من ذلك فما العمل إذا كان المظلوم قد مات؟ هل يضيع حقه بموته وتبقى مظلمته في بيت مال المسلمين؟ لا ــ بل كان خطابه صريحا) فإن كان أهل تلك المظلمة قد ماتوا فادفعه الى ورثتهم(١).

والمدينة

لقد بلغ عمر بن عبد العزيز قمة في الإحساس بالظلم الواقع على عباد الله فأراد أن يقتلع جذوره من أرضها.

واليمن

و يكتب الى والى اليمن بذلك ــ وكان على اليمن قبل عهد عمر محمد بن يوسف أخو الحجاج وكان كأخيه ظالما. فلاقى أهل اليمن منه ما لاقى أهل العراق من الحجاج أو قريبا منه، فكان هذا الوالى يكتب الى عمر في كل مظلمة سائلا ومدققا كأنه كان خائفا من تحمل المسئولية،

دعوة الى تحمل المسئولية

فيكتب اليه عمر، أما بعد فإنى أكتب إليك آمرك أن ترد على المسلمين مظالمهم فتراجعنى ولا تعرف بعد المسافة ما بينى و بينك، ولا تعرف أحداث الموت، حتى لو كتبت إليك أن اردد على مسلم مظلمة شاة، لكتبت أرددها عفراء أو سوداء، فانظر أن ترد على المسلمين مظالمهم ولا تراجعنى(٢).

---

١ ــ الطبقات ٥/٢٥٢.

٢ ــ الطبقات ٥/٢٨١ وابن الجوزى ٩٧.

أراد عمر بن عبد العزيز أن يكون في رد المظالم لا مركزية، وأن يتحمل كل وال مسئوليته كاملة في رد المظالم، ولكن بعض الولاة كان لا يزال يعيش بعقلية عهد مظلم، فلا يقضى أمرا إلاّ باستشارة مركز الخلافة الرئيسي، حتى كثر الناس حول الخليفة يطلبون رد مظالمهم، فيخطبهم يوما فيقول: ياأيها الناس الحقوا ببلادكم فإنى أنساكم عندى وأذكركم ببلادكم، ألا وإنى قد استعملت عليكم رجالا لا أقول هم خياركم، ولكنهم خير ممن هو شر منهم، ألا فمن ظلمه إمامه مظلمة فلا إذن له عليَّ ومن لا فلا أرَيَنَّه(١).

أمان للغرباء وتهديد للعمال

وبمجرد أن أعلن في الناس بأن من كان له مظلمة فليأته، و بينما هو في سوق حمص إذ يقوم عليه رجل عليه بردان قطريان فيقول: ياأمير المؤمنين أمرت من كان مظلوما أن يأتيك؟ قال: نعم. قال: فقد أتاك مظلوم بعيد الدار. فقال له عمر: وأين أهلك؟ قال: بعدن أبين. قال عمر: والله إن أهلك من أهل عمر لبعيد، فنزل عن دابته في موضعه ــ (فينظر المتكبرون المتعجرفون الذين لا يملكون عشر معشار ما كان يملك عمر بن عبد العزيز، يأتيه المظلوم ويخاطبه في السوق فينزل له عن دابته في مكانه لم يطرده الحراس ولم يقبض عليه الجنود ولم يهنه المتزلفون ولم يهمله الخليفة) ــ بل يسأله وما ظلامتك؟ قال: ضيعة لى وثب عليها واثب فانتزعها منى. فكتب الى عروة بن محمد واليه على اليمن يأمره أن يسمع بينته فأن ثبت له حق دفعه إليه وختم كتابه، ــ (كل ذلك في السوق ولكن هل يترك عمر الرجل ينطلق بمجرد أن استلم كتاب الخليفة بالتحقيق في أمره، لا بل إنَّ العدالة وحب الخير للناس تفعل أكثر من ذلك مما لا يتصوره أحد) إذ لما أراد الرجل القيام والانصراف قال له عمر: على رسلك ــ (أى تمهل) إنَّك قد أتيتنا من بلد بعيد فكم نفد لك زاد أو نفقت لك راحلة

رد المظالم ولو في السوق

---

١ ــ ابن عبد الحكم ٣٦ وابن الجوزى ٢١٠.

وأخلق ثوب؟ فحسب ذلك فبلغ أحد عشر دينارا فدفعها عمر اليه(١).

نفقات سفر المظلوم على الدولة

بالله ياعمر ما أكرمك وأرحمك؟ لقد كان عمر يرى أن من واجبه أن يوصل لكل ذى حق حقه وهو في مكانه، فإذا انتقل إليه يطالبه به كان لزاما عليه أي على الخليفة والدولة أن تدفع له كل نفقة أنفقها في سبيله.

و يقوم عمر بن عبد العزيز الى قائلته فيعرض له رجل بيده طومار(٢)، فيظن الحرس أنه يريد عمر بشر فيخاف الرجل أن يحبس دون عمر فيرميه بالطومار، فيلتفت عمر ناحية الرجل فيصيب الطومار وجهه فيشجه، يقول راوى الوقعة، فنظرت الى الدماء تسيل على وجه عمر وهو في الشمس فقرأ الكتاب وأمر للرجل بحاجته وخلى سبيله(٣). لم يعاقب الرجل ولم يأمر بسجنه أو على الأقل بطرده، وإنّما حلم وتحمل وقضى للرجل حاجته، فهل يحاول أحد الحاكمين الآن أن يبلغ مبلغه أو عشر ما بلغ عمر؟.

ولكن هل يكتفى عمر برد المظالم باستبراء الدواو ين وبمطالبة أر بابها بها؟ إنَّ هناك مظالم ليست في الدواو ين وأهلها قد يكونون بعيدين عن مقر الخلافة. أو لا يستطيع الولاة رد تلك المظالم لسبب أو لآخر، فماذا يفعل عمر لكى يقضى على تلك المظالم ولكى يشعر بالرضاء النفسى لما يفعل و يرى أنه حقق عدلا ومحا ظلما وأزال جورا؟.

منشور عام

لقد خاطب الأمة خطابا عاما حثهم فيه على بيان الحقوق الضائعة، و يرغبهم في الكشف عن المظالم الخفية، بل و يدفع لكل من يكشف عن مظلمة أجراً، حيث قال في منشور عام قرىء على الناس في موسم الحج «وأيما وارد ورد في أمر يصلح الله به خاصة أو عامة فله ما بين مائة دينار

---

١ ــ الحلية ٥/٢٨٠.

٢ ــ الطومار أى طبق ورق غليظ.

٣ ــ الحلية ٥/٣١١ وابن الجوزى ١٧٧.

إلى ثلاث مائة، وعلى ما قد نرى من الحسبة وتجشم المشقة، فرحم الله امرءا لم يتعاظمه سفر يحيى به الله حقا لمن وراءه(١).

مع رجل من أذبيجان

و يأتيه رجل من أهل أذربيجان(٢) فقام بين يديه وقال: ياأمير المؤمنين اذكر بمقامى هذا بين يديك مقامك غدا بين يدى الله حيث لا يشغل الله عنك فيه كثرة من يخاصم من الخلائق، من يوم تلقاه بلا ثقة من العمل ولا براءة من الذنب. قال: فبكى عمر بكاء شديدا ثم قال له: ما حاجتك؟ قال: إنَّ عاملك ــ بأذربيجان عدا على فأخذ منى اثنى عشر ألف درهم فجعلها في بيت المال. فقال عمر: اكتبوا له الساعة الى عاملها فليرد عليه. ثم أرسله مع البريد(٣).

يكتب إليه واليه على الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن: ان هاهنا ألف رأس كان للحجاج أو عند الحجاج. فكتب إليه عمر: أن بعهم واقسم أثمانهم في أهل الكوفة.

فقال الوالى للناس: ارفعوا ــ أى اكتبوا أسماءكم ــ (والناس هم الناس والضمائر في كثير منهم ميتة أو عليلة يحبون المال ولو من وجه غير حق) ــ قال: فأدغلوا(٤) وكتبوا الباطل. فكتب الوالى الى عمر بذلك: أى أنّ الناس قد أدغلوا. فكتب اليه عمر: نوليهم من ذلك ما ولانا الله أعطهم ما رفعوا، فأصاب الناس سبعة دراهم يقول الراوى للخبر، وكان كل يوم يجيء خير من عمر بن عبد العزيز(٥).

---

١ ــ الحلية ٥/٢٩٣ وابن الجوزى ٧٣.
٢ ــ أذر بيجان: اقليم واسع في ايران من مدنه تبريز. قاموس ٤/١٩٥ تعليق.
٣ ــ البداية والنهاية ٩/٢١٨ ابن الجوزى ١٤١.
٤ ــ أدغل: أى خان القاموس ٣/٣٣٦.
٥ ــ الطبقات ٥/٢٧٦.

و يأتيه رجل فيقول: إنى زرعت زرعا فمر به جيش من أهل الشام فأفسده فيعوضه عمر بعشرة آلاف درهم(١).

ولم يكن عمر بن عبد العزيز ليشدد على الناس في بيناتهم عند عرض مظالمهم، فقد كان يعلم ظلم الخلفاء قبله والولاة، ولذلك يقول أبو الزناد(٢). كان عمر يرد المظالم الى أهلها بغير البينة القاطعة، كان يكتفي بأيسر ذلك إذا عرف وجها من مظلمة الرجل ردها عليه، ولم يكلفه تحقيق البينة لما كان يعرف من غشم الولاة(٣).

زكاة الدين

ولم يكتف عمر بأن يرد المظالم من بيت المال الى أهلها بل هو لا ينسى هنا حق الله عز وجل في تلك الأموال المردودة أو الأموال المنهوبة. وهو كفقيه ومسئول كان يأمر بأن تؤخذ زكاة تلك الأموال المردودة، ولكنه اختلف نظره في قيمة المأخوذ هل يأخذ زكاة كل السنين الماضية ــ لقد كان هذا اجتهاده أوّلاً ــ ولكنه بعد ذلك أعاد النظر فرأى أنَّ هذا المال كان ميئوسا منه، والمال الميئوس منه إذا حصله صاحبه لم يزكه إلاّ لسنة واحدة ــ وهذا أعدل الأقوال فيه ــ وفي هذا قالوا: إنَّ عمر بن عبد العزيز رد مظالم في بيوت الأموال فرد ما كان في بيت المال وأمر أن يزكى لما غاب عن أهله من السنين، ثم عقب بكتاب آخر. إنّى نظرت فإذا هو ضمار ــ (أى ميئوس منه) لا يزكى إلا لسنة واحدة(٤).

الرجوع الى الحق خير من التمادى في الباطل

ما أشد ورعك ياعمر لم تتكبر أن تعود الى الحق الذى رأيته، حتى ولو كنت أبديت رأيا سابقا، فلم تصر عليه لأنك رأيت بطلانه ولم تر الرجوع

---

١ ــ الحلية ٥/٣٢٥ الخراج لابى يوسف ١١٩، ابن الجوزى ٧٩.

٢ ــ أبو الزناد: عبد الله بن ذكوان كان كاتبا لعبد الحميد بن عبد الرحمن. الوزراء والكتاب ١/٢٠.

٣ ــ الطبقات ٥/٢٥٢ ابن عبد الحكم ١٠٦ــ١٠٧.

٤ ــ الطبقات ٥/٢٥٢.

عن الرأى الأول غاضا من قيمتك أو مقللاً من مكانتك، لأنك رأيت كما رأى جدك أن الرجوع الى الحق خير من التمادى في الباطل ــ رحمك الله ياعمر.

خير دائما

و يقولون: ما كان يقدم على أبى بكر بن محمد بن حزم ــ والى المدينة ــ كتاب من عمر إلاّ فيه رد مظلمة أو إحياء سنة أو إطفاء بدعة أو قسم أو تقدير عطاء أو خير حتى خرج من الدنيا(١) رحمه الله.

الرحمة بالفقراء

وقد التفت عمر بن عبد العزيز الى أشياء قل أن يلتفت إليها وال مسئول منها: إنَّ الدنانير التى تسكها الدولة قد تفسد ولا تروج لسبب من الأسباب فتقع في يد الفقير الذى يتضرر بوجودها معه لأنّه لا يعرف كيف يستفيد منها مادامت لا تنفق ففتح عمر بنظرته الرحيمة الواسعة الباب أمام أولئك الفقراء فأمر خزان بيوت الأموال وكتب إليهم: إذا جاءكم الضعيف بالدينار لا ينفق منه فأبدلوه عنه من بيت المال(٢).

عقوبة المزيفين

ولكنه الى جانب ذلك لم يكن متساهلا مع العابثين والمفسدين في الأرض إذ أنه وقع تحت يده رجل نقش على خاتمه فحبسه خمس عشرة ليلة ثم خلى سبيله(٣) تأديبا له وعبرة لغيره.

و يؤتى برجل يضرب على غير سكة السلطان فعاقبه وسجنه وأخذ حديده فطرحه في النار(٤).

---

١ ــ الطبقات ٥/٢٥٢.

٢ ــ الحلية ٥/٣١١ والطبقات ٥/٢٧٦.

٣ ــ الحلية ٥/٣١١.

٤ ــ فتوح البلدان ٥٧٧.

المبحث الثالث

بعض إصلاحاته الداخلية

«وقدمت على عمر بن عبد العزيز في خلافته فوجدته قد
جعل للخمس بيت مال على حدة وللصدقة بيت مال على حدة
وللفيء بيت مال على حدة»(١)

إسحٰق بن يحيى

أمران مهمان

رأى عمر بن عبد العزيز ما أصاب بيت مال الأمة من تصدع يوشك منه على الانهيار، ورأى ما أصاب الأمة من جور وظلم أوشكت منه الأمة على الهلاك، فوضع نصب عينيه أمرين: أولهما: إصلاح أوضاع بيت المال وثانيهما وهو الأهم ــ وما الأوّل إلاّ وسيلة له ــ وهو رفع الجور عن الأمة وإشعار كل فرد أنه آمن على دمه وماله وعرضه، سواء كان من المسلمين أو أهل ذمتهم ــ وإنَّ كل واحد منهم له حق في بيت المال يجب أن يصل إليه ولو لم يطلبه. وإن كل إنسان عليه حق يجب عليه أن يؤديه. وإنَّ المحسن يجب أن يجازى بإحسانه ليزداد إحسانا، وأن المسيء يجب أن ينال عقوبة رادعة ليتأدب و يتعظ به غيره و يكف عدوانه، و يعيش الناس في أمن وطمأنينة وسلام.

١ ــ تنظيم بيت المال

ونظر الى بيت المال فوجده فوضى كما رأينا اختلطت فيه الموارد واشتبكت فيه المصادر، لأنَّه لم يكن ينظر الى موارده بنظر الشرع ولا الى مصارفة بنظر العدالة. فكان أول عمله منه أن نظمه وجعله أقساما ثلاثة تبعا للموارد الشرعية التى تدخل بيت المال، فكان ثلاثة بيوت في بيت:

الخمس والفيء

إذ جعل بيت مال للخمس أفرده على حدة ضمن بيت المال الكبير على ألا يختلط ما يدخل هذا القسم بغيره من الأقسام لاختلافه عنها موردا ومصرفا. وكذلك جعل للفيء بيت مال على حدة كذلك. وفعله هذا يشير

---

١ ــ الطبقات ٥/٢٩٥.

الى أنه كان يرى أنَّ الخمس والفيء قسمان مختلفان موردا ومصرفا ــ ولكن في كتاب عام له تضمن كثيرا من الأحكام يقول: وأما الخمس فإن من مضى من الأئمة اختلفوا في موضعه ــ فطعن في ذلك طاعن من الناس وأكثر فيه ووضع مواضع شتى فنظرنا فإذا هو على سهام الفيء في كتاب الله لم تخالف واحدة من الاثنتين الأخرى فإذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد قضى في الفيء قضاء قد رضى به المسلمون. فرض للناس أعطية وأرزاقا جارية لهم، ورأى أن لن يبلغ بتلك الابواب ما جمع من ذلك، ورأى أن فيه لليتيم والمسكين وابن السبيل، فرأى أن يلحق الخمس بالفيء وأن يوضع مواضعه التى سمى الله وفرض، ولم يفعل ذلك إلاّ ليتنزه منه وخيفة التوهم فيه، فاقتدوا بإمام عادل فإن الآيتين متفقتان آية الفيء وآية الخمس فإنَّ الله قال: «**مَا أَفَآءَ اللهُ عَلَى رَسُولِه مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّه وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى والمَسَاكِيْن وابْنِ السَّبِيلِ**»(١) وكذلك فرض الله الخمس ــ يشير الى قوله تعالى «**وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمُ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ للهِ خُمسَهُ وللرَّسُولِ وَلِذى القُرْبَى واليَتَامٰى وَالمَسَاكِيْن وَابْنِ السَّبِيْلِ**»(٢) ــ فنرى أن يجمعا جميعا فيجعلا فيئا للمسلمين ولا يستأثر عليهم ولا يكون دولة بين الاغنياء منكم(٣).

ففي هذا النص نرى أن عمر بن عبد العزيز قد ضم الخمس الى الفيء، فجعلهما فيئا للمسلمين فهل قسمهما موردا فقط ووحدهما مصرفا كما هو المفهوم من هذا النص أم أنه فرقهما أوّلاً ثم اطلع على ما فعله عمر ابن الخطاب رضى الله عنه فجمعهما أخيرا؟.

---

١ ــ الحشر الآية ٧.

٢ ــ الانفال الآية ٤١.

٣ ــ ابن عبد الحكم ٨٠ــ٨١.

ثم إنَّه جعل للصدقة بفروعها بيتا على حدة وقسما مميزا عن القسمين السابقين حتى لا يدخل مال على مال ولا يأخذ أحد غير ماله المستحق له.

وهذا في الحقيقة تقسيم تفرضه الشريعة لأننا رأينا في مبحث بيت المال في صدر الاسلام ص ٢١٨ أن الشريعة جعلت للخمس موردا خاصا وهو الغنائم، ومصرفا خاصا وهو ما ذكر الله عز وجل، وكذلك الفيء له موارد خاصة ومصارف خاصة كذلك ذكرت في الآية ٧ من سورة الحشر، وكذلك جعلت الشريعة للصدقة أى الزكاة موارد خاصة بمقادير محددة بينتها السنة، ومصارف خاصة بموجب الأمر الإلهى «**إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِيْنِ والعَامِلِيْنَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوْبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِيْنَ وَفِي سَبِيْلِ الله وابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ الله**»(١). ودليل الصدقة قوله تعالى «**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِم صَدَقَةً تُطَهِرُهُم وَتُزَكِيهِم بِهَا**»(٢).

وكما رأينا فأنه لا يجوز إعطاء من الخمس أو الفيء لأحد مصارف الزكاة. كما لا يجوز العكس أى إعطاء من الزكاة لغير أحد مصارفها الثمانية.

أخذ الصدقة من الناس

وقد كانت الزكاة فريضة مهملة في عهد بنى أمية، فلم يكونوا يعتنون بجمعها من الأغنياء ولا توزيعها بين مستحقيها وخاصة منها الأموال الباطنة أى الذهب والفضة وعروض التجارة. حيث أن عثمان رضى الله عنه تركها لأ ربابها يخرجونها، وقد كان الناس في عهده لازال فيهم ورع وتقوى ومراقبة لله عز وجل فكان الناس يخرجون زكاة أموالهم وإن لم يطالبهم بها أحد، ولكن لما فسد الناس قل من كان يخرجها منهم. فكان

---

١ ــ التوبة الآية ٦٠.

٢ ــ التوبة ١٠٣.

من أول ما اعتنى به عمر بن عبد العزيز إحياء هذه الفريضة، وأقام لها العمال يجمعونها و يوزعونها على المستحقين لها وما زاد حمل الى بيت المال في دمشق مرصودا لأ ربابه من الأصناف الثمانية. وفي ذلك يقول ابن ثوبان: إن عمر بن عبد العزيز أخذ الصدقة من حقها وأعطاها في حقها، وأعطى العاملين بقدر عمالتهم مثل ما يعطى مثلهم وقال: الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أقمت فريضة من فرائضه(١).

الاعتداء في الصدقة

ومن الأدلة على أنَّ من قبل عمر كانوا يعتدون في الصدقة النص التالى: دخل عامل لعمر بن عبد العزيز عليه فقال: كم جمعت من الصدقة؟ فقال: كذا وكذا. قال: فكم جمع الذى كان قبلك؟ قال: كذا وكذا فسمى شيئا أكثر من ذلك. فقال عمر من أين ذاك؟ قال: ياأمير المؤمنين إنّه كان يؤخذ من الفرس دينار ومن الخادم دينار ومن الفدان ــ أى بقر الحرث ــ خمسة دراهم. وإنَّك طرحت ذلك كله. قال لا والله ما ألقيته ولكن الله ألقاه(١)ــ لانه لا زكاة على الخيل ولا على الرقيق ولا على بقر الحراثة، فكان بنو مروان لظلمهم يأخذون منها الصدقة فهذا اعتداء وتعد لحدود الله ولذلك طرحه عمر وأمر عماله بالرجوع الى الحق.

اصلاحاته في الخمس

ومن إصلاحات عمر في الخمس حرصه على استيفائه أوّلاً من القواد الذين كانوا في الغالب يستولون عليه و ينفقونه بحسب أهوائهم. فهذا يزيد ابن المهلب لما دعاه عمر سأله عن الأموال التى كتب بها الى سليمان ــ (وقد مر معنا أنَّ مبلغ الخمس كان ستة ملايين درهم)ــ فيقول يزيد: كنت من سليمان بالمكان الذى رأيت ــ(أى أنّه كان مقربا من سليمان)ــ وإنَّما كتبت الى سليمان لأسمِّع الناس به، وقد علمت أنَّ

---

١ ــ الطبقات ٥/٢٧٧.

سليمان لم يكن ليأخذنى به ــ(وفي هذا دليل على التسامح في مال الله وإعطائه لغير مستحقيه) فيقول له عمر: لا أجد في أمرك إلاّ حبسك فاتق الله وأدِّ ما قبلك وإنَّها حقوق المسلمين ولا يسعنى تركها. وحبسه بحصن حلب(١)ــ ولو كان غير عمر بن عبد العزيز لسجن يزيد واستعمل معه كل وسائل التعذيب حتى يستخرج منه المال كما فعل الحجاج معه، ولكن عمر كان متمسكا بالسنة ملازما للشريعة التى لا تبيح للدائن إلاّ ملازمة المدين، ومادام الأمر يتعلق بحق الله فليس في يزيد إلاّ الحبس حتى يدفع ما عليه.

و يقول أحد معاصريه: إن عمر بن عبد العزيز لم يزل رأيه والذى يشير به على من ولى هذا الأمر من أهل بيته توفير هذا الخمس على أهله. فكانوا لا يفعلون ذلك، فلما ولى الخلافة نظر فيه فوضعه في مواضعه الخمسة وآثر به أهل الحاجة من الأخماس حيث كانوا فإن كانت الحاجة سواء وسع في ذلك بقدر ما يبلغ الخمس(٢).

و يقول آخر: إنَّه رأى عمر بن عبد العزيز يقدم عليه بالسبى من الأخماس فربما رأيته يضعهم في الصنف الواحد(٣).

وعن كاتبه ليث بن أبى رقية أنَّ عمر بن عبد العزيز كتب: ان سبيل الخمس سبيل الفيء(٤)، وهذا تأكيد لكتابه السابق في توحيد مصرف الخمس والفيء.

---

١ ــ الكامل لابن الا ثير ٥/٤٩ فتوح البلدان ٤١٤.
٢ ــ الطبقات ٥/٢٥٨.
٣ ــ الطبقات ٥/٢٥٨.
٤ ــ الاموال ٤٤٦.

ومن إصلاحاته في الخمس رده خمس رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيبر، فعن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال: كتب اليَّ عمر ابن عبد العزيز في خلافته أن افحص لى عن الكتيبة أكانت خمس رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيبر أم كانت لرسول الله خاصة؟ قال أبو بكر: فسألت عمرة بنت عبد الرحمن(١) فقالت: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما صالح بنى أبى الحقيق جزأ النطاة والشق خمسة أجزاء فكانت الكتيبة جزءا منها. ثم جعل رسول الله خمس بعرات وأعلم في بعرة منها لله مكتوبا، ثم قال رسول الله اللهم اجعل سهمك في الكتيبة فكانت أوَّل ما خرج السهم الذى مكتوب فيه لله على الكتيبة. فكانت الكتيبة خمس رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وعن بشر بن حميد المزنى قال: دعانى عمر بن عبد العزيز فقال لى خذ هذا المال الأربعة آلاف دينار أو خمسة آلاف دينار فاقدم بها على أبى بكر ابن حزم فقل له فليضم اليه خمسة آلاف أو ستة آلاف حتى يكون عشرة آلاف دينار وأن تأخذ تلك الآلاف من الكتيبة ثم تقسم ذلك على بنى هاشم وتسوى بينهم(٢). وهذا من سهم ذوى القربى وكان بنو هاشم حرموا ذلك منذ تولى معاوية واستولى بنو أمية على خيبر لأنفسهم.

توحيد بيت المال في الدولة ككل

ومع أنَّ عمر رحمه الله قسم بيت المال بحسب موارده، ولكنه من جانب آخر وحد بيت المال في الدولة ككل فما نقص في جانب فاض عليه جانب آخر، فكانت بيوت أموال الأقاليم كلها تعتبر فروعا لبيت المال المركزى بدمشق، فإذا اكتفى بيت مال الإقليم بما عنده كان بها وإذا نقص عوض النقص من أقرب الأقاليم إليه أو من البيت المركزى،

---

١ ــ ابن أسعد بن زرارة النجارية كانت عالمة. رَوَت عن عائشة وأم سلمة الطبقات ٨/٣٥٣.
٢ ــ الطبقات ٢٨٧ــ٢٨٩/٥.

وكذلك إذا زاد المال عن حاجة الإقليم نقل الى إقليم قريب محتاج أو إلى بيت المال المركزى وهو الغالب.

وسنرى بإذن الله مزيدا من الحديث عن عمل عمر في المال في مباحث تالية.

من اصلاحاته الاخلاقية

ورأى عمر أنَّ البلاد الإسلامية قد أصاب الأمة فيها فساد أخلاقي كبير إذ انتشر شرب الخمر بين المسلمين بتأثير تعطيل حدود الله وإقدام الأمراء والعظماء و بعض القواد على شر بها، فأصدر منشورا عاما ينهى فيه عن الخمر وصناعتها و بيعها، بل أتبع القول الفعل فأمر بزقاق الخمر أن تشقق و بالقوارير أن تكسر(١).

منع الخمور

وقد كان أهل الذمة هم صانعى الخمور ومروجيها بين المسلمين فكتب الى الأمصار بمنع أهل الذمة من الدخول في أمصار المسلمين بالخمر(١). ومن أعمال واليه بمصر «زيد في عطايا الناس عامة وعطلت حانات الخمر وكسرت باشارة من أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز(٢). وكان مما قاله في كتاب طو يل الى واليه على مصر» ولعمرى إنَّ ما قرب الى الخمر في مطعم أو مشرب أو غيره ليتقى، وما يشرب أولئك شرابهم إلاّ من تحت أيدي النصارى الذين يهون عليهم زيغ المسلمين في دينهم ودخولهم فيما لا يحل لهم، مع الذي يجمع نفاق سلعهم و يسارة المؤونة عليهم. الى أن يقول: فإنا من نجده يشرب منه شيئا بعد تقدمنا إليه فيه نوجعه عقوبة في ماله ونفسه ونجعله نكالا لغيره، ومن يستخف بذلك منا فإنَّ الله أشد عقو بة وأشد بأسا وأشد تنكيلا(٣).

وأحيا حدود الله فحد شارب الخمر ثمانين وهدده بالضرب إن عاد ثم بالحبس المؤبد حتى يحدث تو بة(٣) لأنه رأى وأحس مفاسد الخمر وما ينتج عنها من أضرار اجتماعية وأخلاقية ودينية.

---

١ ــ الطبقات ٥/٢٦٩.

٢ ــ النجوم الزاهرة ١/٢٣٨.

٣ ــ ابن عبد الحكم ٨٥ــ٧٦.

والتفت الى السجون فرأى فيها أناسا مختلفى الجرائم فمنها جرائم قتل وجرائم أخلاقية وجرائم مالية، فأصدر منشورا عاما للنظر في تلك السجون وإقامة الحد على من يستحقه والاستيثاق من أهل الفساد، وجعل المساجين بسبب جرائم مالية على حدة وعدم خلطهم بالمجرمين الأخلاقيين. إذ كتب يقول الى أمراء الأجناد: وانظروا من في السجون ممن قام عليه الحق ــ الحد ــ فلا تحبسه حتى تقيمه عليه، ومن أشكل أمره فاكتب إليَّ فيه واستوثق من أهل الذعارات ــ أى المجرمين ــ فأن الحبس لهم نكال ولا تعدى في العقوبة(١)ــ المراد هنا العقوبة دون الحد أى التعزيرات للجرائم التى لا حد عليها ــ فقد كان كثير من الحكام الظلمة ولا يزالون يزيدون في عقوبة بعض الجرائم الاجتماعية أو السياسية أو الأخلاقية أو الجرائم التى لم يثبت فيها حد، فيعاقبون المجرم فوق الحد وقد كان يصل الأمر في عهد عبد الملك والوليد وسليمان والحجاج الى قتل من سب الخليفة مثلا. فأصدر عمر منشورا الى والى مصر كما أرسله الى غيره ــ «أن لا تزيد في عقوبة على ثلاثين ضربة إلاّ أن يكون حدا»(٢).

مع المساجين

ثم هو يستوصى بالمساجين خيرا و يأمر أمراء أجناده بأن يتعاهدوهم و يكسوهم فهو يقول: وتعاهد مريضهم ممن لا أحد له ولا مال. وإذا حبست قوما في دين فلا تجمع بينهم و بين أهل الذعارات في بيت واحد ولا حبس واحد (نظرة من الخليفة الراشد لم يصل إليها بعد كثير ممن يتشدقون بحقوق الإنسان حتى في القرن العشرين. المجرمون العاديون في سجن خاص، والمدينون الذين حبسوا لعدم وفاء ديونهم أو لالتزامات مالية في سجن خاص حتى يؤدوا ما عليهم، وهذا من حقهم فهم لم يجرموا ولم يفسدوا في الأرض، وقد يكونون من ذوى الهيئات وذوى

الوصية بالمساجين

---

١ ــ الطبقات ٥/٢٦٢.

٢ ــ الطبقات ٥/٢٦٩.

الاخلاق الحميدة وإنّما اضطروا الى الدين ولم يستطيعوا وفاء. وسنرى بعد ذلك أن عمر بن عبد العزيز يؤدي عن كل مدين في غير سفه دينه من بند الغارمين) ثم يقول: واجعل للنساء حبسا على حدة ــ (أين هذا من صنع الحجاج أخزاه الله حينما كان يسجن الرجال والنساء معا في سجن لا سقف له صيفا وشتاء ثم إذا ضجوا واشتكوا يقول لهم «**اخسأوا فيها ولا تكلمون**»(١) أين هذه الرحمة من تلك القسوة بل أين هذه العدالة من ذلك الظلم والجور؟). ثم يوصى أمراءه بقوله «وانظر من تجعل على حبسك ممن تثق به ومن لا يرتشى فإن من ارتشى صنع ما أمر به»(٢).

حراس السجون

هذه نظرة من ينظر بنور الله وتوجيه حكيم للأمراء لكى يختاروا حراس السجون من الأمناء الذين لا يرتشون. وهل هناك أوضح بيانا لشأن المرتشى وعدم الثقة به من قوله «فإنّ من ارتشى صنع ما أمر به»؟ وإلاّ كيف يفر المجرمون من السجون؟ وكيف تدخل الممنوعات والأسلحة وغير ذلك إلاّ بواسطة الحراس المرتشين؟.

ولكن رحمة عمر بن عبد العزيز لا تكتفى بذلك، بل إنّه ليسمو فوق كل تقدير إذ أمر ولاته أن يعرضوا أهل السجن في كل سبت و يستوثقوا من أهل الذعارات(٣) فمن تأدب أطلق سراحه، ومن أدى دينه أو ظهرت براءته فيجب الإفراج عنه ولا يبقى في السجن إلا أهل الذعارات أى الفساد في الأرض، ولكن حتى هؤلاء لا تهملهم رحمة عمر ولا عدالته فمريضهم يتعاهد و يعالج كما مر وزاد بأن أمر لهم بكسوة طاقا في الشتاء وثوبين في الصيف وأشياء كثيرة من مصلحتهم(٣)، بل و يكتب لهم برزق الصيف والشتاء(٤).

---

١ ــ البداية والنهاية ٩/١٥٤.

٢ ــ الطبقات ٥/٢٦٢.

٣ ــ الطبقات ٥/٢٦٣.

٤ ــ الطبقات ٥/٢٦٢.

ثم ينظر عمر بن عبد العزيز الى اتساع الدولة الإسلامية و بعد أطرافها وتباعد ثغورها وأن كثيرا من المسلمين يسافرون من مكان الى مكان ومنهم من يرابط في تلك الثغور وقد لا يجد أحدهم مكانا ينزل فيه في سفره ذاك. فيرسل الى واليه على سمرقند ــ سليمان بن أبي السرى ــ ولعله كتب لغيره أيضاً ــ: أن اعمل خانات ــ (أى فنادق). فمن مر بك من المسلمين فأقروه ــ (أى استضيفوه) يوما وليلة وتعهدوا دوابهم، ومن كانت به علة فأقروه يومين وليلتين، وإن كان منقطعا فأبلغه بلده(١).

اعمل الخانات للمسافرين

بل إنَّ إصلاحات عمر بن عبد العزيز وعدالته بلغت الأوج والأسمى ولا أعتقد أن حاكما مهما كان فعل أو سيفعل مثلما فعل عمر بن عبد العزيز مع أهل سمرقند، إذ أنَّ أهل سمرقند ــ بعد تولية عمر بن عبد العزيز ــ قالوا لواليهم: إن قتيبة بن مسلم ظلمنا وغدر بنا، فأخذ بلادنا وقد أظهر الله العدل والإنصاف فأذن لنا فليقدم منا وفد على أمير المؤمنين. فأذن لهم فوجهوا وفداً الى عمر فكتب لهم الى سليمان: إن أهل سمرقند شكوا ظلما وتحاملا من قتيبة عليهم حتى أخرجهم من أرضهم، فاذا أتاك كتابى هذا فأجلس لهم القاضي فلينظر في أمرهم فإن قضى لهم فأخرج العرب الى معسكرهم كما كانوا قبل أن يظهر عليهم قتيبة.

مع أهل سمرقند

فأجلس لهم سليمان القاضي جميع بن حاضر الناجى فقضى أن يخرج عرب سمرقند الى معسكرهم و ينابذوهم على سواء فيكون صلحا جديدا أو ظفرا عنوة. فقال أهل الصغد: بل نرضى بما كان ولا نحدث حربا وتراضوا بذلك(٢).

حق تقرير المصير

---

١ ــ الكامل لابن الاثير ٥/٦٠ والطبقات ٥/٢٥٤ الطبرى ٨/١٣٨.

٢ ــ الكامل لابن الاثير ٥/٦٠ــ٦١ الطبرى ٨/١٣٨.

فأى عدالة بعد هذه وأى رجوع للحق فوق هذا؟ ليس هناك من دافع يدفع عمر بن عبد العزيز الى استجابة مطلبهم إلاّ رغبته في إحقاق الحق ورفع راية العدالة في كل مكان، وإلاّ فأى ملك او سلطان يستجيب لأهل مدينة فتحت عنوة قبل سنوات ورضخ أهلها للقوة، ودخل كثير من أهلها الإسلام، وما عرفوا أن بلادهم فتحت غدرا إلاّ بعد معاشرتهم للمسلمين ومعرفتهم بأوامر الإسلام في ذلك.

فرية خبيثة باطلة

ثم يأتى بعد ذلك مستشرق متعصب ملأ الحقد على الإسلام عقله وقلبه فيقول: «ولما ارتقى عمر بن عبد العزيز عرش الخلافة شكا اليه أهل سمرقند تلك الحالة الجائرة، فأمر أحد قضاته بالنظر في هذه المسألة. فقضى بينهم بحكم يكاد يخفى ما انطوى عليه من الخبث حتى على أشد الناس نزاهة، وذلك أن يتقابل الفريقان من العرب ومن أهل سمرقند تحت أسوار المدينة وأن يؤخذوا بالقوة أو أن تعقد معهم محالفة جديدة. ومعنى ذلك أنه إذا انتصر العرب ــ وهو ما كان راجحا ــ عاملوا أهل سمرقند معاملة من فتحت بلاده عنوة اللهم إلاّ إذا فضلوا قبول ما عسى أن يفرض عليهم من الشروط، ومن الجلى أن حكم ذلك القاضي لم يغير تلك الحالة في شيء(١).

هذه هي تهجمات وافتراءات ذلك المستشرق الضال فهو يدعى أن رضاء عمر بن عبد العزيز بإقامة قاض يقضى في الأمر وأن قضاء القاضي كان من الخبث بمكان، والمستشرقون هذا دأب أكثرهم يأتون لقضية واضحة وضوح الشمس تدل على عدالة رجال الإسلام وانصياع خلفائهم وقضائهم للحق وسماحة الإسلام فيدعون أن هذا عن خبث أو سوء نية

---

١ ــ السيادة العربية ٢٣.

وراءة طويلة، قاتلهم الله أنى يؤفكون. ولو فعل هذه الفعلة أو أدنى منها حاكم غربي مستعمر في بلد مستعمر لملأوا الدنيا دعاية وإعلاماً بعدالتهم وحبهم للشعوب ورحمتهم بالمستعمرين، وهؤلاء الذين يمثلهم ذلك المستشرق هم الذين لم يعرفوا حق تقرير الشعوب لمصيرها إلاّ في بداية القرن العشرين بعد أن ثارت الشعوب على استبدادهم واستغلالهم لخيراتها وكنوزها، وإلا بعد أن وثقوا أنهم سينالون ما يريدون منها عن طريق آخر غير الاحتلال. فهل كان من الخبث أن يستمع الخليفة لشكوى أهل سمرقند؟ فلو لم يستمع لشكواهم وردهم خائبين فماذا كان يقول أمثال ذلك المستشرق الضال؟ أم كان خبيثا أمره لواليه أن ينصب لهم القاضي ليسمع بينتهم؟ فلو لم يأمر واليه بأن ينصب لهم قاضيا وأمره بالقبض عليهم وقتلهم أو سجنهم أو تعذيبهم لأنهم تعدوا حدودهم فماذا كان يقال؟ أم كان خبثا من القاضى أن عرف صدق دعواهم فحكم على الجيش بالخروج من المدينة وأن ينابذ الجيش أهل سمرقند فيخيرهم بين ثلاث: الإسلام أو الجزية أو القتال، وقد ملكوا أمرهم؟ فكيف لو حكم القاضي برد دعواهم وكذبها، فماذا كان يقول مثل ذلك المستشرق الخبيث المتعصب؟ بل إنه كما قيل:

فعين الرضا عن كل عيب كليلة كما ان عين السخط تبدى المساويا

بل تقلب الحق باطلا والباطل حقا.

عمر بن عبد العزيز من اوائل دعاة حق تقرير المصير

والحق أن عمر بن عبد العزيز من أوائل دعاة حق تقرير مصير الشعوب تبعا لسماحة الإسلام، فإلى جانب تلك القضية المتقدمة كان هناك لفتات كريمة من ذلك الخليفة العظيم تشير الى ذلك وتؤكده، لقد كانت العادة قبل عمر بن عبد العزيز إذا حاصر السلمون بلدا أو حصنا

وطلب أهلها الصلح أن يأتي وفد فيفاوض القائد المسلم على شروط الصلح وبموافقة الوفد أو القائد للحصن أو المدينة على تلك الشروط يتم الصلح وتفتح المدينة أو الحصن أبوابه، وقد كان يحدث في كثير من الأحيان أن تنتقض تلك المدينة أو ذاك الحصن لسبب أو لآخر، وقد يكون من الأسباب عدم موافقة أهل المدينة أو الحصن على ذلك الصلح أو تلك الشروط.

فماذا فعل عمر؟ لقد أداه اجتهاده وحبه للعدل والرحمة بالأمة والمعاهدين أن يصدر منشورا عاما يقول عنه صفوان بن عمرو: كان أئمة الجيوش من المسلمين قبل عمر بن عبد العزيز يصالح الإمام أهل الحصن وقادتهم على ما تراضوا عليه دون علم بقية من في الحصن من الروم قال: فنهى عمر بن عبد العزيز عن ذلك وأمر أمراء جيوشه أن لا يعملوا به ولا يقبلوه ممن عرضه عليهم حتى يكتبوا كتابا و يوجهوا به رسولا وشهوداً على جماعة أهل الحصن(١).

فهل يقال بعد ذلك إنَّ عمر بن عبد العزيز كان يقصد من وراء أحكامه أمورا مبنية على سوء نيّة أو خبث طو ية؟.

ولكن المستشرقين في أكثرهم يقيسون الأمور بمقياسهم المبنى على التعصب والحقد لكل جميل أو حسن في الإسلام أو رجال الإسلام.

فرحم الله عمر بن عبد العزيز وجزاه عن الأمة خيرا.

---

١ ــ الاموال ٢٥٨.

الفصل الثالث

سد مداخل الحرام

المبحث الأول: الضرائب الظالمة

«كان قوم من الولاة منعوا الحق حتى اشترى منهم شراء
و بذلوا الباطل حتى افتدى منهم فداء»(١)

عمر بن عبد العزيز

و يدخل جابر بن عبد الله(٢) الانصارى الصحابى الجليل على عبد الملك بن مروان بعد أن استتب له الأمر فيرحب به عبد الملك و يقربه. فيقول له جابر: ياأمير المؤمنين إنَّ المدينة حيث ترى وهى طيبة سماها النبي صلى الله عليه وسلم وأهلها محصورون، فأن رأى أمير المؤمنين أن يصل أرحامهم و يعرف حقهم فعل.

فكره ذلك عبد الملك وأعرض عنه ــ (وكيف يرضى عبد الملك أن يسمع مدح المدينة وأهلها وقد أخرج منها مطرودا مرتين وشهد موقعة الحرة بل كان من دل مسلم بن عقبة على نقاط الضعف فيها) وجعل جابر يلح عليه حتى أومأ قبيصة(٣) الى ابنه ــ وهو قائده ــ وكان جابر قد ذهب بصره ــ أن أسكته، فجعل ابنه يسكته، قال جابر ويحك ما تصنع بى؟ قال: اسكت. فسكت جابر فلما خرج أخذ قبيصة بيده فقال: ياأبا عبد الله إن هؤلاء القوم صاروا ملوكا(٤).

إنَّ هؤلاء القوم صاروا ملوكا

---

١ ــ الاحكام السلطانية للماوردى ٨٠، ابن الجوزى باختلاف لفظ ٢٠٧.

٢ ــ جابر بن عبد الله الانصارى من بنى سلمة من الستة النفر الذين اسلموا من الانصار أول من اسلم منهم بمكة وشهد بدرا وأحدا والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. الطبقات ٣/١١٤.

٣ ــ قبيصة بن ذؤيب بن حلحلة الخزاعى كان ثقة روى عنه الزهرى كان على خاتم عبد الملك بن مروان توفى سنة ٨٦ أو ٨٧ الطبقات ٧/١٥٧.

٤ ــ الطبقات ٥/١٧١.

حقا ما قال قبيصة نعم لقد تحولت الخلافة الى ملك عضوض دنيوي، ولم يعد الأمر خلافة دينية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن طبيعة الملك التغلب والتجبر والتكبر، و يغلب عليه استعباد البشر وظلمهم وجلب أموالهم وفرض الضرائب مهما كانت مجحفة، لكى يشبع الجالس على الكرسى نهمته ويملأ خزائنه ويحس بالنشوة وهو يرى الأموال مكدسة بين يديه من عرق رعيته لينفقها بعد ذلك على حاشيته وأشياعه وجنوده وشهواته وملاذه وليدفع بها الطامعين في عرشه.

وهكذا كان الأمر قبيل وصول عمر بن عبد العزيز الى السلطان، أصبح بنو مروان ملوكا على الأسرة والعروش ــ بل بدأ الملك بمعاو ية رحمه الله إذ يقول: أنا أوّل الملوك(١) ــ ففرضوا على الرعية هم وولا تهم الضرائب من كل نوع وصنف في مشارق البلاد ومغاربها، وكان لا يهمهم صالح الشعوب المغلوبة ولا راحة الأمم المفتوحة في الأعم الأغلب، بل كان أقصى هم أحدهم كثرة ما يرد الى خزائنه لا يراعى في جمعها أمر الله ولا حكم الشريعة، كما لم يراعوا في إنفاقها أمر الله ولا حكم الشريعة، وقد ضج الناس وقامت ثورات وفتن أكثر من أن تحصى ضد ظلم أولئك الولاة والحكام والخلفاء، ولكن كانت تسكنهم وتقضي على ثوراتهم القوة العارمة والبطش الشديد، وما حكم الحجاج وفعله بالناس عن الأذهان ببعيد. وعندما كانوا يحسون أو يحس أحدهم بقلة الوارد من الخراج أو غيره لا يبحث عن السبب الرئيسي لقلة ذلك وإنما يعالج الأمر بعلاج يزيد عليه النقمة و يتفاقم به الأمر، فهذا الحجاج يجبى خراج العراق في إحدى سنوات حكمه العجاف التى حكم فيها مشرق الدولة الإسلامية يجيبه ثمانية عشر ألف ألف درهم، وذلك لعسفه وخرقه

خراج العراق في احدى سنوات حكم الحجاج

---

١ ــ البداية والنهاية ٨/١٤٦.

وظلمه، وأسلف الفلاحين ألفى ألف درهم فحصل له ستة عشر ألف ألف درهم ومنع أهل السواد من ذبح البقر لتكثر الحراثة والزراعة، فقال الشاعر في ذلك:

منعه ذبح البقر

شكونا اليه خراب السواد فحرم جهلا لحوم البقر(١)

فبدلا من أن يرفع الحيف عن أهل السواد ويجبى الخراج بالعدالة والحق و يرفع عنهم الظلم الفادح ويخفف عنهم الضرائب منع الناس من ذبح البقر لكى تكثر الحراثة والزراعة كأن المعطل للأرض والمقلل للخراج إنّما كان كثرة أكل الناس لحوم البقر.

ابقاء الجزية على من اسلم من اهل الذمة

وكان من أشنع الضرائب الظالمة التى كانت تشكو منها الشعوب الخاضعة لحكم المروانيين مع مخالفتها الصريحة لأوامر الشريعة هى إبقاء الجزية على من أسلم من أهل الذمة، تلك الضريبة التى سنها الحجاج في العراق ثم انتقلت الى باقي أقاليم الدولة في شرق البلاد وغربها، وهي ضريبة ظالمة، لأن الجزية إنما فرضها الإسلام على أهل الكتاب من اليهود والنصارى وغيرهم من أهل الملل والنحل الأخرى من غير العرب إذا بقوا على دينهم ورفضوا ان يدخلوا الإسلام ورضوا بالخضوع لحكم الإسلام، فكانت الجزية يدفعونها عن رؤوسهم مقابل حمايتهم من قبل الدولة الإسلامية، ولذلك لم تكن تفرض على غير المحاربين القادرين من النساء والصبيان والرهبان، ودليلها قوله تعالى **«قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَومِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ**

دليل الجزية

---

١ ــ المسالك والممالك لابن خرداذبة ١٤ــ١٥.

مِنَ الَّذِيْنَ أوتوُا الكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطوُا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ»(١) فإذا دان هؤلاء دين الحق رفعت عنهم الجزية لأنَّه لا جزية على مسلم. ولكن بنى مروان وقد أصبحوا ملوكا واحتاجوا لنفقات الملك وكثرت نفقاتهم ورأوا أن كثيرا من الناس يدخلون في الإسلام و بإسلامهم تسقط جزيتهم و يقل دخل بيت المال بل الأحرى خزانة الخليفة، رأوا أن يبقوا هذه الضريبة عليهم رغم إسلامهم بدعوى أن عدم دفعها يضر ببيت المال وإن إسلام هؤلاء إنّما كان تعوذا وتهربا من دفع تلك الضريبة.

وكان أول من سن تلك السنة السيئة ــ (فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة) ــ الحجاج بن يوسف ليرضى عبد الملك بن مروان وليعوض كثيرا من خسائره في حروبه في الفتن والثورات التى قامت ضده، وليسد جانبا من نفقاته الباهظة. وأما مصر وغرب الدولة فلم تؤخذ الجزية من المسلمين غير العرب إلاّ في عهد عبد الله بن عبد الملك بعد وفاة عبد العزيز بن مروان، إذ أنَّ عبد الملك بن مروان كتب لأخيه عبد العزيز بن مروان أن يضع الجزية على من أسلم من أهل الذمة. ولكن ابن حجيرة(٢) كلمه في ذلك وقال له «أعيذك بالله أيها الامير أن تكون أول من سن ذلك بمصر و فوالله أن أهل الذمة ليتحملون جزية من ترهب منهم» فكيف تضعها على من أسلم منهم؟ فتركهم عند ذلك(٣).

اول من فرضها في مصر

فلما مات عبد العزيز وولى عبد الله بن عبد الملك فرضها عليهم، وكان دخل الجزية على بيت المال عظيما.

---

١ ــ سورة التوبة الآية ٢٩

٢ ــ ابن حجيرة هوعبد الرحمن بن حجيرة الخولانى تابعى لقى أبا هريرة وأبا سعيد الخدرى كان يأخذ من بيت المال الف دينار فلم يكن يحول عليه الحول وعنده ما تجب فيه الزكاة. مات سنة ٨٣ أو ٨٥هـ وكان قاضي عبد العزيز بن مروان. فتوح مصر ٢٣٥.

٣ ــ فتوح مصر ٢١٠.

فلما جاء عمر بن عبد العزيز ورأى هذه الضريبة الظالمة فكان من أول أعماله في التخفيف عن الامة هورفع هذه الضريبة الظالمة. فكتب الى ولاته في الشرق والغرب يدعوهم جميعا الى إسقاطها وإعفاء المسلمين منها، فكان مما كتبه الى حيان بن سريج واليه على مصر (ان ضع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة فان الله تبارك وتعالى قال: «**فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُم إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**»(١) وقال: «**قَاتِلُوا الَّذِيْنَ لاَ يُؤمِنُونَ باللهِ وَلاَ بِالْيَومِ الآخِرِ ولا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِيْنُونَ دِيْنَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِيْنَ أُوْتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُوْنَ**»)(٢)(٣).

عمر بن عبد العزيز يلغي ضريبة الجزية عن المسلمين

رفع الجزية عن أهل مصر من المسلمين

بل أنَّ عمر بن عبد العزيز لم يكتف برفع الجزية عمن أسلم من أهل الكتاب بل إنّه ليلحقهم بعشائر من أسلموا على يديه. يقول الليث بن سعد(٤) إنَّ عمر بن عبد العزيز وضع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة من أهل مصر، وألحق في الديوان من أسلم منهم في عشائر من أسلموا على يديه وكانت قبل ذلك تؤخذ ممن أسلم(٤).

الحاق من اسلم في الديوان

ولكن بعض العمال والولاة لم يكن قد اقتنع بعد بخطة عمر بن عبد العزيز في رد تلك المظالم، أو أنه نظر الى القضية نظرة مادية بحتة كما نظر اليها الولاة قبله ــ وكما نظر اليها بعض الكتاب المعاصرين ــ فيكتب الى عمر يطلب إليه إبقاء هذه الجزية لعظيم نفعها لبيت المال فكان من أولئك عبد الحميد بن عبد الرحمن ــ بن زيد بن الخطاب ــ واليه على

---

١ ــ الآية ٥ من سورة التوبة

٢ ــ الاية ٢٩ التوبة.

٣ ــ فتوح مصر ٢١٠.

٤ ــ الليث بن سعد مولى لقيس كان ثقة كثير الحديث صحيحه وكان قد استقل بالفتوى في زمانه بمصر مات سنة ١٦٥هـ، الطبقات ٧/٢٠٤.

مع أهل الحيرة

الكوفة إذ يكتب إليه عمر: كتبت إليَّ تسألنى عن أناس من أهل الحيرة يسلمون من اليهود والنصارى والمجوس وعليهم جزية عظيمة، وتستأذننى في أخذ الجزية منهم، وإنَّ الله جل ثناؤه ــ بعث محمدا صلى الله عليه وسلم داعيا الى الإسلام ولم يبعثه جابيا، فمن أسلم من أهل تلك الملل فعليه في ماله الصدقة ولا جزية عليه وميراثه لذوى رحمه إذا كان فيهم يتوارثون كما يتوارث أهل الإسلام، وإن لم يكن له وارث فميراثه في بيت مال المسلمين الذى يقسم بين المسلمين، وما أحدث من حدث ففى مال الله الذى يقسم بين المسلمين يعقل عنه منه والسلام(١).

ثم هو يكتب منشورا عاما يعمم على الأقاليم: من شهد شهادتنا واستقبل قبلتنا واختتن فلا تأخذوا منه الجزية(٢).

اسلام البلاد المفتوحة

و يعلم الناس بولاية الخليفة العادل و يرون أن الزمان قد بدأ يتنفس فيدخلون في دين الله أفواجا، و يدخل الألوف في دين الله. و بالتالى يقل المأخوذ من الجزية، و يظهر النقص في بيوت أموال الأقاليم، فيسارع الولاة بمكاتبة الخليفة وتحذيره مما يمكن أن يحدث بمقياسهم مقياس الماديين قصيري النظر، فيكتب اليه عدى بن أرطاة والى البصرة «أما بعد فإنَّ الناس قد كثروا في الإسلام وخفت أن يقل الخراج. فيكون جواب عمر اليه صارما حازما كالسيف مضاء: فهمت كتابك ووالله لوددت أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت حراثين نأكل من كسب أيدينا(٣). هكذا يتمنى ذلك الخليفة المؤمن و يود أنّ الناس كلهم يسلمون ولو وصل الامر الى ان يفرغ بيت المال من كل درهم فيه، و يكون الخليفة وعماله حراثا في الارض يأكلون من كسب أيديهم و يسود السلام والطمأنينة الارض و يعيش الناس في رخاء وأخوة.

شكوى والى البصرة

١ ــ الخراج لابى يوسف ١٣١.

٢ ــ الاموال ٦٧.

٣ ــ الحلية ٥/٣٠٥ ابن الجوزى ٩٩ــ١٠٠.

شكوى والى مصر

و يكتب إليه عامل آخر: إنك قد أضررت ببيت المال ــ (حين منعهم من أخذ الجزية وأمرهم برد المظالم) ــ فيقول له عمر: أعط ما فيه فإذا لم يبق فيه شيء فاملأه زبلاً(١).

و يكتب إليه عامله على مصر حيان بن سريج: إن أهل الذمة قد أسرعوا في الاسلام وكسروا الجزية، فكتب اليه عمر: أما بعد فإن الله بعث محمدا داعيا ولم يبعثه جابيا، فإذا أتاك كتابى هذا فان كان أهل الذمة أسرعوا في الإسلام وكسروا الجزية فأطو كتابك وأقبل(٢). وهذا الوالى هو نفسه الذى يقول لعمر. أما بعد فإن الإسلام قد أضر بالجزية حتى تسلفت من الحارث بن ثابتة عشرين ألف دينار أتممت بها عطاء أهل الديوان فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بقضائها فعل. (اذن فقد وصل الأمر بخزانة مصر أن تصاب بعجز مالى حتى لا تستطيع أن تكفى رواتب الموظفين والجنود وحتى يستلف الوالى من أحد الاغنياء ما يسد به ذلك العجز ــ وهذا يعطينا صورة واضحة عن عدد الذين دخلوا في الاسلام في هذه الفترة الوجيزة ــ ومع ذلك فإنَّ عمر بن عبد العزيز كان واضح الطريق حازم الرأى صلب العزيمة فقد كتب اليه يَقرعه و يُقَرِّعه) أمّا بعد فقد بلغنى كتابك وقد وليتك جند مصر وأنا عارف بضعفك وقد أمرت رسولى بضربك على رأسك عشرين سوطا، فضع الجزية عمن أسلم قبح الله رأيك فإن الله عز وجل بعث محمدا صلى الله عليه وسلم هاديا ولم يرسله جابيا، ولعمرى لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم الإسلام على يديه(٣).

كثرة من اسلموا

الهداية لا الجباية

---

١ ــ الحلية ٥/٢٧٨.

٢ ــ الطبقات ٥/٢٨٣.

٣ ــ جمهرة رسائل العرب ٢/٣٤٤.

ولم يكتف عمر بن عبد العزيز بإسقاط الجزية عن المسلمين غير العرب، بل تعدى الأمر الى الوظيفة الاساسية لخليفة الرسول صلى الله عليه وسلم وهى الهداية، فدعا الناس الى الإسلام دعوة عامة كما سنرى في بحث لاحق إن شاء الله، وكتب الى عامله على خراسان يأمره بأن يدعو أهل الجزية الى الإسلام، فان أسلموا قبل إسلامهم و وضع الجزية عنهم وكان لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين. فيقول له رجل من أشراف أهل خراسان: إنّه والله ما يدعوهم الى الإسلام إلاّ أن توضع عنهم الجزية، فامتحنهم بالختان. فيقول بلهجة المؤمن الواثق: أنا أردهم عن الإسلام بالختان؟؟ هم لو قد أسلموا فحسن إسلامهم كانوا الى الطهرة أسرع فأسلم على يده نحو من أربعة آلاف(١).

الجزية تسقط بالاسلام

ولم يقف الأمر بعمر بن عبد العزيز عند هذا الحد من محاربة تلك الضريبة الظالمة بل إنَّ عمر يمضى قدما في صعوده نحو القمة العليا من الورع والدعوة الى الله والتخفيف عن الأمة التى وضعت بيده مقاليدها، فيرسل منشورا عاما آخر يأمر عماله فيه بإسقاط الجزية وإن وجبت إذا أسلم من وجبت عليه، اذ كتب يقول: إن أسلم والجزية في كفة الميزان فلا تؤخذ منه، و يقول في الذى يسلم قبل السنة بيوم لا تؤخذ منه الجزية(٢).

عمر بن عبد العزيز خليفة لا ملك

تلك كانت أبشع ضريبة ظالمة عامة فرضها بنو مروان في شرق البلاد الإسلامية وغربها، فألغاها عمر بن عبد العزيز لمخالفتها الصريحة لتعاليم الإسلام وأوامر القرآن الكريم، ولأن عمر بن عبد العزيز لم يعتبر نفسه ملكا كأحد ملوك بنى أمية بل اعتبر نفسه خليفة لرسول الله صلى الله عليه

---

١ ــ الطبقات ٥/٢٨٥.

٢ ــ الطبقات ٥/٢٦٢.

وسلم لذلك أراد أن يقوم بواجبات هذه الخلافة ومن أولها وأهمها هداية الناس لهذا الدين ودعوتهم اليه، وكانت الجزية أهم الدلائل على عدم الإسلام فألغاها ليشعر المسلم بعزة دينه وكرامته على أرض الإسلام.

ومع إلغاء هذه الضريبة العامة أو نستطيع أن نسميها الجريمة، نجح عمر في الغاء ضرائب أخرى أقل منها عمومية وضررا لأ بناء الأمة بينها في كتبه المتوالية لعماله وخاصة في العراق ومصر واليمن.

مع أهل اليمن

فأما الضرائب الظالمة في اليمن فهى ضرائب وضعها على أهل اليمن أخو الحجاج محمد بن يوسف، فإن اليمن أسلم أهلها في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعتبر أرضها أرض عشر، وليس على أهلها سوى الزكاة، ولاخراج على أرضها، وحينما تولاها محمد بن يوسف جعل على أهلها ضريبة من الخراج كالجزية، ولما جاء عمر بن عبد العزيز كتب اليه عروة بن محمد واليه بذلك فكتب اليه يقول: أمّا بعد فانك كتبت الى تذكر أنك قدمت اليمن فوجدت على أهلها ضريبة من الخراج مضروبة ثابتة في أعناقهم كالجزية يؤدونها على كل حال إن أخصبوا أو أجدبوا أو حيوا أو ماتوا، فسبحان الله رب العالمين ثم سبحان الله رب العالمين ثم سبحان الله رب العالمين، إذا أتاك كتابي هذا فدع ما تنكره من الباطل الى ما تعرفه من الحق، ثم أئتنف الحق فاعمل به بالغاً بى وبك وإن أحاط بمهج أنفسنا، وإن لم ترفع إليَّ من جميع اليمن إلاّ حفنة من كتم فقد علم الله أنى بها مسرور إذا كانت موافقة للحق والسلام(١).

بعض الضرائب الظالمة الموضوعة

ثم هويكتب كتبا الى عماله لتقرأ على الناس في مساجدهم ومجامعهم منها:

---

١ ــ ابن عبد الحكم ١٠٤، الكامل لابن الا ثير ٥/٦٨، فتوح البلدان ١/٨٨، النجوم الزاهرة ١/٢٣٩.

أما بعد فاقرأ كتابى هذا على أهل الأرض بما وضع الله عنهم على لسان أمير المؤمنين من المظالم والتوابع التى كانت تؤخذ منهم في:

١ ــ النيروز والمهرجان(١).

٢ ــ وثمن الصحف.

٣ ــ وأجر الفُيُوح(٢).

٤ ــ وجوائز الرسل.

٥ ــ وأجور الجهابذة وهم القساطرة(٣).

٦ ــ وأرزاق العمال وأنزالهم.

٧ ــ وصرف الدنانير التى كانت تؤخذ منهم من فضل ما بين السعرين في الطعام الذي كان يؤخذ منهم فضل ما بين الكيلين، وليحمدوا الله عز وجل(٤).

كسور الدراهم

والمراد بصرف الدنانير هذا هو الكسور التى كانت تؤخذ من أهل الأرض نظرا لاختلاف الدراهم في الوزن. وفي هذا يقول الماوردى: كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه قسَّط الخراج على أهل السواد وما فتح من نواحي المشرق والمغرب وَرِقاً وعينا(٥). وكانت الدراهم والدنانير مضروبة على وزن كسرى وقيصر، وكان أهل البلدان يؤدون ما في أيديهم من المال عددا ولا ينظرون في فضل بعض الأوزان على بعض. ثم فسد الناس فصار أرباب الخراج يؤدون الطبرية(٦) التى هي أربعة دوانق وتمسكوا

---

١ ــ النيروز والمهرجان عيدان كانا عند الفرس، فكان الولاة يجمعون فيهما من الرعية الهدايا الثمينة ثم ترسل الى الخليفة.

٢ ــ الفيوح: ج فيج وهو الرسول.

٣ ــ الجهابذة والقساطرة هم الصيارفة.

٤ ــ ابن عبد الحكم ١٣٦ــ١٣٧.

٥ ــ الورق: الفضة والعين: الذهب.

٦ ــ الطبرية: دراهم ناقصة الواحد منها ثلثا درهم القاموس ٢/٧٧.

بالوافي الذي وزنه وزن المثقال، فلما ولى زياد العراق طالب بأداء الوافي وألزمهم الكسور، وجار فيه عمال بنى أمية، الى أن ولى عبد الملك بن مروان فنظر بين الوزنين وقدر وزن الدرهم على نصف وخمس المثقال وترك المثقال على حاله، ثم إنَّ الحجاج من بعده أعاد المطالبة بالكسور حتى أسقطها عمر بن عبد العزيز(١).

توحيد وزن الدرهم المأخوذ

ولذلك فإنَّ عمر ليرفع الحيف عن الفلاحين أمر عماله وجباته أن لا يأخذوا من الأهالى من الدراهم مازاد وزنه على سبعة قراريط، وهوما أمر به عمر بن الخطاب(٢).

و يكتب كتابا آخر الى عامله على الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن يوصيه بأهل الكوفة خاصة فيقول: أما بعد فإنَّ أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدِة وجور في أحكام الله وسنة خبيثة سنها عليهم عمال سوء، وإنَّ قوام الدين العدل والاحسان، فلا يكونن شيء أهم اليك من نفسك، فإنَّه لا قليل من الإثم ــ (بعد هذا التوجيه الحكيم) يقول: ولا تحمل خرابا على عامر وخذ منه ما أطاق وأصلحه حتى يعمر. ولا يؤخذ من العامر إلاّ وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الأرض ــ (انظر الى وصيته بالفلاحين، ثم هو يبين لواليه تلك الضرائب الظالمة التي لا ينبغي له أن يأخذها ولا أحد من عماله أو جباته) ــ ولا تأخذن:

لا يحمل خراب على عامر لا وظيفة الا الخراج من عامر الارض

١ ــ أجور الضرابين.
٢ ــ ولا هدية النوروز والمهرجان.
٣ ــ ولا ثمن الصحف.
٤ ــ ولا أجور الفتوح ــ الأصح الفيوج.
٥ ــ ولا أجور البيوت.
٦ ــ ولا دراهم النكاح(٣).

---

١ ــ الاحكام السلطانية ٨١.

٢ ــ الخراج لابى يوسف ٨٦.

٣ ــ دراهم النكاح هي دراهم كان يأخذها عمال بنى أمية عند زواج أهل الذمة كضريبة، وليست دراهم البغاء لأنه لا بغاء في الاسلام ولم يعرف أن أحدا من الولاة او الخلفاء سمح بوجود البغاء فضلا عن ان يأخذ منه ضريبة.

٧ ــ ولا خراج على من أسلم من أهل الأرض ــ (المراد بالخراج هنا الجزية أي خراج الرأس لاخراج الأرض) ــ فاتبع في ذلك أمرى فإنى قد وليتك من ذلك ما ولانى الله.

نهى على القطع والصلب

و ينبه عمر بن عبد العزيز واليه الى سيئة كانت شائعة في الولاة قبله وهي تسرعهم الى القتل والقطع دون أخذ رأى الخليفة، بل ودون نظر الى الحكم الشرعي الصحيح، فنهى عمر ولاته عن ذلك) وقال: لا تعجل دوني بقطع ولا صلب حتى تراجعنى فيه ــ (وهكذا أمن الناس على أموالهم أن تؤخذ منهم ظلما، وعلى دمائهم أن تراق دون موجب وعلى أعضائهم أن تقطع دون سبب كما أمنوا قبلا على أعراضهم أن تنتهك،ــ ثم رأى عمر أن هناك أناسا من المسلمين من غير المحاربين نساء وشيوخا وجب عليهم الحج فلم يحجوا لضيق ذات يدهم فأمر واليه أن يعطيهم من بيت المال ليحجوا) وانظر من أراد من الذرية أن يحج فعجل له مائة يحج بها والسلام(١).

أمر باصلاح الخراب

وفي رواية: وانظر الخراب فإن أطاق شيئا فخذ منه ما أطاق وأصلحه حتى يعمر. ولا تأخذ من عامر لا يعتمل شيئا، وما أجدب من العامر من الخراج فخذه في رفق وتسكين لأهل الارض، وآمرك أن لا تأخذ في الخراج إلا وزن سبعة ليس فيها تبر، ولا أجور الضرابين ولا إذابة الفضة(٢).

ابطال المكس

ثم يرى عمر بن عبد العزيز أن من قبله ضيقوا على المسلمين والمعاهدين وسائل عيشهم وقعدوا لهم على منافذ الطريق يسلبون أموال التجار باسم المكس والعشر وغير ذلك، ورأى أنَّ كثيرا من هذه الضرائب مجحفة إما لأنها غير مشروعة أصلا، أو كانت مشروعة الأصل ولكن

---

١ ــ الكامل لابن الا ثير ٥/٦١ الجمهرة ٢/٣٢٢ الحلية ٥/٢٨٦ الطبرى ٨/١٣٩.

٢ ــ الخراج لابى يوسف ٨٦ والاموال ٦٤.

انحرف الجباة عن العدالة في جبايتها، فهو يلغى ما ليس مشروعا إلغاء كاملا، فيكتب الى واليه على البصرة عدى بن أرطاة: أن ضع عن الناس الفدية[1]، وضع عن الناس المائدة[2] وضع عن الناس المكس[3]، وليس بالمكس ولكنه البخس الذى قال الله تعالى فيه «**وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِيْنَ**»[4][5].

و يكتب الى عبد الله بن عوف القارى ــ وفي رواية ابن عون ــ وهو على فلسطين: أن اركب الى البيت الذى برفح[6] الذى يقال له بيت المكس فاهدمه ثم احمله الى البور وفي رواية البحر ــ فانسفه فيه نسفا[7].

منع الهدايا

و يرى رَحِمَهُ الله أنَّ الناس قد جروا على سنة خبيثة سنها عليهم ولاة السوء والجور واستغلها الكبار ورجال الدولة بل والخلفاء طريقا للإثراء غير المشروع على حساب الضعفاء ووسيلة لجلب المال الحرام، وهي الهدايا التي كانت تقدم في المناسبات المختلفة. وهي سنة قديمة من زمن ملوك الفرس أباها الرعيل الأول من المسلمين والخلفاء الراشدون المهديون فلم يقبلوها من رعيتهم وكانوا لهم فاتحين، ولكن لما تحولت الخلافة الى ملك وضعف الورع والوازع الديني عند العمال والقواد والخلفاء أو الخلفاء أولا ثم العمال والقادة، أعادوها على الناس كما كانت زمن كسرى واشتطوا فيها، وزادوا بأن اضافوا اليها عديدا من الضرائب كما رأينا.

---

١ ــ الفدية لعلها ضريبة يفدى بها الذي نفسه من الختم حين استيفاء الخراج.

٢ ــ المائدة لعلها نزل الرسل الذين يبلغون الاوامر او يأخذون الخراج.

٣ ــ المكس: النقص والظلم ودراهم كانت تؤخذ من بائعى السلع في الاسواق في الجاهلية او درهم يأخذه المصدق بعد فراغه من الصدقة. القاموس ٢/٢٦١.

٤ ــ الاية ٨٥ هود، ١٨٣ الشعراء.

٥ ــ الاموال ٧٠٤ والطبقات ٥/٢٨٣.

٦ ــ رفح اخر حدود فلسطين واول حدود مصر.

٧ ــ الاموال ٧١٤ الحلية ٥/٣٠٦ ابن الجوزى ٩٣.

من أهم هذه الضرائب الحرام الهدايا التي تقدم في الاعياد والمناسبات كالنيروز والمهرجان ــ لقد حملت هدايا النيروز والمهرجان الى معاوية ــ وكان أوّل من فرضها من الخلفاء فبلغت عشرة آلاف ألف درهم(١). ويحملها الرعية الفقراء الى العمال والولاة والقواد والخلفاء الأغنياء فيزدادون من ورائها ثراء على حساب ضعفة الرعية من الفلاحين والصناع والأجراء.

فلما جاء عمر بن عبد العزيز رد الأمر إلى نصابه وسار على سنن سابقيه من الخلفاء الراشدين المهديين وعض على سننهم بالنواجذ فأعلنها صريحة مدوية بنهيه أن يذهب إليه في النيروز والمهرجان بشيء(٢).

القائد القدوة

ورأينا كتبه الى الولاة والعمال برفع هذه الضريبة الظالمة، و يكون هو نفسه القدوة دائماً لولاته وعماله، إذ يهدى اليه تفاح وفاكهة فيردها و يقول: لا أعلمن أنكم بعثتم الى أحد من أهل عملى بشيء. فيقال له: ألم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية ــ (وتلك الحجة التى يحتج بها من رضوا بأخذ هذا بل هم قد طالبوا الناس، يحتجون بأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية، ولا يعرفون من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وفعله إلاّ ما وافق أهواءهم و ينسون أو يتناسون أنَّ الرسول عليه السلام نفسه والقرآن الكريم نهى عن أكل أموال الناس بالباطل ــ فيكون جواب عمر هنا حازما حاسما ناظرا لما وراء الاشياء الى حقائق الامور فيقول): بلى، هى كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم هدية. (لأنه عليه السلام لم يكن يقطع بها حق مسلم أو معاهد، ولم يكن يفرضها على الناس ليأكل بها حقوقهم أو حقوق المسلمين) ولكنها لنا ولمن بعدنا رشوة(٣).

رشوة لا هدية

---

١ ــ اليعقوبى ٢/٢١٨.

٢ ــ الطبقات ٥/٢٧٦.

٣ ــ الحلية ٥/٢٩٤ ابن الجوزى ١٦٠ والبخارى ٣/٣٠٨.

هكذا يوضح عمر بن عبد العزيز الحقائق و يضعها واضحة جلية أمام أعين الحاكمين والمحكومين في كل زمان ومكان بأنه لا هدية بعد اليوم بل هى رشوة تقطع من مال بغير حق وغير رضاء نفس، ثم هى بعد ذلك يضيع بسببها حقوق للناس أو لبيت مال المسلمين وتكون ثغرة للظلم والجور وسوء التدبير.

وقد مر معنا في مبحث الورع المثالي العديد من الأمثلة على سمو تفكير عمر بن عبد العزيز في منع هذا وأمثاله.

منع السخرة

ثم يرى عمر أن الناس قبله قد تعودوا أن يسخروا أهل الذمة لقضاء مصالحهم و يركبوا دوابهم و يعطلوهم عن أمورهم دون أجر، بل بحكم السيطرة والغلبة والجبرية، فنهى عن ذلك و يعمم الأمر بعدم التسخير فيقول: ونرى أن توضع السخر عن أهل الأ رض فإن غايتها أمور يدخل فيها الظلم(١). ولم يكن التسخير خاصا بالأفراد بل الدولة نفسها وعمالها كانت تسخر أهل الذمة في حفر الأنهار والخلجان وتنظيف القنوات وتجفيف المستنقعات وغير ذلك من الأعمال.

وعمر لا يكتفى بالأمر يصدره ولا ينظر بعد ذلك أن نفذ أو لم ينفذ، بل إنه يتبع القول العمل فما يعلم أن عاملا له تسخر دواب أهل الذمة حتى يعاقبه عقوبة رادعة له ولأمثاله. يقول ربيعة الشعوذى: ركبت البريد الى عمر بن عبد العزيز فانقطع في بعض أرض الشام، فركبت السخرة حتى أتيته بخناصرة، فقال: ما فعل جناح المسلمين قلت: وما جناح المسلمين ياأمير المؤمنين؟ قال: البريد. قلت انقطع في مكان كذا أو أرض كذا وكذا. قال: فعلى أى شيء أتيتنا؟ قلت على السخرة تسخرت دواب النبط ــ (هذا الرجل لعله جاء في مصلحة للمسلمين فإنَّ بريد

---

١ ــ ابن عبد الحكم ٨٣.

المسلمين لم يكن عمر ليسمح لأحد باستغلاله لمصلحة خاصة، فهو إذاً عامل من عمال الدولة، ومع ذلك فلا يعفيه عمر من العقوبة لأنه تسخر دواب النبط(١)ــ فيغضب عمر و يقول: تسخرون في سلطاني؟ قال فأمر بى فضربت أربعين سوطا. رحمه الله(٢).

هكذا كان عمر يؤدب عماله إذا خالفوا أمره ولعله كان يزيد عليهم في العقوبة لأنّهم قدوة الناس فهو كما رأينا كان ينهى أن يُعَاقَبُ أحد زيادة على ثلاثين سوطا في غير حد(٣) وضرب هذا أربعين سوطا.

الزكاة والعشور

ورأى عمر بن عبد العزيز أن هناك فرائض شرعية ولكن تعدى الولاة والخلفاء في جبايتها أو في مقدارها، فرد الأمور الى نصابها وحمل عماله وجباته على تحقيق العدالة فيها. فالزكاة فريضة شرعية بل هي ركن من أركان الإسلام تعدى فيها عمال بنى أمية، فهم تارة يهملونها فلا يأخذونها من الناس كزكاة الأموال الباطنة ــ الذهب والفضة ــ وإمَّا يظلمون الناس في استيفائها كمّاً أو كيفاً في زكاة الأموال الظاهرة ــ المواشي والحرث. و يدل على بعض ذلك قول عامل لعمر بن عبد العزيز على الصدقة حينما يسأله عمر: كم جمعت من الصدقة فيقول له العامل كذا وكذا. قال: فكم جمع الذى كان قبلك؟ قال: كذا وكذا. فسمى شيئا أكثر من ذلك. فقال عمر من أين ذاك؟ (أى من أين هذه الزيادة التى كان يجلبها العامل قبلك في خلافة سليمان) فيقول: ياأمير المؤمنين إنّهُ كان يؤخذ من الفرس دينار ومن الخادم دينار ومن الفدان خمسة دراهم وإنَّك طرحت ذلك كله. قال: لا والله ما ألقيته ولكن الله ألقاه(٤).

---

١ ــ النبط المراد بهم هنا أهل الذمة من غير العرب.

٢ ــ الطبقات ٥/٢٧٦.

٣ ــ الطبقات ٥/٢٦٩.

٤ ــ الطبقات ٥/٢٧٧.

إذن فقد كان عمال بنى أمية قبل عمر يأخذون زكاة ما لم تفرض فيه الزكاة تعديا فقد كانوا يأخذون زكاة من الخيل عن كل فرس ديناراً والخيل لا زكاة فيها وكذلك الخادم وأما خمسة دراهم من الفدان فهى أيضا تعدٍ فالفدان المراد به ثور الحرث وكل ذلك لا زكاة فيه، فأخذها بنو أمية، وهذا تعد في الكم.

ولما كانت الزكاة ركنا مهما من أركان الإسلام حرص الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده على استيفائها من أرباب الأموال، ووصل الأمر في عهد أبى بكر رضى الله عنه الى قتال مانعيها.

وكان الرسول عليه السلام وخليفتاه من بعده يأخذون زكاة الأموال الظاهرة والباطنة ولكن لما جاء عثمان رضى الله عنه وكَّل إخراج زكاة الأموال الباطنة الى أربابها، وكان الناس عندهم من الدين والورع والتقوى ما يجعلهم لا يهملون في أدائها الى مصارفها أو الى بيت المال دون رقيب أو ضاغط. ولكن بعد تباعد الزمن أهمل خلفاء بنى أمية هذه الفريضة وخاصة زكاة الأموال الباطنة، كما أهمل الناس أيضاً إخراجها وتقاعسوا عنها فجاء عمر بن عبد العزيز ودعا الناس الى إخراجها بل وإخراج زكاة الفطر أيضا، وأرسل الى عماله بجمعها واستيفائها ولكنه لم يكن ليشدد على الناس في إخراجها حتى لا يظلم أحد أو يتعدى الولاة في جمعها، فأرسل الى أحد ولاته قائلا: فمن جاءك بصدقة فاقبلها ومن لم يأتك بها فالله حسيبه(١).

تخلية الجسور والمعابر

وقد فكر عمر فعلا في التشديد على الناس في جباية الزكاة ولكنه خشى ظلم العمال إذ كتب يقول: إنى ظننت إن جعل العمال على الجسور والمعابر أن يأخذوا الصدقة على وجهها، فتعدى عمال السوء غير ما

---

١ ــ الاموال ٧٠٤، الطبقات ٥/٢٨٣.

أمروا به، وقد رأيت أن أجعل في كل مدينة رجلا يأخذ الزكاة من أهلها فخلوا سبيل الناس في الجسور والمعابر.

والذي منعه من ذلك رؤيته ظلم أولئك العمال الذين يقفون على الجسور والمعابر يأخذون أموال الناس، يقول يزيد بن الاصم، كنت جالسا عند سليمان بن عبد الملك فجاء رجل يقال له أيوب ــ وكان على جسر منبج ــ يحمل مالا مما يؤخذ على الجسر. فقال عمر بن عبد العزيز: هذا رجل مترف يحمل مال سوء. فلما قدم عمر خلى سبيل الناس من الجسور والمعابر(١).

منع الخرص والتقويم الظالم

و يؤكد عمر على العمال اتباع أكثر الطرق عدالة في جمع الأموال والرحمة بالناس، فهو يدعوهم أن يراعوا ظروف المزارعين ودافعى الأموال كى لا يصيبهم حيف أو يلحقهم ظلم، يعلم أنَّ بعض العمال بفارس يخرصون(٢) الثمار على أهلها ثم يقومونها بسعر دون سعر الناس الذى يتبايعون به فيأخذونه ورقا على قيمتهم التى قوموها ــ(إذاً فهناك تقدير ظالم للثمار وتثمين ظالم لها فالظلم حاق بالمزارع مرتين ــ ثم يقول لعامل البصرة وقد وقع هذا تحت مسئوليته)ــ وإنَّ طوائف من الاكراد يأخذون العشر من الطريق ــ (أى دون إذن من الوالى أو الخليفة فهى عملية اغتصاب إذاً) ولو علمت إنَّك أمرت بشيء من ذلك أو رضيته بعد علمك به ما ناظرتك إن شاء الله بما تكره، وقد بعثت بشر بن صفوان وعبد الله بن عجلان وخالد بن سالم ينظرون في ذلك، فإن وجدوه حقا ردوا الى الناس الثمر الذى أخذ منهم، وأخذوا بسعر ما باع أهل الأرض ولا يدعون شيئا مما بلغنى إلاّ نظروا فيه فلا تعرض لهم(٣).

---

١ ــ الطبقات ٥/٢٧٦.

٢ ــ الخرص ــ الحزر القاموس ٢/٣٠

٣ ــ الطبقات ٥/٢٩٠.

فعمر لحرصه على العدالة وإقامة الحق ورد الأمور الى نصابها وفي سبيل محاربة الظلم يرسل رسلا من قبله ليزيلوا ذلك الظلم الواقع على المزارعين ودافعي الأموال ولم يكن رائده في ذلك إلا إحساسه العظيم بمسئوليته العظيمة.

ثم إنَّ عمر يريد أن يطهر بيت المال من كل دخل خبيث فقد كان من قبله يأخذون العشر من الخمر، والخمر يحرم شربها و بيعها على المسلم فكيف يؤخذ منها عشر؟.

لا عشر على خمر

ويمنع الذمي من بيعها كذلك في أمصار المسلمين، وقد كان بعض الجباة يأخذون ذلك. فكتب الى عامله على البصرة عدى بن ارطاة «و بلغني أنَّك تأخذ من الخمر العشور فتبفيه في بيت مال الله فإياك أن تدخل بيت المال إلاّ طيبا(١).

وهذا العامل هو نفسه الذى كتب اليه عمر: أن ابعث إليَّ بفضل الأموال التى قبلك من أين دخلت؟ فكتب اليه بذلك وصنفه له، فكان فيما كتب اليه: من عشر الخمر أربعة آلاف درهم. قال: فلبثنا ما شاء الله ثم جاء جواب كتابه: إنَّك كتبت إليَّ تذكر من عشور الخمر أربعة آلاف درهم، وإنَّ الخمر لا يعشرها مسلم ولا يشربها ولا يبيعها فإذا أتاك كتابي هذا فاطلب الرجل فارددها عليه فهو أولى بما كان فيها، فطلب الرجل فردت عليه الأربعة الآلاف وقال: استغفر الله إنّى لم اعلم(٢).

فعمر هنا يريد أن يطهر بيت المال من كل مال دنس خبيث، كما أنه يريد أن يطهر المجتمع من كل بائع خسيس همه جلب المال ولوعن طريق إفساد أخلاق الناس وأبدانهم. فليس معنى رد عمر بن عبد العزيز

تطهير المجتمع

---

١ ــ الطبقات ٥/٢٨٠.

٢ ــ الاموال ٧٢.

المال على صاحبه أنه راض عن فعله لا بل قد رأينا قبلا في مبحث الإصلاحات الداخلية، كيف أنه أمر بزقاق الخمر أن تشقق و بالقوارير أن تكسر ــ هذا بالنسبة للمسلمين ــ فكيف يسمح بعد ذلك ببيعها أو أخذ عشر ثمنها؟ وأما بالنسبة لغير المسلمين فقد أصدر أمرا عاما بمنعهم من التنقل بزقاق الخمر والمتاجرة فيها بين أمصار المسلمين أو إدخالها إليها، فقد كتب في خلافته «أن لا يدخل أهل الذمة بالخمر أمصار المسلمين فكانوا لا يدخلونها»(١) و يقول من رآه: رأيت عمر بن عبد العزيز بخناصرة يأمر بزقاق الخمر أن تشقق و بالقوارير أن تكسر(١). بل هو يصدر منشورا عاما يقرأ في المدن والأمصار ينهى فيه عن شرب الخمر وعن بيعها وصناعتها و يذم من يفعل ذلك من المسلمين، و يشير الى نقطة مهمة فيها ذكرى لمن كان له قلب ليعيها كل حاكم مدرك من حكام المسلمين الذين يبيحون الخمور في بلادهم، فبعد أن يذكر الآيات الدالة على تحريم الخمر و يذكر كثيرا من سيئاتها يقول: وما يشرب أولئك شرابهم إلاّ من تحت أيدى النصارى الذين يهون عليهم زيغ المسلمين في دينهم ودخولهم فيما لا يحل لهم، مع الذى يجمع نفاق سلعهم و يسارة المؤونة عليهم(٢).

وهي كلمة حق وصدق فليعتبر حكام المسلمين وليحذروا غضب الله أن تنتهك محارمه، ولذلك أبى عمر رحمه الله أن يدخل بيت مال المسلمين مالا خبيثا نجسا، فكيف لو عاش الى هذه الايام ورأى الأموال الضخمة التى تدخل خزائن الدول الاسلامية عنوانا من أموال الربا والقمار والخمور والفجور وغير ذلك مما لا يدخل تحت حصر حتى أصبح أكثر الدخل حراما خبيثا دنسا؟!.

---

١ ــ الطبقات ٥/٢٦٩.

٢ ــ ابن عبد الحكم ٨٥.

و يرى عمر بن عبد العزيز أن من كان قبله من خلفاء بنى أمية ومن عمالهم وولاتهم نظروا الى كثير من الأراضى الرعوية ذات الأعشاب والمياة فحموها ومنعوا الناس من ارتيادها والمرعى فيها، ورأى أنَّ هذا ظلم للعباد وافتيات على الناس في حقوقهم وما أنزل لهم فيكتب «فما حمى من الأرض ألا يمنع احد مواقع القطر فأبح الاحماء ثم أبحها»(١).

إباحة الإحماء

ولكن هناك أماكن قد حماها رسول الله صلى الله عليه وسلم لخيل المسلمين فهذه يبقيها فيقول عنه معاصروه: انه لما استخلف أباح الأحماء كلها إلاّ النقيع(٢). والنقيع حماه رسول الله صلى الله عليه وسلم للخيل الغازية في سبيل الله وهوموضع معروف بالمدينة، وقد حمى عمر رضى الله عنه الربذة لنعم بيت مال المسلمين(٣).

أما غير ذلك فلا يجوز أن يحمى ولذلك منع عمر بن عبد العزيز جريا على السنة أن يحمى أحد مواقع القطر وكتب في إباحة الجزائر «انما هى شيء أنبته الله فليس أحد أحق به من أحد»(٤).

ثم يتلفت عمر بن عبد العزيز و ينقب في زوايا هذه الدولة الواسعة باحثا عن الظلم المالى أينما كان وحيثما وجد فيزيله و يطبع مكانه بخاتم العدل وطينة الحق تاركا بصماته واضحة بارزة على مدى التاريخ.

بحث عن الظلم

فخلال بحثه ذلك يرى أن اقواما من أهل المدن والأمصار ومن أهل الذمة والعهد خاصة فرضت عليهم فرائض أجحفت بهم أو خالفت المفروض عليهم بصلحهم السابق أو لم يعودوا يحتملون ما فرض عليهم

---

١ ــ الطبقات ٥/٢٨١

٢ ــ الطبقات ٥/٢٥٤.

٣ ــ الاموال ٤١٧.

٤ ــ الطبقات ٥/٢٧٧.

لنقصان عددهم أو تغير أحوالهم أو نقص دخولهم فيردهم الى الحق ويحملهم على الرحمة والعدل.

مع أهل نجران

فأهل نجران كانوا أول من أعطى الجزية، من أهل الكتاب أعطوها لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكان مقدارها ألفى حلة من حلل الأواقى ــ أى ثمن كل حلة أوقية ووزن الأوقية أربعون درهما ــ وكانوا يؤدون في رجب ألف حلة وفي صفر ألف حلة(١).

وفي زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أجلاهم عن الجزيرة فنزل بعضهم الشام و بعضهم النجرانية بناحية الكوفة، ولما استخلف عثمان رضى الله عنه شكوا اليه قِلَّتهم فوضع عنهم مائتى حلة(٢).

وفي زمن معاوية أو يزيد ابنه شكوا قلَّتهم فوضع عنهم مائتى حلة أخرى(٣). ولما ولى الحجاج اتهمهم بمالأة ابن الاشعث فردهم الى ألف وثمانمائة حلة وأخذهم بحلل وشي.

ولما ولى عمر بن عبد العزيز شكوا اليه فناءهم ونقصانهم وإلحاح الأعراب بالغارة عليهم وتحميلهم إياهم المؤن المجحفة بهم وظلم الحجاج إياهم. فأمر فأحصوا فوجدوا على العشر من عدتهم الأولى فقال: أرى هذا الصلح جزية على رؤوسهم وليس هو بصلح عن أرضيهم وجزية الميت والمسلم ساقطة. فألزمهم مائتى حلة قيمتها ثمانية آلاف درهم(٤).

وهكذا بالعدل والرحمة والفقه الواعى المدرك رد عمر بن عبد العزيز الأمور الى نصابها ودفع عن هؤلاء المظلومين ذلك الظلم الفادح الذى

---

١ ــ فتوح البلدان ٧٦ــ١/٧٧.

٢ــ، ٣ــ فتوح البلدان ٧٨ــ١/٧٩.

٤ ــ فتوح البلدان ٨٠.

٥ ــ فتوح البلدان ١٨٣.

كانوا يعيشون فيه ولا يجدون من يرفعه عنهم طيلة عشرات من السنين.

وكانت قبرص قد فتحت أيام معاوية رضى الله عنه صلحا دائما على سبعة آلاف دينار وعلى النصيحة للمسلمين، فلما ولى عبد الملك بن مروان زاد عليهم ألف دينار فجرى ذلك الى خلافة عمر بن عبد العزيز فحطها عنهم.

فرحم الله عمر بن عبد العزيز ورحم من سار على دربه.

المبحث الثاني

الهداية لا الجباية

«إنَّ الله جل ثناؤه بعث محمدا صلى الله عليه وسلم
داعيا الى الإسلام ولم يبعثه جابيا»(١)
عمر بن عبد العزيز

صيحة تشق الآذان وتفتح الاعين

من منطلق المفهوم الصحيح للإسلام انطلقت هذه الصيحة لتشق آذانا صُمّاً عن الحق وتفتح أعينا عميا عن الخير، وترد الأفكار الشاردة عن طريق الهدى اليه بالنظرة الراشدة المهدية، نظرة عمر بن عبد العزيز الى المال والاقتصاد.

رحمة لا قسوة

فهو يعلم تماما أنَّ الإسلام لم يكن يوما دين اغتصاب أموال أو استعباد شعوب، ولم يكن محمد صلى الله عليه وسلم جمَّاعاً للمال مكتنزا للثروات، وإنما أرسله الله عز وجل رحمة للعالمين ومنقذا للبشرية ومخلصا للمستعبدين في الأ رض ولم تتحول الرحمة في يوم ما بطشا وقسوة، ولم يصبح المنقذ يوما ما مُهلِكا وقاتلا ولم يتبدل المخلص أبدا مستعبدا.

تصحيح المفاهيم

لقد وعى قلب عمر بن عبد العزيز هذا واقتنع به عقله وملك عليه لبه ووجدانه، فما أن ينبهه وال الى نقص في بيت مال ناحية بسبب تنفيذ أمر شرعي وإبطال ظلم بشرى إلاّ و ينطلق من وجدانه تصور المفهوم الصحيح للإسلام ليصحح من مفاهيم ذلك الوالى ليكونا معا على درب التصحيح لأخطاء متعمدة طال عليها الزمان حتى ظنت أنها هي العدالة وما سواها ليس من العدل في شيء، وحتى اعتقد الناشئون عليها أن بغيرها ستنهار الدولة وتخرب الميزانية و يصيب الشلل والانهيار كل مسارات الاقتصاد في البلاد. ولكن عمر بن عبد العزيز كان يقيس الأمور بمقياس لم يعد كل الناس يعرفه، مقياس لا يعرفه الماديون ولا يستطيعونه، مقياس لم يعد

مقياس لا يعرفه الماديون

---

١ ــ الخراج لابى يوسف ١٣١، الطبقات ٥/٢٨٣.

يدرك مميزاته إلاَّ إنسان اجتذب نفسه من بيئته ومجتمعه اجتذابا وعاش مع الإسلام الحقيقي الذى عاشه رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون المهديون من بعده، أدركه عمر بن عبد العزيز فعض عليه بالنواجذ وتمسك منه بالعرى والغروز(١). فاستطاع أن يحطم مفاهيم القاصرين و يقيم للنظرة الإسلامية الصحيحة صرحا شامخا بهر ولا يزال يبهر الأ بصار و يسترق القلوب.

خليفة همه رفع الظلم عن الرعية

لم يكن هَمُ عمر بن عبد العزيز جمع المال ولا تكديسه في خزائن الدولة و بيوت أموال الأقاليم، بل كان همه ــ كما رأينا ــ أن يرفع عن كواهل أفراد هذه الأمة كل ظلم أصابهم خلال عهود الظلم الماضية مهما كان دخل هذا الظلم على بيت المال عظيما، ولقد أحس كثير من الولاة مقدار هذه التضحية حينما قاسوها بمقياس قصيري النظر ماديي البصيرة والبصر. فهذا واليه على مصر حيان بن سريج يكتب إليه شاكيا إفلاس الخزينة حتى لم يكف ما فيها رواتب الجند والموظفين فيقول: «أما بعد فإن الإسلام قد أضر بالجزية حتى تسلفت من الحارث بن ثابتة عشرين ألف دينار أتممت بها عطاء أهل الديوان، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بقضائها فعل»(٢). إذاً فإبطال ضريبة ظالمة واحدة من بين عديد من الضرائب الظالمة قد سبب تلك الخسارة المالية الهائلة فأضرت بخزانة بلد يعتبر من أخصب أراضي الدولة وأغناها، فما موقف عمر بن عبد العزيز أمام هذه الكارثة المالية؟ هل يقف مبهوتا ذاهلا لهذه النتيجة غير المتوقعة أو المتوقعة في نظر الماديين؟ أو هل تراه يغير مساره ليتلافاها وأمثالها؟ كلا لن يقف عمر مبهوتا ولن يغير مساره الذى آلى على نفسه أن يسير عليه،

مع والى مصر

---

١ ــ النواجذ: أقصى الاضراس ــ قاموس ٢/٣٥٩ والعض بها كناية عن شدة التمسك.
العرى: ج عروة وهى مقبض الدلو والكوز وفتحة الزر قاموس ٤/٣٦١.
الغروز: ج غرز ركاب من جلد، وتمسك بالغرز أى الزم الأمر والنهى القاموس ١٨٤ــ٢/١٨٥.
٢ ــ جمهرة رسائل العرب ٢/٣٤٤ الطبقات ٥/٢٨٣، فتوح مصر ٣١٠.

وإنَّما بكل ثبات على الحق وصرامة مع المبدأ يكتب الى ذلك الوالى «أما بعد فقد بلغنى كتابك وقد وليتك جند مصر وأنا عارف بضعفك، وقد أمرت رسولى بضربك على رأسك عشرين سوطا، فضع الجزية عمن أسلم قبح الله رأيك ــ فإن الله عز وجل بعث محمدا صلى الله عليه وسلم هاديا ولم يرسله جابيا ــ ولعمرى لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم الإسلام على يديه(١).

هداية لا جباية

رد قاس على وال ضعيف لم ينظر بعينى عمر وبصيرته وأنَّى له ذلك؟ وهو بعد لم يخرج من نطاق النظرة الضيقة المادية، ولم يستطع أن يخرج نفسه كما فعل عمر؟.

وهذا والى البصرة ــ عدى بن أرطاة ــ يقف نفس الموقف ويحس نفس الإحساس الذى أحسه والى مصر فيكتب الى الخليفة «أمّا بعد فإن الناس قد كثروا في الإسلام وخفت أن يقل الخراج ــ (نفس النظرة ونفس الشعور و يكون الجواب هو الجواب) فهمت كتابك والله لوددت أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت حراثين نأكل من كسب أيدينا»(١). جواب رجل وقف على الحقيقة العظمى للرسالة التى جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم ــ وهى هداية الناس كلهم الى الإسلام.

مع والى البصرة

الاسلام اولا

ومع والى الكوفة نفس الموقف يقول له: كتبت الى تسألني عن أناس من أهل الحيرة يسلمون من اليهود والنصارى والمجوس وعليهم جزية عظيمة وتستأذني في أخذ الجزية منهم، وإنَّ الله جل ثناؤه بعث محمدا صلى الله عليه وسلم داعيا الى الإسلام ولم يبعثه جابيا(٢).

وهذا والى خراسان يكتب إليه في نفس الموضوع «إنَّ الناس قد

مع والى خراسان

---

١ ــ الحلية ٥/٣٠٥ وابن الجوزى ٩٩ــ١٠٠.

٢ ــ الخراج لابى يوسف ١٣١.

سارعوا في الإسلام نفورا من الجزية ــ (نظرة قاصرة من إنسان لم يدرك بعد روح الإسلام وقربه من النفوس إذا عرض بصورة سليمة صحيحة ــ ولم يكتف الوالى بإخبار الخليفة بذلك بل أراد أن يزين له عملا لعله يوقف تدفق الناس الى الإسلام فيشير على الخليفة بأن يسمح له بأن يختن كل من أعلن إسلامه لعل ذلك يكون رادعا لهم عن دخول الإسلام فتبقى عليهم الجزية ــ فيكون جواب عمر حازما قاطعا). «إنَّ الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم داعيا ولم يبعثه خاتنا»(١).

الإسلام لا الختان

ولم يكتف عمر بهذا الموقف السلبى من الدعوة الى الإسلام لم يكتف بأن يرفع الضرائب الظالمة أو يرفع السدود والقيود عن الدخول في الإسلام بل هو يخطو خطوة أعمق من ذلك وإن تكن تمثل أساس الدعوة الإسلامية ووظيفة الخلافة الراشدة المهدية، أعنى الدعوة الى الإيمان بالقول والفعل، وأن يكون الولاة العمال لا مجرد حكام ينفذون الأوامر الصادرة ويجبون الأموال المفروضة، بل يجب أن يكون عمال الخليفة وولاته الى جانب ذلك دعاة للإسلام، فهو يرسل الى عامله على خراسان كما أرسل الى غيره ــ يأمره بأن يدعو أهل الجزية الى الإسلام فإن أسلموا قبل إسلامهم ووضع الجزية عنهم وكان لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين(٢).

الدعوة الى الاسلام

وليس هذا فحسب بل إنَّ هؤلاء الذين أسلموا من أهل الذمة وانضموا الى صفوف المجاهدين في سبيل الله يعطون من مال الله كما يعطى المجاهدون من العرب، وهذه نقطة في غاية الأهمية، وكانت مثار صراع بين العرب والموالى في عهد بنى أمية، وكان أوَّل من أعطى الموالى

---

١ ــ الكامل لابن الاثير ٥١ــ٥/٥٢ الجمهرة ٢/٣٣٩ الطبرى ٨/١٣٤.
٢ ــ الطبقات ٥/٢٨٥.

من الفيء بعد الخلافة الراشدة المختار بن أبى عبيد حينما قام بثورته ليضم اليه صفوف الموالى، وكان ذلك من أهم أسباب النقمة ضده في العراق(١).

فلما كان عمر بن عبد العزيز أمر بضم من أسلم من الموالى الى ديوان من أسلموا على يديه(٢)، وجعل العرب والموالى في الرزق والكسوة والمعونة والعطاء سواء، غير أنه جعل فريضة المولى المعتق خمسة وعشرين دينارا(٣).

ثم هو يرسل الدعاة الى كل مكان لم ينتشر الإسلام بين أهله بعد، فيولى إسماعيل بن عبد الله ابن أبى المهاجر المغرب فيسير فيهم أحسن سيرة و يدعوهم الى الإسلام، و يكتب اليهم عمر بن عبد العزيز كتبا يدعوهم الى ذلك فيقرأها عليهم إسماعيل في النواحى فيغلب الإسلام على المغرب(٤).

ارسال المعلمين

و يرسل عمر عشرة من التابعين ليفقهوا أهل افريقية و يعلموهم دينهم ويحثوهم على الجهاد في سبيل الله(٥).

تعليم البدو

و يبعث يزيد بن أبي مالك الدمشقي والحارث بن يمجد الاشعرى يفقهان الناس في البدو، وأجرى عليهما رزقا. فأما يزيد فقبل وأما الحارث فأبى أن يقبل، فكتب الى عمر بن عبد العزيز بذلك فكتب عمر إنّا لا نعلم بما صنع يزيد بأسا وأكثر فينا مثل الحارث بن يمجد(٦).

---

١ ــ الطبرى ٧/١١٦ وانظر مبحث مظاهر عودة الجاهلية من الرسالة.
٢ ــ فتوح مصر ٢١٠.
٣ ــ الطبقات ٥/٢٧٧.
٤ ــ فتوح البلدان ١/٢٧٣.
٥ ــ الخليفة الزاهد ٢٢٨.
٦ ــ ابن الجوزى ٧٤.

و يكتب الى عماله «أمّا بعد فأمر أهل العلم أن ينشروا العلم في مساجدهم فإنَّ السنَّة كانت قد أميتت»(١).

عطاء العلماء

وكتب الى والى حمص: انظر الى القوم الذين نصبوا أنفسهم للفقه وحبسوها في المسجد عن طلب الدنيا فأعط كل رجل منهم مائة دينار يستعينون بها على ما هم عليه من بيت مال المسلمين حين يأتيك كتابى هذا، وإنَّ خير الخير أعجله والسلام(٢).

العناية بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم

وكتب عمر بن عبد العزيز الى أبي بكر بن حزم «انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتبه فإنى خفت دروس العلم وذهاب العلماء ولا تقبل إلاَّ حديث النبى صلى الله عليه وسلم، ولتفشوا العلم، ولتجلسوا حتى يُعَلَّم من لا يعلم فإنَّ العلم لا يهلك حتى يكون سرا(٣).

و يبعث نافعا مولى عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى مصر ليعلم الناس السنن(٤).

دعوة الملوك

ولم يكتف عمر بالدعوة الى الإسلام في نطاق الدولة الإسلامية، بل تعدى ذلك الى دعوة الأمم المجاورة للدولة الإسلامية عن طريق دعوة ملوكها، وله في ذلك سلف صدق إذ اقتدى بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتبه الى ملوك عصره، فاقتدى رحمه الله بالقدوة العليا وقام بأمر الخلافة العظمى فأرسل ابن عبد الاعلى الى إليون إمبراطور الروم يدعوه الى الإسلام(٥). وأرسل الى ملوك ما وراء النهر يدعوهم الى الإسلام فأسلم بعضهم(١).

١ــ ابن الجوزى ٩٤.
٢ ــ ابن الجوزى ٩٥.
٣ ــ البخاري ١/٣٦ وفي الطبقات ــ أو سنة ماضية أو حديث عمرة فاكتبه ٨/٣٥٣.
٤ ــ البداية والنهاية ٩/٣٥٩.
٥ ــ الكامل للمبرد ٢/٤٥٣.

وكتب الى ملوك الهند يدعوهم الى الإسلام والطاعة على أن يملكهم ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ــ وقد كانت بلغتهم سيرته ومذهبه ــ فأسلم حليشة (في رواية جيشبة وهو ابن داهر الذى قتله محمد بن القاسم) والملوك وتسموا بأسماء العرب(٢).

و يكتب إليه أحد ملوك الهند رسالة يخبره فيها بإسلامه بعد دعوته له: أما بعد فإنَّ الله قد هدانى الى الإسلام فابعث إليَّ رجلا يعلمنى الإسلام والقرآن وشرائع الإسلام وقد أهديت إليك هدية من المسك والعنبر والند والكافور فاقبلها فإنَّما أنا أخوك في الإسلام(٣).

وهكذا رفع عمر بن عبد العزيز راية الهداية لا الجباية، وحقق الهدف من قيام الخلافة عن صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم، وأعاد للخلافة حقيقتها بعد أن لوثها ملوك بنى أمية وانحرفوا بها عن طريق الله إلى طريق الجبرية والاستبداد والاستعباد، وانحازوا بها عن طريق الدعوة الى الله إلى طريق الملك الدنيوى الذى لا هَمَّ له إلا جمع المال من أي طريق.

---

١ ــ فتوح البلدان ٥٢٤.

٢ ــ فتوح البلدان ٥٤٠ النجوم الزاهرة ١/٢٤٧.

٣ ــ النجوم الزاهرة ١/٢٤٠.

الفصل الرابع

سد ثغرات التسرب

المبحث الأول: ثغرات التسرب قبل عهد عمر

مع التفات عمر بن عبد العزيز الى مداخل المال الحرام المتدفق الى بيت مال المسلمين وسد تلك المداخل، وتطهير مال المسلمين من الرجس والدنس الخبيث، التفت الى ناحية أخرى مهمة في الحفاظ على مال المسلمين للمسلمين، تلك هي الثغرات المفتوحة التى كان يتسرب منها مال الله عن غير الطريق الذى رسمه الله.

المال دولة بين الاغنياء

رأى عمر أنَّ مال الأمة قد أصبح دولة بين الأغنياء، من خلفاء وأمراء وعمال وولاة وقواد يستولون عليه بغير حق إلاَّ حق الاستيلاء والغلبة إن اعتبر ذلك حقا. وقد بدأ سيل تلك الثغرات يتسرب منذ زمن معاوية وعبد الملك بن مروان وابنيه الوليد وسليمان.

ففى عهد معاوية تعطى مصر طعمة لعمرو بن العاص رحمه الله لقاء خدماته في سبيل وصول معاوية الى الحكم، ومعاوية ينفق مال الله في استئلاف زعماء القبائل العربية من يمنية ومُضَرية لكى يحتفظ بولائهم لعرشه، و يعطى من مال الله لمن يخافه على سلطانه ليضمن سكوتهم عن وصوله للسلطة.

ثم يأتى بعده يزيد ابنه فتدفق المال من تلك الثغرات تدفقا على شهواته وملاذه وإسرافه على نفسه وجيوشه التى يرسلها لقتل الحسين وانتهاك حرمة مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ومحاصرة ابن الزبير بمكة.

عبد الملك ابن مروان

ثم يأتى مروان بن الحكم فيقسم البلاد بين ولديه عبد الملك وعبد العزيز فعبد الملك يحتجن أموال الأمة و يستبد بها ليثبت بها عرشه و ينفق منها على جنده المحارب في الجزيرة والعراق والشام. ويحج سنة خمس

وسبعين و يزور ــ المدينة فيأمر للناس بالعطاء فتخرج بدرة(١) مكتوب عليها «من الصدقة» فيأبى أهل المدينة قبولها و يقولون: إنّما كان عطاؤنا من الفيء»(٢). فيخطبهم مهددا، ومن جملة ما قاله «أما بعد فإنه كان من قبلى من الخلفاء يأكلون من هذا المال و يؤكلون وإنّى والله لا أداوى أدواء هذه الأمة إلاّ بالسيف الخ»(٣).

ومن أمثلة إنفاقه المال في غير حقه ــ مع بخله بالمال وضنه به ــ إعطاؤه عمرو بن بلال الاسدى ألف دينار ومزرعة بما فيها من الآلات والرقيق جائزة له لأنّه صالح له زوجه عاتكة بنت يزيد بن معاو ية وقد صالحها له بطريقة خبيثة(٤).

وهذا الأخطل الشاعر النصرانى يدخل عليه معلقا الصليب على صدره ولحيته تنفض خمرا وقد اتخذه لسانا منافحا عنه وعن بنى مروان وحكمهم ومهاجما لأعدائهم، و يعطى من مال الله هو وغيره من الشعراء والخطباء والمداحين والمتملقين.

عبد العزيز ابن مروان

وأما عبد العزيز بن عبد الملك فكان الملك غير المتوج لغرب الدولة الإسلامية الممتد من مصر الى نهاية افريقية وإليه تجبى ثمار هذه الرقعة الهائلة، ولا يحمل لبيت المال المركزى منه شيء وإنفاقه وتبذيره وإسرافه كان مضرب المثل، ولما مات خلف من الأموال والأثاث والدواب من الخيل والبغال والإبل وغير ذلك ما يعجز عنه الوصف من جملة ذلك: ثلاثمائة مُدّ من ذهب غير الورق ــ أى الفضة ــ مع جوده وكرمه و بذله

---

١ ــ البدرة: كيس فيه ألف او عشرة آلاف درهم او سبعة آلاف دينار. قاموس ١/٣٦٩.

٢ ــ مروج الذهب ١٢٧ــ٣/١٢٨.

٣ ــ تاريخ خليفة بن خياط ٣٤٩.

٤ ــ مروج الذهب ١٢٥ــ٣/١٢٦.

وعطاياه الجزيلة فإنّه كان من أعطى الناس للجزيل(١).

عهد الوليد ابن عبد الملك

ثم يأتى الوليد بن عبد الملك وتتسع الفتوح في عهده ومع اتساعها يتسع الخرق على الراقع من تسرب الأموال في بناء المساجد والقصور وإقطاع الأراضي والقرى للأمراء من أبناء وأخوة وأصهار، وفتن وثورات وحروب، فهو يقطع أبناءه ويحملهم على أكتاف المسلمين وأهل الذمة دون كفاءة أو صلاح، و يهب خمس المسلمين للجوارى والقيان(٢).

عهد سليمان

ثم يخلفه سليمان بن عبد الملك فينفق مال الأمة على شهوتيه بطنه وفرجه، وعلى من لا يستحق من الأشراف والقادة والرؤساء. و يولى يزيد ابن المهلب بن أبى صفرة العراق وخراسان ولا يسأله عما أخذ من المال حتى إنَّ خمس ما غنمه ينفقه ولا يحاسبه حتى يأتى عمر بن عبد العزيز فيسجنه بسببه(٣).

امثلة لبعض مظاهر الاسراف الفاحش في زمن الحجاج

ورأى عمر كل ذلك وعايشه ــ فقد كان هو أحد أمراء بنى مروان المحظوظين الأغنياء المترفين ــ ورأى أن ما يخرج من مال الله من هذه الثغرات أكثر مما يخرج أو خرج من الباب العام. وهذان مثالان يعطياننا صورة واضحة عن مقدار ما كانت تنفقه الدولة في ثغرة من تلك الثغرات الواسعة أى ثغرة الحروب الداخلية ــ في فتنة ابن الأشعث يقول ابن الأثير وغيره: ولما رجع الحجاج نظر في كتاب المهلب فقال: لله دره أى صاحب حرب هو؟ وفرق في الناس مائة وخمسين ألف ألف درهم(٤).

وهذا الحجاج نفسه الذى يكتب الى رتبيل(٥) وقد التجأ اليه ابن

---

١ ــ البداية والنهاية ٩/٦٤.

٢ ــ ينظر مبحث الحالة الاقتصادية ومبحث «بنو أمية في وجه عمر».

٣ ــ الوزراء والكتاب ٤٩ــ٥٠/١.

٤ ــ الكامل لابن الاثير ٤/٤٦٥، الطبرى ٨/١١.

٥ ــ رتبيل ــ لقب ملوك الترك في ذلك الوقت.

الأشعث بعد فراره ــ أما بعد فإنّى قد بعثت اليك عمارة بن تميم في ثلاثين ألفا من أهل الشام لن يخالفوا طاعة ولم يخلعوا خليفة ولم يتبعوا إمام ضلالة، يجرى على كل رجل منهم في كل شهر مائة درهم يستطعمون الحرب استطعاما يطلبون ابن الأشعث(١).

وفي نفس الوقت وبسبب ابن الأشعث أيضاً يعطى الحجاج عبيد بن أبى سبيع التميمى ألف ألف درهم ليقنع رتبيل بالغدر بابن الأشعث، فيشترط رتبيل أن لا تغزى بلاده عشر سنين وأن يؤدى بعد العشر سنين في كل سنة تسعمائة الف فأعطى وعبيد ما سألا(١).

أمية بن عبد الله

وهذا أمية بن عبد الله ــ عامل عبد الملك على خراسان ــ يقول: ما اكتفى بخراسان وسجستان لمطبخى(٢). ورأينا في مباحث سابقة شيئا عن إسراف المهلب وابنه يزيد خلال ولايتهما في عهد عبد الملك والوليد وسليمان وتبذيرهما في مال الله لكى يوصفا بالكرم، ولو كان على حساب بيت المال، حتى أنَّ يزيد بن المهلب أعطى جاريته مثل سهم ألف رجل(٣).

فما أنفقه الحجاج في العراق طيلة عشرين عاما ليثبت به ملك بنى مروان يجل عن الحصر حتى إنَّ عبد الملك ساءه كثرة إنفاقه الأموال على الجند وعلى إسرافه في القتل فلامه على ذلك وتهدده(٤).

وعلى الرغم من الفتوح الهائلة والغنائم الوافرة التى تدفقت على الخزينة العامة لم تكن هذه الأموال في الحقيقة لتكفى نفقات هذه الحروب الدائمة والثورات العارمة بين الدولة ومناوئيها من جهة وما

---

١ ــ الطبرى ٨/٤٠.
٢ ــ الطبرى ٧/٢٧٨.
٣ ــ الطبرى ٨/١١٦.
٤ ــ مروج الذهب ٣/١٤١.

أكثرهم وأعدائها الخارجين من جهة أخرى وما أوفرهم، وكان هذا التسرب الهائل مع تلك الحروب الطاحنة سببا في تشديد الضغط على الناس وإرهاقهم لاستخراج الأموال منهم مهما كانت وسائل الضغط مادامت تؤدى مالا الى الخزانة. فهذا سليمان بن عبد الملك يكتب الى صاحب خراج مصر ــ أسامة بن زيد التنوخى ــ «احلب الدر حتى ينقطع والدم حتى ينصرم» فيفعل أسامة ما يطلب منه و يصيب أهل مصر منه شدة و بلاء(١).

التشديد والإرهاق لاستخراج الأموال

ولكن لا يمكن بحال أن يؤدي الظلم الى الإعمار ولا الى الرفاهية، بل الى الخراب والدمار فتخرب البلاد و يفر الفلاحون عن أراضيهم فتنخفض نسبة الدخل ــ وخاصة في العراق ــ انخفاضا فاحشا حتى يصل الأمر الى أن يجبى الحجاج سواد العراق في إحدى سنوات حكمه الظالمة ثمانية عشر ألف ألف درهم، مع أنه وصل في عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى مائة ألف ألف وثمانية وعشرين ألف ألف درهم.

الظلم يخرب و يدمر لا يبنى ولا يعمر

ويحاول الحجاج أن يصلح من الأوضاع ولكنه لم يهتد الى سواء السبيل، إذ يمنع أهل السواد من ذبح البقر لتكثر الحراثة والزراعة(٢) و يأمر بكل فلاح خرج عن أرضه وأسلم بالعودة اليها كرها(٣). ولعل هذا من أهم الأسباب التى دعت الناس في العراق الى الاشتراك في ثورة ابن الأشعث.

الإصلاح بالظلم

هذا كله عدا عن السرف وإنفاق الأموال العامة وتبذيرها في المظاهر الخداعة والظواهر البراقة من المراكب والحرس والجنود والفرش والستور وغير ذلك.

---

١ ــ النجوم الزاهرة ١/٢٣١.

٢ ــ المسالك والممالك لابن خرداذبه ١٤ــ١٥.

٣ ــ الحلية ٥/٣٠٨.

سد ثغرات وتجفيف المستنقعات

لذلك فما أن يصل عمر بن عبد العزيز الى سدة الخلافة حتى يسارع الى تلك الثغرات المفتوحة فيعمل على سدها ثغرة ثغرة حتى يسدها جميعا ويجفف تلك المستنقعات المحيطة ببيت مال الأمة ولا يبقى إلاّ على المجرى العام للنهر يتناول منه الجميع على قدم المساواة لا يحرم أحد حقا ــ ولا يعطى أحد باطلا.

فماذا فعل عمر بن عبد العزيز لسد هذه الثغرات المفتوحة؟

كان أوّل ما فعله عمر أن حدد أماكن تلك الثغرات فكانت ما يلي:

تحديد الثغرات

أوّلا: رأى عمر بن عبد العزيز بثاقب نظره أن القائمين على شئون الدولة من خلفاء وولاة وقواد تحيط بهم مظاهر من الترف والسرف لم يعرفها السلف الصالح لهذه الأمة، وليست مصرفا لأى جزء من أموالها فآل على نفسه أن يقضى عليها و يكف أيدى الولاة وكبار الموظفين عن استغلال المال العام بها.

مظاهر السرف

الجوائز والعطايا

ثانيا: سد تلك الثغرات الواسعة التى كان يتسرب منها مال الأمة كجوائز للشعراء والكبراء والمتزلفين، تلك الفئات التى كانت تنال جزءا كبيرا جدا من أموال المسلمين بغير وجه حق إلاّ التملق للقائم بالأمر وولاته ووزرائه، وإلاّ محاولة القائم بالأمر شراء ذمم أولئك الكبراء والأشراف وغيرهم.

الحروب وايقافها

ثالثا: وجد عمر أن الدولة قد اتسعت أطرافها وأنّ جندها يحاربون في كل جبهة وأنّ من كان قبله لم يلتفتوا الى الإصلاح الإدراى ووجد أنّ واجبا عليه ذلك الإصلاح، فأمر بالحروب فأوقفت و بالبعوث فقطعت وأمن حدود الدولة والتفت للإصلاح الداخلي، وناقش الفئات الخارجة على الدولة ووفر على بيت المال نفقات الجنود التى كانت تحارب أولئك الخارجين.

رابعا: علم أنّ الخراج ــ ومنه عظم مالية الدولة ــ لن يتوفر إلاّ إذا أحس الناس بالطمأنينة على أنفسهم وأموالهم، وإلاّ إذا أحسوا بالعدالة ترفرف بجناحها عليهم، فرفع الظلم عن كواهل المزارعين والفلاحين والتجار سواء في الجباية أو في المقدار. وعلم أنَّ توفر الأموال إنّما يكون بصلاح الأرض وإعمارها فأسلف الفلاحين ما يصلحون به أراضيهم ولم يحمل الأراضي إلا ما تطيق ولم يأخذ من العامر إلا ما أطاق.

الأمن والطمأنينة

خامسا: أطلق حرية التجارة برا و بحرا وألغى المكوس الظالمة والضرائب الجائرة التى كانت تحد من حرية التجارة في البر والبحر.

الحرية

وسيأتى كل ذلك مفصلا في المباحث التالية إن شاء الله.

المبحث الثاني

القضاء على مظاهر السرف والترف في الدولة

«إنى أكره أن أخرج من أموال المسلمين مالا ينتفعون به»

عمر بن عبد العزيز(١)

تطور الدولة من البداوة الى الحضارة

كان الخلفاء قبل عمر بن عبد العزيز ملوكا فاقوا كسرى وقيصر في مظاهر الأبهة والسلطان، إذ خرجت الدولة من طور البداوة الى طور الحضارة ومن البساطة الى التعقيد، فكان للخلفاء مظاهر ومراسيم يسيرون عليها و يلتزمون بها إظهاراً للسلطة وأرهابا للعامة.

وقد ظهر ذلك واضحا خلال عهد عبد الملك بن مروان ثم ازداد حدة في عهد ابنيه الوليد وسليمان. ولعل أوّل من سن تلك المظاهر معاو ية بن أبى سفيان رحمه الله فهو أول من اتخذ المقاصير وأقام الحرس والحجاب، وأوّل من مشى بين يديه صاحب الشرطة بالحربة وأول من تنعم في مأكله ومشربه وملبسه(١).

المراكب الخلافية

وحينما بويع عمر بالخلافة ــ ولم يكن ولى عهد فيستعد لها كما لم يعلم باستخلافه حتى علمه الناس جميعا ــ ولما دفن سليمان بن عبد الملك وخرج من قبره سمع للأرض هدة أو رجة فقال: ما هذه؟ فقيل هذه مراكب الخلافة قربت اليك ياأمير المؤمنين لتركبها. فقال: مالى ولها، نحوها عنى، وقربوا إليَّ دابتى. فقربت اليه فركبها، ثم جاء صاحب الشرطة ليسير بين يديه بالحربة جريا على عادة الخلفاء قبله فقال: تنح عنى مالى ولك إنَّما أنا رجل من المسلمين. ثم سار مختلطا بين الناس حتى دخل المسجد(٢).

---

١ ــ حياة الحيوان ١/٧٢.

٢ ــ حياة الحيوان ١/٨٣ الكامل لابن الاثير ٥/٤١ الطبقات ٥/٥٤٩.

ثم لما دخل دار الخلافة فأمر بالستور فهتكت و بالبسط فرفعت وأمر ببيع ذلك وإدخال أثمانه في بيت مال المسلمين(١).

وهكذا لم ينتظر عمر بن عبد العزيز يوما واحدا في قضائه على المظاهر الخداعة التى تفصل بين الراعى والرعية، لقد كان واعيا منذ اللحظة الأولى للفرق بين الخلافة والملك، الخلافة ببساطتها وتقشفها والملك بتعقيده وترفه وسرفه، الخلافة بشرعيتها والملك باستبداده وجبروته، فأراد أن يكون خليفة حقا لا ملكا جبارا، أراد أن يكون قريبا من الناس لا بعيدا عنهم، يعيش بينهم ويختلط بهم لا متعاليا عليهم مفصولا بالحراس والشرط والحراب والمظاهر.

الخليفة عامل وأمين

ورأى أنَّ كل تلك المظاهر إنّما هى من مال الله أخذت ومنه ينفق عليها بغير حق، فالخليفة عامل للمسلمين فلا يجوز له أن يحتجب عنهم، أمين على أموالهم لا يجوز له أن ينفقها على ملذاته ومظاهر سلطانه، فالمسلمون في غنى عن هذا كله، فهم أولى بما لهم من تلك المظاهر وذلك الإسراف.

ورأى أيضا أنّه لكى يقضى على مظاهر الترف والسرف في الدولة يجب عليه أن يبدأ بنفسه حتى يكون قادرا بعد على القضاء عليها في كل مكان.

لقد كان ملوك بنى أمية يحيطون أنفسهم بمظاهر الأبهة والعظمة والجبروت، و يعيشون في قصورهم محجوبين عن الرعية بالأحراس والجنود، فأزال عمر بن عبد العزيز ذلك كله ليشعر الناس أنَّ الخلافة قد عادت كما كانت وأن عهد الملك والجبروت قد ولى، وأنّ الخليفة إنّما هو واحد من المسلمين لا يحق له من بيت ما لهم إلاَّ كرجل منهم، لا يجوز أن

---

١ ــ حياة الحيوان ١/٨٤ صفة الصفوة ٢/١١٥.

يفتات عليهم بشيء من مالهم ولا يستأثر، و يقول شاهد عيان ــ وهو الحكم بن عمر الرعيني ــ شهدت عمر حين جاءه أصحاب المراكب يسألونه العلوفة ورزق خدمها، قال: وكم هي؟ قالوا: هي كذا وكذا، قال: أبعث بها الى أمصار الشام يبيعونها فيمن يزيد، وأجعل أثمانها في مال الله عز وجل، تكفيني بغلتي هذه الشهباء.

مع الرقيق

وجاءه صاحب الرقيق يسأل عن أرزاقهم وكسوتهم وما يصلحهم فقال عمر: كم هم: قال هم كذا وكذا ألفاً. فكتب الى أمصار الشام أن ارفعوا إليّ كل أعمى في الديوان أو مقعد أو من به فالج أو من به زمانه تحول بينه و بين القيام الى الصلاة، وفضل من الرقيق فكتب ارفعوا إليّ كل يتيم ومن لا أحد له ممن قد جرى على والده الديوان. فأمر لكل خمسة بخادم يتوزعونه بينهم بالسوية(١).

و يأتيه أصحاب مراكب الخلافة يطلبون علفها فأمر بها فبيعت وجعل أثمانها في بيت المال(٢). و يقول شاهد العيان ــ الحكم بن عمر ــ شهدت عمر يقول لحرسه: ان بي عنكم لغنى كفى بالقدر حاجزا و بالأجل حارسا، لا أطرحكم عن مراتبكم، من أقام منكم فله عشرة دنانير ومن شاء فليلحق بأهله. وكان لعمر ثلاثمائة شرطي وثلاثمائة حرسي(٣).

الحرص على مال الله

ولقد كان عمر بن عبد العزيز في كل أعماله وخطواته حريصا على مال الله أن لا يقع إلا في يد مستحقه، لقد اعتقد أن هذا المال دم فلا يجوز أن يجرى في غير عروق المسلمين، حتى ولو كان ما ينفق منه لإعمار

---

١ ــ ابن الجوزي ١٥٤، ١٥٥.
٢ ــ الكامل لابن الاثير ٥/٦٣.
٣ ــ ابن الجوزي ٩٨.

المساجد أو كسوة الكعبة، لقد كان الولاة قبل عمر يجرون على إجمار مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وتطييبه في شهر رمضان من العشر والصدقة، فلما ولى عمر بن عبد العزيز كتب بقطع ذلك ومحو آثار ذلك الطيب من المسجد(١).

مع مسجد المدينة

و يكتب اليه حجبة البيت يطلبون منه كسوة للكعبة ــ (وقد جرت عادة خلفاء بنى أمية على كسوتها بالديباج) ــ فكتب إليهم: إنى رأيت أن أجعل ذلك في أكباد جائعة فإنهم أولى بذلك من البيت(٢).

مع الكعبة

نعم الأكباد الجائعة أولى من البيت لقد كانت أموال اليتامى والمساكين والفقراء والأرامل يكسو بها بنو مروان الكعبة اعتقادا أنهم بذلك ينالون رضاء الله، وإظهارا بانهم يحترمون بيت الله الذى رموه بالمنجنيق أكثر من مرة. فأراد عمر أن يرد الأمور الى نصابها و يعيد المال الى أصحابه الحقيقيين.

وقد رأينا فيما سبق في مبحث مع النفس كيف أنَّ عمر جرد نفسه وأهله من كل ما رأى فيه شبهة، وخرج من كل ما أعطاه إياه أسلافه من ملوك بنى مروان وما ورثه عن أبيه عبد العزيز ــ وليس ذلك بالقليل ــ ولم يبق لنفسه إلا عينا وأرضا بالسويداء.

ماذا فعل لولى الامر من المال العام؟

ثم جرد ما استطاع تجريده من بنى أمية من إقطاعاتهم وغصوبهم وردها الى بيت المال واعتبر نفسه كولى مال اليتيم إن استغنى استعفف وإن افتقر أكل بالمعروف، ولم يرزأ مال المسلمين درهما طيلة خلافته. فلم يرتزق عمر من بين مال المسلمين شيئا ولم يرزأه حتى مات(٣).

---

١ ــ الطبقات ٥/٢٩٥.

٢ ــ الحلية ٥/٣٠٦ الجمهرة ٢/٣٦٢ وابن الجوزى ٧٦.

٣ ــ الطبقات ٥/٢٩٦ وابن الجوزى ١٥٧.

حينما فوتح في أن يجعل لنفسه ما كان يأخذ عمر بن الخطاب ــ وكان عمر بن الخطاب يجرى على نفسه من ذلك درهمين كل يوم ــ قال: إنَّ ابن الخطاب لم يكن له مال وأنا مالى يغنيني ولم يأخذ شيئا(١).

مع مسجد دمشق

والتفت الى مسجد دمشق زينة مساجد الدنيا في عهد بنى أمية، وقد بناه الوليد وكلف الدولة ميزانية ضخمة، رأى أن فيه ستمائة سلسلة ذهب للقناديل فردها الى بيت مال المسلمين واتخذ عوضها صفرا وحديدا(٢).

الاقتصاد في النفقات الادارية

وكما كان الخلفاء يحيطون أنفسهم بمظاهر الأ بَّهة والعظمة، كذلك كان الولاة في المدن والأقاليم يفعلون كفعلهم و يقتدون بهم، فهذا أبو بكر ابن محمد بن عمرو بن حزم يكتب لسليمان قبيل موته يطلب منه شمعا ليشعل بين يديه حينما يسير في الليل، و يطلب أيضا أوراقا لكتابة الأعمال الإدراية كما كان يعطى الولاة من قبل. فتصل الكتب ولم يبت فيها سليمان حتى يموت، فيكتب اليه عمر فيقول: أما بعد «فقد قرأت كتابك الذي كتبت به الى سليمان وكنت المبتلى بالنظر فيه دونه، وكتبت تسأله أن يقطع لك من الشمع مثل الذى كان يقطع لمن كان قبلك، وتذكر أنَّ الشمع الذى كان قبلك لقد نفد. ولعمرى لطالما رأيتك تخرج من منزلك الى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم في الليلة المظلمة الوحلة بغير ضياء، لعمرى لأنت يومئذ خير منك اليوم.

ثم يكتب إليه بشأن القراطيس: أما بعد فقد قرأت كتابك الذي كتبته الى سليمان وكنت المبتلى بالنظر فيه، كتبت تسأله أن يقطع لك شيئا من القراطيس مثل الذى كان يقطع لمن قبلك وتذكر أنَّ التي قبلك قد نفدت. وقد قطعت لك دون ما كان يقطع لمن كان قبلك فأدق قلمك وقارب بين أسطرك وأجمع حوائجك، فإنى اكره أن أخرج من أموال

---

١ ــ العقد الفريد ٤/٤٣٢.

٢ ــ حياة الحيوان ١/٨١.

المسلمين مالا ينتفعون به[1] ــ وفي رواية ــ فإذا جاءك كتابى هذا فأرق القلم واجمع الخط واجمع الحوائج الكثيرة في الصحيفة الواحدة، فإنه لا حاجة للمسلمين في فضل قول أضر بيت مالهم، وسلام عليك[2].

ثم يعمم منشورا في الآفاق «أن لا يكتبن في طومار بقلم جليل[3] ولا يمدن فيه. فكانت كتبه إنَّما هى شبر أو نحوه»[4].

مكان العبرة

فقد كان عمر صريحا مع نفسه ومع الناس، فهو يكره أن يخرج من أموال المسلمين مالا ينتفعون به، ولا خير للمسلمين في فضل قول يضر ببيت مالهم ــ فلينظر أولئك الذين يبذرون أموال المسلمين و يستغلون أوراق المسلمين في كتاباتهم الخاصة ورسائلهم الشخصية، فلينظر أولئك الذين يستغلون ما تحت أيديهم من الأموال العامة أشنع استغلال وأقبحه و يعتبرون أن مال الأمة حلال لهم بل أحل لهم من أموالهم الخاصة ــ فلينظر المسئولون وليعتبروا وليراقبوا الله عز وجل في كل ما يأتون و يذرون، وليعلموا أنَّهم عن كل ذلك بين يدى الله مسئولون.

تدبروا معنا هذه الحادثة البسيطة التى تشعر بالمسئولية العظيمة التى كان يحس بها هذا الخليفة العظيم، تلك المسئولية التى يجب أن يحس بها و يشعر بتبعتها كل مسئول: يقول فرات بن مسلم ــ كاتب لعمر بن عبد العزيز ــ كنت أعرض على عمر بن عبد العزيز كتبى في كل جمعة، فعرضتها عليه فأخذ منها قرطاسا قدر شبر أو أربع أصابع بقى. فكتب فيه حاجة له فقلت: غفل أمير المؤمنين ــ (لأنَّه كان يعلم تورع عمر عن أخذ

---

١ ــ الحلية ٥/٣٠٧ الطبقات ٥/٢٩٦ صفة الصفوة ٢/١١٩ ابن الجوزى ٨٢.

٢ ــ الحلية ٥/٣٠٨.

٣ ــ الطومار ــ الورق ــ القلم الجليل ــ العريض السن.

٤ ــ الطبقات ٥/٢٩٦، الحلية ٥/٣٠٦ ابن الجوزى ٧١، ٨١.

شيء من مال المسلمين مهما كان ضئيلا تورعا وعفة). فلما كان من الغد بعث إليّ أن تعال وجيء بكتبك. فجئته بها فبعثني في حاجة، فلما جئت قال: ما نال لنا أن ننظر في كتبك بعد. قلت: لا إنّما نظرت فيها أمس. قال: خذها حتى أبعث إليك. فلما فتحت كتبي وجدت فيها قرطاسا قدر قرطاسي الذي أخذ(١).

انظروا أيُّها المستغلون لأموال الدولة من أوراق وأقلام وأدوات وآلات وسيارات، انظروا الى ورع هذا الخليفة العظيم الذي ترد اليه الأموال من مشارق الدنيا ومغاربها ثم لا يجد له حقا في وريقة يأخذها يكتب فيها شيئا خاصا به. وقد مر معنا في مبحث الورع المثالي عديد من الأمثلة عن شدة عفته عن مال الأمة ومثالية ورعه.

البناء

و يرى عمر بعد ذلك أن من كان قبله من الخلفاء أنفقوا أموال الدولة في بناء القصور والدور واتخاذ المصانع والمزارع و بناء المساجد الفخمة التي تنبيء عن عظمة الدولة وغناها لا عن ورع وتقوى القائمين بها، فكأن عمر بن عبد العزيز لكي يقابل إسرافهم الذي عايش أكثره آلى على نفسه ألاَّ يضع لبنة طيلة خلافته إلاَّ ما كان مضطرا اليه وللصالح العام، وحين الضرورة القصوى و بقدر تلك الضرورة دون زيادة. قال أحد معاصريه: «وما أحدث بناء ولقد رأيت عتبة له خربت فكلم في إصلاحها فقال: يامزاحم هل لك أن نتركها فنخرج من الدنيا ولم نحدث شيئا»(٢). وفي رواية «كانت لعمر مرقاتان ــ (أي درجتان) ــ يرقى من صحن داره الى قعر بيته عليهما فانقلعت إحدى المرقاتين فأتاها رجل من أهل بيته فأصلحها كراهية أن يشق على عمر، فلما جاء عمر ونظر اليها قال: من صنع هذا؟ قالوا فلان. قال على به. فلما جاء قال: ويحك يافلان أنفست

مع عتبة بيته

---

١ ــ الطبقات ٥/٢٧٨ وابن الجوزي ١٦٥.

٢ ــ الطبقات ٥/٢٥٦.

على عمر أن يخرج من الدنيا ولم يضع لبنة على لبنة، والله لولا أن يكون فساد بعد إصلاح لغيرتها الى ما كانت عليه(١).

مع مسجد بنى النجار

و يرسل اليه أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ــ عامله على المدينة ــ إنَّ بنى النجار أخوال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد انهدم مسجدهم فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر لهم ببنائه فليفعل ــ (فيكون الجواب معبرا عن رأى الخليفة في نظرته الى البناء)ــ قال «قد كنت أحب أن اخرج من الدنيا لم أضع حجرا على حجر ولا لبنة على لبنة، فإذا أتاك كتابى هذا فابنه لهم بناء قاصدا والسلام عليك»(٢).

فحينما اضطر الخليفة ليأمر بالبناء لولا أنهم أخوال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بنى لهم مسجدهم، وما دام الأمر كذلك فليكن البناء متواضعا باللبن لا بالحجارة حتى يكون الأمر ضرورة والضرورة تقدر بقدرها.

قنطرة قرطبة مسجد المصيصة

ولم يعرف عن عمر بن عبد العزيز أنه بنى بناء لنفسه. وإنَّما ما كان يأمر بالبناء إلاّ لمصلحة عامة يراها، كبناء قنطرة نهر الوادى الكبير عند قرطبة حيث بناها واليه بأمره السمح بن مالك الخولانى(٣)، وإلاّ بنائه مسجدا جامعا لأهل المصيصة(٤) من ناحية كفر بيّا واتخذ فيه صهريجا وكان اسمه عليه مكتوبا(٥).

---

١ ــ ابن عبد الحكم ١٣٢ ابن الجوزى ١٥٧ وفيه «قال عمر اقلع الطين».
٢ ــ الحلية ٥/٣٠٩ وابن الجوزى ٨٣.
٣ ــ اخبار مجموعة ١٢٦.
٤ ــ المصيصة: مدينة من الثغور الشامية بين انطاكية و بلاد الروم ــ في تركيا الان ــ فتوح البلدان ٧٨٠.
٥ ــ فتوح البلدان ٢/١٩٦.

مدينة اللاذقية

وقد بنى أيضا مدينة اللاذقية(١) وحرزها بعد أن أغار عليها الروم وهدموها وسبوا أهلها سنة مائة(٢).

ما حجة عمر في عدم البناء؟

ولكن قد يطرح نفسه سؤال: ما هى حجة عمر في عدم البناء ولومه من يبنى؟ إنَّ عمر بن عبد العزيز عاصر وعايش عبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك وسليمان بن عبد الملك ورأى تلك الآلاف المؤلفة من الدنانير التى كانت تخرج من بيت المسلمين لبناء المساجد والقباب والقصور والدور والضياع وخاصة في زمن الوليد، ورأى كم أنفق عليها من بيت مال المسلمين، والمثال الواضح على ذلك الإسراف في البناء بناء مسجد دمشق الذى كلف بيت مال المسلمين ٦٠٠,٠٠٠ر٥ خمسة ملايين وستمائة ألف دينار في أقل الروايتين، وفي الرواية الأخرى ضعف هذا المبلغ(٣).

تعمير النفوس والقلوب

ورأى مع ذلك مغالاة الناس في بناء قصورهم ودورهم اقتداء بملوكهم، وفي نفس الوقت رأى خراب النفوس وفساد القلوب وجور السلطان، فكأنه آلى على نفسه أن يعمر ما خرب من النفوس والقلوب بدلا من الإعمار بالحجارة والطوب، و يدل على ذلك كتابه الى أحد ولا ته وقد أرسل اليه يخبره بخراب مدينته وتهدم سورها. إذ كتب إليه يقول «حصنها بالعدل ونق طرقها من الظلم فذلك عمارتها»(٤).

رقابة على العمال

و يعلم عمر تماما أنَّه إن لم يحمل عماله و ولا ته على السير بسيرته والاقتداء به في كل خطوة يخطوها حطمت كل المكتسبات التى اكتسبتها الأمة بولايته، فكان دائم الرقابة عليهم كابحاً جماحهم عن أى طريق يجد

١ــ مدينة مشهورة في سورية اليوم على ساحل البحر الابيض، فتوح ٧٧٣.
٢ ــ فتوح البلدان ١٥٧.
٣ ــ تاريخ ابن عساكر ١/٢٠٦.
٤ ــ عيون الاخبار ١/١٣ ابن الجوزى ٩٠.

لو أنهم سلكوه انتقصوا شيئا مما يبتغيه، أو انحرفوا به عن السبيل الذى رسمه للسير بالدولة والأمة، فهذا عدى بن أرطأة الفزارى عامله على البصرة يكتب الى عمر أنه يريد أن يبنى غرفا فوق دار الامارة، فيكتب عمر إليه مؤنبا ولائما «هبلتك أمك ياابن أم عدى أيعجز عنك منزل وسع زيادا(١) وآل زياد؟ فأمسك عدى عن إتمام تلك الغرف وتركها(٢).

لا راتبين لموظف

ثم إنَّ عمر بن عبد العزيز وقد أغنى الناس وجد أنَّ هناك أناسا يسيطر عليهم الجشع و يطغيهم حب المال و يستحلون ما ينالونه من مال الدولة بأية وسيلة، فقد علم أنَّ بعض الناس يأخذ رزقا من مكانين في الخاصة والعامة ــ أو بلغة العصر أنَّ موظفا يأخذ راتبين في آن واحد من مكانين ــ فأصدر منشورا عاما الى ولاته «أما بعد فلا تخرجن لأحد من العمال رزقا في العامة والخاصة، فإنه ليس لأحد أن يأخذ رزقا من مكانين في الخاصة والعامة، ومن أخذ من ذلك شيئا فأقبضه منه ثم أرجعه الى مكانه الذى قبض منه.. والسلام(٣).

وقد كانت هذه لفتة بارعة ونظرة ذكية من عمر بن عبد العزيز لأنّه مادام كل إنسان يأخذ بقدر حاجته وعمله فما أخذه بعد ذلك إنّما هو زيادة غير جائزة، ولأنه لا يمكن لإنسان أن يؤدى عملين في آن واحد، وهذه نظرة أدركها الاقتصاديون في كثير من دول العالم أخيراً حتى أنهم أصدروا من القوانين ما يمنع ذلك.

وقد رأينا قبلا كيف أنه منع العمال والموظفين من التجارة أثناء ولايتهم وأعمالهم وهى تلك النظرية التى لم يدركها السياسيون إلاَّ أخيرا.

---

١ ــ هو زياد بن ابيه كان والى المشرق زمن معاوية بن ابى سفيان.

٢ ــ فتوح البلدان ٤١٤.

٣ ــ الطبقات ٥/٢٧٨.

مع بريد المسلمين

ولحرص عمر على مال الدولة أن يستغل يمنع أن يستعمل بريد المسلمين لغير مصلحتهم، ولو كان لأمير المؤمنين، يكتب الى عامل له يشترى له عسلا ولا يسخر فيه شيئا، وإنَّ عامله حمله على مركبة البريد، فلما أتى به، قال: علام حملته؟ قالوا: على البريد. فأمر بذلك العسل فبيع وجعل ثمنه في بيت مال المسلمين، وقال أفسدت علينا عسلك(١).

ويحمل مولى له رجلا على البريد بغير إذنه فدعاه فقال: لا تبرح حتى تقومه ثم تجعله في بيت المال(٢).

فأين هذا الحرص على مال الأمة من استهتار أولئك الموظفين صغارا وكبارا واستغلالهم سيارات ووسائل مواصلات الدولة لأ تفة أغراضهم وأحط رغباتهم دون وازع من ضمير أو رادع من قانون؟.

رحمك الله ياعمر بن عبد العزيز.

---

١ ــ الحلية ٥/٢٩٣ وابن الجوزى ١٥٩.

٢ ــ الخراج لابى يوسف ١٨٦.

المبحث الثالث

القضاء على الفتن الداخلية وإيقاف الحروب الخارجية

الدولة العسكرية

لقد قامت دولة بنى مروان بالسيف وتحطمت بالسيف فقد كانت تلك الدولة عسكرية أكثر منها مدنية، فحرو بها في الشرق والغرب والشمال والفتن الداخلية من شيعة وخوارج وثائرين، كل ذلك أوجب على الدولة أن تكون مستعدة دائما بجيش قوى على أتم استعداد و بأقوى تسليح، وكان هذا يكلف الدولة مبالغ من الأموال طائلة لا تكاد تحصى، وكانت فتوح الدولة في الشرق والغرب ــ وخاصة في عهد الوليد بن عبد الملك ــ تدر على الخزانة العامة أموالا ضخمة لا يحصيها عد ولا يبلغها حصر، وقد يكون هذا مما شجع الوليد بن عبد الملك على القيام ببناء تلك المنشآت الضخمة في الشام والجزيرة مع ما تركه له أبوه عبد الملك من مال وافر ــ حتى قيل: إنّه لما اشتكى الناس لكثرة ما أنفق على مسجد دمشق وقالوا: أينفق فيئنا و يتلف ما في بيوت أموالنا في نقش الخشب وتزو يق الحيطان؟ ثم كأنه قد حرمنا أعطياتنا واعتل علينا بذهاب المال وقلته. و بلغ الوليد كلامهم فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ياأيها الناس قد بلغتنى مقالتكم، وانتهى إليَّ خوفكم على أعطياتكم ودفعكم عن حقوقكم، وليس الأمر على ما ظننتم، ألاّ وإنّى أمرت بإحصاء ما في بيوتكم من المال فأصبت فيها عطاءكم ست عشرة سنة مستقبلة من يومى هذا. وفي رواية: أحضر المال الى المسجد وحسب من يأخذ من المال فوجد أن أسماء من في الديوان ثلاثمائة ألف ألف في جميع الأمصار وحسبوا ما يصيبهم فوجدوا عنده رزق ثلاث سنين(١).

---

١ ــ تاريخ ابن عساكر ١/٢٠٦ ولكن في عدد اسماء من في الديوان شك ان يبلغوا ذلك العدد الهائل.

والعجب أن دولة تبلغ هذه الدرجة من الغنى والثروة والقوة يتفنن ملوكها وولاتها في ظلم الرعية وفرض الضرائب الباهظة ولو خالفت أحكام الشريعة، بل إن أحد ملوكها وهو سليمان بن عبد الملك يوصى عامله على خراج مصر قائلا: احلب الدر حتى ينقطع والدم حتى ينصرم(١). ولا تأخذهم بالناس رحمة ولا رأفة. لا جرم أن يثور على ظلمها الثائرون ويخرج عليها الخارجون، و ينضم الى مناوئيها كل من أحس بالظلم والجور من الرعية من مسلمين وذميين، و بهذا فتحت الدولة على نفسها بابا شق عليها إغلاقه بل استحال. وقد رأينا كثيرا من الأمثلة فيما سبق على ظلم الدولة وأنواع الضرائب المفروضة على الناس وخاصة الفلاحين والمزارعين والتجار. ورأى عمر بن عبد العزيز أن الدولة قد اتسعت أطرافها لدرجة هائلة وأنَّ الحروب الدائرة في كل مكان مستمرة منذ ربع قرن من الزمان ــ أى منذ استقر الأمر لعبد الملك بن مروان بعد قضائه على ابن الزبير ــ قد شغلت المسئولين عن الالتفات الى الإصلاح الداخلى، ورفع الضيم عن كاهل الأمة ورد الأمور الى نصابها.

ورأى أيضا أن الثورات الداخلية قد أنهكت الامة وفتتت وحدتها وأيقظت العصبية القبلية الجاهلية من سباتها. فعليه أن يقضي على تلك الثورات ويخمد تلك الفتن، و يستعمل مع الثائرين والخارجين طريقة أخرى غير الحرب وسفك الدماء، طريقة الاقناع بالحجة والبرهان والجدال بالحسنى، ورفع الظلم عن المظلومين والجور عن المستغلين، وإشعار الأمة بالعدالة والرحمة والأمن والطمأنينة لتستقر النفوس وتهدأ القلوب وتختفى الفوارق وتذوب الشعارات.

---

١ ــ النجوم الزهرة ١/٢٣١.

فما أن يتولى السلطة حتى يكتب الى مسلمة بن عبد الملك ــ وكان قائد حملة ضخمة على القسطنطينية ــ بأن يعود مع جنده الى الشام، وكان سليمان بن عبد الملك قد حلف ألاَّ يعود مسلمة إلا منتصرا أو مقتولا، لأنَّه خدع وهو محاصر للقسطنطينية، وقد أصاب الجيش من الجوع والبرد ما اضطرهم الى أن يأكلوا دوابهم، فما أن يتولى عمر حتى كان أول كتبه الأمر باقفال مسلمة مع جيشه من أرض الروم حرصا على دماء المسلمين(١).

مع الاعداء الخارجين

يقول صاحب الملامح: و يتولى عمر الخلافة فهل يرضى لإخوته وأبنائه أن ــ يموتوا هناك دون جدوى وهو الذى بلغ حسه بالقرآن درجة عجيبة ووعى آياته وعيا عميقا، ومنها تلك التى تقول «**وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُم إِلَىٰ التَّهْلُكَةِ**»(٢) هل يرضى عمر لقواته أن يمزقها الجوع وتحرقها النار اليونانية و يشلَّها البرد والزمهرير، و يسحقها اليأس والغربة دونما أمل قريب أو بعيد في تحقيق النصر؟ إن منطق القادة العسكريين لتتبدى روعته ليس في الإصرار على هجوم غير مجد وتقديم الناس قرابين لأهداف كالسراب، إن منطق هؤلاء القادة يتعرض لامتحانه الخطير في لحظات الهزيمة هذه، وإن القائد الحصيف ليجتازه بمهارة عجيبة. وعمر وهو يسوس أمته من دمشق كان بإمكانه أن يقدم على مزيد من المجازفات على أمل أن التاريخ سيسجل في يوم عظيم: إنَّ عمر بن عبد العزيز تمكن من كسر الباب الشرقي لأوربا وفتح الطريق أمام خيول المسلمين تطأ بسنابكها جهات القارة الأربع. ولكن عمر لم يكن يريد أمجادا من هذا النوع فهو مسئول عن كل قطرة دم تراق في سبيل أهداف بعيدة المنال، ومن ثم

---

١ ــ فتوح البلدان ٢٤١، ابن عبد الحكم ٣٢، الطبقات ٥/٢٩٢ والطبرى ٨/١٣٠ وتاريخ خليفة ابن خياط ٤٣٢، ابن الجوزى ٥٦.

٢ ــ الآية ١٩٥ سورة البقرة.

يرسل الى القائد مسلمة بن عبد الملك دونما تردد يأمره بالعودة بمن بقى معه من القوات، ولكى يؤمن انسحابهم وجه اليهم على جناح السرعة خيلا عتاقا وطعاما كثيرا وحث الناس عبر الطرقات التى ستمر منها القوات المنسحبة أن يساعدوهم و يقدموا لهم ما يحتاجون إليه(١).

ونستطيع من خلال إلقاء بعض الأضواء على عدد هذه القوات والمدة التى مكثتها في حصارها للقسطنطينية أن نعرف مقدار الخسائر المادية التى خسرها بيت المال من جراء هذه الحملة الفاشلة، إذ كانت هذه القوات قد بدأت مهمتها منذ عام ٩٧هـ. وكانت حملة برية بحرية يقول ابن كثير «وفي سنة ٩٧: جهز سليمان الجيش لفتح القسطنطينية. وفي سنة ٩٨ جهز أخاه مسلمة بن عبد الملك وراء الجيش الذين هم بها، وجهز في البر مائة وعشرين ألفا وفي البحر مائة وعشرين ألفا من المقاتلة، وأخرج لهم الأعطية وأنفق فيهم الأموال الكثيرة، وفي مرج دابق اجتمع اليه الناس أيضا من المتطوعة المحتسبين أجورهم على الله، فاجتمع اليه جند عظيم لم ير مثله(٢).

و يقول ابن قتيبة في عدة ذلك الجيش «ووجه معه ــ أى مسلمة ــ خمس مئة وثلا ثين ألف رجل وخمس مئة رجل ممن قد ضمن الديوان واكتتب في العطاء»(٣).

وهذه القوات هي زهرة قوات المسلمين، فكم تكلفت هذه الحملة الفاشلة على ذلك؟.

ولم يقف عمر بن عبد العزيز عند حد إرجاع قواته المحاصرة

---

١ ــ ملامح الانقلاب الاسلامي ٨٧ــ٨٨.

٢ ــ البداية والنهاية ٩/١٩٠ فما بعدها.

للقسطنطينية بل وجد أن هناك ثغورا متقدمة كانت دائما أهدافا طيبة للبيزنطيين وحملا تهم وللصغد وهجماتهم وللفرنجة في غرب الدولة الإسلامية، فأراد رحمه الله ضم أطرافه والحفاظ على دماء المسلمين أن تراق دونما فائدة تذكر، فاتخذ من الإجراءات ما يكفل تنفيذ خططه التى رأى فيها سلامة المسلمين والحفاظ على مكتسباتهم، فمن هذه الثغور المتوغلة في بلاد الروم طرندة(١) وكانت حصنا نزله المسلمون وأقاموا فيه مساكنهم وكان محاطا بأراضي لا يقطنها سوى جماعات من أهل الذمة والأرمن، وكان والى الجزيرة يُخرج كل صيف جندا لحماية هذا الحصن، فإذا حل الشتاء و بدأ تساقط الثلوج قفلت هذه القوة عائدة الى قواعدها في الجزيرة، فرأى عمر بن عبد العزيز أن يرحل أهل طرندة منها و ينقل أهلها الى ملطية(٢)، وكان سكانها خليطا من أهل الذمة والأرمن وعَيَّن عليها واليا جديدا، وأمر أهل طرندة حينما نقلهم باتلاف مالا يستطيعون حمله من المؤن والأمتعة حتى لا يستفيد منها العدو. وهكذا اطمأن الى سلامة المسلمين في هذه الثغور(٣).

الثغور المتقدمة

ثم يكتب الى واليه على ما وراء النهر(٤) يأمره بإقفال المسلمين بذراريهم، لان عمر خشى عليهم وقد أقاموا في مكان لم تستقر فيه قدم الإسلام بعد ــ فأبوا وقالوا: لا يسعنا مرو ــ (وهى عاصمة أقليم خراسان في ذلك الحين) فكتب اليه عمر «اللهم إنى قد قضيت الذى عليَّ فلا تغز بالمسلمين فحسبهم الذى قد فتح الله عليهم»(٥).

مع بلاد ما وراء النهر

---

١ ــ موضع في بلاد الروم ــ تركيا ــ فتوح البلدان ٧٤٧.

٢ ــ ملطية بلد في بلاد الروم ــ تركيا ــ مشهورة فتوح البلدان ٧٨٢.

٣ ــ فتوح البلدان ٢٢١ والكامل لابن الاثير ٥/٥٤.

٤ ــ ما وراء النهر: يقصد بذلك البلاد التى وراء نهر جيحون بخراسان من شرقيه ــ فتوح البلدان ٧٧٥.

٥ ــ الطبرى ٨/١٣٩.

وكان هناك ثغر آخر مهم ولكنه متوغل في أرض الروم وهو ثغر المصيصة(١)ــ وكان قد نزلها المسلمون و بينها و بين أنطاكية حصون.

مع المصيصة

فلما تولى عمر بن عبد العزيز قام بجولة في تلك الثغور، ورأى ما يعانيه المسلمون من سكان المصيصة من غارات أعدائهم ــ فأراد هدم المصيصة وهدم الحصون التى بينها و بين انطاكية ــ و ينقل الناس الى أنطاكية ــ وقال: أكره أن يحاصر الروم أهلها، فأعلمه الناس أنها إنَّما عمرت ليدفع من بها الروم عن أنطاكية ــ أى أنها خط دفاعى أول ــ وإنَّه إن خربها لم يكن للعدو ناهية دون أنطاكية، فأمسك، و بنى لأهلها مسجدا جامعا من ناحية كفر بيّا واتخذ فيه صهريجا وكان اسمه عليه مكتوبا(٢).

الحرص على دماء المسلمين

كان عمر حريصا كل الحرص على دماء المسلمين، وكان يكره كل الكره أن يخوض المسلمون في عهده معركة غير مضطرين إليها فتراق فيها دماؤهم، ولما رد المسلمين الى ملطية وخرب طرندة جعل على ملطية جعونة ابن الحارث واليا فغزا وأصاب غنما، ووفد ابنه الى عمر فلما دخل عليه وأخبره الخبر. قال له عمر: هل أصيب من المسلمين أحد؟ قال: لا إلا رويجل. فغضب عمر وقال: رويجل؟ رويجل. مرتين تجيئونى بالشاة والبقرة و يصاب رجل من المسلمين؟ لا تلى لى أنت ولا أبوك عملا ما كنت حيا(٣).

هل كره عمر الجهاد؟

فهو إذاً لا يقدر دم المسلم بمال مهما بلغ. ولكن هل يعنى هذا أنَّ عمر بمواقفة هذه كان يعبر عن الجانب السلبى من قضايا الحرب؟ وهل سيترك الروم وغيرهم من أعداء الإسلام يرتاحون وتتاح لهم فرصة من الهدوء

---

١ ــ المصيصة: مدينة من الثغور للشامية بين أنطاكية و بلاد الروم ــ في تركيا الآن ــ فتوح البلدان ٧٨٠.

٢ ــ فتوح البلدان ١٩٦.

٣ ــ الحلية ٥/٣٣٤.

والاستقرار تمكنهم من حشد قواتهم لرد الكرة على المسلمين؟ هل سيبقون دونما تهديد أو ردع لينهشوا أراضى الدولة من الشمال والشرق والغرب و يضعوا أيديهم على ثغورها واحدا بعد الآخر؟.

وهل كره عمر بن عبد العزيز الجهاد كما ادعى بعض المستشرقين(١)؟ و بعبارة أخرى هل كان عمر بن عبد العزيز خليفة جبانا يخشى الحرب، ومستسلما للخمول قانعا بما وصل اليه عازفا عن المجد العسكرى والفتوح العظيمة؟

كلا بالطبع لا هذا ولا ذاك فعمر بن عبد العزيز يسير على نفس النظام العسكرى الذى وضعه معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه نظام (الصوائف والشواتى)، ذلك الذى يجعل المبادرة العسكرية بأيدى المسلمين دائما إزاء الروم عن طريق إرسال حملات نظامية موسمية في كل صيف وشتاء لغزو بلاد الروم وعدم إتاحة أى مجال لهم في التحول الى الهجوم. وهكذا فما إن يحل الصيف حتى يرسل عمر بن عبد العزيز. عمر ابن الوليد بن هشام المعيطى، وعمرو بن قيس الكندى على رأس قوات الصائفة صوب بلاد الروم(٢). وشبيه بهذه الاستراتيجية ما قام به المسلمون في الأندلس حيث انطلقوا من قواعدهم هناك وفتحوا مدينة نربونة في فرنسا وقاموا بتحصينها كى تكون بمثابة خط دفاعى متين يحمى أراضيهم في شمال اسبانيا(٣).

استمرار الصوائف والشواتى

وفي هذا يقول صاحب الملامح ــ وهو حق ــ إنَّ موقف عمر هذا لا يعبر أبدا عن سلبية في ميدان القتال، وإنّما يعبر عن بعد نظر وحصافة لا

---

١ ــ الدولة العربية ٢٨٣.

٢ ــ البداية والنهاية ٩/٢١٠.

٣ ــ تاريخ الدولة العربية حاشية ٢ ص ٢٦١.

يتمتع بها إلاَّ القلة التى تدرك الأمور ببصيرة نافذة وحرص عميق على دماء الناس وأرواحهم، وهذا الحرص يتبدى ثانية في ساحة أخرى لها خطرها تلك هى ساحة الغزو والفتوح، فليس أحرص من عمر على نشر الإسلام وإسقاط نظم الكفر وإتاحة حرية الاعتقاد للأمم والشعوب المضطهدة، ولكنه مادام قد تمكن بدبلماسيته واتصالاته السلمية أن يحقق هذا الغرض وأن يقنع قادة وملوك وزعماء الأقوام غير المسلمة بالإسلام، ومادام عدد كبير من هؤلاء قد استجاب لهذا الأسلوب السلمى واعتنق الإسلام، أو أتاح لشعبه ــ على الأقل ــ حرية الاعتقاد، فلا ضرورة إذن لاستخدام السيف للإطاحة برءوس الطغيان الذين يقفون جدرانا كالحة أمام نور الاسلام و يصدون ــ عن طريق خنق الحريات ــ عن سبيل الله و يبغونها عوجا. ومع ذلك فإن أى عدوان يقع على أراضي ومواطني الدولة الإسلامية في عهد عمر كان يجابه بالرد العنيف الحاسم، كيلا يعود المتربصون الى الاعتداء مرة أخرى. ففي عام تسعة وتسعين أغار الترك على أذربيجان وقتلوا جماعة من المسلمين وفتكوا بالسكان. فوجه إليهم عمر حاتم بن النعمان الباهلى فقتل عددا من أولئك المغيرين ولم يفلت من يديه إلاَّ اليسير، وما لبث أن قدم بالأسرى الى الشام ليعرضهم على الخليفة(١). إذن فهو البطش في ساعات البطش والرأى والمكيدة في اللحظة التى يختل فيها ميزان القوة المنظورة أسوة برسوله العظيم(٢).

الاعداء الداخليون

رأينا فيما سبق موقف عمر بن عبد العزيز من أعداء الدولة الخارجين، كيف أنه هادنهم ورد السيوف في أغمادها والسهام الى جعابها، والتفت الى الدعوة الى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، وأنه راسل ملوك عصره يدعوهم الى الإسلام فمنهم من استجاب ومنهم من

---

١ ــ البداية والنهاية ٩/٢٠٧.

٢ ــ ملامح الانقلاب الإسلامي ٨٩ــ٩١.

أبى، وكيف أنه مع ذلك يقابل القوة بالقوة والبطش بالبطش فليست دعوته الى السلام عن ضعف أو تخاذل وإنّما عن اقتناع بواجب الخليفة الراشد ومكانة الداعية المسلم.

فما هوموقف عمر من أعداء الدولة المتربصين بها في الداخل؟

إن الناظر الى الأمة الإسلامية في ذلك الوقت يراها ــ مع قوتها الظاهرة واجتماعها البادى ــ يراها أمة قد انقسمت دينيا وسياسيا الى شيع وأحزاب وفرق، منها ما هومع الدولة يدا ورأيا ومنها ما هوضد الدولة يدا ورأيا. وكان أعداء الدولة أولئك لا يرون لهم وسيلة للقضاء على الدولة إلاّ القوة، والدولة نفسها لم تكن ترى لها وسيلة للقضاء على اعدائها إلاّ القوة والسيف كذلك. فقد جابهت الدولة الأموية منذ نشأتها انقسام الأمة الإسلامية الى شيعة وخوارج وثوار ليسوا مع هؤلاء أو هؤلاء والى أمويين عثمانيين يلتفون حول الدولة و يضحون في سبيلها، وقد بدأ سيل هذه الفرق في التدفق والتبلور منذ عهد معاوية و بلغ أشده في عهد عبد الملك وولديه الوليد وسليمان وكان معاوية يشترى سكوت الناس و يلوى عنان جماحهم بالحلم، وكان يضرب الشيعة بالخوارج والخوارج بالشيعة ولم يثر الشيعة في عهده ثورة مسلحة، ولكنه قتل عدى بن حجر وجماعته ــ حينما أرسلهم زياد بن أبيه واليه على العراق مع تهمتهم بالتشيع والممالأة ضد حكم بنى أمية ــ وهم في الحقيقة لم يكونوا سوى رافضين للطعن في على كرم الله وجهه(١).

ولكن بموت معاوية فتح الباب على مصراعيه للثورات ضد حكم بنى أمية وخاصة من العلويين والخوارج وغيرهم، فهذا يزيد يقتل حسينا في كربلاء، و يفتك بأهل المدينة ويحاصر مكة و يرمى الكعبة بالمنجنيق، ثم

١ــ مروج الذهب ١٢ــ٣/١٣.

يموت يزيد و يضطرب حبل الأمة وتقوم الفتن الداخلية بين عبد الله بن الزبير وقد نادى بنفسه خليفة و بين العلويين ومن يشايعهم و بينه و بين الأمويين الجدد بقيادة مروان بن الحكم ثم ابنه عبد الملك من بعده، و بين الزبيريين والخوارج من ناحية والأمويين والخوارج والشيعة من ناحية أخرى.

أيام كالحة عاشتها الأمة الإسلامية امتدت قريبا من عشرين عاما والدماء تراق فيها أنهارا والمسلمون حيارى يقتل بعضهم بعضا بحجة و بغير حجة، وعظم ذلك صراع على الدنيا ونزاع على الخلافة. ولولا مصابيح الدجى وأئمة الهدى علماء الأمة وقراؤها ورثة النبوة وحملة الشريعة لضاعت الملة ولغابت السنة و بادت الأمة.

الخوارج والدولة

واخيرا يستتب الأمر لبنى مروان و يسيطر عبد الملك بن مروان على الدولة الإسلامية وتعود الأمة الى وحدتها الظاهرية، ولكن يشتد للخوارج ساعد، و يقوم للظلم منابر، و يستمر الصراع بين الخوارج والدولة في كل اتجاه، و يشتط الخلفاء في بطشهم بالخوارج وخاصة في العراق وفارس على يد المهلب بن أبى صفرة وأولاده والحجاج وأتباعه، فما يقع خارجى في يد أحدهم إلاّ و يقتل، وأولئك يشتدون في كفاحهم بنى أمية ولا يبالون بما يلاقونه من قتل وتشريد في سبيل مبادئهم، فيقضُّون مضجع الدولة و يكلفونها شططا في الرجال والمال. ومع ذلك فجنودهم في أغلب الاحيان منتصرة على جند الدولة رغم كثرة عددها ووفرة عدتها، حتى يدخل شبيب الخارجى الكوفة و يطرد منها الحجاج و يعيث في العراق يقتل ويجبى المال، وقد وصل الأمر بالخوارج أن قطرى بن الفجاءة ينادى بأمير المؤمنين مدة تزيد على عشر سنين حتى يستطيع المهلب القضاء عليه بعد تمزق شمل الخوارج وافتراقهم ومحاربة بعضهم بعضا.

وليس الخوارج هم الثوار على الدولة فحسب فهناك العلويون وشيعتهم ولكن لم يقوموا زمن بنى مروان وإنما حرموا عطاءاتهم ومستحقاتهم وكأن بنى مروان كانوا يتشاءمون من قتلهم.

وكان هناك غير ذلك من الثائرين من ثاروا ضد ظلم بنى مروان أو طمعا في السلطة وليسوا من الخوارج ولا من الشيعة، وإنّما ثاروا لإحساسهم بالظلم أو تعصباً قبليا جاهليا كثورة ابن الأشعث التى هزت عرش بنى مروان وكادت تعصف لا بالحجاج فقط بل بالدولة كلها، وقد كلفت الدولة ما لا يعد ولا يحصى من الأموال والرجال. وأوجدت في الأمة تمزقا استحال التئامه، الى غير ذلك من الثورات المحلية وخاصة في العراق وخراسان ضد ظلم الحجاج وولاته بخاصة. كل ذلك كان يهز كيان الدولة و يكلفها من أمرها عسرا و يكلف ميزانيتها شططا.

ولولا كفاءة القائمين عليها لتحطمت تحت وطأة تلك الثورات، ولكن كل ذلك كان يدل على أنَّ الدولة الأموية إنّما هي دولة يثبت سلطانها السيف و يركز أركانها البطش، وإنَّ الأمة الإسلامية لم تكن في يوم ما متحدة حول القائم بالأمر في دمشق بل الناس بين طامع وخائف ومتربص.

وقد عاصر عمر بن عبد العزيز كثيرا من تلك المشاكل والثورات والفتن وعايشها وإن لم نعرف أنه اشترك فيها فعلا. لأن الذى نعرفه عن حياته أنه قضى أكثرها في المدينة متفقها ومتلقيا العلم عن فقهائها وعلمائها. لأنَّ المدينة بعد موقعة الحرة واستقرار الأمر لبنى مروان قد أخلدت الى الهدوء وصارت مركزا من مراكز العلم والأدب يشع نوره على حواضر الدولة الإسلامية، ففيها كان أشهر الفقهاء وفيها نبت أشهر المغنين وقد كانت تعيش في أمن وسلام.

وقد يكون عمر عاش فترة في مصر بجوار أبيه عبد العزيز وفترة في الشام بجوار عمه عبد الملك ووالياً على خناصرة بعد زواجه من فاطمة بنت عبد الملك، ولم نعلم أنه خاض أو اشترك في معركة ضد إحدى تلك الفرق الثائرة لا في خلافة عبد الملك ولا ابنه الوليد من بعده، بل الذى نعلمه أنه اشترك في تهدئة نفوس المظلومين وفتح لهم ملجأ يلجأون اليه هربا من ظلم الحجاج، وذلك حينما تولى إمرة المدينة في عهد الوليد بن عبد الملك.

ثم هو بعد عزله يعيش في دمشق بجوار الوليد بن عبد الملك ناصحا وناقدا ومخالفا للوليد ــ رغم جبروته ــ في كثير من آرائه حتى يصل الأمر بالوليد في النهاية أن يطيّن عليه(١) ــ أى يضعه في بيت يبنى على بابه جدار حتى يموت جوعا وعطشا واختناقا ــ ولعل تلك الطريقة استعملها بنو أمية أكثر من مرة مع المخالفين، لأنّه شدد في نقده للوليد بشأن قتله الخوارج وسفكه الدماء.

فعمر بن عبد العزيز إذاً كان يرى ما يحدث بين المسلمين و يسوءه جدا ذلك الظلم المنتشر والحقوق المهضومة، وقد بدا ذلك واضحا حينما ولى المدينة أو حتى قبل ذلك ــ لأنَّ الوليد لم يوله المدينة إلا ليصلح به ما أفسده ــ هشام بن إسماعيل المخزومي بخرقه وعسفه وظلمه.

موقفه من آل البيت

وهو حينما كان بالمدينة واليا أحس بالظلم المحيط بآل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان يشعر بالأسى لما يصيبهم من حرمان وإبعاد وفقر وهضم حقوق، ولكنه ما كان يستطيع في عهد الوليد أن يجهر بذلك، وهذه حادثة تدلنا على ما كان يشعر به تجاه آل البيت: تقول فاطمة بنت على بن أبى طالب رضي الله عنه: دخلت على عمر بن عبد العزيز وهو أمير

---

١ ــ المحاسن والمساوىء ٢/٣٠٨.

المدينة يومئذ فأخرج عنى كل خصى وحرسى حتى لم يبق في البيت أحد غيرى وغيره ثم قال: ياابنة على والله ما على ظهر الأرض أهل بيت أحب إليَّ منكم ولأنتم أحبُّ إليَّ من أهل بيتى(١). لقد كان عمر يحس بمكانة العلويين و يعلم مقدار حرمانهم في دولة بنى مروان، ولكنه كان وهو أمير لا يستطيع أن يجهر بحبهم أو ينادى بإعطائهم حقوقهم أكثر من أنه كان يحث بعض الخلفاء ــ ربما الوليد وسليمان ــ أن يضعوا خمس الغنائم في مصارفه الحقة ــ ومن مصارفه الحقة أهل البيت ــ ولكنهم كانوا يأبون عليه ذلك، وفي ذلك يقول طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق: إن عمر بن عبد العزيز لم يزل رأيه والذى يشير به على من ولى هذا الأمر من أهل بيته توفير هذا الخمس على أهله، فكانوا لا يفعلون ذلك، فلما ولى الخلافة نظر فيه فوضعه في مواضعه الخمسة(٢).

رد الخمس على أهله

فما أن يتولى عمر بن عبد العزيز الخلافة حتى يلتفت الى أولئك الأعداء والمتربصين و يعاملهم على أنهم مسلمون فيحرم دماءهم إلاَّ بحقها، و يصدر أمراً عاما لولاته بأن لا يقتل أحد ولا يقطع إلاَّ بإذنه، و يعلن على الناس جميعا حرصه على إحقاق الحق وإقامة العدل ونشر الإحسان بين الناس، ورفع الظلم عن كواهل المظلومين وتوحيد الأمة صفا وغاية، فيفيض على آل البيت رحمته و ينشر عليهم عدله و يرد لهم ما استطاع رده من حقوقهم المهضومة، فيرد لهم فدك وكانت تغل كل سنة عشرة آلاف دينار، وخيبر وكل ما استطاع رده، و يرسل الى واليه على المدينة أن يأخذ عشرة آلاف دينار من الخمس و يقسمها على بنى هاشم(٣). فيشكرون له ذلك و يدعون له، ثم هو يقسم بينهم سهم ذوى القربى من الخمس ولم يقسم بينهم منذ زمن معاوية(٤).

المعاملة بالحسنى

---

١ ــ الطبقات ٥/٢٤٥، ٥/٢٨٦.
٢ ــ الطبقات ٥/٢٥٨.
٣ ــ الطبقات ٥/٢٨٧ ومروج الذهب ٣/١٩٤.
٤ ــ الطبقات ٥/٢٨٨.

وهو لا يكتفى بهذه النظرة المادية لآل البيت بل يعلو فوق ذلك و بروح المسلم التقى الورع يأمر بعدم لعن على كرم الله وجهه على المنابر ــ وقد كانت تلك سنة قبيحة جرى عليها خلفاء وعمال بنى أمية ــ وجعل مكانه «**رَبَّنَا آغْفِر لَنَا ولإِخْوَانِنَا الَّذِيْنَ سَبَقُونَا بالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلَ فِي قُلُوْبِنَا غلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤوفٌ رَحِيمٌ**»(١) وقيل بل جعل مكان ذلك «**إِنَّ اللهَ يَأمُرُ بالْعَدْلِ والإِحْسَانِ وإِيتَاء ذِى الْقُرْبَىَ وَيَنهَىٰ عَنِ الْفَحشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغي**»(٢) الآية. وقيل بل جعلهما معا.

وفي ذلك يقول كثير عزة:

وليت فلم تشتم علياً ولم تخف بريا ولم تتبع مقالة مجرم(٣)

مع الخوارج

ثم يلتفت الى الخوارج ــ تلك العصابات القوية المستميتة التى كلما اجتثت منها عصابة قامت مكانها عصابات، فهم يؤرقون الدولة و يزعجونها و يقضون مضجعها و يكلفونها الكثير من الرجال والمال، فيرى عمر بن عبد العزيز أن القوة لم تجد معهم شيئا وإنَّهم قوم يفتشون عن الحق ولكنهم ضلوا الطريق في الوصول اليه، فيحاول أن يردهم الى الصواب بالحجة والإقناع وقد خرج عليه في زمنه عدة من عصابات الخوارج فما فعل معهم؟.

هل قاتلهم كما قاتلهم أسلافه فيجرد عليهم الجيش تلو الجيش و يرسل عليهم الحملة تلو الحملة حتى يخضد شوكتهم و يقطع دابرهم؟ كان بإمكانه أن يفعل ذلك و يقتل كل من يقع تحت يده منهم كما فعل

---

١ ــ الآية ١٠ من سورة الحشر.

٢ ــ الاية ٩٠ من سورة النحل.

٣ ــ مروج الذهب ٣/١٩٤ الكامل في التاريخ ٥/٤٢ اليعقوبى ٢/٣٠٥.

عبد الملك والوليد والحجاج وسليمان ولكنه كان مؤمنا فقيهاعالمايعلمأنه لا يحل دم امرىء مسلم بغير حق. فما أن تخرج تلك الخوارج حتى يرسل الى ولاته الكتب محذرا فيها من البدء بالعدوان، وأن لا يحركوهم حتى يسفكوا دما و يفسدوا في الأرض(١). و يرسل الرسل والكتب الى أولئك العصابات الخارجية ليرسلوا إليه من يناظره ويجادله و يناقشه في الوصول الى الحق إن كان بأيديهم أو عنده، فهو يكتب الى بسطام اليشكرى قائلا: «بلغنى أنَّك خرجت غضباً لله ولرسوله ولست أولى بذلك منى، فهلم إليَّ أناظرك، فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل الناس فإن كان في يدك نظرنا في أمرك»(١).

مع بسطام اليشكرى

انظر الى الأسلوب الحكيم الذى يناقشهم به عمر لم يقل إن الحق معى فيجب عليكم أن تتبعوه، ولم يقل إنَّكم على باطل فيجب أن تتركوه ــ ولكن بأسلوب القرآن العظيم والرسول الحكيم، تعالوا ناظرونا كأنداد بدون ضغط ولا إكراه، مادمتم تبتغون الحق ونحن نبتغى الحق، ومادام الهدف واحدا والدعوى واحدة ففيم الاختلاف؟ وليس أمام بسطام إلا الاعتراف بالنصف فيقول: قد أنصفت وقد بعثت إليك رجلين يدارسانك. و يناظرانك(١).

فلما قدموا عليه لم يدع لهم حجة إلاّ كسرها، فلما أظهر باطلهم وأبطل حججهم قالوا: لسنا نجيبك حتى تكفر أهل بيتك وتلعنهم وتبرأ منهم. فقال عمر: إن الله لم يجعلنى لعانا. ثم يسألهم عمر: مذكم دنتم بهذا الدين؟ فيقولون: منذ كذا وكذا سنة. فيقول: ليبين لهم خطل رأيهم وسوء مقالتهم واضطراب موقفهم ــ فهل لعنتم فرعون وتبرأتم منه؟ فيقولون: لا. فيقول لهم: فكيف وسعكم تركه ولا يسعنى ترك أهل بيتى وقد كان فيهم المحسن والمسىء والمصيب والمخطىء(٢)؟

جدال بالتى هى أحسن

---

١ ــ الكامل لابن الاثير ٥/٤٥.

٢ ــ الحلية ٥/٣٠٩، مروج الذهب ٣/٢٠٠، ابن عبد الحكم ١١٠ــ١١١، وابن الجوزى ٧٧.

وهكذا أظهر الخوارج ضيق أفقهم في الجدال وتعصبهم المقيت وشكليتهم القبيحة فأبوا الاستجابة. ولكى يقيم عمر الحجة عليهم يرسل إليهم كتابا فيه نصيحة وفيه تحذير: من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى العصابة الذين خرجوا أما بعد: فأنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو فإن الله تعالى يقول «**آدعُ إلىٰ سَبيْلِ رَبِّكَ بالحِكْمَة وَالْموعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بالْمُهتَدِينَ**»(١) وانى أذكّركم الله أن تفعلوا كفعل كبرائكم «**كَالَّذِيْنَ خَرَجُوْا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطراً وَرِئاء النَّاسِ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ الله والله بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ**»(٢) أفبذ نبى تخرجون من دينكم وتسفكون الدماء وتنتهكون المحارم؟ ــ(يشير الى رفضه لعن أهل بيته)ــ فلو كانت ذنوب أبى بكر وعمر مخرجة رعيتهم من دينهم ــ إن كانت لهما ذنوب ــ فقد كان آباؤكم في جماعتهم فلم ينزعوا، فما سرعتكم على المسلمين وأنتم بضعة وأربعون رجلا ــ(و بعد تلك النصيحة الراشدة يوجه اليهم التحذير والتهديد) وإنّى أقسم لكم بالله لو كنتم أبكارى من ولدى فوليتم عما أدعوكم إليه من الحق لدفقت دماءكم التمس بذلك وجه الله والدار الآخرة، فهذا النصح فإن استغششتموني فقديما ما استغش الناصحون.

ولكنهم يتمادون و يأبون إلاّ القتال ويحلقون رؤوسهم، ومع ذلك فلم يأمر بقتالهم إلاّ بعد أن سفكوا الدم وأخذوا الاموال وقطعوا السبيل فحينذاك أمر بقتالهم(٣)ــ وهكذا فعمر العالم يقابل الحجة بالحجة والدليل بالدليل، وأما إذا كان الأمر أمر عناد وتصلب فهو الهز بر عاديا.

الرحمة مع الأعداء

ولكنه مع ذلك لا ينسى أنهم مسلمون وإن كانوا معتدين فيكتب الى

---

١ ــ الاية ١٢٥ سورة النحل.

٢ ــ الاية ٤٨ من سورة الانفال.

٣ ــ الطبقات ٥/٢٦٤ ابن عبد الحكم ٧٠ــ٧١، ابن الجوزى ٧٨.

واليه: أما بعد فإنّى ذكرت آية من كتاب الله «**وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**»(١) «وإنَّ من العدوان قتل النساء والصبيان. فلا تقتلن امرأة ولا صبيا ولا تقتلن أسيرا ولا تطلبن هاربا ولا تجهزن على جريح إن شاء الله»(٢).

مع أنَّ هؤلاء الخوارج ما كانوا يعفون عن قتل النساء والصبيان بل واسترقاقهم وبيعهم في الأسواق. ويرسل كتابا آخر الى عامله في الخوارج: فإن أظفرك الله بهم وأدالك عليهم فرد ما أصبت من متاعهم الى أهليهم(٣) ــ نفس المعاملة الطيبة التى عاملهم إياها على كرم الله وجهه في موقعة النهروان وغيرها لا كمواقع بنى أمية معهم ولا كفعل الخوارج أنفسهم مع من وما يقع بين أيديهم من المسلمين أو أمتعتهم.

لعفة عمر بن عبد العزيز عن الدماء وحبه في السلامة ورأفته بالمسلمين وحرصه عليهم مهما كانت مبادئهم واتجاهاتهم فهو يكتب الى عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد عامله على الكوفة: ومن أخذت من أسراء الخوارج فاحبسه حتى يحدث خيرا ــ قال: فلقد مات عمر بن عبد العزيز وفي حبسه منهم عدة(٤). فعمر بن عبد العزيز لم يقتل أحداً بسبب مبدئه أو اتجاهه السياسي. وهكذا بمناظرات عمر الحرة ومناقشاته الهادئة استطاع أن يستعمل سلاحا جديدا كان يمكن أن يكون ذا أثر عظيم في فل شوكة الخوارج وتمزيق صفوفهم وردهم الى الجماعة لو أنّ الله عز وجل مد في عمره وأطال في أمد خلافته ولكن قدر الله وما شاء فعل.

بل إنَّ بعض الروايات لتشير الى أنَّ تلك المناظرات وما نشأ عنها من اقتناع بعض مندوبى الخوارج بآراء عمر وبحثه عن الحق وإقامة العدل

---

١ ــ الاية ١٩٠ من سورة البقرة.
٢ ــ الحلية ٥/٣٠٩، ابن الجوزى ٧٨.
٣ ــ الطبقات ٥/٢٦٤.
٤ ــ الطبقات ٥/٥٦٤.

أن تلك المناظرات كانت سببا في أن يدفع عمر حياته ثمنا لمبادئه، إذ تقول بعض المصادر إنّ مناظرة مندو بى شوذب ــ وهو بسطام اليشكرى ــ تتوقف عند نقطة حرجة حين يسأل الرجلان عمر قائلين: أخبرنا عن يزيد لم تقره خليفة بعدك؟ فيجيب عمر: صيره غيرى. فيسألانه: أفرأيت لو وليت مالا لغيرك ثم وكلته الى غير مأمون عليه أتراك كنت أديت الأمانة الى من ائتمنك؟.

ولاية العهد

(وهنا يقف عمر و يعلم أنه سؤال حق وإنَّ الإجابة عليه بنعم تعتبر كذبا وهو لم يكذب قط، وتعتبر خروجا عن المبدأ الذى نصب نفسه له وهو إحقاق الحق، وإن أجاب بالنفى أقام لهم عليه الحجة. وهو في قرارة نفسه مقتنع بعدم صلاحية يزيد بن عبد الملك، وهو يقينا ــ حتى ولو لم يناقشه الخوارج فيه لو طال به العمر لنزع يزيد من ولاية العهد ولرد الأمر شورى، وقد هدد بنى مروان بذلك أكثر من مرة، جاؤه فقالوا: إنَّك قصرت بنا عما كان يصنعه بنا من قبلك، وعاتبوه. فقال: لئن عدتم لمثل هذا المجلس لأشدن ركابى ثم لأقدمنَّ المدينة ولأجعلنها ــ أو أصيرها شورى أما أنى أعرف صاحبها الأعيمش، يعنى القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق(١).

فأما وقد جاء السؤال من الخوارج وهو حجة لهم، إذ أنهم لا يرون الخلافة إرثا، بل إن بعضهم لا يراها حكرا على قريش بل يرونها لكل مسلم صالح عربى أو غير عربى .

ولذلك ولحرص عمر على الحق والعدل لم يلجأ الى المداورة والمناورة بل طلب من المتفاوضين أن يمهلاه ثلاثة أيام(٢). وفي خلال هذه المهلة

---

١ ــ الطبقات ٥/٢٥٣.

٢ ــ ملامح الانقلاب الاسلامي ٩٦ عن الطبرى.

دبر بنو مروان مؤامرة لقتله حتى لا تخرج الخلافة من أيديهم، فدسوا له السم فلم يلبث أن مات في نفس اليوم الذى تقرر أن يعطى فيه جوابه للمتفاوضين(١).

وقد يقال: إنَّ عمر بن عبد العزيز قد حارب الخوارج أيضاً ولم يكتف معهم بالحجة والبرهان فنقول: نعم إنَّ عمر اضطر الى محاربة بعض الخوارج حينما أبوا الاقتناع بالحجة والبرهان، ولكنه لم يقاتلهم إلاّ بعد أن قطعوا السبيل وسفكوا الدم واعتدوا على الأموال ــ فهم هنا كقطاع الطرق والمفسدين في الأرض ــ فأمر واليه على الكوفة أن يجرد لهم جيشا فهزمته الخوارج ــ ولكن عمر كان في موقف الحرب صارما أيضا كموقفه من السلم، فأرسل جيشا من أهل الشام بقيادة ابن عمه مسلمة بن عبد الملك فهزم الخوارج وقضى عليهم(٢). تلك هى فقط المرة التى حارب فيها عمر الخوارج وانتصر عليهم بالسيف بعد أن انتصر عليهم بالحجة والبرهان.

الاحلاف والعصبية

ومع تباعد الزمن وفساد الحكام أحيا كثير من الناس عوائد جاهلية أماتها الإسلام وحاربها أشد محاربة لما فيها من تفرق شمل المسلمين وتمزق وحدتهم، أعنى العصبية القبلية والأحلاف الجاهلية وعلم عمر بن عبد العزيز أنَّ هناك أناسا يريدون إحياء جاهلية قبلية عصبية تدعو الى التناصر على الباطل وإماتة الحق فأرسل كتابا الى أحد عماله.. وهو الضحاك بن عبد الرحمن ــ ينهى فيه عن هذه الأحلاف المقيتة فكان مما قاله بعد التذكير بنعمة الإسلام:

ثم إنَّ ما هاجنى على كتابى هذا أمر ذكر لى عن رجال من أهل البادية ورجال أمروا حديثا ظاهر جفاؤهم قليل علمهم بأمر الله، اغتروا

---

١ ــ المرجع السابق ٩٧.

٢ ــ الطبقات ٥/٢٦٣.

فيه بالله غرة عظيمة وغيروا فيه نعمه تغييرا لم يكن يصلح لهم أن يبلغوه، وذكر لى أن رجالا من أولئك يتحاربون الى مُضر والى اليمن و يزعمون أنهم ولاية على من سواهم ــ ثم يقول ــ: وقد ذكر لى مع ذلك أن رجالا يتداعون الى الحلف وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحلف وقال: «لا حلف في الإسلام قال: وما كان من حلف في الجاهلية فلم يزده الإسلام إلاّ شدة»(١) فكان يرجو أحد من الفريقين حفظ حلفه الفاجر الآثم الذى فيه معصية الله ومعصية رسوله وقد ترك الإسلام حين انخلع منه ــ (ثم هو يحذر أولئك المتداعين فيقول). وأنا أحذر كل من سمع كتابى هذا ومن بلغه أن يتخذ غير الإسلام حصنا، أو دون الله ودون رسوله ودون المؤمنين وليجة تحذيرا بعد تحذير. (ثم هو يهددهم فيقول). مع أنى ــ لو أعلم أن أحدا من الناس يحرك شيئا ليؤخذ له به أو ليدفع عنه أحرص ــ والله المستعان ــ على مذلته من كان: رجلا أو عشيرة أو قبيلة أو أكثر من ذلك(٢).

النهى عن العصبية والحلف

وهكذا أراد عمر بن عبد العزيز أن يوحد الأمة قلبا وقالبا هدفا وغاية وصفا، وأفلح أو كاد. لأن وحدة الأمة هي قوتها المادية والمعنوية، و بتلك الوحدة يطمئن أفرادها وتغزر مواردها وتفيض خزائنها و يعيش الناس في بحبوحة من العيش ورغد من الحياة. فرحمه الله.

---

١ ــ الحديث عند أحمد عن قيس بن عاصم الجامع الصغير ٢/١٤٧ وقال: وما كان من حلف في الجاهلية فتمسكوا به.

٢ ــ ابن عبد الحكم ٨٧ــ٨٩.

المبحث الرابع

لا مال إلا للمستحق بكتاب الله

«والله ما رزأت من أمور المسلمين شيئا فأعطيك منه»

عمر بن عبد العزيز

ثم يتجه عمر بن عبد العزيز الى إحدى تلك الثغرات الواسعة التى كان يتسرب منها مال الأمة بغير وجه حق. ولغير مصرفه الذى أمر الله.

صيادو المال

رأى أن من كان قبله من الخلفاء يحيطون أنفسهم بحاشية ضخمة من شعراء وأمراء وكبراء وأشراف ومتزلفين ومتملقين، لا هم لأ ولئك الا اصطياد الأموال وأخذ الإقطاعات وتناول البِدَر لقاء مدحهم الكاذب وتملقهم الشائن وتزلفهم المقيت. ووجد أنّ جلَ أولئك إن لم يكن كلهم لا يستحقون من ذلك المال شيئا ــ لأنهم لا يسدون عن المسلمين مسدا ــ وإنّما هم عصابات ليس همهم سوى سلب المال العام.

فوقف عمر بن عبد العزيز في وجه ذلك التيار الجارف والسيل الهادر، ورأى أنّه كمسئول أمين لا يجوز له أن يخرج درهما من ذلك المال إلا بحق ولِيَدٍ تستحق ــ وهى في الحقيقة القاعدة الشرعية الصحيحة التى يجب أن يتبعها كل حاكم مسئول إذا أراد أن يؤدي أمانته خير أداء.

مع الشعراء

يأتى الشعراء عمر بن عبد العزيز فيقفون على بابه كما كانوا يقفون فيأبى عليهم و يوصد دونهم أبوابه، وتحدثنا كتب الأدب عن كثير من تلك المواقف التى جابه بها عمر الشعراء، فابن عبد ر به يقص علينا ورود كثير والأحوص على عمر وإعطائه كلا منهما ثلا ثمائة درهم من صلب عطائه(١). وكيف ورد عليه جمع من الشعراء فيهم عمر بن أبى ربيعة والفرزدق ونصيب وجرير وكيف ردهم جميعا فلم يعط إلاّ جريرا على أنّه ابن سبيل أعطاه مائة درهم من ماله كذلك(٢).

---

١ ــ العقد الفريد ٨٤ــ٢/٨٦.

٢ ــ العقد الفريد ٩١ــ٢/٩٦ وابن الجوزى ١٦٦ فما بعدهما.

وهذا دكين بن رجاء الفقيمى الراجز يحدثنا عن قصته مع عمر بن عبد العزيز فيقول: مدحت عمر بن عبد العزيز وهو والى المدينة ــ فأمر لى بخمس عشرة ناقة كرائم صحابا، فكرهت أن أرمى بها الفجاج(١) فتنتشر على، ولم تطب نفسى ببيعها، فقدمت علينا رفقة من مضر فسألتهم الصحبة فقالوا: إن خرجت الليلة. فقلت: إنى لم أودع الأمير ولابد من وداعه. قالوا: فإنَّ الأمير لا يحجب عن طارق بليل. فأستأذنت عليه فأذن لى وعنده شيخان لا أعرفهما فقال لى: يادكين إن لى نفسا تواقة فإن أنا صرت إلى أكثر مما أنا فيه فبعين ما أرينك(٢). قلت: أشهد لى بذلك أيها الأمير. قال: إنى أشهد الله قلت: ومن خلقه؟ قال: هذين الشيخين. قلت لأحدهما من أنت يرحمك الله أعرفك؟ قال: سالم بن عبد الله(٣). فقلت: لقد استسمنت الشاهد وقلت للآخر: من أنت يرحمك الله؟ قال: أبو يحيى مولى الأمير ــ وكان مزاحم يكنى أبا يحيى.

مع ركين الراجز

النفس التواقة

قال دكين: فخرجت بهن الى بلدى فرمى الله في أذنابهن بالبركة(٤)، حتى اتخذت منهن الضياع والرباع(٥)، فإنّى لبصحراء فلج(٦) إذا بريد يركض الى الشام فقلت له: هل من مغربة خبر؟ قال: مات سليمان بن عبد الملك، قلت فمن القائم بعده؟ قال: عمر بن عبد العزيز. قال: فأنخت قلوصى(٧) فألطيت(٨) عليها أداتى وتوجهت عنده،

---

١ ــ الفجاج: ج فج: الطريق الواسع بين جبلين.

٢ ــ تأكيد على لزوم رؤيته له في تلك الحال.

٣ ــ سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب من الفقهاء المعدودين.

٤ ــ كناية عن كثرة نسلهن.

٥ ــ الضياع: ج ضيعة العقار والارض المغلة قاموس ٣/٥٨ الرباع: ج ربع الدار بعينها قاموس ٣/٢٤.

٦ ــ صحراء فلج: موضع بين البصرة وضرِّيةُ قاموس ١/٢٠٣.

٧ ــ القلوص: الناقة الفتية.

٨ ــ ألطيت: الزقت.

فلقيت جريرا في الطريق جائيا من عنده فقلت: من أين أبا حزرة(١)؟ قال: من عند أمير يعطى الفقراء ويمنع الشعراء. قلت: فما ترى فأنى خرجت اليه؟ قال: عوِّل عليه في مال ابن السبيل كما فعلت.

امير يعطى الفقراء ويمنع الشعراء

فانطلقت فوجدته قاعدا على كرسى في عرصة داره ــ أى ساحتها ــ وقد أحاط به الناس، فلم أجد إليه سبيلا للوصول. فناديت بأعلى صوتى:

ياعمر الخيرات والمكارم وعمر الدسائع(٢) العظائم
إنِّى امرؤ من قطن بن دارم أطلب حاجى من أخى مكارم
إذ ننتجى(٣) والله غير نائم في ظلمة الليل وليلى عاتم
عند أبى يحيى وعند سالم

فقام أبو يحيى ففرّج لى وقال: ياأمير المؤمنين إنَّ لهذا البدوى عندى شهادة عليك. قال: أعرفها أدن منى يادكين. أنا كما ذكرت لك إن لى نفسا تواقة وإنَّ نفسى تاقت الى أشرف منازل الدنيا فلما أدركتها وجدتها تتوق الى الآخرة. والله ما رزأت من أمور المسلمين شيئا فأعطيك منه، وما عندى إلاّ ألفا درهم أعطيك أحدهما. فأمر لى بألف درهم فوالله ما رأيت كانت أعظم بركة منها(٤).

عطاء من ماله الخاص

وهكذا سد عمر بن عبد العزيز على الشعراء بابا طالما ولجوه وحملوا من خلاله من أموال المسلمين مالا يدخل تحت الحصر.

وكان الى جانب هؤلاء الشعراء والخطباء طبقات من الأشراف من بنى أمية وغيرهم ينالون من بيت مال المسلمين أموالا إما لعلة قرابة الخليفة، وإما لمكانة قبلية أو لصلة بالخليفة أو الوالى تجارية. فلما جاء عمر

---

١ ــ أبو حزرة ــ كنية جرير بن الخطفى الشاعر.
٢ ــ الدسائع: ج دسيعه العطية الجزيلة والمائدة الكريمة قاموس ٣/٢١.
٣ ــ ننتجى. نتكلم سرا. القاموس ٤/٣٩٣.
٤ ــ العقد ٨٤ــ٢/٨٦.

ابن عبد العزيز وجد أنَّ كل أولئك يأخذون من هذا المال بغير حق ولا استحقاق كما كان يأخذ هومن قبل فقطع ذلك كله.

يأتيه عنبسة بن سعيد بن العاص بصك قد أمر له فيه سليمان بن عبد الملك بعشرين ألف دينار، فدارت في الدواو ين حتى انتهت الى ديوان الختم فلم يبق إلاّ قبضها. فتوفى سليمان قبل أن يقبضها ــ وكان عنبسة صديقا لعمر بن عبد العزيز ــ فيدخل عنبسة على عمر و يقول له: ياأمير المؤمنين إنَّ أمير المؤمنين سليمان قد كان أمر لى بعشرين ألف دينار حتى انتهت الى ديوان الختم ولم يبق إلاّ قبضها فتوفى على ذلك، وأمير المؤمنين أوْلى باستتمام الصنيعة عندى، وما بيني و بينه أعظم مما كان بينى و بين أمير المؤمنين سليمان. قال له عمر: كم ذلك؟ قال: عشرون ألف دينار. فيقول عمر متعجبا عشرون ألف دينار تغنى أربعة آلاف بيت من المسلمين وأدفعها الى رجل واحد. والله مالى الى ذلك من سبيل(١).

مع عنبسة ابن سعيد

وهكذا قطع عمر أمل كل أموى أو شريف يطمع في بيت مال المسلمين أو في صلة من الخليفة بغير وجه حق معروف وسدَّ هذا الباب بكلتا يديه.

و يرسل إليه واليه على المدينة أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم كتابا يقول فيه: بأن أشياخاً من الأنصار قد بلغوا أسنانا لم يبلغوا الشرف من العطاء، فإن رأى أمير المؤمنين أن يبلغ بهم الشرف من العطاء فليفعل. ــ(وكان شرف العطاء مائتى دينار)ــ فيكون رد عمر عليه حازما وصريحا «إنَّما الشرف شرف الآخرة فلا أعرفن ما كتبت به إليَّ في نحو هذا»(٢). فالأسنان ليست معيارا للشرف ولا للعطاء وليست مصرفا شرعيا من مصارف الفيء أو الصدقات. ولعل من قبل عمر كان يعطيهم

مع اشياخ الانصار

---

١ ــ ابن عبد الحكم ٤٩ــ٥٠.

٢ ــ الحلية ٥/٣٠٨ وابن الجوزى ٨٣ وابن عبد الحكم ١١٢.

على ذلك ابتغاء سكوت أهل المدينة عن كثير من مساوىء بنى أمية أو تأليفا لقلوبهم.

وقد لاحظ عمر هذا في خلافة سليمان بن عبد الملك حينما زار سليمان المدينة ومعه عمر فأعطى سليمان الناس الأموال العظيمة، وقال لعمر بن عبد العزيز: كيف رأيت ما فعلنا ياأبا حفص؟ فيقول له عمر بلهجة المؤمن الواعى: رأيتك زدت أهل الغنى غنى وتركت أهل الفقر بفقرهم(١).

وهكذا كانت عطايا الأمراء والولاة للأغنياء فيزدادون غنى ويحرم الفقراء والمستحقون فيزدادون فقرا. وقد علم عمر ذلك وأحس به فآلى أن يرد الأمور الى نصابها و يعطى الأموال الى أصحابها مهما كلفه ذلك، ويمنع هذا المال عمن لا يستحق. و يكون كالراعى الأمين يذود عن غنمه الذئاب العوادى.

مع التجار

وقد كانت هناك طبقة من الناس تجارا يتصلون بالخلفاء والأمراء و يرمون شباكهم حولهم بكل سبيل لينالوا من مال الله ببيع بضائعهم ورواج تجاراتهم لهم، ومنهم المسمى موسى بن وردان يتحدث عن نفسه فيقول: دخلت على عمر بن عبد العزيز فحدثته بأحاديث عمن أدركته من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكنت عنده بمنزلة (هذا تاجر يعرف كيف يروج بضاعته في كل سوق، إذ علم أنَّ عمر ينفق عنده الحديث والفقه والحكمة فباعه ما عنده إرادة إلقاء شباكه حوله، ولكنا سنرى أن عمر أحدُّ منه ذكاء وأحرص على دينه مما تصوره ذلك التاجر). أدخل إذا شئت وأخرج إذا شئت. فكنت أحدثه عمن أدركت من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألته الكتاب الى حيان بن

١ــ ابن عبد الحكم ١١٢.

سُرَيج في عشرين ألف دينار أستوفيها من ثمن فلفل. ليكتب اليه يدفعها إليَّ ــ(لعله فاتح الخليفة بما يريد حينما رأى فرصة ظنها سانحة). فيقول له عمر مستغربا. ولمن العشرون ألف دينار؟ قلت: هى لى. قال: ومن أين هى لك؟ (لم يكن عمر يعلم أنَّه كان أو لازال تاجرا). قلت له: كنت تاجرا (فتنكشف حقيقة ذلك المرائى الذى يرائى بالحديث عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم) فضرب بمخصرته ثم قال: التاجر فاجر والفاجر في النار. ثم قال: اكتبوا الى حيان بن سريج، وأمر حاجبه أن لا يدخلنى عليه(١).

وعمر بن عبد العزيز هونفسه الذى أمر ولا ته وعماله بأن لا يفرضوا لتاجر لانه مشغول بتجارته عن مصالح المسلمين(٢).

وهكذا استطاع عمر بن عبد العزيز بالحزم والحرص على مال الأمة أن لا يخرج درهما إلاَّ بحق وإلاَّ الى يد تستحق، وأن يسد تلك الثغرة الواسعة و يغلق مصاريعها أيما اغلاق، و يقطع عنه طمع الطامعين من شعراء وخطباء وأمراء وأشراف ومتزلفين وتجار.

---

١ ــ فتوح مصر ٩٩ــ١١٠.
٢ ــ الطبقات ٥/٢٥٥.

المبحث الخامس

الامن والحرية

«اليوم ينطق كل من كان لا ينطق»

القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق(١)

مع أوسع ثغرات التسرب ظلم الولاة للرعية

وأدرك عمر بن عبد العزيز أن من أوسع ثغرات تسرب المال العام ظلم الولاة لرعيتهم، وكبت حرياتهم واستغلالهم إياها بهدف جمع الأموال دونما نظر الى مصلحة الرعية. وأدرك أيضا أنَّ هذا الظلم والكبت يؤدى دائما الى نتيجة عكسية تنعكس آثارها على دخل بيت المال. إذ كلما عم الظلم واشتد الخوف بالناس كلما قل دخل بيت المال مهما فعل المسئولون من وسائل لجلب المال. وإنَّ الأمة تدفع ما يطلب منها بطيب نفس ورضاء خاطر إذا أحس أفرادها بالأمن يغمرهم والطمأنينة تعمر قلوبهم والعدالة ترفرف بأجنحتها عليهم، حينما تحس الأمة بعطف القائم بالأمر ورحمته بها وحرصه عليها تفديه لا بالأموال فحسب بل بالأنفس والدماء.

وقد أدرك عمر بن عبد العزيز بإيمانه العميق وشعوره الدفيق هذا، ورأى أن الناس قد أصابهم شر وأي شر خلال حكم من سبقه من بنى مروان وسيوفهم وطغاتهم من الولاة على الأمصار ــ ورأى تضييق أولئك على الناس في استخراج ما عندهم من أموال باسم الخراج والجزية والعشور والمكوس وهدايا المهرجان والنيروز. الخ. تلك القائمة من الضرائب المعروفة وغير المعروفة، فألغى ــ كما رأينا كل ضريبة ظالمة وضعها الظالمون على رقاب الناس، ورأينا أنه أول ما وضع عنهم تلك الجزية التى أبقاها الحجاج على المسلمين من أهل الذمة باسم الحرص على الخراج، ثم تلك الوسائل الخبيثة التى كان يستعملها الولاة لسلب أموال الناس من تقويم للزرع أو التجار بالظلم و بيع الأموال بالعسف وإجبار الفلاحين

---

١ ــ الطبقات ٢٥٣ــ٢٥٤/٥.

والمزارعين على بيع أمتعتهم وآدواتهم وممتلكاتهم لسداد ما يطلب منهم من ضرائب ولا ينتظر إدراك الزرع أو حصاده، أو أخذ الدراهم الأثقل وزنا ليزيد الخراج، أو حمل الأرض غير الصالحة للزراعة على الأرض الصالحة وأخذ الضرائب منها جميعا، أو إقامة نقاط الجباية على المعابر والجسور حتى لا يفلت منها إنسان أو عابر سبيل، وتعذيب الناس بالضرب والإهانة وغير ذلك حتى يدفعوا ما عليهم. ووضع الرقابة على التجارة في البر والبحر لسلب الأموال باسم العشر تارة و باسم المكس أخرى و باسم الجزية ثالثة، وهكذا اختلفت الأسباب وتنوعت الأسماء والغرض واحد هو جلب ما يمكن جلبه من أموال الناس الى جيوب الولاة والعمال باسم بيت المال وقد لا يصل من كل ذلك الى بيت المال إلاّ الجزء الضئيل.

ولما كان عمر بن عبد العزيز قد نذر نفسه منذ تولى لدفع الظلم ورد الجور وإسقاط الباطل ومحاربته فعمل على سد تلك الثغرات التى كان تحرم بيت المال جزءا كبيرا من المال المستحق وتدخل جزءا غير مستحق، فأرسل كتابا عاما الى ولاته «وألا يدخلوا في بيت المال إلاّ طيبا»(١). وقد رأينا تفصيلا وافيا لكثير من المظالم التى أبطلها عمر بن عبد العزيز حين حديثنا عن سد مداخل الحرام، وإنّما حديثنا هنا ينصب على أنّه بالظلم يحرم بيت المال كثيرا من المال، فكأن ذلك ثغرة كبيرة يتسرب منها المال الى خارج بيت المال وإن كان في الحقيقة لم يدخل فيه بعد. ومن أوضح الأمثلة على أن الظلم يدمر بيت المال ما مر معنا من بيان مقدار ما جبى الحجاج سواد العراق حيث لم يزد على أربعين ألف ألف في أعلى الروايات بظلمه وعسفه، مع أنّ عمر بن الخطاب رضى الله عنه جباه مائة ألف ألف وعشرين ألف ألف درهم في أدنى الروايات.

---

١ ــ الطبقات ٥/٢٨٠.

وكان مما فعله عمر بن عبد العزيز لتحقيق العدالة ونشر الأمن والطمأنينة بين الناس أن كتب الى عماله كتابا عاما بين فيه كثيرا من أمور العدل التى كان يفتقر اليها الناس و يفتقدونها ــ وشهادة عمر بن عبد العزيز في ذلك أعلى شهادة مقبولة أولا لفقه وورعه وتقواه فلا يتصور منه الكذب أو الافتراء، وثانيا لمعايشته ومعاصرته تلك الاحوال التى قام باصلاحها ــ فكان مما أمر به فيه: (أن يدعو الناس الى الاسلام كافة ــ(وهذا في الحقيقة هو الهدف الأسمى والأساسي للخليفة والعامل في الإسلام. وليس الهدف جمع المال أو السيطرة والاستعباد) وأن يفتح لأهل الإسلام باب الهجرة فإنا نفتحها لمن هاجر من أعرابى فباع ماشيته وانتقل من دار أعرابيته الى دار الهجرة والى قتال عدونا، فمن فعل فله أسوة المهاجرين فيما أفاء الله عليهم ــ(فهذه دعوة الى التمدن والانتقال من البادية الى المدن والأمصار الإسلامية والاشتراك في فتوح المسلمين، وتشمل هذه الدعوة فيما تشمل من أسلم من أهل أرض الخراج وأراد الالتحاق بالجيوش الإسلامية المحاربة لإعلاء كلمة الله فله ذلك، وهذا خلاف ما كان يفعله الحجاج حينما كان يجبر الفلاحين المسلمين على الرجوع الى أراضيهم وقراهم ويختمهم وكان ذلك ــ كما رأينا من أسباب التحاق كثير من الموالى والقراء بابن الاشعث حينما قام بثورته ضد الحجاج وعبد الملك) ــ وأن توضع الصدقات والأخماس على قضاء الله وفرائضه ــ(أى أخذ الزكاة من حقها ووضعها في مصرفها الشرعى وكذلك الأخماس وهذا يبعث في قلوب الأغنياء الطمأنينة على أموالهم وفي قلوب الفقراء الطمأنينة على حقوقهم)ــ وأن يبتغى الناس بأموالهم بالبر والبحر لا يمنعون ولا يحبسون(١)ــ (وهذا يجسد حرية الناس في التنقل والمتاجرة بأموالهم في البر والبحر مما يشجع التجارة و يزيد في المال

عمله في نشر الامن والحرية

١ ــ ابن عبد الحكم ٧٨.

و بالتالي يزيد من دخل بيت المال من الزكاة والعشور وغير ذلك من الضرائب الشرعية، وقد فصل عمر بن عبد العزيز هذه القواعد الأربع تفصيلا دقيقا بين فيه أدلتها من الكتاب وعاقبتها في الأمة وكيفية تطبيقها ــ وسنرى بإذن الله الكتاب بنصه في ملحق بعض رسائل عمر بن عبد العزيز في ختام هذه الرسالة إن شاء الله.

إباحة الحمى وحجته فيه

ثم طمأن الناس على أراضيهم فمنع الحمى وأباحه للناس كافة حتى لا يكون هناك استبداد من الأمراء أو العمال أو الأغنياء، وكان مما قاله موضحا وجهة نظره: «ونرى أنَّ الحمى يباح للمسلمين عامة، وقد كانت تحمى فتجعل فيها نعم الصدقات فيكون في ذلك قوة ونفع لأهل فرائض الصدقات (وهذا هو الأصل في الحمى في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم) وأدخل فيها وطعن فيها طاعن من الناس، فنرى في ترك حماها والتنزه عنها خيرا إذا كان ذلك من أمرها، وإنَّما الإمام فيها كرجل من المسلمين وإنّما هو الغيث ينزله الله لعباده فهم فيه سواء(١).

حرية التجارة

وكان مما قاله في حرية التجارة في البحر: «وأما البحر فإنا نرى سبيله سبيل البر قال الله تعالى «**اللهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ**»(٢) فأذن فيه أن يتجر فيه من شاء ــ وأرى أن لا تحول بين أحد من الناس و بينه فإن البر والبحر لله جميعا سخرهما لعباده يبتغون فيهما من فضله فكيف نحول بين عباد الله و بين معايشهم(٣).

نعم كيف يحول الحاكم بين عباد الله و بين معايشهم ما داموا لا يستغلون أموالهم في الإضرار بالمصلحة العامة؟.

---

١ ــ المرجع السابق ٨١.

٢ ــ الجاثية آية ١١.

٣ ــ ابن عبد الحكم ٨٣.

ثم يفصل حكم العشور ما يحل منها وما يحرم فيقول: «وأما العشور فنرى أن توضع إلا عن أهل الحرث ــ (أعتقد أن الصواب أهل الحرب بالباء لأن أهل الحرب هم الذين تؤخذ منهم العشور لأنه سيذكر بعد ذلك ما يؤخذ من المسلمين وهو الصدقات و يدخل فيها عشر أو نصف عشر الزرع). فإنَّ أهل الحرث ــ (الحرب) ــ يؤخذون بذلك ــ (ثم يفصل الحديث عن أهل الجزية وممن تؤخذ) ــ وإنَّما أهل الجزية ثلاثة نفر: صاحب أرض يعطى جزيته منها، وصانع يخرج جزيته من كسبه، وتاجر يتصرف بماله يعطى جزيته من ذلك وإنّما سنتهم واحدة ــ (أى ليس عليهم سوى الجزية) ــ فأما المسلمون فإنما عليهم صدقات أموالهم إذا أدوها في بيت المال كتبت لهم بها البراءة، فليس عليهم في عامهم ذلك في أموالهم تباعة ــ (فهو هنا يفصل و يبين للعمال ما يجب أن يأخذوه من الناس من ضرائب ولا يتعدوها، و يكون الناس أيضا على بينة مما يؤخذ منهم)، وأما المكس فانه البخس الذى نهى الله عنه فقال: «**وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ**»(١)، غير أنهم كنوه باسم آخر ــ (ثم إنَّه يغلق بابا من المضاربة كان أثره خطيرا على الناس من تجار و باعة وذلك هو متاجرة العامل أو الوالى واستحواذه على الأسواق بسلطانه وجاهه وماله فيقول):

العشور والجزية

الصدقات

المكس

ونرى أن لا يتجر إمام ولا يحل لعامل تجارة في سلطانه الذى هو عليه (ولا يكتفى عمر بن عبد العزيز بالأمر يصدره ولكنه يتبع أمره بالتعليل و بيان الأسباب الموجبة لذلك الأمر فيقول) فإن الأمير متى يتجر يستأثر و يصب أمورا فيها عنت وإن حرص على أن لا يفعل(٢).

منع التجارة للعمال والولاة

---

١ ــ هود الآية ٨٤ والشعراء ١٨٣.

٢ ــ ابن عبد الحكم ٨٣.

رحمك الله ياعمر فكيف بك لو جئت الآن ورأيت الدول التاجرة المسيطرة على أقوات الشعوب وأرزاق الامم؟.

و يرى عمر بن عبد العزيز أن هناك طبقة من أهل الأرض ــ الفلاحين ــ يحتاجون فيرهنون أراضيهم أو يبيعونها وإنَّ منهم من يتهرب من الخراج فيبيع أرضه. فعمم منشوره بعدم جواز بيع الأرض، وفي كتابه هذا يقول ناهيا عن بيع عمارة الأرض: «ونرى أن لا يباع عمارة الأرض فإنما يشترى المشترى لنفسه و يقطع لنفسه فإنما يصيب من ذلك خراب الأرض وظلم أهلها ــ (ولعل بيع الأرض كان في سبيل سداد ديون على أهل الأرض من جزية أو خراج فمنع عمر أن تباع الأرض سدا لذلك الباب لأنَّ المشترى قد لا يعمرها فتخرب و يتشرد عنها أهلها و يقل الخراج تبعا لذلك)ــ «وأما من كان من عرب أهل الأرض في غير أرضه وجزيته جارية عليه في أرضه فليس عليه إلاَّ ذلك وعامل أرضه أولى بتبعته» ــ (أى أن من أجر أرضه أو زارعها وهو يدفع جزيته فلا يطالب إلا بالجزية ومن يعمل في الأرض عليه خراجها ــ أولى بتبعته ــ) «ونرى أن ترد المزارع لما جعلت له فإنما جعلت لأرزاق المسلمين عامة فإن أمر العامة هو أفضل للنفع وأعظم للبركة»(١) ــ (وهذا يشير الى أنَّ بعض الأرض الزراعية قد حولت عن الخراج أو عن الزراعة أو أهملت أو استغلت استغلالا آخر فهو هنا يردها الى أصلها وهو الخراج لأنَّه ــ لأرزاق المسلمين عامة.

النهى عن بيع الأرض أو تحويلها أو افسادها

ثم هو أخيرا يرى أن أهل الذمة من أهل أرض الخراج قد استغلوا من قبل الدولة أو من قبل العرب المسيطرين وسخروا للعمل عاما أو خاصا دون أجر أو بأجر غير مكافىء لا يعتمد على الرضا، وقد يكون في ذلك

النهى عن السخرة

---

١ ــ ابن عبد الحكم ٨٣.

تعطيل لمصالحهم وأراضيهم وإضرار بهم و بدوابهم، وهو ما يسمى بالسخرة فيمنع ذلك و يعاقب من يفعله فيقول «ونرى أن توضع السخر عن أهل الأ رض فإن غايتها أمور يدخل فيها الظلم(١).

النهى عن التعذيب

وهو في ذلك يبسط على الناس الأمن والطمأنينة و يأمر عماله بالعدل والإحسان والرحمة واتباع السنة و ينهى عماله عن التعذيب والإساءة ليحس الناس بالحرية والطمأنينة، فقد كتب اليه عدى بن أرطاة ــ عامله على البصرة ــ أما بعد فإن أناسا قبلنا لا يؤدون ما عليهم من الخراج حتى يمسهم شيء من العذاب.

فيكتب اليه عمر: أما بعد فالعجب كل العجب من استئذانك إياى في عذاب البشر كأنى جُنة لك من عذاب الله وكأن رضاى ينجيك من سخط الله، إذا أتاك كتابى هذا فمن أعطاك ما قِبَله عفوا وإلاَّ فأحلفه ــ(وهذا هو الأصل فيما يؤخذ من أهل الذمة أي العفو وهو الزيادة عن الحاجة، وهو في ذلك مقتد بفعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذ أتى بمال كثير من الجزية فقال: إنى لأظنكم قد أهلكتم الناس. قالوا لا والله ما أخذنا إلاَّ عفوا صفوا، قال بلا سوط ولا نوط؟ أى تعليق ــ قالوا: نعم. قال: الحمد لله الذى لم يجعل ذلك على يدى ولا في سلطانى)(٢)ــ فوالله لأن يلقوا الله بجناياتهم أحب إليَّ من أن ألقاه بعذابهم(٣).

النهي عن الاستنان بسنن الظالمين

يأبى عليه ورعه أن يستن بسنن الظالمين، فيتحدث عامل من عماله فيقول: كنت عاملا لعمر بن عبد العزيز فكنت أختم على بيادر(٤) أهل الذمة فجاءنى كتاب عمر: أن لا تفعل فإنه بلغنى أنها كانت من صنائع الحجاج وأنا أكره أن أتأسى به(٥) «وهو لا يريد أن يترك أهل الذمة

---

١ ــ ابن عبد الحكم ٨٣.
٢ ــ الاموال ٦١.
٣ ــ الخراج لابى يوسف ١١٩، ابن الجوزى ٨٤ باختلاف.
٤ ــ البيادر: ج بيدر وهو مكان تجمع الحب بعد الحصاد والدياس.
٥ ــ الحلية ٥/٣٠٦ والجمهرة ٣/٣٢٣ وابن الجوزى ٨٨.

حرضا هالكين، بل من رحمته بهم وإحسانه إليهم و بعثه الطمأنينة في قلوبهم على أنفسهم وأموالهم ما كتبه لأحد جباة الخراج: «أن دع لأهل الخراج من أهل الفرات ما يتختمون به الذهب و يلبسون الطيالسة و يركبون البراذين وخذ الفضل(١). وهكذا رحمة خالصة وعدالة وإحسان لا يبلغه إحسان.

توحيد المقاييس والمكاييل والدراهم

ولكي يمنع الغش والتطفيف وظلم الفلاحين ودافعي الضرائب. يصدر أمراً عاما بتوحيد المقاييس والمكاييل والدراهم فيقول: «ثم إن المكيال والميزان نرى فيهما أمورا علم من يأتيها أنها ظلم، إنه ليس في المكيال زيغ إلاَّ من تطفيف، ولا في الميزان فضل الا من بخس. فنرى أن تمام مكيال الأ رض وميزانها أن يكون واحدا في جميع الأ رض كلها»(٢) و يقول بالنسبة للدراهم «وآمرك أن لا تأخذ في الخراج إلاَّ وزن سبعة»(٣).

أمن الناس على دمائهم وأفكارهم

والأمر الأهم من ذلك كله أن الناس في عهد عمر بن عبد العزيز قد أمنوا على دمائهم مع أمنهم على أموالهم. فلم يسمع أن عمر أو أحد ولا ته قد قتل أحدا من المسلمين أو المعاهدين دون وجه حق. وترك للناس حرية التعبير والنقد البناء، فقد كان من قبل عمر يعتبرون أنفسهم أنصاف آلهة فكان الخليفة لا ينادى باسمه بل هوينهى أن ينادى باسمه، فهذا الوليد ابن عبد الملك يقول: لا ينبغى لخليفة أن يناشد ولا يكذب ولا يسميه أحد بأسمه، وعاقب على ذلك(٤).

---

١ — عيون الاخبار ١/٥٣.
٢ — ابن عبد الحكم ٨٢.
٣ — الخراج لابى يوسف ٨٦.
٤ — اليعقوبى ١/٢٩٠.

وهذا عبد الملك يقول «والله لا يأمرنى أحد بتقوى الله بعد مقامى هذا إلاَّ ضربت عنقه»(١). وهو أول من نهى عن الكلام بحضرة الخلفاء، وهو أول من نهى عن الأمر بالمعروف(١) «وقد كان خلفاء بنى أمية يقتلون كل من سب الخليفة، وقد مر معنا أمثلة ذلك، وهذا الوليد بن عبد الملك يقتل زياد بن حارثة التميمى لأنَّه دخل يوم الجمعة الى مسجد دمشق وقد أخرت الصلاة فقال: والله ما بعث الله نبيا بعد محمد صلى الله عليه وسلم أمركم بهذه الصلاة هذا الوقت. فأخذ فأدخل الخضراء فقطع رأسه(٢).

فما أن يأتى عمر بن عبد العزيز حتى يطمئن الناس على دمائهم مع أموالهم و يصدر أوامره الى عماله جميعا بأن لا يقتلوا أحداً أو يقطعوا له يدا أو رجلا إلاَّ بعد استشارته، فيقول لعبد الحميد بن عبد الرحمن «لا تعجل دونى بقطع ولا صلب حتى تراجعنى فيه»(٣) و يقول لعماله: إياكم والمثلة في العقوبة جز الرأس واللحية»(٤) و يكتب إليه واليه على المدينة أن خارجيا شتمه وأنَّه هم بقتله. فكتب إليه عمر لو قتلته لقتلك به، فإنَّه لا يقتل أحد بشتم أحد إلا أن يشتم النبى صلى الله عليه وسلم(٥).

وهو يقبل نقد الناقدين ونصيحة الناصحين، و يقبل الأمر بالمعروف بل هو يطلبه. ومن سبه أو عنف عليه حلم عليه وعفا عنه، وهكذا التفَّت حوله القلوب وأحاطته الأمة بحبها، ولو استطاعت أن تفديه بارواحها لفدته، لأنهم أحسوا في زمنه بالحرية والطمأنينة الى جانب العدل والرحمة والإحسان. وحق القاسم بن محمد أن يقول: اليوم ينطق كل من كان لا ينطق.

---

١ — تاريخ الخلفاء ٢١٩ وفوات الوفيات ٢/٣٣.
٢ — البداية والنهاية ٩/١٨٦ عن ابن عساكر.
٣ — الاموال ٦٤.
٤ — عيون الاخبار ١/٧٣.
٥ — ابن عبد الحكم ١٤٢.

ولم يكتف عمر بن عبد العزيز بالنظرة الحانية يلقيها على الرعية، بل أتبعها يدا آسية تداوى الجراح وتبعث الدفء والنماء في القلوب والأجساد والأرواح، ورأى بنظرته الثاقبة أن الأرض هي المورد الأعظم لبيت المال، وأن الفلاحين هم الأيدى العاملة في تلك الأراضى، وإن إهمال الأرض يؤدى الى خسارة فادحة لبيت المال، وأن ظلم الفلاحين يؤدي الى إهمال الأرض أو هرب الفلاحين عنها، فأرسل الى عماله يحثهم على الإحسان الى الفلاحين وعلى إصلاح الأرض وصيانتها، فكان مما قاله في كتابه لعدى بن ارطاة ــ واليه على البصرة ــ: فضع الجزية على من أطاق حملها وخلِّ بينهم و بين عمارة الأرض فإن في ذلك صلاحا لمعاش المسلمين وقوة على عدوهم(١).

إصلاح الأراضى والرحمة بالفلاحين

و يقول لعبد الحميد بن عبد الرحمن ــ واليه على الكوفة ــ فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة وجور في أحكام وسنن خبيثة سنتها عليهم عمال السوء، وأن أقوم الدين العدل والإحسان، فلا يكونن شيء أهم اليك من نفسك أن توطنها لطاعة الله فإنه لا قليل من الإثم، وأمرتك أن تطرز عليهم أرضهم، وأن لا تحمل خرابا على عامر ولا عامرا على خراب، ولا تأخذ من الخراب إلاَّ ما يطيق، ولا من العامر إلاَّ وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الأرض، وأمرتك أن لا تأخذ في الخراج إلاَّ وزن سبعة ليس لها آس..الخ الكتاب(٢).

فهو في هذا الكتاب أبطل كل الضرائب التى كانت تفرض على الفلاحين إلا خراج الأرض فقط، وليس من كل الأرض بل من العامر فقط مع الوصية بالرفق والتسكين لأهل الأرض، عدالة دونها كل عدالة ورحمة دونها كل رحمة.

---

١ ــ الاموال ٦٣.
٢ ــ الاموال ٦٤ والخراج لابى يوسف ٨٦.

و يكتب عمر الى عماله جميعا أن يرأفوا بالفلاحين في الجباية و ينتظروا بهم الميسرة ولا يجبروهم على بيع أدواتهم ومواشيهم لأداء الخراج، فيكتب «أن لا يباع لأهل الذمة آلة»(١).

وهو لا يكتفى بذلك بل يرى أنَّ من ضعف من أهل الذمة عن أرضه فعلى الوالى المسلم أن يعطيه من بيت مال المسلمين ما يقويه على عمارة أرضه، فهو يقول لعبد الحميد بن عبد الرحمن «وانظر من كانت عليه جزية فضعف عن أرضه فأسلفه ما يقوى به على عمل أرضه فإنّا لا نريدهم لعام أو عامين»(٢). ثم هو بتطبيقه العملى يطمئن الناس على أموالهم وعرقهم إذ يأتيه رجل فيقول: ياأمير المؤمنين زرعت زرعا فمر به جيش من أهل الشام فأفسدوه قال: فعوضه عشرة آلاف(٣).

اسلاف الفلاحين وتعويضهم

فهل يتكاسل بعد ذلك فلاح أو يهرب من أرضه بعد ذلك عامل؟ وهو يرى العدالة والرحمة تحفانه من جميع نواحيه؟.

و يعلم عمر أن هناك من لا يزال يستغل المزارعين ويمتص أموالهم بغير حق، فيسارع الى إزالة ذلك الحيف ومحق ذلك الظلم يكتب الى عدى بن أرطاة: بلغنى أن عمالك بفارس يخرصون الثمار على أهلها ثم يقومونها بسعر دون سعر الناس الذى يتبايعون به فيأخذونه قرفا. أو ورقا ــ على قيمتهم التى قوموها، وإنَّ طوائف من الأكراد يأخذون العشر من الطريق ــ ولو علمت أنك أمرت بشيء من ذلك أو رضيته بعد علمك به ما ناظرتك إن شاء الله بما تكره ــ وقد بعثت بشر بن صفوان وعبد الله بن عجلان وخالد بن سالم ينظرون في ذلك فإن وجدوه حقا ردوا الى الناس

رفع الظلم أنى وجد

---

١ ــ الاموال ١٣٦.

٢ ــ الاموال ٣٥٧.

٣ ــ الخراج لابى يوسف ١١٩ والحلية ٥/٣٢٥ وابن الجوزى ٧٩.

الثمر الذى أخذ منهم وأخذوا بسعر ما باع أهل الأرض عليهم ولا يدعون شيئا مما بلغنى إلا نظروا فيه فلا تعرض لهم(١).

فهو يلاحق الظلم في كل مكان وكأنَّ عينه مع كل فرد من رعيته فهو لا يكل الأمور الى عماله ثم يهملها، بل هو يلاحقها و يرسل رسلا لا يد للعامل عليهم لينظروا في ظلامات الناس التى أوقعها بهم عمال العامل حتى لا يهرب من العقوبة جان ولا يتخلص من اللوم مخطىء.

مع التجار

ثم هو لا ينسى التجار وأموالهم فهم يتلون الفلاحين في أهميتهم لبيت المال فهو يحرز أموالهم من الظلم ويحرص على حق الله فيها فيعمم الى ولاته: «أن لا تأخذوا من أرباح التجار شيئا حتى يحول عليها الحول»(٢) ثم هو يطمئن الناس أنه لن يؤخذ منهم إلاّ مرة واحدة في السنة، ليضربوا في الأرض بثرواتهم بكل حرية واطمئنان ــ فيقول «من مر بك من أهل الذمة فخذ مما يريدون من التجارات من أموالهم من كل عشرين دينار دينارا فما نقص فبحساب ذلك حتى تبلغ عشرة دنانير فإن نقصت ثلث دينار فلا تأخذ منها شيئا، واكتب لهم بما تأخذ كتابا الى مثله من الحول(٣).

وهو مع رأفته بالناس حريص على مال الله أن يضيع منه شيء فالمال الواحد لا يدفع إلاَّ زكاة واحدة أو عشرا واحدا، ولكن إذا تعدد المال وجب في كل مال زكاة أو عشر فيكتب الى عدى بن أرطاة: (أن يأخذ العشور ثم يكتب بما يأخذ منهم البراءة ولا يأخذ من ذلك المال ولا من ربحه إلاّ زكاة سنة واحدة و يأخذ من غير ذلك المال إن مر به(٤).

---

١ ــ الطبقات ٥/٢٩٠.

٢ ــ الاموال ٥٦٩.

٣ ــ الاموال ٧١٢ والخراج لابى يوسف ١٣٦ والجمهرة ٢/٣٤٧.

٤ ــ الاموال ٧١٨.

ثم هو حريص أيضاً على كل شبر من الأرض أن يعمر و يستصلح فقد كتب الى عماله بشأن أراضى الصوافى ـ أى أراضى الدولة ـ «انظر ما قبلكم من أرض الصافية فأعطوها بالمزارعة بالنصف وما لم تزرع فأعطوها بالثلث فإن لم تزرع فأعطوها حتى تبلغ العشر فإن لم يزرعها أحد فامنحها، فإن لم تزرع فأنفق عليها من بيت مال المسلمين ولا تبتزن قبلك أرضا»(١).

مع أرضى الصوافى

وحينما يكتب اليه أهل البصرة عن حاجتهم الى نهر لأراضيهم يكتب لواليهم عدى بن ارطأة أن يقوم بحفره، فيحفره لهم ويخرج الناس ينظرون اليه ومنهم الحسن البصرى على حمار(٢).

وسرعان ما يظهر أثر هذه السياسة الرشيدة الحكيمة في حرية الناس في بيعهم وشرائهم، فيقول قائل لأمير المؤمنين «ياأمير المؤمنين ما بال الأسعار غالية في زمانك وكانت في زمان من قبلك رخيصة؟ فيقول معللا ومجيبا» إن الذين كانوا قبلى كانوا يكلفون أهل الذمة فوق طاقتهم فلم يكونوا يجدون بدا من أن يبيعوا و يكسد ما في أيديهم، وأنا لا أكلف أحداً إلاّ طاقته فباع الرجل كيف شاء(٣).

أثر هذه السياسة في الامة والسيولة النقدية

فليس رخص الأسعار دليلا على العدالة والرخاء دائما كما أنَّ غلاء الأسعار ليس دليلا على الظلم والشدة كذلك، بل الأمر على العكس في غالب الأحيان. وهكذا ففى عهد عمر بن عبد العزيز أحس الناس بالحرية والأمن والطمأنينة فباعوا كيف ومتى شاؤا وكثر بين أيديهم المال، وتكلموا بما يريدون فلم تكمم منهم الأفواه، كما لم تسلب منهم الأموال ولن ترق منهم الدماء بغير حق، فلا عجب أن زاد الخراج في عهده

١ ـ الخراج لابى يوسف ٥٩.
٢ ـ فتوح البلدان ٤٥٤.
٣ ـ الخراج لابى يوسف ١٣٢.

من ثمانية عشر ألف ألف درهم في أشد العهود ظلما وإظلاما في عهد الحجاج الى مائة ألف ألف بدون ظلم أو عدوان أو إراقة دماء.

فرحمك الله ياعمر ورحم كل من سار على دربك من الحكام والمسئولين.

الباب الرابع

أثر سياسة عمر بن عبد العزيز المالية في بيت المـــال

الفصل الأول: ماذا فعل عمر بالمال؟

المبحث الأول: السير على خطوات عمر الأول

«إنى متبع أثر عمر وسيرته إن أعاننى الله على ذلك»(١)

عمر بن عبد العزيز

لقد تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة وكان كل همه أن يرفع عن كاهل الأمة الظلم الذى رزحت تحته سنين وسنين حتى كاد الحق تنسى صورته وتمحى معالمه، فأراد أن يعيد الى الأمة ثقتها بنفسها و بالحق، وكان لابد من مثال يقتديه عمر و يأتسيه و يسير على منهاجه فبمن يقتدى و يأتسى؟ و بأى منهاج يلتزم؟

عمر يقتدى بعمر

لم يطل بعمر تفكير ولم يلتبس عليه أمر، فقد استجاب لنداء ينبض به قلبه و يشع في ضميره وتجرى لمساته في دمه أن سر بسيرة جدك الفاروق، واتبع تطبيقه العملى لمفهوم الإسلام الصحيح في العدالة والمال، ومن أجدر من عمر أن يقتدى بسيرة عمر؟.

وسرعان ما كتب الى سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب: من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى سالم بن عبد الله سلام عليك فإنّى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو أما بعد: فإن الله ابتلانى بما ابتلانى به من أمر هذه الأمة عن غير مشاورة منى فيها، ولا طلبه منى لها، إلاّ قضاء الرحمن وقدره، فأسأل الذى ابتلانى من أمر هذه الأمة بما ابتلانى أن يعينني على ما ولانى. وأن يرزقنى منهم السمع والطاعة وحسن مؤازرة وأن يرزقهم

---

١ ــ الحلية ٢٨٤ــ٥/٢٨٥، الطبقات ٥/٢٩٢، ابن عبد الحكم ١٠٣ وابن الجوزى ١٣١،٢٩.

منى الرأفة والمعدلة. فإذا أتاك كتابى هذا فابعث إليَّ بكتب عمر بن الخطاب وسيرته وقضاياه في أهل القبلة وأهل العهد فإنّى متبع أثر عمر وسيرته إن أعاننى الله على ذلك والسلام(١).

وهكذا فقد اتضح المنسم أمام عمر بن عبد العزيز و بانت المحجة وقامت الحجة. ولم يتردد سالم بن عبد الله في الرد والموافاة، فكان مما قاله لعمر: «ثم إنَّك كتبت تسأل أن أبعث إليك بكتب عمر بن الخطاب وسيرته وقضائه في المسلمين وأهل العهد، وإنَّ عمر عمل في غير زمانك وإنِّى أرجو إن عملت بمثل ما عمل عمر أن تكون عند الله أفضل منزلة من عمر»(١). لقد عمل عمر بن الخطاب في وقت لازالت فيه النفوس سليمة والسير مستقيمة، والإسلام لازال في جدته وعنفوانه وجاء عمر بن عبد العزيز في وقت تطرق فيه الفساد الى الرعاة والرعايا، وسقمت فيه النفوس واعوجت السير. فهل يستطيع أن يسير عمر الآخر بسيرة عمر الأ ول؟ ولم تحدثنا كتب التاريخ ولا السير والأدب إن كان سالم بن عبد الله قد أرسل ما طلبه منه عمر بن عبد العزيز أم لا. ولكن تطبيقات عمر بن عبد العزيز المالية، وسيرته مع نفسه ورعيته وعماله وأحكامه كل ذلك يشعرنا بأنه قد حصل على سيرة عمر بن الخطاب رضى الله عنه وحاول جهده الاقتداء به والسير على منهاجه، ومع اختلاف الزمن كما أشار الى ذلك سالم بن عبد الله في رده على عمر، مع ذلك فقد استطاع عمر أن يطبق قضايا عمر في أهل القبلة وأهل العهد كما لو كان عمر بن الخطاب.

وإن في شهادة بنى مروان على ذلك أصدق دليل على تتبعه سيرته حيث قالت عمته لبنى مروان حينما وسّطوها لكى يخفف عمر من شدته عليهم إذ قالت لهم: أنتم فعلتم هذا بأنفسكم تزوجتم بأولاد عمر بن الخطاب فجاء يشبه جده(٢).

---

١ ــ الحلية ٢٨٤ــ٥/٢٨٥، الطبقات ٥/٢٩٢ ابن عبد الحكم ١٠٣ ابن الجوزى ١٢٩، ١٣١.
٢ ــ الكامل لابن الا ثير ٥/٦٤.

وهكذا قال أيضا عنبسة بن سعيد(١).

وسنرى فيما يأتى أنَّ عمر بن عبد العزيز كان في أغلب أحكامه إنّما ينظر بعينى عمر بن الخطاب رضى الله عنه سواء في قضايا ومعاملاته للمسلمين أو لأهل الذمة أو في نظرته الى الخراج والأرض أو عطائه للناس وتسويته بين العرب والموالى في العطاء. ولعلنا سنلاحظ أنَّ الناحية المالية وتطبيقاتها كانت أبرز النواحى وأظهرها في تتبع عمر لسير عمر، ولعل عمر ابن عبد العزيز قد وصله قول عمر بن الخطاب «من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أبى بن كعب ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد ابن ثابت، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتنى فإنَّ الله جعلنى خازنا وقاسما»(٢).

---

١ ــ ابن عبد الحكم ١٤١.

٢ ــ سيرة عمر بن الخطاب ٧٤.

المبحث الثاني

العطـــاء

«وآيم الله لئن كنت منعت نفسي وأهل بيتي هذا المال
ثم ضننت به عليكم إني إذا لضنين»(١)
عمر بن عبد العزيز

لقد سد عمر بن عبد العزيز عن بيت المال المداخل الحرام، فلم يدخل بيت ماله إلاّ طيبا، كما أنه سد ثغرات التسرب بكل صنوفها وألوانها، فلا يؤخذ درهم إلاّ بحق ولا يخرج درهم إلاّ الى يد تستحق ــ كان حريصا على أن يوفر على المسلمين أموالهم، و يعتقد أنَّ الدرهم دم فلا يجوز أن يجرى في غير عروقهم(٢).

الدرهم دم

وما كان جمعه المال أو حرصه عليه لكنز أو ادخار ناتج عن شح أو بخل، بل هو الحرص على مال الأمة أن يضيع من غير فائدة تعود على الأمة فمنع نفسه وأهله وأفاض على الناس، لأنَّه ما لهم فكان فيه كراعى مال اليتيم إن استغنى استعفف وإن افتقر أكل بالمعروف.

ورأى أمامه سلف صدق حرصوا على هذا المال أخذوه من حقه ووضعوه في حقه، فسار على سننهم واهتدى بهديهم، ورأى أن لكل فرد في الأمة حقا في هذا المال أعطيه أو منعه، وكأنه بهذا كان ينظر بعينى جده الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

العطاء

والعطاء في الإسلام قديم و يراد به ما يناله المجاهدون وذراريهم والعاملون في الدولة من عمال وولاة وجباة وقضاة وغير ذلك، وأول من

---

١ ــ ابن عبد الحكم ٢٣٧ الطبقات ٥/٢٥٣.
٢ ــ رجال الفكر والدعوة ٣٢.

أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أبوبكر رضى الله عنه، ولكن أول من نظم العطاء وسجل أسماء من يأخذونه ودون ديوانه هوعمر بن الخطاب رضى الله عنه، حينما كثرت موارد الدولة واتسعت أكنافها وكثر عدد المستحقين للعطاء.

و ينقسم مال العطاء قسمين: قسم الفيء والخمس وما يؤخذ من تجار أهل الحرب والذمة والجزية، ويمكن أن يطلق على هذا كله عدا الخمس مال الخراج، وهذا يعطى منه المقاتلة والذرية والقضاة والعمال والنفقات العامة. وأما الخمس فسيذكر بعد قليل.

مال العطاء

وقسم الصدقات: وهذا يعطى منه الأقسام الثمانية التى ذكرها الله عز وجل في كتابه «**إِنَّما الصَّدَقَاتُ لِلفُقَراءِ وَالمَسَاكِينِ وَالعَامِلِيْنَ عَلَيْهَا وَالمُؤلَّفَةِ قُلُوْبُهمْ وَفِي الرِّقَابِ والغَارِمِيْنَ وَفِي سَبِيْلِ الله وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ الله والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ**»(١).

وقد وعى عمر بن عبد العزيز رحمه الله ذلك تماما وسار فيه سيرة جده العظيم عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وعمم ذلك في كتبه الى عماله فكان مما قاله: وأما الصدقات فإنَّ الله تبارك وتعالى فرضها وسمى أهلها حين طعن فيها أناس و بلغوا فيها تهمة نبيهم فقال: «**وَمِنْهُم مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فإنْ أعْطُوْا مِنْهَا رَضُوْا وإنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إذا هُمْ يَسْخَطُوْنَ**»(٢) فقال الله تبارك وتعالى عند ذلك «**إِنَّما الصَّدَقَاتُ لِلفُقَرَاءِ والمَسَاكِينِ وَالعَامِلِيْنَ عَلَيهَا وَالمُؤلَّفَة قُلُوبُهمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ الله وابْنِ السَّبِيلِ فَرِيْضَةً مِنَ الله والله عَلِيمٌ حَكِيْمٌ**»(٣). فبين رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقة الأموال الحرث

الصدقات ومصارفها

---

١ ــ سورة التوبة الاية ٦٠.

٢ ــ سورة التوبة الاية ٥٨.

٣ ــ سورة التوبة الاية ٦٠.

والمواشي والورق ــ الفضة ــ والذهب، فتؤخذ الصدقات كما بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وفرض، لا يظلمون ولا يتعدى عليهم ولا يحابى بها قريب ولا يمنعها أهلها. ثم تجعل الى مرضيين من أهل الإسلام فيجعلونها حيث أمرهم الله يحملهم الإمام من ذلك على ما حمل، و ينزه نفسه من ذلك من أمر قد أكثر فيها على الأئمة(١).

وقال في كتاب آخر «ثم فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم الزكاة على أمر الله في العين ــ الذهب والفضة ــ والحرث والماشية و بين مواضع ذلك فقال **«إنّما الصدقات»** الخ الاية(٢) حتى استقامت سنتها في الأخذ حين تؤخذ وفي القسمة حين تقسم. فعمل بها المسلمون في جزيرة العرب حتى علموها أو كل ذى عقل منهم(٣).

الخمس والفيء

ثم يقول في كتابه «وأما الخمس فإن من مضى من الأئمة اختلفوا في موضعه، فطعن في ذلك طاعن من الناس وأكثر فيه، ووضع مواضع شتى. فنظرنا فإذا هو على سهام الفيء في كتاب الله لم تخالف واحدة من الاثنتين الأخرى، فإذا عمر بن الخطاب رحمه الله قد قضى في الفيء قضاء رضى به المسلمون: فرض للناس أعطية وأرزاقا جارية لهم ورأى أن لن يبلغ بتلك الأبواب ما جمع من ذلك ورأى أن فيه لليتيم والمسكين وابن السبيل. فرأى أن يلحق الخمس بالفيء وأن يوضع في مواضعه التى سمى الله وفرض. ولم يفعل ذلك إلاّ ليتنزه منه وخيفة التوهم فيه. فاقتدوا بإمام عادل، فإن الآيتين متفقتان آية الفيء وآية الخمس فإن الله قال: **«مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القُرَىٰ فَلِلّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى القُرْبَى وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِيْنِ وَابنِ السَّبِيلِ»**(٤) وكذلك فرض الله

---

١ ــ ابن عبد الحكم ٨٠ــ٨١

٢ ــ سورة التوبة الآية ٦٠

٣ ــ ابن عبد الحكم ٦٢.

٤ ــ سورة الحشر آية ٧.

الخمس(١). فنرى أن يجمعا جميعا فيجعلا فيئا للمسلمين ولا يستأثر عليهم ولا يكون دولة بين الاغنياء منكم(٢) .

فقد بين عمر هنا المالين وفرق بينهما، لأنهما في الحقيقة مختلفان موردا، ومصرفا، ولكنه جمع بين الخمس والفيء وجعل مصرفهما واحدا وقد يخالف هذا ما ورد من «أنّه جعل للخمس بيت مال على حدة وللفيء بيت مال على حدة»(٣).

لمن العطاء؟

ولكن لمن كان يعطي عمر بن عبد العزيز العطاء، هل كان يعطي مال الله للأمراء والقواد والأشراف؟ أو هل كان يعطيه محاباة ومصانعة للشعراء والخطباء والخلطاء؟.

عطاء الفيء والخمس

مر معنا فيما مضى حرص عمر على مال المسلمين، فما كان من مال الفيء والخمس وهو عظم مال بيت المال فهو أصل العطاء فقد سار فيه عمر بن عبد العزيز على درب عمر بن الخطاب، وقد راعى في توزيع المال العدالة المطلقة فقد ساوى بين العرب والموالى وعمم الفريضة، وأعطى كل من حرم في عهد السابقين من خلفاء بنى أمية وخاصة بنى هاشم ــ قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ رد لهم حقوقهم المهضومة سواء فيما تركه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان من صدقاته ــ مثل فدك وخيبر ــ أو في مال الخمس.

رده حقوق آل البيت

ولقد كان عمر كثيرا ما حث الوليد وسليمان على رد الخمس لأربابه، ولكنهم كانوا يأبون ذلك، وفي هذا يقول طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق «أن عمر بن عبد العزيز لم يزل رأيه والذى يشير به على من ولى هذا الأمر من أهل بيته توفير هذا الخمس على

---

١ ــ يشير الى قوله تعالى «واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسة وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل. الانفال ٤١.

٢ ــ ابن عبد الحكم ٨٠ــ٨١.

٣ ــ الطبقات ٥/٢٩٥.

أهله فكانوا لا يفعلون ذلك فلما ولى الخلافة نظر فيه فوضعه في مواضعه الخمسة وآثر به أهل الحاجة من الأخماس حيث كانوا، فإن كانت الحاجة سواء وسع في ذلك بقدر ما يبلغ الخمس»(١).

وأرسل الى واليه على المدينة أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن يقسم بين بنى هاشم عشرة آلاف دينار من سهم ذوى القربى، فشكروا له ذلك وكتبت اليه فاطمة بنت حسين تشكر له ما صنع وتقسم بالله: ياأمير المؤمنين لقد أخدمت من كان لا خادم له واكتسى منهم من كان عاريا(٢). وكان مما قاله لهم: «إنى إن بقيت أعطيتكم جميع حقوقكم»(٢). وبعث بسهم رسول الله وسهم ذوى القربى الى بنى هاشم»(٢).

رد أعطية المحرومين

ثم نظر في الدواوين فمن وجده حُرِم عطاءه بتهمة الخروج على الدولة أو انتقادها ــ أى لجريمة سياسية ــ رده له، ومن جاءه شاكيا قطع عطائه من أولئك رده له أيضاً، فقد أرسل الى الحسن(٣) وابن سيرين(٤): يقول لهما «أرد عليكما ما حبس من أعطيتكما؟ فقال ابن سيرين: إن فعل ذلك بأهل البصرة فعلت وأمّا غير ذلك فلا. فكتب عمر: إنَّ المال لا يسع. قال: وقبل الحسن(٥).

وهكذا فعل خارجة بن زيد(٦) فعل ابن سيرين ــ وكان قد قطع من الديوان ــ فعرض عليه عمر أن يعطى ما منع عنه فرفض إلاَّ أن يعطى كل

---

١ ــ الطبقات ٥/٢٥٧.

٢ ــ الطبقات ٥/٢٨٧.

٣ ــ الحسن البصرى ولد بالمدينة سنة ٢١ ومات بالبصرة سنة ١١٠هـ، الطبقات ٧/١١٤.

٤ ــ محمد بن سيرين كان ثقة مأمونا عاليا رفيعا فقيها اماما كثير العلم ورعا مات سنة ١١٠هـ الطبقات ٧/١٤.

٥ ــ الطبقات ٥/٢٥٦.

٦ ــ خارجة بن زيد بن ثابت النجارى من علماء المدينة المشهورين توفى سنة ١٠٠، الطبقات ٥/١٩٣.

من حرم(١). لقد كان علماء الأمة أيضاً أعفة عن المال، لقد أراد عمر أن يرد عطاء العلماء الذين ينيرون للأمة طريقها ولا تأخذهم في الحق لومة لائم ولذلك حرموا عطاءهم. ولكنهم للحق يرفضون أن يرد كل عطاء لهم سابق إلاَّ أن يرد لكل المحرومين، ولكن أين المال الذى يسع ذلك كله؟.

ولكن بعضا كان يطلب من عمر عطاءه فيعطيه إياه لأنه يراه حقا له. فقد طالبه عبد الله بن العلاء قائلا: ياأمير المؤمنين عصبت سنوات أنى كنت في العصاة وحرمت عطائى، قال فرد على عطائى، وأمر أن يخرج لى ما مضى من السنين(٢).

من المستحق للعطاء؟

ولكن من هم المستحقون للعطاء؟ و بأى صفة يستحقون؟.

يبين ذلك كتب عمر، إذ كتب الى يزيد بن الحصين «أن مر للجند بالفريضة وعليك بأهل الحاضرة وإياك والأعراب فانهم لا يحضرون محاضر المسلمين ولا يشهدون مشاهدهم(٣).

الجند أهل الحاضرة

و يكتب الى أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم «أن افرض للناس إلاّ لتاجر»(٤) لأنَّ التاجر مشغول بتجارته عما يصلح المسلمين.

ولكن لماذا يحرم الأعراب من العطاء؟ وهل هذا رأى خاص لعمر أم أنَّ عمر بن عبد العزيز استن في ذلك بغيره؟. يقول عمر في كتابه الآنف الذكر تعليلا لعدم إعطائه الأعراب «فإنهم لا يحضرون محاضر المسلمين ولا يشهدون مشاهدهم» فهذه هي العلة في عدم إعطاء الأعراب من مال الفيء، لأنَّ هذا المال لا يستحق إلاَّ بعمل لصالح الجماعة الإسلامية

لاعطاء التاجر

---

١ ــ الطبقات ٥/٢٥٦.
٢ ــ الطبقات ٥/٢٥٦.
٣ ــ الاموال ٢٢٥، فتوح البلدان ٥٦١.
٤ ــ الطبقات ٥/٢٥٤.

والدفاع عن العقيدة والجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله. والأعراب لا يقومون بأى من هذه الاعمال، ولذلك فهم لا يستحقون، وفي هذا الموضوع يقول أبو عبيد القاسم بن سلام تعقيبا على كتاب عمر: ليس وجه هذا عندنا أن يكونوا لم يروا لهم في الفيء حقا، ولكنهم أرادوا أن لا فريضة لهم راتبة تجرى عليهم من المال كأهل الحاضرة(١).

وعمر بن عبد العزيز لم يبتدع هذا الرأى من عند نفسه بل هو مستن في ذلك بعمر بن الخطاب رضى الله عنه، بل هو من أوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمرائه على الجيوش أو السرايا: عن بريدة قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله عز وجل ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال «اغزوا بسم الله، في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدا. وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم الى ثلاث خصال ــ أو خلال ــ فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم. ثم ادعهم الى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم الى التحول من دارهم الى دار المهاجرين وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين. فإن أبوا أن يتحولوا منها، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين. فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل وكف عنهم، فان هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم(٢).

وحثاً للناس على الهجرة ودعوة الى الاستقرار في الأمصار والمدن ليعظم شأن الإسلام وتقوى دولته، يقول عمر في ذلك «وأما الهجرة فإنا نفتحها

---

١ ــ الاموال ٣٢٥.

٢ ــ مختصر صحيح مسلم ٢/٥٤.

لمن هاجر من أعرابى فباع ماشيته وانتقل من دار أعرابيته الى دار الهجرة والى قتال عدونا، فمن فعل ذلك فله أسوة المهاجرين فيما أفاء الله عليهم، وإنَّ الله نعت المؤمنين عند ذكره الفيء فجعله للفقراء والمهاجرين»(١).

المقاتلة والذرية

وقد فرق عمر بن عبد العزيز بين المقاتلة والذرية في العطاء فقد عمم كتبه في الآفاق «أن لا يفرضوا لابن أربع عشرة سنة في القتال، و يفرضوا لابن خمس عشرة سنة في المقاتلة»(٢). فمن بلغ خمس عشرة سنة كتب مع المقاتلين، ومن كان دون ذلك كان من الذرية. وهذا التفريق إنما ينظر فيه لفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما رد عن القتال من لم يبلغ خمس عشرة سنة، فعن ابن عمر رضى الله عنهما قال: عرضنى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد في القتال وأنا ابن أربع عشرة سنة فلم يجزنى، وعرضنى يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازنى.

الحد بين الصغير والكبير

قال نافع ــ (مولى ابن عمر وحامل علمه) ــ فقدمت على عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه وهو يومئذ خليفة فحدثته هذا الحديث فقال: إن هذا الحدّ بين الصغير والكبير، فكتب الى عماله أن يفرضوا لمن كان ابن خمس عشرة سنة ومن كان دون ذلك فاجعلوه في العيال(٣).

وكان يكتب لولاته حين يخرج العطاء «أن لا يقبل من رجل له مائة دينار إلاَّ فرس عربى ودرع ورمح وسيف ونبل»(٢) فقد كان رحمه الله حريصا على مال الأمة أن يذهب هدرا فمن أخذ أجره حوسب على عمله.

وقد زاد عمر الناس في عطاياهم عشرة عشرة العربى والمولى سواء(٤).

---

١ ــ ابن عبد الحكم ٧٩.
٢ ــ الطبقات ٥/٢٥٨، ابن الجوزى ٧٣.
٣ ــ مختصر صحيح مسلم ٢/٥٥، ابن الجوزى ٧٣.
٤ ــ الحلية ٥/٣٣١.

و يقول أحد شهود العيان «حضرت قسمين قسمهما عمر بن عبد العزيز على جميع الناس كلهم سوى بينهم(١).

زيادة العطاء والمساواة فيه

وكان شرف العطاء ــ (أى أعلى راتب يتقضاه مستحق) ــ الفين فقد ذكروا «أنَّ عمر بن عبد العزيز قد فرض لرجال ألفين ألفين شرف العطاء(٢) وكان هو من أصحاب الألفين. وهذا تحديد عمر بن الخطاب لعماله وجنوده من أصحاب الغناء والبلاء. فقد كتب الى عمرو بن العاص: انظر من قبلك ممن بايع تحت الشجرة فأتم لهم العطاء مائتين وأتمها لنفسك لإمرتك، وأتمها لخارجة بن حذافة لشجاعته، ولعثمان بن أبى العاص لضيافته(٣).

شرف العطاء

وقد كانت مشكلة العرب والموالى عميقة الجذور، فقد جرى من كان قبل عمر من بنى أمية على تفضيل العرب على الموالى من الجند المحاربين. فقد كانت أربعة أخماس الغنائم ينالها الجند العرب في أغلب الأحيان والموالى إنَّما يرضخ لهم ــ أى يعطون دون فريضة محددة أو سهم محدد ــ وكان عطاء المولى ــ إن كان له عطاء ــ دون عطاء العربى المساوى له في الرتبة والمنزلة ــ وقد كان هذا كما رأينا من أسباب عزل عامل خراسان الجراح بن عبد الله الحكمى حيث اشتكى منه الموالى على لسان أبى الصيداء عضو الوفد حينما قال لعمر بن عبد العزيز «عشرون ألفا من الموالى يغزون بلا عطاء ولا رزق»(٤).

العرب والموالى

وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد سوى بين العرب والموالى في العطاء والفريضة يقول البلاذرى: وعم بفريضته كل صريح وحليف

---

١ ــ الطبقات ٥/٢٥٤.
٢ ــ الطبقات ٥/٢٥٥.
٣ ــ فتوح مصر ١٩٨.
٤ ــ الكامل لابن الاثير ٥/٥١.

ومولى شهد بدرا فلم يفضل أحدا على أحد(١) «وقال في كتاب الى أمراء الاجناد: ومن أعتقتم من الحمراء أى العجم ــ فأسلموا فألحقوهم بمواليهم، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، وإن أحبوا أن يكونوا قبيلة وحدهم فاجعلوهم أسوتهم في العطاء(٢).

ولما علم أنَّ عاملا له أعطى العرب وترك الموالى كتب اليه: أما بعد فبحسب المرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم والسلام(٣). ولم يكن عمر ابن الخطاب يفضل إلا بالسابقة في الإسلام والغناء في الإسلام والبلاء في الإسلام والحاجة في الإسلام، وجعل شرف العطاء ألفين أو مائتى دينار(٤) وقد فرض للهرمزان ألفين(٥).

وجرى العمل بالنظام الذى سنه عمر بن الخطاب رضى الله عنه في عهد عثمان بن عفان وعلى بن ابى طالب رضى الله عنهما دون تفريق بين عربى ومولى، حتى جاءت الدولة الأموية وهى دولة عربية أكثر منها إسلامية ــ ففضلت العرب على الموالى في العطاء وحرم كثير من الموالى حقوقهم المشروعة وزاد الأمر عليهم شدة حينما فرض الحجاج الجزية على من أسلم منهم مع أن الإسلام يسقطها. ولكن لما جاء عمر بن عبد العزيز صحح الوضع ورد الأمر الى ما كان في زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وساوى بين العرب والموالى في العطاء وأسقط عمن أسلم منهم الجزية.

العمال والذرية

ولم يكن عمر بن الخطاب يفرض للمقاتلة فحسب بل فرض لعيال المقاتلة أيضاً وذريتهم العشرات فأمضى عثمان رضى الله عنه ومن بعده من

١ــ فتوح البلدان ٥٥٧ الاموال ٣٣٥.
٢ ــ فتوح البلدان ٥٦٠.
٣ ــ المرجع السابق ٥٥٩ والاموال ٣٣٦.
٤ ــ فتوح البلدان ٥٥٨.
٥ ــ فتوح البلدان ٥٦٠ والاموال ٣٣٧.

الولاة ذلك وجعلوها موروثة يرثها ورثة الميت ممن ليس في العطاء. وكان عمر رضى الله عنه يفرض للمولود إذا ولد في عشرة فاذا بلغ ان يفرض له الحق بالفريضة، فلما كان معاوية فرض ذلك للفطيم فلما كان عبد الملك بن مروان قطع ذلك كله إلا عمن شاء(١).

فلما جاء عمر بن عبد العزيز استن بسنة عمر بن الخطاب في ذلك جُلّه فساوى بين الموالى والعرب في العطاء لأن الإسلام يجمعهم. وأسقط الجزية عمن أسلم وعمم الفريضة، وقد أنكر أولا الوراثة في فريضة العيال والذرية ولكن لما قيل له: إنَّ من يأتى بعدك قد يستن بك في قطع الوراثة ولا يستن بك في عموم الفريضة تركهم(٢).

وفرض لكل منفوس وقال وهو خليفة: إنَّه لا يحل لكم أن تأخذوا لموتاكم فارفعوهم الينا واكتبوا لنا كل منفوس ــ أى مولود ــ نفرض له(٣). وكان يفرض للمولود دينارا أو عشرة دراهم كل سنة. فقد قال الهيثم بن واقد. ولدت سنة سبع وتسعين فاستخلف عمر بن عبد العزيز وانا ابن ثلاث سنين فأصبت من قسمه ثلاثة دنانير(٤).

وعن محمد بن عمر: ذهبت بى حاضنتى الى أبى بكر بن حزم ــ والى المدينة من قبل عمر بن عبد العزيز ــ فوضع في يدى دينارا وأنا منفوس، وولدت سنة المائة، ثم كان قابل فأعطينا دينارا آخر فكانا دينارين(٥). فكان عمر بن عبد العزيز في ذلك مستنا بسنة عمر بن الخطاب رضى الله عنه. وهذا يؤكد لنا أنَّ سالم بن عبد الله بن عمر قد أرسل لعمر بن عبد العزيز سيرة جدة عمر بن الخطاب وقضاياه فاستن بها.

---

١ ــ فتوح البلدان ٥٦٢.

٢ ــ المرجع السابق والاموال ٣٤٣.

٣ ــ الطبقات ٥/٢٥٥.

٤ ــ الطبقات ٥/٢٥٥.

٥ ــ الطبقات ٥/٢٥٥.

الفرض لكل مولود

ولكن هل كان عمر بن عبد العزيز يفرض للمولود قبل الفطام، في الأمثلة السابقة رأينا أنه كان يفرض لكل مولود وسماه منفوسا، فهذا دليل على أنه كان يفرض للرضيع بمجرد ولادته وهى سنة عمر بن الخطاب الأخيرة، حيث كان رضى الله عنه لا يفرض للمولود حتى يفطم، فرأى الناس يستعجلون فطام أبنائهم فأمر مناديه «لا تعجلوا أولادكم عن الفطام فإنَّا نفرض لكل مولود في الإسلام(٢). ولكن أمية بن يزيد يقول: سألت عمر بن عبد العزيز أن يفرض لابن لى رضيع. فقال: لو كنت أفرض لابن لى مثله فرضت لهذا(٢).

فهذا يشير الى أنه كان لا يفرض للرضيع ولكن الأخبار الأ ولى في نظرى أرجح، و يرجحها فعل عمر بن الخطاب وفرضه لكل مولود. واستنان عمر بن عبد العزيز بعمر بن الخطاب في ذلك غالبا. وقد ورد أنَّ عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يفرض للمنفوس مائة درهم، فإذا ترعرع بلغ به مائتي درهم فإذا بلغ زاده(٣).

وقد فعل عمر بن عبد العزيز ذلك ولكن للفطيم، يقول مروان بن شجاع الجزرى أثبتنى عمر بن العزيز وأنا فطيم في عشرة دنانير(٤).

وهذا يشير الى أن عمر بن عبد العزيز كان يفرض للرضيع دينارا واحدا فإذا فطم فرض له عشرة دنانير. وكان رحمه الله إذا استوجب الرجل عطاءه، ثم مات أعطاه ورثته(٥). وكتب لولاته أن انظر في أهل الدواو ين فمن كان عمل على عطائه سنة كاملة وغرم ما نابه من الحمائل

---

١ ــ فتوح البلدان ٥٦٢.
٢ ــ الاموال ٣٤١.
٣ ــ فتوح البلدان ٥٥٢.
٤ ــ الاموال ٣٣٦ وفتوح البلدان ٥٦٢.
٥ ــ الاموال ٣٧٠ وفتوح البلدان ٥٦٥.

أو قال الجعائل شك أبو عبيد ــ وأجزأ بعوثه ثم يقبض بعد ما يؤمر للناس بأعطياتهم فمر لأهله بعطائه حقا واجبا، وانظر من كان اكتتب في شيء من البعوث فَخرَجَ له عطاؤه فتجهز به ثم أدركه أجله فلا تغرموا أهله شيئا إنما أخذ حقه(١).

طعام الجار

ولم يكن عمر بن عبد العزيز يكتفى بأن يعطى الناس أعطياتهم مالا فقط، ولكن لما كان قد استن بعمر بن الخطاب في العطاء والتسوية فقد استن به في شيء آخر وهو الطعام، فقد كان عمر بن الخطاب قد أجرى على الناس جريبين من الطعام كل شهر وقسطى خل بعد أن أجرى تجربة أثبت بها أنَّ الإنسان يكفيه الجريبان لغدائه وعشائه في الشهر(٢). فلما كان عمر بن عبد العزيز سوى بين الناس في طعام الجار(٣) أربعة أرادب ونصفا لكل إنسان(٤). وكان قبل عمر بن عبد العزيز متفاوتا، فقد قال أفلح بن حميد: إنما سوى عمر بن عبد العزيز بين من فرض له في طعام الجار، وأما من كان له شيء قبل ذلك فإنه يأخذه(٤). وكذلك يقول إبراهيم بن يحيى، كان لى في طعام الجار عشرون إردباً، فلما استخلف عمر أقرت وسوى بين من فرض له من أهل بيتى(٥). فهو في هذا أبقى القديم على قدمه وإنّما سوى بين من فرض له في عهده.

التعليم والارشاد

ولم يكتف عمر بذلك بل أنشأ مطبخا للعامة يغديهم و يعشيهم منه. ورأى عمر بن عبد العزيز أن في هذا المال حقوقا أخرى غير العطاء للجند والقضاة والموظفين، رأى أن الأمة تحتاج الى من يفقهها في دينها و يعلمها

---

١ ــ الاموال ٣٧٠.

٢ ــ فتوح البلدان ٥٦٤.

٣ ــ الجار ميناء على البحر الاحمر مكان ينبع الحالية وفيه كانت تصب الحبوب والطعام الذى كان يرد من مصر الى المدينة في عهد عمر بن الخطاب واول ما بدىء به عام الرمادة.

٤ ــ الطبقات ٥/٢٥٥.

٥ ــ الطبقات ٥/٢٥٦.

شريعة الله فأراد حث الناس على التفقه والتفقيه، وقد كان هو فقيها عالما بل أستاذا للعلماء فكانت كتبه لعماله مدارس فقه ومنائر هدى، ومما قاله في إحدى رسائله ــ وقد عممها على أمراء الأجناد ــ قال: من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى أمراء الأجناد: أما بعد فإن عرى الدين وقوام الإسلام الإيمان بالله، وإقام الصلاة لوقتها، وإيتاء الزكاة. وحافظ على أوقات الصلوات فإن وقتها الهجيرة بالظهر، وصلاة العصر والشمس بيضاء نقية لم يدخلها صفرة. وصلاة المغرب لفطر الصائم، ولا تصلين العشاء حتى يذهب شفق الافق وهو البياض، فإذا ذهب فصلها فيما بين ثلث الليل، وما عجلتها بعد ذهاب بياض الأفق فهو أحسن وأصوب، فإنَّ من تمامها وإصابة وقتها انتظار ما وصفت لك في كتابى هذا منها، ثم صل صلاة الفجر بغلس، وحافظ على ذلك فإن المحافظة عليها حق واصبر نفسك على ذلك، واجتنب الأشغال عند حضور الصلوات واكتب الى عمالك بالمدائن والقرى وحيث كانوا «**إنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى المُؤمِنينَ كِتَاباً مَوْقُوْتاً**»(١) و«**إنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ وَلَذِكرُ اللهِ أَكْبَرُ**»(٢) فإنَّه من يضيع الصلاة فهو لما سواها من شرائع الاسلام أشد تضييعا. ثم أكثر تعاهد شرائع الاسلام. ومر أهل العلم والفقه من جندك فلينشروا ما علمهم الله من ذلك، وليتحدثوا به في مساجدهم. والسلام عليك(٣).

عرى الدين واوقات الصلوات

الحث على الصلاة

وهو لا يكتفى بالكتب يرسلها الى العمال وأمراء الاجناد يدعوهم الى نشر العلم والفقه بل يبعث المعلمين الى البدو، فمن أولئك يزيد بن أبى مالك الدمشقي والحارث بن يمجد الاشعرى وأجرى عليهما رزقا فأمَّا يزيد

رزق المعلمين

---

١ ــ النساء الاية ١٠٢.

٢ ــ العنكبوت الاية ٤٥.

٣ ــ ابن عبد الحكم ٦٧ وابن الجوزى ٩٤ جزء منه.

فقبل وأما الحارث فأبى أن يقبل فكتب الى عمر بن عبد العزيز بذلك فكتب عمر: إنَّا لا نعلم بما يصنع يزيد بأسا ــ (أى في أخذ الأجر على التعليم) وأكثر الله فينا مثل الحارث بن يمجد(١) ــ لأنَّه احتسب عمله لله ولم يتخذ عليه أجراً.

التفرغ للعلم

ونظر عمر فرأى أنَّ الأمة في حاجة الى علمائها وفقهائها وقرائها ومحدثيها، وليتفرغوا لبث علمهم وفقههم وصلاحهم بين الناس أمر ولا ته بإعطاء هؤلاء لئلا يشغلوا بطلب الدنيا عن العلم، فكتب الى والى حمص: انظر الى القوم الذين نصبوا أنفسهم للفقه وحبسوها في المسجد عن طلب الدنيا فأعط كل رجل منهم مائة دينار يستعينون بها على ما هم عليه من بيت المال حين يأتيك كتابى هذا، وإنَّ خير الخير أعجله والسلام عليك(٢). وفي خبر آخر أنَّه كتب اليه، أن مُر لاهل الصلاح من بيت المال بما يغنيهم لئلا يشغلهم شيء عن تلاوة القرآن وما حملوا من الأحاديث(٢).

و يقول ابن كثير «وقد كان عمر رحمه الله يعطى من انقطع الى المسجد الجامع من بلده وغيرها للفقه ونشر العلم وتلاوة القرآن في كل عام من بيت المال مائة دينار(٣).

استعانته بأهل القرآن

وكان لاعتزازه بأهل القرآن والعلم لا يستعمل غيرهم، وكتب الى عماله أن لا يستعمل على الأعمال إلاّ أهل القرآن فإن لم يكن عندهم خير فغيرهم أولا أن لا يكون عنده خير(٣)».

و يبعث نافعا مولى ابن عمر وحامل علمه الى مصر ليعلم الناس السنن(٤). وقد مر معنا بعثه الفقهاء الى افريقية لينشروا الإسلام والعلم بين البربر.

---

١ ــ الاموال ٣٧٢ وابن عبد الحكم ١٣٧ وابن الجوزى ٧٤.

٢ ــ الجمهرة ٢/٣٣٤ ابن الجوزى ٩٥، ١٠٣.

٣ ــ البداية والنهاية ٩/٢٣٢ ابن الجوزى ١٠٠ باختلاف.

٤ ــ البداية والنهاية ٩/٣٥٩.

و يريد عمر أن يظل الناس بعد له ورأفته حيثما كانوا في هذه الدولة الواسعة الأرجاء فيكتب الى سليمان بن أبي السرى ــ عامله على خراسان ــ أن اعمل خانات في بلادك فمن مر بك من المسلمين فأقروهم يوما وليلة وتعهدوا دوابهم فمن كانت به علة فأقروه يومين وليلتين، فإن كان منقطعا به فقووه بما يصل به الى بلده(١).

تزمين الناس

وكان عمر رحمه الله يزمّن الناس في العطاء (أى يقدر أعمارهم ولعله أول من فعل ذلك) فقد كان رجل يقال له عَرّام بن المنذر قد أدرك الجاهلية وأدرك عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه فدخل على عمر ليزمن فقال له: ما زمانتك؟ أى متى ولدت؟ فقال:

ووالله ما أدرى أأدركت أمة ... على عهد ذى القرنين أم كنت أقدما
متى تنزعا عنى القميص تبينا ... جناجن(٢) لم يكسين لحما ولا دما

فقال عمر: ويحكم دعوا هذا وزمنوا فإنه لا يدرى متى ميلاده(٣). لعل هذا التزمين لإعفاء من لا يستطيع الحرب لكبر السن من الجندية.

و يقولون «في عهد عمر بن عبد العزيز: زيد في عطايا الناس عامة»(٤).

اداء الامانات والصداق

و يرى عمر بنظرته الفاحصة أن هناك أصنافاً من الناس في حاجة الى المال وقد لا يستطيعون أن يطالبوا به، فيرسل الى ولاته الكتب «من كانت عليه أمانة لا يقدر على أدائها فأعطوه من مال الله، ومن تزوج امرأة

---

١ ــ الطبرى ٨/١٣٨.
٢ ــ الجناجن ــ عظام الصدر.
٣ ــ الامالى للقالى ٣/٧٠.
٤ ــ النجوم الزاهرة ٢/٢٣٨.

فلم يقدر أن يسوق إليها صداقها فأعطوه من مال الله(١).

و يكتب الى عبد الحميد بن عبد الرحمن «أن انظر كل من ادّان في غير سفه ولا سرف فاقض عنه. فكتب اليه إنّي قد قضيت عنهم و بقى في بيت مال المسلمين مال. فكتب اليه «أن انظر كل بكر ليس له مال فشاء أن تزوجه فزوجه وأصدق عنه، فكتب اليه: إنّى قد زوجت كل من وجدت وقد بقى في بيت مال المسلمين مال. «فكتب اليه بعد مخرج هذا: أن انظر من كانت عليه جزية فضعف عن أرضه فأسلفه ما يقوى به على عمل أرضه فانا لا نريدهم لعام ولا لعامين(٢).

ولأهل الذمة أيضا

ولم ينس عمر رغم كثرة مشاغله طائفة مسلوبة الحرية وهي طائفة المسجونين، فهم وإن أخطأوا فدخلوا السجون ليلاقوا جزاء أخطائهم فليست أخطاؤهم بمسقطة حقوقهم في بيت مال المسلمين ولا مزيلة عنهم مسئولية عمر، فقد قال أبو بكر بن حزم واليه على المدينة. كنا نخرج ديوان أهل السجون فيخرجون الى أعطيتهم بكتاب عمر بن عبد العزيز عدا عما كان يأمر به لهم من رزق وكسوة وطعام.

والمسجونين

و يكتب عمر اليه «من كان غائبا قريب الغيبة فأعط أهل ديوانه، ومن كان منقطع الغيبة فاعزل عطاءه الى أن يقدم أو يأتى نعيّه أو يوكل عندك بوكالة ببينة على حياته فادفعه الى وكيله(٣).

والغائبون

وهكذا رأى عمر بن عبد العزيز أنه على صراط مستقيم، وآلى على نفسه أن يتبع الجور حينما وجد وأنّى كان، وأن يرد الحق الى نصابه، وأن يقيم مجتمعا تسوده الكفاية والعدل، ونادى في الناس أن يدلوا على الحق

دعوة الى كشف الحقائق

---

١ ــ الاموال ٣٥٧.

٢ ــ (١)، ابن عبد الحكم ٥٧ باختلاف.

٣ ــ الطبقات ٥/٢٥٧.

الضائع ليرده الى أصحابه، بل ورغب في كشف كل جور خفى بالأموال مع حرصه على أموال المسلمين فنادى مناديه في الموسم «وأيُّما وارد ورد في أمر يصلح الله به خاصا أو عاما من هذا الدين فله ما بين مائتى دينار الى ثلاث مائة دينار على قدر ما نوى من الحسنة وتجشم من المشقة، فرحم الله امرأ لم يتعاظمه سفر يحيى به الله حقا لمن وراءه(١). ثم هو على الرغم من حرصه على مال الأمة وضنه به إلاّ عليها يفيض على عماله و يعطيهم الرواتب الضخمة بل و يهب لبعضهم مبلغا كبيرا جزاء إخلاصه في عمله وحرصه على راحة الأمة، فقد دخل عليه ابن أبى زكريا فقال: ياأمير المؤمنين قد بلغنى أنّك ترزق العامل من عمالك ثلا ثمائة دينار قال: نعم قال: ولم ذلك؟ قال: أردت أن أغنيهم عن الخيانة(٢).

رواتب العمال

وهو يجيز عبد الحميد بن عبد الرحمن واليه على الكوفة عشرة آلاف درهم(٣). وهو مع هذا حريص أشد الحرص على كل درهم من بيت مال المسلمين أن يذهب في غير حق، فقد كتب اليه وهب بن منبه(٤) أمين بيت مال اليمن «إنى فقدت من بيت مال اليمن دنانير، فكتب اليه عمر: أما بعد فإنّى لست أتهم دينك ولا أمانتك ولكنى أتهم تضييعك وتفريطك وإنّما أنا حجيج المسلمين في مالهم وإنّما لأشحهم يمينك فاحلف لهم والسلام»(٥).

مع الاسرى وفداؤهم

ثم مد عمر بن عبد العزيز بصره خارج حدود الدولة الإسلامية فوجد أن هناك أناسا من المسلمين ومن أهل ذمتهم يعيشون بعيدين عن أهليهم

---

١ ــ الحلية ٥/٢٣٣ ابن الجوزى ٧٢، ٧٣.

٢ ــ ابن عبد الحكم ٣٩، ابن الجوزى ١٦٤.

٣ ــ الطبقات ٥/٢٩١.

٤ ــ وهب بن مُنَبِّه من الابناء ــ أى من اصل فارسى كان من العلماء بكتب السابقين مات بصنعاء سنة ١١٠ الطبقات ٥/٣٩٥.

٥ ــ ابن عبد الحكم ٥٨، ابن الجوزى ٨٥.

وأوطانهم في شقاء وتعاسة تحت سيطرة أعدائهم حيث وقعوا أسرى في أيديهم، ورأى أن واجبا عليه فداؤهم واستخلاصهم مهما كلفه ذلك من مال، لأنَّ لهؤلاء حقا في هذا المال وهم ما اوقعوا أسرى إلاَّ دفاعا عن عقيدتهم وأمتهم وأوطانهم ومصادر بيت مالهم. وواجب بيت المال أن يسعى في خلاصهم ولو أفرغت خزائنه، فأرسل الى الأسارى في القسطنطينية: أما بعد فإنكم تعدون أنفسكم أسارى ولستم أسارى معاذ الله أنتم الحبساء في سبيل الله. وأعلموا أنّى لست أقسم شيئا بين رعيتى إلاّ خصصت أهلكم بأوفر ذلك وأطيبه، وقد بعثت إليكم خمسة دنانير خمسة دنانير ولولا أنى خشيت إن زدتكم أن يحبسه عليكم طاغية الروم لزدتكم، وقد بعثت إليكم فلان بن فلان يفادى صغيركم وكبيركم ذكركم وأنثاكم حركم ومملوككم بما يسأل فأبشروا ثم أبشروا»(١).

ثم هو يكتب الى عماله منشورا عاما: فادوا بأسارى المسلمين وإن أحاط ذلك بجميع أموالكم(٢). وليس الفداء عند عمر مقصورا على أسرى المسلمين الأحرار أو الذكور بل إن المسلمين أحرارا وعبيدا ذكوراً وإناثاً وأهل ذمتهم لهم الحق في الفداء جميعا دون تفريق، فقد قال لعمرو ابن قيس وقد بعثه على الصائفة: وفاد من قدرت عليه من المسلمين وأرقائهم وأهل ذمتهم(٣).

و يكتب لربيعة بن عطاء و بعث معه بمال الى ساحل عدن: أن افتد الرجل والمرأة والعبد والذمى(٤).

و يعطى رجلا مالا يخرج به لفداء الأسارى فيقول، الرجل: ياأمير

---

١ — ابن عبد الحكم ١٤٠ الجمهرة ٥/٣٦٢، الاغانى ٨/١٥١.

٢ — الحلية ٥/٣١١، ابن الجوزى ١٠٠.

٣ — الطبقات ٥/٢٧٢.

٤ — الطبقات ٥/٢٦٠.

المؤمنين إنّا سنجد أناسا فروا الى العدو طوعا أفنفديهم؟ قال نعم: قال وعبيدا فروا طوعا وإماء؟ فقال: افدوهم. قال: ولم يذكر له صنف في الناس من جند المسلمين يومئذ إلاّ أمر بفدائهم(١).

نداء يومي

ومع كل هذه النظرة الشاملة المحيطة كان مناديه ينادى كل يوم: أين الغارمون؟ أين الناكحون؟ أين المساكين أين اليتامى؟ حتى أغنى كلا من هؤلاء(٢).

والشعراء؟

فكل مسلم له حق في بيت المال يأخذه وأما من لاحق له فلا يطمع منه بدرهم مهما حاول، فالشعراء في عهد عمر بن عبد العزيز لم تكن لهم سوق قائمة لأنه إنما تروج بضاعتهم وتنفق على من يعجبهم المدح الكاذب و يرضيهم التزلف الممقوت، وأمّا عمر بن عبد العزيز فكان أعلم الناس بنفسه فلم يكن ليخدعه مادح عن نفسه فقد وفدت اليه الشعراء و وقفوا على بابه أياما فما سمح إلاّ لجرير فمدحه بقصيدته التى يقول فيها:

هذى الارامل قد قضيت حاجتها فمن لحاجة هذا الأرمل الذكر

فترقرقت عينا عمر وقال: إنك لتصف جهدك. فقال ما غاب عنى وعنك أشد.

من يستحق الفيء؟

فجهز الى الحجاز عيرا تحمل الطعام والكسى والعطايا يبث في فقرائهم. ثم قال لجرير: أخبرني أمِنَ المهاجرين أنت ياجرير؟ قال: لا. قال: فشبك بينك و بين الانصار رحم أو قرابة أو صهر؟ قال: لا. قال: فمن يقاتل على هذا الفيء أنت ويجلب على عدو المسلمين؟ قال: لا. قال: فلا أرى لك في شيء من هذا الفيء حقا.

---

١ ــ الاموال ١٨٨.

٢ ــ البداية والنهاية ٩/٢٢٤.

(وهكذا حدد عمر بن عبد العزيز من يستحقون من هذا الفيء وحصرهم، أما من عدا ذلك فليس لهم في مال الفيء حق، فعجبا لمن كان قبل عمر ولمن جاء بعده من خلفاء بنى أمية كيف كانوا ينفقون مال الله في غير حق و يعطونه لمن لا يستحق).

فيقول جرير: بلى والله لقد فرض الله لى فيه حقا إن لم تدفعنى عنه قال: ويحك وما حقك؟ قال: ابن سبيل أتاك من شقة بعيدة فهو منقطع به على بابك ــ (فماذا كان الجواب؟) قال: إذا أعطيك. فدعا بعشرين دينارا فضلت من عطائه فقال هذه فضلت من عطائى، وإنَّما يعطى ابن السبيل من مال الرجل (اى لا يعطى من مال الله أو مال المسلمين ولعل عمر لم يقتنع أنَّه ابن سبيل حقا لأن لابن السبيل نصيبا من الزكاة) ولو فضل أكثر من هذا أعطيتك فخذها فإن شئت فأحمد وان شئت فذم. قال: بل أحمد ياأمير المؤمنين.

فخرج فجهشت اليه الشعراء ــ أى أسرعوا اليه ــ وقالوا ما وراءك ياأبا حزرة ــ كنية جرير ــ قال: يلحق الرجل منكم بمطيته فإنى خرجت من عند رجل يعطى الفقراء ولا يعطى الشعراء(١). وقد رأينا في مبحث سابق وفود دكين الراجز عليه وإعطائه ألف درهم من عطائه. وتذكر بعض كتب الأدب أن الشعراء قد وفدوا عليه أكثر من مرة وأنَّه ما كان يعطيهم إلا من صلب ماله وما كان يعطى إلا من كان يشعر شعره بتقواه(٢).

---

١ ــ الحلية ٥/٣٢٨ والعقد الفريد ٢/٩٩، ابن الجوزى ١٦٦ــ١٦٧.

٢ ــ يراجع في ذلك العقد الفريد ٨٤ــ٢/٩٦.

و بعد أن أظل عمر بن عبد العزيز الأمة كلها بعدله، ورد إليها مالها وحافظ على نهرها بعد أن رده الى مجراه الأ ول، فهل كان عمر يفضل نفسه عن الناس بشيء؟ أو هل كان يعتبر بيت مال المسلمين بيت ماله الخاص كما كان يفعل حكام بنى أمية قبله؟ لقد مر معنا في مباحث سابقة(١) أنَّه لم يكن يرزأ بيت المال شيئا ولم يأخذ على عمله للمسلمين أجرا، ولم يكن يأخذ سوى عطائه مع المسلمين. بل إن ورع عمر بن عبد العزيز وعفته عن المال العام بلغا حدا لم يصل اليه أحد بعده ولا قبله حاشا رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفاءه الراشدين.

---

١ ــ يراجع مبحثا الزهد الحقيقي والورع المثالى.

المبحث الثالث
الصدقة ومعيار الحاجة عند عمر

«الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أقمت فريضة من فرائضه»
عمر بن عبد العزيز(١)

الزكاة هى الركن الثالث من أركان الإسلام بعد الشهادتين والصلاة وهى فريضة محكمة تجعل للفقير حقا في مال الغنى واجبا لا يجوز للغنيّ أن يستأثر به ويمنعه، وقد قاتل أبو بكر رضى الله عنه في أول خلافته مانعى الزكاة كما قاتل المرتدين عن الإسلام. الزكاة

وقد اعتنى الإسلام بالزكاة وجمعها منذ فرضها الله عز وجل، و بين رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاديرها تحديدا لم يترك لاجتهاد مجتهد أو مروءة غنيّ، كما بين القرآن الكريم مصارفها تحديدا كذلك.

ففرضت الزكاة في المال والحرث والماشية، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذها من أربابها و يعطيها لأصحابها سواء كانت زكاة مال ــ أى ذهب وفضة ومقدارها ربع العشر أى ٢ر٥٪ فقط. أم زكاة حرث ــ أى زرع ــ أم زكاة مواشٍ من إبل و بقر وغنم، وقد فصلت السنّة وكتب الفقه مقدارها في ذلك تفصيلا دقيقا.

وقد أخذها أبو بكر رضوان الله عليه بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقاتل عليها من منعها كما رأينا. وأخذها عمر بن الخطاب من بعده ــ وأطلق على زكاة المال اسم زكاة الأموال الباطنة. وعلى زكاة الحرث والماشية زكاة الأموال الظاهرة. في عهد الراشدين

ولما جاء عثمان بن عفان رضى الله عنه وكثر المال في أيدي الناس

---

١ ــ الطبقات ٥/٢٧٧.

ترك زكاة الأموال الباطنة يخرجها أربابها تبعا لإيمانهم و يقظة ضمائرهم، وأمر عماله بجمع زكاة الأموال الظاهرة فقط.

ولما جاء بنو أمية لم يعتنوا بجمع الزكاة وصيانتها وتوزيعها التوزيع العادل. وضعف في نفس الوقت الوازع الإيمانى عند الناس فكادت هذه الفريضة تهمل.

وعمر بن عبد العزيز

ولكن لما جاء عمر بن عبد العزيز أخذ الصدقة من حقها وأعطاها في حقها وأعطى العاملين بقدر عمالتهم عليها مثل ما يعطى مثلهم، وقال: الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أقمت فريضة من فرائضه(١).

وعمم كتبه الى عماله و ولاته بجمع الزكاة والحرص عليها وإعطائها لمستحقيها في أماكنها ومازاد فكان يرسل لأقرب جهة محتاجة أو لبيت المال العام في دمشق حيث كان للزكاة بيت مال على حدة لا يخلط ماله بغيره من الأموال. فقد قال في منشور عام الى عماله جميعا ــ ومر معنا بعض منه في المبحث السالف: وأما الصدقات فإنَّ الله تبارك وتعالى فرضها وسمى أهلها حين طعن فيها أناس و بلغوا فيها تهمة نبيهم فقال **«وَمِنهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتُ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْها رَضُوْا وإِنْ لَمْ يُعْطَوا مِنْهَا إذا هُمْ يَسْخَطُونَ»**(٢) فقال الله تبارك وتعالى **«إِنَّما الصَّدَقَاتُ لِلفُقَراء وَالمَسَاكِينِ والعَامِلِيْنَ عَلَيْهَا وَالمُؤلَّفَة قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ والغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ الله وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ الله والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ»**(٣)، فبين رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقة الأموال: الحرث والمواشى والذهب والفضة فتؤخذ الصدقات كما بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وفرض لا يظلمون ولا يتعدى عليهم ولا يحابى بها قريب ولا يمنعها أهلها، ثم تجعل الى مرضيين من أهل الإسلام

اعتناء بالزكاة والصدقات اخذا واعطاء

١ ــ الطبقات ٥/٢٧٧.
٢ ــ التوبة الآية ٥٨.
٣ ــ التوبة الآية ٦٠.

فيجعلونها حيث أمرهم الله يحملهم الإمام من ذلك على ما حمل و ينزه نفسه من ذلك من أمر قد أكثر فيها على الأئمة(١).

و يقول في كتاب آخر: ثم فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم الزكاة على أمر الله في العين (الذهب والفضة) ــ والحرث والماشية و بين مواضع ذلك فقال «**إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ**» الخ الآية(٢) حتى استقامت سنتها في الأخذ حين تؤخذ وفي القسمة حين تقسم فعمل بها المسلمون في جزيرة العرب حتى علموها أوكل ذى عقل منهم(٣). وطبق عمر بن عبد العزيز ذلك وأتبع القول الفعل فكتب الى عماله: أن صدقوا الناس على مياههم و بأفنيتهم»(٤) رحمة بالناس.

وكتب الى عامله على مصر «أن خذ من المسلمين من كل أربعين دينارا ومن أهل الكتاب من كل عشرين دينارا إذا قبلوها في كل عام، فإنّه حدثنى من سمعه عمن سمعه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم(٥). (وما يؤخذ من أهل الكتاب لا يضم الى مال الزكاة إنّما يضم الى مال الفيء).

الزكاة مرة واحدة في العام

ثم يكتب الى عدى بن أرطاة ــ واليه على البصرة ــ أن يأخذ العشور ثم يكتب بما يأخذ منهم البراءة ولا يأخذ منهم من ذلك المال ولا من ربحه إلاّ زكاة سنة واحدة و يأخذ من غير ذلك المال إنّ مر به(٥).

---

١ ــ ابن عبد الحكم ٨٠.
٢ ــ المرجع السابق ٥٦.
٣ ــ الاموال ٥٥٥.
٤ ــ النجوم الزاهرة ١/٢٣٧.
٥ ــ الاموال ٧٨٢.

فالزكاة مرة واحدة في العام ومن أعطاها يأخذ براءة ــ أى إيصالاً بالدفع حتى لا يطالب مرة ثانية.

وقد كان من قبل عمر بن عبد العزيز من بنى أمية يجعلون على الجسور والمعابر جباة يجبون العشور و يأخذون الزكاة وكانوا كثيرا ما يعتدون في الأخذ والإعطاء، فمنع عمر ذلك وجعل بدلا منه رجلا في كل مدينة إذ كتب «إنى ظننت إن جعل العمال على الجسور والمعابر أن يأخذوا الصدقة على وجهها فتعدى عمال السوء غير ما أمروا به، وقد رأيت أن أجعل في كل مدينة رجلا يأخذ الزكاة من أهلها فخلوا سبيل الناس في الجسور والمعابر(١).

رحمة في الجباية

و يكتب الى عماله أولئك «فمن جاءك بصدقة فاقبلها منه ومن لم يأتك بها فالله حسيبه»(٢).

و يقولون إنّ مما كان عمال عمر بن عبد العزيز يصنعون بالمدينة في أخذ الصدقة أن يفرق المال ــ (المراد بالمال هنا المواشي) ــ ثلاث فرق، ثم يختار صاحبه ثلثا ثم يأخذ صاحب الصدقة حاجته من الثلث الثاني: قال أبو عبيد: وكذلك يروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه(٣).

وإنّما يقسم المال ثلاثة أقسام حتى لا يأخذ المصدق ــ أى العامل ــ أجود الماشية في الزكاة لأن المطلوب أن يأخذ من أوساطها لا النفيس منها ولا الردىء.

ولكى يرد الصدقة الى وضعها السليم و يصحح مسارها الذى انحرف به ولاة بنى مروان يكتب الى عروة بن محمد ــ عامله على اليمن ــ أما

---

١ ــ الطبقات ٥/٢٧٩.

٢ ــ الاموال ٧٠٤.

٣ ــ الاموال ٥٥٦.

بعد فقد جاءنى كتابك تذكر أنَّ من كان قبلك من العمال قد وضعوا على أهل اليمن صدقاتهم وظائف ــ (أى ضريبة محددة كل عام)ــ. إن افتقروا لم ينقصوا وإن استغنوا زيد عليهم وتؤامرنى في ذلك ــ ولعمرى إنَّ هذا للجور حق الجور ــ فإذا جاءك كتابى هذا فخذهم بما ترى عليهم من الحق ثم اقسم ذلك على فقرائهم ــ وأقعد على طريق الحاج قوما ترضاهم وترضى دينهم وأمانتهم يقوون الضعيف و يغنون الفقير، فوالله لو لم يأتنى من قبلك إلا كف لرأيته من الله قسما عظيما والسلام(١).

الاخذ عند المنبع

وكان رحمه الله «إذا أعطى الرجل عمالته أخذ منها الزكاة، وإذا رد المظالم أخذ منها الزكاة، وكان يأخذ الزكاة من الأعطية إذا خرجت لأصحابها(٢)، لقد حرص عمر بن عبد العزيز على أخذ الزكاة من أربابها سواء كانت من الأموال الظاهرة أم من الأموال الباطنة ولكنه بالنسبة للأموال الباطنة اكتفى بدعوة الناس لإخراج الزكاة وإعطائها العمال في كل مدينة.

ولكن لمن كان يعطى عمر بن عبد العزيز الزكاة؟

لقد مر معنا أنّ الله عز وجل قد حدد مصارف الصدقات في الآية ٦٠ من سورة التوبة، فلا يجوز لحاكم مسلم أن يمنع أحدا من أولئك الأصناف الثمانية عند وجوده كمالا يجوز له أن يخرجها الى غيرهم. ولا يجوز له أن يزيد في مقدارها ولا ينقص منه، وعمر بن عبد العزيز كخليفة ملتزم بشرع الله و باتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان ليخرج عن ذلك أبدا.

---

١ ــ ابن عبد الحكم ٥٦.

٢ ــ الاموال ٥٩٠.

مواضع الصدقات

ولما كانت القاعدة العامة في الزكاة ــ تؤخذ من أغنيائهم وترد في فقرائهم(١) فبناء على ذلك كتب الى عماله «أن ضعوا شطر الصدقة ــ قال أبو عبيد يعنى في مواضعها ــ وابعثوا الى بشطرها، ثم كتب في العام المقبل أن ضعوها كلها(٢). فقد كانت الزكاة تؤخذ من أغنياء الإقليم فترد على فقرائه، فإذا استغنوا وزادت عن الحاجة حملت الى غير ذلك الأقليم أو الى بيت المال العام، وأما إذا كانت الحاجة لم تسد فيجب أن ترد الى الإقليم الذى أخذت منه، وهكذا فعل عمر بن عبد العزيز حينما علم أن زكاة حملت من الرى(٣) الى الكوفة فردها عمر بن عبد العزيز الى الرى(٤). وقد حمل عماله على ذلك. يقول أحد العاملين على الزكاة وقد بعثه عمر على صدقات بنى تغلب، وكان عهد اليه أن يقبضها ثم يردها على فقرائهم قال: كنت آتى الحى وأدعوهم بأموالهم فأقبض ما كان فيهم ثم أدعو فقراءهم وأقسمها فيهم حتى إنّه ليصيب الرجل الفريضتين أو الثلاث، فما أفارق الحى وفيهم فقير، ثم آتى الحى الآخر فأصنع بهم كذلك فما أنصرف إليه بدرهم(٥).

كل اقليم زكاته فيه

و يعلم أنَّ عامل عدى بن ارطاة على عُمان قد حمل ثمن عشور التمر والحب الى البصرة، فيكتب لواليه على البصرة فيقول: أمَّا بعد فإنى كنت كتبت الى عمرو بن عبد الله أن يقسم ما وجد بعُمان من عشور التمر والحب في فقراء أهلها ومن سقط إليها من أهل البادية، ومن أضافته الحاجة والمسكنة وانقطاع السبيل، فكتب الى أنه سأل عاملك قبله عن ذلك الطعام والتمر فذكر أنّه قد باعه وحمل اليك ثمنه، فاردد الى عمرو ما

---

١ ــ مختصر صحيح مسلم ١/١٣٦ والاموال ٧٨٣.

٢ ــ الاموال ٧٨٢.

٣ ــ الرى: مدينة مكانها الان طهران عاصمة ايران.

٤ ــ الاموال ٧٨٣.

٥ ــ ابن الجوزى ٨٧.

كان حمل اليك عاملك على عمان من ثمن التمر والحب ليضعه في المواضع التى أمرته بها و يصرفه فيها إن شاء الله والسلام(١).

صدقة الفطر

ولم يكتف عمر بن عبد العزيز بزكاة المال يجمعها و يعطيها لأ ربابها بل أحيا سنة أميتت منذ زمن بعيد وهي جمع صدقة الفطر التي يجب ان يخرجها الناس طهرة لصيامهم من الرفث واللغو، فقد أصدر أمراً عاما لولاته يأمرهم فيه بجمع صدقة الفطر من الناس فقال: مروا من كان قبلكم ألا يبقى أحد من أحرارهم ولا مماليكهم صغيرا ولا كبيرا ذكرا أو أنثى إلاّ أخرج عنه صدقة فطر رمضان ــ مدين من قمح أو صاعا من تمر أو قيمة ذلك نصف درهم ــ فأما أهل العطاء فيؤخذ ذلك من أعطيائهم عن أنفسهم وعيالاتهم، واستعملوا في ذلك رجلين من أهل الأمانة ليقبضا ما اجتمع من ذلك ثم يقسمانه في مساكين أهل الحاضرة ولا يقسم على أهل البادية(٢).

ويخطب في الناس فيذكر صدقة الفطر ومقدارها فيقول «على كل إنسان صاع تمرا أو مدان من حنطة، وقال: إنه لا صلاة لمن لا زكاة له، ثم قسمها يوم الفطر، وكان يؤتى بالدقيق والسويق مدين مدين فيقبله»(٣).

الحكام قدوة للحاكمين

فهو يسارع في إحياء السنة ويحث الناس على طاعة الله واتباع سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ثم هو يسارع الى إخراج هذه الصدقات لأ ربابها ومصارفها و يلوم من يؤخرها إذ يكتب اليه بعض ولاته: إنَّ الناس لما سمعوا بولايتك تسارعوا الى أداء الزكاة ــ زكاة الفطر ــ فقد اجتمع من ذلك شيء كثير ولا أحب أن أحدث فيها شيئا حتى تكتب الى برأيك.

---

١ ــ فتوح البلدان ٩٤، الاسلام والحضارة ١٧٩.

٢ ــ العقد الفريد ٤/٤٣٦ والجمهرة ٢/٣٥٣.

٣ ــ الطبقات ٥/٢٦٨.

فكتب إليه عمر لائما: لعمرى ما وجدونى وإيّاك على ما ظنوا، ما حبسك إياها الى اليوم؟ أخرجها حين تنظر في كتابي(١).

مصارف الصدقات

و بعد أن أحيا عمر بن عبد العزيز هذه الفريضة ونظم جبايتها نظم كذلك إخراجها الى مستحقيها. وقد عرفنا أنَّ المستحقين لأموال الزكاة إنّما هم المصارف الثمانية المذكورون في قوله تعالى «**إِنَّما الصَّدَقَاتُ لِلفُقَرَاءِ وَالمَسَاكِيْنِ..**»الخ الآية(٢).

و بالتالي فإن عمر بن عبد العزيز حريص كل الحرص على إعطاء هذه الأموال لهؤلاء الأصناف فاتخذ دار الطعام للمساكين والفقراء وأبناء السبيل، وتقدم لأهله: إياكم أن تصيبوا من هذه الدار شيئا من طعامها وإنّما هو للفقراء والمساكين وابن السبيل(٣).

اعطاء المحتاجين

و يقول رجل من حرسه «إنَّ عمر بن عبد العزيز أعطانى مالا اتصدق به بالرقة فقال لا تقسمه إلا على نهر جار، فقلت له: يأتينى من لا أعرفه فمن أعطى؟ قال: من مد يده إليك»(٤).

نعم ليس على المعطى أن يعمل مسحا اجتماعيا ليتبين المحتاج من غير المحتاج فقد كان الناس في ذلك الوقت يأنفون من مد أيديهم من غير حاجة وأما إذ خربت الذمم وطغى حب المادة على الناس فعلى المسئول عن توزيع الزكاة أن يدرس أحوال الناس الذين يدّعون الحاجة ليعطيهم و يغنيهم، ويحرم من مال الزكاة من يدّعون الفقر وهم في الحقيقة أغنياء.

ومن مصارف الزكاة الغارمون وهم أولئك الذين استدانوا وتحملوا ثم

---

١ ــ الجمهرة ٢/٣٥١ ابن الجوزى ٨٥.

٢ ــ التوبة الآية ٦٠.

٣ ــ الطبقات ٥/٢٧٩.

٤ ــ الحلية ٥/٣٣٢ ابن الجوزى في خبر فيه طول ٥٨.

لم يستطيعوا أداء، فأولئك لهم سهمهم من مال الزكاة، وقد نفذ عمر بن عبد العزيز أمر الله بإعطائه أولئك وحث عماله على إعطائهم، ولكن من هم الغارمون المستحقون؟ وهل كل إنسان أدّان بحق أو بباطل ثم لم يستطع الأداء يعطى؟ لقد بين عمر بن عبد العزيز وجه الحق في ذلك حيث يقول لعبد الحميد بن عبد الرحمن: أن انظر من ادان في غير سفه ولا سرف فاقض عنه(١).

مع الغارمين

فالغارم المستحق إذاً هو من ادان في غير سفه ولا سرف أي كانت استدانته لحمالة تحملها أو نفقته أنفقتها على نفسه أو أهله لم يخالف فيها شرعا ولم ينفق ماله تبذيرا وإسرافاً.

وحينما كتب الى عماله: أن اقضوا عن الغارمين «كتبوا اليه: إنّا نجد الرجل له المسكن والخادم وله الفرس وله الأثاث في بيته.

معيار الحاجة عند عمر

(فيكتب اليهم عمر مبينا الحد الادنى لحياة المسلم لكى يعيش عزيزا كريما) لابد للرجل من المسلمين من مسكن يأوى إليه رأسه، وخادم يكفيه مهنته وفرس يجاهد عليه عدوه وأثاث في بيته، ومع ذلك فهو غارم فاقضوا عنه ما عليه من الدين(٢).

وما يجب ان توفره الدولة لمواطنيها

إذاً فهذا هو الحد الادنى لكى يحيا المؤمن عزيزا كريما في أرض الاسلام فليس وجود المسكن والخادم والفرس والأثاث دليل الغنى وعدم الحاجة بل هي ضروريات الحياة يجب على الدولة أن توفرها لكل مواطن.

ولم يكن عمر بن عبد العزيز يفضل في الصدقة أحدا على أحد من المسلمين، ولم يكن يخص بها العرب وحدهم ويحرم منها الموالى، فيكتب الى عماله في صدقة كان أمر بها «أن اجعلوها في العرب والموالى أولى

العرب والموالى في الزكاة سواء

---

١ ــ الاموال ٣٥٧.

٢ ــ ابن عبد الحكم ١٤٠، الاموال ٧٣٨.

العتاقة»(١) فكل مسلم محتاج له حق فيها سواء العربى والمولى لأن كل مسلم يجب عليه إخراج الزكاة إذا كان مالكا لنصابها سواء كان عربيا أم مولى.

عزل سهم الغارمين

وكان عمر رحمه الله جعل للصدقة بيت مال على حدة، فكان إذا جاءه أحد الأصناف الثمانية أعطاه من سهمه، وقد يفهم من بعض النصوص أنه كان يعزل سهم الغارمين. فقد وفد عليه عاصم بن عمر بن قتادة و بشير بن محمد بن عبد الله بن زيد في خلافته فدخلا عليه بخناصرة فذكرا دينا عليهما فقضى عن كل واحد منهما أربعمائة دينار، فخرج الصك من صدقة كلب مما عزل في بيت المال ــ و يقول محمد بن عمر(٢). وكان ذلك العزل قدم به لم يوجد أحد منهم يقضى عنه دين فأدخل فضله بيت المال عزلا لانه يقضى به عن الديان، فهذا وجهه(٣).

و يقول عيسى بن أبى عطاء شهدت عمر بن عبد العزيز قضى عن غارم خمسة وسبعين دينارا من سهم الغارمين(٤).

و يقدم عليه القاسم بن مخيمرة(٥) فيسأله قضاء دينه، فقال عمر: كم دينك؟ قال: تسعون دينارا. قال: قد قضينا عنك من سهم الغارمين. قال: ياأمير المؤمنين أغننى عن التجارة. قال: بماذا؟ قال: بفريضة. قال: قد فرضت لك في ستين وأمرنا لك بمسكن وخادم(٥).

---

١ ــ الاموال ٣٣٦.

٢ ــ ابن واقد الاسلمى كان عالما بالمغازى واختلاف الناس واحاديثهم وكان قاضيا بعسكر المهدى، الطبقات ٧/٧٧.

٣ ــ الطبقات ٥/٢٥٧.

٤ ــ القاسم بن مخيمرة الهمداني كان ثقة وله احاديث. الطبقات ٦/٢١١ فهومن العلماء.

٥ ــ الطبقات ٥/٢٥٧.

و يـقـول محـمـد بن سهل بن أبى حثمة قضى عنى عمر بن عبد العزيز وهو خليفة خمسين ومائتى دينار من صدقات بنى كلاب وكتب بها(١).

مع المؤلفة قلوبهم

ولما كان من مصارف الزكاة سهم للمؤلفة قلوبهم ــ وهم الذين يرجى بإسلامهم إسلام قومهم أو نفع عام للإسلام وأهله. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أعطى هؤلاء المؤلفة قلوبهم من زعماء العرب، وأعطاهم كذلك أبو بكر، ولكن لما عز الإسلام منع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذلك عنهم، ولكن عمر بن عبد العزيز وجد أن الإسلام في حاجة لأمثال هؤلاء فأعطى المال من يستألف على الإسلام، وأعطى بطريقا(٢) ألف دينار استألفه على الإسلام(٣).

ولم ينس عمر بن عبد العزيز المسجونين وحقهم في الزكاة فيكتب الى ولاته «لا تدعن في سجونكم أحدا من المسلمين في وثاق لا يستطيع أن يصلى قائما، ولا تبيتن في قيد إلاّ رجلا مطلوبا بدم، وأجروا عليهم من الصدقة ما يصلحهم في طعامهم وأدمهم(٤).

و يوصى في كتبه بالنظر الى أهل الحاجة بتنوع حاجاتهم و يقرأ كتابه في مسجد الكوفة: ومن كانت عليه أمانة لا يقدر على أدائها فأعطوه من مال الله، ومن تزوج فلم يقدر أن يسوق صداقها فأعطوه من مال الله(٥).

وهكذا أخذ عمر بن عبد العزيز الصدقات من حقها ووضعها في حقها لمستحقها. فما آثار ذلك في الأمة الإسلامية في تلك الدولة الواسعة؟ سأكتفي هنا بإيراد خمسة نصوص تعطينا صورة مشرقة عن آثار تطبيق

---

١ ــ الطبقات ٥/٢٥٧.
٢ ــ البطريق: هو البطريك رتبة دينية عند النصارى.
٣ ــ الطبقات ٥/٢٥٨.
٤ ــ الخراج لابى يوسف ١٥٠.
٥ ــ الطبقات ٥/٢٧٦.

الشريعة على الدولة والأمة:

١ ــ يقول رجل من ولد زيد بن الخطاب: إنما ولى عمر بن عبد العزيز سنتين ونصفا فذلك ثلاثون شهرا فما مات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول: اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء. فما يبرح حتى يرجع بماله يتذكر من يضعه فيهم فما يجده، فيرجع بماله قد أغنى الله على يد عمر ابن عبد العزيز الناس(١).

في المشرق

٢ ــ و يقول يحيى بن سعيد: بعثنى عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقية، فاقتضيتها وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقيرا ولم نجد من يأخذها منى، قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس فاشتريت بها رقابا فأعتقتهم وولاؤهم للمسلمين(٢). وعن مهاجر بن يزيد قال: بعثنا عمر ابن عبد العزيز فقسمنا الصدقة فيهم فلقد رأيتنا وإنّا لنصدق من العام القابل من كان يتصدق عليه(٣).

في المغرب

٣ ــ وعن محمد بن قيس قال: رأيت عمر بن عبد العزيز أمر بالصدقات أن تقسم في أهلها، فلقد رأيت من يتصدق عليه في العام القابل له إبل فيها صدقة(٣).

كانوا فقراء فاصبحوا أغنياء يتصدقون

٤ ــ وقال عمر بن أسيد والله ما مات عمر حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم و يقول: اجعلوا هٰذا حيث ترون فما يبرح حتى يرجع بماله كله قد أغنى عمر الناس(٤).

٥ ــ و يقدم على عمر بن عبد العزيز بعض أهل المدينة فجعل يسأل عن أهل المدينة فقال: ما فعل المساكين الذين كانوا يجلسون في مكان كذا

---

١ ــ ابن عبد الحكم ١٠٦، ابن الجوزى ٧٧.
٢ ــ ابن عبد الحكم ٥٩.
٣ ــ الطبقات ٥/٢٥٦
٤ ــ تاريخ الخلفاء ٢٣٥.

وكذا؟ قال قد قاموا منه ياأمير المؤمنين وأغناهم الله. وكان من أولئك المساكين من يبيع الخبط للمسافرين فالتمس ذلك منهم بعد فقالوا قد أغنانا الله عن بيعه بما يعطينا(١) عمر.

وهكذا فتطبيق شريعة الله على عباد الله يغنى العباد و يبعث في النفوس الطمأنينة والقناعة و يكثر البركة و ينمى الثروة الخاصة والعامة ويجعل من الأمة وحدة متماسكة قوية تظلها رحمة الله وتكلؤها عنايته، فيفيض الخير و يعم حتى لا يبقى هناك فقير محتاج ولا غنيّ بطر.

لقد كانت تجربة عمر بن عبد العزيز رائدة لكل حاكم يريد أن يعود بالأمة الى طريق الله. وسنرى في مبحث الرفاه في عهد عمر مزيدا من الأمثلة على نجاح تطبيق شريعة الله على عباد الله.

---

١ ــ ابن الجوزى ٧٦ــ٧٧.

الخبط: ورق ينفض بالمخابط ويجفف و يطحن بدقيق أوغيره و يوخف بالماء فتوجره الابل. القاموس ٢/٣٥٦.

الباب الرابع: الفصل الثاني
اثر سياسة عمر المالية في خزانة الدولة
المبحث الأول: هل سببت سياسة عمر المالية خرابا لبيت المال؟

«ولو أنَّ أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم
بركات من السماء والأرض»(١)

سياسة عمر الاقتصادية

لقد رد عمر بن عبد العزيز رحمه الله الحقوق لأصحابها، وحمل الأمة على شريعة الله وأبى إلاَّ أن تكون سياسته هذه عامة شاملة لكل طبقات الأمة مهما كلف ذلك الخزينة من مال. فأسقاطه الجزية عمن أسلم، وإلغاؤه المكوس والضرائب الظالمة المجحفة. وكفه أيدى الولاة والعمال عن الظلم وقبول الهدايا وأخذ الرشا، ورده الأموال المغتصبة لأربابها، وفرضه العطاء لمن يستحقه، وزيادته إياه وإعطاؤه المحرومين ما حرموه من سنين، ألا يحمل ذلك خزينة الدولة أمرا إدًا مع نقص وارداتها و يسبب لها عجزا ماليا يؤدي بالدولة الى الانهيار الاقتصادي؟.

ونظرة الاقتصاديين

هذه هي نظرة الاقتصاديين والماديين، فمن البدائه عندهم ومن المسلمات في حساباتهم أن زيادة الصرف مع نقص الدخل لابد وأن يؤدي الى العجز المالى فالانهيار الاقتصادي.

مع ولاته

وهذا ما خشيه بعض ولاة عمر بن عبد العزيز وأحسوا به، خاصة في مصر والعراق وخراسان لكثرة ما رد من المظالم وأسقط من الضرائب، وقد أرسل إليه أحد عماله قائلا: إنك قد أضررت ببيت المال ـــ أو نحوه فيرد عليه عمر: أعط ما فيه فإذا لم يبق فيه شيء فاملأه زبلا أو

---

١ ــ الاعراف الاية ٩٦.
٢ ــ الحلية ٥/٢٧٨ ابن الجوزى ٨٥.

وحلا(٢). «و يرسل اليه عدى بن أرطاة ــ واليه على البصرة ــ إنَّ الناس قد كثروا في الإسلام وخفت أن يقل الخراج. «فتأتيه الإجابة صريحة واضحة فهمت كتابك والله لوددت أنَّ الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت حراثين نأكل من كسب أيدينا(١). «بل إنَّ العجز قد وقع فعلا في خزينتى الكوفة ومصر، فهذا أبو الزناد كاتب والى الكوفة يقول «ولقد انفد بيت مال العراق في رد المظالم حتى حمل اليها من الشام»(٢).

بل إنَّ عامله على مصر حيان بن سريج يكتب له «أما بعد فان الإسلام قد أضر بالجزية حتى تسلفت من الحارث بن ثابتة عشرين ألف دينار أتممت بها عطاء أهل الديوان فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بقضائها فعل(٣).

(إذن وصل الأمر بخزانة مصر أن تصاب بعجز مالى حتى لا تستطيع أن تفى برواتب الموظفين، وحتى يضطر الوالى إلى الاستلاف من أحد التجار الأغنياء ما يسد به الحاجة، وإذا حدث ذلك في مصر وكثرة خراجها ووفور غناها وفي العراق وسعة سواده و وفور خراجه فغيرهما أولى بالعجز والإفلاس ــ ومع ذلك فقد كان طريق عمر واضحا ورأيه حازما) أما بعد بلغنى كتابك وقد وليتك جند مصر وأنا عارف بضعفك وقد أمرت رسولى بضر بك على رأسك عشرين سوطا، فضع الجزية عمن أسلم قبح الله رأيك فإن الله عز وجل بعث محمدا صلى الله عليه وسلم هاديا ولم يرسله جابيا، ولعمرى لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم الإسلام على يديه»(٣).

---

١ ــ الحلية ٥/٣٠٥ ابن الجوزى ٩٩.

٢ ــ ابن عبد الحكم ١٠٧، الطبقات ٥/٢٥٢.

٣ ــ الجمهرة ٢/٣٤٤.

فهل كان عمر بن عبد العزيز غير خبير بمسلمات الاقتصاد؟ وهل كان يرتجل خطواته ارتجالا فلا يقدر ما قد يقع ولا يحسب حسابا للمستقبل؟ وهل كان عمر يجهل أن كثرة النفقات وقلة الدخل تسبب خراب الخزينة؟ إنَّ سياسة عمر بن عبد العزيز تلك عند تدقيق النظر ودراسة النتائج التى ترتبت عليها تشير بكل وضوح الى أنَّ عمر بن عبد العزيز لم يكن يرتجل خطواته ارتجالا مدفوعا بحماس ديني غير متعقل، ولم يكن جاهلا بالاقتصاد وتدبير الميزانية، ولكنه كان يعلم تمام العلم أين يضع قدمه في كل خطوة يخطوها، ولكن الذى كان يهمه أوّلا وقبل كل شيء هو ورد الخلافة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الى حقيقتها الأولى ووظيفتها الأساسية، وهي دعوة الناس الى دين الله، ليكون حاكما جديرا بخلافة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأرض. أرادها أن تكون خلافة لا ملكا، فكان همه توزيع العدالة بين الناس وتظليلهم بالرحمة والإحسان ونشر الإسلام ــ فكان عهده بحق عهد إسلام البلاد المفتوحة ــ لا عهد الجباية المذمومة. ولم يكن عمر يكتفى بدعوة الناس الى الإسلام بل قام ــ كما رأينا في المبحث السالف ــ باستئلاف الناس على الإسلام. فهل يتصور أحد بعد ذلك أن يُبقي عمر بن عبد العزيز ضريبة تقف حاجزا بين الناس و بين الدخول في الإسلام مهما كان دخلها على بيت المال عظيما؟.

ما كان يهم عمر

وكان عمر يعلم علما يقينا أن بيت المال لن ينكسر، وأن الخزينة لن تفرغ، لأنه يعلم أنَّ العدالة الحقة والرحمة العامة والإصلاح الحقيقي يدر على بيت المال أضعاف ما يدره الظلم والجور والاستبداد، وإنَّ نقص بعض بيوت أموال الأقاليم نتيجة رد المظالم إنما هو نقص مؤقت بسبب ظلم كان فاشيا قبل ذلك، وإنَّه إذا سادت العدالة فسيرد الى بيت المال أضعاف اضعاف ما صرف منه.

فلم يكن عمر بن عبد العزيز ينظر بمنظار الاقتصاديين الماديين قصيري النظر ماديي التطلع إنّما كان ينظر و يقيس بمقياس السماء، مؤمنا تمام الإيمان بقول رب العزة «**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوا لَفَتَحنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**»(١).

ولكن هذه السياسة رغم وضوح نتائجها وسلامة آثارها أثارت زوبعة عاصفة من انتقادات كثير من المستشرقين الذين يأبون أن ينير الإسلام درب الحياة، و ينكرون على رجاله كل فضل أدركوه وتبعهم ــ مع الأسف ــ على درب الانتقاد غير المتبصر كثير من المؤرخين والكتاب المسلمين، وسنرى بإذن الله في المبحث التالي بعضا من هذه الانتقادات والفِرى(٢) الباطلة مُتْبَعةً ببيان الحق في ذلك دون تحيز إلاّ الى الحق إن شاء الله.

---

١ ــ الاعراف ٩٦.

٢ ــ الفرى ج فرية وهى الكذب والباطل.

المبحث الثاني

فرى باطلة ودعاوى متناقضة وأسلوب المستشرقين في تقديـــر الأعمـــال

«ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم»(١)

لا يخلو عمل بشر من أن يوجه اليه نقد، فالبشر غير الأنبياء ليسوا معصومين عن الخطأ والزلل. والنقد مقابل للخطأ فهو كاشف العيوب ومبين النقائص، ولكن شتان بين نقد يراد به البناء وتكميل العمل الناقص، وبين نقد هدام مفتر تدفع به نفوس خبيثة وألسنة تعودت على الافتراء والدس والوقيعة وتشويه الحقائق ونقض الأعمال الصالحة بسوء نية وخبث طوية بدافع خبيث ينم عن ضيق أفق ويمليه تعصب ممقوت.

نقد ونقـد

فمن هذا النوع من الدس ولا نسميه نقدا ما كتبه بعض المستشرقين عن أعمال عمر بن عبد العزيز الإصلاحية التصحيحية، متهما إياه بضيق الأفق والتزمت والرجعية والجهل بالإدارة السياسية والاقتصادية. الخ ما هنالك من اتهامات يمليها الجهل أو التجاهل بحقائق الإسلام والتعصب لتسوىء كل عمل صالح يعمل على إبراز محاسن الإسلام وعبقرية رجال الإسلام.

وكان من الممكن أن يغض الإنسان الطرف عن اتهام غير المسلمين أو تشويههم للأعمال اكتفاء برد بعض المنصفين من المستشرقين عليهم لولا أن كثيرا من كتاب المسلمين ومؤرخيهم ممن يؤثَّرون في قومهم تأثروا بآراء أولئك المستشرقين ورددوها في كتبهم ودافعوا عنها بحسن نية أو بسوء طوية، ولولا أن أولئك المنصفين من المستشرقين قد لا يستطيعون التجرد

عيب المنصفين من المستشرقين

---

١ ــ البقرة الآية ١٢٠.

الكامل عند بحث قضية إسلامية إذ تجذبهم جواذب من التأثير البيئى أو الثقافي الصليبي، أو يعوزهم الفهم الدقيق للغة العربية وتعبيراتها، للعجمة التي تشوب ألسنتهم ومفاهيمهم، أو ينقصهم الرجوع الى المراجع العربية الإسلامية الأصيلة في موضوع بحثهم.

ولهذا وذاك وجدت لزاما علي أن أعرض لهذه الافتراءات والدعاوى التى افتريت على هذا الخليفة المصلح، وأبين وجه الصواب فيها مع الأدلة ــ جهدى وطاقتى بدون تعصب إلاّ للحق، وإن كان كثيرا من أجِلّة الكتاب والمؤرخين تطرقوا الى كثير منها في كتبهم ومؤلفاتهم و بينوا وجه الحق فيها، ولكنى أردت هنا أن أجمع هذه الافتراءات وأردها الى منابعها المأخوذة منها وأدلى بدلوى مع المدافعين عن الحق، والله الهادى الى سواء السبيل عليه توكلى واليه مآب.

دوزى

من أوائل أولئك المؤرخين من المستشرقين الذين كتبوا عن الإسلام وتاريخه ورجاله وأظهر نقده للطريقة التي عالج بها عمر بن عبد العزيز مالية الدولة وخاصة مسألة إسقاط الجزية عن المسلمين غير العرب المستشرق د. دوزى في كتابه تاريخ مسلمى إسبانيا حيث يقول: «ثم تدهور ــ أى دخل الخزينة ــ الى أكثر من هذا زمن الخليفة الورع عمر بن عبد العزيز الذى لم يبال بالأمر حتى لقد بعث اليه أحد جباته رسالة يقول فيها: لو استمر الأمر على هذا المنوال طويلا في مصر لجب الذميون ديانتهم ولأسلموا وقل الخراج في بيت المال. «فأجابه: وددت لو أسلموا فما بعث الله نبيه جابيا ولكن هاديا»(١).

بعض المفترين

فون كرايمر واجست موللر

ثم جاء من بعد دوزى او جست موللر وفون كرايمر وفان فلوتن فساروا على دربه في منهج التجريح ــ لا النقد ــ فيقول اوجست موللر: «كان

---

١ ــ تاريخ مسلمى اسبانيا ١/١٣٨.

ذهن عمر بن عبد العزيز بحكم سلطان الدين عليه بعيدا عن كل إدراك لما تقضيه الحكمة السياسية، وإنَّه وإن كان لا يمكن النزاع في أن بعض ما وضعه من نظم قد أدّى الى تقوية روح الإسلام في ذاته تقوية كبيرة، فإن كل ما فعله يكاد يكون قد ساعد في الجملة على إفساد نظام الدولة من أساسه بعد أن كانت قد أصبحت دولة دنيوية ــ والرومان وهم اكفأ الشعوب التى عرفها التاريخ في مسائل السياسة الكبيرة إنما قرروا المبدأ الذى قرروه عن علم وهو: أنه لا دولة يمكن أن تعيش إلا بالوسائل التى أدت الى قيامها.

وافتراء

التهمة الاولى تحقيق مبادىء مستمدة من القرآن والحديث بدون تعقل

أما عمر بن عبد العزيز فقد انصرف عن الأصول المتمشية مع الواقع، والتي وضعها خلفاء الأمويين بعد عصر معاوية وأراد أن يستعيض عنها بتحقيق مبادىء مثالية استمدها من القرآن والحديث، حتى ولو كان هذا العمل الخليق بالثناء لا يمكن تنفيذه إلاّ على أساس علم غير كامل بالظروف الواقعة، ولكن عمر بن عبد العزيز وهو الخليفة الورع كان متأثرا بمبادىء حاشيته الدينية الى حد أنه لم يقم حتى بمحاولة اصطناع شيء من العقل عند تطبيق ما في القرآن من مبادىء كبرى على أحوال هذه الدنيا الناقصة، وكان تفكيره الساذج يقول له: إن الله يريد كذا كذا وإنه إذا كان الله يريد ذلك فمن الممكن تنفيذه. أما كيف يريد الله من الخليفة أن يحكم؟ فيرى عمر أن الله أظهر ذلك للمؤمنين حسا ملموسا بأن أخضع لسلطان الإسلام على يدى عبديه أبى بكر وعمر متمردى العرب أولا ثم فارس كلها والشام ومصر. وعلى هذا لم يكن المثل الأعلى لعمر بن عبد العزيز سوى صورة حرفية للتنظيم الذي وضعه للدولة عمر بن الخطاب وغيَّره في أهم نواحيه خَلْفُ السوء تغييرا لا يمت الى الدين بسبب.

التهمة الثانية اقتداء عمر ابن عبد العزيز بعمر بن الخطاب

وإذا عرفنا كيف أن هذه التغييرات لم تقض بضرورتها الأهواء

الشخصية بل دعت إليها شدة وطأة الوقائع القاسية، فإنه يصبح من المفهوم بنفسه أن يكون الرجوع الى تطبيق الأصول القديمة في تدبير أمور الدولة التى نظمها عبد الملك والحجاج بمثابة ما تقع على العين ضربة بجمع اليد، ولكن ثقة عمر بن عبد العزيز، ذلك الخليفة الجدير بالإعجاب ــ بما فيها من ورع مؤثر ــ لم يكن ينيرها ولو قبس من تلك المعرفة. فلم يلبث بعد تولية عرش الخلافة أن أمر بإلغاء القانون الذى وضعه الحجاج ــ والذى كان يقضى بأن يدفع من يدخل في الإسلام من أهل الذمة الجزية التى كانوا يدفعونها من قبل. وذلك تلافيا للنقص في ما يدخل الى بيت المال، ولما كان من شأن هذا الإجراء أن يجعل الدخول في الإسلام مفيدا لغير المسلمين من جديد فان الخليفة الورع ــ وكان قد نظم في الوقت نفسه دعوة حارة لنشر الإسلام في جميع الأمصار ــ قد قرت عينه بأن يرى جحافل المؤمنين في المشرق والمغرب قد زادت ملايين في وقت قصير، وحتى لو كان دخولهم نفاقا في بدايته، فإنه يجب أن لا ننسى أن الشريعة الإسلامية كانت من أول الأمر تقضي بالموت على من يرتد عنها، وعلى هذا كان ارتداد من أسلم مستحيلا، و بعد ذلك سيكون معظم الجيل الثانى على الأقل مؤلفا من مسلمين صادقين، لذلك فإن أغلبية المؤمنين بالله بالنسبة لغيرهم قد زادت في الحقيقة بفضل هذا الأمر الذى اصدره عمر زيادة كبيرة ولكن أصاب الخزانة من جرائه نقص كبير.

التهمة الثالثة اسقاط الجزية عن المسلمين

ثم جاء أمر ثان لعمر فزاد في هذا النقص زيادة اخلّت بالتوازن في مال الدولة إخلالا كبيرا، على أنه كان من الواضح لعمر نفسه أن العودة الى تطبيق القانون القديم الذي يحرم امتلاك الأ رض على المسلمين لا يمكن أن تكون في صورة مطالبة كل من ملكوا أرضا في الأمصار خلال أكثر من سبعين سنة خلت بأن ينزلوا عنها، وكان هذا مستحيلا من الناحية العملية لأسباب كثيرة، فتركت هذه التجر بة على الأقل بسبب

التهمة الرابعة منع بيع الارض الخراجية

خطورتها التى لا حد لها ــ ولكن على حين أن كل شراء للأرض قد صار محرما على المسلمين بعد سنة مائة للهجرة، فإنّ عمر بن عبد العزيز أراد أن يفرق بين المسلمين وأهل الذمة تمسكا منه بأصول الدين، فألغى الخراج عن أراضى المسلمين التى كانوا قد تملكوها مخالفين النهى عن ذلك، وجعلها أرض عشر، فصار ما يؤخذ عنها أقل مما كان يؤخذ خراجا بكثير، فأدى ذلك بطبيعة الحال الى نقص كبير في دخل الدولة وكان إجراءً غير موفق من الناحية العملية، لأنَّ هذه المحاباة للملاك إذا قورنوا بمن لم يكن قد ملك أرضا من قبل ولا يستطيع أن يملك أرضا من بعد بدت في صورة ميزة بغيضة، وإذا كان الذين لم يملكوا ارضا قد عوضوا عن طريق التنفيذ العام لنظام الأعطيات السنوية، فإن ذلك لم يأت شافيا للداء لأن هذه الأعطيات لم تكن عالية بدرجة كافية، وإن كانت بالنظر الى الزيادة الكبيرة في عدد الداخلين في الإسلام قد كلفت الدولة مبالغ لا تتصور.

والتفرقة بين المسلمين واهل الذمة في الضريبة

نظام الاعطيات

والى جانب كل هذه الإجراءات التى أضرت ببيت المال أكبر الضرر، جاء أمر آخر أصدره عمر وقد أوحى به اليه إحساس إنسانى بالعدالة ــ ولكنه لم يكن موفقا من الناحية العملية ــ وهو يقضي برد جميع الأموال التى ابتزت من الرعايا ظلما الى أصحابها. ولا نعرف إن كان هذا قد وقع مقصورا على أحوال فردية؟ ولكن أكثر العمال خيانة ما كان يستطيع أن يتمنى فرصه أكبر مواتاة من هذه الفرصة لانتهاب الخزانة من غير أن يناله عقاب(١).

التهمة الاخيرة رد المظالم النتيجة اضرار ببيت المال

و يقول فان فلوتن. ولا ريب في أن سياسة ذلك الخليفة لم توقظ إلاّ آمالا لم تستطع الحكومة تحقيقها، فقد كانت الحال تتطلب علاجا آخر

---

١ ــ تاريخ الدولة العربية ص٢٦٣ــ٢٦٤ هامش هذا ما يقوله اوجست موللر في كتابه تاريخ الاسلام في المشرق والمغرب الجزء الاول ص٤٣٩ فما بعدها نقلا فيه تصرف عن كتاب فون كرايمر المسمى تاريخ حضارة المشرق ص١٧٤ فما بعدها.

فان فلوتن وتجريحاته نضوب بيت المال بسبب الغاء الجزية

غير تلك السياسة التى سار عليها عمر بن الخطاب، ففى العراق أنضبت الأعطيات السنوية بيت المال بعد أن تأثرت موارده تأثرا محسوسا من جراء إلغاء الجزية في خراسان، وهكذا أعقبت تلك الفوضى في الشئون المالية بعد موت عمر بن عبد العزيز سياسة خراجية أقصى ما تكون جورا وعسفا(١). ثم يقول: ولم تكن غلطة عمر بن عبد العزيز سوى رجعيته ومحافظته الدينية وتمسكه الشديد بالنظام الذى سنه عمر بن الخطاب الذى كان يقتفى أثره لما كان يكنه له في أعماق نفسه من الاحترام والإكبار، والذي لم يكن إلاّ صورة منه رغم ما كانت تتطلبه الحالة من العدول عن ذلك النظام عدولا تاما. فقد كان لزاما أن تجد الحكومة أعمالاً جديدة غير الغزو والفتح للمرابطين في الولايات الإسلامية من جند العرب حتى لا يكونوا عالة على بيت المال.

اقتداء عمر ابن عبد العزيز بعمر بن الخطاب

منع بيع الارض الخراجية الاعطيات للجند

ولا غرو فقد كانت السياسة التى سار عليها عمر بن عبد العزيز تحول دون ملكية الجند للأرض بينما كانت الحالة تقضي بمنحهم إياها لاستغلالها واستثمارها، كما كانت تسخو في منح الأعطيات حتى للموالى من المسلمين في الوقت الذى كانت تتطلب فيه مالية البلاد إلغاء تلك الأعطيات حتى ما كان يمنح منها للعرب أنفسهم.

من اسباب وهن العرش الاموى

وهكذا حال ذلك التصرف ــ الذى أنضب موارد الدولة وجر الخراب على بيت المال ــ دون نجاح تلك السياسة التى كانت ترمى في ذاتها الى الإصلاح وإعفاء الجدد في الإسلام من الجزية. ومن ثم نرى أنَّ سياسة عمر بن عبد العزيز كانت أبعد أثرا في وهن العرش الأموى من سياسة الحجاج بن يوسف وسوء إدارته، فإن الأمال التى أثيرت في النفوس لم

---

١ ــ السيادة العربية ٥٩.

تنطفىء جذوتها حتى أصبحت الشعوب من غير العرب تنتظر خلاصها من حكم بنى أمية بعد أن غدت تلك السياسة الخراجية الظالمة في نظرهم عبئا ثقيلا لا قبل لهم باحتماله، تلك السياسة التى فاجأهم بها الأمويون ولا سيما في خلافة هشام بن عبد الملك على أثر ذلك الإصلاح الذى قام به عمر بن عبد العزيز(١).

حسن ابراهيم حسن اتهمه بالرجعية والمحافظة الدينية والاقتداء الشديد بعمر بن الخطاب

ثم يأتى بعد أولئك مؤرخون عرب مسلمون يتابعون أولئك المستشرقين في تهجمهم المغرض و يرددون تهمهم، و ينظرون الى ما فعله عمر بن عبد العزيز من نفس الزاوية التى نظر منها أولئك مع ترديد نفس العبارات النابية التى وصف بها ذلك الخليفة العظيم.

فالدكتور حسن ابراهيم حسن ردد آراء فان فلوتن بنصها في كتابه النظم الإسلامية حتى إنَّه أبقى على وصف عمر بن عبد العزيز بالرجعية والمحافظة الدينية قال بالنص «ولم تكن غلطة عمر بن عبد العزيز سوى رجعيته ومحافظته الدينية وتمسكه الشديد بالنظام الذي سنه عمر بن الخطاب»(٢).

عمر أبو النصر اسقط الجزية وافقار بيت المال، لم يفكر في طريقة ثانية للتعويض، فرضت ضرائب حديثة.

و يقول عمر أبو النصر: أما المسألة المالية الخطيرة التى أفقرت بيت المال فهى أن عمر بن عبد العزيز رأى من الحكمة رفع الضريبة عن كل من أسلم، فأسرع غير المسلمين الى اعتناق الإسلام، ولم يفكر عمر في طريقة ثانية تحفظ لخزانة الدولة الموارد العظيمة التى كانت تنالها من الضرائب التى زالت، فضعفت موارد الخزانة وصارت الضرورة تقضي بخلق موارد جديدة وفرض ضرائب حديثة على المسلمين وغير المسلمين، مما أغضب العرب المسلمين الذين لم يتعودوا ذلك، وأغضب المسلمين الجدد

---

١ ــ السيادة العربية ٥٩ــ٦٠.

٢ ــ النظم الاسلامية ٢٩٦.

الذين أسلموا للخلاص من هذه الضريبة. وهذه الأزمة المالية لم تظهر أيام عمر وإنّما ظهرت في زمن من أتى بعده من الخلفاء والولاة وكانت من الأسباب التى عجلت في انهيار بنى أمية(١).

الازمة ظهرت بعد عمر وعجلت في انهيار بنى أمية

هذه هي الافتراءات والتهم التى وجهها اولئك الى الخليفة الورع عمر ابن عبد العزيز وسياسته وتتلخص في تهمتين رئيسيتين:

الاولى: أنّ سياسة عمر بن عبد العزيز المالية أنضبت خزانة الدولة وجرت الخراب على بيت المال.

الثانية: أنّ سياسته هذه كانت من الأسباب الرئيسية التى عجلت في انهيار بنى أمية.

أما عن التهمة الأولى فيرجعونها لأسباب عدة من أهمها:

١ ــ إسقاط الجزية عمن يسلم من أهل الذمة.

٢ ــ السخاء في منح الأعطيات السنوية للعرب والموالى المسلمين.

٣ ــ رده المظالم.

٤ ــ رجعيته وتمسكه بالدين وسيره على النظام الذى سنه عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

٥ ــ جهله بالسياسة وضيق أفقه وخياليته وعدم واقعيته.

٦ ــ إلغاؤه الخراج عن أراضي المسلمين وجعلها أرض عشر ومنع بيع الأراضي الخراجية.

وأما عن التهمة الثانية فمن أسبابها:

١ ــ فرض ضرائب جديدة على المسلمين وغير المسلمين.

٢ ــ التفرقة بين المسلمين وأهل الذمة في ضريبة الارض.

٣ ــ ثورة الشعوب غير العربية على بنى أمية لسياسة الخراج الظالمة التى تلت عهد عمر.

---

١ ــ الايام الاخيرة للدولة الاموية ١٠٩.

هذه هى صلب انتقادات أو تجريحات أو افتراءات هؤلاء المستشرقين، وقد تبعهم في أكثرها ــ مع الاسف ــ بعض المؤرخين والمؤلفين المسلمين، وأهمها التباكى على خزانة الدولة التى أفقرها إسقاط الجزية عن المسلمين الجدد، وما وراء ذلك من الحقد لكسر الباب الذى كان يحول دون دخول الملايين في الإسلام واستضاءتهم بنوره، مما لو فعل عشر معشاره أحد الملوك الصليبيين وأدخل في النصرانية جمعا من الناس لاعتبروه من القديسين، ولكنه التعصب الاعمى يأبى إلاّ أن يطل بقبحه وشناعته.

الحق يبرز من ثنايا الباطل

ولكن الحق رغم محاولة إخفائه يبرز رغم أنف المبطلين. فان فلوتن وفي ثنايا انتقاداته وتجريحاته لسياسة عمر بن عبد العزيز يقول: وعلى الرغم من ذلك فينبغي أن يتورع المؤرخ عن القسوة في الحكم على تلك الإصلاحات التى قام بها عمر بن عبد العزيز، ومن العدل أن أطالب الذين يشايعون الحجاج بن يوسف ضد ذلك الخليفة المصلح بالإجابة عن هذين السؤالين:

١ ــ ألم يكن خيرا للأمويين أنفسهم مساواتهم جميع العناصر في الحقوق، تلك السياسة التى لا يبعد أن يكون عدم الأخذ بها هو السبب الأول في سقوط دولتهم؟.

٢ ــ وإذا لم تكن تلك المساواة في مصلحة الخلفاء من بنى أمية ألم تكن من مصلحة الإسلام نفسه؟.

ثم يقول: وكان عمر بن عبد العزيز أول من فطن من خلفاء بنى أمية الى أن وقت التفرغ للإصلاحات الداخلية قد آن(١).

ثم هو نفسه الذى يعترف بأنَّ أعمال عمر بن عبد العزيز كانت

---

١ ــ السيادة العربية ٥٩.

إصلاحات الغرض منها القضاء على ما قام في سبيل انتشار الإسلام من العقبات، وذلك بمنحه الموالى الحقوق التى كان يستمتع بها المسلمون من العرب وحدهم، وإعفائهم من الجزية التى كان يدفعها الكفار، ثم مقاسمتهم إخوانهم المسلمين نصيبهم من الأعطيات السنوية(١). يقول ذلك في معرض رده إجحاف مؤرخي الغرب في الحكم على إصلاحات عمر ثم هو وفي نفس الوقت يجحف في الحكم والنقد.

---

١ ــ السيادة العربية ٥٨.

المبحث الثالث

ردود دامغـــة

«وقل جاء الحق وزهق الباطل إنَّ الباطل كان زهوقا»(١).

انتقادات وتجريحات وتهم أولئك المستشرقين وأشياعهم واجهها مستشرق حاول أن يكون منصفا ــ وإن كان هو نفسه قد وقع في أخطاء وقصور في إدراك بعض الأمور لأسباب سنراها في موضعها بإذن الله ــ ذلكم هو يوليوس فلهاوزن في كتابه الدولة العربية ــ وفندها وحاول دحضها.

دفاع فلها وزن و بيان ما فيه من قصور

يقول فلهاوزن: كانت إدارة الأمصار في الدولة الإسلامية تتلخص في تنظيم الناحية المالية فيها، وكان إصلاح هذه الناحية أول ما اتجهت اليه همة عمر بن عبد العزيز، ولكن ليس من السهل أن نتبين بوضوح نوع إصلاحاته في ميدان الخراج(٢)، يرى فون كرايمر ومولر أن الذي دعا عمر ابن عبد العزيز الى إصلاحاته في نظام الخراج إنّما هو القصد الى العودة الى النظام القديم، وإنَّ عمر بن الخطاب كان مثاله أراد أن يتبعه وأن يرجع الى ما كان قد وضعه من نظم، كما أراد أن يزيل ضروب الفساد التى استحدثها خلفاء بنى أمية وعمالهم حتى ذلك الحين.

و يتساءل فلهاوزن هنا عن طبيعة المثال الذى أراد عمر بن عبد العزيز أن يحتذيه و يقول: وفي هذا الشأن يدخل في الاعتبار إجراءان ينسبان الى عمر الأ ول (يعنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه) فيروى أنه

---

١ ــ الاسراء الآية ٨١.

٢ ــ لو ان فلهاوزن رجع الى الكتب التى كتبها الفقهاء المسلمون في المالية كالاموال لابى عبيد أو الخراج لأ بى يوسف لسهل عليه ان يتبين بوضوح نوع اصلاحات عمر بن عبد العزيز وهذا ما يؤخذ على فلهاوزن، كما سنرى، لانه اقتصر على بعض المراجع ولم يطلع على أكثرها، ومن ناحية ثانية ففلهاوزن لم يكن يأخذ بآراء الفقهاء غالبا بل يعتمد في الدرجة الاولى على اقوال المؤرخين و يدعو الى الاخذ بها.

منع العرب من أن يقتنوا أرضا في البلاد التى فتحوها، وأنه أمر بأنه عند دخول المغلوبين من غير العرب في الإسلام لا ترفع عنهم إلاّ الجزية، أما الخراج فيبقى عليهم لأنه يتعلق بالأرض لا بصاحبها ــ وهنا يقول فلهاوزن: والحقيقة أنّ عمر لم يفعل هذا ولا ذاك(١).

خلافة لا ملك

ثم يقول: وعلى الرغم من أن أشياء كثيرة لا تزال غامضة فإنَّ شيئا واحدا واضحا الى حد كبير وهو أن المؤرخ يجلب على نفسه السخرية إذا نظر الى عمر بن عبد العزيز نظرة استهزاء مقصود ــ من الجائز أن يكون عمر متأثرا بالدين ــ أى في هذه الحالة بعلم الفقه تأثرا أكبر مما يريد البعض.ــ (نعم إنَّ عمر بن عبد العزيز كان متأثرا فعلا بالدين وعلم الفقه فهو من العلماء الفقهاء، ومركز الخلافة الراشدة يقتضي من شاغله

---

١ ــ وهذا يؤكد قصور اطلاع فلهاوزن او عدم سلوكه الطريق المستقيم في الابحاث الاسلامية وعدم تقديره لطريقة المحدثين والفقهاء في تمحيص الاخبار والمرويات وخاصة فيما يتعلق بأمور تمس التشريع والعقيدة، والا فالاخبار الواردة بكلا الامرين اكثر من ان تحصى. أما الاول أى منع العرب من اقتناء الارض في البلاد المفتوحة وشرائها فقد ورد أول ما ورد عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقد اشترى عتبه بن فرقد رضى الله عنه ارضا من أرض الخراج ثم اتى عمر رضى الله عنه فأخبره فقال: ممن اشتريتها؟ قال من أهلها قال: فهؤلاء أهلها ــ أى المهاجرين والانصار أبعتموه شيئا؟ قالوا لا. قال فاذهب فاطلب مالك حيث وضعته «الخراج ليحيى بن آدم ٥٤، الاموال ١١٤. وفي رواية اخرى: نهى عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن يشترى أرض أهل الذمة ورقيقهم «الخراج للقرشي ٥٢ والاموال ١١٠.

وفي رواية أخرى عن عمر أيضا قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه «لا تشتروا من عقار أهل الذمة ولا من بلادهم شيئا» المرجع السابق.

وان كان ورد عن كثير من الفقهاء والتابعين كراهة شراء أرض العنوة وجواز شراء أرض الصلح فقط. وورد عن آخرين قلة جواز شرائها مع بقاء خراجها.

وأما الامر الثاني وهو سقوط الجزية فقط عند الدخول في الاسلام فقد ورد أن امرأة أسلمت من أهل نهر الملك فقال عمر او كتب: إن اختارت ارضها وأدت ما على ارضها فخلوا بينها وبين ارضها والا فخلوا بين المسلمين وأرضهم «وأسلم الرفيل فأعطاه عمر أرضه بخراجها وفرض له الفين» الخراج للقرشي ٥٦ والاموال ١٢٤، وورد عن على رضى الله عنه كذلك وعن عمر بن عبد العزيز ايضا. وفي مبحث الخراج مزيد من الامثلة والايضاح ان شاء الله.

ذلك حتى يحقق الهدف من تلك الخلافة «لأنها خلافة عن صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم في حراسة الدين وسياسة الدنيا به(١).

فالخليفة منفذ لشرع الله وهو متبع لا مبتدع، ولكن من ينظرون الى الأمور بمنظار دنيوى فقط يرون الخليفة ملكا فلا يفرقون بين الخلافة والملك و يريدون من الخليفة أن يكون ملكا. فإن قام بموجبات الخلافة انتقد وجرح واتهم).

ولم يكن عند عمر بن عبد العزيز ذلك الشعور الوطيد بأنَّ له سلطانا شخصيا (كان عمر بن عبد العزيز متواضعا شديد الخوف من الله فظن ذلك ضعفا في شخصيته). هذا الشعور الذى كان لجده عمر بن الخطاب وكان به يرهب الدنيا. ولكن عمر بن عبد العزيز لم يكن معنيا بنفسه بل عنى بالخير للناس والبر بهم، وقد دفعه ورعه الى الحكم الصالح والى معالجة الأعباء الكبيرة التى كان يقتضيها الحكم الصالح بما هي أهل له.

حكم صالح ومعالجة حكيمة

فمثلا يذكر بعض من لم ينصف أنَّ الدليل الأكبر على عدم كفاءته السياسية أنَّه ضيع الأموال(٢).

و بعد أن يتحدث فلهاوزن عن عمل الحجاج في سبيل الخراج ومعاملته للموالى يقول: وكان عمر بن عبد العزيز بحكم ورعه مضطرا أن يسلك طريقا آخر، وهو لم يكن من حيث مقصده يختلف عن الحجاج اختلافا كبيرا ــ (يريد عدم أعفاء العرب الذين تملكوا أرضاً من أرض الخراج من دفع ما عليها، وفرض الخراج على من كان موضوعا عنهم وتحريم هجرة الموالى الى حواضر الإسلام ــ وهنا يجانب فلهاوزن التوفيق لأنَّ مقاصد الرجلين مختلفة تماما وطريق الوصول اليها مختلف كذلك.

---

١ ــ مقدمة ابن خلدون ١٦٦ والاحكام السلطانية للماوردى ٥.

٢ ــ تاريخ الدولة العربية ٢٩٥.

وسنرى بإذن الله أيضاً ذلك في مبحث المقارنة بين عمر بن عبد العزيز والحجاج فيما يلى). ولكنه ــ أى عمر ــ حاول أن يصل اليه عن طريق لا يتعارض مع الشعور الإسلامى بالحق والعدل، فحافظ من هذا الوجه على المبدأ القديم الذى يقضي بأن المسلم ليس عليه أن يدفع جزية ولا خراجا، سواء كان عربيا أم كان مولى(١)، وسواء أكان من الطبقة العليا أم الطبقة الدنيا. ولكى يتفادى النقص فيما يدخل الى بيت المال فإنه ــ

---

١ ــ وهذا ايضا فهم غير سديد واستنتاج غير صحيح من فلهاوزن لأن عمر بن عبد العزيز كان رأيه أنَّ على المسلم الذى يملك أرضا خراجية ــ سواء كان عربيا أم غير عربى ــ أن عليه الخراج مع العشر. والأدلة على ذلك كثيرة منها: عن عمرو بن ميمون بن مهران قال: سألت عمر بن عبد العزيز عن المسلم يكون في يده أرض خراج فيسأل الزكاة فيقول: ان عليَّ الخراج. قال: فقال: الخراج على الأرض وفي الحب الزكاة قال: ثم سألته مرة أخرى فقال مثل ذلك: الخراج للقرشى ١٦٠ والأموال ١٢٦.

وفي رواية أخرى قال سألت عمر بن عبد العزيز عن المسلم يكون له ارض خراج قال: خذ الحب من هاهنا ــ وأشار بيده الى الأرض ــ وخذ الزكاة من هاهنا ــ واشار بيده الى الزرع.

ورواية شاهد عيان ودافع ضريبة: كتب عمر بن عبد العزيز الى عبد الله بن عوف عامله على فلسطين فيمن كانت بيده أرض بجزيتها من المسلمين أن يقبض منها جزيتها (أى خراجها)ــ ثم يؤخذ منها زكاة ما بقى بعد الجزية و يقول راوى الخبر ابن ابى عبلة: أنا ابتليت بذلك ومنى أخذ. الخراج للقرشى ١٦١ والأموال ١٣٧.

و يقول شريك: لعل عمر لا يكون قال هذا حتى سأل عنه أو بلغه فيه، فإنه كان ممن يقتدى به. الخراج للقرشى ١٦١.

وعن سفيان بن سعيد قال: فيما أخرجت الأرض الخراج فارفع دينك وخراجك فإن بلغ خمسة أوسق بعد ذلك فزكها وأحسب ما أكلت من الزرع. وكذلك رواية ايضا عن الحسن بن صالح، وقال أنه سمعه عن عمر بن عبد العزيز. وكذلك عن المغيرة قال: عليه العشر والخراج. وعن معمر قال: سألت الزهرى عن زكاة الأرض التى عليها الجزية فقال: لم يزل المسلمون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم و بعده يعاملون على الأرض و يستكرونها و يؤدون الزكاة مما خرج منها. فنرى هذه الأرض على نحو ذلك.

الخراج للقرشى ١٦١ــ١٦٢.

و يقول يحيى بن آدم هنا: وقد قال جماعة من أصحابنا ليس على ما أخرجت أرض الخراج عشر وانما على الأرض الخراج وليس في زرعها ولا في ثمارها شيء لمسلم كان أو لغيره. وهذا قول ابى حنيفة، وذهب اكثر العلماء الى وجوب العشر مع الخراج ص١٦٣ فقرة ٦١. و يقول قال الحسن ابن صالح في المسلم يشترى أرض الخراج كرهه وقال: إن فعل فعليه ان يؤدي عن الأرض ما كان

بعد مشاورة علماء المدينة(١) من غير شك ــ استنبط من السنة السابقة أن أرض الخراج يجب أن تكون ملكا للمسلمين جميعا أولا، ثم هي بعد ذلك لأهل القرى تركها لهم المسلمون مقابل خراجها، بحيث لا يصح أن تقتطع أجزاء منها وتعتبر بسبب انتقالها الى أيدى المسلمين ملكا خاصا معفى من الخراج(٢)، وتبعا لذلك أعلن عمر بن عبد العزيز أن بيع أرض الخراج على العرب والمسلمين غير جائز اعتبارا من سنة مائة للهجرة.

= يؤدي عنها وعليه العشر أو نصف العشر في ثمرته وحرثه. كان يقول: الخراج على الأرض والعشر أو نصف العشر زكاة مفروضة على المسلمين وذكره عن عمر بن عبد العزيز الخراج ص ٢٤ ف ٣٤.

قال يحيى وحجتهم في هذا القول: ان عتبة بن فرقد قال لعمر رضى الله عنه: ضع عن أرضى الصدقة فقال له عمر: أدعنها ما كانت تؤدى أو اردها الى أهلها، وان رجلا قال لعمر: إنى قد أسلمت فضع عن أرضى الخراج فقال: ان أرضك أخذت عنوة. وقول عمر رضى الله عنه في التى أسلمت من نهر الملك فقال: إن ادت ما على أرضها والا فخلوا بين المسلمين و بين أرضهم. وقول على فيمن أسلم من أهل السواد: ان اقمت بأرضك تؤدى عنها ما كانت تؤدى والا قبضناها منك. وان الرفيل اسلم فأعطاه عمر أرضه بخراجها. وليس في شيء من هذه الأحاديث الا الخراج وحده.

وقال يحيى: وذلك عندنا لأنهم طلبوا طرح الخراج حتى يصير العشر وحده، فلم يفعل عمر رضى الله عنه لم يطرح الخراج ولم يذكر العشر بطرح ولا غيره لأن العشر زكاة على كل مسلم.

ففي كل هذه الاثار دليل على ان الخراج لا يسقط عن أرض الخراج ابدا مهما اختلف مالكها وان كان اختلفوا هل عليه زكاة فيما اخرجت الأرض أم لا، ولم يقل أحد بتحويلها الى أرض عشر. الخراج للقرشى ١٦٣ ومثل هذه الاثار في كتاب الأموال لابى عبيد ١٢٤ــ١٢٥ ثم يعقب ابو عبيد قائلا: فتأول قوم لهذه الأحاديث انه لا عشر على المسلمين في ارض الخراج. يقولون لان عمر وعليا رضى الله عنهما لم يشترطاه على الذين أسلموا من الدهاقين. و بهذا كان يفتى أبو حنيفة واصحابه وقال ابو عبيد: وليس في ترك ذكر عمر وعلى العشر دليل سقوطه عنهم لان العشر حق واجب على المسلمين في أرضيهم لأهل الصدقة لا يحتاج الى اشتراطها عليهم عند دخولهم في الأرضين.

وكل هذه الاثار وغيرها كثير مما يؤكد ان الخراج لا يسقط عن الأرض بحال من الأحوال وانما الخلاف في وجوب العشر معه.

١ ــ قد كان عمر في دمشق لا في المدينة وان كان حوله جماعة من أجلة العلماء وكان يستشير و يشار عليه بالخير فيفعله اذا اقتنع به و وجد له سنداً.

٢ ــ وهذا أيضا فيه سوء استنباط لما فعله عمر بن عبد العزيز، ولأنَّ كون أرض الخراج ملكا لجميع المسلمين لم يختلف في ذلك احد من الصحابة ولا من التابعين، بل كلهم متفق على أن الأرض التى فتحت عنوة و بقيت في أيدى أصحابها ولم تقسم هي ملك للأمة كلها موقوفة على أجيالها، كما هو استنباط عمر بن الخطاب رضى الله عنه حينما منع قسمتها بين الغانمين، وقد رأينا في الادلة السابقة أن هذه الأرض إذا انتقلت الى أيدي المسلمين لم تصبح ملكا خاصا معفى من =

فعمر إذاً كان قد أسقط الجزية عمن دخل في الإسلام من الشعوب والممالك، فإنه إنما أراد بذلك أن يتفادى شن الحروب لمجرد الغنائم، ولم يفرط في شيء يدخل في بيت مال الدولة. أما في الولايات التي كانت قد فتحت قبل عهده بزمان طويل وتقررت جزيتها وخراجها طبقا لقانون الفتح أعني أرض السواد وأرض مصر فإنَّ عمر بن عبد العزيز تمسك بالقانون المأثور الذى كان قد جرى العمل به، وقاوم انتقاص أرض الدولة ودخلها. كما أنَّه حاول أن يتفادى الضرر الذى من شأنه أن يلحق بأموال الدولة بعد إسقاط الجزية عن جميع المسلمين.

ولا شك أيضا في أنَّه إذ منع من قبول الولاة للهدايا والعطايا بما فيها من إساءة استعمال السلطة إنَّما نال من العمال وحدهم، وأقصى ما يمكن أن يؤخذ عليه هو أنه كان يكثر من إلقاء الأعباء على بيت المال بسبب أنواع المساعدات والبر التى قدمها للجميع أو كان يود لو استطاع تقديمها لهم.ـــ(وهل يؤاخذ من أراد أن ينشر العدل والرفاه بين أفراد الأمة جميعا؟ وإذا كان بيت مال المسلمين لا ينفق في سبيل مصلحة الأمة ورفاه أفرادها فلمن يكون إذاً؟).

أما فيما يتعلق بنفسه فإنه لم يستعمل شيئا من أموال الدولة ولا جمع منها الكنوز ولا هو أسرف فيها أيضا في حملات حربية على القسطنطينية. وكذلك عنى عمر بالحيلولة بين الولاة و بين أن يكون همهم الأول من مناصبهم جمع الأموال لأنفسهم، والأغلب أن ذلك عوض النفقات التى اقتضتها إصلاحاته ضعفين.

وأما ما يزعمه البعض ـــ موللر ـــ من أن أموال الدولة في عهده قد

= الخراج بل ان الخراج يبقى مهما اختلف واضع اليد.

٣ـــ تاريخ الدولة العربية ٢٧١.

تلاشت كما يزول الشيء بإشارة سحرية، وإنَّ ما يتحصل من الخراج قد انحط دفعة واحدة، فإني لا أريد هنا أن أتعرض للكلام فيما إذا كان ذلك الزعم أكثر من أن يكون نتيجة خطأ، ولكنه على كل حال زعم لا يمكن أن يكون صحيحا بوجه من الوجوه، وذلك أنَّ الأحوال المالية كانت سيئة في الأيام المضطربة لعهد عبد الملك والحجاج أما في عهد عمر بن عبد العزيز فقد عادت الى حالة الصحة(١).

ومهما كان الأمر فإن الاهتمام بالشئون المالية ليس هو كل ما يعنى الدولة، ومن ذا الذي يكون عنده من الجرأة ما يجعله يستنكر على عمر أنَّه أسقط عن البربر الجزية ــ جزية الأبناء ــ فقد كانوا يقدمون أبناءهم على سبيل الجزية. وإنَّه خفف العبء على نصارى نجران(٢)، وإنَّه عمل على حماية الرعية من العمال، وإنَّه حرص على ألاّ تكون إدارة الأمصار مجرد وسيلة لاستغلالها استغلالا ماليا؟.

---

١ ــ وهذا صحيح كل الصحة والدليل على ذلك أن دخل سواد العراق انحط في زمن الحجاج في احدى سنواته العجاف الى ثمانية عشر الف الف درهم فقط و يقول ابن خرد اذ به جبى عمر بن الخطاب السواد مائة الف الف وثمانية وعشرين الف الف درهم. وجباه عمر بن عبد العزيز مائة الف الف واربعة وعشرين الف الف درهم. وجباه الحجاج بن يوسف ثمانية عشر الف الف درهم ليس فيها مائة الف الف وذلك لعسفه وخرقه وظلمه المسالك والممالك ١٤ــ١٥.

و يقول ابن كثير عن عمر بن عبد العزيز: لقد ولى الحجاج العراق وهو أوفر ما يكون في العمارة فاخس به الى أن صيره الى اربعين الف الف. ولقد أدى الى عمالى في عامى هذا ثمانين الف الف ولئن بقيت الى قابل رجوت أن يؤدي الى ما أدى الى عمر بن الخطاب مائة الف الف وعشرة الاف الف. البداية ٩/١٥٢ و يقول اليعقوبي. وانكسر الخراج في ايامه فلم يحمل كثير شيء ولم يحمل الحجاج من جميع العراق الا خمسة وعشرين الف الف درهم. تاريخ اليعقوبى ٢/٣٠١ ولعل ذلك باختلاف السنين.

٢ ــ جزية الابناء يراد بها ما صالح عليه عمرو بن العاص اهل برقة على ثلاثة عشر الف دينار على ان يبيعوا من أحبوا من ابنائهم في الجزية، فتوح مصر ٢٢٩.

واما نصارى نجران فقد صالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الفى حلة ثم أجلاهم عمر بن الخطاب عن الجزيرة فنزلوا العراق والشام ثم شكوا الى عثمان رضى الله عنه قلتهم فخفف عنهم مائتى حلة ثم خفف عنهم معاوية او ابنه يزيد مائتين أخريين ولكن لما جاء الحجاج ردهم الى الف وثمانمائة فلما جاء عمر بن عبد العزيز أحصاهم فوجدهم على العشر من عدتهم الاولى فكلفهم مائتى حلة فقط. وذكر ذلك مستوفى في مبحث الضرائب الظالمة.

رد على فون كرايمر ومولر

وأما فون كرايمر واوجست موللر فرأيهما أن عمر بن عبد العزيز تدخل في الأمور المالية دون أية ضرورة عملية جريا وراء ما صوره له ورعه من مثل عليا خيالية، فأفسد المجرى الطبيعي للمالية وأخرجها عن الطريق الذى أدّى بها اليه التطور السابق، وهما يزعمان أيضا انه لم تكن عنده أية فكرة عن الأحوال الواقعية.

أما الحقيقة فهى بالأحرى أن المؤرخين الذين ينقدون أعمال عمر هم الذين يتصورون الأحوال الواقعية لذلك العصر تصورا خاطئا(١)، فلقد كانت هذه الأحوال مضطربة ومحتاجة الى تنظيم جديد، ولم يكن عمر نفسه هو الذي أحدث الاضطراب في نظام الخراج بل كان الاضطراب موجودا من قبل، ولم يكن الواجب الذى أراد عمر الاضطلاع به واجبا خياليا موهوما بل كان واجبا حقيقيا وملحا.

وكان أول من حاول النهوض بهذا الواجب محاولة جدية هو الحجاج غير أنه قام بذلك على نحو أثار عليه بغض الناس، أما عمر فقد حاول تحقيق ذلك الواجب عن طريق آخر مراعيا تلك الحساسية التى يؤيدها

---

١ ــ وهذا حق لأن عمر بن عبد العزيز في الحقيقة كان يعايش تلك الاحوال الواقعية و يعيها تماما و يعرف اسبابها منذ عاصر عبد الملك وعمل معه واليا على خناصرة، و يعلم كل شيء عن الحجاج وغيره من عمال عبد الملك والوليد وسيرتهم في الرعية، وعاصر الوليد وعمل له واليا على الحجاز حوالى ست سنوات، ثم عاش في دمشق بجانب الوليد وحتى بعد موت الحجاج وكان لمعايشته الاحوال السيئة تلك كثيرا ما ينتقد من اعمال الوليد مما أغضبه عليه وكاد يقتله. ثم عاصر سليمان ابن عبد الملك وكان وزيرا له ومستشارا فقد قال له سليمان: (انا قد ولينا ما ترى وليس لنا علم بتدبيره فما رأيت من مصلحة العامة فمر به فليكتب) وكان من ذلك عزل نواب الحجاج واخراج اهل السجون منها واطلاق الاسرى و بذل الاعطية بالعراق ورد الصلاة الى ميقاتها الاول الخ البداية والنهاية ٩/٢٠٠. فهل يقال بعد ذلك ان عمر بن عبد العزيز لم تكن عنده أية فكرة عن الاحوال الواقعية؟.

الإسلام أو التى تستند إليه على الأقل، وقد كان أمام كل من الحجاج وعمر نفس المشكلة التى تمخضت عنها الأيام، وكان لابد لها من حل، وهى إنما نشأت من أن أرض الخراج أخذت تنتقل شيئا فشيئا الى أيدي مالكين لا يلزمهم أداء الخراج(١).

و بذلك يبطل أيضا في الجملة ما يؤخذ على عمر بن عبد العزيز من أنه زعزع أركان الدولة الاموية فالحق انها كانت تميد قبله، وكانت من أوّل الأمر مزعزعة (لأنها استندت في قيامها الى السيف ولم تقم باختيار الأمة ورضاها).

فأما القاعدة التى تمخضت عنها الحكمة الرومانية: وهي أن الدولة لا يمكن أن تعيش إلا بالوسائل التى اعتمدت عليها في قيامها، هذه القاعدة التى يسوقها اوجست موللر في أخذه على عمر بن عبد العزيز انحرافه عن سنة سلفه من خلفاء بنى أمية، فهى قاعدة يمكن أيضا أن تذكر في معرض النقد لخلفاء بنى أمية أنفسهم. ذلك أن حكومتهم لم تكن بأى حال من الأحوال سائرة على سنة حكومة النبى صلى الله عليه وسلم ــ وأصحابه. وهى وإن كانت أرادت أن تتمسك بالإسلام ــ وما كان يمكنها أن تتنكر له ــ فإن الإسلام لم يكن من شأنه أن يؤيدها بل أن يقوض الأساس الذى قامت عليه، وكان الواجب مراعاة للأصول التى تقوم عليها الدولة التيوقراطية (الدينية) على الأقل أن يكون المركز السياسي للمواطنين تابعا

---

١ ــ هنا جانب الصواب فلهاوزن في معرفة مفهوم المشكلة فليست المشكلة كما فهم هي انتقال الارض من الخراج الى العشر فليس هذا هو المشكلة الحقيقية وانما المشكلة كانت هي سوء العلاقة بين الحاكم والمحكوم التى مردها ظلم الحكام وانحرافهم بأموال المسلمين الى وجهة غير صحيحة واستبدادهم بالامة، وهذه المشكلة من أهم اسبابها وجود الحجاج وسياسته فلم يكن الحجاج يسعى الى حل لمشكلة كان هو وسياسته سببها وجوهرها. ونزيد الصورة وضوحا في مبحث المقارنة بين عمر والحجاج باذن الله.

للدين، وأن يكون الإسلام لا القومية هو الذى يجعل للمواطنين فيها حقوقهم.

وكان الموالى بالباب يتربصون الدوائر، كانوا يتطلعون الى المساواة التامة بالعرب وكان الإسلام في جانبهم، فاجتذبتهم الثورة التى كانت تستند الى الإسلام(١) ــ وقد حاول عمر بن عبد العزيز أن يجيب مطالبهم دون ثمن غال، ولعل الاعتبارات التى كانت تحدوه في ذلك قد كانت اعتبارات دينية أكثر منها سياسية(٢)، ولم يكن من المستطاع كسر الروح الإسلامية بل كان لابد من أن يحسب حسابها. وكانت خصومة الإسلام للدولة الأموية تهددها بالانهيار، وعلى هذا فإن خليفة أمويا يجتهد في أن يتمشى مع أصول الإسلام وفي تجريد حركات المعارضة من سلاحها الإسلامي بأن يزيل أسباب الشكوى التى كان لها ما يبررها، و يستجيب الى ما يمكن الاستجابة اليه من مطالب، إن خليفة يعمل لذلك لا يكون قد أتى شيئا يضر بمصلحة أمته الحاكمة. وربما كان هذا هو البرنامج الذى وضعه عمر بن عبد العزيز فهو قد حاول أن يجد في الإسلام أساساً مشتركا بين الجموع، وهو تمشيا مع هذه الغاية سار على سياسة التفاهم والتصالح.

ولم يكن عمله في ذلك مقصورا على الموالى وحدهم فقد حاول أيضا أن يزيل اسباب التذمر في الأمصار، وخصوصا حاول أن يزيل ما كان في نفوس أهل العراق من شعور بأنهم تحت حكم رياسة شامية، وكان بره يتسع للجميع على سواء، بل كان يظن أنه يستطيع إرضاء الخوارج بمناظرته إياهم في أرائهم، وهو قد نجح على الأقل في أن جعلهم يغمدون

---

١ ــ بل كل ثورة تقوم للتخلص من حكم بنى أمية مهما كانت أهدافها.

٢ ــ بل هي دينية فعلاً لأن عمر بن عبد العزيز لم يكن يخطو خطوة إلاّ بوحى إيمانه ودفع تقواه وإسلامه.

سيوفهم ما امتدت حياته، ولم يكن يعاقب المجرمين السياسيين(١)، على أنه كان شديدا على غيرهم من المجرمين، وقد أثبت بره بالعلويين ورد اليهم ما كان قد أخذ منهم من ممتلكات، وفعل مثل ذلك مع ورثة طلحة، وترك لعن على بن أبى طالب على المنابر وكتب بذلك الى الآفاق.

ومهما يكن من شيء فقد كانت أغراض عمر أغراضا طيبة، وربما لم تكن بعيدة أيضا عن الحكمة(٢)، ولا يكون التكهن بما كان سيحقق من أعمال لأن خلافته لم تدم إلاّ نحو عامين ونصف(٣).

وهكذا وضع فلهاوزن الأمور في نصابها الصحيح وتحت المنظار السليم البعيد عن التعصب المقيت والجهل الفاضح. ولكن العجب أن يأتى بعد ذلك مؤرخون مسلمون يجارون أولئك المستشرقين المتعصبين في انتقاداتهم فيرددونها وكأنهم لم يطلعوا على رد فلهاوزن أو على الأقل كان عليهم أن ينظروا الى ما فعله عمر بروح المسلم ونظرة الإسلام، فإنَّ من يتهم عمر بن عبد العزيز بنظرته الرجعية وعقيدته الدينية، ماذا كانوا يريدون من عمر أن يفعل وقد أصبح خليفة وهو يعتبر واحدا من أهم علماء المسلمين وقوله وفعله مما يقتدى به من بين التابعين؟ ما هو في نظرهم ــ إن كانوا مسلمين حقا ــ تعريف الرجعية والتقدمية؟ أم هي ألفاظ نرددها دون إدراك لمعناها الحقيقي بلغة العصر ونظرة العصر بعيدا بعيدا عن الدين؟.

والعجب العجاب أن تأتى مؤرخة مسلمة تدافع عن فرض الجزية على المسلمين بقولها: «والواقع أن هذه العملية يمكن الدفاع عنها من وجهة

---

١ ــ لأن حرية الرأى في زمنه كانت مكفولة.

٢ ــ بل يقينا انها كانت تنبع من الحكمة والتعقل الواعى بحقائق الاسلام.

٣ ــ تاريخ الدولة العربية ٢٩٥ــ٣٠١ بتصرف.

دفاع د. سيدة الكاشف عن فرض الجزية على المسلمين

النظر المالية والاقتصادية لأن دخل الحكومة وماليتها يجب أن يكونا مستقلين الى حد كبير عن الظروف الخاصة غير المنظورة كاعتناق الاشخاص الدين الإسلامي أو شراء العرب للأراضي الخراجية، وما الى ذلك مما يصعب على الحكومة تقدير أثره في ماليتها(١).

رد على ذلك

تقول ذلك في معرض دفاعها عن سياسة الحجاج المالية. فنقول: أى وجهة نظر مالية واقتصادية تعنيها الدكتورة؟ هل هي وجهة النظر الإسلامية أو الكافرة الغربية؟ إن كانت وجهة النظر الإسلامية فهذا غير صحيح، فالإسلام لا ينظر الى الاقتصاد والمال إلاَّ أنَّه خادم للدعوة الى الإسلام وهذا واضح في جعله سهما من مصارف الزكاة للاستئلاف على الإسلام. ولم يجعل الإسلام المال أو الاقتصاد سيدا على الدعوة، وأما إن كانت وجهة نظر غير إسلامية حديثة تعتبر المال والاقتصاد هو الموجه لأخلاقيات الأمة فهذا غير ما نحن فيه ــ ولا يجوز للمؤرخ المنصف أن يحكم بنظرية حديثة على وقائع قديمة ــ ولأن الحجاج وغيره من حكام الدولة الاسلامية إنما كانوا يمثلون الإسلام الحاكم ــ ولم يكونوا يطبقون قواعد ولا قوانين وضعية ــ فكان يجب عليهم أن يتبعوا شريعة الإسلام الصحيحة في الدعوة الى الإسلام وفتح الطريق أمام من يريد الدخول فيه لا سد هذا الطريق والوقوف حائلا بين الناس و بين رغبتهم في الدخول الى الإسلام، والدليل على أن الحجاج وأمثاله ومن وافقه في سياسته وشايعه كانوا يقفون حاجزا بين الإسلام والناس ــ الدليل على ذلك كثرة من دخلوا الى الإسلام في عهد عمر بن عبد العزيز الذي فتح الباب على مصراعيه أمام من يريدون الإسلام، فما أن أسقط عن رقابهم الجزية حتى دخلوا في دين الله أفواجا ــ وهي نفسها تعترف بذلك إذ تقول «وقد أقبل

١ــ ــ الوليد بن عبد الملك سلسلة اعلام العرب ص ٨٠.

سكان البلاد المغلوبة على اعتناق الإسلام ولاسيما بعد أن أمر عمر بن عبد العزيز برفع الجزية عمن يعتنق الإسلام»(١). إذاً فمن قبل عمر بن عبد العزيز بوضعه الجزية على المسلمين كان يحول بين أهل الذمة والدخول في الإسلام، وهذه أشنع مخالفة لرسالة الإسلام، فهل عمر بفعله ذلك يعتبر رجعيا متعصبا؟ وهل سياسته تعتبر سياسة فاشلة؟.

ثم نعود لنفند باقي الاتهامات: أما اتهامات عمر ابو النصر فتتلخص فيما يلي: يدعى الكاتب:

اتهامات عمر ابو النصر ودعاواه

أولاً: إن طريقة عمر بن عبد العزيز في رفع الضريبة ــ الجزية وغيرها من الضرائب الظالمة ــ أفقرت بيت المال.

ثانياً: يدعى أنَّ عمر لم يفكر في طريقة ثانية تحفظ لخزانة الدولة مواردها السالفة.

وهذان الدعويان كفانا الرد عليهما فلهاوزن فيما مضى وسنرى فيما يأتى حينما نتحدث عن الرفاه في عهد عمر بُعْد ذلك عن الحقيقة.

ثالثاً: ادعى أن الضرورة قضت بفرض ضرائب جديدة على المسلمين وغير المسلمين.

رابعاً: يدعى أنَّ هذه الضرائب أغضبت العرب والمسلمين الجدد.

خامساً: يدعى متداركا أنَّ هذه الأزمة لم تظهر في أيام عمر وإنَّما ظهرت بعده.

سادساً: يقول: إنَّ هذه السياسة كانت من الأسباب التى عجلت في انهيار بنى أمية.

---

١ ــ الوليد بن عبد الملك ٢١٥.

الرد عليها

آما الدعوى الثالثة وهى فرض ضرائب جديدة فلم يذكر الكاتب نوع هذه الضرائب ولا على من فرضت ولا متى فرضت؟ إلا إذا كان يريد من ذلك جِدَّ عمر بن عبد العزيز في جمع الزكاة من المسلمين وحرصه عليها

الضرائب التى فرضها عمر

وتوزيعها في مصارفها الخاصة، وتشديده في إخراج صدقة الفطر وتوزيعها كذلك بين مستحقيها، وفرضه العشر أو نصفه مع الخراج على الأرض الخراجية التى يملكها مسلم، وهذه فرائض شرعية وليست ضرائب جديدة. وإلا لم يقل أحد إنَّ عمر بن عبد العزيز فرض ضرائب جديدة. و بالتالي إذا انتفى أن يكون عمر قد فرض ضرائب جديدة فينتفى بالتالى ان يكون أغضب العرب أو المسلمين الجدد، بل على العكس قد روى كثير من المؤرخين أن الناس لما سمعوا بعدل عمر وتقواه و ورعه وحثه على إخراج الزكاة والصدقة أصبح الناس يخرجون زكاة أموالهم بدون مطالبة و يؤدونها الى العمال ليوزعوها بين مستحقيها(١).

وأما كون الأزمة لم تظهر في أيام عمر بن عبد العزيز وإنَّما ظهرت بعده فإنى أوجه هذا السؤال الى المدعى: هل من جاء بعد عمر بن عبد العزيز سار على سياسة عمر ثم تبين من بعد أن الأزمة تسببت عن تلك السياسة؟ أم أن من جاء بعد عمر رجع عن سياسته واختط سياسة ظالمة كمن سبق عهد عمر بل سار على درب الوليد والحجاج في الظلم والجور وزاد بالإسراف والتبذير؟ إن كانت الإجابة عن الأول بنعم. فنقول معه إنَّ سياسة عمر هي التى سببت هذه الأزمة. وإن كانت الإجابة نفيا وكان من جاء بعد عمر رجع عن سياسة عمر منذ أول لحظة فمعنى ذلك

---

١ ــ كتب اليه بعض ولاته: ان الناس لما سمعوا بولايتك سارعوا الى أداء الزكاة ــ زكاة الفطر ــ فقد اجتمع لدى من ذلك شيء كثير ولا أحب ان احدث فيها شيئا حتى تكتب الى برأيك، فكتب اليه عمر: لعمرى ما وجدونى واياك على ما ظنوا فما حبسك اياها الى اليوم؟ اخرجها حين تنظر في كتابى. الجمهرة ٢/٣٥١.

أنَّ عمر وسياسته ليسا مسئولين عن أزمة كان سببها في الحقيقة هو الرجوع عن سياسة عمر والانحراف عن الخط الذى رسمه عمر. ولو سار من بعد عمر على سياسته لكان للخزانة شأن آخر غير ما يدعون.

سياسة عمر من اسباب انهيار الدولة الاموية

وأما عن الافتراض أو الدعوى الأخيرة ــ وقد رددها أبو النصر ترديدا لانه سبقه إليها كما رأينا موللر وكريمر وفان فلوتن ــ وقد رأينا رد فلهاوزن عليها ولكنى أزيد وأقول: إنْ كانت سياسة عمر بن عبد العزيز من أسباب انهيار دولة بنى أمية ومن أسباب الثورات التى أدت الى ذلك فأقول: نعم ولكن من وجه مخالف لما ادعوا، ليس من كونها أفقرت بيت المال أو فرضت ضرائب جديدة أو أجحفت بالموالى أو غير ذلك، لا بل إنَّها كانت سببا من حيث إنَّها كشفت للناس بوضوح تام وجه العدالة الحقة و بينت تماما ما يرزح الناس تحته من ظلم وأوضحت للأمة كلها الحقوق الضائعة التى استلبها منهم بنو أمية، وردت الى الناس كلهم عر بهم وعجمهم كرامتهم وحريتهم في التعبير والانتقاد والمطالبة بالحقوق المشروعة، فلما أن جاء من بعد عمر ليحرمهم من ذلك كله قاموا يدافعون عن حقوقهم المسلوبة وأموالهم المنهوبة، فكانت الثورات ضد حكم بنى أمية من وراء هذه الأسباب، فمن هنا يمكن أنْ نقول إنَّ سياسة عمر ــ السياسة المالية ــ في إحقاق الحق واظهار وجه العدالة كانت سببا مهما من أسباب انهيار حكم بنى أمية.

رد الدكتور ضياء الدين الريس

و يقول الدكتور ضياء الدين الريس في بعض رده على تلك التهم «كأن هؤلاء الذين ينتقدون سياسة عمر كانوا يرون أنه كان ينبغى له ان يتبع سياسة الظلم لا العدل وان يقسو على الناس بدلا من أن يرحمهم وأن يخالف أحكام الشريعة.

إذ أنهم يجعلون الفضيلة رذيلة و يقلبون الحق باطلا، فهذا هو الذي

يرضيهم إذ أن ذنب عمر ــ كما ينم على ذلك بعض كلامهم ــ هو أن سياسته أدت الى أنَّ الناس في عهده دخلوا في الإسلام أفواجا(١).

وذلك بعد قوله في معرض الرد على تُهَم أولئك المستشرقين ومن تابعهم: وإذا بحثنا عن أى أساس علمي استندوا اليه فإننا لن نجد إلاّ دعواهم بأن سياسة عمر بن عبد العزيز أدت الى اضطراب الأحوال للدولة والى نقص مواردها نقصا خطيرا، وقد استنتجوا ذلك من قرار عمر وضع الجزية عمن أسلم، ومن منعه بيع أرض الخراج، وغير هذا الاستنتاج بالحدس لم يقدموا أى دليل تاريخي كأن يوردوا إحصائيات مقارنة بالأرقام أو رواية لمؤرخ أو نحو ذلك، ولكن الحدس لا يمكن أن يقف أمام دليل الحقائق التاريخية الثابتة(٢).

رد الدكتور شلبى

و يقف أيضا في مواجهة أولئك المستشرقين ومن تابعهم الدكتور احمد شلبى فيقول: وعلى كل فنحن ندهش من هذه الغيرة المصطنعة التى أبداها هؤلاء المستشرقون على بيت مال المسلمين، وقد نسى هؤلاء حقيقة واضحة: هي أنَّ الارتباك الذى حصل كان بعد عمر بن عبد العزيز بسبب العودة لكثرة المصروفات مع تقليل الإيرادات كإعادة الهبات والإقطاعيات، وليس عمر مسئولا عن هذا الارتباك وإنما يسأل عنه الذين تسببوا فيه، ثم ما كان عمر يستطيع أن يفعل غير ما فعل وإن اضطرب حال بيت المال، فإنَّ عمر كان ينفذ قانونا إسلاميا عندما أسقط الجزية عمن أسلم ولا يبقى الجزية على المسلمين إلا جاهل أو جائر، وحاشا أن يكون عمر جاهلا أو جائرا، وأغلب الظن أن عمر لو أبقى الجزية على من أسلم لنشط هؤلاء المستشرقون في الطعن فيه والنيل من دينه(٣).

---

١ ــ الخراج والنظم المالية ٢٣٩.

٢ ــ المرجع السابق ٢٣٦.

٣ ــ السياسة والاقتصاد ٢٥٠.

الفصل الثالث

وجـــه الحـــق

المبحث الأول: أساس الادعاءات

إن الذين يتهمون عمر بن عبد العزيز بسوء سياسته المالية وأن سياسته هذه أفقرت بيت المال، ما حجتهم وعلام بنوا ادعاءاتهم وتهمهم تلك؟.

أساس الدعاوى

هل هذه الدعاوى مجرد حدس وتخمين وبدافع من التعصب الأحمق الممقوت أم أن لها أساسا من الواقع بنوا عليه تلك الادعاءات؟.

إنَّ أسلوب المستشرقين ودافعهم في الأعم الأغلب مبنى على الدس والتعصب الأحمق الصليبى ضد الإسلام ورجاله الأفذاذ، وخاصة فيما يتعلق بالدعوة المخلصة الى الإسلام إذا صادفت أرضا خصبة نمت فيها بذورها وأينعت ثمارها وآتت أكلها، فإذا كان الى جانب ذلك أخبار واردة تشد من عضدهم فيما يريدون اغتنموا الفرصة وانتهزوها لبث سمومهم في التشويه والدس، وإلاّ فما غيرتهم المصطنعة على بيت مال المسلمين؟ وإلاّ فمتى كان يهم أولئك أن يعمر بيت مال المسلمين وتفيض خزائنه بالأموال؟.

فالأخبار الواردة التى ساعدت أولئك في ادعاءاتهم وافتراءتهم وردت في أكثر الكتب التى كتبت عن سيرة ذلك الخليفة العظيم تشير إلى جهوده في إبطال المظالم.

افلاس بيت مال العراق

أما الخبر الأول فقد ورد عن سياسة عمر المالية في العراق نقلا عن كاتب عامل عمر بن عبد العزيز على الكوفة وهو أبو الزناد الفقيه إذ يقول أبو الزناد: كان عمر بن عبد العزيز يرد المظالم الى أهلها بغير البينة القاطعة وكان يكتفى باليسير، إذا عرف وجه مظلمة الرجل ردها عليه، ولم يكلفه تحقيق البينة لما يعرف من غشم الولاة قبله على الناس، ولقد

أنفد بيت مال العراق في رد المظالم حتى حمل اليها من الشام(١).

والخبر الثاني عن عامله على مصر حيان بن سريج(٢) إذ كتب اليه يقول «أما بعد فإن الإسلام أضر بالجزية حتى تسلفت من الحارث بن ثابتة عشرين ألف دينار أتممت بها عطاء أهل الديوان، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بقضائها فعل» فكان رد عمر «أما بعد فقد بلغنى كتابك وقد وليتك جند مصر وأنا عارف بضعفك، وقد أمرت رسولى بضربك على رأسك عشرين سوطا، فضع الجزية عمن أسلم قبح الله رأيك فإن الله عز وجل بعث محمدا صلى الله عليه وسلم هاديا ولم يرسله جابيا، ولعمرى لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم الإسلام على يديه»(٣).

عجز بيت مال مصر بسبب اسلام الذميين

فهذان الخبران صريحان في أن بيت المال في الكوفة ومصر قد أصابه العجز وفي كلتا الحالتين كان بيت مال الشام يتولى سد العجز الحاصل، فبيت مال الكوفة نفد في سبيل رد المظالم التى أصابت أهلها، و بيت مال مصر أصيب بعجز كبير من جراء إسقاط جزية من أسلم من أهل الذمة تلك الضريبة التى فرضت على أهل مصر بعد وفاة عبد العزيز بن مروان.

الخوف من قلة الخراج

وهناك أخبار أخرى تفيد أن اسقاط الجزية قد أضر بيت المال أو خيف ذلك الضرر فوالى عمر على البصرة عدى بن أرطأة يكتب اليه فيقول: «إنَّ الناس قد كثروا في الإسلام وخفت أن يقل الخراج، فيجيبه: فهمت كتابك والله لوددت أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت حراثين نأكل من عمل أيدينا»(٤).

---

١ ــ ابن عبد الحكم ١٠٦، الطبقات ٥/٢٥٢.

٢ ــ روى هذا الاسم سريج ــ بالسين والجيم ــ وشريح بالشين والحاء.

٣ ــ الجمهرة ٢/٣٤٤ الطبقات ٥/٢٨٣.

٤ ــ الحلية ٥/٣٠٥ ابن الجوزى ٩٩.

و يكتب اليه آخر «إنك قد أضررت ببيت المال» فيجيبه: «أعط ما فيه فإذا لم يبق فيه شيء فاملأه زبلا»(١).

ضرر بيت المال

على هذه الأخبار وأمثالها اعتمد أولئك في دعواهم، الى جانب الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله في رد مظالم بيت المال ثم في إسقاطه عديدا من الضرائب التى كانت مفروضة على أهل الذمة والخراج، ثم تعميمه العطاء ومساواته فيه بين العرب والموالى، كل ذلك دعاهم الى الاتهام بأن هذه السياسة التى استنها عمر قد سببت إفلاساً للدولة. وقد رأينا في الردود السابقة حججا مجملة تبين خطأ تلك الدعاوى وسنرى الآن ــ بإذن الله ــ أن مستنداتهم التى استندوا اليها في دعواهم الباطلة باطلة.

صحيح أن عمر عبد العزيز رد مظالم أهل العراق التى ارتكبها في حقهم جلادو بنى مروان الحجاج و يزيد بن أبى مسلم و يزيد بن المهلب وغيرهم ممن كانوا ولاة وعمالا لعبد الملك والوليد وسليمان، لكن السؤال الآن عن النقص الذى حدث من جراء ذلك متى حدث ذلك النقص والعجز في بيوت الأقاليم؟ وما سببه؟ وإلام استمر؟ وهل حدث مثله في مركز الدولة أى في الشام؟. وحينما توفى عمر بن عبد العزيز هل كان ذلك النقص لا يزال باقيا؟.

أسئلة

و إجابات

اسئلة تراود الذهن والإجابة عليها تكون فاصلة ــ إن شاء الله ــ في بيان وجه الحق في رد تلك الدعاوى. نحن ليس بين أيدينا ميزانيات مفصلة للدخول في تلك الفترة ولا لما قبلها مباشرة ولا لما بعدها. ولكن من خلال تلك الأخبار والاثار الواردة نستطيع أن نتبين وجه الصواب بإذن الله.

---

١ ــ الحلية ٥/٢٧٨ ابن الجوزى ٨٥.

أما متى حدث ذلك النقص والضرر فمن خلال تلك الكتب المتبادلة بين عمر بن عبد العزيز وولاته وعماله نستطيع أن نستنتج أنَّ هذه الكتب تتحدث عن الفترة الأولى من خلافة عمر القصيرة، أى بعد توليه الخلافة بمدة يسيرة أو في السنة الأولى من خلافة عمر، لأنَّ ما بعد ذلك من الكتب المتبادلة بين الخليفة وعماله تشعر بعكس ذلك تماماً، وأن بيوت أموال الأقاليم تلك أصبح فيها فائض يسأل العامل كيف ينفقه؟ فيجيبه عمر: وكتبت تذكر أنه قد اجتمعت عندك أموال بعد أعطية الجند، فأعط منهم من كان عليه دين من غير فساد، أو تزوج فلم يقدر على نقد فزوجه واصدق عنه «فيكتب اليه ثانية» إنى قد قضيت عنهم وزوجت كل من وجدت وقد بقى في بيت مال المسلمين مال «فيكتب اليه بعد ذلك» انظر من كانت عليه جزية فضعف عن أرضه فأسلفه ما يقوى به على عمل أرضه فإنا لا نريدهم لعام أو لعامين(١).

رد بعض الضرائب على الموالين تقوية لهم

وكتب الى عقبة بن زرعة الطائى وقد ولاه خراج خراسان: «إنَّ للسلطان أركانا لا يثبت إلاّ بها. فالوالى ركن، والقاضي ركن، وصاحب بيت المال ركن، والركن الرابع أنا، وليس من ثغور المسلمين ثغر أهم إليَّ ولا أعظم عندى من ثغر خراسان، فاستوعب الخراج وأحرزه في غير ظلم. فإن يكن كفافا لأعطياتهم فسبيل ذلك، وإلاَّ فاكتب إليَّ حتى أحمل اليك الأموال فتوفر لهم أعطياتهم(١).

أركان السلطان

(وهذه خراسان كانت أهم ثغر في المشرق، وقد أسقط عمر بن عبد العزيز عمن أسلم من أهلها الجزية وأعطى عشرين ألفا من الموالى العطاء وسواهم بالعرب فهل نقص خراج ذلك الثغر؟) ــ الجواب يقول: «فقدم عقبة فوجد خراجهم يفضل عن أعطياتهم. فكتب الى عمر فأعلمه فكتب اليه عمر: أن اقسم في أهل الحاجة(١).

---

١ ــ ابن عبد الحكم ٥٧، ٥٨، الاموال ٣٥٧.

اذاً لم يستمر نقص الخراج لا في العراق ولا في خراسان، هذا وقد خشي نقص خراج خراسان أبو مجلز ــ لاحق بن حميد السدوسي من الثقات ــ الذى استدعاه عمر من خراسان ليسأله عنها وعمن يصلح لولايتها خلفا عن الجراح بن عبد الله الذى عزله عمر لظلمه وجفائه، إذ قال أبو مجلز: إنك وضعتنا بمنقطع التراب فاحمل إلينا الأموال. قال: أبا مجلز قلّبت الامر؟ (أى هل فكرت جيدا في الموضوع) ــ قال: ياأمير المؤمنين أهو لنا أو لك؟ قال: بل هو لكم إذا قصر خراجكم عن أعطياتكم. قال: فلا أنت تحمله إلينا ولا نحمله إليك وقد وضعت بعضه على بعض؟ ــ (ذلك يشير الى وفرة المال الموجود في بيت مال دمشق) ــ قال عمر: «أحمله اليكم إن شاء الله[1]. وقد رأينا كيف أنَّ الخراج لم ينقص بل زاد وفاض «وفي إعطاء الفلاحين سلفة من مال الخراج أو هبة بعض الضرائب على المسلمين ودافعى الضرائب ليعود ذلك بمردود آخر أكبر على خزينة الدولة نظرة اقتصادية سليمة قويمة».

تعليق على إسلاف الفلاحين

ومن خلال حديث أبى مجلز تبين لنا أن خزانة دمشق كانت تفيض بالأموال فلم يحدث فيها نقص أبدا ــ و بالطبع و بناء على ذلك وعلى ما سنرى في مبحث الرخاء أن عمر لم يمت إلاّ والخزائن تفيض بأموالها. وأما العراق فقد رأينا في مباحث سابقة أن خراجه أيام الحجاج تدنى الى درجة مذهلة حتى وصل الى ثمانية عشر ألف ألف درهم في أسوأ السنوات، وإن أول سنة من سنى خلافة عمر بن عبد العزيز جباه ثمانين ألف ألف وفي السنة التالية وصل الى مائة ألف ألف وأربعة وعشرين ألف ألف[2].

ارتفاع جباية الخراج في زمن عمر عنها في زمن الحجاج

١ ــ الطبرى ٨/١٣٩.

٢ ــ انظر مبحث حالة الدولة قبيل عهد عمر من هذه الرسالة.

فلم يكن عمر مهملا النظر في مالية الدولة، ولم يكن غرّا بتصريف شئونها، فإن زعم بعد ذلك مغرض أو مخدوع بأن سياسة عمر المالية قد أساءت الى بيت مال المسلمين وسببت فقرا في خزينة الدولة مما دعاه بعد ذلك الى فرض ضرائب جديدة ليعوض النقص الناتج عن رفع الجزية عمن أسلم ــ إن زعم ذلك زاعم ففيما قدمنا من الأدلة الدامغة ما يدحض هذه المزاعم المبطلة و يضع المعالم في الطريق الحق لتتضح الرؤى و يقتنع كل متردد بأن السير على طريق الحق والعدالة في ظلال كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لن يؤدي أبداً إلا الى خير يعم الأمة كلها في دنياها وآخرتها في مالها وأخلاقها وسلوكها.

المبحث الثاني

الموازنة العادلة أو تقديرات عمر الحقة

طريق عمر

لقد سلك عمر بن عبد العزيز طريق العدالة والحق، ولم يبال بما اعترضه من عقبات وموانع وضلال طال أمده حتى حسبه الناس رشادا، ولم يكن عمر جاهلا بالإدارة والاقتصاد، ولم يكن غرا لا يفكر في العواقب. كان يعلم يقينا أنَّ رفع الجزية سيسبب نقصا فادحا في بيت المال، وكان يعلم أن كثرة العطاء وزيادته ورد المظالم لسنوات عديدة سيسبب أيضا لا نقصا في بيت المال فحسب بل خرابا له، ولكنه مع ذلك كان يعلم يقينا أنَّ بيت المال لن يفتقر وأنَّ الأمة لن يتدنى مستوى معيشتها. بل كان يقدر عالما عكس ذلك تماما لأنَّه على يقين من أن مداخيل الدولة ستفي بل وتزيد على هذه النفقات الهائلة، وستعيش الأمة في بحبوحة من العيش وسعة من الرزق مادامت العدالة والرحمة تظلان الجميع لأنه كان ينظر بنور الله لا بلمعان الدراهم والدنانير كما ينظر الاقتصاديون والماديون. ولأنه كان يرى ــ وهو الحق ــ أنَّ الإنسان هو الذى يستطيع أن يسير الاقتصاد كما يريد، لا أن يسيره الاقتصاد كما ينظر و يرى الماديون الجدليون.

فماذا فعل عمر ليؤمن و يوفر دخل بيت المال دون ظلم أو جور؟ ــ وقد نذر نفسه لإزالتهما ــ ورائده في ذلك أخذ المال من حقه و وضعه في يد مستحقه.

معالم الطريق

لقد رسم عمر بنفسه معالم هذا الطريق وقد رأينا تفصيلا لذلك في مباحث منع مداخل الحرام وثغرات التسرب. ولكنا سنجمل هنا ما فعله ليكون تتمة للرد على أولئك المبطلين.

أولا: رأينا أن عمر بدأ بنفسه وقال: ينبغي أن لا أبدأ بأول من نفسي[1]، فجرد نفسه من كل ما يملك مما وهب له أو أعطيه أو ورثه مما شك في حله، ولم يبق له إلاّ أرضا أحياها غلتها مائتا دينار في العام، ورد كل ماعدا ذلك الى بيت مال المسلمين فبلغ أكثر من أربعين ألف دينار.

البدء بالنفس

ثم لم يأخذ من بيت مال المسلمين درهما. كان خادما للمسلمين دون أجر، ثم هو لم يخرج من بيت مال المسلمين عطاء أو هبة لشاعر أو خطيب أو جارية أو زوجة أو ولد، فوفر على المسلمين مالهم.

خادم بلا أجر

وإذا نظرنا الى نفقات الخلفاء قبله من بيت مال المسلمين لأدركنا مقدار الوفر الذى أصاب بيت مال المسلمين طيلة عهد عمر بن عبد العزيز.

ثانيا ثم هو مع منعه نفسه أموال الأمة رد عليها كل ما كان ينفقه الخلفاء على مظاهر العظمة والمهابة، والسرف من مراكب وخيول وحرس وغير ذلك، ورد كل ذلك الى بيت مال المسلمين وسد باب السرف والترف والاستغلال، فعاش خليفة متواضعا في مظهره يعيش في بيت من طين، ورعا في مخبره يعيش عيشة أدنى فرد في رعيته، وكان باب الإسراف في المظاهر يكلف الدولة ما لا يحصى.

الغاء المظاهر

ثالثا: منع زوجه وأولاده من الوصول الى مال المسلمين، بل ورد الى بيت المال ما قدر على رده من أموالهم وحليهم، ورأينا أنه جرد

كف أيدي الزوجة والولد

---

١ ــ الطبقات ٥/٢٥٢.

زوجه فاطمة بنت عبد الملك من كل حليها وجواهرها وملابسها الثمينة. ورد كل ذلك الى بيت مال المسلمين.

كف أيدى بنى أمية ورد ما بأيديهم

رابعا: التفت الى بنى أمية و بنى مروان منهم خاصة فرد أغلب إقطاعاتهم الى بيت المال، وكف أيديهم عن السلب والنهب وجعلهم أسوة الناس ، وكان ما يصل الى أيديهم من بيت المال في عهود سالفيه مبالغ هائلة.

خامسا: شدد الرقابة على العمال وكف أيديهم عن السرقة والاختلاس والرشاوي واستنزاف أموال المسلمين وحاسبهم بدقة حتى أنه غرم عامل بيت مال اليمن دنانير فقدها(١). ووسع عليهم في الرواتب ليخلصوا في أعمالهم وجعل الأمة رقيبة على العمال والولاة.

كف ايدى الولاة

العناية بالخراج والزكاة

سادسا: العناية التامة بالخراج واستيعابه دون ظلم، وإصلاح الأراضى وحفر الأنهار وإحياء فريضة الزكاة وتنظيمها جمعا وتوزيعا.

وفي مثل هذا يقول الدكتور عماد الدين خليل:

صحيح أن عمر بن عبد العزيز رفع شعار الهداية لا الجباية، وسد كثيرا من موارد الدولة غير المشروعة وأنفق بسخاء على جماهير المسلمين، إلاّ أن الخليفة لم يرتجل أبدا خطوة خطاها في يوم من الأيام ــ إنه كمسئول عن دولة فضلا عن كونه مسئولا عن أمة ــ كان يحسب حسابا لكل خطوة يخطوها، و يضع الضمانات والممهدات لكل سياسة يعتزم تنفيذها. إنَّه كخليفة راشد ذكى حاد البصيرة يعرف يقينا أن ارتجالا كهذا سوف يعرض مصالح الدولة بل وجودها ذاته للخطر، وانه لابد لدرء هذه الأخطار من إيجاد برنامج عملى يضمن للدولة بقاءها واستمرارها ونموها

دفاع لصاحب الملامح

---

١ ــ ابن عبد الحكم ٥٨ الجمهرة ٢/٣٣٤.

وقابليتها على تأدية واجباتها تجاه الأمة وتجاه العالم كله. إنه كأى خليفة راشد آخر كان يضع أمام الأمة ومسئولييها الآفاق التى يجب أن يتحركوا إليها لأن الإنسان مشدود دائما الى واقعة الراهن والأرض التى ولد عليها، ولابد لتحريكه الى الأمام ــ أن توضع نصب عينيه وفي مدى رؤياه معالم هذه الآفاق ولكن هذا لم يكن يعنى أبدا ــ ــ عند أى خليفة مسلم ــ أى نوع من الاتكالية أو الزهد الإدارى الذى يحيل الدولة الى جهاز عاطل ينتظر صدقات المحسنين، هذه الصورة المشوهة القلقة التى يريد المستشرقون والوضعيون أن يعرضوها عن الخلافة الراشدة إذ يدّعون: إنَّ كلا من هؤلاء الخلفاء كان يتمتع بحسن نية وتقوى شديدة، ورغبة عميقة في نشر الإسلام وخدمة أبناء الأمة ــ ولكنهم من وجهة أخرى ــ كانوا يفتقدون البصيرة والذكاء والحدس الإدارى الذى يمكنهم من إحداث توازن بين مصلحة الدولة ومصلحة الشريعة ومصلحة الأمة.

فرية للمستشرقين على الخلفاء الراشدين

وهذه الترهات لا رصيد لها من الواقع لأن كل خليفة من هؤلاء كان يمتلك الى جانب ورعه وتقواه وحرصه ذكاء نادرا وحدسا دقيقا و بصيرة نافذة تخرج بالدولة من أشد الازمات ظلمة وأكثر المشاكل تعقيدا، وإلاّ لما كان عمر بن الخطاب قد أرسى قواعد أضخم جهاز إدارى في قلب الصحراء التى لم تعرف عن الإدارة والأجهزة المركزية من قبل إلاّ لما ما، ولما كان أبو بكر الصديق قد أرسى دعائم وحدة من مئات القبائل التى كانت تحكمها تقاليد قرون طويلة من الفوضى والانفصال والتمزق.

اجراءات الموازنة

وها هو عمر بن عبد العزيز يتخذ من إجراءات الموزانة ما يدل على هذا و ينفى ترهات الوضعيين والعلمانيين.

حرية التجارة برا و بحرا

لقد فتح عمر ــ أوّلا ــ باب التجارة الحرة في البر والبحر واعلن «أما البحر فإنا نرى سبيله سبيل البر» «**اللهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ**»(١) «فأذن فيه أن يتجر فيه من

١ ــ سورة الجاثية الآية ١١

يشاء، وأرى أنَ لاَ نحول بين أحد من الناس و بينه، فإنَّ البر والبحر لله جميعا سخرهما لعباده يبتغون فيهما من فضله، فكيف نحول بين الناس و بين معايشهم»(١). ومن طريق حرية التجارة وفي المرحلة التاريخية التى كان العالم يجتازها أقر عمر بن عبد العزيز أسلوبا حيويا لتنمية الثروة والدخل القومى ورفع مستوى المعيشة وتهيئة شتى صنوف البضائع بأرخص الأسعار. و بالرغم من أن عمر ألغى ضرائب المكوس التى كان يمكن ان تنموعن طريق حرية التجارة ــ إلاّ أنَّ الدولة كانت تعتمد على طريق آخر لجنى ثمار هذه السياسة وهي الزكاة تلك الضريبة ــ (بل الفريضة) ــ التى لم يتهاون عمر في جبايتها وتنظيمها وتوزيعها وفق أمر الله به ورسوله. ومقدار ٢ر٥٪ من أصل رأس المال (بل وربحه) ــ يشكل دخلا محترما في مجتمع يسوده النشاط التجارى والتنمية المستمرة للثروة ولم تكن ضريبة الزكاة هذه تجبى ارتجالا، وإنَّما لها عمالها وأجهزتها الدقيقة، ومن هنا يمكن أن نتصور مقدار الدخل الذى ستجنيه الدولة من هذا المورد ونتوقع النتيجة المحتمة لرفع مستوى الطبقات الفقيرة، ومنها قيمة شرائية تؤثر بدورها على الدورة العامة لنمو الدخل القومى في الدولة الإسلامية وسيؤدى هذا الى نشر الرفاهية وارتفاع مستوى المعيشة وانعدام الفقر ومن ثم الى إنماء الدولة الإسلامية.

الزكاة وأثرها على الدخل القومى

وقد عمل عمر ــ ثانيا ــ على اتباع سياسة زراعية سليمة فأشار على عماله بأنَّ الاهتمام بالإصلاح والإعمار وإحياء الأراضي وإقامة مشاريع يجب أن يسبق التأكيد على الجباية. يتضح ذلك من كتاب الى عامله على الكوفة حيث يقول: «لا تحمل خرابا على عامر ولا عامرا على خراب انظر الخراب فخذ منه ما أطاق وأصلحه حتى يعمر، ولا يؤخذ من العامر إلاّ وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الأرض(٢).

السياسة الزراعية والاهتمام بالخراج

---

١ ــ ابن عبد الحكم ٨٢.

٢ ــ الاموال لأبى عبيد ٦٤ والخراج لابى يوسف ٨٦.

كما يتضح من كتاب آخر الى أحد عماله يطلب منه أن يعتمد على ما لديه من فائض في تقديم سلف نقدية لمزارعى أهل الذمة كى يتقووا على أعمالهم الزراعية(١). وكتب اليه عامله على البصرة يعرض عليه طلب أهل البصرة في حفر نهر لهم، فأذن له عمر. ومن ثم قام العامل بحفر النهر المعروف باسمه نهر عدى(٢). كما أمر عمر بنى أمية أن يقيموا في ضياعهم و يعملوا على إصلاحها(٣). وقد عزز عمر سياسته هذه بإعطاء ضمانات للمزارعين وعدم إرهاقهم بضرائب خراجية ثابتة على أعناقهم سواء كان المحصول جيدا أو رديئا ــ (لعل الكاتب هنا يشير الى تلك الضرائب الثابتة التى كان قد فرضها(٤) محمد بن يوسف على اليمن وهى ليست أرضا خراجية فأبطلها عمر).

ومن السهل أن نتنبأ بنتائج هذه السياسة التى تؤكد على تنشيط الزراعة واستغلال الطاقات الانتاجية وتطمين المزارعين.

فلا ريب أن ضريبة الخراج التى نمت بنمو النشاط الزراعى كانت تشكل المورد الرئيسي الآخر للدولة الى جانب الزكاة، خاصة بعد أن أوقف عمر الغزو وما يعقبه من غنائم، و بعد أن ألغى ضريبة الجزية عن أعناق المسلمين من غير العرب. وعن أولئك الذين يعلنون إسلامهم حديثا ــ ومن ثم فإن حصافة عمر جعلته يلقى ثقلا كبيرا على ضريبة الخراج ولا يتهاون بأى شكل من الأشكال إزاء أولئك الذين تخلوا عن دفع هذه الضريبة من بنى أمية أو المقربين إليهم خاصة. ومن العرب عامة. وأعلن

---

١ ــ ابن عبد الحكم ٥٨.
٢ ــ فتوح البلدان ٤٥٤.
٣ ــ ابن عبد الحكم ١٤١.
٤ ــ ابن عبد الحكم ١٠٤.

أن أرض الخراج هى في الأصل ملك مشترك بين المسلمين ولكنها تركت بأيدى المغلوبين لقاء مبلغ يدفعونه للأمة الإسلامية وهو الخراج، ولذلك فلا يجوز لأى شخص إبطال هذا الإيجار. فإذا أصبحت الأرض الخراجية في ملك مسلم فعليه أن يؤدي عنها حق الأمة وهو الخراج. واذا أسلم ذمى أعفى من الجزية وله أمواله المنقولة أما أرضه فإما أن يدفع عنها الخراج أو يتركها لغيره فيدفع زارعها الجديد الخراج عنها، أما هو فيستطيع الذهاب أنى شاء(١)، وقد اعتبر عمر سنة ١٠٠هـ نقطة البدء في تطبيق قراره (أى منعه بيع أرض الخراج) وعندما لاحظ رغبة العرب في الاستحواذ على الأراضى الخصبة مما يعنى توسع الملكية الكبيرة على حساب الملكيات الصغيرة، وما يثيره ذلك من شكوى ونقمة حاول الحد من هذا الاتجاه تلافيا لما ينجم عنه من اضطراب وسعى الى إيقاف بيع الأراضى الخراجية(٢).

منع بيع الارض الخراجية

رأى فلهاوزن

و يقول فلهاوزن بهذا الصدد: نستطيع أن نصدق أن عمر بن عبد العزيز بدأ بمقاومة ما قد وقع في عهد من تقدمه من الخلفاء من تمزيق صوافى الدولة ــ أى أراضيها التابعة لها وانتقاص الممتلكات الشائعة بين المسلمين، وذلك بأن منع بيع أرض الخراج، أما أن يكون عمر قد حافظ على جملة أرض الصوافى ولم يهب شيئا منها لأحد فيمكن أن نفترضه مطمئنين(٣).

في الاندلس

وفي الاندلس قام عاملها السمح بن مالك الخولانى باتباع سياسة تتمشى وعدالة عمر و بتكليف منه، وذلك بأن سعى لإعادة تنظيم

---

١ ــ ابن عبد الحكم ٧٩.
٢ ــ ابن عبد الحكم ٧٩.
٣ ــ الدولة العربية ٢٨١.

أراضيها بقصد فرض الخراج ــ وكان العرب هناك قد احتفظوا بالضياع والعقار المنقول ونحوه مما لم يكن قد قسم من قبل فقسمه السمح بالقرعة على الأصحاب بعد أن ضم جزءا من كل شيء ثابت ومنقول الى بيت المال(١).

وهكذا تمكن عمر بتأكيده على الضريبة الخراجية وحمايته لأراضى الدولة من التفكك والضياع تمكن من إحداث توازن مالى منتظم دعا فلهاوزن الى القول بأنه لما كانت الأرض المزروعة هى أهم ما يدفع عنه الخراج فإنَّ إسقاط الجزية عن الداخلين في الإسلام لم يكن في الحقيقة ــ من جانب بيت المال ــ تضحية كبيرة، وهكذا أمكن أن يفى بيت المال بحاجة الدولة الإسلامية من غير مشقة(٢).

الخمس والفيء

فضلا عن تأكيده على الخمس والفيء ــ (وحرصه على وضعهما في موضعهما الصحيح) ــ مما يشكل موردا مهما من موارد الخزينة.

توحيد الأمة

كما أنَّ عمر ــ ثالثا ــ تمكن من توفير مبالغ طائلة لمالية الدولة، كانت الحكومات السابقة تستنفذها في القضاء على الفتن والمنازعات الداخلية والحروب، إذ تمكن عمر بسياسته و بعد نظره أن يوحد الأمة الإسلامية بمختلف كتلها وأحزابها و يبعدها عن استنفاد طاقاتها في الصراع الداخلى ــ وأغلب الظن أن إيقاف مصروف ضخم كهذا لم يكن ليقل في حجمه عن المورد الذى كانت الدولة تستمد منه من عمليات الفتح والتوسع.

ظاهرة التوازن

وهكذا فإننا نجد ظاهرة التوازن والمقابلة المالية واضحة في كل ناحية من نواحى السياسة الاقتصادية التى اختطها عمر بن عبد العزيز.

---

١ ــ الدولة العربية ٢٨٥ــ٢٨٦.

٢ ــ الدولة العربية ٢٧٢.

ولكن الأهم من هذا وذاك هو أن عمر أوقف بشكل جاد أعمال الابتزاز التى كان يتعرض لها بيت المسلمين إبتداء من الخليفة وحتى صغار الجباة، وما بين هذين من حشد هائل من العمال والموظفين، أما الآن فقد غدا بيت المال سواء في المركز أم في الولايات محاطا بأيد أمينة لتحرسه وتسهر عليه وتقطع الأ يدى التى تحاول أن تمتد اليه لتختلس منه بليل.

ايقاف اعمال الابتزاز

ثم إنَّ عمر بن عبد العزيز ــ رابعا ــ أوجد بوقفه الفتن والمنازعات.. والعصبيات القبلية والحروب واجتثاثه كل أنواع الظلم من جذورها، أوجد مناخا رائعا من الأمن والاستقرار هيأ لأفراد المجتمع الإسلامي بكافة فئاته العمل المستمر المطمئن النشيط. معتقدين أن نشاطهم هذا سوف لن تضيعه رياح الفتن والمنازعات ومضاعفين نشاطهم اعتمادا على حماية دولة قوية متمكنة وخليفة يقظ يتتبع ببصيرة نافذة كل صغيرة وكبيرة يمكن أن تلحق بنشاط أحد من المسلمين ــ (أو أهل ذمتهم) ــ وحقه وأمنه أيما أذى أو خوف من المستقبل.

الامن والامان

إنَّ عدلا كهذا وأمنا واستقرارا ينشران جناحيهما على كل أقاليم الدولة لابد أن تؤتى أكلها ــ بإذن الله ــ للجميع، أمة وحكومة ودولة فيزداد.. النشاط و يتفجر الوازع الذاتى بالمعطيات و ينمو الدخل القومي وتجد أجهزة الدولة مواردها الكافية كى تعود بدورها لتوزعها على نقاط الضعف في جسد الأمة وترفع مستواها الى الأفق الحر الكريم الذى يرجوه لكل المسلمين خليفة راشد يرى فيهم جسدا واحدا إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى(١).

---

١ ــ ملامح الانقلاب الإسلامي ١٣٣ــ١٤٠ بتصرف.

ثـم لا نـنسى أنَّ هـذا التوازن إنّما قام ونما على ضوء تطبيق شريعة الله وتـنـفـيـذ أحـكـامـه ومـراقـبة الله في السر والعلانية والسير في هدى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

رحم الله عمر.

المبحث الثالث

الرفاه في عهد عمـــر

«واطمأن الناس في كل رقعة من رقع هذه المملكة الواسعة
حتى عز وجود من يستحق الزكاة و يقبلها، وأصبحت هذه مشكلة
للاغنياء وأصحاب الأموال تتطلب حلا سريعا»(١)
ابو الحسن الندوى

يقول أبو الحسن الندوى: «إنَّ هذه الإصلاحات التى قام بها عمر بن عبد العزيز في عهده وإنَّ هذه الخطوات الجريئة التى خطاها في سبيل إصلاح نظام الحكم وتطبيق الشريعة على الحكومة كان يخشى أن تسبب الأزمات المالية والخسائر الفادحة، وأن تقع الدولة في مشاكل جديدة لا تجد لها حلا ــ فالوضعيون والعلمانيون ليس بمستطاعهم تصور أن عالم الاقتصاد يمكن أن تحكمه القيم والمثاليات وإلاّ تعرض للتصدع والانهيار ــ إنهم يعتقدون أساسا أن تضحية كهذه بمصالح الخزينة المركزية لصالح جماهير الأمة، وإلغاء كهذا لكثير من الضرائب التى كانت تشكل موارد دفاقة تصب في بيت المال من أجل نشر الدعوة ورفع شعار «الهداية لا الجباية» لا يمكن إلا أن تنتج اختلالا في السياسة المالية وتقلصا سريعا في موارد الدولة، ومن ثم عجز تام إزاء ما يستجد من حاجات ــ وهذه حجة الثائرين على الدين والمعارضين لتطبيق الأحكام الإسلامية على النظم والحكومات والدعاة الى فصل الدين عن السياسة في كل زمان.

تطبيق الشريعة على الحكومة

وكان عمر بن عبد العزيز مستعدا ليواجه هذه الازمات في شجاعة، ولكن هذه الأزمات لم تقع ــ وفجأ الناس أنَّ الرفاهية قد عمت، ومالية

عموم الرفاهية

---

١ ــ رجال الفكر والدعوة ٤٧.

الدولة قد قويت، واطمأن الناس في كل رقعة من رقع هذه المملكة الواسعة حتى عز وجود من يستحق الزكاة و يقبلها، وأصبحت هذه مشكلة للأغنياء تتطلب حلا سريعا(١).

السيولة النقدية

من مظاهر الغنى والرفاهية في عهد عمر بن عبد العزيز ارتفاع مستوى المعيشة وكثرة النقد في أيدي الناس وإحساس الناس بالأمن والطمأنينة على أنفسهم. وأموالهم و يقول ثابت بن ثوبان: قلت لعمر بن عبد العزيز ياأمير المؤمنين ما بال الأسعار غالية في زمانك وكانت في زمان من قبلك رخيصة؟ قال: إن الذين كانوا قبلى كانوا يكلفون أهل الذمة فوق طاقتهم ــ (خص أهل الذمة لأنّهم بيدهم كانت التجارة والزراعة) فلم يكونوا يجدون بُدّا من أن يبيعوا و يكسد ما في أيديهم. وأنا لا أكلف أحداً إلاّ طاقته فباع الرجل كيف يشاء(٢).

انعدام الفقر في افريقية

و يقول يحيى بن سعيد: بعثني عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقية فاقتضيتها، وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقيرا، ولم نجد من يأخذها منى. وقد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس. فاشتريت بها رقابا (أى عبيداً) ــ فأعتقتهم وولاؤهم للمسلمين(٣).

وفي العراق

و يقول رجل من ولد زيد بن الخطاب: إنما ولى عمر بن عبد العزيز سنتين ونصفا فما مات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول: اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء فما يبرح حتى يرجع بماله يتذكر من يضعه فيهم فما يجده، فيرجع بماله قد أغنى الله على يد عمر بن عبد العزيز الناس(٤).

---

١ ــ المرجع السابق.

٢ ــ الخراج لابى يوسف ١٣٢.

٣ ــ ابن عبد الحكم ٥٩.

٤ ــ ابن عبد الحكم ١٠٦ وتاريخ الخلفاء ٢٣٥، ابن الجوزى ٧٧.

وعن مهاجرين يزيد قال: بعثنا عمر بن عبد العزيز فقسمنا الصدقة فيهم فلقد رأيتنا وإنّا لنصدق من العام القابل من كان يتصدق عليه(١).

اغتنى الفقراء فتصدقوا

وعن محمد بن قيس قال: رأيت عمر بن عبد العزيز أمر بالصدقات أن تقسم في أهلها، فلقد رأيت من يتصدق عليه في العام القابل له إبل فيها صدقة(١).

أى أنَّ الرجل ليأخذ الصدقة هذا العام وهو في عداد الفقراء المستحقين لها فما يأتى عليه عام آخر إلاَّ وأصبح من الأغنياء مالكا لنصاب الزكاة فيدفعها للعامل.

هذا ما يتعلق بإقامة فريضة الزكاة والحرص على جمعها ووضعها في مصارفها الشرعية التى أمر الله بها، ورأينا قبلا إعطاءه الغارمين منها واستئلافه الناس على الإسلام. فماذا عن العطاء والخراج هل نقص كما حدث أولا في مصر والعراق أو كان كفافا دون زيادة أو نقصان. أو زاد كما زادت الزكاة؟.

الخراج

إن أحد الذين اشتكوا سابقا من إسقاط الجزية وخشوا أن تسبب نقصا خطيرا في بيت المال ذلك هوعبد الحميد بن عبد الرحمن عامل عمر على الكوفة، يكتب الى عمر إنَّ عنده فائضا من المال، فكتب اليه عمر: أن انظر كل من أدان من غير سفه ولا سرف فاقض عنه. فكتب اليه ثانية «إنى قد قضيت عنهم و بقى في بيت مال المسلمين مال. فيكتب عمر اليه: انظر كل بكر ليس له مال فشاء أن تزوجه فزوجه واصدق عنه. فيكتب اليه ثالثة «إنى قد زوجت كل من وجدت وقد بقى في بيت مال المسلمين مال، فيكتب اليه بعد مخرج هذا. انظر من كان عليه جزية

القضاء عن الدائنين

---

١ ــ الطبقات ٥/٢٥٦.

فضعف عن أرضه فأسلفه ما يقوى به على عمل أرضه فإنّا لا نريدهم لعام ولا لعامين(١).

و يرسل كتبا الى الآفاق تقرأ في مساجد العواصم: من كانت عليه أمانة لا يقدر على أدائها فأعطوه من مال الله، ومن تزوج امرأة فلم يقدر أن يسوق اليها صداقها فأعطوه من مال الله(٢).

و يكتب الى عبد الحميد أيضا «وانظر من أراد من الذرية أن يحج فعجل له مائة ليحج بها(٣). و يأمر مناديه ينادى كل يوم: أين الغارمون؟ أين الناكحون؟ أين المساكين؟ أين اليتامى؟ حتى أغنى كلا من هؤلاء(٤).

ثلاثة أعطية في سنتين وخمسة اشهر

و يقولون: إن عمر بن عبد العزيز أخرج ثلاثة أعطية لأهل المدينة في سنتين وخمسة أشهر إلاّ عشر ليال(٤).

وقد رأينا كيف أن عامله على خراج خراسان قدم عليهم فوجد خراجهم يفضل عن أعطياتهم فكتب اليه عمر: أن اقسم الفضل في أهل الحاجة(٥).

و يقدم على عمر بعض أهل المدينة فيسأله عمر قائلا: ما فعل المساكين الذين كانوا يجلسون في مكان كذا وكذا؟ فقال الرجل: قد قاموا يا أمير المؤمنين وأغناهم الله، وكان من أولئك المساكين من يبيع الخَبَط

---

١ ــ الاموال ٣٥٨ ابن عبد الحكم ٦٨.
٢ ــ الطبقات ٥/٢٧٦.
٣ ــ الجمهرة ٢/٣٦٢.
٤ ــ البداية والنهاية ٩/٢٢٤.
٥ ــ الطبقات ٥/٢٥٥.

للمسافرين فالتمس ذلك منهم بعد فقالوا: قد أغنانا الله عن بيعه بما يعطينا عمر(١).

الصدقة للغنى لا الكفاف

و يقول ابن جحدم عامل صدقاته: إنه كان يجمع الصدقات من أحياء تغلب ثم يقسمها على فقرائهم حتى ليصيب الرجل الفريضتين فما يفارق الحى وفيهم فقير(٢).

و يكتب الى ابى بكر بن حزم عامله على المدينة.

قضاء دين الميت

إنَّ كل من هلك وعليه دين لم يكن دينه في خرقه ــ أى سفهه ــ فاقض عنه من بيت مال المسلمين(٢) (وحتى من مات وعليه دين قضاه عمر من مال الله).

و يقولون: كان رسول عمر يقدم البصرة فإذا سمع به تلقاه الناس فليس يقدم إلا بزيادة في عطاء أو قسم أو خير يأمر به أو شر ينهى عنه؟ فلا يزال الناس يشيعونه حتى يدخل المسجد فيقرأ ذلك الكتاب(٢).

البريد العام

حتى البريد جعله للناس كافة، كان بريد عمر بن عبد العزيز لا يعطيه أحد من الناس إذا خرج كتابا إلا حمله(٤).

وكان عمر بن عبد العزيز إذا كثر عنده أرقاء الخمس فرقه بين كل مقعدين و بين كل زمنين غلاما يخدمهما ولكل أعمى غلاما يقوده(٥).

ومما يدل على اطمئنان الناس و يسرهم في زمن عمر ما قاله راكب من أهل المدينة: إنى تركت المدينة والظالم بها مقهور. والمظلوم بها

---

١ ــ الجمهرة ٦/٣٦٢.
٢ ــ الملامح ١٤٢ــ عن ابن الجوزى ٨٧.
٣ ــ ابن عبد الحكم ٥٧.
٤ ــ ابن عبد الحكم ٥٦.
٥ ــ ابن عبد الحكم ٤٨.

منصور، والغنى موفور والعائل مجبور(١).

وماذا يكون الحكم العادل إن لم يكن هذا؟.

كثرت النعمة حتى خيف البطر

و يرسل اليه عدى بن أرطاة يقول: إنه قد أصاب الناس من الخير خير.. حتى لقد خشيت أن يبطروا «قال: فكتب اليه عمر: إن الله تبارك وتعالى حين أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار رضى من أهل الجنة بأن «**قَالُوْا الحَمْدُ للهِ الّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ**»(٢) فمر من قبله أن يحمدوا الله(٣).

و يشعر عمر بما صار عليه الناس من خير فيكتب لهم كتاباً مطولاً يبين فيه نعمة الله عليه وعليهم، فكان مما قاله فيه: وقد أعطانى من ذلك وله الحمد في عاجل من الدنيا وجماعة من الشمل وصلاح ذات البين وسعة في الرزق ونصر على الأعداء وكفاية حسنة حتى أغنى كل ذى جانب مِنَ المسلمين جانبهم، ووسع عليهم في الرزق،ولا يرى أهل كل ناحية إلا أنهم أفضل قسما فيما بسط الله لهم من رزقه ونعمه من أهل الناحية الأخرى، فإن تعرفوا نعمة الله عليكم وتشكروا فضله فأحرص بى على ذلك وأحبب به إليَّ(٤).

النعمة الشاملة

وهكذا فاض المال وامتد رواق الأمن و بسط الله الرزق لعباده وكان قول الله حقا وخبره صدقا.

«وَلَو أنَّ أهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ والأَرْض». صدق الله العظيم.

---

١ - ابن عبد الحكم ١١٠.

٢ - سورة الزمر الاية ٧٤.

٣ - ابن عبد الحكم ٥٨.

٤ - ابن عبد الحكم ٦٤-٦٥.

الباب الخامس
من أحكام عمـــر
الفصل الأول: الجزية والخراج
المبحث الأول: نبذة عن الجزية والخراج قبل عمر بن عبد العزيز

الجزية والخراج لفظان تدوول استعمالهما في العصر الأول تداولا كثيرا فما المراد بهذين اللفظين؟ ومتى بدأ استعمالهما؟ وما الصلة بينهما؟ وما صلتهما بما نحن فيه؟.

هذه الأسئلة لابد من الإجابة عليها قبل البحث فيهما.

الجزية لقاء الحماية والدفاع

أما الجزية فهى تلك الضريبة التى فرضها الاسلام على أهل الذمة(١) لقاء حمايتهم والدفاع عنهم».

الأصل في الجزية

والأصل فيها قول الله عز وجل: «**قَاتِلُوا الَّذِيْنَ لاَ يُؤمِنُونَ بالله وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرّمُونَ مَا حَرَّمَ الله وَرَسُولُه وَلاَ يَدينُون دِينَ الْحَق مِنَ الَّذِيْنَ أوْتُوا الكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الجِزيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ**»(٢).

حكمها وعلى من تجب

وهي واجبة على جميع أهل الذمة ممن في السواد وغيرهم من أهل الحيرة وسائر البلدان من اليهود والنصارى والمجوس والصابئين والسامرة، ما خلا نصارى بنى تغلب وأهل نجران خاصة(٣). وإنَّما تجب على الرجال منهم دون النساء والصبيان، ولا تؤخذ من المسكين الذى يتصدق عليه ولا من أعمى لا حرفة له ولا عمل ولا مقعد ولا زمن ولا راهب لا يسار له.(٤).

---

١ ــ هم اهل العهد والامان ممن بقى على دينه ولم يسلم ورضى بالجزية غير مشركى العرب.

٢ ــ التوبة الآية ٢٩.

٣ ــ لعل ابا يوسف لا يعتبر ما يدفعه التغلبى وهو ضعف زكاة المسلم جزية قال: حدثنا أبو حنيفة عمن حدثه عن عمر بن الخطاب أنه اضعف الصدقة على نصارى بنى تغلب عوضا عن الخراج ص١٢٠ فهو صريح هنا في انه لا يراها جزية بل عوض عن الجزية.. وهو كذلك يعتبر ما يدفعه أهل نجران عن رؤوسهم وعن ارضيهم ــ والجزية إنما تكون عن الرؤوس خاصة ــ الخراج ص٧٥.

٤ ــ الخراج لابى يوسف ١٢٢.

بدء استعمال لفظ الجزية وأخذها

وقد بدأ استعمال الجزية في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين فرضها على من بقى على يهوديته من أهل اليمن: فعن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال: «بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى اليمن وأمرنى أن آخذ من كل حالم دينارا أو عدله معافر»(١) ــ (المعافر ثياب تصنع باليمن). وقالوا: إن أول من أعطى الجزية أهل نجران وكانوا نصارى(٢).

أول من أعطى الجزية

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمر أميرا على جيش أو سرية أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيرا ثم قال: اغزوا بسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله لا تغلوا(٣) ولا تغدروا، ولا تمثلوا(٤) ولا تقتلوا وليدا، وإذ لقيت عدوك من المشركين فادعهم الى إحدى ثلاث خصال ــ أو خلال فأيتهن ما أجابوك اليها فاقبل منهم وكف عنهم ــ ادعهم الى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم الى التحول من دارهم الى دار المهاجرين وأخبرهم أنهم إن فعلوا فإن لهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين. فإن أبوا أن يتحولوا فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المسلمين ــ ولا يكون لهم في الغنيمة والفىء شيء إلا أن يجاهدوا، مع المسلمين ــ فإن هم أبوا فسلهم الجزية فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم(٥).

وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمراء جيوشه

فقد بدأ استعمال لفظ الجزية إذاً منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن أمر بالقتال. وقد أخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم من

---

١ ــ الخراج للقرشى ٦٨ وفتوح البلدان ٨٥ــ٨٦.

٢ ــ الأموال ٣٩، فتوح البلدان ٨١.

٣ ــ الغلول السرقة من المغنم قبل قسمته.

٤ ــ التمثيل: تشويه القتلى بعد المعركة.

٥ ــ الأموال ٣٥ والحديث في صحيح مسلم والترمذى ومسند أحمد بن حنبل والشافعي في الأم.

يهود اليمن ومجوس هجر ونصارى نجران، أما يهود اليمن فقد رأينا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ جزيتهم دينارا عن كل حالم أى رجل بالغ ــ وأما المجوس فقد كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المنذر ابن ساوى: سلام أنت فإنّى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو. أما بعد ذلك فإنّ من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذى له ذمة الله وذمة الرسول. فمن أحب ذلك من المجوس فإنه آمن ومن أبى فعليه الجزية(١).

الجزية من مجوس هجر

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ الجزية من مجوس هجر(٢). وأما نصارى نجران فقد مر معنا في مبحث الضرائب الظالمة طرف من قصتهم.

وأما مقدار الجزية المفروضة فقد اختلف الفقهاء فيه:ـ فذهب أبو حنيفة الى تصنيفهم ثلاثة أصناف أغنياء يؤخذ من كل منهم ثمانية وأربعون درهما أو أربعة دنانير وأوساط و يؤخذ منهم أربعة وعشرون درهما وفقراء يؤخذ منهم اثنا عشر درهما أو دينار واحد. فجعلها مقدرة الأقل والأكثر ومنع من اجتهاد الولاة فيها (وهو ينظر في هذا الى فعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه في السواد، إذ ورد أنّه بعث عثمان بن حنيف فوضع عليهم ثمانية وأربعين درهما وأربعة وعشرين واثنى عشر(٣).

مقدار الجزية والخلاف فيه

وقال مالك: لا يقدر أقلها ولا أكثرها وهى موكولة لاجتهاد الولاة في الطرفين ــ (وهذا في الحقيقة الرأى الأوسع ــ ولعل مالكا رضى الله عنه يعتمد على اختلاف المفروض على أهل الذمة في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمر رضى الله عنه: إذ ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

١ ــ الاموال ٣٠، الخراج لابى يوسف ١٣١.
٢ ــ فتوح البلدان ٧٦ والخراج لابى يوسف ٧٢.
٣ ــ الاموال ٥٦ والخراج لابى يوسف ١٢٤.

فرض على يهود اليمن دينارا على كل محتلم، كما مر وصالح أهل نجران على ألفى حلة ولم يفرض على الرؤوس شيئا محددا، وإنَّ عمر رضى الله عنه صالح نصارى تغلب على مضاعفة الصدقة عليهم وإسقاط الجزية عنهم ــ ولو باللفظ على الأقل ــ فكل ذلك وأمثاله يشعر بحرية الإمام في فرض الجزية بحسب ما يراه من المصلحة).

وذهب الشافعى رضى الله عنه الى أنها مقدرة الأقل بدينار ولا يجوز الاقتصار على أقل منه وهى عنده غير مقدرة الأكثر، يرجع فيه الى اجتهاد الولاة، ويجتهد رأيه في التسوية بين جميعهم أو التفضيل بحسب أحوالهم(١) ــ(واستناده في ذلك الى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فرض على يهود اليمن ومجوس هجر دينارا على كل محتلم).

حقوق دافعى الجزية

ومن دفع الجزية من أهل الكتاب وجب لهم حقان: أحدهما الكف عنهم والثاني الحماية لهم ليكونوا بالكف آمنين و بالحماية محروسين(٢).

الخراج

وأما الخراج فهو ما وضع على رقاب الأرض من حقوق تؤدى عنها(٣).

فهذا التعريف يستلزم معرفة ثلاث أشياء: أولا: الواضع للخراج، ثانيا: معرفة الأرض التى يوضع عليها الخراج. ثالثا: معرفة الحقوق التى تؤدى عن الأرض.

فمن واضع الخراج؟ أو بعبارة أخرى من أول من استعمل هذا اللفظ ليدل على هذا المعنى؟ فهل استعمل هذا اللفظ في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليدل على ذلك؟.

---

١ ــ الإحكام السلطانية للماوردى ١٤٤ والإحكام لأبى يعلى ١٥٥.
٢ ــ الماوردى ١٤٣.
٣ ــ الماوردى ١٤٦ أبو يعلى ١٦٢.

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم فتح أرضين في جزيرة العرب وترك فيها أهلها على شيء معلوم فرضه عليهم ــ فهذا وإن لم يستعمل فيه لفظ الخراج ففيه معناه. قالوا: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أهل فدك منصرفه من خيبر محيصة بن مسعود الانصارى يدعوهم الى الإسلام، ورئيسهم رجل منهم يقال له يوشع بن نون اليهودى. فصالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على نصف الأرض بترتها. فقبل ذلك منهم، فكان نصف فدك خالصا لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، وكان يصرف ما يأتيه منها الى أبناء السبيل(١).

الخراج في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم

وفي رواية: إنَّ أهل فدك صالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على نصف أرضهم ونخلهم، فلما أجلاهم عمر بن الخطاب بعث من أقام لهم حظهم من النخل والأرض فأداه اليهم(١).

وقالوا: أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم منصرفة من خيبر وادى القرى فدعا أهلها الى الإسلام فامتنعوا من ذلك وقاتلوا، ففتحها رسول الله صلى الله عليه وسلم عنوة وغنمه الله أموال أهلها، وأصاب المسلمون منهم أثاثا ومتاعا فخمس رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك. وترك النخل والأرض في أيدي اليهود. وعاملهم على نحو ما عامل عليه أهل خيبر، فقيل إن عمر أجلى يهودها وقسمها بين من قاتل عليها. وقيل إنَّه لم يجلهم لأنها خارجة من الحجاز(٢) ــ (و يرجح انها لم تقسم ولم يجل عنها أهلها الأثر التالى: أتى عبد الملك بن مروان يزيد بن معاو ية فقال: ياأمير المؤمنين معاو ية كان ابتاع من بعض اليهود أرضا بوادى القرى وأحيا

وادى القرى

١ ــ فتوح البلدان ٣٣.
٢ ــ المرجع السابق ٣٩.

إليها أرضا، وليست لك بذلك المال عناية فقد ضاع، وقلت غلته فأقطعنيه فإنَّه لا خطر له. فقال يزيد: إنا لا نُبَخِّل بكبير ولا نخدع عن صغير. فقال له يا أمير المؤمنين غلته كذا. قال: هو لك. فلما ولى قال يزيد: هذا الذى يقال إنه يلى بعدنا، فإن يكن ذلك حقا فقد صانعناه، وإن يكن باطلا فقد وصلناه(١). فشراء معاوية رضى الله عنه من اليهود يدل على أنهم لم يجلوا عنها لأنهم لو أجلوا عنها لقسمت بين الغانمين، و يدل على أن أراضيهم قد بقيت في أيديهم يبيعون و يشترون. ولعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فرض عليهم نصف التمر خراج مقاسمة، و يكون فعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه من بعد مستندا الى فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بجانب استدلاله بالآيات كما سيأتى:ـــ

البحرين

وفي سنة ثمان من الهجرة وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم العلاء ابن عبد الله بن عماد الحضرمى الى البحرين ليدعو أهلها الى الإسلام أو الجزية، وكتب معه الى المنذر بن ساوى وإلى سيبخت مرزبان هجر يدعوهما الى الإسلام أو الجزية. فأسلما وأسلم معهما جميع العرب هناك و بعض العجم، فأما أهل الأرض من المجوس واليهود والنصارى فإنهم صالحوا العلاء وكتب بينه و بينهم كتابا نسخته: «بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما صالح عليه العلاء بن الحضرمى أهل البحرين: صالحهم على أن يكفونا العمل و يقاسمونا التمر فمن لم يف بهذا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين» وأما جزية الرؤوس فإنه أخذ لها من كل حالم دينارا(٢).

وعن العلاء بن الحضرمي قال: بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى البحرين أو قال هجر ــ وكنت آتى الحائط ــ (البستان) ــ بين

---

١ ــ فتوح البلدان ٤٠.

٢ ــ فتوح البلدان ٩٥.

الإخوة قد أسلم بعضهم فآخذ من المسلم العشر ومن المشرك الخراج(١). وعند قتادة قال: لم يكن بالبحرين في أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم قتال. ولكن بعضهم أسلم وبعضهم صالح العلاء على أنصاف الحب والتمر(٢).

فهذه الآثار وأمثالها ليس فيها ذكر لفظ الخراج وإن كان العمل كما رأينا على معنى الخراج. عدا الأثر الوارد عن العلاء بن الحضرمى نص فيه على لفظ الخراج إذ قال ــ فآخذ من المسلم العشر ومن المشرك الخراج(٣). وهو يوضح أن هذا اللفظ قد استعمل منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان خراج مقاسمة كما هو واضح من مختلف الآثار.

في خلافة عمر بن الخطاب رضى الله

وحينما افتتح المسلمون سواد العراق في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه سأله المقاتلون أن يقسم بينهم الأراضى المفتوحة جريا على السنة في الغنيمة المستفادة من قوله عز وجل «**وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شيء فَأَنَّ لله خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِين وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنتُم بالله وَمَا أَنْزَلْنا عَلَى عَبْدنَا يَومَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ والله عَلَى كُلَّ شَيء قَدِيرٌ**»(٤) فهذا خمس الغنيمة بين من ذكر الله في الآية وأربعة أخماسه بين الغانمين ــ أى الجند الذين أصابوا ذلك ــ من أهل الديوان وغيرهم يضرب للفارس منهم ثلاثة أسهم سهمان لفرسه وسهم له (خلافا لأبي حنيفة) ــ وللراجل سهم(٥).

---

١ ــ المرجع السابق ٩٦.
٢ ــ نفس المرجع ٩٧.
٣ ــ نفس المرجع ٩٧.
٤ ــ الانفال الآية ٤١.
٥ ــ الخراج لابى يوسف ١٨.

طلب المقاتلون قسمة الأرض ومن عليها وما عليها بينهم بناء على ذلك، ولكن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رفض هذا الطلب واكتفى بأن قسم المال المنقول فقط وأبقى الأرض ومن عليها. جعل الأرض وقفا بين المسلمين وفرض عليها الخراج وعلى أهلها الجزية، فهل كان فعل عمر هذا مخالفا لفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟.

قسمة خيبر

وبالنظر للآثار السالفة لا يكون عمر رضى الله عنه مخالفا لفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا للآية الكريمة. فرسول الله صلى الله عليه وسلم قسم أرضا وترك أرضا ففي خيبر قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم نصفها فقط بين المقاتلين وأبقى نصفها لما ينوبه من الحقوق، فعن بشير بن يسار: أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قسم خيبر على ستة وثلاثين سهما، لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانية عشر سهما لما ينوبه من الحقوق وأمر الناس والوفود، وقسم ثمانية عشر سهما كل سهم لمائة رجل(١).

حرية الامام في الارض المفتوحة

وهذا عدا عن سهمه صلى الله عليه وسلم مع المقاتلين وعدا عن الخمس، وقد رأينا أيضا أنه صلى الله عليه وسلم ظهر على وادى القرى عنوة فقسم المنقول وأبقى اليهود في أرضهم وعاملهم على النصف. فهذا وأمثاله يعطينا أن للإمام مطلق الحرية في الارض المفتوحة يتصرف بما يرى من المصلحة العامة، فإن رأى أن المصلحة في القسمة قسم، وان رأى أن المصلحة في الإبقاء عليها بيد أهلها دون قسمة فعل.

وأما المنقول فيقسم بين الغانمين دون خلاف.

ولكن العلماء اختلفوا في هذه الأرض ــ أرض العنوة، أى الأرض التى افتتحت بالقوة والسلاح ــ يقول الماوردى. والقسم الثالث: ما ملك

---

١ ــ فتوح البلدان ٢٩٧.

من المشركين عنوة وقهرا فيكون على مذهب الشافعى رحمه الله غنيمة تقسم بين الغانمين وتكون أرض عشر لا يجوز أن يوضع عليها خراج ــ (إلا إذا استطاب الامام أنفس الغانمين ولم يقسمها) ــ وجعلها مالك وقفا على المسلمين بخراج يوضع عليها، وقال أبو حنيفة: يكون الإمام مخيرا بين الأمرين(١).

المناقشة حول الارض المفتوحة

وعمر بن الخطاب رضوان الله عليه ما فعل ذلك إلا بعد أن استشار الصحابة من المهاجرين والأنصار ورأى من المصلحة العائدة على الأمة في حاضرها ومستقبلها، يقول أبو يوسف: لما جاء فتح العراق شاور عمر رضى الله عنه الناس في قسمة الأرضين التى أفاء الله على المسلمين من أرض العراق والشام، فتكلم فيها قوم وأرادوا أن يقسم لهم حقوقهم وما فتحوا ــ (بناء على أنها غنيمة) ــ فقال عمر رضى الله عنه: فكيف بمن يأتى من المسلمين فيجدون الأرض بعلوجها(٢) قد اقتسمت وورثت عن الآباء وحيزت. ما هذا برأى فقال له عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه: فما الرأى؟ ما الأرض والعلوج إلا مما أفاء الله عليهم. فقال عمر ما هو إلا كما تقول ولست أرى ذلك والله لا يفتح بعدى بلد فيكون فيه كبير نيل بل عسى أن يكون كلاً على المسلمين. فإذا قسمت أرض العراق بعلوجها وأرض الشام بعلوجها فما يسد به الثغور وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أرض الشام والعراق؟. فأكثروا على عمر رضى الله عنه وقالوا: أتقف ما أفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا ولأبناء أبنائهم ولم يحضروا؟ فكان عمر لا يزيد على أن يقول: هذا رأى. قالوا فاستشر. قال فاستشار المهاجرين الاولين فاختلفوا. فأما عبد الرحمن ابن عوف رضى الله عنه فكان رأيه أن يقسم لهم حقوقهم. ورأى عثمان وعلى وطلحة وابن عمر رضى الله عنهم رأى عمر.

---

١ ــ الاحكام السلطانية للماوردى ١٤٧ والاموال ٨٤، ٨٥.

٢ ــ العلوج ــ الفلاحون.

استشارة ولى الامر

فأرسل الى عشرة من الأنصار خمسة من الأوس وخمسة من الخزرج من كبرائهم وأشرافهم، فلما اجتمعوا حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: إنى لم أزعجكم إلا لأن تشتركوا في أمانتى فيما حملت من أموركم. فإنى واحد كأحدكم وأنتم اليوم تقرون بالحق خالفنى فيه من خالفنى ووافقنى فيه من وافقنى. ولست أريد أن تتبعوا هذا الذى هواى. معكم من الله كتاب ينطق بالحق فوالله لئن كنت نطقت بأمر أريده ما أريد به إلا الحق. قالوا: قل نسمع ياأمير المؤمنين. قال: قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أنى أظلمهم حقوقهم، وأنّى أعوذ بالله أن أركب ظلما، لئن كنت ظلمتهم شيئا هو لهم وأعطيته غيرهم لقد شقيت، ولكن رأيت أنه لم يبق شيء يفتح بعد أرض كسرى وقد غنمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوجهم فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه وأنا في توجيهه، وقد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها وأضع عليهم فيها الخراج وفي رقابهم الجزية يؤدونها فتكون فيئا للمسلمين المقاتلة والذرية ولمن يأتى من بعدهم. أرأيتم هذه الثغور لابد لها من رجال يلزمونها، أرأيتم هذه المدن العظام ــ كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر ــ لابد لها من أن تشحن بالجيوش وادراء العطاء عليهم، فمن أين يعطى هؤلاء إذا قسمت الارضون والعلوج؟ فقالوا جميعا: الرأى رأيك، فنعم ما قلت وما رأيت. إن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجرى عليهم ما يتقوون به رجع أهل الكفر الى مدنهم.

وفي رواية: قال عمر رضى الله عنه: إنى قد وجدت حجة. قال الله تعالى في كتبه «**وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُم فَمَا أَوْجَفْتُم عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيْرٌ**» حتى فرغ من شأن بنى النضير فهذه عامة في القرى كلها،

ثم قال: «مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القُرَى فَللَّهِ وللرَّسُولِ وَلذي الْقُرْبَى وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِيْنِ وَابنِ السَّبيلِ كَيْ لاَ يَكُون دُوَلَة بَيْنَ الأغنِيَاء مِنْكُم، وَمَا آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوه وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ» ثم قال «لِلفُقَرَاء المُهَاجِرينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِم وأمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْواناً وَيَنْصُرُون اللهَ وَرَسُولَهُ أولئك هُمُ الصَّادِقونَ» ثم لم يرض حتى خلط بهم غيرهم فقال: «وَالَّذِيْنَ تَبوأوْا الدّارَ وَالإيمَانِ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُونَ مِنْ هَاجَرَ إلَيْهِمْ وَلاَ يَجدُونَ فِي صُدُورِهِم حَاجَةً مِمَّا أُوْتُوا وَيُؤثِرُونَ عَلَى أنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمن يُوقَ شُحَّ نَفْسِه فَأُولَئِكَ هُمُ المُفلِحُونَ» فهذا فيما بلغنا والله أعلم للأنصار خاصة ثم لم يرض حتى خلط بهم غيرهم فقال: «وَالَّذِين جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا آغْفِرْ لَنَا وَلإخوانَنَا الَّذِيْنَ سَبَقُونَا بِالإيمَانِ وَلاَ تَجْعَل فِي قُلوبِنَا غِلاّ لِلَّذِيْنَ آمَنُوا رَبَّنَا إنَّكَ رَؤوفٌ رَحِيمٌ»(١) فكانت هذه عامة لمن جاء من بعدهم، فقد صار هذا الفيء بين هؤلاء جميعا فكيف نقسمه لهؤلاء وندع من تخلف بعدهم بغير قسم؟ فأجمع على تركه وجمع خراجه. ثم يقول عمر رضى الله عنه: فمن رجل له جزالة وعقل يضع الأرض مواضعها و يضع على العلوج ما يحتملون؟ فاجتمعوا له على عثمان بن حنيف وقالوا: تبعثه الى أهم ذلك فإن له بصرا وعقلا وتجربة. فأسرع اليه عمر فولاه مساحة أرض السواد. فأدت جباية سواد الكوفة قبل أن يموت عمر رضى الله عنه بعام مائة ألف ألف درهم(٢).

---

١ ــ الحشر الآيات ٧ــ١٠.

٢ ــ الخراج لابى يوسف ٢٤ــ٢٧، والاموال ٨٥، ٨٦ والخراج للقرشى ٢٧.

إذاً فعمر بن الخطاب رضى الله عنه هو أول من وضع الخراج على الأرضين المفتوحة ــ(بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم) ولم يقسمها بين الغانمين.

فما هى الأرض التى يوضع عليها الخراج؟.

حد أرض العشر من ارض الخراج

يبين هذا ويحدده خير تحديد أبو يوسف في كتابه الخراج إذ يقول: فأما ما سألت عنه ياأمير المؤمنين من حد أرض العشر من حد أرض الخراج: فكل أرض أسلم عليها أهلها وهى من أرض العرب أو أرض العجم فهى لهم وهى أرض عشر بمنزلة المدينة حين أسلم عليها أهلها وبمنزلة اليمن وكذلك كل من لا تقبل منه الجزية ولا يقبل منه إلا الإسلام أو القتل من عبدة الاوثان من العرب فأرضهم أرض عشر وإن ظهر عليها الإمام لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ظهر على أرضين من أرض العرب وتركها فهى أرض عشر حتى الساعة.

أرض العشر

وأيما دار من دور الأعاجم قد ظهر عليها الإمام وتركها في أيدي أهلها فهى أرض خراج وإن قسمها بين الذين غنموها فهى أرض عشر ــ ألا ترى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ظهر على أرض الأعاجم وتركها في أيديهم فهى أرض خراج. وكل أرض من أراضى الأعاجم صالح عليها أهلها وصاروا ذمة فهى أرض خراج(١).

أرض الخراج

و يقول أبو عبيد: وجدنا الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء بعده قد جاءت في افتتاح الارضين بثلاثة أحكام: أرض أسلم عليها أهلها فهى لهم ملك أيمانهم وهى أرض عشر لا شيء عليهم فيها غيره.

---

١ ــ الخراج لابى يوسف ٦٩.

وأرض افتتحت صلحا على خرج معلوم فهى على ما صولحوا عليه لا يلزمهم أكثر منه.

وأرض أخذت عنوة فهى التى اختلف فيها المسلمون، فقال بعضهم سبيلها سبيل الغنيمة فتخمس وتقسم فيكون أربعة أخماسها خططا بين الذين افتتحوها خاصة و يكون الخمس الباقى لمن سمى الله تبارك وتعالى. وقال بعضهم: بل حكمها والنظر فيها للإمام إن رأى أن يجعلها غنيمة فلا يخمسها ولا يقسمها ولكن تكون موقوفة على المسلمين عامة ما بقوا كما صنع عمر في السواد(١) ــ (وفي الشام أيضا وفي مصر).

أنواع الارض الخراجية

فقد تبين لنا من هذه النصوص أن الخراج إنما يؤخذ من نوعين من الأراضي:

أ ــ الأرض التى صالح عليها أهلها قبل أن يغلبهم المسلمون فهؤلاء يدفعون ما صولحوا عليه فقط و يعتبر من الخراج.

ب ــ الأرض التى فتحت بالقتال وهو معنى العنوة ــ ولم تقسم بين من افتتحوها وأوقفت لمصالح المسلمين فهى التى يفرض عليها الخراج وهى التى تسمى الأرض الخراجية وهى التى تهمنا في بحثنا هذا(٢).

جـ ــ وهناك أرض خراجية ثالثة. عند أبى حنيفة وأبى يوسف ــ وهي الأرض الموات التى يحييها إنسان وتشرب من مياه أنهار الخراج

---

١ ــ الاموال ٧٧.

٢ ــ هناك رأى ضعيف غير مأخوذ به يقول ان ... الارض غير خراجية وما يؤخذ منها ليس خراجا: قال يحيى سمعت شريك بن عبد الله يقول: إنما ارض الخراج ما كان صلحا على خراج يؤدونه الى المسلمين. قلت له فما بال السواد سواد الكوفة قال: هذا أخذ عنوة فهو في ء ولكنهم تركوا فيه ووضع عليهم شي ء وليس بالخراج. الخراج القرشى ٢١، وهذا في الحقيقة خلاف على التسمية فقط ومخالف لما ورد عن عمر رضى الله عنه وعن غيره في تسمية المأخوذ منها خراجا.

فهى خراجية أيضا. يقول أبو يوسف في ثنايا حديثه عن أرض الموات وأنواعها: وأيما رجل أحيا أرضا من أرض الموات فهى له، وان كانت من الأرضين التى افتتحها المسلمون مما في أيدي أهل الشرك، فإن أحياها وساق اليها الماء من المياه التى كانت في أيدي أهل الشرك فهى أرض خراج، وإن كان يستطيع أن يسوق الماء من الأنهار التى كانت في أيدي الأعاجم فهى أرض خراج ساقه أو لم يسقه(١).

وإن كان الماوردى يقول خلاف ذلك «وما أحييَ من الموات معشور لا يجوز أن يضرب عليه خراج سواء سقى بماء العشر أو بماء الخراج(٢).

الحقوق المتعلقة بأرض الخراج

فإذاً وقد عرفنا أول من وضع الخراج وعرفنا الأرض التى وضع عليها الخراج. فما هى الحقوق المتعلقة بتلك الأرض الخراجية؟ أو الوجائب التى تحملها تلك الأرض؟ إنَّ عمر بن الخطاب رضى الله عنه حينما عزم على وقف الأرض المفتوحة وتحبيسها على الأمة حاضرها ومستقبلها أرسل ــ كما رأينا ــ عثمان بن حنيف لمسح السواد وتقدير مساحته وأرسل معه حذيفة بن اليمان، فكان عثمان عاملا على شط الفرات وحذيفة على ما وراء دجلة من جوخى وما سقت. فبلغت مساحة السواد ستة وثلاثين ألف ألف جريب(٣) ووضع على جريب الزرع درهما وقفيزا. وعلى الكرم عشرة دراهم وعلى الرطبة خمسة دراهم وعلى الرجل اثنى عشر درهما وأربعة وعشرين وثمانية وأربعين درهما.

---

١ ــ الخراج لابى يوسف ٦٦.

٢ ــ الاحكام السلطانية للماوردى ١٧٨.

٣ ــ الجريب يساوى ١٣٦٦,٠٤١٦ متراً مربعاً.

وفي رواية: أنه جعل على جريب العنب عشرة دراهم وعلى جريب النخل ثمانية دراهم وعلى جريب القصب ستة دراهم وعلى جريب الحنطة أربعة دراهم وعلى جريب الشعير درهمين وعلى الرأس اثنى عشر درهما وأربعة وعشرين درهما وثمانية وأربعين درهما وعطل من ذلك النساء والصبيان»(١).

وفي حديث عمرو بن ميمون قال: شهدت عمر بن الخطاب وأتاه ابن حنيف فجعل يكلمه فسمعته يقول: والله لئن وضعت على كل جريب من الأرض درهما وقفيزا من طعام لا يشق ذلك عليهم ولا يجهدهم. قال أبو عبيد فلم يأتنا في هذا حديث عن عمر أصح من حديث عمرو بن ميمون. ولم يذكر فيه مما وضع على الأرض أكثر من الدرهم والقفيز(٢).

ولكنا رأينا فيما رواه أبو يوسف أنه وضع فوق ذلك، ومن ذلك حديث الشعبي أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه فرض على الكرم عشرة دراهم وعلى الرطبة خمسة وعلى كل أرض يبلغها الماء عملت أو لم تعمل درهما ومختوما ــ المراد بالمختوم هنا القفيز(٣) ــ وعلى ما سقت السماء من النخل العشر وعلى ما سقى بالدلو نصف العشر، وما كان من نخل عملت أرضه فليس عليه شيء(٤).

الخراج ضريبة الارض

و يقول أبو عبيد: وفي تأويل فعل عمر أيضاً حين وضع الخراج و وظفه على أهله من العلم: أنه جعله شاملا عاما على كل من لزمته المساحة وصارت الأرض في يده من رجل أو امرأة أو صبي أو مكاتب أو عبد فصاروا متساوين فيها، ألا تراه لم يستثن أحدا دون أحدٍ؟ ومما يبين

---

١ ــ الخراج لابى يوسف ٣٦.
٢ ــ الاموال ١٠١.
٣ ــ القفيز يساوى اثنى عشر صاعاً أو ثلاثة وثلاثين لتراً.
٤ ــ الخراج لابى يوسف ٣٧.

ذلك قول عمر في دهقانه نهر الملك حين أسلمت فقال: دعوها في أرضها تؤدي عنها الخراج. فأوجب عليها ما أوجب على الرجال(١) ــ وهذا صحيح لأن الخراج ضريبة الأرض فلا ينظر فيه الى المالك، وأما الجزية فهى ضريبة الرؤوس فلا تجب إلاّ على القادر على القتال.

ولذلك لا تفرض على النساء ولا على الصبيان ولا على المساكين الذين يتصدق عليهم.

حد السواد

فما هى أرض السواد التى وقعت عليها المساحة وصارت أرض خراج؟.

الحسن بن صالح يقول: أرض الخراج ما وقعت عليه المساحة، وكان أبو حنيفة يقول «هى كل أرض بلغها ماء الخراج».

وحد السواد الذى وقعت عليه المساحة: من لدن تخوم ــ أى حدود ــ الموصل مادّاً مع الماء الى ساحل البحر ببلاد عبادان شرقى دجلة. هذا طوله أما عرضه فحده منقطع الجبل من أرض حلوان الى منتهى طرف القادسية المتصل بالعذيب من أرض العرب، فهذه حدوده السوادوعليه وقع الخراج(٢).

مقدار الخراج

ولما فتحت الشام والجزيرة الفراتية ومصر حملت على سواد العراق وطبق فيها نفس النظام المطبق هناك، وقد طلب الفاتحون قسمتها أيضا كما طلب فاتحو العراق ولكن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رفض ذلك وفضل أن يقسم المال المنقول و يبقى الأرض وقفا على المسلمين أبد الدهر وفرض عليها الخراج، و بلغ خراج العراق على عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه مائة وثمانية وعشرين ألف ألف درهم.

---

١ ــ الاموال ١٠٢.

٢ ــ الاموال ١٠٣.

وهو أعلى الأرقام المذكورة لذلك، إذ قيل مائة وعشرين ألف ألف وقيل مائة ألف ألف درهم(١).

خراج مصر

أما خراج مصر فهناك تقديران مختلفان له فالمقريزي يذكر أن عمرو ابن العاص رضى الله عنه جباها في عهد عمر اثنى عشر ألف ألف دينار، ثم جباها عبد الله ابن أبى السرح في عهد عثمان رضى الله عنه أربعة عشر ألف ألف دينار، وهذا القول والذى قبله ردده المؤلفون المحدثون حتى صار شائعا، ولكننا نجد أن البلاذرى يقول: جبى عمرو خراج مصر وجزيتها ألفى ألف. وجباها عبد الله بن سعد أربعة آلاف ألف، وفي موضع آخر قال: فتح عمرو بن العاص مصر سنة ٢٠ فلما فتحها صالحه أهل البلد على وظيفة وهي ديناران على كل رجل وأخرج النساء والصبيان من ذلك، فبلغ خراج مصر في ولايته ألفى ألف دينار، فكان بعد ذلك يبلغ أربعة آلاف ألف دينار، وجاء في كتاب الخراج ــ لقدامة ابن جعفر ــ مثل هذا إذ قال: وجبى عمرو مصر جزيتها ألفى ألف دينار وجباها عبد الله بن سعد أربعة آلاف دينار. يقول الدكتور ضياء الدين الريس ــ وأنا أرى أن التقدير الثانى هو الأرجح بل الأصوب ولنا على ذلك أدلة عديدة فأولها: أن البلاذرى وقدامة كلاهما متقدم على المقريزى، والأول حجة في الفتوح والثاني في الخراج. ثانيهما: أن المقريزى نفسه نص على أن هذا الذى جباه عمرو ثم عبد الله إنما هو من الجماجم خاصة دون الخراج، أى أنه كان الجزية على الرؤوس. ومادام أن الجزية بالاتفاق ــ هي ديناران عن كل رجل، أى دون النساء والصبيان والشيوخ كما ذكر هذا المقريزى في موضع آخر فيكون معنى ذلك أن عدد الرجال الذين أدوا الجزية ستة ملايين فإذا اعتبرنا الرجال ثلث أو ربع أو خمس عدد السكان كان عدد السكان الكلى ١٨ أو ٢٤ أو ٣٠ مليونا على

والخلاف فيه

---

١ ــ الخراج والنظم المالية ١٤٨.

الترتيب وهذا غير معقول بالمرة. وقد قرر مؤرخو مصر البيزنطية أنَّ عدد سكانها كان فقط سبعة ملايين(١).

ولكننى أضيف أن القدر الذى ذكره المقريزى قد ذكره أيضاً ابن عبد الحكم ولعل المقريزى استقى معلوماته من كتابه ــ فتوح مصر والمغرب. يقول ابن عبد الحكم: «حدثنا عبد الله بن صالح عن الليث بن سعد أن عمرا جباها ــ أى مصر ــ اثنى عشر ألف ألف» ثم يقول: قال الليث، وجباها عبد الله بن سعد حين استعمله عليها عثمان رضى الله عنه أربعة عشر ألف ألف» (ولم يذكر دينارا كما أنه لم يذكر أن هذه من جزية الرؤوس فقط ــ وان ذكر ذلك في موضع آخر ــ ولكن ربما تكون جزية الرؤوس وخراج الأرض لأنه ذكر أيضاً): «وجباها المقوقس قبله بسنة عشرين ألف ألف»(٢).

و يقول أيضا «وأحصوا عدد القبط يومئذ خاصة من بلغ منهم الجزية وفرض عليه الديناران، رفع ذلك عرفاؤهم بالأيمان المؤكدة، فكان جميع من أحصى بمصر أعلاها وأسفلها من جميع القبط فيما أحصوا وكتبوا ورفعوا أكثر من ستة آلاف ألف نفس، فكانت فريضتهم يومئذ اثنى عشر ألف ألف دينار في كل سنة(٣). وفي رواية أخرى فأحصوا بذلك على دينارين فبلغت عدتهم ثمانية ألف ألف(٤) (وفيه ابن لهيعة وهو مطعون فيه).

وقد ذكر الدكتور الريس جملة الخراج في عهد الخلفاء الراشدين فبلغ أكثر من مائتى مليون درهم غير خراج الشام والجزيرة وأرمينة وأذربيجان و بلاد الفرس شرقي السواد غير الاخماس(٥).

---

١ ــ الخراج والنظم المالية ١٤٩ــ١٥٠.
٢ ــ فتوح مصر ٢١٥ــ٢١٦.
٣ ــ المرجع السابق ١٠٣.
٤ ــ المرجع السابق ١٠٤.
٥ ــ الخراج والنظم المالية ١٥٧.

الوضع القانوني للارض الخراجية

والذى يهمنا هنا بالدرجة الأ ولى تلك الاحكام المتعلقة بأرض الخراج من حيث الوضع القانونى للأ رض والضريبة التى تستحق عليها، أما الأ ول: من المالك لهذه الأ رض؟.

والثانى: ما نوع الضريبة التى تفرض عليها، وهل تتغير بتغير دين المستغل للأ رض؟.

هذه الاستفسارات أوجدت مجالا رحبا للمستشرقين ومن شايعهم في الادعاءات غير الصائبة بأن هذه الأ راضى والضرائب لم تحدد مكانتها أو نوعيتها إلّاعلى مدى التطور الذى واكب مسيرة الدولة الإسلامية ولم تحدد ما هية كل إلا في نهاية القرن الأ ول الهجرى و بداية القرن الثانى.

وسنذكر هذه الادعاءات والرد عليها فيما يأتى بإذن الله.

قلنا إنَّ الاستفسار الأ ول عن مالك الأ رض من هو؟ وأرض الخراج كما بينا ثلاثة أنواع:

١ ــ أرض محياة تسقى من ماء أنهار الخراج عند أبى حنيفة.

٢ ــ أرض صالح عنها أصحابها بمقدار من المال يدفعونه كل سنة وهى المسماة بأرض الصلح.

٣ ــ أرض فتحت عنوة ولم تقسم و بقيت في أيدي أصحابها.

أما الأ رض المحياة فقد اتفق على أنها ملك لمن أحياها يبيع و يهب و يورث ولا حق لأحد فيها إلا لصاحبها.

أرض الصلح والخلاف فيها

وأما أرض الصلح قد وردت فيها آثار تشير الى الاختلاف فيها: فعن الحسن بن صالح(١): لم ير بأسا بشرى أرض أهل الصلح، فإن اشتراها

---

١ ــ الحسن بن صالح بن صالح بن حى الثورى الكوفى من شيوخ يحيى بن آدم، كان ناسكا عابدا فقيها كان ثقة صحيح الحديث كثيره. الطبقات ٦/٢٦١.

مسلم صارت أرض عشر. إلا أن تكون أرضاً قد صولح أهلها على أن يوضع الخراج عليها. قال يحيى: وان كان وضع الخراج عليها فهى أرض خراج لا يغير(١).

وعن الحكم(٢) عن شريح(٣) أنه اشترى أرضا من أرض الحيرة يقال لها زبا وقال الحكم: كانوا يرخصون في شرى أرض الحيرة من أجل أنها صلح(٤).

وعن عبد الله مغفل المزنى(٥) قال: لا يباع أرض دون الجبل إلا أرض بنى صلوبا وأرض الحيرة فإن لهم عهدا(٦).

١ ــ ملك أصحابها

وعن مالك قال: أما أهل الصلح فمن أسلم منهم فهو أحق بأرضه، وقال ابن سيرين: فما كان صلحا فهوما لهم. وقال أبو عبيد: فعلى تأويل مذهب ابن سيرين ومالك أنه لا بأس بشرى أرض الصلح لأنها ملكهم وروى عن الحسن بن صالح مثله(٧).

وقال أبو عبيد: و ينبغى أن يكون في هذا المذهب أيضا: أنهم إذا أسلموا صارت أرضوهم أرض عشر لأنها ملك أيمانهم(٨).

فهذه الآثار تشير الى أن هذه الأرض هى ملك لأهلها ــ بدليل جواز شرائها منهم لأنها لو لم تكن ملكهم لما جاز لهم بيعها.

٢ ــ فىء للمسلمين

ثم يذكر أن أبا حنيفة يقول غير هذا، إذ كان يقول: من أسلم منهم أو اشترى أرضه مسلم من أرض الصلح فإن الصلح باق على حاله(٨) ــ

---

١ ــ الخراج للقرشي ٥١ــ٥٢.

٢ ــ الحكم بن عتبة الكندى كان ثقة فقيها عالما عاليا رفيعا كثير الحديث. الطبقات ٦/٢٣١.

٣ ــ شريح الكندى القاضى بن الحارث كان ثقة توفى سنة ٦ او ثمان وسبعين. الطبقات ٦/١٠٠ــ٩٠.

٤ ــ الخراج للقرشى ٥٥.

٥ ــ عبد الله بن مغفل المزنى صحابى.

٦ ــ الخراج للقرشى ٤٩.

٧ ــ الاموال ٢٢٨.

٨ ــ المرجع السابق ٢٢٩.

(أى أنها تبقى خراجية) «و يؤكد هذا ما روى عن الزهرى قال: قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم الجزية من مجوس البحرين، قال الزهرى: فمن أسلم منهم قُبل إسلامه وأحرز إسلامه نفسه وماله إلا الأ رض فإنها فىء للمسلمين من أجل أنه لم يسلم أول مرة وهو في منعه(١) ــ يقول أبو عبيد: ليس يريد بقوله «إن أرضه فيء للمسلمين أنها تنزع منه إذا أسلم ولكنه يريد أنها تكون أرض خراج على حالها لأنها فىء للمسلمين ولا يرضى منه بالعشر كأرض المسلمين الذين يملكونها(١).

و يقول الماوردى: والقسم الرابع ما صولح عليه المشركون من أرضهم فهى الارض المختصة بوضع الخراج عليها وهى على ضربين: أحدهما ما خلا عنه أهله حصلت للمسلمين بغير قتال، فتصير وقفا على مصالح المسلمين و يضرب عليها الخراج و يكون أجرة تقر على الأ بد، وإن لم يقدر بمدة لما فيها من عموم المصلحة ولا يتغير بإسلام ولا ذمة، ولا يجوز بيع رقابها اعتباراً لحكم الوقوف ــ (وللإمام ان يقطع منها لمن يرجى أو قدم مصلحة للإسلام وأهله وله أن يؤاجرها مثل أرض الصوافى). والضرب الثانى، ما أقام فيه أهله وصولحوا على إقراره في أيديهم بخراج يضرب عليهم فهذا على ضربين:ــ أحدهما: أن ينزلوا عن ملكها لنا عند صلحنا فتعتبر هذه الأ رض وقفا على المسلمين كالذى انجلى عنه أهله، و يكون الخراج المضروب عليهم أجرة لا تسقط بإسلامهم، ولا يجوز لهم بيع رقابها و يكونون أحق بها ما أقاموا على صلحهم، ولا تنتزع من أيديهم سواء أقاموا على شركهم أم أسلموا كما لا تنتزع الأ رض المستأجرة من يد مستأجرها، ولا يسقط عنهم بهذا الخراج جزية رقابهم إن صاروا أهل ذمة مستوطنين، وإن لم ينتقلوا الى الذمة وأقاموا على حكم العهد لم يجز أن يقروا فيها سنة وجاز إقرارهم فيما دونها بغير جزية.

١ــ الاموال ٢٢٦.

والضرب الثانى: أن يستبقوها على أملاكهم ولا ينزلوا عن رقابها و يصالحوا عنها بخراج يوضع عليها. فهذا الخراج جزية تؤخذ منهم ما أقاموا على شركهم وتسقط عنهم بإسلامهم، ويجوز أن لا تؤخذ منهم جزية رقابهم ويجوز لهم بيع هذه الأرض على من شاءوا منهم أو من المسلمين أو من أهل الذمة. فإن تبايعوها فيما بينهم كانت على حكمها في الخراج وإن بيعت على مسلم سقط عنه خراجها(١).

فمن هذه الآثار نرى أن أرض الصلح ملك أهلها يتبايعونها ــ إلا ما جلا عنه أهله أو تنازلوا عنها حين الصلح ــ ولكن الخلاف هل إذا اشتراها مسلم أو أسلم صاحبها أيبقى عليها خراجها أم تحول عشرية؟.

أما الأرض التى فتحت عنوة ــ أى بقتال غلب فيه أصحابها وانتصر عليهم المسلمون فهى: إما أن تعتبر غنيمة فتقسم بين الغانمين وتصبح أرض عشر، ولا كلام لنا فيها، وإما أن لا تعتبر غنيمة ولا تقسم فهذه توقف لمصالح المسلمين كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: «وقد رأيت أن أحبس الارضين بعلوجها وأضع عليهم فيها الخراج وفي رقابهم الجزية يؤدونها فتكون فيئا للمسلمين(٢).

فهذه أراضٍ أوقفت لمصالح المسلمين وأعطياتهم وأرزاقهم فمن يملكها؟ هل هى ملك للجماعة الإسلامية كلها لا يجوز بيعها ولا شراؤها؟ أم يملكها أهلها بعد وضع الخراج عليهم. في الآثار الاتية البيان في ذلك:

يقول البلاذرى: وإن لم يقسمها الإمام وردها للمسلمين عامة ــ كما فعل عمر بالسواد ــ فعلى رقاب أهلها الجزية وعلى الأرض الخراج،

---

١ ــ الاحكام السلطانية للماوردى ١٤٧ وابو يعلى ١٦٣ــ١٦٤.
٢ ــ الخراج لابى يوسف ٢٥.

وليسوا برقيق وهو قول أبى حنيفة(١). «وهكذا قال ابو يوسف: وافتتح عمر السواد والأهواز فأشار عليه المسلمون أن يقسم السواد وأهل الاهواز وما افتتح من المدن فقال لهم: فما يكون لمن جاء من المسلمين؟ فترك الأرض وأهلها وضرب عليهم الجزية وأخذ الخراج عن الأرض(٢).

القائلون بجواز بيعها

وقال أيضا «وإن لم ير قسمتها ورأى الصلاح في إقرارها في أيدي أهلها كما فعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه في السواد فله ذلك وهى أرض خراج وليس له أن يأخذها بعد ذلك منهم وهى ملك لهم يتوارثونها و يتبايعونها و يضع عليهم الخراج(٣).

وعن كليب بن وائل(٤) قال: قلت لابن عمر اشتريت أرضاً قال الشرى حسن قال: قلت فإنى أعطى من كل جريب أرض درهما وقفيزا من طعام قال: لا تجعل في عنقك الصغار(٥).

و يقول سفيان بن سعيد «هو الثورى الفقيه المشهور»: إذا ظهر على بلاد العدو فالإمام بالخيار إن شاء قسم البلاد والاموال والسبى بعد ما يخرج الخمس من ذلك، وان شاء مَنَّ عليهم فترك الأرض والاموال وكانوا ذمة للمسلمين كما صنع عمر رضى الله عنه بأهل السواد. فإن تركهم صاروا عهدا يتوارثون و باعوا أرضيهم، قال يحيى: وسمعت حفص ابن غياث(٦). يقول: تباع و يقضى بها الدين وتقسم في المواريث(٧).

---

١ ــ فتوح البلدان ٥٤٦.
٢ ــ الخراج لابى يوسف ٢٨.
٣ ــ نفس المرجع ٦٣.
٤ ــ كليب بن وائل البكرى الكوفى.
٥ ــ الخراج للقرشي ٥٢.
٦ ــ حفص بن غياث النخعى المذحجى ولد سنة ١١٧ ولى قضاء شرق بغداد ثم الكوفة ومات سنة ١٩٤ وكان ثقة مأمونا ثبتا الا انه كان يدلس. الطبقات ٦/٢٧١.
٧ ــ الخراج للقرشى ٤٥.

وعن ابن ابى ليلى(١) أنه كان يقول: قد رد عمر بن الخطاب رضى الله عنه اليهم أرضيهم وتركها لهم وصالحهم على الخراج، قال فكان لا يرى بشراها بأسا(٢).

فمن هذه الاثار نرى أن ابن عمر وابن أبى ليلى وسفيان بن سعيد وأبا حنيفة وأبا يوسف وحفص بن غياث يرون أن هذه الارض ملك لأهلها وليست وقفا على الأمة محبسة لا يجوز بيعها وشراؤها وتوريثها و يكون المراد تحبيس خراجها لا تحبيس عينها.

وفي الاثار التالية نرى رأيا آخر:

القائلون بعدم جواز بيعها رأنها موقوفة

عن الزهرى(٣) قال: قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن أسلم من أهل البحرين أنه قد أحرز دمه وماله إلا أرضه فانها فىء للمسلمين لانهم لم يسلموا وهم ممتنعون(٤).

وعن عبد الله بن مغفل المزنى قال: لا يباع ما دون الجبل إلا أرض بنى صلوبا وأرض الحيرة فإن لهم عهدا(٥). وعن ابراهيم النخعى(٦) قال: جاء رجل الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال: إنى قد أسلمت فضع عن أرضى الخراج قال: لا إن أرضك أخذت عنوة(٧).

---

١ — ابن أبى ليلى عبد الرحمن بن أبى ليلى القاضى من بنى عوف من الأوس من الطبقة الاولى من التابعين وقد خرج على الحجاج مع عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث وقتل بدجيل. الطبقات ٦/٧٧—٧٤.

٢ — الخراج للقرشى ٢٣.

٣ — الزهرى محمد بن مسلم بن شهاب فقيه المدينة.

٤ — الخراج للقرشى ٤٧.

٥ — الخراج للقرشى ٤٨، ٤٩.

٦ — ابراهيم النخعى بن يزيد فقيه الكوفة من التابعين مات سنة ٩٦ هـ الطبقات ٦/١٨٨.

٧ — الخراج للقرشي ٥١.

وعن الحسن قال: قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: لا تشتروا من عقار أهل الذمة ولا من بلادهم شيئا([1]).

وعن ابن سيرين وعن شقيق([2]) العقيلى مثله.

وعن عتبة بن فرقد([3]) أنه اشترى أرضا من أرض الخراج ثم أتى عمر رضى الله عنه فأخبره، فقال: ممن اشتريتها؟ قال من أهلها. قال: فهؤلاء أهلها ــ للمهاجرين والأنصار ــ أبعتموه شيئا؟ قالوا: لا، قال: فاذهب فاطلب مالك حيث وضعته([4]).

وعن على عليه السلام: أنه كان يكره أن يشترى من أرض الخراج شيئا و يقول: عليها خراج المسلمين([5]).

وعن طارق([6]) بن شهاب قال: أسلمت امرأة من أهل نهر الملك فقال عمر أو كتب: إن اختارت أرضها وأدت ما على أرضها فخلوا بينها و بين أرضها. وإلا خلوا بين المسلمين وأرضهم([7]). وعن عمر بن عبد العزيز قال: من أسلم من أهل الأ رض فله ما أسلم عليه من أهل أو مال فأما داره وأرضه فانها كائنة في فىء الله عز وجل على المسلمين([7]).

١ــ الخراج للقرشي ٥٢ والاموال ١١٠.

٢ ــ شقيق العقيلي ــ ترجم ابن سعد لعبد الله بن شقيق العقيلي وقال: روى عن عمر بن الخطاب ــ وكان ثقة في الحديث وروى أحاديث صالحة، وتوفى في ولاية الحجاج العراق الطبقات ٧/٩١ ولم يترجم لمن اسمه شقيق العقيلي.

٣ ــ عقبة بن فرقد صحابى نزل الكوفة.

٤ ــ الخراج للقرشى ٥٤، ٥٥ والاموال ١١٠.

٥ ــ الخراج للقرشى ٧٦.

٦ ــ طارق بن شهاب بن عبد شمس البجلى رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى عن كثير من الصحابة. الطبقات ٦/٤٤.

٧ ــ الخراج للقرشى ٤٧ وفتوح مصر ٢٠٨.

وعن عبد الله بن حازم قال: سألت مجاهداً[1] عن أرض السواد؟ فقال: لا تشترى ولا تباع قال: نقول لإنها فتحت عنوة ولم تقسم فهى لجميع المسلمين[2].

وعن ربيع بن عميلة الفزارى قال: أسلم الرفيل على عهد عمر رضى الله عنه ففرض له عمر في ألفين، وقال لعمر: دع أرضي في يدى أعمرها وأعالجها وأؤدى عنها ما كانت تؤدى ففعل[3]، وكذلك فعل على عليه السلام ورضى الله عنه: أنه أسلم دهقان من أهل عين التمر. فقال له على: أما جزية رأسك فنرفعها وأما أرضك فللمسلمين فإن شئت فرضنا لك ــ وإن شئت جعلناك قهرمانا لنا فما أخرج الله عز وجل من شيء أتيتنا به[4].

وعن عامر الشعبى[5] قال: لا يصلح بيع أرض أهل الذمة[6].

فهؤلاء وفيهم من الخلفاء الراشدين المهديين اثنان عمر وعلى رضى الله عنهما يرون أن هذا السواد وأمثاله مما فتح عنوة هو ملك للمسلمين جميعا لا ملك أهله المستغلين له، وقد سبق هؤلاء قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن أسلم من أهل البحرين.

و يقول أبو عبيد معقبا على الآثار الواردة بكراهة شراء أرض العنوة: «فقد تتابعت الآثار بالكراهة بشراء أرض الخراج وإنَّما كرهها الكارهون

١ــ مجاهد بن جبر فقيه مكة من التابعين كان فقيها عالما ثقة كثير الحديث مات سنة ١٠٢هـ.

٢ ــ فتوح البلدان ٣٢٦.

٣ ــ الخراج للقرشى ٥٧.

٤ ــ الخراج للقرشى ٥٨ والاموال ١١٤.

٥ ــ الشعبى عامر بن شراحيل الشعبى الهمدانى روى عن عديد من الصحابة والتابعين كان من العلماء بالشعر وايام العرب والحديث توفى سنة ١٠٥ الطبقات ١٧١ــ٦/١٧٨.

٦ ــ الخراج للقرشى ٥٣.

من جهتين إحداهما أنها فيء للمسلمين. والأخرى: أن الخراج صغار وكلاهما داخل في حديث عمر رضى الله عنه إذ يقول «ولا يُقِرَّنَّ أحدكم بالصغار بعد إذ نجاه الله منه». ووافقه على ذلك ابن مسعود وابن عباس وعبد الله بن عمرو وقبيصة بن ذؤيب وميمون بن مهران، ومسلم بن مشكم ــ (وعمر بن عبد العزيز أيضا) ــ ومذهبه في الفيء قوله لعتبة بن فرقد حين اشترى الأرض «هؤلاء أهلها يعنى المهاجرين والأنصار ووافقه على ذلك على بن أبى طالب رضى الله عنه(١).

ويقول مالك بن أنس «كل أرض افتتحت صلحا فهى لأهلها لأنهم منعوا بلادهم حتى صولحوا عليها، وكل بلاد أخذت عنوة فهى فيء للمسلمين(٢).

ثم يعقب أبوعبيد: فأرى العلماء قد اختلفوا في أرض الخراج قديما وحديثا وكلهم إمام إلا أن أهل الكراهة أكثر، والحجة في مذهبهم أبين والله أعلم(٣).

تعقيب

وارى ان تعبير أكثرهم لا يفيد الحرمة القاطعة لأنه لو كان شراء هذه الأرض غير جائز قطعا لما ترك عمر بن الخطاب رضى الله عنه عتبة بن فرقد يبقى على الأرض التى اشتراها على الرغم من أن عمر رضى الله عنه قال له: فارددها على من اشتريتها منه، وخذ مالك. فهو رضى الله عنه لم يشدد على عتبة في ردها واسترداد المال.. بل إنَّ عتبة نفسه يأتى الى عمر رضى الله عنه يطلب منه أن يضع عن أرضه الخراج فيأبى عليه عمر

---

١ ــ الاموال ١٦٤.
٢ ــ المرجع السابق ١١٥ وفتوح مصر ٢٠٩.
٣ ــ الاموال ١٢١.

ذلك(١) ــ قال يحيى ــ بن آدم القرشي ــ وأحسن ذلك عندنا في نصرانيين من بني تغلب اشتريا أرض خراج أن عليه الخراج وليس عليه غيره ــ كما قال عمر لعتبة بن فرقد حين اشترى أرض خراج فقال عمر: أد عنها ما كانت تؤدى. وقد ثبت أن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه اشترى من دهقان أرضا على أن يكفيه جزيتها(٢).

وإنَّ ابن سيرين كانت له أرض من أرض الخراج فكان يعطيها بالثلث أو الربع(٣).

ولعل عمر رضوان الله عليه كره أن يشترى المسلمون أرض الخراج حتى لا يستكينوا و يهدأوا والحرب بينهم و بين أعدائهم لم تنته بعد، و يزد جرد آخر ملوك الفرس كان لا يزال حيا يؤلب عليهم ويجيش الجيوش استعدادا لمعركة جديدة، والروم لازالوا يناهضون المسلمين، ولم تستقر أقدام الإسلام والمسلمين في الأرض المفتوحة بعد، فليس من الحكمة أبدا السماح للمقاتلين باستزراع الأرض والإقامة فيها وترك الجهاد، ولعل عمر رضى الله عنه ترك عتبة بن فرقد لأنَّه استغل الأرض التى اشتراها لزرع القصب لدوابه ولعلها كانت خيلا أو إبلا فهى تنفع المسلمين في حروبهم، وأما لغير ذلك فقد أباه ومنعه. فعن عبد الله بن هبيرة أن عمر بن الخطاب أمر مناديه أن يخرج الى أمراء الأجناد يتقدمون الى الرعية أن عطاءهم قائم وأن رزق عيالهم سائل فلا يزرعون ولا يزارعون.

منع عمر ابن الخطاب الجنود عن الزرع

---

١ ــ يقول الزيلعى في نصب الراية ٢/١٤٩ نقلا عن كتاب المعرفة للبيهقي عن أبى يوسف قال: حدثنا مجالد بن سعيد عن عامر ــ هو الشعبى ــ عن عتبة بن فرقد السلمى أنه قال لعمر بن الخطاب إنى اشتريت أرضا من أرض السواد فقال عمر: أنت ؛ ها مثل صاحبها. الخراج هامش ٥٤.

ففي هذا الا ثر رضاء بالشراء وابقاء للخراج.

٢ ــ الاموال ١١٩ والخراج للقرشى ٥٣، ٥٤.

٣ ــ نفس المرجع ١٢٠ والخراج للقرشى ٥٦.

ثم إنَّ شريك بن سُميّ العطيفى أتى الى عمرو بن العاص يستأذنه بالزرع فقال له عمرو بن العاص: لا أقدر على ذلك.

فزرع شريك من غير إذن عمرو، فلما بلغ ذلك عمرا كتب الى عمر بن الخطاب يخبره أن شريك بن سُمَيّ العطيفى حرث بأرض مصر، فكتب له عمر: أن ابعث إليَّ به. فلما انتهى كتاب عمر الى عمرو أقرأه شريكا فقال شريك لعمرو: قتلتنى ياعمرو. قال عمرو: ما أنا قتلتك أنت صنعت هذا بنفسك.

قال له: إذ كان هذا من رأيك فأذن لى بالخروج اليه من غير كتاب ولك عهد الله أن أجعل يدى في يده. فأذن له بالخروج.

فلما وقف على عمر قال: تؤمننى ياأمير المؤمنين؟ قال: ومن أى الأجناد أنت؟ قال: أنا من جند مصر. قال: فلعلك شريك بن سمى العطيفى. قال: نعم ياأمير المؤمنين قال: لأجعلنك نكالا لمن خلفك. قال: أو تقبل منى ما قبل الله من العباد؟.

قال: وتفعل؟ قال نعم. فكتب الى عمرو بن العاص إن شريك بن سمى جاءنى تائبا فقبلت منه(١). فهذا خالف الأمر ولولا أنه سارع بتوبته لكان له مع عمر شأن. فكان قرار عمر بالمنع ــ على ما أعتقد ــ قرارا إدارياً قابلا في المستقبل للتعديل أو الإلغاء عند زوال أسبابه ــ وتعبير الجميع بالفىء يشير الى أن هذه الأرض لا يزول عنها خراجها بالبيع أو اختلاف المالك كما سنرى.

ولعل الأكثرين كرهوا شراءها والدخول فيها لما فيها من الصغار بدفع الخراج، فقد تورع عن ذلك أكثر الصحابة والتابعين ولكن مع سنة التطور

---

١ ــ فتوح مصر ٢١٧.

واستقرار كثير من العرب في البلاد المفتوحة وإسلام كثير من أهل الذمة كان لابد وأن يحدث تبدل في الأوضاع العامة بالنسبة للأرض الخراجية من أرض الصلح أو غيرها، فأخذ الناس يبيعون و يشترون أرض الصلح أولا ثم أرض العنوة.

ولكن المهم في الأمر أن أرض العنوة هذه هل إذا أسلم صاحبها أو اشتراها عربى مسلم هل تصبح أرض عشر؟.

هذه هى القضية المهمة التى أثارت كثيرا من التساؤلات وظهر بسببها كثير من الادعاءات سواء من المستشرقين أو ممن اقتفى آثارهم من بعض الكتاب المحدثين.

رأى فلهاوزن

فمما يقوله فلهاوزن في كتابه الدولة العربية: أما ما أخذته جيوش العرب عنوة فكان يعتبر ملكا لعامة المسلمين وقد ترك في يد المغلوبين ووضع عليه الخراج. وكان الواجب أن يقسم الخراج في كل عام على الملاك الشرعيين للأرض باعتبار أنه غلة لهم ــ (يعنى بالملاك هنا الجنود الفاتحون الذين كانوا يستحقون أربعة اخماس الغنيمة لو قسمت الأرض) ولكن الدولة وضعت يدها عليه وصارت تدفع للمقاتلة المسلمين أعطيات تحددها على هواها ــ(إنَّ فلهاوزن يجهل تلك القواعد التى تطبق أو طبقها عمر ومن بعده في توزيع العطاء فأدعى أن التحديد على هوى الدولة دون نظام أو قانون) ــ و بذلك انطمس الفرق بين أرض الخراج وأرض الصوافى ــ(وهذا خطأ آخر لأنَّه منذ الأصل أن لا فرق بين أرض الصافية وأرض الخراج من حيث أن كليهما فىء و يصرفان في مصالح المسلمين العامة غير أن الصوافى يجوز أن يقطع منها الإمام لمن يرى في إقطاعه مصلحة عامة وليس له ذلك في أرض الخراج) وكان ما يحمل منهما جميعا من غلة يجرى الى بيت مال الدولة وقد تم هذا التطور في فترة الفتوحات الكبرى

وأشرف عليه عمر بن الخطاب وجعله وضعا قانونيا في آخر الأمر ــ(بل إنَّ عمر بن الخطاب هو المؤسس لهذا النظام). ولكن عمر بن الخطاب لم يذهب فيما يتعلق بأرض الخراج الى حد منع الملكية الخاصة للأرض بالمعنى الحقيقي لهذه الملكية منعا باتا، أما التحريم لملكية الأرض على العرب في الأمصار تحريما شاملا فلم يوجد قط. أما القول بان العرب قد منعهم التشريع منذ بادىء الأمر من امتلاك الأرض فلا يوجد عليه دليل قط، ولم يكن هناك ما يدعوعمر بن الخطاب الى معارضة شيء لا يكاد يكون في عهده قد بدأ(١).

(هذا قوله وقد رأينا في الآثار السابقة ما يدحض هذا القول و يفنده).

ادعاءات فلهاوزن

ثم يقول: واذن فقد كان المبدأ المعمول به في أول الأمر هو أنَّ الإسلام يعفى المسلم من كل إلزام بدفع جزية أو خراج، وأن أرض الخراج تصبح معفاة من خراجها إذا ملكها عربى مسلم أو إذا دخل مالكها الذى ليس بعربى في الإسلام(٢). و يقول قبلا: وكذلك لم يكن عمر بن الخطاب هو الذى وضع قاعدة أن الخراج إنما يتعلق بالأرض لا بصاحبها سواء كانت ملكا للمسلم أو لغير مسلم وإنَّ الدخول في الإسلام لا يعفى الداخل فيه إلا من الجزية(١).

هذان ادعاءان ظاهر خطأهما، أولهما: الادعاء بأن الإسلام يعفى المسلم من كل إلزام بدفع جزية أو خراج ــ(وهذا صحيح إذا أسلم مختارا قبل الفتح وأما إذا أسلم بعد الفتح فلا). وادعاء: بأنَّ أرض الخراج تصبح معفاة من خراجها إذا ملكها المسلم. ثم ادعاء ثالث: بأنَّ عمر بن الخطاب ليس هو الذى وضع قاعدة أن الخراج إنّما يتعلق بالأرض لا بصاحبها وأن الاسلام لا يعفى الداخل فيه إلا من الجزية.

---

١ ــ الدولة العربية ٢٦٥ــ٢٦٧ بتصرف.

٢ ــ المرجع السابق ٢٦٨.

فقد أظهر أن هناك مبدأ معمولا به من أول الأمر وهو إعفاء المسلم من الجزية والخراج وإسقاط الخراج عن الأرض لو ملكها المسلم. ثم يقول: إن هناك قاعدة أنَّ الخراج يتعلق بالأرض لا بصاحبها ولكن لم يضعه عمر ابن الخطاب ولم يبين من وضع هذه القاعدة إلا إذا كان يدعى أن الفقهاء هم الذين وضعوها.

فكيف نوفق بين هذين التناقضين؟ مبدأ إعفاء ثم قاعدة فرض خراج؟ كيف يكون هناك إعفاء معمول به من أول الأمر ثم توضع قاعدة تخالف الإعفاء؟.

وكلا الأمرين في الحقيقة جانب فيه فلها وزن الصواب. أوَّلاً: فإنَّ المبدأ المعمول به من أول الأمر بإعفاء للمسلم من الجزية والخراج لا ينطبق على المسلم الذى يدخل في أرض خراجية إنما ينطبق على مسلم قبل الفتح وهو في منعة كما مر، وأما المسلم الذى يدخل على أرض خراجية فلا يعفى إلا من الجزية وهي ضريبة الرأس وأما خراج الارض فلم يقل أحد بإسقاطه عن الأرض إذا ملكها مسلم إلا إذا كانت أرض صلح مع ما في هذا من الخلاف كما رأينا فيما مر من الأمثلة.

وأما قاعدة أن الخراج يتعلق بالأرض لا بصاحبها فهذا حق ــ وأما أنها ليست من وضع عمر بن الخطاب فهذا خطأ محض. فقد مر معنا أيضا من الآثار العديدة أن عمر بن الخطاب نفسه هو الذى فرق بين الجزية والخراج منذ رفض قسمة السواد بين الفاتحين. يقول أبو يوسف: وافتتح عمر السواد والأهواز فأشار عليه المسلمون أن يقسم السواد وأهل الأهواز وما افتتح من المدن فقال لهم: فما يكون لمن جاء من المسلمين؟ فترك الأرض وأهلها وضرب عليهم الجزية وأخذ الخراج من الارض(١).

---

١ ــ الخراج لابى يوسف ٢٨.

وأصرح منه قوله رضى الله عنه وقد جمع عشرة من الأنصار يستشيرهم فيما يفعل بالسواد و يقول: وقد غنمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوجهم فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه وأنا في توجيهه، وقد رأيت أن أحبس الأ رضين بعلوجها وأضع عليهم فيها الخراج وفي رقابهم الجزية يؤدونها فتكون فيئاً للمسلمين(١). هل هناك أصرح من هذا يبين أن عمر رضى الله عنه هو الذى وضع قاعدة أن الخراج على الأ رض؟ وفي الأمثلة الكثيرة الماضية أدلة واضحة على أن هذه القاعدة طبقت بأمر عمر وفي عهده على كل من أسلم من أهل الأ رض وعلى كل من اشترى أرض خراج، ومن أوضح الأمثلة قصة عتبة بن فرقد والرفيل ودهقانة نهر الملك وغيرها، فهل يبقى بعد ذلك شك في أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه هو واضع هذه القاعدة واستنادا الى فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في البحرين. وأن فلهاوزن وأمثاله هم المخطئون؟.

لا يعفى المسلم من الخراج ولا تحول الأرض الخراجية عشرية

وأما المسألة أن المسلم يعفى من الخراج ففى إثبات بطلان الادعاء السابق بطلان لهذه المسألة أيضا، لإنَّه إذا ثبت أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وضع قاعدة أن الخراج يتعلق بالأ رض لا بصاحبها، فقد ثبت أيضاً أن المسلم لا يعفى من الخراج إذا ملك أرضاً خراجية أو أسلم وهى في ملكه، وأن الأ رض الخراجية ــ إذا كانت من أرض العنوة ــ لا يجوز أن تتحول عن الخراج أبدا، وهذا أمر متفق عليه بين الصحابة والتابعين والفقهاء من بعدهم. قال الواقدى قال مالك ابن انس وابن أبى ذئب(٢) إذا أسلم كافر من أهل العنوة أقرت أرضه في يده يعمرها و يؤدي الخراج عنها ولا اختلاف في ذلك(٣).

---

١ ــ المرجع السابق ٢٨.

٢ ــ ابن أبى ذئب محمد بن عبد الرحمن.

٣ ــ فتوح البلدان ٥٤٦.

انظر الى قوله مذيلا ــ لا اختلاف في ذلك ــ أى أنّه لا اختلاف بين علماء الأمة ــ قديما وحديثا ــ أن الارض الخراجية ــ من أرض العنوة ــ يبقى خراجها ولو ملكها مسلم أو أسلم من كانت تحت يده. ولكن الخلاف بينهم هل على هذه الارض بجانب الخراج عشر أم لا؟ هذا هو الخلاف لا أن هذه الأرض تصبح عشرية أولا. والأكثرون على أنه يخرج مع الخراج عشر الحب إن كانت تسقى سيحا أو نصف عشره إن كانت تسقى بالدالية، والأدلة على ذلك كثيرة منها:

عن عمرو بن ميمون قال: سألت عمر بن عبد العزيز عن المسلم يكون له أرض خراج قال: خذ الخراج من هاهنا وأشار بيده الى الأرض ــ وخذ الزكاة من هاهنا ــ وأشار بيده الى الزرع(١).

وقال مالك وابن أبى ذئب وسفيان الثورى وابن أبى ليلى عن الرجل يسلم من أهل العنوة: الخراج في الأرض والزكاة من الزرع بعد الخراج(٢).

وعن شُريك(٣) وقد سأله يحيى بن آدم عن المسلم يكون له أرض خراج فيؤدي خراجها: أعليه أن يزكى ما حصل له من الثمرة بعد الخراج؟ قال: نعم إذا بلغ خمسة أوسق(٤).

وعن سفيان بن سعيد: فيما أخرجت الأرض الخراج فارفع دينك وخراجك فإن بلغ خمسة أوسق بعد ذلك فزكها واحسب ما أكلت من الزرع(٤).

---

١ ــ الخراج للقرشى ١٦١ والاموال ١٢٦.

٢ ــ فتوح البلدان ٥٤٦.

٣ ــ شريك بن عبد الله بن أبى شريك القاضى النخعي من شيوخ يحيى بن آدم القرشى تولى قضاء الكوفة زمن أبى جعفر وكان ثقة مأمونا كثير الحديث وتوفى بالكوفة سنة ١٧٧ الطبقات ٢٦٣ــ٢٦٤/٥.

٤ ــ الخراج للقرشى ١٦١ والاموال ١٢٦.

وقال آخرون ليس على المسلم إلاّ الخراج إذا ملك أرض خراج وليس عليه عشر، ولكن القائلين بأنَّ معه العشر حجتهم في ذلك أقوى وأبين.

يقول أبو عبيد: ومما يفرق بين العشر والخراج و يوضح أنهما حقان اثنان و يبين ذلك: أن موضع الخراج الذى يوضع فيه سوى العشر إنما ذلك في أعطية المقاتلة وأرزاق الذرية وهذا صدقة يعطاها الأصناف الثمانية فليس واحد من الحقين قاضيا عن الآخر(١).

آراء المتبعين

الدكتور العدوى

ومع هذه الأدلة الواضحة يأتى بعض كتاب المسلمين ومؤرخيهم ــ مع الأسف ــ يتبعون آراء مثل ذلك المستشرق فلهاوزن وغيره و يقولون: إن أرض الخراج إذا اشتراها مسلم صارت أرض عشر: يقول الدكتور إبراهيم العدوى في كتابه النظم الإسلامية: واقترن بهذه الظاهرة أى ظاهرة دخول أهل الذمة في الإسلام وسقوط الجزية عنهم ــ تحول كثير من أراضي الخراج الى أرض عشرية، إما نتيجة إسلام أهلها أو لتحايل بعض العرب المسلمين على شرائها من أصحابها، وهددت هذه الظاهرة النظام المالى للامويين بالانهيار الكامل، واستطاع عمر بن عبد العزيز أن يحل هذه المفارقات الشاذة حلا يحفظ للنظام المالى مقوماته وللمبادىء قدسيتها في نفس الوقت، إذ حدد مفهوما واضحا لكل من الجزية والخراج فقرر أن الجزية ضريبة يدفعها أهل الذمة وتسقط عنهم بدخول الإسلام أما الخراج فهو حصيلة ما تنتجه الأرض(٢).

وهذا القول هو معنى قول فلهاوزن وخاصة في ادعاء أن مفهوم الجزية والخراج لم يكن محددا طيلة قرن من الزمان وإنَّما حدده عمر بن عبد العزيز فقط يقول فلهاوزن: وفي الاستعمال اللغوى القديم لا توجد تفرقة ما بين الخراج والجزية فهما يدلان على شيء واحد وهو الإتاوة التى

---

١ ــ الاموال ١٢٦.

٢ ــ النظم الاسلامية ٢٨٥.

يدفعها غير المسلم(١). فهو أيضا يدعى أن هناك اختلاطا في مفهوم الجزية والخراج وأن مفهوم كلٍ لم يتحدد إلاَّ في عهد عمر بن عبد العزيز، وقد رأينا في الآثار السابقة وسنرى فيما يأتى أيضاً بُعد ذلك عن الصواب وإنَّ اللفظين كانا محددى المفهوم منذ أول الأمر، بل من عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

د. سيدة الكاشف

وكذلك تردد هذا القول الدكتورة سيدة الكاشف إذ تقول: و ينبغى ملاحظة أننا نجد في المراجع القديمة خلطا بين هاتين الضريبتين. فأحيانا تعنى الجزية ضريبة الرأس وضريبة الأرض معا كما أن الخراج كان يقصد به أحيانا الضريبة العقارية وجزية الرؤوس، أى أن الاصطلاحين كانت لهما في البداية في معظم الاحيان معنى واحد هو الضريبة بالمدلول العام ــ(لاحظ تعبير الضريبة بالمدلول العام وتعبير الإتاوة في كلام فلهاوزن)ــ ثم تقول: والواقع أن التفرقة بين الجزية كضريبة على الشخص والخراج كضريبة على الأرض لم تتضح إلا منذ ولاية الحجاج على المشرق أو قبل ذلك بقليل(٢). ثم تقول: ولم يكن المسلمون يدفعون خراجا عن الأراضى التى امتلكوها إنما كانوا يدفعون عنها العشر زكاة كما يزكى المسلم عن أنواع الأموال الأخرى، وما لبث العرب أن أقبلوا على شراء الأرض الخراجية، ولكنهم كانوا يدفعون عنها العشر بعد شرائها بدلا من الخراج، ولتنافس العرب بعد عهد عمر بن الخطاب في شراء الأرض الخراجية فكان يتبع ذلك إعفاء المسلمين الجدد وتحويل أرضهم الخراجية الى أرض عشرية. كما أن امتلاك العرب للأرض الخراجية حول تلك الأرض الى أرض عشرية(٣).

---

١ ــ الدولة العربية ٢٦٨.

٢ ــ الوليد بن عبد الملك ٧٦ــ٧٧.

٣ ــ الوليد بن عبد الملك ٧٨ــ٧٩.

وهذه كما نرى هي أقوال فلهاوزن ونظرته الى الأرض الخراجية وتحويلها الى أرض عشرية إذا ملكها مسلم أو أسلم مستغلها ــ وهذا كما رأينا من الآثار غير صحيح تماما لأنه ــ كما رأينا فيما سبق ــ أنه لا يحول الى أرض عشرية إلاّ بعض أرض الصلح أو بعض ما أقطع من الصوافي لا أرض العنوة، ولا يعقل أن تسمح الدولة بتحويل أراضيها الى أرض عشر لتصاب بالإفلاس.

وإنّما أحببت هنا أن آتي ببعض النصوص التي تدل على أن بعض مؤرخينا يتبعون ما يردده بعض المستشرقين دون تدقيق أو تمحيص، مع أن فان فلوتن مع كثرة مطاعنه يقول متحدثا عن الموالي: «وكانوا يعفون من تلك الجزية إذا اعتنقوا الإسلام مع بقائهم على دفع الخراج(١).

أساس أخطاء فلهاوزن

وأحب أن أبين هنا من أين أتى فلهاوزن حتى وقع فيما وقع فيه من أخطاء: يقول الدكتور عماد الدين خليل: وفلهاوزن يتبع في هذه المناقشة ــ يريد مناقشته لآراء موللر وكريمر ــ أسلوبا أكثر دقة وعلمية وأحرص على الموضوعية من سائر المستشرقين الذين عالجوا الموضوع.

١ ــ خطأ منهج البحث

ولولا أنه يقع في خطأين: أولها خطأ عام هو خطأ منهج البحث الذي يسلكه الغربيون دائما في دراسة التاريخ والفكر الإنساني لشتى الأمم والحضارات والشعوب، وهو منهج يتمركز دائما على التراث والفكر والمواضعات الأوربية الممزوجة بصبغة ودوافع مسيحية لا يمكن تجاهلها، الأمر الذي أوقعهم دائما في أخطاء يصعب تلافيها. وفلهاوزن عبر استعراضه وتحليله لتطور الأمور المالية حتى عهد عمر بن عبد العزيز فما بعد يقع في أخطاء عديدة بحكم التزامه هذا المنهج، وعلى رأس تلك

---

١ ــ السيادة العربية ٣٩ــ٤٠.

الأخطاء عدم إدراك طبيعة الارتباط بين الفقه الإسلامي المرن المتطور و بين الأسس العريضة والإطارات المفتوحة التى يضعها القرآن والسنة، والتى أتاحت للفقهاء ورجال الفكر الإسلامي إنشاء بناء فقهى مساير للتطورات الاجتماعية لا يدانيه بناء. في الوقت الذى نقرأ فيه لفلهاوزن عبارة كهذه: ومن عادة فقهاء الإسلام دائما أنهم إذا تقررت قاعدة ما شيئا فشيئا تحت تأثير الحاجات أو النزعات المتجددة حينا بعد حين، أرجعوها الى البدايات الأ ولى وجعلوا لها صبغة مقدسة بردهم إياها الى سنة النبى وسنة الخلفاء الأ وَّلين(١).

ولم يشأ مترجم الكتاب ــ الدكتور عبد الهادى أبو ريدة ــ أن يدع أقوالا كهذه تطلق على عواهنها فيعلق على هذه العبارة قائلا «لا شك أن فيما يقوله المؤلف هنا ــ وفيما سبق ــ كثيرا من المبالغة لأن القواعد التى كانت جديدة في صورتها أو تفاصيلها لم تكن كذلك في أصولها ومصادرها الشرعية. وطبيعي أن يكون هنالك فرق بين الصورة القانونية الفقهية للأحكام و بين صورتها في النصوص الأ ولى أو في السنة الأ ولى المأثورة عن النبى صلى الله عليه وسلم، أو بين الصور القانونية القديمة و بين القواعد العامة التى تتضمنها النصوص من القرآن والسنة، وهذا معروف في كل العلوم الإسلامية مما لا يجعل صنيع الفقهاء عملا متكلفا أو ادعاء من غير استناد الى نص قرآنى أو سنة نبو ية أو الى ما يؤخذ منها من طريق القياس(١).

٢ ــ خطأ شخصى قصور البحث وخطأ الفهم

أما الخطأ الآخر لفهاوزن فهو خطأ شخصى فمؤرخ بوزنه يبحث الأمور بهذه الدقة وهذا التتبع الرائع كان عليه أن يلم ــ على الأقل ــ بالمصادر الأساسية للموضوع ذلك أن اعتماده يبدو منصبا على مصادر محدودة

١ ــ الدولة العربية ٢٧٣ وهامشها.

فحسب على رأسها الطبرى والبلاذرى وابن آدم في كتابه الخراج ثم ابن عبد ربه وابن عساكر ــ الى حد ما ــ رغم كونه من المتأخرين. هذا في الوقت الذى لا يمكن فيه لأى باحث عن إجراءات عمر في شتى المجالات أن تتكامل الصورة لديه إلا باضافة مصادر أخرى أكثر أهمية وارتباطا بالموضوع من المصادر الآنفة الذكر على أهميتها ــ مثل سيرة عمر لابن عبد الحكم وسيرة عمر لابن الجوزى وكتاب الطبقات لابن سعد وتاريخ خليفة بن خياط فضلا عن اليعقوبى والمسعودي وابن الاثير وابن كثير وغيرهم. وهناك خطأ شخصى آخر يعود الى عدم فهم المستشرق للنصوص فهما كافيا(١).

وبعد أن رأينا وعرفنا المراد من لفظ الجزية والخراج وعرفنا أيضا أن هذين اللفظين مستعملان منذ العصر الأول للإسلام فما هى الصلة بينهما؟ أو ما هى الرابطة التى تجمع بين لفظى الجزية والخراج؟ وهل صحيح أن مفهومهما لم يتحدد إلا في نهاية القرن الأول الهجرى على يد الحجاج أو قبله بقليل كما تقول د. سيدة الكاشف، أو على يد عمر بن عبد العزيز كما يقول الدكتور إبراهيم العدوى نقلا عن فلهاوزن أو غيره.

الصلة بين الجزية والخراج تحديد مفهوم كل من لفظى الجزية والخراج

أما عن الشق الأول فقد رأينا فيما مر معنا أن الصلة بين الجزية والخراج صلة وثيقة وقائمة، فالجزية والخراج مالان يؤخذان من أهل الذمة وهما من مال الفيء، أما أحدهما فيتعلق بالشخص ذاته وهو الجزية فهى ضريبة شخصية لا تسقط عن الذمى إلا بإسلامه أو ثبوت فقره وخصاصته، وأما الثانى وهو الخراج فهى ضريبة تتعلق بالأرض التى كان يملكها الذمى ــ ولكن بما أنها تتعلق برقبة الأرض المفتوحة فلا تسقط إذا ملك الأرض مسلم أو أسلم الذمى ــ فمن هنا يخالف الخراج

---

١ ــ ١٤٧ــ١٤٨ ملامح الانقلاب الاسلامى.

الجزية ــ وسواء كان مالك الارض رجلا أو امرأة صغيرا أو كبيرا وهذا وجه مخالفة آخر ــ حيث إنَّ الجزية لا تفرض على النساء والصبيان.

والذى أوجد اللبس في بعض الأحيان «أن اللفظين كانا يتبادلان ــ لاشتراكهما في معنى أن كلا منهما يؤخذ من الذمى وأنهما معا مالا فيء وإن كان كل يطلق باعتبار: فكلمة الجزية تستعمل إذا روعيت العلاقة بين الفرد كرعية تخضع وبين الدولة التى تكلفه ــ وخراج إذا اتجه النظر الى المال نفسه الذى يؤدى، فاللفظ الأول فيه معنى شخصى والثانى معناه موضوعى ينتمى الى مجال الاقتصاد، ولكن ليس معنى ذلك أن الحقيقة التى يدل عليها أى منهما لم تكن متميزة من الأخرى، أو أن المتكلم لم يكن يدرك على وجه التحديد المعنى الذى يقصده فالقرينة والظروف تعين ما يراد(١).

ومن هنا نصل الى الشق الثانى وهومسألة تحديد مفهوم لفظي كل من الجزية والخراج، يقول الدكتور ضياء الدين الريس «في ضوء ما تقدم من حقائق يتبين أن دعوى بعض الباحثين المحدثين «بأن نسبة وضع هذا النظام المالى الى عمر ليست صحيحة، وأن الفقهاء المتأخرين هم الذين نسبوا إليه ذلك» يتبين أن هذه الدعوى وأمثالها تدفعها الأدلة التاريخية، وممن عبر عن هذه الدعوى فيليب حتى، فمما قال «والحقيقة أن الأخبار تعزو الى عمر كثيرا مما أحدثته السنون التى لحقت عهده من إنشاءات دعت اليها التجارب والأحوال الجديدة، وأن ما جاء به الخلفاء الأول في صدد الخراج والجزية، وأصول جبايتها وسياسة أموال الدولة لم يكن بالشيء الخطير». ثم قال «ولم يعتبروا في ذلك إذا كانت البلاد قد دانت لهم صلحا أو أنهم فتحوها عنوة، ولا اهتدوا بتشريع قد أوجده عمر. فالنظرية التى تقسم البلاد الى المفتوح صلحا والمفتوح عنوة لم تكن إلاّ

---

١ ــ الخراج والنظم المالية ١٢٦ــ١٢٧.

تفسيرا متأخرا أخذ بها القوم من بعد ولا أصل تاريخي لها. وكذلك شأن تفريقهم بين الجزية والخراج ولم ترد اللفظان في العصر الأ ول إلا بمعنى واحد مترادف، أى الضريبة على التعميم، أما وجود الاختلاف بين الجزية والخراج فلم يعين حتى أواخر العصر الاموى(١).ـــ وحتّي في هذا ناقل آراء المستشرقين من أمثال جو ينبول، و بكى وفلهاوزن، وقد رأينا قول فلهاوزن ـــ أنه لا يوجد في العبارات القديمة ما يشعر منه أن هناك أى تفرقة بين الجزية والخراج إذ كانا بمعنى واحد، وأن التفرقة بينهما لم تعرف قبل عهد عمر بن عبد العزيز، وأن الفقهاء هم الذين اخترعوا هذا الفرق(٢).

(لاحظ هنا حملة فلهاوزن على الفقهاء ولا يدرى أو أنه درى وتناسى أن هؤلاء الفقهاء هم حملة الشريعة، وأن نصوصهم لا تنقصها الدقة بل تسير في التحقيق والتمحيص تحت أعلى سبل التحقيق والتمحيص، وأن هؤلاء الفقهاء جلهم إن لم يكن كلهم محدثون يراعون في نقلهم الآثار ذلك الميزان الدقيق في نقل الأحاديث والآثار، ذلك الميزان الذى لم يعرف عن أمة من الأمم في نقلها لآثار سلفها، وخاصة فيما يتعلق بآثار الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه وأصحابه).

ثم يقول: وقد بينا فيما تقدم أن الاهتداء الى نظام الفيء وتقريره ووضع أصوله إنما كان نتيجة اجتهاد عمر وفهمه لآى الكتاب وروح الشريعة، وأن أبا يوسف حين أبدى إعجابه بعمر وقال: إن الذى توصل اليه إنما كان توفيقا من الله فيما صنع، لم يكتف بمجرد نسبة وضع النظام اليه بل دون صفحات بسط فيها بوضوح ما جرى من مناقشات وحدث

---

١ ــ المرجع السابق ١٣٩ عن تاريخ العرب المطول ١/٢٢٨.

٢ ــ الدولة العربية ٢٧٢ وما بعدها.

من وقائع حتى انتهى الى تقرير النظام(٢). وكذلك كتب غير أبى يوسف من مؤرخى وفقهاء الإسلام.

وفقهاء الإسلام ما كانوا يأتون بشيء من عندهم وإنَّما كل عملهم كان أن يفسروا ما ورد في الكتاب والسنة وما أقره الصحابة و يستنبطوا منها الأحكام ناسبين كل حكم الى مصدره. وأما دعوى عدم تفرقة الصحابة بين الخراج والجزية وأن هذا لم يعرف إلا في أواخر العصر الأموى فمن الغرابة بمكان، إلا إن قصد تبادل إطلاق اللفظين، ولكن العبارة تدل على أن هذا غير المقصود، فكيف لا يفرق بين حقيقتيهما وقد حدد مقدار كل ووضع نظامه بالتفصيل منذ عهد عمر بل قبضت الأموال من كل مصدر على حدة و وردت بالفعل، أما تبادل اللفظين فليس له أثر ولا أهمية ــ ونورد فيما يلى بعض النصوص التى تبين التفرقة بين الخراج والجزية، وكذلك التمييز بين ما فتح عنوة وما فتح صلحا كان كلاهما معروفا منذ عهد طويل. بل إن الذى وضع أساس التمييز في المسألة الثانية إنما كان هو القرآن الكريم نفسه. ونبدأ بدليل القرآن فنقول: ان التمييز بين الصلح والعنوة إنما وضعته الآية «**فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ**»(٢) و بناء على الآية فرق النبى صلى الله عليه وسلم بين ما فتح بقتال وما فتح بصلح فقسم خيبر ولم يقسم أرض بنى النضير. وقد بنى الشافعي اجتهاده في مسألة الصلح مباشرة على الآية كما تبين كتابته في الأم جـ ٤/٦٤، وورد تعبير عنوة في الحديث الذى اقتبسناه من قبل: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما يفتح من مصر أو مدينة عنوة فإنَّ المدينة فتحت بالقرآن»(٣) والتمييز بين الأمرين ظاهر. وهذه هى النصوص ــ (وقد مر معنا كثير منها).

---

١ ــ يشير الى ما كتبه ابو يوسف في كتابه الخراج ص٢٣ وما بعدها.

٢ ــ الحشر الآية ٦.

٣ ــ فتوح البلدان ٦.

روى البلاذرى ويحيى بن آدم عن ابراهيم النخعى أنه قال: جاء رجل الى عمر بن الخطاب فقال: إنى قد أسلمت فارفع عن أرضى الخراج ــ (لاحظ لفظ الخراج عن الأرض فهى رد على كل من يقول لم يكن عمر هو الذى وضع هذا النظام ومن يقول: إنه لم تكن هناك تفرقة واضحة بين الخراج والجزية)ــ قال: لا إن أرضك أخذت عنوة»(١).

وجاء رجل آخر فقال: إن أرض كذا وكذا يطيقون من الخراج أكثر مما عليهم. فقال: لا سبيل عليهم إنا قد صالحناهم صلحا(١). أى أن عمر فرق بين الأمرين ففى أرض العنوة لا يسقط الخراج بالإسلام وفي أرض الصلح لا يزاد عليهم على ما اشترط. وروى يحيى أيضا أن دهقانة من أهل نهر الملك أسلمت. فكتب عمر الى سعد أو الى عامله أن ادفع اليها أرضها تؤدى عنها(٢). يقصد أنَّ الخراج يبقى عليها لأن أرضها فتحت عنوة بخلاف ما اذا كانت فتحت صلحا. فيكون الحكم كما في الواقعة التالية: قال يحيى: وسمعنا في بعض الحديث أن رجلين أسلما من أهل «أليس»(٣) فرفع عمر جزيتهما من جميع الخراج، وذلك أن أهل أليس كانوا صلحا(٤). وروى أيضا «أسلم دهقان من أهل عين التمر(٥) فقال له على عليه السلام: أما جزية رأسك فنرفعها وأما أرضك فللمسلمين فإن شئت فرضنا لك وان شئت جعلناك قهرمانا لنا(٦). وفي هذا كفاية.

أما النصوص الدالة على التفرقة بين الجزية والخراج، فهذا الأخير واحد منها ــ(وهو في غاية الصراحة والوضوح) ــ وروى أبو يوسف من

---

١ ــ فتوح البلدان ٣٢٩ والخراج للقرشى ٥١.
٢ ــ الخراج للقرشى ٥٦.
٣ ــ أُلَّيس موضع في أول العراق من ناحية البادية ٦٨٩ من فتوح البلدان.
٤ ــ الخراج للقرشى ٢٢.
٥ ــ عين التمر: بلدة في طرف بادية الشام فتوح البلدان ٧٥٣.
٦ ــ الخراج للقرشى ٥٨.

نص خطبة عمر رضى الله عنه أنه قال فيها وهو يخاطب الصحابة قال: «وقد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها وأضع عليهم فيها الخراج وفي رقابهم الجزية»(١). وروى عن الزهرى انه قال: وافتتح عمر بن الخطاب العراق: وضرب عليهم الجزية وأخذ الخراج من الأرض(٢).

وأورد البلاذرى نص الصلح الذى عقده أبو عبيدة مع أهل بعلبك(٣) وجاء فيه: وعلى من أقام منهم الجزية والخراج(٤) ثم قال ــ ومضى أبو عبيدة ــ نحو حماة(٥) فتلقاه أهلها مذعنين فصالحهم على الجزية في رؤوسهم والخراج في أرضهم(٦).

وهكذا لو ذهبنا نستقصى الأمثلة على أن التمييز بين الجزية والخراج كان واضحا منذ عهد الفتوح لوجدنا فيها عددا كبيرا(٧) (وهو الحق).

الدكتور الجرف

و يقول الدكتور محمد كمال الجرف: وأعطى عمر ــ بن الخطاب ــ لفظ الخراج معنى اصطلاحيا فرق بينه و بين الجزية كضريبة شخصية، وكان الأول على الخارج من الأرض وكانت الثانية شخصية أو كما يطلق أحيانا على الرقبة.

وإن لم يحل هذا دون أن يستخدم الناس كلا اللفظين للدلالة على أى ضريبة، وهذا الخلط بين اللفظين لا يؤخذ على النظام ولا على الناس فهو مازال قائما الى يومنا هذا حيث تسمى بعض الضرائب رسوما و بعض

١ــ الخراج لابى يوسف ٢٥.
٢ ــ المرجع السابق ٢٨.
٣ ــ بعلبك مدينة شهيرة في لبنان اليوم فتوح البدان ٦٩٤.
٤ ــ فتوح البلدان ١٥٤.
٥ ــ حماة مدينة مشهورة في سورية ٧١٤.
٦ ــ فتوح البدان ١٥٦.
٧ ــ الخراج والنظم المالية ١٣١ فما بعدها.

الرسوم ضرائب، فهو خلط لا يعنى به إلاّ رجال الفن الضريبي وقد لا يُلقون اليه بالا لأن العبرة بحقيقة الواقع(١).

فهذه الدعوى إذن وهى تتردد في كتابات كثير من المحدثين: إنَّ التمييز بين الصلح والعنوة أو بين الخراج والجزية لم يكن معروفا في عهد الصحابة ولم يعرف إلا في أواخر العصر الأموى، وإن الفقهاء هم الذين صنعوا ذلك: «ولم يهتدوا بتشريع وضعه عمر» الخ هذه الدعوى منهارة ولا أساس لها، والفقهاء كانوا يعرفون أنهم إنما يقررون أحكام شريعة دينية، فلم يعهد عنهم إلا أنهم كانوا يرددونها بكل دقة وحذر ولا يستنبطون حكما إلا من أصل، و يسندون كل قول الى قائلة وكل عمل الى صاحبه وذلك في أمانة علمية تامة(٢).

صلة مبحث الخراج بما نحن فيه

وأما صلة هذا البحث بما نحن فيه فهى في الحقيقة صلة وثيقة فكان لابد منه حتى نستطيع أن نقوم العمل الذى قام به عمر بن العزيز في تصحيحاته للناحية المالية في الدولة في مورد الخراج والجزية مقارنا بما قام به الحجاج نحو الهدف ذاته و بيان دوافع كلا الرجلين والنتائج التى توصل اليها كل منهما. وأثر عمل كل على الأمة من ناحية والدولة و بيت المال من ناحية ثانية. والله الموفق والهادى الى سواء السبيل.

---

١ ــ مذكرات في النظام المالى الاسلامى المقارن ١٢٨.

٢ ــ الخراج والنظم المالية ١٣٦.

المبحث الثاني

الجزيــة والخــراج
بين عمر بن عبد العزيز والحجاج

كـثيـرا مـا يـقـارن الـكـتـاب المحدثون بين الخليفة الورع عمر بن عبد العـزيـز و بين المبير(١) الحجاج بن يوسف، من حيث عمل كل منهما في الجـزيـة والخـراج وخـاصـة في مـشرق الدولة الإسلامية، ونتيجة عمل كل مـنهما في إصلاح النظام المالى، وأثر ذلك على الدولة والرعية خاصة الموالى منها. وأعتقد أن أول من أجرى هذه المقارنات المستشرقون من الأ ور بيين مـثـل دوزى وكـرايمر ومولر وغيرهم ثم سار على در بهم كثير من الكتاب الـعـرب المـحدثين فمنهم المادح للحجاج القادح لعمر، ومنهم المادح لعمر الـقـادح للحجاج، ومنهم من التبس عليه الأمر فلم يهتد لوجه الصواب في تلك المقارنة وخاصة فيما فعله الحجاج بالجزية والخراج والموالى، فيدعى أن عـمـر بـن عـبـد العزيز إنما فعل كما فعل الحجاج ولكن من طريق آخر ــ مـثـل فـلـهـاوزن ــ الـخ مـا هـنـالك من آراء مبعثرة وأفكار واضحة أو غير واضـحـة. وأريـد في هـذا المـبحث أن القى ضوءا كاشفا عن الحقيقة فيما فـعـل الحـجاج ودوافع ذلك العمل ونتائجه على الصعيدين المالى والعامى، ثـم مـا فـعـله عمر بن عبد العزيز ودوافعه كذلك ونتائجه. مؤيدا كل ذلك بـالأدلـة المتوفرة والاستنباطات الفقهية الدقيقة معتمدا على أسس لابد من بيانها قبل الخوض في الحديث.

أمـا أول هـذه الأسـس فـهـو مـعـرفة وضع الرجلين ومكانتهما العلمية والشخصية ودوافعهما الذاتية لما قاما به من عمل:

---

١ ــ اشـارة الى الحـديـث الـذى روتـه أسـماء بنت أبى بكر الصديق وضى الله عنها عن رسول الله صلى الله عـليه وسلم «يخرج من ثقيف رجلان مبير وكذاب» البداية والنهاية ٩/١٣٥ والحديث في مسلم.

الأساس الأول المكانة العلمية لكل من عمر والحجاج

فكلنا يعرف أن عمر بن عبد العزيز يعتبر معلم العلماء وأستاذهم ــ كما رأينا في مبحث عمر بن عبد العزيز تربية واخلاق ــ فمكانته العلمية والفقهية لا يمكن أن يصل إليها أو يدانيها الحجاج، فلم يعرف عن الحجاج من العلم بالسنة شيء إنما عرف عنه فصاحته و بلاغته في خطبه وأنه كان يقرىء الصبيان القرآن في الطائف. أما عن السنة وفقهها فلم يعرف بشيء من ذلك حتى العربية كان فيها مقصرا ــ رغم فصاحته و بلاغته الفطرية ــ لما أدركه عليه يحيى بن يعمر(١) من لحنه بالقرآن، وما بدا من جهله حينما أرسل اليه عبد الملك يقول «أما بعد فإني أحمد اليك السيف وأوصيك بما أوصى به البكرى زيدا(٢). فلم يدرك الحجاج ما عناه عبد الملك بقوله: ما أوصى به البكرى زيدا. حتى سأل عن ذلك. وكان عمر بن عبد العزيز ممن يقتدى به في السنة والعمل بالشريعة من بين كثير من التابعين بعكس الحجاج.

وعمر بن عبد العزيز كان خليفة ــ ليس فوقه أحد من البشر ــ يعمل لهدف سام ارتآه بمجرد وصوله لسده الخلافة وهو رضاء الله عز وجل عن طريق العدل والإحسان والرحمة بالرعية.

وأما الحجاج ــ وكلنا يعرف ذلك ــ فقد كان أميرا على المشرق يعمل لإرضاء خليفته مهما سلك في سبيل ذلك من ضروب العسف والظلم والانحراف عن الشريعة في أحيان كثيرة وخاصة فيما يتعلق بسفك الدماء وظلم الرعية. فالدوافع عند الرجلين مختلفة تماما من هذه النواحى وغيرها، فالحجاج كان يعمل لتثبيت أركان حكم بنى مروان

---

١ ــ انظر البداية والنهاية ٩/١٤١ والكامل في الادب، ويحيى بن معمر الليثى من بنى كنانة كان نحويا صاحب علم بالعربية والقرآن نزل مرو و ولى القضاء بها. الطبقات ٧/١٥٧ وكان ثقة.

٢ ــ عبد الملك بن مروان ٢٤٧ وكذلك حينما كتب له عبد الملك «أنت عندى سالم»، فلم يعرف، مروج الذهب ٣/١٢٦ والقصة في مروج الذهب ٣/١٧٨.

عن طريق البطش والجور أو أى طريق يصل به الى ذلك، وعمر بن عبد العزيز كان يعمل لتثبيت أركان العدل والإحسان والرحمة.

فالحجاج يعمل لإرضاء بشر وهو الخليفة، وعمر بن عبد العزيز يعمل لإرضاء رب البشر، فشتان ما بينهما.

الأساس الثانى

والأساس الثانى وهو مبنى على الأساس السابق ونتيجة له: أن ننظر الى الرجلين من زاوية أن أحدهما يطبق ما يراه موصلا الى إرضاء سلطانه ونيل شكره و بقاء دولته وهو الحجاج، والثاني يطبق ما يراه أقرب الى روح الشريعة وأدعى الى بث الأمن والطمأنينة والعدل بين الأمة.

الأساس الثالث

والاساس الثالث وهو أساس موضوعى أن ننظر الى الأدلة التى رواها الفقهاء والمحدثون من غير الزاوية التى نظر إليها المستشرقون ومن شايعهم وتابعهم، لأن الفقهاء والمحدثين إنما هم حملة الشريعة وهم الذين نافحوا عنها وأزالوا عنها زيف المزيفين وضلال الضالين وانحراف المنحرفين. مع عدم إهمال الأدلة التاريخية والحقائق الموضوعية، واعتبار أن المراجع العربية الأولى هي الأصل الذي يجب أن يبنى عليه البحث، وأن آراء المستشرقين ومراجعهم واستنتاجاتهم إنما هى للاستئناس، لأنهم مهما كانوا متجردين فلابد وأن يقعوا في أخطاء منهجية أو شخصية كما رأينا في التعقيب على دراسات فلهاوزن.

حقائق لابد من أخذها بعين الاعتبار

ولابد أيضا أن نأخذ بعين الاعتبار الحقائق التالية:

اولا: أنه لا خلاف بين أحد من فقهاء الأمة في العصر الأول منذ عمر بن الخطاب رضى الله عنه حتى عصر عمر بن عبد العزيز لا خلاف بينهم أن أرض العنوة ــ عدا الصوافى ــ تبقى خراجية ولا يجوز أن تحول الى أرض عشرية وأن الخلاف إنما هو في أرض الصلح وفي زيادة العشر مع الخراج إذا ملك أرض العنوة مسلم أو أسلم الذمى مستغلها.

ثانيا: أن هناك تفرقة حقيقية بين مفهوم لفظى الجزية والخراج وأن هذه التفرقة واضحة تماما في الاستعمال والواقع، وإن كان اللفظان قد يتبادلان في بعض الأحيان ولكن هذا التبادل لا يغير من الحقيقة شيئا ــ وقد مرت أدلة ذلك.

ثالثا: أن الجزية كضريبة شخصية ــ لا يجوز أن تفرض على مسلم وأن الذمى تسقط عنه بمجرد إسلامه.

رابعا: أن كراهة بيع الأرض الخراجية ثابتة منذ عهد عمر رضى الله عنه وحتى زمن على كرم الله وجهه ــ أى طيلة عهد الراشدين رضوان الله عليهم.

وبناء على تلك الأسس وعلى ضوء هذه الحقائق سنقارن بين عملى الرجلين في تلك الأرض الخراجية وفي الجزية ونبين بإذن الله وجه الصواب وحقيقة الأمر والتصحيح الذى قام به عمر بن عبد العزيز في أوضاعهما.

رأينا فيما سبق من أبحاث أنَّ الخراج إنما فرض على الأرض المفتوحة عنوة، وأن أول من فرضه وحدد منهجه وبين أسسه هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه مؤتسيا في بعض ما نفذه بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعتمدا على آيات من القرآن الكريم. وناظر في فعله الى مصلحة الأمة عامة في حاضرها ومستقبلها، وأن الجزية إنما فرضت بنص القرآن الكريم، وأن أول من فرضها رسول الله صلى الله عليه وسلم على يهود اليمن ومجوس هجر وبعض النصارى في الجزيرة العربية وأطرافها.

وعلينا أيضاً أن التفريق بين الجزية كضريبة شخصية والخراج كضريبة على الأرض وجد منذ الفتوح الأولى في عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه بل في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبقى الحال على

ذلك طيلة عهد عثمان وعلى رضى الله عنهما. فهل حدث بعد عهد الخلفاء الراشدين انحراف عن الطريق القويم أخرج تلكما الضريبتين عن حدودهما المرسومة وسبب بالتالى التباسا في وجه الحق فيهما حتى اختلط الأمر وسبب ارتباكا في التنفيذ مما اضطر الحجاج الى التقويم وعمر بن عبد العزيز الى التصحيح؟

هناك نصوص تدل على أن ضريبة الخراج المفروضة على الأرض المفتوحة عنوة قد حدث فيها انحراف وتبديل لكن بصورة جزئية، وأن ضريبة الجزية المفروضة على الأشخاص قد حدث فيها خروج عن المبدأ الإسلامي الأصيل بإسقاطها عمن يسلم من أهل الذمة، فما هو الانحراف في ضريبة الخراج، وما مبدؤه وما مداه؟ وما هو الانحراف في الجزية؟ ومن سببه وما مداه كذلك؟.

مع ابن عساكر

أما عن الخراج فقد ذكر ابن عساكر في تاريخه: أجمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيهم على إقرار ما كان بأيدى أهل الذمة من أرضهم يعمرونها و يؤدون منها خراجها الى المسلمين، فمن أسلم منهم رفع عن رأسه الخراج ــ (أى الجزية) ــ وصار ما كان بيده من الأرض وداره بين أصحابه من أهل قريته يؤدون عنها ما كان يؤدي من خراجها و يسلمون له رقيقه وحيوانه وفرضوا له في ديوان المسلمين(١)، وصار من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم. ولا يرون أنه وإن أسلم أولى بما كان من أرضه بين أصحابه من أهل بيته وقرابته. ولا يجعلونها ضيافة للمسلمين(٢)ــ (لعل الصواب صافية) ــ وسموا من ثبت منهم على دينه وقريته ذمة للمسلمين.

---

١ ــ إلا إذا رضى أن يبقى في أرضه فيؤدي عنها ما كانت تؤدى وترفع جزية رأسه فقط.

٢ ــ في الرواية التى ذكرها فلهاوزن ــ لانقلابها صافية للمسلمين الدولة العربية ٢٧٧.

و يرون أنّه لا يصلح لأحد من المسلمين شرى ما فى أيديهم من الأ رضين كرها، لما احتجوا به على المسلمين من أن إضيافهم(١) كان عن قتالهم وتركهم مظاهرة عدوهم من الروم عليهم. فهاب لذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الأمر قسمهم(٢) وأخذ ما في أيديهم من تلك الأ رضين، وكرهوا للمسلمين أيضا شراءها صونا لما كان من ظهور المسلمين على البلاد وعلى من كان يقاتلهم عليها ولتركها، وكانت البعثة الى المسلمين وولاة الأمر في طلب الأمان قبل ظهورهم عليهم.

قالوا: وكرهوا شراءها منهم طوعا بما كان من إيقاف عمر وأصحابه الأ رضين محبوسة على آخر هذه الأمة من المسلمين المجاهدين، لا يباع ولا يورث قوة على جهاد من لم يظهروا عليه من المشركين، ولما ألزموه أنفسهم من إقامة الجهاد المأمور به في قوله عز وجل «**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ**»(٣) الى تمام الآية وتمامها ــ«**و يَكُونَ الدِّيْنُ كُلُّهُ لله فإنْ انْتَهَوا فَإنَّ الله بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**».

فقلت لغير واحد من مشيختنا ممن كان يقول هذه المقالة: فمن أين جاءت هذه القطائع التى بين ظهرانى القرى الراجية(٤)ــ ولعل الصواب الخراجية) التى شدها غير واحد من المسلمين ومن الناس؟ فقال: إن بدء هذه القطائع كانت تحت يد أنباط القرى. فلما هزم الله الروم هربت تلك البطارقة عما كان في أيديها من تلك المزارع فلحقت بأرض الروم، ومن

---

١ ــ في رواية فلهاوزن «امساكهم».

٢ ــ في رواية «غشمهم» و يقول المترجم الدكتور عبد الهادى أبو ريدة في الأصل (قسمهم) وهو خطأ. ولكنى أعتقد أنه هو المخطىء لما ورد من أن المسلمين أرادوا أن يقسموا الارض والفلاحين أيضا لولا ان عمر رضى الله عنه أصر على تحبيس الارض والابقاء على أهلها ذمة.

٣ ــ الانفال الاية ٣٩.

٤ ــ في رواية فلهاوزن: الراهنة و يقول المترجم: في الاصل: الراهنة وهو خطأ وفي نسختى (الراجية) بالجيم والياء ولذلك أرى أن الصواب ــ الخراجية لان هذه القطائع العشرية كانت بين القرى الخراجية ومن هنا كان الاستفسار.

قتل منها في تلك المعارك التى كانت بين المسلمين والروم، فصارت تلك المزارع والقرى صافية للمسلمين موقوفة يقبلها والى المسلمين كما يقبل الرجل مزرعته. قالوا فمنها. أندركيسان يعنى بدمشق وقبيس بالبلقاء وما على باب حمص من جيعانا وغيرها.

قالوا: فلم تزل تلك المزارع موقوفة مقبلة تدخل قبالتها بيت المال فيخرج نفقة مع ما يخرج من الخراج، حتى كتب معاو ية في إمرته على الشام الى عثمان أن الذى أجراه عليه من الرزق في عمله ليس يقوم بمؤن من يقدم عليه من وفود الأجناد ورسل أمرائها ومن يقدم عليه من رسل الروم ووفودها، ووصف في كتابه هذه المزارع الصافية وسماها له وسأله أن يقطعه إياها ليقوى بها على ما وصف له وقال: إنها ليست من قرى أهل الذمة ولا من الخراج فكتب اليه عثمان بذلك كتابا.

قالوا: فلم تزل بيد معاو ية حتى قتل عثمان وأفضى الأمر الى معاو ية فأقرها على حالها ثم جعلها من بعده حبسا على فقراء أهل بيته والمسلمين.

قالوا: ثم إن ناسا من قريش وأشراف العرب سألوا معاو ية أن يقطعهم من بقايا تلك المزارع التى لم يكن عثمان أقطعه إياها ففعل، فمضت لهم أموالا يبيعون ويمهرون و يورثون.

فلما أفضى الأمر الى عبد الملك بن مروان وقد بقيت من تلك المزارع بقايا ــ لم يكن معاو ية أقطع منها أحدا شيئا ــ سأله أشراف الناس القطائع منها ففعل.

إقطاع أرض الخراج وتحويلها عشرية

قالوا: ثم إن عبد الملك سُئل القطائع ــ وقد مضت تلك المزارع لأهلها فلم يبق منها شيء ــ فنظر عبد الملك الى أرض خراج قد باد أهلها ولم يتركوا عقبا فأقطعهم منها. ورفع ما كان عليها من خراجها عن أهل

الخراج، ولم يحمله أحدا من أهل القرى وجعلها عشرا ورآه جائزا له مثل إخراجه من بيت المال الجوائز للخاصة.

قالوا: فلم يزل يفعل ذلك حتى لم يجد من تلك الأرض شيئا، فسأل الناس عبد الملك والوليد وسليمان قطائع من أهل القرى التي بأيدى أهل الذمة فأبوا ذلك عليهم(١)، ثم سألوهم أن يأذنوا لهم في شرى الأرض من أهل الذمة. فأذنوا لهم على إدخال أثمانها بيت المال وتقوية أهل الخراج به على خراج سنتهم مع ما ضعفوا عن أدائه، وأوقفوا ذلك في الدواوين ووضعوا خراج تلك الأرض عمن باعها منهم وعن أهل قراهم وصيروها لمن اشتراها تؤدى العشر يبيعون ويهبون ويورثون.

الاذن ببيع أرض الخراج

في هذا النص الذى يذكره ابن عساكر ونقله عنه أيضا فلهاوزن في كتابه واستند اليه في بعض آرائه ــ وإن كانت تنقصه الدقة في فهم نصوصه ــ في هذا النص حقائق عدة لابد من الوقوف عندها وتمحيصها ليتضح لنا وجه الصواب فيما حدث في الخراج من تطور أو تغيير خلال عهد بنى أمية وخاصة منذ عهد عبد الملك.

فمن الحقائق الاولية التي بينها ابن عساكر:

١ ــ أن الأرض المفتوحة أبقاها المسلمون بأيدي أهل الذمة يعمرونها ويؤدون عنها الخراج.

٢ ــ أن من أسلم من أهل الأرض سقطت عنه الجزية، وأما الأرض فتبقى لأهل قريته يؤدون عنها خراجها وليس هو أولى بها من أهل قريته ويصبح هو فردا من المسلمين يسجل في ديوان العطاء ــ

---

١ ــ ولكن مما مر معنا وخاصة في مبحث مكانة بنى أمية رأينا أن من خلفاء بنى مروان من أقطع أبناءه وغيرهم ما بأيدي أهل الذمة وقد رد عمر بن عبد العزيز ذلك عليهم.

ولنلاحظ أن هذا إذا أراد هو أن يخرج من قريته وأما إذا أراد أن يبقى مع إسلامه فتبقى له الأرض يؤدى عنها خراجها الذى كانت تؤديه قبل إسلامه وقد مر معنا من الأمثلة ما يؤيد هذا.

٣ ــ أن هذه الأرض التى أسلم صاحبها لا تصبح بإسلامه صافية للمسلمين أى لا تعتبر من أرض الصوافى ــ التى يجوز إقطاعها ــ بل ترد على قريته ليؤدى أهلها خراجها ــ وأعتقد أن هذا أكثر انطباقا على أرض الصلح منه على أرض العنوة.

٤ ــ أن أراضى أهل الذمة كره المسلمون شراءها من أهلها طوعا أو كرها لما في بقائها في أيديهم من مصلحة للأمة، ولأنَّ عمر وأصحابه رضى الله عنه أوقفوا هذه الأراضى وحبسوها على آخر هذه الأمة من المسلمين المجاهدين لا يباع ولا يورث.

ثم إن هذه الحقائق دعت ابن عساكر أن يسأل مشايخه عن قطائع رآها بين القرى الخراجية، وقد ملكها العرب المسلمون وهى تؤدى العشر فتساءل عنها ومن أين جاءت مع ما رأينا من الحقائق. فكانت في الإجابات التالية الحقائق التالية:

١ ــ إن هناك أراضٍ بقيت بلا مالك حين فتح المسلمون البلاد لهروب أهلها والتجائهم الى الروم أو لقتلهم أو أنها كانت ملكا للدولة السابقة ــ الروم. فهذه الأراضى سماها المسلمون الصوافى. فكان الولاة يقبلونها بمعنى.. يؤجرونها بجزء من الخارج منها وتدخل قبالتها في بيت المال مع الخراج.

٢ ــ إن معاوية طلب من عثمان رضى الله عنهما إقطاعه بعض تلك الصوافى فأقطعه بعضها لينفق على نفسه وأهله ومن يفد عليه وأعطياته ــ ولعل معاوية حينما تولى الأمر استصفى غيرها من الشام كما استصفى ما كان بالعراق والحجاز. إذ يذكر غير واحد

أن معاو ية أمر واليه على خراج الكوفة عبد الله بن دراج فاستخرج له ما كان لكسرى وآل كسرى وضرب عليه المسنيات واستصفاه لمعاو ية وكتب كذلك الى عبد الرحمن ابن أبى بكرة بمثل ذلك في أرض البصرة(١)، وأخرج معاو ية من كل بلد ما كان ملوك فارس تستصفيه لأنفسها من الضياع العامرة وجعله صافية لنفسه فأقطعه جماعة من أهل بيته(٢). وهذه كلها عمرت وأصبحت تؤدي العشر وزال دخلها عن بند الخراج، وكانت تؤدى مع ذلك الى معاو ية مبالغ طائلة.

وقد أقطع عثمان رضى الله عنه من الصوافى لآخرين غير معاو ية(٣).

٣ ــ ثم إن معاو ية بعد أن استتب له الأمر أقطع مما بقى لناس من قريش وأشراف العرب يتألفهم.

٤ ــ ثم إنَّ عبد الملك حينما تولى أقطع ما بقى من الصوافى حتى لم يبق منها شيء ــ مع أنه ــ أى عبد الملك ــ استولى على ما كان عمره معاو ية في العراق وربما في غيرها أيضا(٤).

٥ ــ وقد سئل عبد الملك بعد ذلك الإقطاع فرأى أن هناك أراضٍ فنى أهلها ولم يبق لها مالك يعمرها ــ وكان المفروض أن ترد على أهل القرى أو يقبلها السلطان لمن يزرعها و يدخل مالها مع الخراج لأنّها خراجية ــ فما كان من عبد الملك الا أن استولى عليها وأقطعها لمن يريد.

٦ ــ ولما انتهت تلك الأ راضى التى لا مالك لها وسئل عبد الملك والوليد

---

١ ــ اليعقوبى ٢/٢١٨ وفتوح البلدان ٣٥٨.

٢ ــ اليعقوبى ٢/٢٣٣.

٣ ــ فتوح البلدان ٣٣٥.

٤ ــ فتوح البلدان ٣٥٥.

وسليمان الإقطاع ولم يجدوا أذنوا للناس في شراء الأرض الخراجية من أهل الذمة وإدخال أثمانها في بيت المال.

٧ ــ إنَّ عبد الملك باجتهاد منه حول تلك الأراضي المقطعة والمباعة الى أرض عشرية كما اجتهد في أنه يجوز له أن يعطى من بيت المال للخاصة.

إذن بهذا الترتيب المنطقى استطعنا أن نصل لنتيجة مهمة عرفنا عن طريقها كيف حدث الانحراف ومن أحدثه والى أى مدى وصل؟ وإن كان ابن عساكر يتحدث عن الشام خاصة.

فقد حول عبد الملك أرض الصافية بعد إقطاعها الى العشر وهذه المسألة أمرها هين لأنَّ للإمام فيها مطلق التصرف على أن يكون رائده المصلحة العامة، يقول أبو يوسف: وإنّما صارت القطائع يؤخذ منها العشر لأنها بمنزلة الصدقة، وإنّما ذلك الى الإمام إن رأى أن يصير عليها عشراً فعل وإن رأى أن يصيرها خراجا. إذا كانت تشرب من أنهار الخراج ــ(وهو رأى الحنفية بالنسبة للأرض المحياة)ــ فعل ذلك موسعا عليه في أرض العراق خاصة(١)، وإنّما يؤخذ منها العشر لما يلزم صاحب الإقطاع من المؤنة وحفر الأنهار و بناء البيوت وعمل الأرض، وفي هذا مؤنة عظيمة على صاحب الإقطاع، فمن ثم صار عليه العشر لما يلزم من المؤونة(٢) ثم يقول: فكل أرض أقطعها الإمام مما فتحت عنوة ففيها الخراج إلا أن يصيرها الإمام عشرية وذلك الى الإمام إذا أقطع أحدا أرضا من أرض ــ الخراج(٣).

---

١ ــ ومثلها كل أرض فتحت عنوة غير أرض العرب لانه لا يجوز أن يوضع خراج عليها.
٢ ــ الخراج لابى يوسف ٥٨.
٣ ــ الخراج لابى يوسف ٦٠.

وأما الأمر الخطير وهو الذى فتح الباب على مصراعيه للانحراف فهو بيع أرض الخراج سواء التى باد أهلها أو التى سمح بشرائها من أهلها ــ وليلاحظ من نص ابن عساكر الآنف الذكر ــ أن الناس قد استأذنوا عبد الملك والوليد وسليمان في شراء الأرض الخراجية من أهلها. وكلمة استأذنوا تشعر بأنّهم لو لم يأذنوا لهم لما أمكنهم شراؤها، وهذا يشير بوضوح الى أن الناس حتى عهد عبد الملك كانوا يكرهون شراء أرض الخراج والدخول فيها.

خطأ فلهاوزن

ومع وضوح هذه الحقائق في نص ابن عساكر نجد أن فلهاوزن فهم النص على غير وجهه حيث يقول: وابن عساكر أحد مؤلفى القرن السادس للهجرة، وهو كتب في ظل الرأى الذى كان في أيامه قد مضى عليه زمان طويل على أنه الرأى السائد وهو أن عمر بن الخطاب والصحابة هم الذين وضعوا في كل المسائل الميزان الحق لما يحدث بعدهم، وأن هبة الأرض الصوافى و بيع أرض الخراج عمل فاسد يخالف الحق وأنه لم يحدث إلاّ منذ عصر الفساد الذى جاء مع خلافة عثمان و بنى أمية. ولكن ليس هناك ما يبرر للإنسان أن يشك في أن ابن عساكر استقى ما ذكره من مراجع قديمة مادام ما يذكره غير متأثر بالرأى السائد الذى تكلمنا عنه والأشياء التى يذكرها هى أشياء إيجابية لا يمكن أن تكون مخترعة(١).

فهو هنا يدعى أن ابن عساكر غير متأثر بالرأى السائد وهو أن عمر بن الخطاب والصحابة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم هم الذين وضعوا في مسائل الخراج الميزان الحق. وابن عساكر كما رأينا من نصه يسير مع هذا الرأى تماما ولم يخالف فيه ولم يدع غيره، وذكر مبدأ الانحراف من زمن عبد الملك، وأما كون هبة أرض الصوافى كان يعتقدها الخلفاء الراشدون

---

١ ــ الدولة العربية ٢٨٠.

عـملا فـاسـدا فـهذا قول غير سديد لأن الخلفاء أنفسهم أقطعوا، ولكن لمن كـانـوا يـرون في إقطاعه مصلحة عامة لا محاباة ولا لنفع شخصى، وأما بيع أرض الخـراج فـقـد كان النص صريحا أنه لم يحدث إلاّ في عهد عبد الملك وأولاده فـكـيـف يـقـال إنَّ ابن عساكر غير متأثر بالرأى السائد وهو الرأى الحق؟.

الأمر الذى أخل بالتوازن

ومـن نـص ابـن عـسـاكـر أيضا نرى أن الأمر الذى أخل بالتوازن هو تحـو يـل أرض الخـراج الى أرض عـشـريـة بـعد أن كانت خراجية على غير اتفاق الأمة من لدن عمر بن الخطاب رضى الله عنه حتى عصر عبد الملك، حـيث لا خلاف بينهم أن الأ رض الخراجية إذا ملكها مسلم لا تحول عن الخراج، وإنّما الخلاف ــ كما رأينا فيما سبق هو هل يجب على المسلم مع الخراج العشر أم لا؟ والأكثرون على وجوبه.

والأضرار التى نجمت عن ذلك الأمر لم تصب بيت المال فحسب ــ وإن كـان ضـررها على بيت المال عظيما ــ بل أصابت بالضرر أيضاً أهل الذمة الذين باعوا أرضهم طوعا أو كرها، وأصاب من بقى في أرضه حيث شدد عليه في أداء الخراج وغيره من الضرائب الظالمة لتعو يض خسائر بيت المـال مـما اضـطـره في كثير من الأحيان الى أن يسلم أو يفر من أرضه لعدم استطاعته أداء ما فرض عليه.

وابن عساكر وإن كان يتحدث عن الشام فقط ولكن العراق ومصر ما كانتا أحسن من الشام حالا في هذا بل كان الأمر فيهما أسوأ.

ومـع ذلـك فـهـنـاك خـبـر يـقـول خلاف مـا قـال ابـن عـساكر، عن مـكـحـول(١) قـال: كـل عـشـرى بـالـشام فهو مما جلا عنه أهله فأقُطِعَه

---

١ ــ مـكـحـول الدمشقي من علماء التابعين مات بدمشق سنة ١١٢ على أحد الاقوال ــ الطبقات ٧/١٦٠.

المسلمون فأحيوه وكان مواتاً لا حق فيه لأحد فأحيوه بإذن الولاة(١).

وقد عاصر مكحول تلك الفترة التى نتحدث عنها وعايش حوادثها وسكن دمشق حيث يقول ابن عساكر ما قال وإن صح قول مكحول دخل الشك فيما ذكره ابن عساكر من بيع أرض الخراج بإذن عبد الملك وأولاده والذى قد يرجح قول مكحول أن ناقل روايته البلاذرى وهو حجة في الفتوح وأخبارها.

الجزية

ذلك ما يتعلق بأرض الخراج فماذا بشأن الجزية وهي ضريبة الرأس، وقد علمنا فيما سبق أنها قد فرضت منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على كل رجل قادر، ولم تفرض على النساء ولا على الصبيان ولا على الفقراء والزمنى والرهبان إلا ذوى اليسار منهم، وقد رأينا في الحقائق التى أوردناها والتى استطعنا استخلاصها أيضا من نص ابن عساكر وغيره، وإنَّ الذمى إذا أسلم سقطت جزية رأسه، وأن مال الجزية يضم الى مال الخراج، فالمالان مصرفهما واحد وهما مختلفان عن مال العشر لأنه من أموال الصدقات.

وهذه الأمور محل اتفاق بين الأمة من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم الى يومنا هذا، غير أن هذا الأمر مع الاتفاق الجماعى عليه انحرف به أيضا بعض ولاة بنى أمية وعُمم حتى ساد أكثر نواحى الدولة، وهذا الانحراف هو إبقاء الجزية على من يسلم من الذميين بادعاء أنه ما أسلم إلا تعوذا منها.

وأول من فعل ذلك الحجاج بن يوسف في مشرق الدولة الإسلامية. قالوا: أول من أخذ الجزية ممن أسلم من أهل الذمة الحجاج بن يوسف، ثم كتب عبد الملك بن مروان الى عبد العزيز بن مروان أن يضع الجزية

---

١ ــ فتوح البلدان ١٨٠.

على من أسلم من أهل الذمة، فكلمه ابن حجيرة في ذلك فقال: أعيذك بالله أيها الأمير أن تكون أول من سن ذلك بمصر، فوالله إن أهل الذمة ليتحملون جزية من ترهب منهم، فكيف نضعها على من أسلم منهم؟ فتركهم عند ذلك(١).

ولكن بعد أن مات عبد العزيز بن مروان وولى على مصر عبد الله بن عبد الملك وضعت الجزية على من أسلم من القبط. وأصبحت هذه سنة عامة في كل أرض الدولة الإسلامية ــ أنّ من أسلم لا تسقط جزية رأسه. يقول أبو عبيد ــ وقد ذكر عدة آثار في إسقاط الجزية عمن أسلم ــ وإنّما احتاج الناس الى هذه الآثار في زمان بنى أمية لأنّه يروى عنهم أو عن بعضهم أنهم كانوا يأخذونها منهم وقد أسلموا، يذهبون الى أن الجزية بمنزلة الضرائب على العبيد، يقولون: فلا يسقط إسلام العبد عنه ضريبته. وقال يزيد بن أبى حبيب: أعظم ما أتت هذه الأمة بعد نبيها صلى الله عليه وسلم ثلاث خصال: قتلهم عثمان وإحراقهم الكعبة وأخذهم الجزية من المسلمين(٢).

وبعد أن عرفنا تلك الحقائق السالفة فما هى المشاكل التى كان يعانى منها سواد العراق؟ وكيف عولجت تلك المشاكل؟ ويخص سواد العراق بالذكر لأن المراجع التى تشرح أوضاعه أكثر توافرا مع أنَّ المناطق الأخرى لا تنقص حالتها سوءا عن حالة سواد العراق، ولأن وجه المقارنة ينصب أصلاً على ما فعله الحجاج في مشرق الدولة وخاصة في سواد العراق لأنه كان المسيطر المهيمن عليه.

وثانية هذه المشاكل إسلام أهل الذمة وإسقاط الجزية عنهم وهجرتهم أو التحاقهم بالجيوش المحاربة، والمشكلة الثالثة إقبال العرب على شراء

---

١ ــ فتوح مصر وأخبارها ٢١٠.

٢ ــ الاموال ٦٨.

أرض الخراج وتحويلها الى أرض عشرية.

وهذه المشاكل ذكرها كثير من المؤرخين والكتاب المحدثين مستشرقين وشرقيين. يقول فان فلوتن عند حديثه عن الموالى: أما الموالى فكانوا على العكس من ذلك ــ (يعنى عكس العرب الذين أفاضت عليهم الدولة الأموية الأموال والهبات)ــ فقد زاد عددهم في المدن وبخاصة في بلاد العراق، ومن ثم لا ندهش أن نرى الجم الغفير منهم يفضل ترك ما يملكه من الأرض والرحيل الى المدن والإقامة فيها جنبا لجنب مع العرب ليعاونوهم إذا ما طلبوا مساعدتهم(١).

ثم يقول: ولقد شغل ازدياد دخول هؤلاء في الإسلام بال الحكومة في نفس الوقت الذى تدهورت فيه ماليتها بسبب إهمال كثير من الولايات أيام الحجاج واضطر الموالى ــ الذين كانوا يتطلعون إلى مساواتهم مساواة تامة بإخوانهم في الدين من العرب ــ للعودة إلى أرضهم ودفعهم الجزية كما كانوا يدفعونها من قبل. و ينقل مثل ذلك القول عن فون كرايمر(٢).

وتقول الدكتورة سيدة الكاشف: وكانت مشكلة المشاكل التى واجهها الحجاج هي هجرة الفلاحين من الأعاجم من البطائح والقرى الى البصرة والمدن الكبيرة(٣). وهناك مشكلة رئيسية واجهت الحجاج تلك هي مشكلة الجزية والخراج(٤).

ثم تقول: لم يكن المسلمون يدفعون خراجا عن الأراضي التى امتلكوها إنما كانوا يدفعون العشر زكاة(٥).

---

١ ــ السيادة العربية ٣٩ــ٤٠ بتصرف.

٢ ــ المرجع السابق ٤١ــ٤٢.

٣ ــ الوليد بن عبد الملك ٧٤.

٤ ــ المرجع السابق ٧٥.

٥ ــ المرجع السابق ٧٨ ــ ونقل عنها هذا القول أيضا الدكتور محمد كمال الجرف في النظام المالى الاسلامى المقارن ص١٨٨.

كذلك كان من يحيى الأرض الموات يدفع العشر ولا يؤدي عنها خراجا، وما لبث العرب أن أقبلوا على شراء الأرض الخراجية ولكنهم كانوا يدفعون عنها العشر بعد شرائها بدلا من الخراج(١).

من هذه النصوص وغيرها نتبين تلك المشكلات التى واجهت أول وأكثر ما واجهت الحجاج في العراق وخاصة بعد ثورة ابن الاشعث وانضمام كثير من الموالى اليه بسبب ظلم الحجاج وعسفه وجوره. والذى يشعر به نص ابن الاثير أن انضمام الموالى والقراء الى جيش ابن الأشعث كان بعد محاولة الحجاج رد الموالى المهاجرين الى قراهم يقول: فأقبل عبد الرحمن ــ أبو محمد بن الأشعث بن قيس الكندى ــ حتى دخل البصرة فبايعه جميع أهلها قراؤها وكهولها مستبصرين في قتال الحجاج ومن معه من أهل الشام. وكان السبب في سرعة إجابتهم الى بيعته أن عمال الحجاج كتبوا اليه: إنَّ الخراج قد انكسر وإنَّ أهل الذمة قد أسلموا ولحقوا بالأمصار، فكتب الى البصرة وغيرها أن من كان له أصل في قرية فليخرج اليها، فأخرج الناس لتؤخذ منهم الجزية فجعلوا يبكون و ينادون يامحمداه، يامحمداه ولا يدرون أين يذهبون، وجعل قراء البصرة يبكون لما يرون(٢).

أسباب مشاكل السواد

فما هى الأسباب الكامنة وراء هجرة المزارعين وتركهم أراضيهم؟ وكيف عالج الحجاج هذه المشاكل؟.

إذا دققنا النظر من خلال النصوص التى بين أيدينا في أسباب هجرة المزارعين نرى بين أيدينا عديدا من الأسباب: منها ما يتعلق بالأرض ذاتها وأوضاعها، فقد كان كثير من الأراضى يطغى عليها ماء الفرات أو

---

١ ــ المرجع السابق ٧٨ ــ ونقل عنها هذا القول أيضا الدكتور محمد كمال الجرف في النظام المالى الاسلام المقارن. ص١٨٨.

٢ ــ تاريخ ابن الاثير ٤/٤٦٥ حوادث سنة ٨١.

دجلة في أيام الفيضان ــ وهى ما يسمى بالبطائح فتتعطل منافعها وقد بلغت في أيام الحجاج مبلغا عظيما ومساحة واسعة من الأرض المعطلة، وحينما أشار الحجاج على الوليد بن عبد الملك بإصلاح بعضها وسد البثوق فيها حسبت تكلفتها ثلاثة ملايين درهم استكثرها الوليد. ثم أصلحها مسلمة بن عبد الملك وأحيا منها أرضا كثيرة(١).

بل إنَّ الحجاج نفسه أبى أن يسد بثوقا انفجرت في زمنه مضارة للدهاقين لأنه كان اتهمهم بمالأة ابن الأشعث حينما خرج عليه(٢).

فقد كان كثير من المزارعين مضطرين الى الهجرة من قراهم وأراضيهم لغرقها بالمياه فهذا سبب مهم من أسباب هجرتهم.

ثم سبب آخر مهم جدا هو كثرة الضرائب الظالمة وتنوعها التى كانت تفرض على المزارعين مما أبهظ كواهلهم، فلم يعد في مقدور أكثرهم دفع ما يطلب منهم ــ وقد ذكرنا عديدا من هذه الضرائب في مبحث الضرائب الظالمة، وقد كان الجباة يستعملون مع الفلاحين أقسى أنواع الشدة في الجباية ــ وقد يضطر بعض الفلاحين لبيع أدواتهم وآلاتهم لسداد ما عليهم.

وقد يكون من ذلك تحميل الفلاحين الباقين في الأرض خراج الأرض كلها بعد إسلام كثير من أهل القرى ولحاقهم بالأمصار والجيوش الإسلامية، مما زاد عن طاقتهم إلى جانب أنواع الضرائب الأخرى.

والسبب الآخر المذكور هو إسلام كثير من أهل القرى ــ ليس رغبة في التخلص من الجزية كما زعموا ــ لأن الجزية كانت ضئيلة لا يضيق

---

١ ــ فتوح البلدان ٣٦٠.

٢ ــ المرجع السابق ٣٥٩.

بدفعها الانسان لأنها كانت مفروضة بحسب الطاقة والوسع، فلم يكن التخلص من الجزية في الحقيقة هو العامل المهم في إسلام أهل الأرض بل قد يكون الى جانب ذلك التخلص من الضرائب الظالمة بترك الأرض بعد الإسلام والانطلاق الى الأمصار والمدن العامرة والجيوش الظافرة، وإن كان عطاء الموالى دون عطاء العرب في تلك الفترة لأنّه كان يعوض ذلك بما يناله من المغانم والأسلاب. عدا عن إحساس هؤلاء الموالى بالمرارة لأنهم رغم إسلامهم لم يتساووا مع العرب المسلمين ــ على الرغم من أن الإسلام لا يفرق بين عربى وغير عربى في الحقوق والواجبات، فإذا كان العربى المسلم يدفع عن أرضه عشرا ــ منحرفا بذلك عن السنة في الأرض المفتوحة ــ كان المسلم غير العربى يدفع الخراج زائدا الضرائب الأخرى والجزية أيضاً.

ماذا فعل الحجاج؟

فإذا كانت هذه هى الأسباب أو غيرها فماذا فعل الحجاج خلال عشرين عاما تولى فيها الحكم المطلق في العراق ــ لكى يعوض النقص الفادح في الخراج ولكى يقضى على ظاهرة الهجرة من القرى؟.

هل فتش الحجاج عن الأسباب الكامنة وراء الهجرة ووراء نقص الخراج فأزال أسباب الشكوى حتى يطمئن الفلاحون في أراضيهم و يقوموا بواجباتهم في إعمار الأرض وأداء ما عليها بإخلاص؟ هل راعى الحجاج المصالح الحقيقية وأوامر الشريعة الحقة فرفع الجور والظلم والضرائب الظالمة عن الفلاحين؟.

إنَّ ما فعله الحجاج لم يخرج عن طبيعته التى عامل بها الخارجين عن الدولة، أى البطش واستعمال القوة والعنف. لما أخبره عماله بانكسار الخراج وهجرة الفلاحين وإسلامهم:

١ ــ أمَرَ كل مهاجر بالعودة الى قريته بالإكراه والقسر وختم على يد كل واحد منهم اسم قريته(١). وأبقى الجزية على من أسلم والخراج عدا عن باقي الضرائب الظالمة.

٢ ــ حرم على الفلاحين ذبح البقر لتزيد الحراثة والزرع، حتى قال قائلهم.

شكونا اليه خراب السواد فحرم جهلا لحوم البقر(١)

و يقول فلهاوزن: و يروى أن الحجاج كان أول من قرر تغيير النظام الموروث لكي يقاوم النقص الذى لحق ببيت المال ــ (يعنى فلهاوزن بالنظام الموروث أن الأرض الخراجية تصبح عشرية إذا أسلم مالكها أو ملكها مسلم ــ وقد بينت فيما سبق فساد هذا الرأى بالأدلة الدامغة وأن تحويل الأرض الخراجية الى عشرية أمر مخالف للنظام المشروع)ــ فلم يعف العرب الذين تملكوا أرضا من أرض الخراج من أن يدفعوا ما عليها منه ــ (وهذا رجوع الى الصواب والحق إن كان هذا ما فعله الحجاج حقا)ــ وفرض الخراج من جديد على قوم كان حتى ذلك الحين موضوعا عنهم، ولابد أنه عامل المسلمين الجدد الذين بقوا في قراهم بأراضيهم من حيث ما يجب عليهم من خراج بمثل ما عامل به العرب، ولكنه حرم عليهم الهجرة الى حواضر الإسلام والسيادة العربية وكان في بعض الأحيان يعيدهم الى قراهم بالقوة، وكانت إجراءاته جديدة لا تتفق مع ما كان يعتبر حتى ذلك الحين عند الجميع أنه الحق(٣).

---

١ ــ الكامل في الادب ٤٤.

٢ ــ المسالك والممالك لابن خرداذبه ١٥.

٣ ــ الدولة العربية ٢٧٠.

ولكن ما هى الأراضى التى وضع عليها الحجاج الخراج؟ هل هى من أرض العنوة خاصة بيعت الى مسلم أو أسلم مستغلها؟ أم هى هذه وأنواع أخرى من الأرضين لاخراج عليها أصلا؟ في النص التالى الذى اعتمد عليه وعلى أمثاله المدافعون عن سياسة الحجاج بيان ذلك:

قالوا: وبالفرات أرضون أسلم أهلها عليها حين دخلها المسلمون، وأرضون خرجت من أيدي أهلها الى قوم مسلمين بهبات وغير ذلك من أسباب الملك فصيرت عشرية وكانت خراجية فردها الحجاج الى الخراج ثم ردها عمر بن عبد العزيز الى الصدقة(١).

فهذه أراضى مختلطة منها أرض صلح كانت تدفع خراجا فلما أسلم عليها أهلها أصبحت عشرية وهذا رأى في أراضى الصلح، أو أراضٍ أسلم عليها أهلها فهى عشرية من أول الأمر ولكنها اختلطت بأراضى خراجية خرجت من أيدى أهلها الى قوم مسلمين فصيرت عشرية، فلما جاء الحجاج جعلها كلها خراجية، فهذا نوع الإصلاح الذى أجراه الحجاج في تلك الأراضى، وقد يكون فيها أيضاً أراض أحياها أربابها فهى عشرية من أول الأمر فتصيير هذه خراجية هى والأرض التى أسلم عليها أهلها خروج عن الحق والعدل، وخاصة أنه لم يفرق بين الخراجى الأصل والعشرى. ومن هنا لما جاء عمر بن عبد العزيز ووجد الأمر مختلطا ردها الى الصدقة أى العشر.

إذن ما فعله الحجاج أنه:

اصلاحات الحجاج

١ ــ منع هجرة الفلاحين بالقوة وردهم الى قراهم.

٢ ــ فرض الخراج على الأراضى التى كانت عشرية أصلا أو طروءاً.

٣ ــ أبقى الجزية والخراج على من أسلم من أهل الذمة.

---

١ ــ فتوح البلدان ٤٥٢ ولعل هذه الاراضى مما اختلط امرها بعد احراق الديوان إثر معركة دير الجماجم وقد استولى كل قوم على ما يليهم، وكان كثير منها من أرض الصوافي.

٤ ــ فرض الخراج على الأراضى التى ملكها العرب. وإن لم تبين النصوص ذلك.

٥ ــ منع الفلاحين من ذبح البقر حتى لا يضر ذلك بالزرع والحراثة.

٦ ــ أسلف الفلاحين في بعض السنوات مبلغ مليونين من الخراج ليقووا به على الإصلاح.

فما نتيجة عمله ذاك، لأن الأمور تقاس بنتائجها؟ هل صلح أمر السواد؟ وهل استطاع الحجاج بجبروته و بطشه وعسفه أن يزيد من دخل الخزانة العامة حتى بعد هدوء الأحوال وإخماد الثورات؟.

نتائج هذه الاصلاحات

الروايات المختلفة تفيد أن الأمر لم يصلح ولم يعد السواد يؤدى ما كان يؤديه في زمن زياد بن أبيه عدا عن زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، أو على بن أبى طالب كرم الله وجهه، فالروايات المختلفة تفيد أن خراج السواد في عهد الحجاج كان تارة أربعين ألف ألف وتارة خمسة وعشرين ألف ألف وأخرى ثمانية عشر ألف ألف فقط.

دفاع د. سيدة الكاشف عن سياسة الحجاج

ونستنتج من ذلك أن أسلوب الحجاج وعمله في السواد لم يؤد الى النتيجة المطلوبة بل استمر الحال في التدهور، لأن الحجاج في الحقيقة لم يفتش عن الأسباب الحقيقية من وراء خراب السواد وهى الضرائب الظالمة المتنوعة، وشدة الجباية، والظلم المحيط بأهل الأرض، وهوما فعله عمر بن عبد العزيز من بعد. ومع ذلك يجد عمل الحجاج كثيرا من المؤيدين من العرب والمستشرقين الذين يمتدحون عمله في السواد ويحبذون سياسته على الرغم من وضوح مخالفته في كثير من أحواله، ومجافاته للشرع والحق والعدل والانصاف.

تقول الدكتورة سيدة الكاشف: وكان الحجاج بن يوسف الثقفي أول من حاول معالجة هذه المشاكل الصعبة بطريقة عملية جدية ولاسيما أن

جاءه النذير من عماله «بأن الخراج قد انكسر وأن أهل الذمة قد أسلموا ولحقوا بالأمصار». ولذا نرى الحجاج يحاول جهده حل المسألة المالية وتثبيت دخل الدولة في المشرق، ولم يراع في سياسته رغبات العرب أو الموالى، وانما اهتم بمصلحة الدولة العربية وقوتها ففرض الخراج على العرب الذين امتلكوا أراضٍ خراجية وفرض الجزية والخراج على الأعاجم الذين أسلموا و بقوا في قراهم ــ وقد رأينا أنه لما حاول الأعاجم هجر قراهم الى المدن فرارا من سياسة الحجاج المالية أمر بارجاعهم الى قراهم ــ وسببت سياسة الحجاج ضجة بين الموالى والعرب على السواء، ونادوا بأنها منافية للإسلام، ولكن الحجاج لم يأبه لكلامهم ــ(لأنَّه كان طاغية مستبدا)ــ وأخذ في تنفيذ سياسته التى ما لبثت أن طبقت في جميع أنحاء العالم العربى ــ(فعليه وزرها ووزر من عمل بها)ــ والواقع أن هذه العملية يمكن الدفاع عنها من وجهة النظر المالية والاقتصادية. لأن دخل الحكومة وماليتها يجب أن يكونا مستقلين الى حد كبير عن الظروف الخاصة غير المنظورة كاعتناق الأشخاص الدين الإسلامي أو شراء العرب للأراضي الخراجية وما الى ذلك مما يصعب على الحكومة تقدير أثره في ماليتها(١).

الرد على ذلك

دفاع حار عما فعل الحجاج وصل بصاحبته ــ مع الأسف ــ أن تحبذ المخالفات الشرعية الواضحة وفي سبيل أى شيء؟ لا أدرى، لأنَّ عمل الحجاج ثبت فساده وقصر نظره من الناحية المالية، إن البطش والقوة قد ينجح سياسيا أو عسكريا في محاربة أعداء الدولة إذ يمكن الانتصار عليهم ظاهريا، ولكنه في نفس الوقت يفسد نيات الناس ويجعلهم يعملون سرا في هدم الدولة وتحطيم كيانها انتظارا للفرصة السانحة ــ كما حصل في الدولة الاموية. ولكن البطش والعسف لا يصلحان لإعمار الأرض وتوفير

---

١ ــ الوليد بن عبد الملك ٧٩ــ٨٠.

الميزانية، إنما صلاح الأرض بصلاح الرعية، ولا تؤدي الأرض خراجها إلا إذا اطمأن زارعها على نفسه وماله وأهله وأحس بالعدالة ترفرف عليه وبرحمة الحكام تشمله، وهذا ما لم يكن متوفرا في عهد الحجاج.

والنتائج التى سجلتها كتب التاريخ أصدق شاهد على ذلك، فقد أصاب سواد العراق في عهد الحجاج ما لم يصبه في عهد أى وال قبله أو بعده بل في أشد حالات الظلم والظلام كان يؤدي أكثر مما أداه الى الحجاج.

والسياسة الناجحة إنما تقاس بنتائجها، فإذا كانت النتائج سيئة فكيف يقال إن السياسة كانت عادلة؟؟ وكيف ندافع عن سياسة ظهر فشلها وفسادها؟.

ولكن الدكتورة مع الاسف تردد أقوالا سبقها إليها فون كرايمر وأوجست موللر وغيرهما.

رأى الدكتور محمد كمال الجرف

و يقول الدكتور محمد كمال الجرف متابعا لها فيما قالته وكتبته فقال: ولذا نرى الحجاج يحاول جهده حل المشكلة لتثبيت دخل الدولة في المشرق. فلم يراع في سياسته رغبات العرب أو الموالى، وإنَّما اهتم بمصلحة الدولة وقوتها ــ(وهل من مصلحة الدولة إهمال رغبات الرعية؟)ــ ففرض الخراج على العرب الذين امتلكوا أرضا خراجية(١) فهى أرض خراجية أيا كان مالكها أو العامل بها مسلما كان أم غير مسلم، فرض الخراج على الأعاجم الذين أسلموا و بقوا في قراهم ظلوا يؤدونه ورفض أن يؤدى عنها العشر، فقيل عن الحجاج إنه فرض على من أسلم الجزية فمن انتقد سياسته وعابها يرى أنه فرض الخراج. وهو عنده جزية الأرض بدلا

---

١ ــ لم يذكر المدافعون عن الحجاج نصا صريحا يقول ذلك وانما جل اهتمامهم على النص الذى ذكرناه عن البلاذى وما ذكره ابن عساكر.

من العشر ــ(وهذا كما بين سابقا في أكثر من موضع لا محل فيه للانتقاد لأنَّه هو الأصل ولو كان هذا هو الذى فرضه الحجاج لما عابه أو انتقده أحد من الفقهاء أو العلماء ولما خالفه عمر بن عبد العزيز، الذى فرض الخراج والعشر أيضا على من أسلم)ــ وقد يكون فرض عليهم الجزية بمعناها التخصصي إذ كان إسلامهم صوريا وهربا من الجزية ــ(وهل شق عن قلوبهم ليعلم إن كان إسلامهم صوريا أو حقيقيا وهل يطلب من الحاكم المسلم أن يبقى الجزية حتى يتبين حقيقة إسلام المسلم؟).

ثم يقول: كرجل عاش في القرن الأ ول الهجرى لم ينقل الينا أنه ينحرف عن أحكام دينية. وإنّما كان شديدا (وكل ما اقترفه الحجاج من سفكه الدماء و بطشه بالأ برياء لا يعتبر ذلك انحرافا دينيا؟ أم ننتظر منه أن يكفر صراحة حتى يقال إنه انحراف عن أحكام دينية؟ نعم لقد انحرف الحجاج عن أحكام دينية و يشهد عليه بذلك كل علماء عصره، وانحرف كذلك سيده عبد الملك حينما وافق على أن يأخذ من الأ رض الخراجية العشر فقط بدلا من الخراج ورضى بابقاء الجزية على المسلمين وخالف بذلك سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنة الخلفاء الراشدين وملوك بنى أمية السابقين).

ثم يقول الدكتور: وأرجح أن المقصود بالجزية التى فرضها هى جزية الأ رض، فلم تثبت لدينا أنَّه فرض على من أسلم الجزية بمعناها الخاص أي ضريبة شخصية على المستوطن غير المسلم ــ(بل ثبت لدينا فيما تقدم من النصوص أنَّه قد فرضها بمعناها الخاص وكان هذا هو السبب الأهم في الثورة عليه من الموالى والعرب وانتقاد المنتقدين).

ثم يقول: فلما أدت هذه السياسة الى زيادة الهجرة من القرى

والبطائح الى الأمصار والمدن ــ وكانوا يزاولون الزراعة فتركوا الأرض دون من يفلحها، و بالتالي دون من يؤدي عنها الخراج ــ فأدى ذلك الى خسارة مزدوجة عانتها الخزينة (أى نقص الخراج وأخذهم العطاء، وأخذ الموالى العطاء في ذلك الوقت فيه نظر) ولقد آلى الحجاج على نفسه أن يتخذ الإجراءات اللازمة لترحيل هؤلاء عن الأمصار وإعادتهم الى القرى، و وضع عليهم ما اعتادوه من الجزية التى كانوا يدفعونها قبل إسلامهم، أى أنه ربما رفع خراج الأرض الى الحد الذى يتساوى ومجموع ما كانوا يؤدونه من الجزية تخصيصا ومن الخراج ــ(اعتذار عن الحجاج غير واقعى ومخالف للوارد من النصوص والأدلة)ــ ومن ثم كانت سياسته في إعادتهم الى قراهم لا وجه للاعتراض عليها(١). (وهل إذا اعتبرنا الخراج كراء، بغض النظر عن كل اعتبار آخر ــ ورفض المستأجر تجديد الإيجار والكراء هل يجبر عليه أو على الرجوع الى الأرض بشروط لا تلائمه؟). ثم يقول: كذلك رأت الحكومة المصرية في تحول الأرض خطرا على مالية البلاد فأصبح نوع الضريبة متصلا بالأرض نفسها، والأصل أن أرض مصر خراجية، ولهذا كان القبطى إذا اعتنق الإسلام لا تعفى أرضه من الخراج وكان العربى المسلم يدفعه أيضا بدلا من العشر وفقا لما انتهت اليه سياسة الحجاج في العراق»(١)ــ (وهذا عين ما ذكرته د. سيدة الكاشف وقد رأينا أن هذا ليس من سياسة الحجاج بل هو الأصل في الخراج، وأنه لا يختلف باختلاف دين المالك وهذا أمر معروف منذ عهد عمر بن الخطاب، وإن أنكر بعض المستشرقين ــ كفلهاوزن ومن شايعه، وقد مرت معنا أدلة ذلك، ولو كان هذا ما فعله الحجاج لما كان لاعتراض العلماء عليه وجه، بل إن العلماء والفقهاء والقراء المعاصرين للحجاج هم منتقدو

---

١ ــ مذكرات في النظام المالى الاسلامي المقارن من ١٨٨ــ١٩٠ بتصرف.

سياسته هذه وعلى رأسهم عمر بن عبد العزيز القدوة، فلابد وأن يكون ما فعله الحجاج مخالفا لشرع الله ولسنة رسول الله وخلفائه من بعده). ثم إنَّ الدكتور ينقل رأى الدكتورة سيدة الكاشف الذى تبرر به ما فرضه الحجاج ولو كان الجزية تخصيصا وقد رددنا على ذلك في محله من هذا البحث).

ثم يقول سيادة الدكتور الجرف معتذرا عن الحجاج، فإن كانت الجزية التى فرضها ضريبة شخصية فرضها على من أسلم تعوذا أو تخلصا من أدائها فهو أدرى بما كان لا نحن بعد أكثر من ألف سنة»(٢).

ونقول ردا على ذلك: أوَّلاً: إن الإسلام ولو كان تعوذا وتخلصا يوجب إسقاط الجزية عن المسلم لأننا ــ كما قلت سابقا ــ لسنا مأمورين بأن نشق عن قلب الكافر إذا أسلم لنكتشف إخلاصه من نفاقه، وقد أعطانا الشرع حرية قتل الإنسان إذا أسلم ثم ارتد، فهل يعقل أن إنسانا لكى يوفر على نفسه بضعة دراهم في العام يعرض حياته كلها للخطر لو اكتشف عدم إخلاصه؟ وهذا الأثر يعطينا خلاصة ذلك: فعن عبيد الله بن رواحة ــ وهو ثقة بصرى من التابعين ــ قال كنت مع مسروق بالسلسلة فحدثنى أن رجلا من الشعوب أسلم فكانت تؤخذ منه الجزية فأتى عمر ابن الخطاب رضى الله عنه فقال: ياأمير المؤمنين إنى أسلمت والجزية تؤخذ منى. قال: لعلك أسلمت تعوذا ــ أى فرارا من القتل أو الجزية ــ فقال: أما في الاسلام ما يعيذنى؟ قال بلى. قال: فكتب عمر أن لا تؤخذ منه الجزية(٢).

وثانيا: أما قوله: فهو أدرى بما كان لا نحن بعد أكثر من ألف سنة: فإننا حينما ننتقد ما فعله الحجاج إنما ننتقد بناء على ما وصلنا من نصوص

---

١ ــ المرجع السابق ١٩١.

٢ ــ الاموال ٦٧.

وأدلة وأخبار رواها معاصروه الذين نقلوا إلينا أعماله كلها خيرها وشرها، فإذا حق لنا أن نرد الأخبار التى يذكر فيها سوء ما فعل، فيحق لنا أيضا أن نرد الأخبار التى يذكر فيها خير ما فعل، وإذا وصلنا الى هذه النتيجة لم يعد بعد ذلك عندنا ثقة في تاريخنا كله ولا في شريعتنا بالتالى لأنَّ شريعتنا إنما حملها إلينا أفراد عديدون ممن حملوا تاريخنا.

و يكفى من الأدلة غير ما مضى على انحراف بنى مروان وطغيانهم والحجاج طاغيتهم وخاصة في جباية الأموال عدا عن سفك الدماء لأ وهى الأسباب ــ قول الدكتور محمد كمال الجرف نفسه في كتابه وفي الموضوع نفسه: و يبدو أنهم ــ أى بنى أمية ــ تشددوا في الجباية، لهذا نجد سليمان بن عبد الملك يولى أسامة بن يزيد التنوخى خراج مصر فلما وصله مرة قال له: إنى ما جئتك حتى نهكت الرعية وجهدت فإن رأيت أن ترفق بها وترفه عنها وتخفف من خراجها ما تقوى به على عمارة بلادها وصلاح معاشها فافعل، فإنه يستدرك ذلك في العام المقبل. فيقول له سليمان هبلتك أمك، احلب الدر فإذا انقطع فاحلب الدم والنجا(١) مع أن سليمان بن عبد الملك يعتبر أقل ظلما من الحجاج وعبد الملك والوليد.

وفي سياسة الحجاج تلك يقول الدكتور ضياء الدين الريس ــ وهو حق:ــ فالحقيقة التى نريد أن نقررها أن سياسة الشدة والعسف إذا كانت تنجح في ظروف حربية خاصة ولمدة مؤقته فإنَّها لا تنفع أن تكون سياسة دائمة تساس بها الشعوب وإنَّها تؤدى الى عواقب خطيرة.

فملخص الحكم أن الحجاج كان حاكما عسكريا ولم يكن سياسيا ولا قائدا حربيا وكان يجب على عبد الملك بعد أن انتهى أمر الخوارج أن يعزله و يبدله بحاكم أكثر سياسة وأوسع أفقا ليجتذب قلوب الناس بدل

---

١ ــ محاضرات في النظام المالى ص١٩١ عن الجهشيارى ٢/٥١.

أن يزيدهم نفورا. الى أن يقول بعد أن ذكر الصفات التى جعلت عبد الملك يتشبث بالحجاج:ــ لكن هذا كله لا يوازى حب الناس وطاعة الرعية عن رغبة والوثوق بإخلاصهم للوقوف مع الدولة في أوقات الشدة، فالقاعدة المتينة الراسخة التى يؤسس عليها الحكم وتقام عليها الدول إنما هي حب الشعب لمن يحكمونه وإخلاصه لهم(١).

و بعد أن بينا الحق فيما فعله الحجاج في سواد العراق. وقد ألقى ظله على جُلِّ رقعة الدولة من بعد، و بيَّنَّا نتائج تلك السياسة وفشلها، فلنر ما فعل عمر بن عبد العزيز وقد واجهته تلك المشاكل أو فلنقل واجهها هو حينما تولى سدة الخلافة.

مع فلهاوزن وآرائه فيما فعله عمر بن عبد العزيز و بيان أخطائه

يقول فلهاوزن: وكانت إدارة الأمصار في الدولة الإسلامية تتلخص في تنظيم الناحية المالية فيها، وكان إصلاح هذه الناحية أول ما اتجهت اليه همة عمر بن عبد العزيز. ولكن ليس من السهل أن نتبين بوضوح نوع إصلاحاته في ميدان نظام الخراج ــ(وهذا يدل على قصور اطلاع فلهاوزن في هذه الناحية) والآراء التى جاء بها في هذا الشأن الفريد فون كريمر وتابعه فيها أوجست موللر مشوبة بأخطاء حقيقية ــ يرى فون كريمر وموللر أن الذى دعا عمر بن عبد العزيز الى إصلاحاته في نظام الخراج: إنما هو القصد الى العودة الى النظام القديم، وأن عمر بن الخطاب كان مَثَلَه أراد أن يتبعه وأن يرجع الى ما كان قد وضعه من نظم كما أراد أن يزيل ضروب الفساد التى استحدثها خلفاء بنى أمية وعمالهم حتى ذلك الحين.

وهنا يقوم سؤال مبدئى عن طبيعة المثال الذى أراد عمر بن عبد العزيز أن يحتذيه، وفي هذا الشأن يدخل في الاعتبار إجراءان ينسبان الى

---

١ ــ عبد الملك بن مروان ٦٥ــ٨٦هـ.

عمر الأوّل فيروى: أنه منع العرب من أن يقتنوا أرضا في البلاد التى فتحوها، وأنه أمر بأنه عند دخول المغلوبين من غير العرب في الإسلام لا ترفع عنهم إلا الجزية، أما الخراج فيبقى عليهم لأنه يتعلق بالأرض لا بصاحبها والحقيقة أن عمر لم يفعل هذا ولا ذاك(١).

(مع أنَّ فلهاوزن يقول بعد ذلك متحدثا عن منع عمر بن عبد العزيز بيع الأرض الخراجية ــ كان تحريم انتقال ملكية أرض الخراج إجراء تشريعيا جديدا له أعمق الأثر، ولكنه على كل حال، كان يستند الى الفكرة الأصلية فيما يتعلق بأرض الخراج وكان نتيجة للمبدأ الذى عمل به في أيام الفتح(٢).

و يقول أيضا فيما فعله عمر بعد حديثه عما فعله الحجاج: وكان عمر ابن عبد العزيز بحكم ورعه مضطرا أن يسلك طريقا آخر ــ وهو لم يكن من حيث مقصده يختلف عن الحجاج اختلافا كثيرا(٣)، ولكنه حاول أن يصل اليه عن طريق لا يتعارض مع الشعور الإسلامى بالحق والعدل: فحافظ من هذا الوجه على المبدأ القديم الذى يقضى بأن المسلم ليس عليه أن يدفع جزية ولا خراجا سواء كان عربيا أم كان مولى ــ(وقد رأينا أيضا خطأ هذا الادعاء فيما سبق وأنَّ المسلم الذى يملك أرضا خراجية عليه خراجها عند الجميع بلا خلاف والعشر أيضا عند الأكثرين وهو رأى

---

١ ــ الدولة العربية ٢٦٣ــ٢٦٥، وقد بينت في المبحث السابق خطأ هذين الادعاءين بالادلة الدامغة وان فون كريمر واوجست موللر مصيبان هنا في قصد عمر بن عبد العزيز وفلهاوزن هو المخطىء.

٢ ــ المرجع السابق ٢٧١.

٣ ــ هذه دعوى غير صحيحة لان المقصدين مختلفان من كل الوجوه كما بينت في أول هذا المبحث حيث ان مقصد الحجاج كان الحفاظ على قوة الدولة وقبضتها قوية والسيطرة على الرعية بالبطش إرضاء لسيده في دمشق، أما مقصد عمر بن عبد العزيز فكان مقصده رفع الظلم الذى ترزح تحته الامه ونشر العدل والرخاء ارضاء للخالق عز وجل. فكيف يقال ان المقصدين لا يختلفان كثيرا؟.

عمر بن عبد العزيز). ولكى يتفادى النقص فيما يدخل الى بيت المال فإنه بعد مشاورة علماء المدينة بلا شك ــ(نعم كان عمر بن عبد العزيز على علمه وفقهه يستشير علماء الأمة وفقهائها، ولكن لم يكن مقتصرا على علماء المدينة وكان يريد أن يعيد للخلافة مهمتها الحقيقية). استنبط من السنة السابقة أن أرض الخراج يجب أن تكون ملكا للمسلمين جميعا أولا، ثم هي بعد ذلك لأهل القرى الذين تركها لهم المسلمون مقابل خراجها، بحيث لا يصح أن تقتطع أجزاء منها وتعتبر بسبب انتقالها الى أيدي المسلمين ملكا خاصا معفى من الخراج. وتبعا لذلك أعلن عمر بن عبد العزيز أن بيع أرض الخراج على العرب والمسلمين غير جائز اعتبارا من سنة مائة للهجرة، ولكنه لم يجعل لهذا المنع أثرا رجعيا، أما إذا دخل المالك الملزم بدفع الجزية في الإسلام فالظاهر أن عمر قرر رجوع ممتلكاته الى أهل قريته التى هو منها(١)، وكان المالك يستطيع أن يبقى متقبلا لها وليست القبالة خراجا، ولكنه كان يستطيع أنْ يرحل الى العواصم(٢).

ما فعله عمر بن عبد العزيز لاصلاح الخراج

ومن خلال نص فلهاوزن هذا نستطيع أن نتبين نوع الإصلاحات التى أجراها عمر بن عبد العزيز في الخراج وتوصل اليها فلهاوزن:

١ ــ أن عمر بن عبد العزيز منع بيع الأ رض الخراجية اعتبارا من سنة مائة.

٢ ــ إنَّه لم يجعل لهذا المنع أثراً رجعيا وأن ما بيع قبل سنة مائة يبقى حكمه على ما كان عليه.

٣ ــ أن من أسلم من أهل الذمة ترجع ممتلكاته الى أهل القرية أو يبقى متقبلا للأ رض.

٤ ــ أن عمر لم يمنع الناس من الهجرة الى الامصار والمدن.

---

١ ــ بل جعلها عمر فيئاً وردها الى الجماعة الاسلامية الا اذا كانت ارض صلح.

٢ ــ الدولة العربية ٢٧١.

ثم إن فلهاوزن يقول: ولم يستطع عمر بن عبد العزيز أن ينفذ سياسته، ونظرا للطريقة التى حاول بها ما أراد فإن الإضرار ببيت المال صار شيئا لا يمكن تفاديه ولم يمكن العمل بمبدأ عدم انتقال ملكية أرض الخراج، ولم يمكن ايقاف انتقال الممتلكات، كما لم يمكن إيقاف تغيير الدين(١).

وفلهاوزن ــ وإنما ذكرت ما قاله لأن كثيرا ممن كتبوا في هذا الموضوع نقلوا عنه مقتنعين بفكرته في هذا ــ وقد استنبط هذه الاستنتاجات من نص ابن عساكر الذى ذكرنا بعضه سابقا وفيه ــ و يقول ابن عساكر: فلما ولى عمر بن عبد العزيز رأى تلك القطائع التى أقطعها عثمان لمعاوية رضى الله عنهما ومعاوية وعبد الملك والوليد وسليمان، فلم يردها على ما كانت عليه صافية ولم يجعلها خراجا وأمضاها لأهلها تؤدى العشر.

قالوا، وأعرض عن تلك الأشرية فأذن لأهلها فيها لما وقع بها من المواريث ومهور النساء وقضاء الديون فلم يقدر على تخليصه ولا على معرفة ذلك. قالوا وأعرض عن تلك الاشرية التى اشتراها المسلمون فلم يغير منها شيئا وأمضاها لأهلها ولمن كانت في يده كالقطائع وجعل عليها عشرا، ولم يجعل عليها ولا على من صارت اليه بميراث أو شراء جزية.

وقالوا: وكتب بذلك كتابا قرىء على الناس في سنة مائة وأعلمهم أنّه لا جزية(٢) عليها وأنّها أرض عشر، وكتب أن من اشترى بعد سنة مائة فإن بيعه مردود، وسمى سنة مائة سنة المدة. فسماها المسلمون بعده بذلك فأمضى ذلك في بقية ولايته، ثم أمضاه يزيد وهشام ابنا عبد الملك قالوا: فتناهى الناس عن شرائها بعد سنة مائة ثم اشتروها أشرية كثيرة(٣).

---

١ ــ المرجع السابق ٢٧٢.

٢ ــ المراد بالجزية هنا الخراج.

٣ ــ تاريخ ابن عساكر ١٨٣ــ١/١٨٤.

وكذلك من النص الذى رواه البلاذرى في الفتوح ص٤٥٢ وذكرناه قبلا، وفي كلا النصين رأينا أنَّ عمر بن عبد العزيز جعل على تلك الأراضى العشر ولم يجعل عليها خراجا بل إنَّ الخراج الذى وضعه الحجاج عليها في العراق رفعه عمر وجعلها عشرية أيضاً.

وقد ذكر ابن عبد الحكم ايضا كتاب عمر في منع بيع الأرض فقال: ونرى أن لا يباع عمارة الأرض فإنما يشترى المشترى لنفسه و يقطع لنفسه فأنما يصيب من ذلك خراب الأرض وظلم أهلها(١).

فمن هذه النصوص وخاصة نص ابن عساكر والبلاذرى ــ حيث أن فلهاوزن لم يطلع على سيرة ابن عبد الحكم ــ استنبط فلهاوزن ما وصل اليه، ولكنه أخطأ في استنتاجه في جعل عمر تلك الأراضى عشرية لا خراجية، حيث إنه ادعى أن عمر بن عبد العزيز حافظ على المبدأ القديم الذى يقضى بأن المسلم ليس عليه أن يدفع جزية ولا خراجا، ولكن الناظر في نص ابن عساكر يرى الحجة في جعل تلك الأراض عشرية لأنها إذا كانت من الصوافى فهى في حكم الأرض المحياة فهى عشرية عند الغالبية، وأما الأشرية فقد ذكر ابن عساكر العلة وهى اختلاط الأمور فيها لما وقع بها من المواريث ومهور النساء وقضاء الديون ــ وليس لأن المسلم ليس عليه أن يدفع جزية ولا خراجا.

نتائج فلهاوزن

وأما ادعاءات فلهاوزن بأن عمر لم يستطع أن ينفذ سياسته و بنى على ذلك النتائج التالية:

١ ــ نظرا للطريقة التى حاول بها ما أراد فإنَّ الإضرار ببيت المال صار شيئا لا يمكن تفاديه.

٢ ــ لم يمكن العمل بمبدأ عدم انتقال ملكية أرض الخراج.

---

١ ــ ابن عبد الحكم ٨٣.

٣ ــ ولم يمكن إيقاف انتقال الممتلكات.
٤ ــ كما لم يمكن إيقاف تغيير الدين.

وهذه النتائج الأربع منها ثلاث ثبت بطلانها أما الأولى وهى الإضرار ببيت المال فقد تبين لنا ومما سيأتى أن بيت المال لم يصبه أى ضرر بسبب تلك السياسة وقد اعترف فلهاوزن بذلك فيما بعد، وإن كان من وجهة نظر أخرى.

وأما الثانية: فقد ثبت بنص ابن عساكر الآنف الذكر أن منع بيع الأرض الخراجية استمر بقية عهد عمر وطيلة عهد يزيد وهشام ابنى عبد الملك، إذاً فلم ينقض هذا القرار إلاّ في أواخر الدولة الأموية حينما استشرى الفساد وأوشكت الدولة على النهاية.

وأما الثالثة فإذا ثبت بطلان الثانية فقد ثبت بطلانها وإنَّ إيقاف انتقال الممتلكات قد نفذ إلا ما كان عن ميراث أو مهر أو أرض غير عامرة بناء على نص ابن عبد الحكم في تخصيص منع البيع بالأرض العامرة.

وأما الرابعة وهي لم يكن إيقاف تغيير الدين، فإن عمر بن عبد العزيز لم يفكر لحظة في منع الناس من الدخول في الإسلام بل العكس هو الذى حدث حيث أنه أخذ يدعو الناس الى الإسلام ودخل الناس في عهده في الإسلام بأعداد لا تحصى وحتى في العهود التالية وإلى قيام الساعة.

وبهذا يبطل القول بأن عمر بن عبد العزيز لم يستطع أن ينفذ سياسته.

هدف عمر

لكن هل هذا هو كل ما فعله عمر بن عبد العزيز لإصلاح أوضاع الخراج؟ قلت فيما سبق: إن هدف عمر بن عبد العزيز لم يكن هو إصلاح مالية الدولة بقدر ما هو رفع الظلم عن الأمة ونشر العدالة بين

الناس. ورأى أن أمثل طريقة لإعمار بيت المال هى رفع الضيم عمن يرزح تحته حتى يستطيعوا أن يتحركوا بحرية، ورأى أن عظم دخل بيت المال من الخراج، فلذلك أولاه غاية اهتمامه وأولى مصلحة الفلاحين جزءا كبيرا من عنايته ورعايته وإصلاحه، لأنه أيقن أن الفلاح أو العامل لا يمكن أن يشتغل و ينتج إلا إذا كان يحس بالطمأنينة تعمر نفسه وقلبه والأمن يرفرف عليه بأجنحته، وإلاّ إذا كان يحس بأن الدولة راعية له لا مستعبدة وأنها محسنة به لا مستبدة، وأنها لا تنال من تعبه وجهده إلا ما يفيض عن حاجاته الأصلية والفرعية. وهو ما كان يعبر عنه في عهود العدل بالعفو.

رفع الضرائب الجائرة

فسعى عمر بن عبد العزيز أول ما سعى الى رفع كل ظلم وكل ضريبة جائرة سنها عليهم عمال السوء وعمم كتبه على ولاته في الأمصار برفع تلك الضرائب الجائرة الظالمة التى عددنا كثيرا منها فيما سبق. ولا أرى مانعا من إعادة ذكرها وسردها على سبيل الإجمال فمما كتب عمر بن عبد العزيز إلى ولاته في رفع المظالم أن قال:

وآمرك أن لا تأخذ في الخراج إلا:

١ ــ وزن سبعة ليس فيها تبر.

٢ ــ ولا أجور الضرابين.

٣ ــ ولا إذابة الفضة.

٤ ــ ولا هدية النيروز والمهرجان.

٥ ــ ولا ثمن الصحف.

٦ ــ ولا أجور الفيوج(١).

٧ ــ ولا أجور البيوت.

---

١ ــ الفيوج جمع فيج وهم الذين يدخلون السجن ويخرجون ويحرسون، ولعل المقصود بهم الحراس. القاموس ١/٢٠١. كما ذكر أن معناهم الرسل.

٨ ــ ولا دراهم النكاح(١).

٩ ــ ولا خراج على من أسلم من أهل الأرض.

ــ (المراد بالخراج هنا الجزية)(٢). وكتب أيضا أن ضع عن الناس.

١٠ــ الفدية.

١١ــ المائدة.

١٢ــ المكس(٣).

وكتب أيضا: أما بعد فاقرأ كتابى هذا على أهل الأرض بما وضع الله عنهم على لسان أمير المؤمنين من المظالم والتوابع التى كانت تؤخذ منهم في(٤) النيروز والمهرجان(٥) وثمن الصحف(٦) وأجر الفيوج.

١٣ــ جوائز الرسل.

١٤ــ وأجور الجهابذة(٤) وهم القساطرة(٥).

١٥ــ وأرزاق العمال وأنزالهم.

١٦ــ وصرف الدنانير التى كانت تؤخذ منهم من فضل ما بين السعرين في الطعام الذى كان يؤخذ منهم فضل ما بين الكيلين وليحمدوا الله عز وجل(٦).

فهذه ست عشرة ضريبة كانت موضوعة على رقاب أهل الذمة بجانب الخراج، عدا عن الأسلوب الشاذ الذى كان يستعمله الجباة في جباية هذه الضرائب، فإذا عرفنا أن ضريبة واحدة وهي النيروز والمهرجان كانت

---

١ ــ يدعى البعض أن المراد بها ضريبة البغايا، ولكن الشأن أنه لا بغاء في الاسلام فكيف يسمح به بل وتوضع عليه ضريبة؟ والأ ولى أن تلك الدراهم كان تفرض على كل ذمى يتزوج.

٢ ــ الخراج لابى يوسف ٨٦ والاموال ٦٤.

٣ ــ الاموال ٧٠٤.

٤ ــ الجهابذة ج جهبذ وهو النقاد والخبير. القاموس ١/٣٥٢.

٥ ــ القساطرة ج قسطرى وهو الجهبذ ومنتقد الدراهم. القاموس ٢/١١٧.

٦ ــ ابن عبد الحكم ١٣٦ــ١٣٧.

تؤدي زمن معاوية رضى الله عنه عشرة ملايين من الدراهم(١). فكم كانت تؤدى الضرائب الأخرى؟.

وقد منع أن يسخر الناس في سلطانه كما رأينا وشدد في ذلك.

الجزية

هذا ما يتعلق بالضرائب التى كانت مفروضة على وجه العموم فما الشأن في الجزية خاصة؟ تلك التى أثار الغاؤها ثائرة كثير من المستشرقين وبكوا وتباكوا على بيت المال الذى أضر به وأخر به عمر بن عبد العزيز بإسقاطها.

سقوط الجزية بالاسلام

رأينا في المبحث السابق الأساس الذى فرضت بموجبه الجزية على أهل الكتاب والأعاجم الذين لم يدخلوا في الإسلام، وقد فرضها رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده، وكذلك فرضها بنو أمية، وكان الشأن أن تسقط الجزية عمن يسلم بمجرد إسلامه.

قال أبو يوسف: ولا يؤخذ من مسلم جزية رأسه إلا أن يكون أسلم بعد خروج السنة، فانه إذا أسلم بعد خروجها فقد كانت الجزية وجبت عليه وصارت خراجا لجميع المسلمين فتؤخذ منه. فإن أسلم قبل تمام السنة بيوم أو يومين أو شهر أو شهرين أو أكثر أو أقل لم يؤخذ بشيء من الجزية إذا كان أسلم قبل انقضاء السنة. وان وجبت عليه الجزية فمات قبل أن تؤخذ منه أو أخذ بعضها و بقى البعض لم يؤخذ بذلك ورثته ولم تؤخذ من تركته، لأنَّ ذلك ليس بدين عليه. وكذلك إن أسلم وقد بقى عليه شيء من جزية رأسه لم يؤخذ بذلك(٢).

---

١ ــ تاريخ اليعقوبى ٢/٢١٨.

٢ ــ الخراج لابى يوسف ١٢٢ــ١٢٣.

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليس على مسلم جزية»(١).

وعن عبيد الله بن رواحة قال: كنت مع مسروق بالسلسلة فحدثني أن رجلا من الشعوب ــ (أى الأعاجم) ــ أسلم فكانت تؤخذ منه الجزية فأتى عمر بن الخطاب فقال: ياأمير المؤمنين إنى أسلمت والجزية تؤخذ منى قال: لعلك أسلمت متعوذا، قال: أما في الاسلام ما يعيذنى؟ قال: بلى قال: فكتب عمر أن لا تؤخذ منه الجزية(٢). وعن الزبير بن عدى ومحمد بن عبيد الله الثقفي أن دهقانا أسلم على عهد على، فقال له على: إن أقمت في أرضك رفعنا عنك جزية رأسك وأخذناها من أرضك وان تحولت عنها فنحن أحق بها(٢).

وعن حميد قال: كتب عمر بن عبد العزيز: من شهد شهادتنا واستقبل قبلتنا واختتن فلا تأخذوا منه الجزية(٢).

وهنا يقول أبو عبيد: أفلا ترى أنَّ هذه الأحاديث قد تتابعت عن أئمة الهدى بإسقاط الجزية عمن أسلم ولم ينظروا في أول السنة كان ذلك ولا في آخرها، فهو عندنا على أن الإسلام أهدر ما كان قبله(٣).

ولقد ثبت عند عمر بن عبد العزيز: أنه لا جزية على مسلم فأسقطها عن كل من أسلم من أهل الذمة مهما سبب ذلك من نقص في الإيرادات أو من عجز في ميزانية الولاية أو الدولة. وقد مر معنا في مباحث سابقة. وقلنا إن هذه أثارت ثائرة المستشرقين ومن اتبعوهم حتى أتهموه بالرجعية وقصر النظر والجمود، وقد رددنا على كل ذلك في مكانه من هذه

---

١ ــ الاموال ٦٦ والحديث رواه أحمد وابو داود عن ابن عباس.

٢ ــ الاموال ٦٧.

٣ ــ الاموال ٦٨.

الرسالة(١) وإنَّما نريد هنا أن نوضح معالم تلك الاصلاحات التى أجراها عمر بن عبد العزيز على الخراج ونتائجها.

ولكن ورد عن عمر بن عبد العزيز بجانب ما ذكرنا من وضعه الجزية عمن أسلم خبر رواه ــ أبو عبيد وابن عبد الحكم وغيرهما يقول «كتب عمر بن عبد العزيز الى حيان بن سريج يأمره: أن يجعل جزية الأموات على الأحياء(٢) من قبط مصر، مع أنه قد ورد عن عمر بن عبد العزيز أنه ليس على من مات ولا على من أبق جزية، يقول: «لا تؤخذ من ورثته ولا يجعلها بمنزلة الدين ولا من أهله إذا هرب عنهم لأنَّهم لم يكونوا ضامنين لذلك»(٢).

فكيف يمكن التوفيق بين هذين الخبرين؟ وقد اتخذ بعضهم الخبر الأوَّل تكأة في الطعن على سياسة عمر بن عبد العزيز، ولكن التوفيق بين الخبرين وارد من وجهين: الأوَّل أن خبر جعل جزية موتى القبط على أحيائهم رواه ابن لهيعة وهو في ميزان المحدثين ضعيف.

أما الوجه الثانى فقد ذكره ابن عبد الحكم في معرض تعليقه على الخبر يقول: وحديث عبد الملك هذا يدل على أن عمر بن عبد العزيز كان يرى أن أرض مصر فتحت عنوة، وأن الجزية إنما هي على القرى فمن مات من أهل القرى كانت الجزية ثابتة عليهم وأن موت من مات منهم لا يضع عنهم من الجزية شيئا، (فالمراد بالجزية هنا هى الضريبة العامة الموضوعة على الأرض ــ ولعل هذا ما عناه يحيى بن سعيد في قوله: الجزية جزيتان فجزية على رؤوس الرجال وجزية جملة تكون على أهل الذمة يؤخذ بها أهل القرية، فمن هلك من أهل القرية التى عليها جزية مسماة على القرية

---

١ ــ انظر مبحث فِرىً باطلة واسلوب المستشرقين.

٢ ــ الاموال ٦٩ فتوح مصر واخبارها ٢٠٨.

ليست على رؤوس الرجال فإنا نرى أن من هلك من أهل القرية ممن لا ولد له ولا وارث أن أرضه ترجع الى قريته في جملة ما عليهم من الجزية(١). (ولعل هذا هومقصود عمر بن عبد العزيز).

ثم يقول ابن عبد الحكم: ويحتمل أن تكون مصر فتحت بصلح، فذلك الصلح ثابت على من بقى منهم وأن موت من مات منهم لا يضع عنهم مما صالحوا عليه شيئا والله أعلم(٢). ولكن الأقرب الأ وَّل لأن عمر بن عبد العزيز سأل عراك بن مالك عن مصر فأخبره أنها فتحت عنوة(٣).

وهكذا لم يخرج عمر بن عبد العزيز عن مبدئه وهو أنه لا جزية على مسلم ولا على من مات ولا على من أبق والمراد بها جزية الرأس.

إصلاح الأرض

ثم نعود الى بيان باقى إصلاحات عمر، نظر عمر بن عبد العزيز الى أن هناك أراضٍ عامرة صالحة للزراعة ومزروعة فعلا، وأن هناك أراضٍ صالحة وغير مزروعة أو غير صالحة، وقد كانت هذه كلها على ما يظهر تدفع خراجا متماثلا مما يرهق كاهل المزارعين، فأرسل الى ولاته بالتفريق بين تلك الأ راضى من حيث الضريبة الخراجية عليها. فكان مما قاله لعبد الحميد بن عبد الرحمن واليه على الكوفة: أن انظر الأ رض ولا تحمل خرابا على عامر ولا عامراً على خراب، وانظر الخراب فإن أطاق شيئا فخذ منه ما أطاق وأصلحه حتى يعمر، ولا تأخذ من عامر لا يعتمل شيئا وما أجدب من العامر من الخراج فخذه في رفق وتسكين لأهل الأ رض(٣).

ثم التفت الى بعض ما فعله الحجاج ورأى أن فيه ظلما للأمة ــ إذ أنَّ الحجاج رد أراضى كانت تؤدي العشر الى الخراج فردها عمر الى

---

١ ــ الاموال ٦٩، فتوح مصر واخبارها ٢٠٨.

٢ ــ فتوح مصر واخبارها ٢٠٨ــ٢٠٩.

٣ ــ الاموال ٦٨ وعراك بن مالك الغفارى من بنى كنانة توفى في خلافة يزيد بن عبد الملك وقد روى عن ابى هريرة وكان يصوم الدهر. الطبقات ٥/١٨٧.

العشر: قالوا: وبالعراق أرضون أسلم أهلها عليها حين دخلها المسلمون وأرضون خرجت من أيدى أهلها الى قوم مسلمين بهبات وغير ذلك من أسباب الملك فصيرت عشرية ــ وكانت خراجية. فردها الحجاج الى الخراج، ثم ردها عمر بن عبد العزيز الى الصدقة ثم ردها عمر بن هبيرة الى الخراج، فلما ولى هشام رد بعضها الى الصدقة، ثم إن المهدى أمير المؤمنين جعلها كلها من أراضى الصدقة(١).

الارض المختلط أمرها

فهذه أراض اختلط أمرها ــ كما مر معنا في نص ابن عساكر أيضا ــ فبعضها كان أصلها عشريا ــ إذ أسلم عليها أهلها ــ وأخرى كانت من أراضى الصلح، وأراضٍ كانت ميتة فأحياها أقوام من مناقع المياه والمغائض والبطائح وغيرها. وبعض أراضى الخراج خرجت من أيدى أهلها الى قوم مسلمين أو أسلم أربابها، وقد أختلط أمورها جميعا وخاصة بعد حرق الديوان أثناء ثورة ابن الأشعث بعد موقعة دير الجماجم. فهذه جعلها الحجاج كلها خراجية وقد يكون فعلها انتقاما ممن حرقوا الديوان ــ لأنه بعد حرق الديوان استولى كل قوم على ما يليهم.

وفي نص ابن عساكر أن الأراضى المختلط أمرها في الشام كانت عشرية فأبقاها عمر عشرية، فهذا يدل على أن ما فعله الحجاج لم يتعد العراق ــ ولكن لما جاء عمر بن عبد العزيز وجد أن من الرحمة والعدالة أن يرد هذه الأراضى الى العشر لاختلاط الأمر فيها، وهذا الذى يشير اليه فلهاوزن في قوله: ونجد عند البلاذرى أن عمر بن عبد العزيز أبطل ما فرضه الحجاج على المسلمين من دفع الخراج، ولم يكن ذلك في ميسان وحدها بل في سائر ما عداها، وفي كتاب لعمر بن عبد العزيز كتبه الى أمير الكوفة وذكره الطبرى قرر عمر القاعدة الاساسية وهى أن لا خراج على من أسلم من أهل الأرض(٢).

---

١ ــ فتوح البلدان ٤٥٢.

٢ ــ الدولة العربية ٢٧٦.

وفي هذا النص نرى خطأ فلهاوزن وعدم دقته في فهم النصوص لأنه زعم أن عمر أبطل ما فرضه الحجاج على المسلمين من دفع الخراج في سائر الأمصار واستند في ذلك على نص من كتاب عمر لأمير الكوفة «بأنّه لا خراج على من أسلم من أهل الأرض.

والذي نرى أن فلهاوزن ومن شايعه في ذلك جانبهم الصواب لأننا رأينا في نص البلاذرى السابق نوع الأراضى التى أسقط عنها عمر بن عبد العزيز الخراج وردها الى العشر وبيّنّاها، بل لدينا من الأدلة ما يثبت عكس ذلك أى أن عمر بن عبد العزيز قد فرض الخراج والعشر أيضا على كل أرض خراجية ملكها مسلم ولم تختلط فيها الأمور، وأما النص الذى ذكره وأنه «لا خراج على من أسلم» أن المراد بلفظ الخراج هنا إنما هو الجزية بمعناها التخصصي، وهذا كما رأينا سابقا من تبادل اللفظين والقرائن التى تحدد المقصود والأدلة على ذلك كثيرة، فعن نعيم بن عبد الله أن عمر بن عبد العزيز أعطاه أرضا بجزيتها «قال عبد الرحمن بن مهدى: يعنى من أرض السواد»(١) ــ يلاحظ هنا لفظ أعطاه فهى إما منحة أو كراء أو بيع ثم يلاحظ أيضا لفظ بجزيتها والمراد هنا بخراجها وهذا من تبادل اللفظين كما عرفنا.

وعن عمرو بن ميمون بن مهران قال: سألت عمر بن عبد العزيز عن العربى أو قال المسلم تكون في يده أرض خراج فيطلب منه العشر فيقول: إنما عليّ الخراج فقال: الخراج على الأرض والعشر على الحب ــ يلاحظ هنا قوله في يده أرض الخراج فيطلب منه العشر فيقول إنما على الخراج. فهذا رد على كل من يقول إنه ليس على المسلم خراج ــ ثم يلاحظ

---

١ ــ الاموال ١٢٠.

اجتماع العشر والخراج معا ــ وهنا يقول شريك: لعل عمر لا يكون قال هذا حتى سأل عنه أو بلغه فيه فإنه كان ممن يقتدى به(١).

وعن إبراهيم بن أبى عبلة العقيلي قال: كتب عمر بن عبد العزيز الى عبد الله بن عوف أو ابن أبى عوف ــ شك أبو عبيد ــ عامله على فلسطين فيمن كانت بيده أرض بجزيتها من المسلمين: أن يقبض منها جزيتها ثم يؤخذ منها زكاة ما بقى بعد الجزية. قال ابن أبى عبلة: أنا ابتليت بذلك ومنى أخذ(٢). يلاحظ هنا أن الراوى هوصاحب الحادثة وانظر قوله «أنا ابتليت بذلك ومنى أخذ.

وعن حصين قال: كتب عبد الحميد بن عبد الرحمن الى عمر بن عبد العزيز «أن تنا(٣) أهل السواد سألوا أن توضع عليهم الصدقة و يرفع عنهم الخراج (لعل هؤلاء أرادوا أن يطبق عليهم قرار عمر بإبطال ما وضعه الحجاج على أهل الصدقة فظنوا كما ظن فلهاوزن وغيره أن هذا قرار عام لكل أرض خراجية ملكها مسلم، فردهم الى الصواب)ــ فكتب: إنى لا أعلم شيئا أثبت لمادة الإسلام من هذه الأ رض التى جعلها الله لهم فيئا، فمن كان له في الأ رض أهل وسكن فأجر على كل جدول منها ما يجرى على أرض الخراج، ومن لم يكن له أهل ولا سكن فارددها الى النبك(٤) من أهلها(٥).

و يقول الراوى هنا وهو حصين: وأصل هذا أنه من كانت في يده أرض فرضى أن يؤدى عنها الخراج وإلاَّ فليردها الى من يؤدى عنها الخراج من أهلها.

---

١ ــ الاموال ١٢٦ والخراج للقرشى ١٦٠.
٢ ــ المرجع السابق ١٢٧.
٣ ــ تناج تانىء وهو الطارىء على القرية.
٤ ــ النبك اى الاعاجم هنا.
٥ ــ الاموال ١٣٥، الخراج للقرشى ٥٨.

قال أبو عبيد: فكان مذهب عمر بن عبد العزيز في الأرض أنه كان يراها فيئا ولهذا كان يمنع أهلها من بيعها.

و يؤكد ذلك المفهوم ما رواه ميمون بن مهران قال: كتب الى عمر بن عبد العزيز أما بعد فخُل بين أهل الأرض و بين بيع ما في أيديهم فإنهم إنما يبيعون فيء المسلمين(١).

وقال عمر في كتابه العام: ونرى أن لا يباع عمارة الأرض فإنما يشترى المشترى لنفسه و يقطع لنفسه فإنما يصيب من ذلك خراب الأرض وظلم أهلها، وأما ما كان من عرب أهل الأرض في غير أرضه وجزيته جارية عليه في أرضه فليس عليه إلا ذلك وعامل أرضه أولى بتبعته.

ونرى أن ترد المزارع لما جعلت له، فأنما جعلت لأرزاق المسلمين عامة، فإن أمر العامة هو أفضل للنفع وأعظم للبركة. ثم إن مواريث أهل الأرض إنما هى لأولبائهم أو لأهل أرضهم الذين يخرجون الخراج، فنرى أن لا يؤخذ منهم شيء إلا أن يكون عاملا فيبعثه الإمام في عمله بالذى يرى عليه من الحق(٢).

وأما عن الزعم بأنه أسقط الخراج عمن أسلم من أهل الخراج نقول ــ إن المراد هنا بلفظ الخراج الجزية بمعناها التخصصي أى الضريبة الشخصية لاخراج الأرض بدليل:

كتب عمر بن عبد العزيز الى الجراح بن عبد الله الحكمى «انظر من صلى قبلك الى القبلة فضع عنه الجزية(٣)». لأن فلهاوزن يقول هنا: ورفع عمر الخراج عمن أسلم بخراسان وفرض لمن أسلم(٤).

---

١ ــ الاموال ١٣٦، الطبقات لكن فيه (فَخَلَّ) ولعل ذلك من تحريف النساخ.

٢ ــ ابن عبد الحكم ٨٣.

٣ ــ فتوح البلدان ٥٢٤.

٤ ــ الدولة العربية ٥٨٤.

فالمراد بلفظ الخراج هنا الجزية.

كذلك عن الليث بن سعد أن عمر بن عبد العزيز وضع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة من أهل مصر وألحق في الديوان صلح من أسلم منهم في عشائر من أسلموا على يديه قال: وكانت تؤخذ قبل ذلك مِمَّن أسلم(١). وكذلك كتب الى حيان بن سريج(٢).

أرض الصافية

ولم يكتف عمر بتلك الإصلاحات الشاملة الواسعة بل رأى أن ما بقى من أرض الصافية أو الأرض الخراجية التى لا مالك لها يجب أن تعمل ولا تهمل فكتب الى عماله: «انظر ما قبلكم من أرض الصافية فأعطوها بالمزارعة بالنصف، وما لم تزرع فأعطوها بالثلث فإن لم تزرع فأعطوها حتى تبلغ العشر، فإن لم يزرعها أحد فامنحها، فإن لم تزرع فأنفق عليها من بيت مال المسلمين ولا تبتزن قبلك أرضا(٣).

وأمر بحفر نهر عدى في البصرة من بثق شيرين(٣).

ومن أسلم من أهل الذمة رفع عن رأسه الخراج، واذا أراد أن يلحق بالمسلمين ألحقه وفرض له، وساوى بين العرب والموالى في العطاء وسمح لمن أراد منهم أن يهاجر من أرضه دون تضييق أو إحراج، إذ رأى أن إعطاء الحرية للأمة في الحركة والتعبير والتجارة مما يعود على الدولة والأمة بالرخاء والازدهار.

وبناء على ما سبق يمكننا الآن أن نلخص ما فعله الحجاج ثم ما فعله عمر بن عبد العزيز ونلاحظ نتائج عمل كل:

---

١ ــ فتوح مصر ١٥٥

٢ ــ الخراج للقرشى ٥٩.

٣ ــ فتوح البلدان ٤٥٤.

فما فعله الحجاج:

ملخص ما فعله الحجاج

١ ــ فرض الخراج على الأراضى كلها في السواد ما كان عشريا أو خراجيا مالكه مسلم أو غير مسلم.

٢ ــ فرض الجزية على المسلمين من الموالى.

٤ ــ منع ذبح البقر في بعض الأحيان ليكثر الزرع والحراثة.

٥ ــ أسلف الفلاحين في بعض السنوات ما يستعينون به على عملهم.

النتائج

فماذا كانت النتيجة؟ قد كان الحجاج مع هذا العنف الشديد لا يستخرج من العراق كبير أمر.

فعن المسور بن رفاعة قال: قال عمر بن عبد العزيز: كان خراج السواد على عهد عمر بن الخطاب مائة ألف ألف درهم. فلما كان الحجاج صار الى أربعين ألف ألف درهم(١).

وفي رواية: لو تخابثت الامم فجاءت كل أمة بخبيثها وجئنا بالحجاج لغلبناهم، وما كان الحجاج يصلح لدنيا ولا لآخرة، لقد ولى العراق وهو أوفر ما يكون في العمارة فأخس به الى أن صيره الى أربعين ألف ألف، ولقد أدى الى عمالى في عامى هذا ثمانين ألف ألف وإن بقيت الى قابل رجوت أن يؤدى إلى ما أدى الى عمر بن الخطاب مائة ألف ألف وعشرة آلاف ألف(٢).

و يقول اليعقوبى: والحجاج أول من أخذ بالقذف والظنة وقتل بهما الرجال، وانكسر الخراج في أيامه فلم يحمل كبير شيء، ولم يحمل الحجاج من جميع العراق إلا خمسة وعشرين ألف ألف درهم(٣).

---

١ ــ فتوح البلدان ٣٣٢.

٢ ــ البداية والنهاية ٩/١٥٢.

٣ ــ اليعقوبى ٢/٣٠١.

وفي رواية ابن خرداذبه: جبى عمر بن الخطاب السواد مائة ألف ألف وثمانية وعشرين ألف ألف درهم. وجباه عمر بن عبد العزيز مائة ألف ألف وأربعة وعشرين ألف ألف درهم. وجباه الحجاج بن يوسف ثمانية عشر ألف ألف درهم ليس فيها مائة ألف ألف وذلك لعسفه وخرقه وظلمه، وأسلفهم ألفى ألف درهم فحصل له ستة عشر ألف ألف درهم ومنع أهل السواد من ذبح البقر لتكثر الحراثة والزراعة(١).

وهكذا كانت نتائج عمل الحجاج خراب السواد وانحطاط في جبايته لم يصل في أى عهد من العهود السابقة ولا اللاحقة ما وصل اليه في عهد الحجاج. ومع ذلك يجد الحجاج من يثنى على أعماله ونتائجها ويختلق له المعاذير.

وأما إصلاحات عمر بن عبد العزيز فهى كما قلت كانت نابعة من قلب ملىء بالرحمة والشفقة وحب العدل والإحسان الى الرعية فكانت تلك الإصلاحات تتلخص فيما يلي:

ملخص اصلاحات عمر في السواد

١ ــ أزال كابوس الضرائب الظالمة التى كان يئن تحتها المزارعون وغيرهم.

٢ ــ رفع الجزية عن رؤوس من أسلم من الموالى رجوعا الى الحق.

٣ ــ منح المزارعين حرية التنقل والهجرة من الأ رض الزراعية الى المدن بل ودون كثيرا منهم في العطاء وساواهم بالعرب.

٤ ــ أزال مظالم الحجاج عن الأ راضى التى اختلطت فيها الأمور وردها الى الصدقة كما كانت.

٥ ــ أسلف الفلاحين ما يستعينون به لأعمار أراضيهم وحفر لهم الأنهار.

٦ ــ أمر عماله و ولا ته وجباته بالرفق بالرعية والإحسان الى الفلاحين في الجباية.

---

٢ ــ المسالك والممالك ١٤ــ١٥.

٧ ــ حافظ على الأرض الخراجية التى بأيدى المسلمين من عرب وغيرهم ولم يختلط الأمر فيها وأبقى عليها الخراج والعشر أيضاً.

٨ ــ منع بيع الأرض الخراجية ابتداء من سنة مائة للهجرة ليحافظ عليها حتى لا تختلط مع غيرها من أرض العشر.

النتيجة والمقارنة

وإنَّ الناظر لهذه الإصلاحات يرى للوهلة الأولى أنها ستسبب خراب بيت المال وتكسر الخراج لأنَّها كلها تصحيحات وإصلاحات على حساب بيت المال عدا الأمرين الأخيرين. ولكن النتيجة المذهلة التى أدت اليها هذه التصحيحات قلبت المعايير والمقاييس المادية، حيث أن السواد اطمأن أهله وزادت جبايته ونعم بازدهار عجيب فازت فيه الدولة بالنصيب الأوفر. اذ رأينا حين ذكرنا نتائج عمل الحجاج ما وصل اليه خراج السواد في عهد عمر بن عبد العزيز فأدنى الروايات تقدره بثمانين ألف ألف درهم أى ضعف أعلى تقدير لدخله أيام الحجاج، مع أن أدنى التقديرات في زمن الحجاج كان ثمانية عشر ألف ألف وأعلى التقديرات زمن عمر كانت مائة ألف ألف وأربعة وعشرين ألف ألف أى سبعة أضعاف ما جباه الحجاج، ولعل اختلاف التقديرات يرجع لاختلاف السنوات بالنسبة للحجاج. وأما عمر فلو قبلنا أدنى الروايات لكان فيها الكفاية لبيان نجاح تلك التصحيحات ورد مزاعم الناقدين من مستشرقين وتابعين.

والله الهادى الى سواء السبيل.

الفصل الثاني

مع أهل الذمـــة

المبحث الأ ول: أهل الذمة والحكومات الأ ول قبل عمر

الذمة وأهلها

من معانى الذمة في اللغة ــ العهد ــ والقوم المعاهدون(١).

وأهـل الذمـة هـم أهـل العـهـد. ومـن معانى العهد في اللغة العربية الوصية، والأمان(٢).

فـأهل الذمة هـم أهل الوصية حيث إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى بهم المسلمين. وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم قوله **«ألا من ظلم معـاهدا أو كلفه فوق طاقته، أو انتقصه، أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة»**(٣).

وكذلك أوصى بهم خلفاؤه من بعده فقد أوصى عمر بن الخطاب رضى الله عـنـه عـند وفاته بهم ــ وأوصى الخليفة من بعدى بذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوفى لهم بعهدهم(٣).

وكـمـا أنـهـم أهـل الـوصـيـة فـهـم أهل الأمان كذلك حيث لما رضوا بـالجـزيـة أمـنـوا على أنـفـسهم وأموالهم وأعراضهم وأديانهم، وهذا كتاب رسـول الله صلى الله عـلـيـه وسلم ليوحنة بن رؤبة ولأهل أيلة(٤) دليل على ذلـك: بـسـم الله الرحمن الرحيم هذه أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله: لـيـوحـنـة بن رؤبة وأهل أيلة لسفنهم ولسيارتهم ولبحرهم ولبرهم ذمة الله وذمـة محـمـد النبى ولمن كان معهم من كل مار من الناس من أهل الشام والـيمن وأهل البحر، فمن أحدث حدثا فإنه لا يحول ما له دون نفسه وأنه

---

١ ــ القاموس ٤/١١٥.

٢ ــ القاموس ١/٣٢٠.

٣ ــ الخراج لابى يوسف ١٢٥.

٤ ــ أيـلة هـى الـعـقـبة على رأس خليج العقبة في الأ ردن الآن أو هى مكان إيلات الحالية بجوار العقبة من أرض فلسطين.

طيبة لمن أخذه من الناس ولا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقاً يردونها من بر أو بحر(١).

وهكذا جرت كتب العهود بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيها معنى الأمان وهو وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد كتب خالد ابن الوليد لأهل دمشق «إنى قد أمنتهم على دمائهم وأموالهم وكنائسهم»(٢).

وكذلك كتب عياض بن غنم لأهل الرها «هذا كتاب من عياض ابن غنم ومن معه من المسلمين لأهل الرها: إنى قد أمنتهم على دمائهم وذراريهم ونسائهم وطواحينهم إذا أدوا الحق الذى عليهم، شهد الله وملائكته(٣).

وكذلك كتب حبيب بن مسلمة لأهل طفليس حيث قال: هذا كتاب من حبيب بن مسلمة لأهل طفليس من أرض الهرمن بالأمان لكم ولأ ولادكم ولأهاليكم وأموالكم وصوامعكم و بيعكم ودينكم وصلواتكم على إقرار بصغار الجزية على أهل كل بيت دينار واف الخ(٤).

فأهل الذمة هم أهل الوصية والأمان ممن أبى الإسلام ورضى بالجزية حقنا لدمه وحرصا على نفسه وماله وأهله ودينه.

الأصل في الجزية

والأصل في ذلك فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن أمر بالقتال وتخيير المقاتلين بين الإسلام أو الجزية أو القتال لغير الوثنيين من العرب، أما هؤلاء فلا يقبل منه إلاّ الإسلام(٥). فمن قبل من أهل

---

١ — الاموال لابى عبيد ٢٨٧ــ٣٨٨.
٢ ــ المرجع السابق ٢٩٧.
٣ ــ المرجع السابق ٢٩٨.
٤ ــ المرجع السابق ٢٩٩.
٥ ــ الخراج لابى يوسف ١٢٩.

الكتاب ــ اليهود والنصارى ــ والمجوس وغيرهم الجزية اعتبر من أهل الذمة، وكان ذلك بناء على الأمر الإلٰهى «**قَاتِلُوا الَّذِيْنَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الَّذِيْنَ أُوْتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوْا الجِزيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ**»(١) فإذا رضوا بالجزية اعتبروا أهل ذمة. والجزية ضريبة شخصية على رأس كل ذكر بالغ قادر على دفعها. ولا تضرب على النساء ولا الصبيان ولا الفقراء الذين يتصدق عليهم ولا الزمنى ولا العمى ولا المقعدين إلا اذا كانوا ذوى يسار. كذلك المترهبون أى الرهبان ــ إلا إذا كانوا أغنياء(٢).

على من تضرب؟

وإنما فرضت الجزية على هؤلاء لأنها مقابل حمايتهم ورعايتهم، فأهل الذمة لم يفرض عليهم القتال، ومن قاتل منهم مع المسلمين سقطت عنه جزيته.

وقد فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم الجزية على يهود اليمن عن كل حالم دينارا وعلى مجوس هجر كذلك(١). وفرض عل نصرانى بمكة دينارا.

قيمة الجزية

ولما فتحت الفتوح في زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فرض على سكان العراق ومصر وشمال افريقية من النصارى واليهود والمجوس والوثنيين ــ غير العرب ــ الجزية ولم يجعلها مقدارا واحدا بل نوعها بحسب اليسار فجعل الاغنياء ثمانية وأربعين درهما أو أربعة دنانير وعلى الأوساط أربعة وعشرين درهما أو دينارين، وعلى الفقراء اثنى عشر درهما

---

١ ــ سورة التوبة الآية ٢٩.

٢ ــ الخراج لابى يوسف ١٢٢.

٣ ــ المرجع السابق ١٢٨، ١٢٩.

أو دينارا واحدا. فالدراهم على أصحاب الدراهم والدنانير على اصحاب الدنانير.

الفرق بين الجزية والخراج

وهذه الجزية غير خراج الأرض وهى تسمى خراج الرأس أيضاً كما أن خراج الأرض يطلق عليه جزية الأرض. وقد كان اللفظان متبادلين كما مر مع تحديد مفهوم كل منهما لو أطلق عن القرائن منذ أول الأمر.

وقد كانت هناك جزية عامة يؤخذ بها أهل القرية أو المدينة عن رؤوسهم وأراضيهم نقدا أو عرضا أو كليهما، وقد فرضها رسول الله صلى الله عليه وسلم على نصارى نجران ألفى حلة، وقد فرضها الخلفاء من بعده على كثير من المدن المفتوحة صلحا وخاصة في عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه في فتوح العراق والشام ومصر حيث إن كثيرا من المدن افتتحت صلحا. فمال الصلح كمال الجزية يعتبر خراجا باللفظ الأعم ومصرفه مصرف الغنائم لا الصدقات.

وفي وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم الإحسان الى أهل الذمة وعدم ظلمهم وعدم تحميلهم ما لا يطيقون، وكذلك فعل خلفاؤه رضى الله عنهم، فقد مر بنا وصية عمر رضى الله عنه بأهل الذمة وقد نهى أشد النهى عن تعذيبهم في الجباية وعن الإساءة اليهم في أموالهم وأنفسهم وأديانهم، وكان المسلمون الأوّلون يتحرزون أشد التحرز من ظلم المعاهدين، فهذا سلمان الفارسى رضى الله عنه. يسأله رجل: ما يحل لنا من أهل الذمة يا أبا عبد الله، قال: ثلاث: من عماك الى هداك، (أى يهديك الطريق و يدلك على الوجه الذى تريد باعتبار أنهم أهل البلاد وأدرى بشعابها، وكان ذلك في العراق). ومن فقرك الى غناك ــ (أى إذا كنت ابن سبيل فعليهم لك القرى والإطعام حتى تصل الى منزلك). وإذا صحبت الصاحب منهم تأكل من طعامه و يأكل من طعامك و يركب

دابتك وتركب دابته، وأن لا تصرفه عن وجه يريده(١).

الانفاق على مساكين أهل الذمة

بل إنَّ سماحة الإسلام مع أهل الذمة أوجبت على المسلمين النفقة على مساكين أهل الكتاب من بيت مال المسلمين ومن زكاة أموالهم ــ(باعتبارهم رعية للدولة). إذ مر عمر بن الخطاب رضى الله عنه بباب قوم وعليه سائل ــ شيخ كبير ضرير البصر ــ فضرب عضده من خلفه وقال: من أى أهل الكتاب أنت؟ فقال: يهودى. قال فما الجأك الى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية والحاجة والسن. قال: فأخذ عمر بيده وذهب به الى منزله فرضخ(٢) له بشيء من المنزل، ثم أرسل الى خازن بين المال فقال: انظر هذا وضرباءه فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم، «**إنما الصدقات للفقراء والمساكين**»(٣) والفقراء هم المسلمون وهذا من مساكين أهل الكتاب ووضع عنه الجزية وعن ضربائه(٤).

وكان على كرم الله وجهه يعامل أهل الذمة خير معاملة، و يأمر عماله بالإحسان اليهم وأخذ العفو منهم، وكان هوتيسيرا عليهم وتسهيلا لهم يأخذ في جزيتهم العروض بدل الدراهم والدنانير، كان عليٌّ يأخذ الجزية من كل ذى صنع من صاحب الإبر إبرا ومن صاحب المسان مسان ومن صاحب الحبال حبالا(٥).

وكان في ذلك مؤتسياً بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كتب الى أهل اليمن: أن على كل حالم دينارا أو عدله من المعافر(٦).

---

١ ــ الخراج لابى يوسف ١٢٦.
٢ ــ الرضخ اعطاء شيء ليس بالكثير.
٣ ــ سورة التوبة الآية ٦٠.
٤ ــ الخراج لابى يوسف ١٢٦.
٥ ــ الاموال ٦٢.
٦ ــ المرجع السابق ٦٣.

نماذج لحسن معاملة المسلمين أهل الذمة في العراق

وهكذا كان أهل الذمة يعيشون بين المسلمين آمنين على أنفسهم وأموالهم وذراريهم وأديانهم، يدافع عنهم المسلمون و يقونهم ويحفظون فيهم وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد اعترف أهل الذمة بذلك وشكروا للعرب المسلمين حسن معاملتهم لهم، يقول الجاثليق ــ أى رئيس النصارى في العراق: وإنَّ العرب الذين أعطاهم الله حكم العالم اليوم ليسوا أعداء للنصرانية، فهم يحترمون ديننا و يكرمون القديسين والكهنة و يساعدون الديرة والكنائس(١).

في مصر

وفي مصر أتاح عمرو بن العاص للأقباط من سكان مصر التمتع بالحرية الكاملة في ظل العهد الإسلامي الجديد، ذلك أن مصر كانت تعانى قبل الفتح الإسلامى لها الاضطهاد الشديد على يد البيزنطيين لاختلافهما في المذهب الدينى مع أولئك المستعمرين المستبدين، فكان سكان مصر يدينون إذ ذاك بالمسيحية على المذهب اليعقوبى. على حين كان المستعمرون البيزنطيون على المذهب الملكانى، وقد بلغ اضطهاد البيزنطيين الدينى للمصريين أشده حتى اضطر أسقف الإسكندرية المصرى وهو بنيامين الى الاختفاء، فظل بنيامين مختفيا حتى فتح عمرو بن العاص مصر، وعلم بقصة ذلك البطريق المسيحى واختفائه فأصدر الى جميع أقاليم مصر كتابا جاء فيه «الموضع الذى فيه بنيامين بطريق النصارى القبط له العهد والأمان والسلامة من الله فليحضر آمنا مطمئنا و يدبر حالة بيعته وسياسة طائفته»، وحين علم الأب بنيامين بذلك عاد الى الإسكندرية وتولى رئاسته الدينية بعد غيبة دامت ثلاثة عشر عاما. وقد ألقى بنيامين خطابا في حضرة عمرو بن العاص قال فيه: كنت في

---

١ ــ النظم الاسلامية للعدوى ٣٩٧ عن ترتن.

بلدى وهو الإسكندرية فوجدت بها أمنا بعد الخوف واطمئنانا بعد البلاء، وقد صرف الله عنا اضطهاد الكفرة و بأسهم(١).

عهد معاو ية و بنى أمية

و بعد عهد الراشدين وفي عهد بنى أمية تولى أهل الذمة كثيرا من المناصب الحساسة في الدولة في العاصمة والأقاليم، إذ أصبح سرجون بن منصور الرومى أمين سر معاو ية وكاتبه وصاحب أمره وأمر ابنه يزيد، أو كما قال خليفة بن خياط «وعلى الديوان وأمره كله سرجون بن منصور الرومى(٢) وولى ابن أثال النصرانى خراج حمص(٣).

و يعتبر العهد الاموى هو العصر الذهبى لأهل الذمة، ففى العراق اتخذ بعضهم رؤساء في مناصب إدارية هامة(٤). وتولى الأقباط في مصر كثيرا من المناصب الإدارية سواء في الدواو ين المركزية بالفسطاط أو في الكور. كما استعادوا حريتهم في بناء الكنائس وتعميرها، ففي عهد ولاية عمرو ابن العاص الثانية على مصر (الأ ولى زمن عمر بن الخطاب والثانية زمن معاو ية)ـ شيد الأسقف أغاثون كنيسة القديس مرقص بالإسكندرية و بناء أول كنيسة للأقباط في فسطاط مصر أثناء ولاية مسلمة بن مخلد.

ونعم أهل مصر ـ(كغيرهم من سكان الدولة الإسلامية)ـ منذ فجر تاريخهم الإسلامي بما توافر لهم وفق نظام أهل الذمة من حرية فضلا عن الأمان واحترام العهود، وأفاق المصريون من الاضطهادات الطائفية والمذهبية التى سبق أن عانوا منها أيام تبعيتهم للروم البيزنطيين قبل الفتح الإسلامى.

---

١ ـ المرجع السابق ٣٩٨ـ٣٩٩ عن بتلر.

٢ ـ تاريخ خليفة بن خياط ١/٢٧٦ والبداية والنهاية ٨/١٥٤.

٣ ـ اليعقوبى ٢/٢٢٣.

٤ ـ النظم الاسلامية للعدوى ٣٩٧ عن الطبرى.

وأتاحت قواعد نظام أهل الذمة للأقباط في مصر سرعة امتزاجهم مع العرب المسلمين وتفهم الدين الإسلامى عن إيمان صادق، ثم اقترن بتلك الظاهرة سرعة إقبال الأقباط المصريين على تعلم اللغة العربية والتحدث بها. ثم آتى نظام أهل الذمة ثماره في مصر حين أتاح لأهلها اعتناق الإسلام في سرعة رائعة وأن يصبحوا جزءا لا يجزأ من أبناء الدولة الإسلامية الشاسعة(١).

وعلى وجه العموم تمتع أهل الذمة بالحرية والأمن والطمأنينة تحت ظل الدولة الإسلامية لقاء مبلغ زهيد يدفعونه وهو الجزية، و يعفون مقابلها من القتال. وقد رأينا فيما سبق شيئا مما وصلوا اليه خلال حكم بنى أمية ولكن ذلك لا يمنع من وجود طائفة كبيرة من أهل الذمة لاقت كثيرا من المصاعب والشدة والقسوة وخاصة في جباية الأموال في عهد عبد الملك والوليد وجلادهما الحجاج في المشرق وقرة بن شريك في مصر وسليمان وجلاده أسامة بن زيد التنوخى في مصر، ومالاقاه نصارى الشام من تطاول أمراء بنى أمية عليهم والاستيلاء على كثير من أملاكهم دون وجه حق مما مرت أمثلته في المباحث السابقة.

وسنرى في المبحث التالى إن شاء الله موقف عمر بن عبد العزيز من أهل الذمة عموما. ونرى بعض المظالم التى رفعها عنهم والحرية التى منحها لهم والمعاملة الحسنة التى عاملهم بها. وما قيل في سياسته العامة تجاههم.

---

١ ــ النظم الاسلامية للعدوى ٣٩٩ــ٤٠٢ بتصرف.

المبحث الثاني
عمر بن عبد العزيز وأهل الذمة

نظر عمر بن عبد العزيز الى أهل الذمة في مشارق الدولة الإسلامية ومغار بها فوجد أن هناك أقواماً منهم لهم عهود ومواثيق أعطوها حينما فتح المسلمون بلادهم ورضوا بها ودفعوا الجزية بناء على ما أعطى لهم من شروط وأخذ عليهم من مواثيق، ووجد أن بعضا ممن كان قبله من الخلفاء والولاة قد خالفوا بعض هذه الشروط وحملوا كثيرا من أهل الذمة فوق ما يطيقون. فعمل منذ تولى على رفع الظلم عنهم وإزالة الحيف الذى لحق بهم.

ثم وجد أن هناك أقواما آخرين من أهل الذمة خرجوا عن الحدود المرسومة لهم بعهودهم. أخرجهم عنها ولاة وخلفاء وأمراء تقدموه، فتطاولوا على المسلمين بمناصب ولوها ومراكز وضعوا فيها وليس من حقهم أن يصلوا اليها، ووجد أيضا أن أقواما آخرين من أهل الذمة تلبسوا بحالات تشبهوا فيها بالمسلمين في أزيائهم ومراكبهم وحالاتهم، ورأى أن في ذلك خروجا منهم على مكانتهم بحسب الشروط الواردة في عهودهم أو بحسب وضع الدولة الإسلامية في وقته.

فماذا فعل عمر بن عبد العزيز في كل هذه الأحوال.

رفع عمر الظلم عن اهل الذمة

لقد جاء عمر ليزيل الظلم عن الناس كافة مسلمهم وذميهم، فليس من المعقول أن يزيله عن المسلمين و يبقيه على أهل الذمة وهم رعيته مع الوصية بهم. فما أن يتولى و يبدأ في إزالة المظالم حتى كان أول مظلمة رفعها ــ كما رأينا فيما سبق ــ كانت لنصرانى على العباس بن الوليد(١). وما أن يستخلف حتى يشكو اليه نصارى الشام ما فعل الوليد

---

١ ــ انظر مبحث رد المظالم من هذه الرسالة.

بهم في كنيستهم(١). فيكتب الى عامله يأمره برد مازاده في المسجد عليهم ــ(لأن الكنيسة كانت في عهدهم). فكره أهل دمشق ذلك وقالوا: يهدم مسجدنا بعد أن أذَّنَّا فيه وصلينا و يرد بيعه؟: (وقد مر معنا كم تكلف بناء هذا المسجد من جهد ووقت ومال). وفيهم يومئذ سليمان بن حبيب المحاربى(٢) وغيره من الفقهاء، وأقبلوا على النصارى فسألوهم أن يعطوا جميع كنائس الغوطة التى أخذت عنوة وصارت في أيدي المسلمين على أن يصفحوا عن كنيسة يوحنا ويمسكوا عن المطالبة بها، فرضوا بذلك وأعجبهم. فكتب به الى عمر فسره وأرضاه(٣).

وهكذا حقق عمر عدالته في هذا مع أهل الذمة وقد رضى أن يهدم المسجد و يعيد الكنيسة لأنَّها في عهدهم.

و يأتيه عجم أهل دمشق يخاصمون حسان بن مالك في كنيسة كان فلان ــ من الأمراء ــ قد أقطعه إياها. فقال عمر: إن كانت من الخمس عشرة كنيسة التى في عهدهم فلا سبيل لك اليها وردها الى النصارى. فلما ولى يزيد بن عبد الملك ردها على بنى نصر وأخرج منها النصارى(٤).

مع أهل قنسرين

و يقول الوليد بن هشام المعيطى: ولانى عمر بن عبد العزيز قنسرين(٥)ــ وكانت صلحا ــ فشكا اليه أهل الذمة المسلمين ــ أنهم قد نزلوا منازلهم ــ فكتب إليَّ: أن انظر من كان في منازل أولئك الذين

---

١ ــ كان الوليد بن عبد الملك قد استولى على كنيسة يوحنا وادخلها في المسجد الاموى حينما وسعه وابتناه.

٢ ــ سليمان بن حبيب المحاربى كان قليل الحديث توفى سنة ١٢٦. الطبقات ٨/١٦٣.

٣ ــ فتوح البلدان ١٤٩.

٤ ــ الاموال ٢٢٣ وفتوح البلدان ١٤٧.

٥ ــ قنسرين مدينة كانت قريبة من حلب. فتوح ٧٦٨.

كانوا من أهلها حين صولحوا فأخرج من كان في منازلهم عنهم. قال: فنظرت فإذا أولئك قليل، فسألونى الكف عن ذلك فكففت و يقول أبو عبيد هنا: إنما حكم عمر بن عبد العزيز بكنائسهم ومنازلهم لأنّها من حقوقهم ودينهم مع الصلح(١).

مع أهل قبرس

وكان أهل قبرس على صلح منذ زمن معاو ية رضى الله عنه، وكانوا يدفعون كل عام مبلغ سبعة آلاف دينار، فلما ولى عبد الملك زاد عليهم ألف دينار فجرى ذلك الى خلافة عمر بن عبد العزيز فحطها عنهم. ثم لما ولى هشام بن عبد الملك ردها(٢).

وكانت أيلة صالحت رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام غزوة تبوك على كل حالم دينارا في السنة فبلغ ذلك ثلا ثمائة دينار، ولكن يظهر أن هذا المبلغ زيد عليهم في زمن بنى أمية فلما جاء عمر بن عبد العزيز كان لا يزداد ما يأخذه منهم على ثلا ثمائة دينار(٣).

بل إن عمر بن عبد العزيز لم يكتف بأن يرفع ما زيد على أهل الصلح و يردهم الى صلحهم الأ وَّل، بل إنه ترقى فوق ذلك في الرحمة والعدل درجات، إذ كان يرى أن القوم الذين صولحوا على مبلغ من المال ثم ضعفوا عن أدائه خفف عنهم بقدر احتمالهم.

مع أهل نجران

فقد كان أهل نجران صالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ألفى حلة ثم أجلاهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن الجزيرة وأسكنهم العراق والشام ــ لأنهم خالفوا نصوص شروط الصلح التى عقدوها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ ولما جاء عثمان رضى الله عنه شكوا له

---

١ ــ الاموال ٢٢٤.

٢ ــ فتوح البلدان ١٨٣.

٣ ــ فتوح البلدان ٧١.

ضعفهم وسوء حالهم فحط عنهم مائتى حلة(١)، فلما ولى معاوية أو يزيد ابن معاوية شكوا إليه تفرقهم وموت من مات منهم وإسلام من أسلم وأحضروه كتاب عثمان بن عفان بما حطهم من الحلل وقالوا إنما ازددنا نقصانا وضعفا. فوضع عنهم مائتى حلة تتمة أربعمائة حلة.

فلما ولى الحجاج بن يوسف العراق وخرج ابن الاشعث عليه اتهم الدهاقين بموالاته واتهمهم معهم فردهم الى ألف وثمان مائة حلة وأخذهم بحلل وَشْيٍ. فلما ولى عمر بن عبد العزيز شكوا اليه فناءهم ونقصانهم وإلحاح الأعراب بالغارة عليهم وتحميلهم إياهم المؤن المجحفة وظلم الحجاج إياهم، فأمر فأحصوا فوجدوا على العُشر من عدتهم الأ ولى — فقال: أرى هذا الصلح جزية عن رؤوسهم وليس هو بصلح عن أرضهم وجزية الميت والمسلم ساقطة، فألزمهم مائتى حلة قيمتها ثمانية آلاف درهم(٢).

وهكذا رفع عنهم عمر حيفاً طال أمده. ولكن لما ولى يوسف بن عمر العراق في أيام الوليد بن يزيد ردهم الى أمرهم الأ وَّل عصبية للحجاج(٣).

مع أهل لواتة

ومما أبطله عمر بن عبد العزيز بيع أهل لواتة أبناءهم ونساءهم في الجزية. فقد كتب في اللواتيات: أن من أرسل منهن شيئا فليس له من ثمنها شيء وهو ثمن فرجها الذى استحلها به. ومن كانت عنده امرأة منهن فليخطبها إلى أبيها وإلاّ فليردها الى أهلها(٤).

---

١ — فتوح البلدان ٧١.

٢ — فتوح البلدان ٧٦ فما بعدها.

٣ — فتوح البلدان ٨٠.

٤ — الأموال لأ بى عبيد ٢٦٦ وفتوح البلدان ٢٦٥.

ولم يكتف عمر بن عبد العزيز رحمه الله برفع المظالم عن أهل الذمة بل كان يحسن معاملتهم و يتقبل منهم ما لم يكن يتقبله من المسلمين رعاية لهم. فعن الأوزاعي: كان عمر بن عبد العزيز ينزل بأهل الذمة فيقدمون له الحلبة المنبوتة والبقول وأشباه ذلك مما كانوا يصنعون من طعامهم. فيعطيهم أكثر من ذلك و يأكل معهم فإن أبوا أن يقبلوا ذلك منه لم يأكل منه. فأما من المسلمين فلم يكن يقبل شيئا(١).

حسن المعاملة

تأمل قوله: فأما من المسلمين فلم يكن يقبل شيئا. فهو هنا يعامل أهل الذمة معاملة خاصة تطييباً لنفوسهم وجبرا لخواطرهم وإشعاراً لهم بحسن رعاية الخليفة لهم وأنه راع لهم أيضا وليس للمسلمين فحسب.

ويحاول رحمه الله أن يبطل كل ظلم يحس به أهل الذمة وخاصة إذا كان من صنائع الحجاج. إذ يقول نوفل بن أبى الفرات. كنت عاملا لعمر ابن عبد العزيز فكنت أختم على بيادر أهل الذمة، فجاءنى كتاب عمر أن لا تفعل فإنه بلغنى أنها كانت من صنائع الحجاج، وأنا أكره أن أتأسى به(٢).

من ظلم الحجاج

و يوصى قواد جيشه وعماله بأهل الذمة فيقول: «ونح منزلك عن قرى أهل الصلح ولا يدخلها أحد من أصحابك لسوقهم وحاجتهم إلا من تثق به وتأمنه على نفسه ودينه فلا يصيبوا ظلما ولا يتزودوا منها إثما، ولا يرزأون أحدا من أهلها شيئا إلا بحق. فإن لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها. فلا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح»(٢).

وصية بأهل الذمة

---

١ ــ الحلية ٣١٥ــ٣١٦/٥ وابن الجوزى ١٦٢.

٢ ــ الحلية ٣٠٦/٥ وابن عبد الحكم ٣٢ــ٧٣ ابن الجوزى ٨٨ ولكن قال عن مبشر بن أبى الفرات.

حتى أهل الحرب نالوا نصيبهم من عدالة عمر إذ يوصى قواده وجنوده: لا تقتلوا راهبا ولا أكارا(١). ولا تهدموا كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار ولا تحدثوا كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار(٢).

و يكتب الى عامله على الكوفة، انظر من كان عليه جزية فضعف عن أرضه فأسلفه ما يقوى على عمل أرضه فإنّا لا نريدهم لعام ولا لعامين(٣).

ثم يكتب الى عماله موصيا بأهل الذمة في الجباية «أن لا يباع لأهل الذمة آلة»(٤)ــ (أى حين استيفاء الجزية أو الخراج إذا لم يكن معهم نقد).

الوقف للنصارى

ويحرص أيضا على إعانتهم على البر والإحسان لملتهم وأهل دينهم فيسأل رحمه الله عن الذمى يوصى بالكنيسة يوقف وقفا من ماله للنصارى أو اليهود قال: يجوز ذلك(٥). فهو لا يمنعهم من أن يقفوا مالا أو عقارا لكنائسهم أو جماعتهم.

و يكتب مبينا لعماله والمسلمين. إن الذمى إذا أسلم والجزية في كفة الميزان فلا تؤخذ منه وإذا أسلم قبل السنة بيوم لا تؤخذ منه(٥).

فالإسلام أولا وقبل كل شيء والخلافة نيابة عن صاحب الشرع في الدعوة الى الله قبل أن تكون في جباية الأموال وتدبير أمر الدنيا.

اهل الذمة والجزية

ثم هو يعمم كتابا للأمصار فيقول: أما بعد فإن الله سبحانه إنما أمر أن تؤخذ الجزية ممن رغب عن الإسلام واختار الكفر عتيا وخسرانا مبينا،

---

١ ــ الخراج للقرشى ٤٨.
٢ ــ الاموال ١٣٨.
٣ ــ ابن عبد الحكم ٥٨.
٤ ــ الاموال ١٣٦.
٥ ــ الطبقات ٢٦٢/٥.

فضع الجزية على من أطاق حملها. وخل بينهم و بين عمارة الأ رض فإنَّ في ذلك صلاحا لمعاش المسلمين وقوة على عدوهم. وانظر من قبلك من أهل الذمة قد كبرت سنة وضعفت قوته و ولت عنه المكاسب فأجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه، فلو أن رجلا من المسلمين كان له مملوك كبرت سنه وضعفت قوته وولت عنه المكاسب كان من الحق عليه أن يقوته حتى يفرق بينهما موت أو عتق. وذلك أنه بلغنى أن أمير المؤمنين عمر مر بشيخ من أهل الذمة يسأل على أبواب الناس. فقال: ما أنصفناك إن كنا نأخذ منك الجزية في شبيبتك ثم ضيعناك في كبرك. ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه(١).

وهكذا كان عمر الثانى يقتدى بعمر الأ وَّل في نظرته لأهل الذمة وللاموال.

مع تجار أهل الذمة

و يكتب الى رزيق بن حيان ــ وكان على جواز مصر ــ من مر بك من أهل الذمة فخذ مما يديرون في التجارات من أموالهم من كل عشرين ديناراً فما نقص فبحساب ذلك حتى تبلغ عشرة دنانير، فإن نقصت ثلث دينار فلا تأخذ منها شيئا واكتب لهم بما تأخذ كتابا إلى مثله من الحول(٢).

ويجهل عمر بن عبد العزيز شيئا من أحكام أهل الذمة فلا يتسرع في الحكم وانما يسأل من عنده علم عن ذلك من فقهاء الأمة وعلمائها. فقد كان من أهل الذمة المجوس ــ عبدة النار ــ وكانوا يتزوجون أمهاتهم و بناتهم وذلك سائغ في ملتهم. فيستغرب عمر بقاء أولئك على هذا الأمر وكيف أن من قبله من الأئمة لم يمنعوهم من ذلك فيرسل الى الحسن

---

١ ــ الاموال ٦٣ــ٦٤ الطبقات ٥/٢٨٠.

٢ ــ الاموال ٧١٢: الخراج لابى يوسف ١٣٦ ولكنه قال زريق بن حيان.

البصرى يسأله: ما بال من مضى من الأئمة قبلنا أقروا المجوس على نكاح الأمهات والبنات؟ وذكر أشياء من أمرهم سماها. فكتب اليه الحسن: أما بعد فإنما أنت متبع ولست بمبتدع والسلام(١). (أى إنما تركهم السابقون لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم تركهم ذمة ودفعوا الجزية وترك لهم الإسلام حرية العقيدة والعبادة والتنظيم الأسرى مع وضوح بطلانها ومعارضتها السافرة لتعاليم الإسلام ولكن الحق أبلج **«لا إكراه في الدين»**(٢).

ولكن هل يكتفى عمر بن عبد العزيز بأهل الذمة الذين يعيشون في الدولة الإسلامية أن يرفع عنهم الحيف والظلم و يترك من هم خارج الدولة يتحكم فيهم الرؤساء والأمراء ولو لربطهم بالدولة الإسلامية؟.

إن الجيوش الإسلامية قبل عمر بن عبد العزيز كان قوادها يصالحون رؤوس أهل الحصن وقادتهم على ما تراضوا عليه دون علم بقية من في الحصن من الروم (أو غيرهم) ــ(أى أن القواد هم الذين كانوا يتحكمون في مصائر العامة، فهم يعقدون صلحا لا يعلم به أهل الحصن أو المدينة فتسرى عليهم أحكامه ولو لم يقبلوا به بعد ذلك، لأنَّ القائد أو الأمير وافق عليه.. ورأى عمر بن عبد العزيز بناء على مبدئه في حق تقرير المصير ــ كما رأينا قبلا ــ أن في هذا استبدادا من القواد وتحيفا على الرعية) فأمر أمراء جيوشه وقواده أن لا يعملوا به ولا يقبلوه ممن عرضه عليهم حتى يكتبوا كتابا و يوجهوا به رسولا وشهودا على جماعة أهل الحصن(٣).

مع اهل الصلح

حق تقرير المصير

و بذلك لا يكون لديهم حجة بعد ذلك في الانتقاض أو مخالفة العهود، وإذا حدث ذلك وعوقبوا لم يكونوا مظلومين.

---

١ ــ الاموال ٥٠ والخراج لابى يوسف ١٣٠.

٢ ــ سورة البقرة الآية ٢٥٦.

٣ ــ الاموال ٢٥٨.

بل إنّه حتى وهو يحتضر أراد إكرام أهل الذمة فاشترى قبره بدير سمعان من راهب ودفن بجوار الدير(١).

و يذكر الأ وزاعى أنه مر بقِسّرين إثر تشييع جنازة عمر فسأله أحد الرهبان أشهدت وفاة هذا الرجل؟ فأجابه نعم. فأرخى الراهب عينيه تبكيان سجاما، فقال له الإمام: ما يبكيك ولست من أهل دينه؟ أجاب الراهب والدموع تنهمر على خده وتبلل لحيته الوقور: إنى لست عليه أبكى ولكن أبكى على نور كان في الأ رض فطفىء(٢). وعن مجاهد أنه شهد وفاة عمر بن عبد العزيز فمر بعبادى أو نبطى وكان يثير على ثورين له ــ فحكى مثل حكاية الأ وزاعى(٣).

وحق لأهل الذمة أن يبكوه دما لا دمعا فحسب.

مع المستشرقين

ثم يأتى بعض المستشرقين فيتهمون عمر بن عبد العزيز بالتعصب والتضييق على النصارى وإكراههم على الدخول في الإسلام، فإن تيوفانس «في حوادث عام ٦٢١ من تاريخ الخليقة. يذكر في ذلك ما يأتى: ولما حدث في تلك السنة زلزال كبير في الشام حرم عمر النبيذ في المدن وأكره النصارى على الدخول في الإسلام، وكان من فعل ذلك رفع عنه الجزية، أما من لم يفعل فإنه قتلهم وقد استشهد كثيرون، وأمر بألاّ تقبل شهادة نصرانى على عربى، وكذلك وجه الى القيصر ليو كتابا بين فيه عقيدة الإسلام أملا في أن يقنعه بالدخول فيه(٤).

و يزعم ديل في كتابه عن تاريخ إفريقية: إن عمر بن عبد العزيز أمر

---

١ ــ الطبقات ٥/٢٩٩.
٢ ــ ابن الجوزى ٢٨٩ وحلية الاولياء ٥/٣٣٦.
٣ ــ ابن الجوزى ٢٨٩.
٤ ــ الدولة العربية ٢٨٩.

الكاثوليك في إفريقية أن يدخلوا في الإسلام أو يرحلوا عن البلاد(١).

مع د.سيدة الكاشف

وتقول الدكتورة سيدة الكاشف: وكان أهل الذمة يلقون في العصر الأموى معاملة طيبة. و يلون بعض وظائف الدولة ــ ثم تقول: الى أن كان عصر عمر بن عبد العزيز فتغير وضعهم بعض الشيء فإن عمر بن عبد العزيز لم يضطهدهم ولكنه كان يعمل على أن تكون الأداة الحكومية إسلامية بحته، وعلى أن ينتشر الإسلام بين أهل الذمة الى أبعد الحدود فوضع على الذميين قيودا نسبت الى عمر بن الخطاب، وذلك بأن منع تقلدهم وظائف الحكومة ومنعهم لبس العمامة وفرض عليهم زيا خاصا. الى أن تقول:

وقد أقبل سكان البلاد المغلوبة على اعتناق الإسلام ولا سيما بعد أن أمر عمر بن عبد العزيز برفع الجزية عمن يعتنق الإسلام، و بإقصاء أهل الذمة عن مناصب الحكومة و بفرض زى خاص على أهل الذمة(٢).

الرد

فالدكتورة كما رأينا من النص تزعم أن في عهد عمر بن عبد العزيز تغير وضع أهل الذمة بعد أن كانت معاملتهم طيبة. ولكنها تستدرك بأنه لم يضطدهم ولكنه ضيق عليهم، إذ وضع عليهم قيودا ومنعهم من تولى وظائف الدولة ورفع عمن أسلم منهم الجزية وعمل على نشر الإسلام بينهم. وذلك بعد أن ذكرت أن أهل الذمة كانوا يلقون في العصر الأموى قبل عمر معاملة طيبة.

وأريد أن أتساءل هل كانت معاملة الحجاج في العراق لهم طيبة؟ وهل كانت معاملة عبد الله بن عبد الملك وأسامة بن زيد التنوخى في مصر لهم طيبة؟ وهل كانت معاملة أمراء البيت الأموى في الشام لهم أيضا

---

١ ــ المرجع السابق هامش نفس الصفحة.
٢ ــ الوليد بن عبد الملك ٢١٥ــ٢١٦.

طيبة؟ أم لأن بعضهم تولى وظائف في الدولة لا ينبغى لهم أن يتولوها يقال: إن معاملتهم كانت طيبة؟ ولكن ماذا فعل عمر بن عبد العزيز حتى يقال: إن المعاملة قد تغيرت، وهى تعنى أنّها تغيرت الى الأسوأ لا الى الأحسن؟.

الذى فعله عمر بن عبد العزيز: أنه نظر أنّ هناك قطاعا كبيرا من أهل الذمة تولوا مناصب تحكموا من خلالها في المسلمين تتعلق بمواريث المسلمين والأموال والجباية، فأبى عليهم هذا وعزلهم، فهل يعاب عليه هذا؟ وفي هذا يقول الاستاذ عبد العزيز سيد الأهل: و يبدو أن زيف التاريخ على عمر فيما يتصل بأهل الذمة جاء من أنه كان قد نزع قبط مصر عن كورها وكانت في أيديهم حسبة المواريث، ولما كانت حسبة المواريث عملا يتصل بالدين فقد نزعها عمر منهم واستعمل عليها المسلمين، لأنه أشبه بعمل القاضى منه بعمل المحاسب. ولما لم يكن هناك تشريع للمواريث بين النصارى فقد جعلهم يتوارثون كما يتوارث أهل الإسلام. أما ماعدا ذلك فلا(١).

ما أمر به عمر

ومما يؤكد هذا الفهم النصوص التالية: كتب عمر بن عبد العزيز الى عماله نسخة واحدة: أما بعد فان الله عز وجل أكرم بالإسلام أهله وشرفهم وأعزهم وضرب الذلة والصغار على من خالفهم، وجعلهم خير أمة أخرجت للناس، فلا تولين أمور المسلمين أحدا من أهل ذمتهم وخراجهم فتتبسط عليهم أيديهم وألسنتهم فتذلهم بعد أن أعزهم الله، وتهينهم بعد أن اكرمهم الله تعالى، وتعرضهم لكيدهم والاستطالة عليهم، ومع هذا فلا يؤمن من غشهم إياهم، فإن الله عز وجل يقول: «**لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ**»(٢) و«**لاَ تَتَّخِذُوا اليَهُودَ**

---

١ ــ الخليفة الزاهد ١٨٤.
٢ ــ آل عمران الآية ١١٨.

وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُم أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ»(١)، والسلام(٢).

و يـقـول أيضا معللا عزلهم عن الجباية والكتابة: «إن المسلمين كانوا فـيـمـا مضى إذا قدموا بلدة فيها أهل الشرك يستعينون بهم لعلمهم بالجباية والـكـتابة والتدبير، فكانت لهم في ذلك مدة فقد قضاها الله بأمير المؤمنين، فـلا أعـلـم كـاتـبـا ولا عاملا في شيء من عملك على غير دين الإسلام إلا عزلته واستبدلت مكانه رجلا مسلما(٣).

ولماذا يلام عمر بن عبد العزيز حينما يعزل غير المسلمين من النصارى والمـجـوس والـيـهود وغيرهم ــ عن تولى المناصب الحساسة في الدولة ويمدح عـبـد الملك والحجاج لعزلهم غير العرب عن الدواو ين حين تعريبها؟ وهل كـان عـمـل عـبـد المـلك والحجاج إلا لصالح الدولة لأنها عربية اللسان؟ وهل كان عمل عمر بن عبد العزيز إلا لصالح الدولة والأمَّة لأنها إسلامية الديـن؟ لمـاذا يمدح مـن يـعـرب الـدواو يـن و يذم من يُمَسْلِمُها؟ أيكون اللسـان أغلى من العقيدة؟ لقد عزل عمر بن عبد العزيز كل عامل لا يثق في ديـنه أو إخلاص عقيدته واستعمل أخلص من قدر عليه وأصلحه دينيا، فهو إذا كان قد عزل مسلمين لأنه رأى أن هناك من هم أصلح منهم دينيا أولا وتـقوى وصلاحا، فلم يلام إذا أمر بعزل غير مسلم عن أمور المسلمين؟ أليـسـت هـذه دعـوى صليبية للطعن في خلفاء الإسلام الذين يريدون أن يـعـودوا بـالخلافـة الى وضعها الشرعى ومهمتها الحقيقية؟ ثم إرهاب كل حـاكـم مـسـلـم يـريد أن يعيد للإسلام عزته وللمسلمين كرامتهم وقوتهم بمـهـاجمة أعماله وادعاء رجعيته وتأخره وعصبيته واضطهاده لأهل الأديان

---

١ ــ المائدة الآية ٥١.

٢ ــ الكامل في التاريخ ٥/٦٦.

٣ ــ ابن عبد الحكم ١٣٥ــ١٣٦.

الأخرى؟ فأصبحت الحال كدعوى اللاسامية التى يطلقها اليهود ضد كل من يحاول كشف سياساتهم الخبيثة ومهاجمة أعمالهم الدنيئة وفضح ألاعيبهم المخزية المدمرة، وهم لو فعلوا ذلك ولا يزالون يفعلونه في الأقطار التى يسيطرون عليها لما ذكرهم أحد بسوء ولامتدِحَت أعمالهم باسم الوطنية والحرية والإخلاص الخ ما هنالك من ألقاب. والمسلمون يضطهدون و يذبحون و يقتلون و يشردون ولا ينطلق لسان بكلمة احتجاج، وبمجرد أن يحاول حاكم مسلم أن يطبق قاعدة شرعية أو أمرا دينيا يقيمون الدنيا و يقعدونها بالتهم الملفقة والدعاوى المبطلة، ومع الأسف يجدون من بين المسلمين المخدوعين من يتابعهم على ذلك التهجم والادعاء.

و يأخذون على عمر بن عبد العزيز أنه ضيق على النصارى في ملابسهم وهيئاتهم حيث ورد قوله لعماله: «مروا من كان على غير الإسلام أن يضعوا العمائم و يلبسوا الأكسية ولا يتشبهوا بشيء من الإسلام، ولا تتركوا أحداً من الكفار يستخدم أحدا من المسلمين(١).

نهيه عن تشبه النصارى بالمسلمين

و يكتب الى عامل له: أما بعد فلا تدعن صليبا ظاهرا إلاّ كُسِر ومُحِق، ولا يركبن يهودى ولا نصرانى على سرج، وليركب على إكاف ولا تركبن امرأة من نسائهم على رحالة وليكن ركوبها على إكاف، تقدم في ذلك تقدما بليغا وامنع من قبلك، فلا يلبس نصرانى قباء ولا ثوب خز ولا عصب، وقد ذكر لى أن كثيرا ممن قبلك من النصارى قد راجعوا لبس العمائم وتركوا المناطق على أوساطهم واتخذوا الجمام والوفر (أى أطالوا شعورهم) وتركوا التقصيص، ولعمرى لئن كان يصنع ذلك فيما قبلك إن ذلك بك لضعف وعجز ومصانعة، وإنَّهم حين يراجعون ذلك ليعلموا ما أنت فانظر كل شيء نهيت عنه فاحسم عنه من فعله والسلام(٢).

---

١ ــ العقد الفريد ٤/٤٣٦.

٢ ــ الخراج لابى يوسف ١٢٧.

نهيه عن دخول المساجد لغير المسلمين

وكتب «أن امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين واتبع نهيه قوله تعالى «**إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ**»(١)(٢).

نهيه عن المتاجرة بالخمر

وكتب الى عبد الحميد بن عبد الرحمن وهو عامله على الكوفة «أن لا تحمل الخمر من رستاق الى رستاق وما وجدت منها في السفن فصيره خلا. فكتب عبد الرحمن الى عامله بواسط محمد بن المنتشر بذلك فأتى السفن فصب في كل راقود (وعاء الخمر) ماء وملحا فصيره خلا(٣).

ففي النصوص السابقة نرى نوعا من التنظيم يتعلق بسلامة الأفراد طبقا لشريعة الله، وليس فيها خروج عن العهود التى أعطيت لأهل الذمة، فمن حيث تحديد نوع الملابس أو كيفية الحلق أو الركوب فإن ذلك منظور فيه إلى سلامة الدولة المحاطة بالأعداء وحرصا في نفس الوقت على أهل الذمة أن يصيب أحدهم مكروه ولو خطأ، ــ فإن المسلمين مطالبون بفرائض وواجبات عليهم أن يؤدوها، ولم يكن هناك بطاقات وصور ومعلومات تحدد هوية كل شخص، فإن لم يتميز الأشخاص بملابسهم وهيآتهم لوقع اللبس في شأنهم، كمن يقف خارج المسجد مثلا والصلاة قائمة وهو يلبس ملابس المسلمين فيوجب ذلك المساءلة والاتهام، فأما إذا كان يلبس ملابس أهل الذمة فلا يُتَّهَمُ. وكذلك النساء، وقد أمرت النساء المسلمات في القرآن الكريم أن يتميزن بملابسهن عن ملابس الإماء ــ حتى «**يُعْرَفْنَ فَلاَ يُؤْذَيْنَ**»(٤)ــ وحتى في العهود الحديثة فالجيش له ملابسه الخاصة ولا يجوز لأحد أنْ يتشبه به في

---

١ ــ سورة التوبة الآية ٢٨.

٢ ــ الحلية ٥/٣٢٥.

٣ ــ الاموال ١٤٩.

٤ ــ الاحزاب الآية ٥٩ «يا أَيُّها النَّبِيُّ قُلْ لأزواجكَ وَ بَناتِكَ ونِساءِ المُؤمِنِيْنَ يُدْنِينَ عَلَيهِنَّ مِنْ جَلاَبِيبِهِنَّ ذلِكَ أدنى أنْ يُعْرفنَ فَلاَ يُؤذَيْنَ وَكان الله غفوراً رَحِيْماً»

الملابس والهيئات والشارات، والشرطة كذلك وتوقع عقوبة موجعة على من يتشبه بأولئك.

طهارة المساجد

وأما عن طهارة المساجد فإن المسجد مكان مقدس لا يجوز أن يدخله الجنب أو الحائض والذمى لا يغتسل من جنابة ولا حيض فكيف يُسْمح له بدخوله المسجد؟، وحتى لو قلنا إن النجاسة معنو ية فإن الذمى الذى يدخل المسجد لا يدخله بالاحترام الواجب، وهى على كل حال مسألة خلافية وهذا رأى عمر فيها.

بيع الخمر

وأما منعه أهل الذمة من المتاجرة بالخمر فإن الإسلام حرم الخمر على المسلمين شربا واقتناء و بيعا وشراء، وأما أهل الذمة فقد تركهم الإسلام وما يدينون، فسمح لهم بشرب الخمر فقط لأنها مباحة في دينهم، وأما المتاجرة فيها فقد منعوا فيها بنص شروط عهودهم، ومن تاجر فيها خرج من عهده وسعى لإفساد أخلاق الناس وعقولهم، ولكن لما كان الإسلام يعتبر الخمر والخنزير مالا متقوماً عند أهل الذمة لم يأمر بإراقتها لهم كما هو الحال مع المسلم لو وجد بحيازته خمر ــ بل يصيرها العامل خلا ليستفاد منها بشيء آخر حلال.

وأما تهم تيوفانس ــ وديل ــ فقد كفانا الرد عليها فلهاوزن في معرض بيانه لأعمال عمر بن عبد العزيز يقول: وفي الذى يذكره تيوفانس خلط بين باطل وحق فأما الحق، فهو أن عمر بن عبد العزيز كان مسلما متحمسا، وأن النصارى أحسوا بذلك ولكن عمر لم يكره النصارى على الدخول في الإسلام مهددا إياهم بالقتل، لأنه لو كان فعل ذلك لكان فيه اعتداء على الحق القائم الذى ضمنه الإسلام للنصارى، وهذا ما لم يكن من عمر لأنه مسلم حق. وهو فيما يتعلق بالنصارى قد التزم حدود الشرع التزاما تاما، وإن كان الأمر ربما بدا في أعين النصارى على غير ذلك. وقد

حمى عمر للنصارى ملكيتهم لكنائسهم القديمة التى ضمنها لهم الصلح، ولم يكن يمنع إلا بناء كنائس جديدة ــ و بعد أن يذكر محاولة عمر رد كنيسة القديس يوحنا لولا رضاء النصارى بتركها مقابل ترك الكنائس التى خارج دمشق يقول ــ وكان القانون الذى طبقه عمر هنا هو على كل حال القانون الشرعى الذى لا شك فيه، وكان لا يمكن أن يفعل غير ذلك إلا إذا تنكر للإسلام. أما الأحوال التى كان الأمر فيها أمر المال فقد كان عمر بن عبد العزيز أوسع صدرا. ثم يذكر معاملة عمر لأهل أيلة وقبرس والنجرانية، ثم يذكر كتبه الى ولاته بحسن معاملة الرعايا غير المسلمين والعدل معهم(١).

وختام المبحث هذا حادثة تمثل عدالة عمر مع أهل الذمة ورحمته بهم، «أتى رجل نصرانى عمر بن عبد العزيز وادعى على هشام بن عبد الملك أن في يده ضيعة له. فقال عمر لهشام قم مع خصمك. قال: بل أوكل وكيلا بخصومته ــ (أنف أن يقف مع خصمه على قدم المساواة وهو ابن عبد الملك وخصمه ذمى نصرانى). قال عمر: لا. فجلس بين يديه ــ (لأن الحق أقوى منه) ــ فجعل هشام ينتهر خصمه. فقال له عمر: ياأحول عندى تنتهره؟ إن عدت عاقبتك. ــ(لاحظ الخطاب بيا أحول تصغيرا له في مجلس القضاء لانتهاكه حرمته)ــ فأدعى النصرانى فقال هشام: ضيعتى وقطيعة أقطعينها عبد الملك ومعى سجل من الوليد وسليمان. ــ(وهذا دليل على بعض الظلم الذى كان يصيب بعض أهل الذمة من الامراء). فقال لابنه عبد الملك بن عمر: يابنى انظر في سجلاته وأمره فنظر فقال: أرى أمر النصرانى قويا. وحجته غالبة وحق الله أولى ما أوثر. فقال عمر: حرق سجلاته. فاحرقها ورد على الرجل ضيعته(٢).

---

١ ــ الدولة العربية ٢٩١ــ٢٩٢.

٢ ــ دراسات في تاريخ الامويين ١/٦٥٩ عن العيون والحدائق ٣/٦٠.

وهل من يظلم أهل الذمة يبكيه رهبانهم ــ كما مر معنا ــ و يأسى عليه امبراطور القسطنطينية؟.

شهادة امبراطور القسطنطينية

فيقول: إن الرجل الصالح إذا كان بين القوم السوء لم يترك بينهم إلاّ قليلا حتى يخرج من بين أظهرهم(١).

وفي رواية ــ قال ملك الروم ــ لأحسب أنه لو كان أحد يحيى الموتى بعد عيسى ابن مريم لأحياهم عمر بن عبد العزيز، ولست أعجب من الراهب الذى أغلق بابه ورفض الدنيا وترهب وتعبد ولكن أعجب ممن كانت الدنيا تحت قدميه فرفضها وترهب(٢).

ويحدث مالك بن أنس أن صالح بن على ــ قائد جيوش العباسيين في الشام سأل عن قبر عمر بن عبد العزيز فلم يجد أحداً يخبره حتى دُلّ على راهب فأتى فسأل عنه فقال: أقبر الصديق تريد ون؟ هو في تلك المزرعة(٣).

---

١ ــ ابن عبد الحكم ١٤٤.

٢ ــ ابن الجوزى ٢٨٩.

٣ ــ ابن الجوزى ٢٩٠.

المبحث الثالث: من أحكام عمر المالية

عمر بن عبد العزيز معلم العلماء وفقيه الفقهاء، دارسا لكتاب الله محافظا على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم له نظرات وآراء فقهية صائبة، وخاصة فيما يتعلق بالأموال. فهو بحق التلميذ الأمين لعمر بن الخطاب رضى الله عنه فهو السائر على درب المنفذ لقضاياه والمجدد لسياسته. وقد رأيت أن أذكر في هذا المبحث بعضا من قضاياه المالية وما يتصل بها وآراءه فيها، مع محاولة المقارنة إن كان في المسألة خلاف مع ما فعله عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

احياء الموات

عن قتادة(١) عن عمر بن عبد العزيز ــ «من غلب الماء على شيء فهو له»(٢) وهذا متفق عليه بعد أن لا يكون فيه ملك لإنسان»(٣).

وعن سليمان بن داود الخولانى: أن عمر بن عبد العزيز: كان يقضي في الرجل إذا أخذ الأرض فعمرها وأصلحها ثم جاء صاحبها يطلبها، أنه يقول لصاحب الأرض: ادفع الى هذا ما أصلح فيها فإنما عمل لك، فإن قال: لا أقدر على ذلك قال للآخر: ادفع اليه ثمن أرضه.

وهذا عين ما فعله عمر بن الخطاب رضى الله عنه «أن رجلا أحيى أرضا مواتا فغرس فيها وعَمَرَ، فأقام رجل البينة على أنها له، فاختصما الى عمر بن الخطاب. فقال لصاحب الأرض، إن شئت قومنا عليك ما أحدث هذا فأعطيته إياه، وإن شئت أن يعطيك قيمة أرضك أعطاك(٤).

---

١ ــ قتادة بن دعامة السدوسى.

٢ ــ الاموال ٤٠٢، الخراج للقرشى ٨٨.

٣ ــ الخراج لابى يوسف ٩٢.

٤ ــ الخبران كلاهما الاموال ٤٠٧ والخراج للقرشى ٨٨، ٩١.

وعن حكيم بن رُزَيق ــ(صححه أحمد شاكر رُزَيق بن حكيم)ــ قال: قرأت كتاب عمر بن عبد العزيز الى أبى: أن من أحيا أرضا ميتة ببنيان أو حرث ــ ما لم تكن من أموال قوم ابتاعوها من أموالهم أو أحيوا بعضاً وتركوا بعضا ــ فأجز للقوم إحياءهم الذى أحيوا ببنيان أو حرث(١).

وهكذا يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**من أحاط حائطا على شيء فهو له**»(٢) وكذلك يروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه. لكن «بدون ذكر بنيان أو حرث»(٢).

وعن خالد الحذاء عن عمر بن عبد العزيز: أنه كتب اليه في رجل اشترى دارا ــ فبناها، ثم جاء رجل فاستحقها فكتب اليه: أن تُقَوَّم العرصة والبناء، فإن شاء صاحب العرصة(٣) أخذ البناء، وإن شاء أخذ قيمة العرصة(٤). وهكذا يروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فيمن غرس نخلا في أرض قوم براح، فاختصموا الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ــ فقال لأصحاب الأرض: اعطوهم قيمة النخل وخذوا النخل. فإن أبيتم دفع إليكم أصحاب النخل قيمت الأرض براحا(٥).

حريم الآبار

وعن أبى الزناد عن عمر بن عبد العزيز قال: حريم كل بئر عادية من بئر الماشية خمسون ذراعا في كل ناحية سواء فيها، وحريم كل بئر محدثة غير عادية من بئر الماشية خمسة وعشرون ذراعا(٦).

والأصل فيه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى رواه إسماعيل بن أمية عن الزهرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه قال:

---

١ ــ الاموال ٤٠٩ الخراج للقرشى ٨٨.
٢ ــ الخراج للقرشى ٨٨.
٣ ــ العرصة ــ الساحة ليس فيها بناء.
٤ ــ الخراج للقرشى ٩١.
٥ ــ الخراج للقرشى ٩١.
٦ ــ المرجع السابق ١٠٣.

«حريم البئر العادى خمسون ذراعا وحريم البئر البدى خمسة وعشرون ذراعا». وقد تعقب المرحوم الشيخ أحمد محمد شاكر هذا الحديث ورماه بالضعف لأن في اسناده أبا حماد الحنفى وهو ضعيف. و يقول الدار قطنى: الصحيح من الحديث إنه مرسل عن ابن المسيب ومن أسنده فقد وهم(١). والمرسل في الأموال قال سعيد بن المسيب: **«حريم البئر البدى خمس وعشرون ذراعا من نواحيها كلها وحريم البئر العادية خمسون ذراعا من نواحيها كلها»**(٢). وعن يحيى بن سعيد مثله(٣).

بيع الماء

وعن أبى الزناد عن عمر بن عبد العزيز أنه قال: من جلا عن ماء ماشية فباع ذلك الماء فلا جواز لبيعه، ولكن ذلك الماء لأ ولى الناس بالبائع بغير ثمن، فإن رجع البائع فهو أحق بمائه(٤). ولعله استند في ذلك الى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم «أنه نهى عن بيع الماء»(٥).

زكاة المعادن

وعن عبد الله بن أبى بكر(٦): أن عمر بن عبد العزيز أخذ من المعادن الزكاة(٧).

وعنه أيضاً: أن عمر بن عبد العزيز كتب: أن خذ من المعادن الصدقة، ولا تأخذ منها الخمس(٧).

يقول أبو عبيد: وهذا رأى مالك وأهل المدينة(٨)، وأما الآخرون فيرون المعدن ركازا ويجعلون فيه الخمس بمنزلة المغنم(٨) و يقول أبو

---

١ ــ الخراج للقرشى ص١٠٣.
٢ ــ الاموال ٤١٠.
٣ ــ نفس المرجع ٤١١.
٤ ــ الخراج للقرشى ١٠٦.
٥ ــ الاموال ٤١٥ ـ رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.
٦ ــ عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم.
٧ ــ الاموال ٤٧١، الطبقات ٥/٢٦٠.
٨ ــ الاموال ٤٧٢.

يوسف: «في كل ما أصيب من المعادن من قليل أو كثير الخمس»ــ ليس هذا على موضع الزكاة إنما هو على موضع الغنائم(١).

وعن يونس بن عبيد قال: كتب عمر بن عبد العزيز الى عامله على عمان: أن لا يأخذ من السمك شيئا حتى يبلغ مائتى درهم. قال عبد الرحمن بن مهدى راوى الخبر: ولا أعلمه إلا قال: فإذا بلغ مائتى درهم فخذ منه الزكاة(٢).

زكاة السمك

و يقول أبو عبيد هنا: يذهب عمر ــ فيما نرى ــ الى أن ما أخرج البحر بمنزلة ما أخرج البر من المعادن، وكان رأيه في المعادن الزكاة، وقد ذكرنا ذلك عنه فشبهه به، وليس الناس في السمك على هذا. ولا نعلم أحدا يعمل به(٣).

وهنا يقول الاستاذ محمد خليل الهراس محقق الكتاب معقبا: لعله اعتبره من عروض التجارة والأمر فيه متوجه الى الصيادين الذين يحترفون مهنة الصيد، وهو على كل حال رأى له قيمته، وله وجه لاسيما في بلاد كل تجارتها السمك(٣).

الصدقة وأين تصرف

وعن المبارك بن فضالة قال: كتب عمر بن عبد العزيز الى عدى بن أرطاة الفزارى عامله على البصرة: أما بعد فإنى كتبت الى عمرو بن عبد الله أن يقسم ما وجد بعُمان من عشور التمر والحب في فقراء أهلها ومن سقط إليها من أهل البادية ومن أضافته إليها الحاجة والمسكنة، وانقطاع السبيل. فكتب الى أنه سأل عاملك قبله عن ذلك الطعام والتمر فذكر أنه قد باعه وحمل اليك ثمنه، فاردد الى عمرو ما كان حمل اليك عاملك على

---

١ ــ الخراج لابى يوسف ٢١.

٢ ــ الاموال ٤٨٢.

٣ ــ الاموال ٤٨٢ والهامش.

عمان من ثمن التمر والحب ليضع ذلك في المواضع التى أمرته بها و يصرفه فيها إن شاء الله والسلام(١).

وعن سفيان بن سعيد: أن زكاة حملت من الرى الى الكوفة. فردها عمر بن عبد العزيز الى الرى(٢). وعن ابن جريج قال: كتب عمر بن عبد العزيز الى عماله «أن ضعوا شطر الصدقة ــ قال أبو عبيد: يعنى في مواضعها ــ وابعثوا إلىّ بشطرها: قال: ثم كتب في العام المقبل «أن ضعوها كلها»(٣). والأصل في هذا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم **«تؤخذ من أغنيائكم فترد في فقرائكم»** في وصيته لمعاذ(٤). أما إذا استغنوا فيجوز نقلها كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لابن أبى ذباب، و بعثه بعد عام الرمادة فقال: اعقل عليهم عقالين فاقسم فيهم أحدهم وائتنى بالآخر(٥).

والأصل في ذلك فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما قال لقبيصة بن المخارق في الحمالة «أقم حتى تأتينا الصدقة، فإما أن نعينك عليها وأما أن نحملها عنك»(٦). فقد كانت الصدقات أو مازاد منها عن حاجة أهلها ترد الى المدينة فيضعها الرسول صلى الله عليه وسلم فيمن شاء من أهلها.

صدقة كل شيء منه

وعن ابن أبى نجيح عن عمر بن عبد العزيز أنه كتب في الصدقة: يؤخذ البرنى من البرنى واللون من اللون ولا يؤخذ البرنى من اللون ولا اللون من البرنى، وأنْ يؤخذ من الجرين ولا يضمنوها(٧).

---

١ ــ فتوح البلدان ٩٤.
٢ ــ الاموال ٧٨٣.
٣ ــ نفس المرجع ٧٨٢.
٤ ــ الاموال ٤٨٢ والهامش.
٥ ــ نفس المرجع ٧٨٩.
٦ ــ نفس المرجع ٧٨٨.
٧ ــ الخراج للقرشى ١٢٦.

وعن سماك بن الفضل عن عمر بن عبد العزيز قال: وليس في الخيل السائمة زكاة(١).

الخيل

وهو موافق لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى رواه عليٌّ كرم الله وجهه عفونا لكم عن صدقة الخيل والرقيق(٢).

وعن طلحة بن أبى سعيد أن عمر بن عبد العزيز كتب وهو خليفة: أن تؤخذ الصدقة من الإبل التى تعمل في الريف، قال: حضرت ذا وعاينته من كتاب عمر بن عبد العزيز(٣).

صدقة العوامل

وعن يزيد بن أبى حبيب عن عمر بن عبد العزيز قال: ليس في البقر العوامل صدقة(٤).

والأصل في ذلك حديثين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم رواهما عمرو بن دينار وجابر بن عبد الله ــ رواهما ابن أبى شيبة ــ **«لا صدقة على مثيرة»**(٥).

وكان مالك يرى أن فيها صدقة(٦) وأخذ الزكاة من الإبل العوامل. هو رأى الليث بن سعد ومالك بن أنس وربيعة ويحيى.

وأما أهل العراق وسفيان والحسن البصرى فلم يفرقوا بين الإبل والبقر العوامل فكلها ليست فيها صدقة. وقد قال الحسن البصرى ليس في الإبل العوامل والبقر العوامل صدقة(٧) ــ يقول أبو عبيد: لذكر ــ قيد ــ السائمة في حديثين ــ ذكرهما(٧).

---

١ ــ الاموال ٦٣٢ ــ رواه ابن أبى شيبة.
٢ ــ الاموال ٦٢٨ والخراج لابى يوسف ٧٧.
٣ ــ الاموال ٥١٩.
٤ ــ نفس المرجع ٥٢٥.
٥ ــ الاموال ٥٢٦.
٦ ــ نفس المرجع ٥٢١، الخراج لابى يوسف ٧٧.
٧ ــ نفس المرجع ٥٢٠ــ٥٢١.

وعن ابن شهاب أن عمر بن عبد العزيز كتب: أن تؤخذ صدقة الجواميس كما تؤخذ صدقة البقر(١)، وكذلك يروى عن الحسن، وكذلك عند مالك بن أنس. وزاد: والبختاتى من الإبل وعرابها سواء والضأن والمعز في الغنم سواء(١).

الجواميس

وعن ابن شهاب أن عمر بن عبد العزيز كتب بمثل ذلك سواء ــ يشير إلى حديث روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في زكاة البقر أنه جعل «**في كل أربعين بقرة مسنة وفي كل ثلاثين تبيعا جذعا**»(٢).

وعن ابن شهاب أيضا: أن عمر بن عبد العزيز كتب: أن ليس في الأوقاص شيء(٣). وهذا متابع لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى رواه يحيى بن الحكم، «**أنَّ الأوقاص لا صدقة فيها**»(٣).

زكاة الأوقاص

وعن قطن بن فلان قال: مررت بواسط زمن عمر بن عبد العزيز فقالوا: قرىء علينا كتاب أمير المؤمنين «أن لا تأخذوا من أرباح التجار شيئا حتى يحول عليها الحول».

أرباح التجارة والمال المستفاد

وعن ابن عون قال: أتيت المسجد وقد قرىء الكتاب. فقال صاحب لى: لو شهدت كتاب عمر بن عبد العزيز في أرباح التجار أن لا يعرض لها حتى يحول عليها الحول.

وفي الحاشية عن حميد: كتب عمر بن عبد العزيز أيما رجل أفاد مالا فلا زكاة عليه حتى يحول عليه الحول(٤). وهو في ذلك مستند الى أحاديث

---

١ ــ الاموال ٥٣١. ٢ ــ الاموال ٥٢٤.
٣ ــ الاموال ٥٣٠ والاوقاص ما زاد عن النصاب.
٤ ــ الاموال ٥٦٩.

وردت عن علي وابن عمر، حيث ورد عن علي رضي الله عنه قوله «ليس في المال المستفاد زكاة حتى يحول عليه الحول» وعن ابن عمر مثله(١). زكاة التجارات

وعن رزيق بن حيان الدمشقي ذكر: أن عمر بن عبد العزيز كتب اليه: أن انظر من مر بك من المسلمين فخذ مما ظهر من أموالهم مما يديرون في التجارات من كل أربعين ديناراً، وما نقص فبحساب ذلك حتى تبلغ عشرين ديناراً، فإن نقصت ثلث دينار فدعها(٢).

ـ وهذا أقل نصاب الذهب عشرون دينارا، ووزن الدينار كان مثقالا.

وهو أيضا متبع فعل عمر حيث رواه عنه أنس بن مالك رضي الله عنه(٣) وعلى(٤) أيضاً، والأصل في ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وفعله.

زكاة الدين وعن ميمون بن مهران قال: كتب إليَّ عمر بن عبد العزيز في مال رده على رجل فأمرني أن آخذ منه زكاة ما مضى من السنين ثم أرد فني كتابا «أنَّه كان مالا ضمارا». (أي معدوماً)ـ فخذ منه زكاة عامه(٥). وقوله رحمه الله هنا أحد أقوال خمسة في زكاة الدين ذكرها أبو عبيد في كتابه ص٥٨٧ وما بعدها.

الحجز عند المنبع وقال يزيد بن يزيد: كان عمر بن عبد العزيز إذا أعطى الرجل عمالته أخذ منها الزكاة، واذا رد المظالم أخذ منها الزكاة، وكان يأخذ الزكاة من الأعطية إذا خرجت لأصحابها(٦).

وهذا معروف من فعل أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم(٧)

---

١ ـ الأموال ٥٦٣ والحديث الأول رواه أبو داود وأحمد والدار قطني والحديث الثاني رواه الدار قطني وابن أبي شيبة.

٢ ـ الاموال ٥٧٦.

٣ ـ نفس المرجع ٥٧٧.

٤ ـ نفس المرجع ٥٧٥.

٥ ـ الاموال ٥٩٠ الطبقات ٥/٢٥٢.

٦ ـ الاموال ٥٩٠ الطبقات ٥/٢٥٢.

٧ ـ الاموال ٥٦٣.

جميعا وكذلك كان يفعل عبد الله بن مسعود(١).

زكاة العسل

وعن خصيف: ان عمر بن عبد العزيز رأى في العسل العشر(٢)، وأنّه كتب الى عامله على مكة والطائف «إنَّ في الخلايا صدقة فخذوها منها»(٦).

وهذا رأى عمر الذى رواه عنه أبو يوسف قال: كتب أمير الطائف الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه «أن أصحاب النحل لا يؤدون الينا ما كانوا يؤدون الى النبى صلى الله عليه وسلم و يسألون مع ذلك أن نحمى لهم أوديتهم فأكتب الى برأيك في ذلك» فكتب اليه عمر: إنْ أدوا اليك ما كانوا يؤدونه الى النبى صلى الله عليه وسلم فاحم لهم أوديتهم. وإن لم يؤدوا اليك ما كانوا يؤدونه الى النبى صلى الله عليه وسلم فلا تحم لهم» قال: وكانوا يؤدون الى النبيّ صلى الله عليه وسلم من كل عشر قرب قربة، والحديث عن عمرو بن شعيب.

وعن الزهرى يرفعه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «**في العسل العشر**»(٤).

وفي خبر عن هلال بن مرة أن عمر بن الخطاب رحمه الله قال في عشور العسل: ما كان منه في السهل فيه العشر وما كان منه في الجبل ففيه نصف العشر(٥).

وعن عبد الله بن أبى بكر قال: وجاء كتاب عمر بن عبد العزيز الى أبى «أن لا تأخذ من الخيل ولا من العسل صدقة» وعن نافع قال: بعثنى

---

١ — الاموال ٥٦٤.
٢ — الاموال ٦٦٩.
٣ — فتوح البلدان ٦٧.
٤ — الخراج لابى يوسف ٧٠—٧١.
٥ — الاموال ٦٦٩.

عمر بن عبد العزيز على اليمن فأردت أن آخذ من العسل العشر فقال مغيرة بن حكيم الصنعانى: ليس فيه شيء. فكتبت الى عمر فقال: صدق وهو عدل رضى(١).

ففي هذين الخبرين تعارض مع ما مر من أخبار يعاضدها فعل عمر ابن الخطاب رضى الله عنه وقبله رسول الله صلى الله عليه وسلم: وإن كانت تلك الأخبار الواردة عن عمرو بن شعيب وغيره في العسل مضعفة، قال البخارى: ليس في زكاة العسل شيء يصلح، وقال الترمذي: «ولا يصح عن النبى صلى الله عليه وسلم في هذا الباب كبير شيء»(٢).

و يقول أبو يوسف. إن في العسل العشر إذا كان في أرض العشر، وإذا كان في أرض الخراج فليس فيه شيء ــ(لأنَّ مذهبه أنَّ العشر والخراج لا يجتمعان في أرض) وإذا كان في المغاور والجبال على الاشجار أو في الكهوف فلا شيء فيه وهو بمنزلة الثمار تكون في الجبال والأدو ية لا خراج عليها ولا عشراً(٣). أقول ولعل في هذا توفيقا بين الأدلة المتعارضة فما كان في أرض العشر محميا أى خاصا بصاحب له ففيه العشر، وما لم يحم فهو من المباح المشاع لا عشر فيه والله أعلم.

زكاة العنبر

وعن ليث بن أبى سليم عن عمر بن عبد العزيز أنَّه كتب«في العنبر الخمس» وعن إسماعيل بن أبى حكيم قال: سمعت عمر بن عبد العزيز آخر عمره يقول: «ليس في العنبر شيء»(٤).

---

١ ــ الاموال ٦٧٠.

٢ ــ نفس المرجع ٦٦٨ هامش.

٣ ــ الخراج لابى يوسف ٧٠ــ٧١.

٤ ــ الطبقات ٥/٢٦٠.

والرأى الأول رأى عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى رواه عنه عبد الله بن عباس رضى الله عنهما وذكره أبو يوسف قال: قال عبد الله ابن عباس رضى الله عنهما «إنَّ عمر بن الخطاب استعمل يعلى بن أمية على البحر فكتب في عنبرة وجدها رجل على الساحل يسأله عنها وعما فيها فكتب اليه عمر: «إنه سيب من سيب الله وفيما أخرج الله جل ثناؤه من البحر الخمس» وقال عبد الله بن عباس «وذلك رأيى»(١). وأعتبر أبو يوسف ذلك من الغنائم وضم خمسه الى مصرف الغنائم(٢)ــ وهو في ذلك مخالف لرأى أبى حنيفة وابن أبى ليلى اللذين يقولان ليس فيما يخرج من البحر شيء(١). وقد ذكر أبو عبيد أثر عمر رضى الله عنه من غير الطريق التى روى بها أبو يوسف حيث قال «حدثنا نعيم بن حماد عن عبد العزيز بن محمد عن رجاء بن روح عن رجل ــ قد سماه عبد العزيز ــ عن ابن عباس عن يعلى بن أمية قال: كتب إليَّ عمر «أن خذ من حلى البحر والعنبر العشر»(٣). ثم يقول أبو عبيد فهذا إسناد ضعيف غير معروف ومع ضعفه أنّه جعل فيه العشر، ثم يقول بعد ولا أعرف أحدا يقول بهذا(١).

وقد ذكر أبو عبيد قبل ذلك عن جابر بن عبد الله وعن ابن عباس «ليس في العنبر خمس لأنه إنما ألقاه البحر»(٤).

وقد روى عن التابعين كالحسن وابن شهاب «إن في العنبر الخمس»(٥).

---

١ ــ الخراج لابى يوسف ٧٠ــ٧١.

٢ ــ الخراج لابى يوسف ٢١.

٣ ــ الأموال ٤٨٤ــ٤٨٥.

٤ ــ الأموال ٤٨١ والحديثان أخرجهما ابن أبى شيبة في المصنف.

٥ ــ نفس المرجع والصفحة.

وهذا متفق عليه لأنّ المكاتب ــ وهو العبد الذى يفتدى نفسه على مال يقدمه الى سيده ــ لا يملك ذلك المال مادام عليه قسط من مال المكاتبة.

كراء بيوت مكة

وعن ابن جريج قال: قرأت كتاب عمر بن عبد العزيز الى الناس ينهى عن كراء بيوت مكة، وكتب أيضا الى أمير مكة أن لا يدع أهل مكة يأخذون على بيوتها أجرا فإنه لا يحل لهم(١). وهذه مسألة خلافية بين العلماء ولا يعمل بهذا.

تصرف الأسير

وعن سليمان بن حبيب قال: قال عمر بن عبد العزيز: أجز ما صنع الأسير في ماله.

وعن عمر بن عبد العزيز قال: لا تنكح امرأة الأسير أبدا ما دام أسيرا.

الاسرى

وعن عمرو وعن ربيعة بن عطاء قال: سمعت عمر بن عبد العزيز وهو خليفة يكره قتل الأسرى ــ يسترقون أو يعتقون(٢)ــ ولكن ثبت من وجه آخر أنّه رحمه الله قتل أسيرا واحدا من الحَرَر(٢).

مع الجواسيس

وعن عمرو بن مهاجر أن عمر بن عبد العزيز أتى برجلين مسلم وذمي جاسوسين أخذا في أرض الروم فقتل الذمى وعاقب المسلم(٣). ولعله قتل الذمى لأن في تجسسه نقضا لعهده ولشرطه الذى أعطاه على نفسه، وترك المسلم فلم يقتله واكتفى بعقوبته استنانا بالرسول صلى الله عليه وسلم. إذ لم يثبت أنه عليه السلام قتل جاسوسا مسلما.

---

١ ــ الاموال ٩٤، الطبقات ٥/٢٦٨ فتوح البلدان ٤٩.

٢ ــ الاموال ١٩٦.

٣ ــ الطبقات ٥/٢٥٩.

صدقة الزروع

وعن يزيد بن أبى مالك عن أبيه عن عمر بن عبد العزيز أنه كان في سجله: يؤخذ من القطانى على نحو ما يؤخذ من القمح والشعير والسُّلت.

وعن يحيى بن سعيد عن عمر بن عبد العزيز أنه كتب «أن يؤخذ من الحمص والعدس الزكاة»(١). والخلاف في الأشياء التى تجب فيها الصدقة مما تخرج الأرض مشهور، والأصل المعتمد عليه عند أكثر الفقهاء أثر عن معاذ بن جبل رضى الله عنه حينما بعث الى اليمن أن يأخذ الصدقة من الحنطة والشعير والنخل والعنب أو التمر والزبيب ــ واختلف العلماء فيما وراء ذلك ــ انظر الأموال لأبى عبيد ٦٣٤ وما بعدها ــ وعمر بن عبد العزيز هنا مع الرأى الأوسط القائل: إن الزكاة في كل حب يؤكل و يدّخر، والرأى الثالث أنَّ الزكاة في كل ما أخرجت الأرض وهو يروى عن أبى حنيفة.

مسلم في أرض ذمى

وكتب ميمون بن مهران الى عمر بن عبد العزيز في مسلم زرع في أرض ذمى. فكتب اليه عمر: خذ من الذمى ما عليه ــ (أى الخراج)ــ أو قال على أرضه، وخذ من المسلم مما حصل في يديه العشر(٢).

وكان رأى عمر بن عبد العزيز ــ كما رأينا في مبحث الخراج ــ أن أرض الخراج إذا ملكها مسلم أن عليه العشر والخراج، فالخراج عن الأرض والعشر عن الزرع، وهو رأى لجماعة كبيرة من العلماء وعند آخرين أنه لا يجتمع عشر وخراج ففى هذه المسألة ليس على المستأجر شيء وهو رأى الحسن البصرى وأبى حنيفة. ولكن الأكثرين على إيجاب العشر على الزرع والخراج على الأرض.

وعن حميد قال: كتب عمر بن عبد العزيز «أنه ليس في مال المكاتب كاة»(٣).

---

١ ــ الاموال ٦٣٨.

٢ ــ الخراج للقرشى ١٦٢.

٣ ــ الأموال ٦٢٧.

وعن أبي الزناد أن عمر بن عبد العزيز أتى برجل يضرب على غير سكة السلطان فعاقبه وسجنه وأخذ حديده فطرحه في النار(١).

والمزورين

وهو مقتد في ذلك بفعل عمر رضى الله عنه حينما سجن وعاقب معن ابن زائدة لأنه زور خاتم الخلافة فأصاب مالا من خراج الكوفة(٢).

وعن عمر بن عبد العزيز قال: من سرق في أرض العدو ثم خرج قطع.

الحدود في أرض الحرب

وأقام الحد ثمانون جلدة على رجل افترى على رجل في أرض الحرب حين خرجوا.

وأتى برجل شهد عليه أنه شرب خمرا بأرض العدو فجلده ثمانين.

وأتى بسارق سرق من المغنم ولم يقسم فسأل: أهو ممن أوجف ــ أى أسرع في المغنم؟ ــ يقصد هل كان من الجنود المحاربين) فقيل لا فقطع يده(٣). (لأنه لو كان ممن يستحقون من المغنم لما قطع يده لشبهة استحقاقه بعضه).

وهكذا كان عمر بن عبد العزيز رحمه الله عالما فقيها ورعا مجتهدا في الأمور التى لم يرد فيها نص من قرآن أو سنة. وكان في أمره كله متبعا لا مبتدعا فما ثبت عنده وصح اتبعه. وإذا تبين له رشد أمر رجع اليه وألغى ما قبله ولم تأخذه عزة بالخطأ أو إصرار عليه، فقد رجع عما رآه قبلا أكثر من مرة رجوعا الى الصواب واتباعا للأصح من الآراء والأقوال، وأخذا بالأروع والأورع من الأفعال والأعمال.

رحمه الله.

---

١ ــ فتوح البلدان ٥٦٧.

٢ ــ نفس المرجع ٥٧٧.

٣ ــ الطبقات ٥/٢٦١.

الخاتمـــة

آثـــار ونتـــائج

«قُلْ هٰذِه سَبِيْلِي أدْعُوا إلَى الله عَلَى بَصِيرةٍ أنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِى»(١).

«وَمَنْ أحْسَنُ قَولاً مِمَّنْ دَعَا إلَى الله وَعَمِلَ صَالِحاً
وَقَالَ إنَّنِي مِنَ المُسلِمِيْنَ»(٢)

قرآن كريـــم

في هـذه الـدولة الممتدة الساحة من أقصى الأرض المعمورة ــ في ذلك الحين الى أقصاها. وفي تلك الفترة الزمنية القصيرة والقصيرة جدا التى لم تـتـجـاوز الـثلاثين شهرا، استطاع شخص واحد أن يصلح الدولة والأمة. وأن يـعيد للدولة بأجهزتها المختلفة نقاءها و يعيد لها وظيفتها خادمة للأمة حـارسـة لمـكـاسـبـهـا حـريـصـة على أمنها وطمأنينة أفرادها موفرة لأموالها وخراجها.

ثـم يعيد للأمة ثقتها بنفسها وحكامها وحياتها وحقوقها بحيث يعيش كـل فـرد في هـذه الأمة العريضة بأجناسها المختلفة آمنا مطمئنا على نفسه ودينـه ومـالـه وعـرضـه، فكيف استطاع عمر بن عبد العزيز أن يفعل كل ذلك؟.

وما آثار عمله ذاك ونتائجه؟.

مر معنا في بحوثنا المختلفة في رسالتنا هذه السبيل التى سار عليها عمر ابـن عـبـد الـعزيز ورأينا أنه أراد أول ما أراد أن يعود بالخلافة الى حقيقتها الأولى وهـي الـنـيـابـة عـن صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم في سياسة

---

١ ــ سورة يوسف الآية ١٠٨.

٢ ــ سورة فصلت الآية ٣٣.

الدين والدنيا به، ورأى أنَّ ذلك لن يكون إلا باتباع خطا صاحب الشرع عليه السلام وخلفائه الراشدين المهديين من بعده. فكان شعاره ــ كما رأينا ــ الا تباع لا الابتداع.

كتاب الله الامام وسنة رسوله البيان

وضع نصب عينيه كتاب الله ــ وهو الخليفة العالم الفقيه أستاذ العلماء فأحل حلاله وحرم حرامه ونفذ أوامره، وأجتنب نواهيه وزواجره، واتخذ سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم منار هداية ونور إرشاد الى بيان آيات الكتاب وعمل بها تطبيقا عمليا لقواعد الكتاب الحكيم، ومن أعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم بمراد الله من آياته، ومن أوعى من خلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنهم بأحكام رسول الله وقضاياه وهديه وإرشاده؟.

اتخذ عمر بن عبد العزيز من ذلك كله نبراسا هاديا ودليلا واضحا، رأى فيه الهدى والرشاد وفي غيره الضلال والبغى والفساد، فاتبع سبيل المؤمنين وسنن الراشدين المهديين فكان منهم على نهج واضح وسبيل بيِّن وطريق لا عوج فيه، فليس إذن عجيبا ولا غريبا أن يصل الى كل ما وصل اليه من إصلاح لهذه الدولة المترامية الأطراف في فترة من عمر الزمن لا تكاد تذكر. بل هى إذا قسناها بالقرون في حياة الامم ثوان، ولكنها في ميزان الحق والعدل تعدل القرون والقرون، فليس ردُّ الأمم بعد انحرافها أو إصلاحها بعد فسادها بالأمر الهين أو الشأن السهل، ولكن عمر بن عبد العزيز كان معجزة للإسلام وحجة لله قائمة على الحكام مدى الأ يام، إذ استطاع بتوفيق الله ودليلاه أن يعود بالأمة في أخلاقها وسلوكها ودينها ومالها الى الصراط المستقيم والسبيل القو يم.

حتى قال القائل ــ لما كان عمر بن عبد العزيز كان الناس يلتقون فيقول. الرجل: ما وردك الليلة؟ وكم تحفظ من القرآن؟ ومتى تختم؟ ومتى ختمت، وما تصوم من الشهر. مع أنهم كانوا في عهد الوليد

وسليمان إذا التقوا أن يقول الرجل للرجل ماذا بنيت؟ أو كم تزوجت؟ وكم عندك من الجوارى؟(١).

أقام الناس على المحجة البيضاء الواضحة وحملهم على السنة ولسان حاله يقول: «**قُلْ هٰذِهِ سَبِيلِي أدعُوا إلى الله عَلَى بَصِيرَةٍ أنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي**»(٢) فأصلحهم.

يقول أحد ولاته: لما ولانى عمر بن عبد العزيز الموصل قدمتها فوجدتها من أكبر البلاد سرقا ونقبا، فكتبت الى عمر أعلمه بحال البلد وأسأله آخذ الناس بالظنة وأضربهم على التهمة، أو آخذهم بالبينة وما جرت عليه عادة الناس؟ فكتب لى: أن آخذ الناس بالبينة وما جرت عليه السنة فإن لم يصلحهم الحق فلا أصلحهم الله. فيقول العامل: ففعلت ذلك فما خرجت من الموصل حتى كانت من أصلح البلاد وأقله سرقا ونقبا(٣). وهكذا كان يكتب الى عماله أن يأخذوا بالسنة، و يقول لهم: إن لم تصلحهم السنة فلا أصلحهم الله(٤).

تأمل قوله: فإن لم يصلحهم الحق ــ أو تصلحهم السنة. فلا أصلحهم الله ــ نعم كلمة حق يراد بها حق فإن الأمة إذا لم يصلحها الحق أو السنة فلن تصلح وقد تودع منها. لأنَّه ليس بعد الحق البين إلاّ الضلال، ولن يكون الضلال أبدا طريقا للإصلاح. ولن تصلح الأمة بوسيلة ضلال أبدا.

لا يكون الضلال سبيلا للاصلاح

و يريد من الأمة أن يسودها العدل ويمحى منها الظلم، وقد فعل في تلك المدة القصيرة ما لا تفعله الأجيال إلا إذا سارت على دربه. بيَّن منهجه واضحا في خطاب لأحد عماله طلب منه مالاً يرم به مدينة خربت أسوارها وتحطمت طرقها فما كان منه إلاّ أن كتب له يقول: إذا قرأت

---

١ ــ الطبرى ٨/٩٨ وانظر مبحث القدوة العملية وآثارها من هذه الرسالة.

٢ ــ سورة يوسف الاية ١٠٨.

٣ ــ الحلية ٥/٢٧١.

٤ ــ البداية والنهاية ٩/٢٣٢.

كتابى هذا فحصنها بالعدل ونق طرقها من الظلم(١).

نعم بالعدل تتحصن المدن من غارات المغيرين وتصد عادية المعتدين و يكون العدل سورا يحميها كيد الكائدين. و بتنقية طرقها من الظلم يسود الأمن والأمان والطمأنينة والسلام فتعمر الطرق و يشيد البنيان، حقا كان كتاب عمر بن عبد العزيز موضحا للنهج الذى يجب أن يتبعه كل حاكم يريد أن يصلح بلاده داخليا وخارجيا، داخليا بالقضاء على الظلم والفساد والانحراف وخارجياً بإظهار العدل وتطبيقه وإحقاق الحق وصيانته.

وهكذا فعل عمر فما احتاجت الدولة الى سور يرد عنها المغيرين أو يصد المهاجمين، فقد كانت الأمة كلها سورا وردءا وحصنا بوقوفها صفا واحدا خلف إمامها و بين يديه. فقد وحد الأمة صفا وغاية وهدفا وأشاع في العالمين عدالته ورحمته وإنصافه حتى استجاب كثير من أعدائه في حياته لدعوته وحتى بكاه أعداؤه بعد موته.

فقد بدأ الإصلاح من نفسه ــ وهكذا يجب أن يبدأ كل حاكم مسئول يريد الإصلاح بإخلاص ــ ثم بأهل بيته وعائلته وقبيلته ثم بعماله، فقد اختار أوثق وأخلص من قدر عليه. وحتى يقول كثير من الأئمة بأن كل من استعمله عمر بن عبد العزيز ثقة(٢)، ولولا ذلك لأفسد عماله كل ما أراد إصلاحه، وطهر الأمة بعد ذلك من كثير من المخالفات التى سادت قبله، وأزال عوامل الفساد المالية والمادية والمعنو ية، وشدد في عقوبة مرتكبيها كالخمر والانحراف المالى والدعوات الجاهلية. ووالى الأمة كلها بكتبه تبين الحق الواجب اتباعه وتحذر من الضلال الواجب

---

١ ــ الحلية ٥/٣٠٥.

٢ ــ البداية والنهاية ٥/٢٣٢.

الانتهاء عنه، فما ترك صغيرة وكبيرة من أمر الدين أو الدنيا إلا و بينها للأمّة حتى كيفية ذبح الحيوان، وعلم الناس فكأن أيامه كانت مدرسة تثقيفية تعليمية للحاكمين والمحكومين. فليس عجيباً ولا غريبا إذن على إنسان مثله أن يبلغ من الإصلاح ما بلغ. وهومع هذا كله لا يفتخر بشيء مما فعل ولا ينسبه لنفسه ولا يتعالى بما قدم للأمة والدين، يقول له أحدهم جزاك الله عن الإسلام خيرا ــ (فيجيبه بلهجة المؤمن الواثق المتواضع لله الذى يعرف حق دينه عليه). بل جزى الله الإسلام عنى خيرا(١).

وقد أراد الله عز وجل من خلافة عمر بن عبد العزيز تلك القصيرة الأمد العظيمة الآثار والنتائج إقامة الحجة البالغة على الحاكمين الذين يدّعون، إما العجز عن الرجوع بالأمة الى طريق الله وإمّا عدم صلاحية الدين ــ في هذا الوقت ــ للنهوض بالأمة والسير بها الى الغاية.

لقد أراد الله عز وجل إقامة الحجة على أولئك بخلافة عمر بن عبد العزيز تلك الخلافة التى لم تكن منتظرة أبدا في وقتها ولم يكن يطمع فيها له أحد وهو لم يفكر فيها أبدا، وأنى يطمع أو يفكر فيها وهناك أولاد عبد الملك وأولاد الوليد وسليمان وكلٌ مشرئب العنق اليها متحفز للوثوب عليها؟ ولكن الله عز وجل إذا أراد أمرا هيأ أسبابه وأوصل أصحابه، ولو وقفت الدنيا كلها ــ في ذلك الوقت ــ لتمنع عمر بن عبد العزيز عن الوصول الى الخلافة لعجزت لأن الله أراد وما أراده الله لن يستطيع منعه البشر.

وهكذا بإرادة الله عز وجل وصل عمر بن عبد العزيز و بشريعة الله عز وجل حكم عمر بن عبد العزيز، ولسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين اتبع عمر بن عبد العزيز، فكانت تلك المعجزة الباهرة

---

١ ــ المرجع السابق ٩/٢٣٣ ابن الجوزى ١٧٦.

والحكمة الظاهرة والتجربة الرائدة، إذ سدد الله على درب التوفيق خطاه وأرشده، وأطاعته الأمة بكل فئاتها واتجاهاتها وتوحدت غايتها مع غايته، فوصل الى ما يريده لها الله من إصلاح وخير حتى لم يبق في الأمة فقير يستحق الزكاة ولا مظلوم ينتظر النصف.

فلينظر أولئك الذين يطبقون القوانين الوضعية والشرائع البشرية كيف يعجزون عن الإصلاح في عشرات السنين وفي رقعة لا تجاوز عشر معشار دولة عمر بن عبد العزيز الواسعة تلك ــ ومع اختلاف الوسائل بينهم وبينه. وبأيديهم القوة الظاهرة والأيدي الباطشة والسلاح والعتاد والوسائل التى لم يكن يحلم ببعضها عمر ومن مع عمر ــ تراهم كل يوم في تغيير دستور أو استبدال قانون أو تجديد شريعة، والفساد مع كل ذلك مستشرى البأس في داخل النفوس وخارجها، ولم يستطيعوا أن يحققوا بعض أهدافهم من الإصلاح. وكيف يستطيعون ذلك وقوانينهم إنما وضعها بشر مهما كانت عقولهم كبيرة فهم قاصرون تغلبهم شهواتهم ونزعات نفوسهم وعدم إدراكهم لحقائق الأشياء بباطن الأمور وعواقبها، وأين تشريع الخلق من تشريع الخالق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟ أين تشريع الإنسان الضعيف المغرور من تشريع رب الإنسان العليم ببواطن الأمور؟ وصدق الله العظيم «**وَلَكِنَّ أَكثرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ، يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرةِ هُمْ غَافِلُونَ**»(١).

ومع ذلك يتبجح ذلك الإنسان المغرور و يدعى عدم صلاحية تشريع الخالق لتدبير الخلق، ومن أعلم بالخلق من الخالق؟.

ولكن هل يمكن أن يمن الزمان بمثل عمر بن عبد العزيز؟.

---

١ ــ سورة الروم الآيتان ٦، ٧.

الكتاب الذى حكم به عمر بن عبد العزيز لازال موجودا لم يدخله تحريف ولا زيغ ولا تبديل.

والسنة التى اتبعها عمر بن عبد العزيز لازالت موجودة مدونة لم يدخلها كذلك تحريف ولا تبديل. ولكن أين إخلاص عمر بن عبد العزيز، وورع عمر بن عبد العزيز، وزهد عمر بن عبد العزيز وعلم عمر بن عبد العزيز، وخوف عمر بن عبد العزيز وخشيته من الله عز وجل سرا واعلانا، هذه التى يكاد يستحيل أن توجد في شخص واحد، ولو وجدت امكنه أن يفعل كما فعل عمر بن عبد العزيز ولكن أين هو؟.

حلف الزمان ليأتين بمثله حنثت يمينك يازمان فكفر

رحم الله عمر بن عبد العزيز ومن سار على درب عمر بن العزيز.

آمين

ملحـــق (١)

(١) كتاب شامل لعمر بن عبد العزيز

من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى العمال

دستور عام

أما بعد فإن الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم «**بِالْهُدَى وَدِيْنِ الحَقِّ لِيُظْهِرَه عَلَى الدِّيْنِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ**»(١).

القرآن وأوامره

وإنَّ دين الله الذى بعث به محمدا صلى الله عليه وسلم كتابه الذى أنزل عليه أن يطاع الله فيه، و يتبع أمره ويجتنب ما نهى عنه، وتقام حدوده و يعمل بفرائضه. ويحل حلاله ويحرم حرامه، و يعترف بحقه ويحكم بما أنزل فيه، فمن اتبع هدى الله اهتدى ومن صد عنه «**فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيْلِ**»(٢).

من طاعة الله

وإنَّ من طاعة الله التى أنزل في كتابه: أن يدعو الناس الى الإسلام كافة، وأن يفتح لأهل الإسلام باب الهجرة، وأن توضع الصدقات والأخماس على قضاء الله وفرائضه وأن يبتغى الناس بأموالهم في البر والبحر لا يمنعون ولا يحبسون.

دعوة الاسلام الى الناس كافة

وأما الإسلام فإن الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم الى الناس كافة، فقال «**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بشِيْراً وَنَذِيراً**»(٣). وقال «**يٰاأَيُّها النَّاسُ إنِّى رَسُولُ الله إليكُمْ جَمِيْعَاً**»(٤) وقال تبارك وتعالى فيما يأمر به المؤمنين من شأن المشركين: «**فَإنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وآتَوُا الزَّكَاةَ فَإخْوانُكُمْ فِيْ الدِّيْنِ**»(٥) فهذا قضاؤه وحكمه فاتباعه لله

---

١ ــ التوبة الآية ٣٣ والصف الآية ٩.

٢ ــ البقرة الآية ٨ والمائدة ١٣ والممتحنة ١.

٣ ــ سبأ الآية ٢٨.

٤ ــ الأعراف الآية ١٥٨.

٥ ــ التوبة الآية ١١.

طاعة وتركه معصية لله. فادع الى الإسلام وأمر به فإن الله تعالى قال: «**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً، وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ**»(١). فمن أسلم من نصرانى أو يهودي أو مجوسي من أهل الجزية فخالط عَمَّ المسلمين في دارهم وفارق داره التى كان بها فإن له ما للمسلمين وعليه ما عليهم. وعليهم أن يخالطوه وأن يواسوه غير أن أرضه وداره إنما هى من فىء الله على المسلمين عامة ولو كانوا أسلموا عليها قبل أن يفتح الله للمسلمين كانت لهم ولكنها فىء الله على المسلمين عامة.

الذمى اذا أسلم

الارض والدار فيء

وأما من كان محاربا فليدعَ الى الإسلام قبل أن يقاتل فإن أسلم فله ما للمسلمين وعليه ما عليهم، وله ما أسلم عليه من أهل أو مال. وإن كان من أهل الكتاب فأعطى الجزية وأمسك بيديه فإنا نقبل ذلك منه.

الدعوة قبل القتال

وأما الهجرة فإنّا نفتحها لمن هاجر من أعرابى فباع ماشيته وانتقل من دار أعرابيته الى دار الهجرة والى قتال عدونا، فمن فعل ذلك فله أسوة المهاجرين فيما أفاء الله عليهم. وإنَّ الله نعت المؤمنين عند ذكر الفىء فجعله للفقراء والمهاجرين «**الَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ**»(٢) والذين جاءوا من بعدهم ثم قال «**وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ**»(٣) وقد كان المهاجرون يجاهدون على غير عطاء ولا رزق يجرى عليهم فيوسع الله عليهم، و يعظم الفتح لهم ولمن تأسى بهم وعمل بصالح سنتهم ممن يحبون من إخوانهم ليوجبن الله له الأجر في الآخرة وليعظمن له الفتح في الدنيا.

الهجرة

الصدقات والعناية بها أخذ واعطاء

وأما الصدقات فإن الله تبارك وتعالى فرضها وسمى أهلها حين طعن

---

١ — فصلت الآية ٣٣.
٢ — الحشر الآية ٩.
٣ — الجمعة الآية ٣.

فيها أناس و بلغوا فيها تهمة نبيهم فقال: «**وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ**»(١). فقال الله تبارك وتعالى عند ذلك: «**إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**»(٢) فبين رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقة الأموال: الحرث والمواشي والذهب والورق فتؤخذ الصدقات كما بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وفرض، لا يظلمون ولا يتعدى عليهم ولا يحابى بها قريب ولا يمنعها أهلها، ثم تجعل الى مرضيين من أهل الإسلام يجعلونها حيث أمرهم الله يحملهم الإمام من ذلك على ما حمل و ينزه نفسه من ذلك من أمر قد أكثر فيها على الأئمة.

الخمس ومواضعه

وأما الخمس فإنَّ من مضى من الأئمة اختلفوا في موضعه فطعن في ذلك طاعن من الناس وأكثر فيه و وضع مواضع شتى فنظرنا فإذا هو على سهام الفيء في كتاب الله لم تخالف واحدة من الاثنتين الأخرى، فإذا عمر بن الخطاب رحمه الله قد قضى في الفيء قضاء قد رضى به المسلمون، فرض للناس أعطية وأرزاقا جارية لهم، ورأى أن لن يبلغ بتلك الأبواب ما جمع من ذلك ورأى أن فيه لليتيم والمسكين وابن السبيل، فرأى أن يلحق الخمس بالفيء وأن يوضع مواضعه التي سمى الله وفرض. ولم يفعل ذلك إلاّ ليتنزه منه وخيفة التوهم فيه، فاقتدوا بإمام عادل فإنَّ الآيتين متفقتان فإنَّ الله قال: «**مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ**»(٣).

سبيل الخمس سبيل الفيء

---

١ — التوبة الآية ٥٨.
٢ — التوبة الآية ٦٠.
٣ — الحشر الآية ٧.

وكذلك فرض الله الخمس، فنرى أن يجمعا فيجعلا فيئا للمسلمين، ولا يستأثر عليهم ولا يكون «**دُولَةً بَيْنَ الأغنِيَاء مِنْكُم**»(١).

الحمى الخمر والنبيذ

ونرى أن الحمى يباح للمسلمين عامة، وقد كانت تحمى فتجعل فيها نعم الصدقات. فيكون في ذلك قوة ونفع لأهل فرائض الصدقات. وأدخل فيها وطعن فيها طاعن من الناس فنرى في ترك حماها والتنزه عنها خيرا إذا كان ذلك من أمرها، وإنما الإمام فيها كرجل من المسلمين. إنما هو الغيث ينزله الله لعباده فهم فيه سواء.

ثم إن الطلاء(٢) لا خير فيه للمسلمين، انما هو الخمر يكنى باسم الطلاء قد جعل الله عنه مندوحة(٣) وأشربة كثيرة طيبة، وقد علمت أن ناسا يقولون: قد أحله عمر رضى الله عنه، وشربه ناس ممن مضى من خيارنا. وإنَّ عمر إنما أتى منه بشراب طبخ حتى خثر(٤) فقال حين أتى به: أطلاء هذا؟ يعنى به طلاء الإبل. فلما ذاقه قال: لا بأس بهذا فأدخل الناس فيه بعد عمر. أما من شربه من صالحيكم فإنهم شربوه قبل أن يتخذ مسكرا وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**حَرَامٌ كُلُّ مُسْكِرٍ عَلَى كُلِّ مُؤمِن**»(٥). فلا أرى أن يتخذ الفاجر البارَّ دلسة. ونرى أن يتنزه المسلمون عنه عامة، وأن يحرموه فإنه من أجمع الأبواب للخطايا وأخوفها عندى أن تصيب المسلمين منه جائحة(٦) تعمهم.

---

١ ــ الحشر الآية ٧.

٢ ــ الطلاء القطران وكل ما يطلى به الخمر وهو المقصود هنا القاموس ٤/٣٥٧.

٣ ــ مندوحة: سعة. القاموس ١/٢٥٢.

٤ ــ خثر اللبن ــ غلظ القاموس ٣/١٨.

٥ ــ في النسائى «حرم الله الخمر وكل مسكر» الجامع الصغير ١/١٤٧.

٦ ــ جائحة: مصيبة.

طريق البر والبحر وحرية التجارة والتنقل

وأما البحر فأنا نرى سبيله سبيل البر قال الله تعالى: «**اللهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ البَحْرَ لِتَجرِيَ الفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضلِهِ**»(١) فأذن فيه أن يتجر فيه من شاء، وأرى أن لا نحول بين أحد من الناس و بينه فإنَّ البر والبحر لله جميعا سخرهما لعباده يبتغون فيهما من فضله فكيف نحول بين عباد الله و بين معايشهم؟.

توحيد المكاييل والموازين

ثم إن المكيال والميزان نرى فيهما أمورا علم من يأتيها أنها ظلم، إنه ليس في المكيال زيغ إلا من تطفيف ولا في الميزان فضل إلا من بخس، فنرى أن تمام مكيال الأرض وميزانها أن يكون واحدا في جميع الأرض كلها.

العشور والخراج والجزية

وأما العشور فنرى أن توضع إلا عن أهل الحرث(٢)، فإن أهل الحرث يؤخذون بذلك وإنّما أهل الجزية ثلاثة نفر: صاحب أرض يعطى جزيته منها وصانع يخرج جزيته من كسبه وتاجر يتصرف بماله يعطى جزيته من ذلك وإنّما سنتهم واحدة.

فأما المسلمون فإنما عليهم صدقات أموالهم. إذا أدوها في بيت المال كتبت لهم بها البراءة فليس عليهم في عامهم ذلك في أموالهم تباعة.

المكس

وأما المكس فإنه البخس الذى نهى الله عنه فقال: «**وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءهُم وَلاَ تَعْثَوا فِي الأرض مُفسِدِينَ**»(٣) غير أنهم كنوه باسم آخر.

---

١ ــ الجاثية الآية ١١.

٢ ــ أعتقد أن الصواب «أهل الحرب» بالباء لانهم هم من يؤخذ منهم العشر وللتقسيم الذى ذكره من بعد.

٣ ــ سورة هود الآية ٨٥، الشعراء الآية ١٨٣.

تجارة الامام والعمال

ونرى أن لا يتجر إمام ولا يحل لعامل تجارة في سلطانه الذى هو عليه فإن الأمير متى يتجر يستأثر و يصب أمورا فيها عنت وإن حرص على أن لا يفعل.

بيع أرض الخراج

نرى أن لا يباع عمارة الأرض. فإنما يشترى المشترى لنفسه و يقطع لنفسه فإنما يصيب من ذلك خراب الأرض وظلم أهلها، وأما من كان من عرب أهل الأرض في غير أرضه وجزيته جارية عليه في أرضه فليس عليه إلا ذلك وعامل أرضه أولى بتبعته.

منع السخرة أرزاق العامة

ونرى أن توضع السخر عن أهل الأرض فإنّ غايتها أمور يدخل فيها الظلم. ونرى أن ترد المزارع لما جعلت له، فإنما جعلت لأرزاق المسلمين عامة، فإن أمر العامة هو أفضل للنفع وأعظم للبركة.

مواريث أهل الارض

ثم إن مواريث أهل الأرض إنما هى لأولبائهم أو لأهل أرضهم الذين يخرجون الخراج فنرى أن لا يؤخذ منهم شيء إلا أن يكون عاملا فيبعثه الإمام في عمله بالذى يرى عليه من الحق. والسلام عليك(١).

---

١ ــ ابن عبد الحكم ٧٨ــ٨٣.

(٢) كتاب الى أمراء الاجنـاد

وكتب عمر بن عبد العزيز:

نصيحة الى الحكام

من عبد الله عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين الى أمراء الأجناد. أما بعد فإنه من بُلي بالسلطان تحضره مكاره كثيرة. و بلايا عظام، إن أغبته يوما فهى حرية أن تحضره في اليوم الآخر، وإنَّه ليس أحد بأشغل عن نفسه، ولا أكثر تعريضا لزيغ من ولى السلطان إلاّ ما عافى الله ورحم. فأتق الله ما استطعت واذكر منزلك الذى أنت به والذى حملت، فقاتل هواك كما تقاتل عدوك، واصبر نفسك عندما كرهت ابتغاء ما عند الله من حسن ثوابه الذى وعد به المتقين فيما بعد الموت والذى وعدكم على التقوى والصبر من النجاة في عاجل الأمر وآجله.

تأديب الجاهل

فإذا حضرك الخصم الجاهل الخرق ممن قدر الله أن يوليك أمره، وأن تبتلى به فرأيت منه سوء رعة(١) وسوء سيرة في الحق عليه والحظ له فسدده ما استطعت و بصره وارفق به وعلمه، فإن اهتدى وأبصر وعلم كانت نعمة من الله وفضلا، وإن هو لم يبصر ولم يعلم كانت حجة اتخذت بها عليه، فإن رأيت أنه أتى ذنبا استحل فيه عقوبة فلا تعاقبه بغضب من نفسك عليه، ولكن عاقبه وأنت تتحرى الحق في قدر ذنبه بالغا ما بلغ وإن لم يبلغ ذلك إلاّ قدر جلدة واحدة تجلده إياها، وان كان ذنبه فوق ذلك ورأيت عليه من العقوبة في ذلك قتلا فما دونه فأرجعه الى السجن، ولا يسر عن بك الى عقوبته حضور من يحضرك فإنه لعمرى ربما عاقب الإمام لمحضر جلسائه ولتأديب أهل بلده ولتغامزهم به، وما من إمام له جلساء إلا سيكون ذلك فيهم وما من قوم يسمعون بقضاء إمام إلاّ ــ سيختلفون فيه على أهوائهم، إلاّ من رحم الله فإن من رحم الله لا يختلفون في قضاء

العدالة في العقوبة

---

١ ــ سوء رعة: سوء هيئة وهدى القاموس ٥/٩٧.

فإنه قال: «وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُم»(١).

لا تتأثر بمن حولك

وإن استجهلت فتثبت، وإذا نظر إليك ممن حولك ما أنت فاعل بسفيه من رعيتك إن سفه أو أخطأ حظه فاعمد في ذلك للذى ترى أنه أبرّ وأتقى وخير لك غدا فيما بعد الموت، ولا يطربك نظرهم إليك ولا حديثهم عنك فإنه لا يبقى في أنفسهم حديث أحبوه ولا كرهوه إلاّ قليلا إلا أبدوه.

اغتنم الحياة

فأغتنم كل يوم أخرجك الله فيه سالما وكل ليلة مضت عليك وانت فيها كذلك، وأكثر دعاء الله بالعافية لنفسك ولمن ولاك الله أمره، فإنّ لك في صلاحهم ما ليس لأحد منهم وإنّ عليك في فساد الرجل الواحد فما فوق ذلك ما ليس على أحد منهم. ولا تبتغ منهم جزاء خير أحسنته اليهم ولا تسديد سددتهم ولا تطلب بعمل صالح عملته فيهم جزاء ولا ثوابا ولا مدحة ولا حظوة، وليكن ذلك لمن لا يعطى الخير ولا يصرف السوء غيره ــ (يعنى الله عز وجل)ــ ثم تعاهد صاحب بابك وصاحب حرسك وعاملك المقيم عندك والذين تبعث، فلا يعملون في شيء مما تحت يديك بغشم ولا ظلم، وأكثر المسألة عنهم فمن كان منهم محسنا نفعه ذلك ومن كان منهم مسيئا استبدلت به من هو خير منه.

لا تطلب من الناس جزاء

تعاهد عمالك

نسأل الله ربنا برحمته وقدرته على خلقه أن يغفر لنا ذنوبنا وأن ييسر لنا أمورنا وأن يشرح لنا صدورنا بالبر والتقوى والعمل فيما يحب و يرضى. وأن يعصمنا من المكاره كلها وأن يجعلنا من الذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا. ومن المتقين الذين لهم العاقبة والسلام عليك ورحمة الله(٢).

---

١ ــ هود الآية ١١٩.

٢ ــ ابن عبد الحكم ٦٨ــ٧٠.

وكتب الى بعض عماله:

أما بعد فإنه لم يظهر المنكر في قوم قط ثم لم ينههم أهل الصلاح منهم إلاّ أصابهم الله بعذاب من عنده أو بايدى من يشاء من عباده.

العذاب لمن لا يتناهون عن المنكر

ولا يزال الناس معصومين من العقوبات والنقمات ما قمع فيهم أهل الباطل واستخفى فيهم بالمحارم فلم يظهر من أحد محرّم إلا انتقموا ممن فعله، فإذا ظهرت فيهم المحارم فلم ينههم أهل الصلاح نزلت العقوبات من السماء الى الأرض على أهل المعاصى وعلى المداهنين لهم ولعل أهل الادهان أن يهلكوا معهم وإن كانوا مخالفين لهم، فإنى لم أسمع الله تبارك وتعالى فيما نزل من كتابه عند مُثلة أهلك بها أحداً نَجّى أحدا من أولئك إلا أن يكونوا الناهين عن المنكر. و يسلط الله على أهل تلك المحارم إن هو لم يصبهم بعذاب من عنده أو بأيدي من يشاء من عباده من الخوف والذل والنقم، فإنه ربما انتقم بالفاجر من الفاجر و بالظالم من الظالم. ثم صار كلا الفريقين بأعمالهما الى النار، فنعوذ بالله أن يجعلنا ظالمين أو يجعلنا مداهنين للظالمين. وإنّه قد بلغنى أنه قد كثر الفجور فيكم، وأمن الفساق في مدائنكم، وجاهروا من المحارم بأمر لا يحب الله من فعله ولا يرضى المداهنة عليه، كان لا يظهر مثله في علانية قوم يرجون لله وقارا، ويخافون منه غِيراً وهم الأعزون الأكثرون من أهل الفجور، وليس بذلك مضى أمر سلفكم ولا بذلك تمت نعمة الله عليهم، بل كانوا «**أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاء بُينَهُمُ**»(١) «**أَذِلَّةٍ عَلَى المُؤمنينَ أَعِزَةٍ عَلَى الكَافِرِيْنَ يُجَاهِدُون فِي سَبِيلِ الله وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ**»(٢) ولعمرى إن من

والخوف والذل والنقم للفجرة الظالمين

---

١ ــ الفتح الآية ٢٩.

٢ ــ المائدة الآية ٥٤.

من الجهاد الغلظة على اهل محارم الله

الجهاد في سبيل الله ــ الغلظة على أهل محارم الله بالأ يدي والألسن والمجاهدة لهم فيه، وإن كانوا الآباء والأ بناء والعشائر وإنما سبيل الله طاعته.

أسباب عدم الامر بالمعروف

وقد بلغني أن بطأ بكثير من الناس عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر اتقاء التلاوم أن يقال: فلان حسن الخلق قليل التكلف مقبل على نفسه، وما يجعل الله أولئك أحسنكم أخلاقا بل أولئك أسوأكم أخلاقا.

وما أقبل على نفسه من كان كذلك. بل أدبر عنها ولا سلم من الكلفة لها بل وقع فيها: إذ رضى لنفسه من الحال غير ما أمره الله أن يكون عليه من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وضع آيات الكتاب في غير موضعها

وقد ذلت ألسنة كثير من الناس بآية وضعوها في غير موضعها وتأولوا فيها قول الله عز وجل «**يا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إذا اهْتَدَيْتُم**»(١). وصدق الله تبارك وتعالى. ولا يضرنا ضلالة من ضل إذا اهتدينا ولا ينفعنا هدى من اهتدى إذا ضللنا «**وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى**»(٢). وان ما على أنفسنا وأنفس أولئك مما أمر الله به من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. فلا يظهروا محرما إلاّ انتقموا ممن فعله منهم من كنتم ومن كانوا.

قول مرفوض

وقول من قال: إن لنا في أنفسنا شغلا ولسنا من الناس في شيء. ولو أن أهل طاعة الله رجع رأيهم الى ذلك ما عمل لله بطاعة. ولا تناهوا له عن معصية ولقهر المبطلون المحقين. فصار الناس كالأنعام أو أضل سبيلا.

دعوة الى النهى عن المنكر

فتسلطوا على الفساق من كنتم ومن كانوا، فادفعوا بحقكم باطلهم و ببصركم عما هم، فإن الله جعل للأ برار على الفجار سلطانا مبينا، وإن لم يكونوا ولاة ولا أئمة.

---

١ ــ المائدة ١٠٥.

٢ ــ الانعام ١٦٤ والاسراء ١٥ وفاطر ١٨ والزمر ٧.

من ضعف عن ذلك باليد أو اللسان فليرفعه الى إمامه فإن ذلك من التعاون على البر والتقوى. قال الله لأهل المعاصى «**أَفَأَمِنَ الَّذِيْنَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْيأتِيَهُمُ العَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشعُرُونَ أَوْيَأخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِم فَمَا هُمْ بِمُعجزِينَ**»(١). ولينتهين الفجار أو ليهيننَّهم الله بما قال «**لَنُغرِينَّكَ بِهِم ثُمَ لاَ يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيْلاً**»(٢)(٣).

هذه ثلاثة كتب يمثل كل واحد منها لونا من كتابة هذا الخليفة العظيم فالأول كتاب قانونى يمثل الحاكم المنفذ للشرع والخليفة العادل، والثانى يمثل الحاكم الموجه والمؤدب لعماله والناصح لهم في أعمالهم وما يجابهون من مشاكل الحكم وتحمل التبعة.

وأما الكتاب الثالث فهويمثل الخليفة المعلم الداعى الى الخير والآمر بالمعروف القائم بالحجة والعالم بنفسيات الناس ودوافعهم و بعلمه يبطل حججهم و بورعه يحذرهم و ينذرهم و بسلطانه يتوعدهم و يهددهم.

رحمه الله وجزاه عن أمة محمد خيرا

والحمد لله أولا وأخيرا.

---

١ ــ النحل الايتان ٤٥، ٤٦.

٢ ــ الاحزاب الآية ٦٠.

٣ ــ ابن عبد الحكم ١٣٧ــ١٤٠.

جريـــدة المراجـــع

اسم الكتاب	المؤلـــف	المطبعة او الناشر	الاشارة اليه في الكتاب
	ا		
الاحكام السلطانية للماوردي	أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب	مصطفى الحلبي	اسمـه
الاحكام السلطانية	محمد بن الحسين الفراء أبو يعلى	مصطفى الحلبي	ابو يعلى
الاخبار الطوال	أبو حنيفة الدينوري أحمد بن داود	دار إحياء الكتب العربية	اسمـه
أخبار مجموعة	مجهـول	مدريـد	اسمـه
الاسلام والحضارة العربية	محمد كرد علي	التأليف والنشر	الاسلام والحضارة
أطلس في التاريخ الاسلامي	هاري «و» هازاد - مترجم	النهضة المصرية	اسمـه
الأمـالي	أبو علي القالي		اسمـه
الامامة والسياسة	محمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة	مصطفى الحلبي	اسمـه
الامـوال	أبو عبيد القاسم بن سلام	دار الشرق	اسمـه
الأيام الأخيرة للدولة الأموية	عمر أبو النصر	الأهليـة	اسمـه
	ب		
البداية والنهاية	اسماعيل بن عمر بن كثير	السعادة	اسمـه
	ت		
تاريخ اليعقوبي	أحمد بن أبي يعقوب	دار صادر ودار بيروت	اليعقوبي
تاريخ خليفة بن خياط	خليفة بن خياط العصفري	وزارة الثقافة السورية	اسمـه
التاريخ الاسلامي والحضارة٢	د. أحمد شلبي	النهضة المصرية	اسمـه
تاريخ الأمم والملوك	محمد بن جرير الطبري	الحسينية ــ مصورة	الطبري
تاريخ الخلفاء	السيوطي جلال الدين عبد الرحمن	النهضـة	اسمـه
تاريخ الدولة العربية	يوليوس فلهاوزن ــ مترجم	لجنة التأليف والنشر	الدولة العربية
تاريخ العرب في الاسلام	محمد عزة دروزة	المكتبة العصرية	اسمـه
تاريخ عمر بن الخطاب	أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي	محمد علي صبيح	اسمـه
التاريخ الكبير	أبو القاسم علي بن الحسن بن عساكر	روضة الشام	ابن عساكر
تاريخ مسلمي أسبانيا	رينهات دوزي ــ مترجم	دار المعارف	اسمـه
التنبيه والاشراف	علي بن الحسين المسعودي	دار التراث	اسمـه

ج

الجامع الصحيح	محمد بن اسماعيل البخاري	مطابع الشعب	صحيح البخاري
الجامع الصغير	جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي	مصطفى الحلبي	اسمه
جمهرة رسائل العرب	أحمد زكي صفوت	مصطفى الحلبي	اسمه

ح

حلية الاولياء وطبقات الاصفياء	ابو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني	السعادة	الحلية
حياة الحيوان	كمال الدين الدميري	الأدبية	اسمه

خ

خامس الراشدين	د. أحمد الشرباصي	الشعب	اسمه
الخراج للقرشي	يحيى بن آدم القرشي	المطبعة السلفية	اسمه
الخراج لأبي يوسف	القاضي يعقوب بن ابراهيم	المطبعة السلفية	اسمه
الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية	د. ضياء الدين الريس	سجل العرب	اسمه
الخليفة الزاهد	عبد العزيز سيد الأهل	عبد الحميد حنفي	اسمه

د

دراسات في تاريخ الأمويين	د. عبد الفتاح شحادة	زهران	اسمه

ر

رجال الفكر والدعوة في الاسلام	أبو الحسن علي الحسني الندوي		رجال الفكر والدعوة

س

السيادة العربية والشيعة	فان فلوتن ــ مترجم	النهضة المصرية	السيادة العربية
السياسة والاقتصاد ٢	د. أحمد شلبي	النهضة المصرية	اسمه
سيرة عمر بن عبد العزيز	عبد الرحمن بن علي ــ ابن الجوزي	المؤيد	ابن الجوزي
سيرة عمر بن عبد العزيز	عبد الله بن عبد الحكم	الاعتماد	ابن عبد الحكم

ش

شرح ثلاثيات مسند الامام أحمد	الشيخ محمد السفاريني	المكتب الاسلامي	اسمه

ص

صفة الصفوة	ابو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي	الاصيل ــ حلب	اسمه

ط

الطبقات الكبرى	محمد بن سعد	دار التحرير	الطبقات

ع

عبد الملك بن مروان	د. ضياء الدين الريس	سجل العرب	اسمه
العقد الفريد	أحمد بن محمد بن عبد ربه	النهضة المصرية	اسمه
عيون الأخبار	محمد بن عبد الله بن مسلم ابن قتيبة		اسمه

ف

فتوح البلدان	أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري	لجنة البيان العربي	اسمه
فتوح مصر وأخبارها	عبد الرحمن بن عبد الله بن الحكم	مطبعة برايل ــ ليدن	فتوح مصر
فتوح مصر وأخبارها	عبد الرحمن بن عبد الله بن الحكم	لجنة البيان العربي	فتوح مصر
فوات الوفيات	محمد بن شاكر الكتبي		اسمه

ق

القاموس المحيط	محمد بن يعقوب الفيروز بادي	الحسينية	اسمه

ك

الكامل في التاريخ	ابن الاثير	دار صادر ودار بيروت	اسمه
الكامل	أبو العباس المبرد محمد بن يزيد	مصطفى الحلبي	الكامل في الادب أو الكامل للمبرد

م

المحاسن والمساوىء	البيهقي	نهضة مصر	اسمه
محاضرات في النظام المال،	د. محمد كمال الجرف	كلية الشريعة والقانون	النظام المالي الاسلامي
مختصر صحيح مسلم	زكي الدين عبد العظيم المنذري	الدار الكويتية	اسمه
مروج الذهب	علي بن الحسين المسعودي	دار الفكر	اسمه
المسالك والممالك	عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبة	برايل	اسمه
المعارف	الثعالبي		اسمه
مقدمة ابن خلدون	عبد الرحمن بن محمد	عبد الرحمن محمد	المقدمة
ملامح الانقلاب الاسلامي	د. عماد الدين خليل	الدار العلمية	اسمه

ن

النجوم الزاهرة	جمال الدين يوسف تغري بردى	دار الكتب المصرية ـ مصورة	اسمه
النزاع والتخاصم	أحمد بن علي المقريزي	الإبراهيمية	اسمه
النظام المالي الاسلامي، المقارن	د. بدوي عبد اللطيف عوض	المجلس الأعلى للشئون الاسلامية	اسمه
النظام المالي في الاسلام	د. عبد الخالق النواوي	الأنجلو المصرية	اسمه
النظم الاسلامية	د. ابراهيم أحمد العدوي	الأنجلو	اسمه

و

الوزراء والكتاب	أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري	مصطفى الحلبي	اسمه
الوسيط في الادب العربي، وتاريخه	أحمد الاسكندري والعنانى	المعارف	الوسيط
الوليد بن عبد الملك	د. سيدة الكاشف	سلسلة أعلام العرب	اسمه

الفهـرســـت

الموضوع	الصفحة
الشعـــار	٥
الاهـــداء	٧
المقدمـــة	٩
الباب الأول: تمهيد وتحديد	١٣
الفصل الأول: اضواء على عمر بن عبد العزيز	١٣
المبحث الأول: عمر بن عبد العزيز ترجمة ونسب	١٣
المبحث الثاني: عمر بن عبد العزيز تربية وأخلاق	١٩
المبحث الثالث: عمر بن عبد العزيز جاه وسلطان	٣١
المبحث الرابع: عمر بن عبد العزيز والتركة المثقلة	٤٩
الفصل الثاني: الدولة قبل وفي عهد عمر	٥٢
المبحث الأول: الدولة العربية الإسلامية في أقصى اتساعها	٥٢
المبحث الثاني: الدولة الإسلامية قبيل عهد عمر سياسة واقتصادا	٥٦
المبحث الثالث: أثر سياسة الدولة في المجتمع وعودة الجاهلية	٧٦
المبحث الرابع: كيف وصل المجدد	٩١
الفصل الثالث: ولايـــة وأمانـــة	٩٦
المبحث الأول: من أين يبدأ عمر؟	٩٦
المبحث الثاني: القدوة العملية وآثارها	١٠٠
المبحث الثالث: المسئولية في نظر عمر وواجب المسئولين	١٠٤
المبحث الرابع: وضوح الرؤية ــ الاتباع لا الابتداع	١١٤
المبحث الخامس: لماذا اختار عمر هذا الطريق؟	١١٨
المبحث السادس: الفرق بين نظام الاسلام والنظم الوضعية	١٢١
الباب الثاني: بدء التنفيذ ومراحله	١٢٥
الفصل الأول: مع النفس والأهل والولد	١٢٥
المبحث الأول: مع النفس	١٢٥
المبحث الثاني: مع الاهل	١٣٦
المبحث الثالث: مع الولد	١٤١

المبحث الرابع: الزهد الحقيقي عفة مع قدرة ١٤٥
المبحث الخامس: ورع مثالي ١٥٤
الفصل الثاني: مع بني أمية ١٦٣
المبحث الأول: مكانة بني أمية واستغلالهم بيت مال المسلمين ١٦٣
المبحث الثاني: محاولات مع بني أمية ١٦٧
المبحث الثالث: بنو أمية في وجه عمر ١٧٧
الفصل الثالث: طريق عمر للوصول للحق ١٨٨
المبحث الأول: سياسة متزنة ١٨٨
المبحث الثاني: نقد ورد ١٩٤
المبحث الثالث: التدرج في التشريع من سنة الله في خلقه ١٩٩
المبحث الرابع: مع العمال ٢٠٣
الباب الثالث: مع بيت مال المسلمين ٢١٨
الفصل الأول: نبذة تاريخية ٢١٨
المبحث الأول: بيت المال في صدر الإسلام ٢١٨
المبحث الثاني: بيت المال في عهد بني أمية قبل عمر ٢٣٠
الفصل الثاني: أمام بيت المال ٢٣٥
المبحث الأول: عمر بن عبد العزيز أمام بيت المال ٢٣٥
المبحث الثاني: رد المظالم وطريقة عمر فيها ٢٣٩
المبحث الثالث: بعض إصلاحاته الداخلية ٢٤٧
الفصل الثالث: سد مداخل الحرام ٢٦٠
المبحث الأول: الضرائب الظالمة ٢٦٠
المبحث الثاني: الهداية لا الجباية ٢٨٣
الفصل الرابع: سد ثغرات التسرب ٢٩٠
المبحث الأول: ثغرات التسرب قبل عهد عمر ٢٩٠
المبحث الثاني: القضاء على مظاهر السرف والترف في الدولة ٢٩٧
المبحث الثالث؛ القضاء على الفتن الداخلية وإيقاف الحروب الخارجية ٣٠٨
المبحث الرابع: لا مال إلا للمستحق بكتاب الله ٣٢٨
المبحث الخامس: الأمن والحرية ٣٣٤
الباب الرابع: أثر سياسة عمر بن عبد العزيز في بيت المال والأمة ٣٤٨
الفصل الأول: ماذا فعل عمر بالمال ٣٤٨

المبحث الأول: السير على خطوات عمر الأول ٣٤٨
المبحث الثاني: العطـاء ٣٥١
المبحث الثالث: الصدقة ومعيار الحاجة عند عمر ٣٧٣
الفصل الثاني: أثر سياسة عمر المالية في خزانة الدولة ٣٨٦
المبحث الأول: هل سببت سياسة عمر المالية خرابا لبيت المال؟ ٣٨٦
المبحث الثاني: فرى باطلة ودعاوى متناقضة .....
وأسلوب المستشرقين في تقدير الأعمال ٣٩٠
المبحث الثالث: ردود دامغـة ٤٠٠
الفصل الثالث: وجـه الحـق ٤١٦
المبحث الأول: أساس الادعاءات ٤١٦
المبحث الثاني: الموازنة العادلة أو تقديرات عمر الحقة ٤٢٢
المبحث الثالث: الرفاه في عهد عمر ٤٣٢
الباب الخامس: من أحكام عمر ٤٣٨
الفصل الأول: الجزيـة والخـراج ٤٣٨
المبحث الأول: نبذة عن الجزية والخراج قبل عمر بن عبد العزيز ٤٣٨
المبحث الثاني: الجزية والخراج بين عمر بن عبد العزيز والحجاج ٤٨٣
الفصل الثاني: مع أهـل الذمـة ٥٣١
المبحث الأول: أهل الذمة والحكومات الأول قبل عمر ٥٣١
المبحث الثاني: عمر بن عبد العزيز وأهل الذمة ٥٣٩
المبحث الثالث: من أحكام عمر المالية ٥٥٦
الخاتمـة ٥٧٠
آثـار ونتائج ٥٧٠
الملاحـق .....
١ ــ ملحق ثلاثة نماذج من كتب عمر بن عبد العزيز ٥٧٧
١ ــ كتاب شامل لعمر بن عبد العزيز ٥٧٧
٢ ــ كتاب إلى أمراء الأجناد ٥٨٣
٣ ــ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ٥٨٥
جريـدة المراجـع ٥٨٨
الفهـرست ٥٩٣